

المملكة العربية السعودية
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
قسم الدراسات العليا الشرعية
فرع العقيدة

المجتمع الإسلامي المعاصر في صورته الواقعية وكيف ينبغي أن يكون...

رسالة مقدمة
لنيل درجة الدكتوراه

إعداد الطالب
خضر مصطفى النيجيري

إشراف
فضيلة الشيخ محمد قطب

١٤٠٤/١٤٠٥هـ ١٩٨٤/١٩٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

" كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ... "

سورة آل عمران " ١١٠ "

وقال تعالى :

وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ..

سورة النور " ٥٥ "

عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها وإن آخرها سيصيبهم بلاء وأمور ينكرونها ، تجيء فتنة فيدفع بعضها لبعض ، فتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف ثم تجيء فيقول هذه مهلكتي ثم تنكشف فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ... الحديث

رواه النسائي

الفهـــرس

الموضوع		الصفحـــة

تابع الفهرس

الموضوع	الموضوع	الصفحة

تابع الفهرس

الموضوع	الصفحة

((المقدمــــة))

الحمد لله الذى بعث رسوله محمدا بالهدى ودين الحق وأنزل معه الكتاب ليخرج الناس من الظلمات الى النور ويهديهم الى الصراط المستقيم والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين وأرسله كافة للناس بشيرا ونذيرا فبلغ الرسالة وأدى الامانة وجاهد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين وعلى آله الطيبين وصحابته الكرام الهداة المهديين .. وبعد ،

فقد أعظم الله المنة على الامة الاسلامية بأن شرفها وأكرمها باكمل دين وأقوم شريعة وجعل رسالة نبيها باقية خالدة فكانت الامة الوسط الرائدة المهيمنة على البشرية تؤمن بالله وحده لا شريك له وتجاهد فى سبيله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدعو الى الخير والصلاح وتقوم "بالخلافة" عن الله فى الارض بتنفيذ ارادته واقامة الحق والعدل وتوجيه البشرية الى تحقيق العبودية له وحده فى كافة شئون الحياة .

ولقد ارتفعت الامة الاسلامية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين الى مستوى هذا الدين فى عقيدته وعبادته وارتقت الى قمة سامقة فى التطبيق العملى لتعاليم هذا الدين وقيمه وتوجيهاته فى واقع حياتها . ولقد كان الواحد من صحابة رسول الله رضوان الله عليهم يمثل حقيقة هذا الدين فى فكره وأخلاقه وسلوكه العملى فى الحياة ، وكان هؤلاء المسلمون الاوائل على مستوى رفيع من الدين وادراك تام لمفهومه الصحيح الشامل واستعداد حقيقى لتطبيقه فى واقع حياتهم . وقد منحوا هذا الدين كل وجودهم وعاشوا بكل وجودهم فى ظل هدى الله ومنهجه مخلصين له الدين محققين له العبودية مجاهدين فى سبيله حق الجهاد ، وقد استعلوا بقوة الايمان بالله تعالى على كل أوضاع الارض وأصبحوا ينظرون اليها على أنها جاهلية مترديه قد أنقذهم الله من أوضارها وأخرجهم من ظلماتها الى نور الحق المبين الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كانوا يخافون أن يعودوا الى ما كانوا عليه قبل الاسلام

من جاهلية وشر ، بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة الاسلام الذى هو روح حياتهم ومنبع قوتهم وعزتهم .

هكذا كان الرعيل الاول من المؤمنين مثلا أعلى فى قوة الايمان بالله والتقوى والصلاح والسير على هدى الله ومنهجه واقامة الدين له واخلاص الوجه له والتمسك بتعاليم الدين وقيمه وتوجيهاته يطبقونها فى جميع شئون حياتهم الخاصة والعامة ويقيمون بناء مجتمعهم على أسس الدين القويمة ، وكان يرسى دعائم الحق والعدل فى الارض ، وينشر الخير والفضيلة بين الناس، حتى جعل من عهده نموذجا حيا ممتازا نادرا لا يزال مثلا اعلى للاجيال الاسلامية بعده تحاول الارتفاع الى مستواه او الاقتراب منه . وبعد هذه الفترة المشرقة الوضاءة من تاريخ الامة الاسلامية أتت عليها عهود ومراحل كانت ترتفع حينا الى مستوى هذا الدين فتصعد الى القمة العليا او ترتقى الى منازل قريبة منها وفى أحيان أخرى كانت تنزل قليلا أو كثيرا عن مستوى هذا الدين فتنحدر وتهبط بقدر ذلك عن بلوغ القمة السامقة .

لقد بدأ الانحراف فى حياة الامة الاسلامية قليلا وبصورة طفيفة لا يكاد يظهر ، ولم يكن يشكل خطرا كبيرا فى بادئ الامر لانه كان محصورا فى تصرفات الحكام المسلمين . ثم أخذ هذا الانحراف فى الاتساع والانتشار على مر الاجيال والعهود فوقعت انحرافات متعددة فى مجال سياسة الحكم والمال وفى الناحية الاجتماعية والاخلاقية ، ولكنها رغم ذلك ظلت انحرافات شخصية عملية أملتها الاهواء والاطماع وأسهمت فى ارساء قوائمها فى المجتمع المسلم عوامل متعددة عرضت لها فى ثنايا هذا البحث .

وأما الامة الاسلامية فى مجموعها فكانت سليمة مستقيمة فى سلوكها ، وتصرفاتها واخلاقها ولم تصب بعدوى الادواء الا فئة قليلة كانت تتبع الحكام والامراء المنحرفين وتمد لهم فى الارض . وقد ظل الدين قويا فى نفوس افراد المجتمع المسلم وفى واقع حياتهم وظلت الشريعة سليمة محفوظة

وبقيت منهجا قويما ثابتا ترتقي اليه الامة وتقيم عليه شئون مجتمعها كلها في فترات اليقظة والوعي والقوة حين تهب عليها نفحات عطرة من الايمان والتقوى والصلاح وكذلك ظلت الامة تزن واقعها بميزان الشريعة وتنظر الى الانحراف مهما اطرد وانتشر على انه انحراف ولم يخل عصر من عصور الاسلام من علماء أفذاذ يدعون الى الله ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويصححون ما انحرف فيه الناس عن دين الله ويصلحون ما فسد من احوالهم ويردونهم الى الاصل الثابت المبين والمنبع الصافي الذى تكفل الله تعالى بحفظه وفيه الخير كل الخير للبشرية ، ثم الى جانب ذلك ظلت الامة الاسلامية قرونا عديدة تقود البشرية وتبسط سلطانها في انحاء العالم ؛ وتتبوأ مركز الامة الوسط بين العالمين رغم ما وقع في حياتها من انحرافات منذ العهد الاموى استمرت بل ازدادت على طول العهد العباسي .

وفي خلال العهدين الاموى والعباسي والعهد العباسي بوجه خاص نبتت بذور انحرافات متعددة وظهرت تشويهات خطيرة للتصورات والمفاهيم الاسلامية حيث داخلتها عناصر غريبة عنها واختلطت بغيرها حتى فقدت جوهرها واصالتها وقوتها وحيويتها فاصيب الاسلام في عقائده وقيمه واخلاقياته واخذت الانحرافات والتشويهات تتسرب الى أذهان الناس وتنطبع على واقع حياتهم حتى جاءت عصور الانحطاط والتدني التي بلغ فيها هذا الوضع منتهى الخطورة حين تحول الدين في أذهان الناس وفي واقع حياتهم الى مجموعة من العقائد الباطلة والتصورات الخاطئة والبدع والخرافات والعادات والتقاليد الفاسدة حتى أصبح هذا الدين وكأنه دين آخر غير الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى ، ولم يعد يؤتي ثمراته المرجوة ولم يعد يحقق لهؤلاء المسلمين النتائج العظيمة التي حققها للاولين الذين حفظوه غضا طريا ومثلوه على حقيقته بمفهومه الصحيح الشامل .

وقد أخذت الامة الاسلامية - منذ وقع الانحراف في حياتها - تفقد من ذاتيتها واصالتها وقوتها وعزتها بمقدار ما تفقد من هذا الدين وما تنحرف عن

عن جادته ، وما يصيب عقائده وتصوراته وقيمه من تشويه وانحسار وتقلص في أذهانها وفي واقع حياتها . وهكذا أخذ شأن هذه الامة في الانحطاط واخذت حضارتها في الذبول وأصيبت بالضعف والتخلف والوهن والجمود في شتى مجالات الحياة وبخاصة في مجال السياسة والاجتماع ومجال النشاط الاقتصادي ومجال القوة الحربية والصناعية ومجال العلوم بشتى أنواعها حتى فقدت قوتها وسلطانها ولم تعد قادرة على القيام بدورها في قيادة البشرية وريادتها . وقد استمرت حالة التدهور والانحطاط عدة قرون تخللتها فترات يقظة وقوة حتى جاءت أواخر العهد العثماني حين بلغ المسلمون قرارة الضعف والوهن فهجمت عليهم قوى أوربا الصليبية واحتلت بلادهم وتوزعت جيوشها في اقطارها وذاق المسلمون منها صنوف الذل والهوان والاستعباد والظلم والاستغلال ورزحوا تحت نير حكم الاستعمار الاوربي الصليبي ردحا غير يسير من الزمن . وفي خلال هذه الفترة العصيبة التي تمتد من أوائل القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) حتى النصف الاول من القرن الرابع عشر الهجري (القرن العشرين الميلادي) وقعت في انحاء العالم الاسلامي حوادث جسيمة وقامت ظروف قاسية تعرضت الامة الاسلامية خلالها لصدمات عنيفة وهزات شديدة زلزلت كيانها وافقدتها وعيها وصوابها فاصيبت بقابلية الخنوع والذوبان والاستعباد من شدة الصدمة وهولها ووقع ضربات العدو وغلبته وبفقدان الامة ذاتيتها وضياع شخصيتها وشدة انبهارها بما عند الامم الغالبة . وقد كان استعداد الامة الذاتي وقابليتها للاستعباد والذوبان اكبر عامل من العوامل التي أسهمت في نجاح الحرب النفسية الشرسة التي شنتها الامم الغالبة عليها ، وقد وضعت هذه القوى الصليبية الحاقدة خططا محكمة مدروسة لتحطيم مقومات وجود هذه الامة وأسس اصالتها وعوامل قوتها وعزتها وبذلت في سبيل تنفيذ هذه الخطط جهودا مضنية في حرب ضارية واعمال كيد ومكر وخديعة . فقد كانت آثار ذلك في حياة الامة الاسلامية خلال هذا العصر بالذات سيئة للغاية حيث نقض بناء المجتمع المسلم ... حجرا حجرا وانتقضت عرى الاسلام عروة عروة ونحيت الشريعة كلية من مجال الحكم والسياسة والاقتصاد وأبعد الدين عن الهيمنة على مجال الاجتماع والاخلاق والفكر والثقافة والتعليم ونبذت

القيم والمبادئ والتوجيهات الاسلامية واستبدلت بها نظم الغرب ومذاهبه وأفكاره ومناهجه . وهكذا بعدت الشقة بين الاسلام والمسلمين حتى أصبح هذا الدين لا يشغل فى حياتهم العملية وفى شئون مجتمعهم الا حيزا صغيرا لا يكاد يتجاوز مجال الاحوال الشخصية فى احسن الحالات .

وهكذا وقع فى حياة هذه الامة ما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم حين قال : " لينقضن عرى الاسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة(١) " . وقال : لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟(٢) .

وتظهر أهمية هذه الدراسة من حيث إنها تحاول أن تعرض الصورة الصحيحة للحياة الاسلامية التى تحققت فى عالم الواقع فى عصر الاسلام الذهبى وتبين عناصر تكوين الامة الاسلامية ومقومات حياتها الاساسية واسس بناء المجتمع المسلم الاول الذى بلغ الذروة فى تمثيل هذا الدين عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة ثم تعرض الصورة الحقيقية لواقع المجتمع الاسلامى المعاصر ليعلم مدى مطابقته لصورة الحياة الاسلامية الصحيحة او مخالفته لها وذلك فى محاولة ربط حاضر هذه الامة ومستقبلها بماضيها المجيد المشرف واصلاح ما وقع فى حياتها من انحرافات تصورية وسلوكية متعددة حتى يعود لها مجدها وعزتها وترتقى الى المكانة اللائقة بها فى العالمين .

وتتجلى لنا هذه الاهمية اذا علمنا أن فئة من المبشرين والمستشرقين والباحثين الغربيين على اختلاف نزعاتهم ودوافعهم ومذاهبهم قد أولوا دراسة

---

(١) رواه الامام أحمد فى مسنده ٥/٢٥١ عن أبى أمامة .
(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الانبياء باب ما ذكر عن بنى اسرائيل ٦/٤٨٥ ، عن أبى سعيد الخدرى .

المجتمعات الاسلامية والشعوب المسلمة عناية كبيرة واهتماما بالغا ، وقد نهضوا منذ فترة بعيدة لتتبع أحوال الشعوب الاسلامية ودراسة اوضاعها المختلفة وكتبوا في ذلك بحوثا ورسائل وكتبا تحتوى على معلومات مستفيضة قدموها لدولهم ولدوائر الاستعمار وهيئات الارساليات التبشيرية المختلفة والجامعات خدمة لمصالح أممهم كل حسب اهدافها السياسية والاقتصادية والعسكرية والصليبية ، ولتتعرف امم الغرب على عوامل قوة المسلمين فتعمل على تحطيمها أو اضعافها في نفوسهم وتجريدهم منها وتقف على عوامل ضعفهم وانهيارهم فتعمل على بقائها وازديادها وانتشارها ثم تخلق الى جانبها عوامل اخرى تزيدهم ضعفا الى ضعفهم ووهنا على وهنهم حتى تتمكن من فرض سيطرتها عليهم وبسط نفوذها في انحاء بلادهم وتحويلهم عن دينهم وعقيدتهم وتوجيههم وجهة غربية مادية لادينية وسوقهم وراءها أذلاء مقهورين فترة طويلة من الزمن .

وكذلك يظهر لنا ما لهذه الدراسة من أهمية اذا علمنا اننا نحن المسلمين - مع الأسف الشديد - أقل الناس عناية واهتماما بدراسة احوال مجتمعنا المعاصر، واقلهم معرفة بواقعنا على حقيقته في ميزان ديننا وعقيدته وقيمه واخلاقياته رغم اننا احوج الناس الى مثل هذه الدراسة لما لها من علاقة وثيقة بحفظ كياننا واصالتنا وقوتنا وعزتنا واصلاح دنيانا واخرتنا ولما في اهمالنا لها وتقصيرنا فيها من اضاعة لديننا وعقيدتنا ، وحضارتنا وثقافتنا ، وحاضرنا ومستقبلنا . ولابد من عرض الحاضر على قيم الدين الاصيلة ، ولابد من الالمام بماضي الامة المجيد ، من اجل اصلاح الحاضر وبناء مستقبل افضل على الاسس الركيزة التي اقام عليها المسلمون الاوائل بناء مجتمعهم حتى كان مثلا أعلى في الخير والصلاح في تاريخ هذه الأمة .

وأما منهجي في هذا البحث فقد اتجهت الى دراسة واقع حياة الامة الاسلامية في عهودها وعصورها المختلفة عن طريق عرض صورة هذا الواقع على اسس العقيدة الاسلامية ومبادئ هذا الدين وقيمه وتوجيهاته بدءا بعهد الجيل الاول المثالي ، فالعهد الاموي ثم العباسي ثم العثماني حتى انتهيت الى القرنين الاخيرين .

وقد جعلت محور الدراسة للمجتمع المسلم الاول هو تسليط الاضواء على عناصر تكوين هذا الجيل واسس بناء مجتمعه مع عرض نماذج عملية ممتازة من واقع المسلمين الاوائل فى جميع مجالات الحياة حتى تكون امامنا صورة صحيحة واضحة للحياة الاسلامية العملية التى اقامها ذلك الجيل الفريد فى مجتمعه وذلك الى جانب معرفتنا للاسس والقيم والتوجيهات الاسلامية فى بناء المجتمع القويم وتحقيق الحياة الصالحة . وكذلك اتجهت فى دراستى لواقع حياة هذه الامة بعد ذلك وفى عصورها المختلفة الى عرض هذا الواقع على الاسلام ووزنه بميزانه فى عقيدته ومبادئه وقيمه مبينا ماوقع فى حياة هذه الامة عبر تاريخها الطويل من انحرافات وتشويهات ومشكلات وازمات سواء من الناحية التصورية اوناحية السلوك العملى حتى انتهيت الى العصر الحديث الذى لم يبق فيه من الاسلام عند كثير ممن يسمون انفسهم مسلمين الا تلك الصورة الهزيلة المهلهلة والتصورات الخاطئة التى يتشدقون بها على أنها الدين الحق وهى ليست من الدين فى شئ او هى انحراف عن حقيقة الدين وجادة الطريق .

على اننى فى دراستى هذه للمجتمع الاسلامى المعاصر لم اتناول دراسة احوال الشعوب الاسلامية من زاوية التقسيمات السياسية القائمة حاليا فاعرض لكل دولة من الدول الاسلامية وأدرس اوضاعها المختلفة ومشكلاتها واحوال سكانها وشئون حياتها المختلفة وقضاياها الخاصة وغير ذلك مما هو مادة دراسة حاضر العالم الاسلامى وكذلك لم أجعل هذا البحث دراسة متخصصة فى عرض قضايا المسلمين العامة والظواهر الاجتماعية المشتركة بين الشعوب الاسلامية والازمات السياسية والاقتصادية القائمة فى هذا العصر فى صورتها التفصيلية الشاملة مما هو شأن مادة " المجتمع الاسلامى المعاصر " التى تدرس حاليا فى بعض جامعات الدول العربية . ولكن دراستى هذه للمجتمع الاسلامى المعاصر أشبه ماتكون بالتشخيص العام الشامل لمعرفة الامراض والافات التى تنتاب الامة

وتوضيح أسبابها وبيان اعراضها ثم وصف العلاج . ولم ألجأ عند عرض الاحوال والاوضاع الى التفصيلات الدقيقة ولكننى اكتفيت بوضع الخطوط العريضة وبيان الصورة العامة الشاملة مع عرض بعض نماذج عملية من واقع الامة الاسلامية من تركيا ومصر لمركز هذين البلدين واهميتهما التاريخية وبخاصة عند غزو اوربا الصليبية للعالم الاسلامى خلال القرنين الاخيرين .

وبما أن هذه الدراسة تلمس الجانب العقدى التصورى والجانب السلوكى العملى العام من حياة الامة الاسلامية فاننى أهيب بالمفكرين والباحثين المسلمين من مختلف الاختصاصات للقيام بواجبهم الدينى فى دراسة واقع المجتمع الاسلامى المعاصر دراسة تفصيلية دقيقة شاملة فى شتى ميادين الحياة وبخاصة فى مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع على ضوء هذا المنهج الذى اتبعته فى هذه الدراسة . وحبذا لو قامت الجامعات بكلياتها المختلفة بمثل هذا العمل الكبير كل حسب اختصاصها وذلك لاصلاح حال هذه الامة والاسهام فى بناء نهضة حضارية اسلامية قوية تعيد للامة مكانتها وتحقق الخير والصلاح والسعادة للبشرية جمعاء .

هذا واننى على علم منذ اللحظة الاولى من اختيارى لهذا الموضوع وقبل أن اخوض فى عباب بحره الخضم أن مهمتى ليست بيسيرة وأن على أن أغوص فى اعماق تاريخ هذه الامة منذ فجر الاسلام حتى يومنا هذا ، بل وأن أجيل النظر فى فترة ماقبل قيام دعوة الاسلام لرؤية صورة الحياة الجاهلية ومظاهرها واحوال الناس فى مختلف مجالات الحياة وذلك للوقوف على مدى التغيير الجذرى الذى أحدثه الاسلام فى حياة الناس، وان قصدى فى هذه الدراسة ليس هو مجرد السرد التاريخى بقدر ماهو استعراض لواقع الامة عبر تاريخها الطويل لمعرفة مدى مطابقة صورة حياتها لهدى الاسلام ومبادئه وقيمه ومدى مخالفتها لذلك ، وللوقوف على عوامل القوة والرفعة والصمود فى صورة الحياة الصحيحة وعوامل الضعف والانحدار والهبوط فى صورة الحياة المنحرفة . ولقد علمت ان هذا

الموضوع واسع الآفاق مترامي الاطراف تستعصي الاحاطة بجميع جوانبه ويصعب على الباحث استقصاء جميع مجالاته ولكن الذى حفزنى الى هذا الاختيار وهون على صعوبته هو مالهذا الموضوع من أهمية كبيرة فى دفع عجلة العمل الاسلامى الى الامام وفى سبيل اصلاح حال هذه الامة ورفع شأنها وتحقيق الخير والصلاح لها . وقد بذلت اقصى ما أملك من مجهود فى معالجة هذا الموضوع فان وفقت فى هذا العمل فذلك بفضل الله ونعمته وتوفيقه وان ظهر فيه قصور أوتقصير فذلك من الضعف البشرى الذى لا يعصم الانسان منه الا الله تعالى .

وقد قسمت هذه الرسالة الى أربعة أبواب رئيسية تتضمن عدة فصول ومباحث ، قدمت لها بدراسة تمهيدية شرحت فيها حقيقة الجاهلية ومظاهرها ثم استعرضت الحالة الدينية فى بلاد العرب قبل ظهور دعوة الاسلام .

وأما الباب الاول فموضوعه المجتمع الاسلامى الأول المثالى وهو مقسم الى فصلين كبيرين مهدت لهما بحديث عن نشأة الجيل الاول والظروف القاسية التى واجهها عند بدء الدعوة .

وأما الفصل الاول فهو عناصر ومقومات تكوين الجيل الأول وهو يحتوى على ثلاثة مباحث ، تحدثت فى المبحث الاول عن العنصر الأول وهو القرآن الكريم وعرضت لاهم الموضوعات التى عالجها القرآن فى تنشئة الجيل الاول وتربيته فكريا واخلاقيا وسلوكيا ، وقد فصلت القول حول موضوع عقيدة الالوهية والايمان باليوم الاخر والتصور الاسلامى لحقيقة الكون والحياة والانسان وموضوع التشريعات والنظم الاسلامية والقيم والتوجيهات الاخلاقية . وفى المبحث الثانى تحدثت عن العنصر الثانى من عناصر التكوين وهو السنة النبوية المطهرة وبينت اثرها البالغ فى تنشئة هذا الجيل . ثم تناولت الحديث فى المبحث الثالث عن العنصر الثالث من هذه العناصر وهو المثل الاعلى والاسوة الحسنة فى شخصية الرسول القدوة

وقد بينت أن هذا الرسول العظيم هو الصورة العملية الكاملة المجسمة للاسلام في عقيدته وعباداته واخلاقياته وهو القدوة الحسنة الحية الماثلة امام هذا الجيل فاتخذه مثله الاعلى يقتدي به في سيرته ويتربى على يديه ويتلقى منه التوجيهات والارشادات في كل شأن من شئون حياته .

وأما الفصل الثاني فهو أسس بناء المجتمع الاسلامي الاول ، وهو يتضمن أربعة مباحث . تحدثت في المبحث الاول عن العقيدة الاسلامية وفي المبحث الثاني تحدثت عن العدل الرباني المتمثل في مبادئ الاخوة والمساواة والتحرر المطلق من جميع القيم والاعتبارات لتحقيق العبودية لله تعالى . وفي المبحث الثالث تحدثت عن التكافل الاجتماعي . وفي المبحث الرابع تحدثت عن سياسة الحكم ، وسياسة المال وقد فصلت القول في بيان القيم والمبادئ والتوجيهات الاسلامية العامة في بناء مجتمع قويم يتحقق فيه الخير والصلاح والسعادة للناس ولم أكتف بالحديث عن هذا الجانب النظري من الموضوع بل استعرضت واقع حياة الجيل الاول ومثلت عند نهاية كل بحث من المباحث الاربعة بنماذج حية ممتازة من التطبيق العملي لهذه القيم والمبادئ والتوجيهات في حياة المسلمين الاوائل .

وأما الباب الثاني فهو خط الانحراف التاريخي في حياة الامة الاسلامية ، ومجالات الانحراف عن جادة الاسلام في التاريخ الحديث واسبابه والاثار السيئة التي ترتبت على ذلك في حياة هذه الامة . ويحتوي هذا الباب على ثلاثة فصول رئيسية . اما الفصل الاول فهو خط الانحراف التاريخي في حياة الامة الاسلامية وقد قسمته الى ثلاث مراحل تاريخية بارزة هي العهد الاموي والعهد العباسي والعهد العثماني وقد بينت في الحديث عن هذه العهود الثلاثة متى بدأ الانحراف في الحياة الاسلامية وكيف بدأ وماهي الاسباب التي أدت الى ظهوره ثم كيف أخذ الانحراف في التوسع والانتشار والتمدد على مر الاجيال

والعصور حتى بعدت الشقة بين الاسلام والمسلمين في القرون الاخيرة .

وأما الفصل الثاني فهو مجالات الانحراف عن جادة الاسلام في التاريخ الحديث واسباب ذلك . وهو يحتوى على خمسة مباحث تناولت فيها دراسة التصورات والمفاهيم التي انحرف فيها المسلمون. وفي المبحث الاول تحدثت عن مفهوم عقيدة الالوهية ، وفي المبحث الثاني تحدثت عن مفهوم العبادة ويندرج تحته مفهوم الدينا والاخرة. وفي المبحث الثالث تحدثت عن مفهوم عقيدة القضاء والقدر ثم تحدثت في المبحث الرابع عن مفهوم الجهاد واما المبحث الخامس فقد تحدثت فيه عن اقفال باب الاجتهاد . وقد فصلت القول في ذلك كله ومثلت للانحرافات التي وقعت في هذه المفاهيم من واقع حياة المسلمين في القرون الاخيرة .

واما الفصل الثالث وهو يحتوى على مبحثين فقد تحدثت في اولهما عن الاثار السيئة التي ترتبت على هذه الانحرافات التصورية في ناحية السلوك العملي من حياة المسلمين في القرون الاخيرة من فساد سياسة الحكم والمال وبعدها عن هدى الاسلام وروحه وفساد الاخلاق وانتشار العقائد الفاسدة والبدع والخرافات ووقوع خلافات مذهبية ونزاعات طائفية حادة بين المسلمين ، وتحول الدين في نفوس كثير من الناس الى مجموعة تقاليد وعادات خالية من الروح وتركهم الأخذ بالاسباب وقعودهم عن العمل والانتاج بدعوى التوكل على الله والزهد عن متاع الحياة وتركهم للجهاد في سبيل الله والانصراف عنه الى أمور فردية واخرى ثانوية واصابة الامة بالجمود الفكرى والعلمي والتخلف الحضارى والضعف السياسي والاقتصادى والحربى مما أدى الى وقوع الامة تحت الاحتلال الاجنبي في نهاية الأمر.

وفي المبحث الثاني وهو وقوع العالم الاسلامي تحت الاحتلال الأجنبي تحدثت عن غزو الأمم الأوربية للعالم الإسلامي خلال القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) وبينت جيوش القوى الصليبية من

المستعمرين والمبشرين والمستشرقين الذين خاضوا غمار الحرب الضارية لتحطيم الاسلام والقضاء على سلطان المسلمين وتقويض قواعد بناء الحياة الاسلاميــة .
وفى حديثى عن الغزو الاوربى الصليبى لم أجعل محور الدراسة هو الجانــب التاريخى الصرف من جهود قوى الاستعمار وحركة التبشير والاستشراق فى كل بلد بلد من البلدان الاسلامية ولكننى اذ اعتبر غزو اوربا لبلاد المسلمين وتمكنها من فرض سيطرتها على الامة الاسلامية نتيجة انحراف هذه الامة عن دينها وما أدى اليه ذلك من ضعفها وتخلفها وانهيارها حتى تكالبت عليها الاعداء من كل صــوب ، فقد ركزت كل التركيز على شرح جهود القوى المعادية للامة واعمالها فى سبيــل تحقيق غاياتها بينت ان اكبر عامل من العوامل التى اسهمت فى نجاح جهــود الاعداء هو فقدان المسلمين لذاتيتهم واستعدادهم الذاتى للذوبان وتقبلهــم للعبودية والتبعية للامم الغالبة ثم شرحت ما نتج عن ذلك من آثار سيئة فى حيــاة المسلمين وبخاصة فى القرن الاخير .

وأما الباب الثالث فهو ردود الفعل للغزو الاجنبى وقيام حركات البعــث الاسلامى وهو يحتوى على فصلين رئيسيين / قدمت لهما بتمهيد موجز عن ردود الفعــل للغزو الاجنبى المتمثلة فى الاتجاهات الثلاثة الاتية :

أولا : الاتجاه الذى اعتنق الفلسفة التى قامت عليها الحضارة الغربيــة ودعا الى الارتماء فى أحضان الغرب والاخذ بمناهج الحياة الاوربية فى كــل مجالات الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وفى سياسة التعليــم والثقافة والفن والتقاليد والعادات .

ثانيا : الاتجاه الذى يدعو الى التمسك بالاسلام فى صورته المشوهة الممسوخة التى امتزج فيها الاصيل بالدخيل والسليم بالعليل والخالص بالمشوب واثرت فيها آفات الجمود والركود والانحراف عن حقيقة الاسلام ومفهومه الصحيح الشامل .

ثالثا : الاتجاه الذى تمثل فى حركات البعث الاسلامى التى قامت فــى المجتمع المسلم لاحياء قوة الاسلام واصلاح حالة الامة المتدهورة ورفع مستواهــا ومواجهة الغزو الفكرى الاوربى وفى فصلى هذا الباب تحدثت عــن

حركات البعث الاسلامي البارزة التي قامت في انحاء العالم الاسلامي خلال القرنين الاخيرين. واما في الفصل الاول وهو عن حركات البعث الاسلامي في القرن الثالث عشر الهجري ويحتوي على ثلاثة مباحث فقد تحدثت في المبحث الاول عن دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب التي ظهرت في بلاد نجد في اواخر القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) وهي تعتبر الحركة الرائدة في مجال احياء الحياة الاسلامية واصلاح حال الامة بعد سلسلة انحرافات وقعت خلال عصور الانحطاط. وفي المبحث الثاني تحدثت عن حركة الامام محمد بن علي السنوسي الكبير في ليبيا. وفي المبحث الثالث كان الحديث عن حركة الامام محمد احمد بن عبد الله المهدي في السودان.

واما الفصل الثاني فقد عرجت في مباحثه الثلاثة على الحديث عن الحركات الاسلامية البارزة التي قامت خلال القرن الرابع عشر الهجري (القرن العشرين الميلادي) ابتدأت بحركة الاخوان المسلمين بمصر فحركة الجماعة الاسلامية بباكستان ثم الحركات الاسلامية التي قامت في تركيا وايران واندونيسيا. وقد تناولت في دراستي لهذه الحركات شرح ظروف قيام كل حركة وبيان مبادئ دعوتها ومنهجها في العمل وأهدافها ومدى مابذلت من جهود في سبيل انجاح مهمتها الاصلاحية.

وأما الباب الرابع فهو طريق الخلاص مما تعانيه الامة الاسلامية ووسائل الاصلاح في سبيل استئناف حياة اسلامية صحيحة. وهو يحتوي على فصلين تحدثت في اولهما عن حاجة المسلمين اليوم الى الاسلام في صورته التطبيقية السليمة. واما الفصل الثاني فقد تناولت فيه شرح وسائل الاصلاح وابتدأت بتأكيد وجوب تعريف المسلمين اليوم بالاسلام من جديد وتوضيح حقائق هذا الدين وتصوراته ومفاهيمه لهم حتى يكونوا على معرفة حقة بدينهم ويكونوا على بصيرة من أمرهم ويدركوا تكاليف هذا الدين في نفوسهم وفي واقع حياتهم في مقابل مايحققه لهم من الخير العميم والعزة والتمكين والفوز والنجاة. وقد بينت ان سبيل ذلك ليس محصورا في المواعظ والخطب والدروس والمحاضرات الدينية كما يتبادر

الى أذهان كثير من الناس ولكنه يشمل جانب الفكر والثقافة والتعليم والاعلام والتربية العملية . وتحدثت عن وجوب اقامة اسس الفكر والثقافة على هدى الاسلام وتعاليمه وروحه واصلاح نظم التعليم ومناهجه وتقويم وسائل الاعلام المختلفة . وبينت الحاجة الماسة الى تنظيم برامج تربوية عملية شاملة لتكوين جيل جديد وتنشئته على الاصول الاسلامية الصحيحة . وقد بينت فى نهاية هذا الفصل أن العبء الأكبر فى مجال الاصلاح يقع على عاتق الدولة الاسلامية ان وجدت وإذا لم توجد فلابد من قيام جماعة مسلمة مجاهدة لتضطلع بهذه المهمة الجليلة لاقامة دين الله فى الارض وتحقيق مصالح الامة .

هذا وان الواجب على المسلمين ان يعلموا يقينا ان الوضع السيء المؤلم الذى يعيشونه اليوم فى انحاء العالم الاسلامى ليس هو الوضع السليم اللائق بهم فالاسلام ليس هو الضعف والتخلف والذل والهوان وانما هو القوة والعزة والرفعة والتمكين وليس الوضع السليم اللائق بالمسلمين هو ان يكونوا فى مؤخرة ركب الحياة وان يصبحوا غثاء كغثاء السيل يتكالب عليهم الاعداء يستذلونهم ويستعبدونهم ، ولكن الوضع اللائق بهم هو أن يكونوا مع القلة أو الكثرة قوة مستعلية على أوضاع الارض كلها ، قوة مجاهدة مناضلة لا تلين قناتها ولا يعرف الوهن والاستكانة اليها سبيلا حتى يمكن الله تعالى لها فى الارض . وعلى هذا يجب على المسلمين ان يعلموا ان كل ما وقع فى حياتهم من ضعف وتخلف وذل ، وهوان وجمود وركود انما هو بسبب بعدهم عن حقيقة الدين وانحرافهم عن جادته وان عليهم اذا ارادوا ان يحققوا ذاتيتهم ويحفظوا كيانهم ويعيدوا امجادهم وعزتهم ان يسارعوا الى العودة الى هذا الدين الذى هو أصل وجودهم ومنبع قوتهم وسر عزتهم يطبقون مبادئه وتعاليمه فى شئون حياتهم الخاصة والعامة ، ويقيمون بناء مجتمعهم على أسس عقيدته وقيمه السامية ، كما عليهم ان يقوموا بتنقية اجواء مجتمعهم وتطهير مجالات حياتهم الفكرية والعملية من رواسب الاستعمار الاوربى وآثار غزوه الفكرى التى تنتشر اليوم فى أنحاء بلاد المسلمين

وتسيطر على كافة مجالات الحياة . وبذلك كله يستطيعون القيام بواجبهم نحو أنفسهم ويتأهلون لاداء رسالتهم والقيام بدورهم في العالمين " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ...[1] الاية " . ويتحقق فيهم وعد الله تعالى لعباده المؤمنين باستخلافهم والتمكين لهم ولدينهم في الارض " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ..[2] الاية " .

وانى لأسأل الله تعالى أن ينفع المسلمين بهذا الجهد المتواضع ويتقبل منى هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يوفق كل من يسلك هذا الطريق من بعد لبعث هذه الامة من رقدتها والنهوض بها من سقوطها وانهيارها والاخذ بيدها نحو الصلاح والرفعة والقوة حتى ترتفع الى المنزلة التى يريد الله لها أن تتبوأها بين العالمين وتحقق الرسالة التى أخرجت من أجلها للناس انه سميع مجيب .

واننى أشكر الله تعالى أولا وآخرا على نعمته على وتوفيقه لى ، ثم أرفع من بعد آيات الشكر وكلمات الثناء والتقدير الى فضيلة الشيخ محمد قطب المشرف على هذه الرسالة لما قدمه لى من توجيهات وارشادات قيمة فتحت أمامى آفاقا واسعة من الفكر الناضج الصحيح وكانت عونا كبيرا لى بفضل الله وتوفيقه للتغلب على ما واجهنى من مشكلات وصعوبات أثناء اعداد هذه الرسالة وهذا الى جانب رعايته الابوية لى وما يتمتع به من أخلاق فاضلة يحببه الى كل من لازمه وتتلمذ عليه ، فجزاه الله عنى خير الجزاء وأمد فى عمره وختم له بالصالحات .

---

(١) سورة آل عمران اية (١١٠) .

(٢) سورة النور اية (٥٥) .

كما أنني أشكر جامعة أم القرى وعلى رأسها معالي الدكتور راشد الراجح مدير الجامعة لما أتاحته لي من فرصة ثمينة وما وفرته لي من امكانات طيلة فترة دراستي فيها فجزى الله القائمين بأمر هذه الجامعة خير الجزاء وبارك في جهودهم وحقق على أيديهم مزيدا من النجاح والتوفيق .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . ،،،

خضر مصطفى النيجيري

حقيقة الجاهلية ومظاهرها ، والحالة الدينية فـــى

بلاد العرب قبل الاســــلام

التمهيد الاول : حقيقة الجاهلية ومظاهرها .

التمهيد الثانى : الحالة الدينية فى بلاد العرب قبل الاسلام .

...

التمهيد الاول :

قبل البدء بدراسة المجتمع الاسلامي المعاصر يجب ان نلقي أضواء كاشفة على العصور الاسلامية الماضية القريبة منها والبعيدة بل قبل ذلك بالاحرى يجب أن نغوص في أعماق التاريخ لنستعرض جزءا مهما من تاريخ ماقبل ظهور الاسلام اذ لا يمكننا ادراك حقيقة رسالة الاسلام الا اذا وقفنا على الاوضاع القائمة في بلاد العرب والعالم من حولها ابان بدء الدعوة الاسلامية ، لأن المجتمعات البشرية وقتئذ كانت تعيش في ظلمات الجاهلية . واذا كان الاسلام هو الوجه المقابل تماما للجاهلية فقد تفوتنا معرفة الاسلام على حقيقته وادراك كنه مفاهيمه وقيمه ومثله ومبادئه اذا لم نقف على حقيقة الوضع القائم في تلك الحقبة من التاريخ قبيل بدء الدعوة الاسلامية . ثم اننا من الجانب الاخر لا يمكننا ان نقف على أمر المجتمع الاسلامي المعاصر ومدى استقامته على خط الاسلام او انحرافه عنه ومدى ماوقع فيه من انحرافات على مدى العصور الاسلامية الا اذا عرفنا الصورة المثالية لتطبيق الاسلام والتي تحققت في المجتمع الاسلامي الاول على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين لان هذه الصورة الفريدة التي تحققت في عالم الواقع هي المقياس الصحيح والنموذج القائم للتصحيح والاصلاح .

وانني في هذه الدراسة التمهيدية التي اعرض فيها احوال المجتمعات البشرية القائمة قبيل ظهور الاسلام بصفة عامة والجماعات العربية المتناثرة في شبه الجزيرة العربية بصفة خاصة على ضوء توضيح حقيقة الجاهلية التي اشتركت فيها تلك المجتمعات والجماعات - وان اختلفت مظاهر الجاهلية في كل منها - لا ألجأ الى الاستطراد التاريخي المجرد اذ لا يهمنا السرد التاريخي بقدر مايهمنا تسليط الاضواء على الحقائق المتعلقة بمقومات حياة تلك الامم من حيث القيم والاسس والمبادىء والمثل والتقاليد والعادات ،

مما يعطينا صورة واضحة عن احوال مختلف امم العالم والمجتمعات البشرية قبل ظهور الاسلام . على أننا سنطل على تلك المجتمعات من خلال دراسة حقيقة أمرها وماجعلها تستحق وصف الجاهلية التى نعتها بها الاسلام لنقف أولا على حقيقة الجاهلية وندرك ثانيا مظاهرها وآثارها التى تبدو بوضوح فى شئون حياة الناس ومجالاتها المختلفة . وعلينا أن نقرر بادئ ذى بدء أن القرآن الكريم وكتب الحديث الصحيحة هما المصدران الاساسيان الموثوق بهما فسنعول عليهما أكثر فى هذا البحث فانهما خير مايصور لنا احوال الحياة الجاهلية ويصف لنا انسان ذلك العصر من حيث تفكيره وعقائده واتجاهاته واخلاقه فهما خير مرآة تنعكس عليهما صورة الحياة الجاهلية التى جاء الاسلام لتغييرها واقامة منهج حياة أفضل مكانها ينعم الانسان فى ظله بالسعادة والطمأنينة والاستقرار . وهناك حقيقة مهمة يجب أن نشير اليها قبل البدء بدراسة حقيقة الجاهلية ومظاهرها وهى أن الجاهلية التى جاء الاسلام لهدم بنيانها من أساسه ودك عروشها عن آخرها لم تكن مقصورة على الوضع الذى كانت تعيش فيه الجماعات العربية القاطنة فى شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام ولا محصورة فيه .

وعلى الرغم من ان الدعوة الاسلامية قد تصدت للجاهلية العربية فى المرحلة الاولى من حياة الدعوة فانها حتى فى تلك المرحلة لم تكن مهمتها قاصرة على محو الجاهلية العربية فحسب بل كانت تقرر الجوهر الاساس المشترك بين جاهليات البشر وهو الشرك بجميع جوانبه واشكاله لمواجهته وتغييره ثم تعرض مظاهر الجاهلية العربية التى تواجهها الدعوة مواجهة مباشرة بادئ ذى بدء . وقد تختلف مظاهر الجاهلية بعضها عن بعض فى نوعها وكثرتها وبشاعتها وطيشها وارتكاسها باختلاف الزمان والمكان ولكنها تلتقى عند ذلك الجوهر الاساس للجاهلية . وعلى هذا فان مادرج عليه المؤرخون من قصر الجاهلية على ذلك الوضع المعين الذى كانت عليه الجماعات العربية

فى شبه الجزيرة العربية فى تلك الفترة التى سبقت ظهور الاسلام قد يوهم كثيرا من الناس ان الجاهلية انما هى ذلك الوضع الذى كان عليه العرب وان فترتهـــا محدودة بالعهد السابق على مجىء الاسلام وان الجماعات العربية وحدها هـــى التى ينطبق عليها وصف الجاهلية دون سواها من الامم وبالتالى تكون الجاهلية قد ذهبت دون ما رجعة بعد ظهور الاسلام . وذلك كله ليس بصحيح فى واقع الامر لان الجاهلية -على ماسنفصل القول فى معناها فيمابعد - لها اطارهـــا الشامل الذى لا يقتصر على صورة معينة من اوضاع الناس ولا تخص الجاهلية قومـــا دون غيرهم من البشر كما انها ليست محدودة بزمان او مكان . وعلى هذا فكل الامم السابقة التى ارسل الله تعالى اليها الرسل كانت فى جاهلية وجاءت الرسل ليخرجوهم منهـــا الى الاسلام وكذلك أى أمة سابقة كانت أو لاحقة جهلت الهها الحق فعبـــــدت من دونه آلهة أخرى ولم تتبع شرع الله فهى أمة جاهلية . وان قصر مهمة رسالة الاســلام على ازالة الجاهلية العربية القائمة ابان فترة بدء الدعوة الاسلامية يبـــــدو متنافيا ومتناقضا تماما مع روح هذه الرسالة وغايتها اذ الجوهر الحقيقى للجاهلية والذى حدده الاسلام يدخل فى نطاقه الواسع كل مجتمع تحققت فيه تلك السمـــة المشتركة وان اختلفت المظاهر سواء فى ذلك المجتمعات البشرية القائمة خــارج شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام او التى قامت او تقوم بعد ذلك على طول التاريخ .

...

توضيح حقيقة الجاهلية ومظاهرها

يبدو أن القرآن الكريم هو أول من استخدم لفظ " الجاهلية " بهذه الصيغة على وزن " فاعلية " وان كان فعل " جهل " ومشتقاته الاخرى قد يرد فى لغة العرب واشعارهم قبل الاسلام . وقد وردت لفظة " الجاهلية فى القرآن الكريم فى أربع آيات من السور المدنية[1] ويرد تاشتقاقاتها " يجهلون ، تجهلون ، الجاهلون ، جهالة ، جهول ، ومرادفها " لا يعلمون " فى آيات كثيرة من السور المكية[2] والمدنية على السواء كما وردت هذه اللفظة ومشتقاتها فى كتب الحديث الصحيحة .

وقد اختلف الناس فى فهم المراد بالجاهلية ، ونستطيع أن نحصر آراءهم ومذاهبهم فى ثلاث نقاط :

١ - منهم من ذهب الى تعريف الجاهلية من حيث المعنى اللغوى وقالوا ان الجاهلية من الجهل الذى هو ضد العلم أو عدم اتباع العلم ومن الجهل بالقراءة والكتابة ولهذا ترجمت هذه اللفظة فى اللغة الانكليزية ب : " The Time of Ignorance " ويرى هؤلاء أن العرب قبل ظهور الاسلام " كانت تغلب عليهم البداوة وانهم كانوا قد تخلفوا عمن حولهم فى الحضارة فعاش اكثرهم عيشة قبائل رحل فى جهل وغفلة لم تكن لهم صلات بالعالم الخارجى ولم يكن للعالم الخارجى اتصال بهم ، أميون

---

(١) سورة آل عمران اية (١٥٤) ، المائدة آية (٥٠) ، الاحزاب آية (٢٣) ، الفتح آية (٢٦) .

(٢) منها : الزمر (٦٤) ، الانعام (١١١) ، الفرقان (٦٣) القصص (٥٥) ، الاعراف (١٩٩) ، البقرة (٦٧) ، (٢٧٣) ، والاحقاف (٢٣) ، النحل (٥٥) ، يوسف (٣٣) .

عبدة أصنام ليس لهم تاريخ حافل لذلك عرفت تلك الحقبة التي سبقت الاسلام عندهم بـ " الجاهلية ")[1] .

٢- وذهب بعضهم الى اعتبار لفظة " الجاهلية " من قبيل التسميات الجديدة المتضمنة نظرة الازدراء والاستهجان مما يطلق على العهود السابقة بعد زوالها وقلب اوضاعها لقصد التفريق بين حالة وأخرى . ويقول الدكتور جواد علي : " ان الجاهلية اصطلاح مستحدث ظهر بظهور الاسلام وقد أطلق على حال ماقبل الاسلام تمييزا وتفريقا لها عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة على النحو الذي يحدث عندنا وعند غيرنا من الامم من اطلاق تسميات جديدة للعهود القائمة والكيانات الموجودة بعد ظهور احداث تزلزلها وتتمكن منها وذلك لتمييزها وتفريقها عن العهود التي قد تسميها ايضا بتسميات جديدة وفي التسميات التي تطلق على العهود السابقة مايدل ضمنا على شيء من الازدراء ، والاستهجان للاوضاع السابقة في غالب الاحيان . وقد سبق للنصارى أن أطلقوا على العصور التي سبقت المسيح والنصرانية " الجاهلية " أي (ايام الجاهلية) ، أو (زمان الجاهلية) استهجانا لامر تلك الايام وازدراء بجهل اصحابها لحالة الوثنية التي كانوا عليها ولجهالة الناس ان ذاك بارتكابهم الخطايا التي أبعدتهم في نظر النصرانية عن العلم وعن ملكوت الله (ورد في اعمال الرسل الاصحاح السابع عشر آية ٣٠) ." وقد اغضى الله عن أزمنة هذا الجهل فيبشر الان جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا "[2] . ويقرر د . جواد علي رأيه بعد هذا التمهيد ويقول : " والرأي عندي أن الجاهلية من السفه والحمق والانفة والخفة والغضب وعدم الانقياد لحكم وشريعة وارادة الهية وما الى ذلك من حالات انتقصها الاسلام فهي في معنى (اذهب ياجاهل) نقولها

---

(١) د . جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٣٧/١ .

(٢) نفس المرجع ٣٧/١-٣٨ .

فى العراق لمن يتسفه ويتحمق وينطق بكلام لا يليق صدوره من رجل فلا يبالى أدبا ولا يراعى عرفا و(رجل جاهل) تطلقه على من لا يهتم بمجتمع يدين ولا يتورع من النطق بافحش الكلام ولا يشترط بالطبع ان يكون ذلك الرجل جاهلا أميا أى ليس له علم وليس بقارئ كاتب "(١) . ثم يمضى فى حديثه ليؤكد رأيه بمثال من واقع أحوال الامم حيث قال :" فلفظة " الجاهلية " اذن نعت اسلامى من نوع النعوت التى تطلق فى العهود السابقة على حركة ما او انقلاب أطلقه المسلمون على ذلك العهد كما نطلق اليوم نعوتا واسماء على العهود الماضية التى يثور الناس عليها من مثل مصطلح (العهد البائد) الذى أطلق فى العراق على العهد الملكى منذ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م ومثل المصطلحات الاخرى الشائعة فى الاقطار العربية الاخرى والتى أطلقت على العهود السابقة للثورات والانقلابات "(٢) .

٣ - وذهب آخرون الى تعريفها من حيث المظاهر والسمات البارزة فى حياة العرب فى عهد الجاهلية . يقول أحمد أمين فى معرض حديثه فى شرح معنى الاسلام :" جاء فى القرآن (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) ولعل هذه الاية هى المفتاح الذى نصل به الى معرفة السبب فى تسمية العهد الذى قبل محمد صلى الله عليه وسلم جاهلية وعهده اسلاما ، والجاهلية ليست من الجهل الذى هو ضد العلم ولكن من الجهل الذى هو السفه والغضب والانفة جاء فى حديث الافك " ولكن اجتهلته الحمية " " أى حملته الانفة والغضب على الجهل "،

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ١/ ٤٠ .
(٢) نفس المصدر ١/ ٤٢ .

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابى ذر الغفارى وقد عير رجلا بأمه " انك امرؤ فيك جاهلية " أى فيك روح الجاهلية ، وقريب من هذا المعنى استعمالهم استجهله الشيء اى استخفه ومنه قوله : " وقاك الهوى واستجهلتك المنازل " .... الى ان قال : " فترى من هذا كله أن كلمة الجاهلية تدل على الخفة والانفة والحمية والمفاخرة ، وهى أمور أوضح ماكانت فى حياة العرب قبل الاسلام فسمى العصر " الجاهلية "(١) . ويرى المستشرق (كولد تزهير) (Goldziher) " أن المقصود الاول من الكلمة (السفه) الذى هو ضد الحلم ، والانفة والخفة والغضب وما الى ذلك من معان وهى أمور جد واضحة فى حياة الجاهليين "(٢) . ومن هذا المعنى ماقال أحمد ابراهيم الشريف أن " العرف الاسلامى يشير الى العصر الذى ولد فيه النبى (صلى الله عليه وسلم) بدعوه " الجاهلية " وكلمة " جاهلية " لا تعنى " عكس المعرفة " بل انها تعنى بالاحرى " مخالفة القانون والتمرد " او " الجهل بما هو أفضل " وهى كلمة اسلامية أطلقت على العصر الذى سبق الاسلام مباشرة والذى كانت تسوده حرية العصبية القبلية بما فيها من نزق وطيش وحمق واستجابة لداعى العصبية مهما تكن الاسباب والظروف فهى كلمة مأخوذة من الحمية العصبية . قال الشاعر :

ألا لايجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا (٣)

وهى لذلك كلمة تعبر عن روح العصر بما كان فيه من وثنية واخلاق قوامها الحمية والاخذ بالثأر "(٤) .

---

(١) فجر الاسلام ص ٦٩-٧٠.
(٢) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ١/ ٣٩.
(٣) معلقة عمرو بن كلثوم.
(٤) مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ، ص ٩٣.

ومن تعريف الجاهلية بالمظاهر والسمات البارزة في حياة العرب قبل الاسلام تلك الجملة المشهورة التي نقرؤها في بعض كتب التاريخ . تقول هذه الجملة : " كان العرب في الجاهلية يعبدون الاصنام ويئدون البنات ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ويقومون بغارات السلب والنهب فنهاهم الاسلام عن ذلك". وهكذا نرى أصحاب هذا الرأى الثالث قد نظروا الى الجاهلية من زاوية مظاهرها وآثارها المتعددة فعرفوها بجملة من تلك الصفات التي كانت منتشرة بين الناس في العهد السابق لظهور الاسلام .

واذا كانت لفظة الجاهلية بهذه الصيغة على وزن " فاعلية " قد وردت لاول مرة في القرآن الكريم رغم ورود فعل " جهل " ومشتقاته الاخرى في لغة العرب واشعارهم قبل الاسلام فالواجب علينا الرجوع الى القرآن الكريم لنعرف منه التعريف الصحيح لهذه اللفظة في معناها الكلي وجوهرها الحقيقي لا في مظاهرها الخارجية لان القرآن الكريم قد يعطي هذه اللفظة معنى اصطلاحيا محددا كما هو شأنه في استخدام الالفاظ لمعان اصطلاحية جديدة .

واذا استعرضنا المواضع التي وردت فيها هذه اللفظة ومشتقاتها في القرآن الكريم نجد أنها قد استخدمت لمعنيين اساسيين محددين هما الجهل بالالوهية واتباع غير شرع الله فتارة يشير القرآن الى أحد هذين المعنيين أوكليهما جميعا وتارة أخرى يضيف احد المعنيين الى المعنى الكلي المشترك او يضيف اليه بعض المظاهر والسمات التي تصدر عنه . وقد يصف القرآن بعض أعمال او اشخاص أو أقوام بالجهل على هذا المعنى الاصطلاحي لتحقق هذا المعنى الكلي والجوهر الاساسي فيهم او لوجود بعض مظاهره وسماته او لبقاء بعض رواسب الجاهلية في نفوسهم ويتضح لنا الامر اكثر اذا علمنا ان الحياة الجاهلية على مدار التاريخ ترتكز على هذين الاساسين المحددين . وقد شهد بذلك المشركون انفسهم حين واجهوا دعوة الاسلام وقاوموها " وقال الذين

أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين "(١)
فإن الجهل بحقيقة الالوهية وعدم معرفة الله المعرفة الحقة يؤدى الى الكفر به وتوجيه العبادة الى غيره كما ان عدم اتباع شرع الله يؤدى الى التحريم والتحليل من دون الله وبالتالى صرف جميع خصائص الالوهية والحاكمية الى غيره سبحانه وتعالى . وعلى هذا فان لفظة الجاهلية ومشتقاتها فى جميع المواضع التى وردت فيها فى القرآن الكريم قد استخدمت لهذا المعنى الكلى والجوهر الاساسى الذى يدخل تحته تلك المظاهر الخارجية التى تشكلت منها الحياة الجاهلية ، على أن تلك المظاهر والحالات والسمات التى تكون نتيجة وجود ذلك السبب الحقيقى ليس من الضرورى ان تسير على قاعدة واحدة أو تأخذ طابعا موحدا بل قد تختلف باختلاف الزمان والمكان وتباين الاقوام والاجناس الا أن المحور الاساسى المعتبر فى جميع الحالات هو ذلك المعنى المشترك الذى يشكل حياة الناس ويكون مصدر تلك المظاهر الخارجية والحالات التي يعيشون فيها . يقول الله تعالى : " أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون "(٢) . وقد جعلت الاية الحكم نوعين اثنين لاثالث لهما اما حكم الله واما حكم الجاهلية ، وحكم الجاهلية هوالذى مصدره الجهل بالالوهية واتباع غير شرع الله . وأضيف الحكم بغير ما انزل الله الى الجاهلية هنا لانه يصدر عن صرف خصائص الالوهية والحاكمية الى غير الله تعالى ، وهو ناشيء من الجهل بحقيقة الالوهية . وقال تعالى فى موضع آخر : " اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله

---

(١) سورة النحل آية (٣٥).
(٢) سورة المائدة آية (٥٠).

وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شئ عليما " (١) . والحمية هي الأنفة والطيش وهي من علامات الجاهلية ومظاهرها فأضيفت اليها لصدورها عنها ويقابلها في الاسلام كما ذكرت الاية الالتزام بتقوى الله تعالى والانقياد له في كل الأمور . وكذلك الامر في الايتين الاخريين اللتين وردت فيهما لفظة الجاهلية أضيف اليها في اولاهما ظن السوء بالله وقد صدر ذلك من بعض المنافقين في غزوة أحد حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم " هل لنا من الامر من شئ " وهم يقولون في أنفسهم أن لو كان لهم من الأمر شئ ماخرجوا لمقابلة العدو وما نالهم من الهزيمة ما نالهم ، وقد أضيف ظنهم هذا الى الجاهلية لانه يدل على عدم ادراكهم لحقيقة قدر الله وانه هو سبحانه الذى يدبر الامر كله ويقدر الاقدار ، مما هو من مظاهر الجاهلية ورواسبها . قال تعالى في حق هؤلاء : "...وطائفة قد أهمتهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شئ قل ان الامر كله لله يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الامر شئ ماقتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلى الله مافي صدوركم وليمحص مافي قلوبكم والله عليم بذات الصدور "(٢) . ثم قال الله تعالى بعد ذلك : " يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا في الارض او كانوا غزى لو كانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير "(٣) . وأما ثانية الايتين فقد تعرضت لمظهر خطير من مظاهر الجاهلية وهو التبرج واظهار النساء زينتهن ومفاتنهن للرجال الاجانب لاشاعة الفساد في المجتمع قال تعالى : " وقرن في بيوتكن

---

(١) سورة الفتح آية (٢٦) .
(٢) سورة آل عمران آية (١٥٤) .
(٣) سورة آل عمران آية (١٥٦) .

ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا "(١) . وماذكر فى الايتين الاخيرتين من أمور الجاهلية يقابله فى الاسلام الادراك الصحيح لحقيقة الالوهية والسمع والطاعة لاوامر الله ورسوله والتزام حدود تعاليم الاسلام باتباع شرع الله والسير على منهجه فى الحياة . وبذلك يتبين لنا من خلال ماتقدم ما للفظة الجاهلية من معنى كلى وجوهر حقيقى يندرج تحته مظاهر كثيرة وحالات متعددة فأضيف اليها الحكم بغير شرع الله والحمية والتبرج وظن السوء بالله فى الايات السابقة .

وأما المشتقات الاخرى لفعل " جهل " فقد وردت فى آيات كثيرة منها ماجاء فى معرض خطاب مشركى العرب ومنها ماجاء فى معرض الحديث عن الانبياء السابقين ومواجهتهم جاهليات اقوامهم او انكار بعض مظاهرها ورواسبها المتبقية فيهم بعد اسلامهم . أما ماجاء فى معرض خطاب مشركى العرب ففى آيات كثيرة منها قوله تعالى " قل أفغير الله تأمرونى أعبد ايها الجاهلون ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين وماقدروا الله حق قدره ....."(٢) الاية . وقوله تعالى : " ان ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين "(٣) . وقال تعالى : " وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما "(٤) . وفى قصة أهل الكتاب الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى : " ولقد وصلنا

---

(١) سورة الاحزاب اية (٣٣) .
(٢) سورة الزمر ايات (٦٤-٦٧) .
(٣) سورة الاعراف ايات (١٩٦-١٩٩) .
(٤) سورة الفرقان اية (٦٣) .

لهم القول لعلهم يتذكرون . الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين اولئك يؤتـــون اجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين[١]" .

وفى هذه الايات وغيرها [٢] كان وصف هؤلاء بالجهل " الجاهلون ويجهلون " لانهم لا يعرفون الله المعرفة الحقة ولا يؤمنون به ولا يتبعون ما انزله على رسوله .

واما ماجاء فى معرض قصص الانبياء السابقين ففى آيات كثيرة . وما من نبى مـــن الانبياء إلا وقد واجه جاهلية سبقت عهده او قاوم بقاياها المترسبة فى أذهان قومه ومظاهرها فى شئون حياتهم نذكر من ذلك على سبيل المثال ماجاء فى قـــوم موسى فى قوله " وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنـــام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون "[٣] .

وجاء فى قوم هود قوله تعالى : " واذكر اخا عاد اذ أنذر قومه بالاحقـــاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكـــم عذاب يوم عظيم قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت مـــن الصادقين . قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قومـــا تجهلون "[٤] . وكذلك ماجاء فى قوم نوح عليه السلام فى قوله تعالى : " ولقـــد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكـــم عذاب يوم أليم " . . . . . . الى ان قال : " وياقوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قومـــا

---

(١) سورة القصص ايات (٥١-٥٥) .
(٢) سورة الانعام ايات (١٠٩-١١٠) .
(٣) سورة الاعراف اية (١٣٨) .
(٤) سورة الاحقاف ايات (٢٢-٢٣) .

تجهلون (١) . وغير ذلك من الايات (٢) التى نرى فيها كل نبى يقاوم ويواجه جاهلية رسخت قوائمها قبل مبعثه ويصف قومه بالجهل لأنهم لم يعرفوا الله المعرفة الحقة ولم يقدروه حق قدره حيث اتجهوا بالعبادة الى غيره تعالى ولم يتبعوا ما أنزل عليهم من ربهم . وحين طلب بنواسرائيل من موسى عليه السلام ان يجعل لهم الها محسوسا كما للمشركين آلهة محسوسة يعبدونها ويتجمعون عندها وذلك منهم من بقايا الجاهلية التى علقت فى أذهانهم فقد رد عليهم موسى عليه السلام بقوله " انكم قوم تجهلون " أى لا تعرفون الله المعرفة الحقة ولو عرفتموه حق معرفته لما سألتم مثل هذا السؤال السخيف . فالله جل شأنه هو الذى لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير . وهكذا نرى أن مادة " جهل " وجميع مشتقاتها فى كل المواضع التى وردت فيها فى القرآن الكريم قد جعل لها معنى اصطلاحى محدد على نحو ما سبق ان بيناه بحيث لا نكاد نجد آية من تلك الايات وردت فيها هذه اللفظة الا وقد استخدمت للجهل بالالوهية وعدم اتباع ما انزل الله على رسله سواء أريد بها هذا المعنى المحدد الذى هو السبب المباشر أم أريد بها مايكون من آثاره ومظاهره ورواسبه، حتى فى بعض الايات (٣) التى يرد فيها اللفظ " على وزن " فعالة " و "فعول" " جهالة وجهول " ودأب الناس على تفسيره بالطيش والحمق فى مثل قوله تعالى : " ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم " (٤) . والمعنى انهم عملوا السوء بسبب جهلهم بالله وعدم اتباعهم ما أنزله على رسوله او لوجود بعض بقايا ورواسب من الجاهلية فى نفوسهم ولا يلزم من ذلك ان يكونوا كفارا او مشركين بل قد يحصل ذلك فترة

---

(١) سورة هود ايات (٢٥-٢٩) .

(٢) سورة النمل (٥٤-٥٥) البقرة (٦٧) ، هود (٤٦) .

(٣) سورة الانعام (٥٤) ، النساء (١٧) الحجرات (٦) البقرة (٢٧٣) ، الاحزاب (٧٢) .

(٤) سورة النحل (١١٩) .

قليلة من الزمن حين تلبسوا بالجريمة وكانوا في غفلة وقد جاء في الحديث "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن .... الحديث (١) . وقد وردت لفظة الجاهلية في مواضع كثيرة في كتب الحديث الصحيحة حيث استخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله تعالى عليهم . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرى من أحد شيئا من الاعمال او الاعتقادات قد يكون من رواسب ومظاهر حالة الجهل بالالوهية وعدم اتباع ما أنزل الله والتي عاش فيها الناس قبل الاسلام يبادر صلى الله عليه وسلم الى انكاره بشدة ويضيفه الى الجاهلية . وكذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن امور فعلوها في الجاهلية مثل العهود والمواثيق التي قطعوها على أنفسهم ليعرفوا موقفهم منها بعد اسلامهم مما قد أقر الرسول صلى الله عليه وسلّم بعضها ونهى عن البعض الآخر ، وحين يسأل الصحابة رضي الله عنهم عن هذه الامور التي وقعت منهم في العهد السابق لدخولهم في الاسلام كانوا يعنون "بالجاهلية" ذلك الزمان الذي عاشوا فيه في جهل مطبق بحقيقة الالوهية حيث عبدوا من دون الله آلهة من الاصنام والاوثان والطواغيت واحلوا وحرموا من دون الله وقد عرفوا بعد اسلامهم ان المحور الذي تدور عليه الاعمال في الجاهلية قد تغير وان مقومات الحياة قد اصبحت بعد الاسلام غيرها في الجاهلية . فمصدر الحياة الاسلامية واساسها المعرفة الحقة بالله والتي تؤدي الى الايمان به وحده لا شريك له واتباع ما أنزله على رسوله في كل شأن من شئون الحياة . وفي ذلك دلالة واضحة على ان هذا المعنى المحدد للجاهلية هو ما فهمه الصحابة رضي الله عنهم حين استخدموا هذه اللفظة . ومما ورد في السنة الصحيحة ، حديث عبد الله بن مسعود قال : قال أناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله

---

(١) رواه مسلم في كتاب الايمان ، باب نقصان الايمان بالمعاصي ٢ / ٤١ - ٤٢ ، شرح مسلم للنووي عن ابي هريرة .

أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية قال : " أما من أحسن منكم فى الاسلام فلا يؤاخذ بها ومن أساء أخذ بعمله فى الجاهلية والاسلام (١) " . وحديث حكيم بن حزام انه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " أى رسول الله أرأيت أمورا كنت أتحنث بها فى الجاهلية من صدقة اوعتاقة وصلة رحم أفيها أجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلمت على ما أسلفت من خير (٢) " . وكذلك ماجاء عن عائشة رضى الله عنها انها قالت قلت يارسول الله ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعة ؟ قال : لا ينفعه انه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين " (٣) . وحديث ابى ذر قال : انى سابيت رجلا فعيرته بأمه قال النبى صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر انك امرؤ فيك جاهلية ... الحديث (٤) . اى خصلة من خصال الجاهلية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تجدون الناس معادن فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا (٥) .... الحديث . فقابل الحديث بين الاسلام وبين الجاهلية . وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام : " ... ألا كل شئ من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع (٦) .. " الى غير ذلك من الاحاديث .

واذا سلمنا جدلا أن هذه اللفظة قد أوقعت أول ما أوقعت على تلك الفترة المحدودة التى سبقت البعثة النبوية الشريفة وأن التسمية كانت لسبب الحالة المعينة التى كان عليها الناس حينذاك وان تحول هذه الحالة بعد

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الايمان باب هل يؤاخذ باعمال الجاهلية ٢ / ١٣٥ شرح مسلم للنووى .
(٢) رواه مسلم فى كتاب الايمان باب بيان حكم عمل الكافر اذا اسلم بعده ٢ / ١٤١ .
(٣) رواه مسلم فى كتاب الايمان باب من مات على الكفر لا ينفعه عمل ٣ / ٨٦ .
(٤) رواه البخارى فى كتاب الايمان باب المعاصى من امر الجاهلية ١ / ١٣ المكتب الاسلامى بتركيا .
(٥) رواه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب خيار الناس ١٦ / ٧٨ عن ابى هريرة .
(٦) رواه مسلم فى كتاب الحج باب حجة النبى صلى الله عليه وسلم ٨ / ١٨٢ من حديث جابر الطويل .

الاسلام الى حالة اخرى هو الذى ميز بين الحالتين احداهما عن الاخرى أفلا يكون هناك سبب اساسي وجوهر حقيقي ارتكزت عليه كل من الحالتين وقامت على دعائمه وسارت على نمط ايحاءاته وتوجيهاته وتشكلت عناصر ومقومات حياتها من أسسه ومبادئه حتى استحقت احداهما ان تسمى جاهلية والاخرى اسلاما . ولذلك ترى ان من قال بالمعنى اللغوى فى الاقوال الثلاثة السالف ذكرها قد أبعد النجعة ولا يخفى بطلان قولهم بشهادة القرآن الكريم وشهادة التاريخ وكان هذا الامر من الوضوح لمن له أدنى المام بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا نحتاج هنا الى اقامة الادلة بل يكفى فى ذلك أن القرآن الكريم الذى خاطب مشركى العرب بلغتهم كان على مستوى رفيع من البلاغة بجميع اشكالها وفروعها وقد عرفوا معانى ما أنزل اليهم وان لم يؤمنوا بما جاء فيه . ولعل الذى اوهم هؤلاء الذين قالوا بالمعنى اللغوى أى أن الجاهلية من الجهل/الذى هو ضد العلم ومن الجهل بالقراءة والكتابة ما جاء فى بعض الايات من نسبة الامية الى مشركى العرب فترة نزول الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل قوله تعالى : " هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم اياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين "(١) . وقوله تعالى : " فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد " (٢) ان وصف مشركى العرب بالأمية فى الايتين وغيرهما ليس لكونهم لا يقرءون ولا يكتبون فقط ولكن لانهم ايضا لم يكن لهم كتاب مثل ما كان لليهود والنصارى . وأما من نظر الى معنى لفظة الجاهلية من زاوية ضيقة وتتبع حالة العرب قبل الاسلام وعدد بعض المظاهر والاوضاع القائمة آنذاك بذكر جملة من العادات والتقاليد جعلها معنى للجاهلية فقد جاء تعريف هذا الفريق غير جامع ولا محدد اذ لم يقفوا على السبب والمصدر وانما

---

(١) سورة الجمعة آية (٢) .
(٢) سورة آل عمران آية (٢٠) .

تلمسوا المسببات والآثار فجاء تعريفهم قاصرا عن تناول جميع الأوضاع والحالات والمظاهر التي تدخل تحت نطاق المعنى الكلي لهذه اللفظة ، لان الاوضاع والحالات والمظاهر تختلف باختلاف الزمان والمكان بدليل أن ما وجد في عهد الجاهلية العربية من الاوضاع والمظاهر والحالات من مثل العصبية العمياء وعبادة الاصنام وشرب الخمر ولعب الميسر ووأد البنات والطيش والانفة والتفاخر بالانساب والاحساب والرياء والسمعة وما الى ذلك ليس حتمي الوجود في كل جاهلية وليس من الضروري ان توجد هذه الامور بعينها في كل بيئة وكل عصر وقد لا يوجد بعضها على الاطلاق وقد توجد على غير الصورة التي كان عليها الامر في عهد الجاهلية العربية ومع ذلك تظل الجاهلية جاهلية اذا وجد ذلك الجوهر المشترك بين جاهليات الامم على مدار التاريخ ووجد ذلك المعنى الاصطلاحي المحدد الذي تكتسب به الامم وعهود التاريخ وحالات الناس صفة الجاهلية . ثم ان من يرى ان التسمية بالجاهلية كانت من حيث العرف السائد بين الامم حين تحدث انقلابات وتتحول بسببها الاوضاع والاحوال فيطلق الثائرون على الاوضاع تسميات جديدة على العهود السابقة بقصد تمييزها عن الحالة الراهنة مما لا يخلو في غالب الاحيان من نظرة الازدراء والاستهجان والعداء .. ان من يرى مثل هذا التشبيه ويعقد مثل هذه المقارنة بين دعوة الاسلام والثورات الانقلابية يبدو أنه لا يفهم دعوة الاسلام فهما صحيحا حيث عرضها في مثل هذه الصورة التي لا تتفق مع هدى الاسلام وروحه ورسالته بأي حال من الاحوال .

والاسلام كما أسلفنا هو الوجه المقابل تماما للجاهلية ولانهما من الاضداد التي لا تجتمع في مكان واحد فاذا وجد احدهما متكاملا انتفى الاخر ولابد . ولكن لا يعني ذلك عدم امكان وجود مظاهر ورواسب من الجاهلية في الانسان المسلم في بعض الفترات ومراحل الحياة لحديث ابي ذر الغفاري [1] السابق وحديث

---

(١) اخرجه البخاري في كتاب الايمان باب المعاص من امر الجاهلية (١/١٣ ، المكتب الاسلامي ، تركيا .

ذات أنواط وما حكينا سابقا من قصة بنى اسرائيل حين قالوا لموسى عليه السلام: " اجعل لنا الها كما لهم آلهة "(١) . فالذنوب على مراتب ودرجات ، منهـــا ماهو كبائر ومنها ماهو صغائر منها مايخرج من الملة ومنها مالايخرج اذالم يكن المقترف له يعتقد حل حرام اويصر على معصية . وأما مظاهر وخصال الخير إن وجدت من الانسان الجاهلى فلاينفعه ذلك اذا انتهى أمره على حالة الجاهلية ولم يخرج من ظلمات الكفر الى نور الايمان لحديث عائشة (٢) الذى سألت فيـــه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر ابن جدعان الجاهلى الذى مات على الكفر ولم ينفعه ماعمله من خصال الخير فى جاهليته وقد سبق ذكر هذا الحديث.

ويتلخص من كل ماتقدم أن لفظة الجاهلية لا يقتصر معناها على الفتـــرة الزمنية التى سبقت ظهور الاسلام ولا ينطبق على الجماعات العربية فى شبـــه الجزيرة العربية وحدها دون غيرها من الامم القائمة ابان بدء الدعوة الاسلامية او الامم اللاحقة على طول التاريخ ان صدق عليها الوصف كما لا ينحصر معناهـا ايضا فى تلك الحالات والمظاهر المعينة التى تذكر دائما فى كتب التاريـــخ عن حالة الجاهلية العربية وليس هو المقابل لما يسمى العلم و " المعرفـــة " الحضارة والمدنية . ولكنه ذو مدلول شامل وعام يدخل تحته كل ماذكر مـــن الحالات والاوصاف والمظاهر وغيرها وهو جوهر معين يمكن ان يتخذ صورا شتى بحسب البيئة والظروف والزمان والمكان فتتشابه كلها فى أنها جاهليـــة وان اختلفت مظاهرها وتغيرت اوضاعها بين الاجناس والاقوام .

واذا كانت الجاهلية هى الجهل بالله الذى يؤدى الى الكفر به او الجحد به او الاشراك به فى خصائص ربوبيته وألوهيته وحاكميته ، فالاسلام هو المعرفة الحقـة

---

(١) سورة الاعراف اية (١٣٨) .
(٢) رواه مسلم فى كتاب الايمان باب من مات على الكفر لا ينفعه عمل ٣/ ٨٦ شرح مسلم للنووى .

بالله التى تؤدى الى الايمان به وحده لا شريك له والى تحقيق العبودية له تعالى عقيدة وعبادة وشريعة والى خشيته وتقواه ومراقبته فى السر والعلن .
واذا كانت الجاهلية هى رفض الاهتداء بهدى الله ورفض الحكم بما أنزل من كتاب وتحكيم الاهواء والنزوات واتباع طواغيت الناس الذين يحرمون ويحلون من دون الله فالاسلام هو طاعة الله واتباع ما أنزله على رسوله من الهدى ودين الحق والالتزام بمنهجه فى الحياة[1] .

• • •

---

(١) انظر الاستاذ محمد قطب ، جاهلية القرن العشرين ، ص ٨ ومابعدها .

التمهيد الثانـــى :

الحالة الدينية فى بلاد العرب قبل الاسلام

ان عبادة الله الحق كانت أول عبادة عرفها البشر منذ أن هبط آدم عليـــه السلام الى الارض قال تعالى : " قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هـــدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون "(١) . وان الله سبحانه وتعالـــى بسابق ارادته وحكمته البالغة وعلمه المحيط بكل شئ لما خلق الانسان ألهمـــه فجوره وتقواه بما جعل له من طاقات يستطيع ان يميز بها الخير والشر ثم أرســـل الرسل وأنزل الكتب لهداية الناس الى صراطه المستقيم . ولكن النفس البشرية لا تكـاد تصل الى عبادة الله الواحد وتستريح الى نفحات رحمته حتى تبدأ مرة أخرى فـــى الانحدار الى حضيض الكفر والضلال ، وفى كل فترة من فترات تاريخ البشريـــة اذا حدث الجهل بالله وبعد الناس عن الجادة ورفضوا الاهتداء بهديه كان اللـه يرسل اليهم رسولا لاعادتهم الى رشدهم وسعادتهم . قال تعالى :" ولقد بعثنـــا فى كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم مـــن حقت عليه الضلالة "(٢) .. الاية . ولا يكاد يمضى رسول حتى يبدأ الناس مـرة أخرى فى العودة الى متاهات الجهل والضلال وتلك سنة من سنن الله فى الكـــون ولو شاء الله لهدى الناس جميعا وجعلهم أمة واحدة .

ولقد عرفت الجزيرة العربية الدين الحق منذ دعوة ابراهيم عليه السلام وبنائـــه الكعبة الشريفة فى مكة واعلانه بالحج للناس ، وقد ظل الناس على شريعته حنفـــاء لله غير مشركين به لعدة أجيال حتى تسربت اليهم الوثنية وانحرفت عقيدتهـــم الخالصة ثم أخذت الوثنية فى الانتشار والذيوع على مر الايام والاجيال حتى أطبقت

---

(١) سورة البقرة (٣٨) .
(٢) سورة النحل (٣٦) .

على جميع مناطق الجزيرة قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يعاد الناس الى جاهلية عمياء واتخذوا من دون الله آلهة متعددة من أوثان وأصنام وأنصاب وأشجار فتوجهوا اليها بصنوف العبادة (١) . وقد نسيت الحنيفية دين ابراهيم ولم يبق منها الا المظاهر والشكليات نتيجة ما داخلها من وثنية ضالة حتى فقدت جوهرها وروحها ومعنوياتها ، فكان اهتمام الناس بعمارة البيت الحرام وتنظيم شئون الحج والعمرة وما يتعلق بهما من شعائر وعبادات من أجل التقرب الى الاصنام والاوثان المنصوبة فى اماكن العبادة . جاء فى القرآن الكريم وصف حالة الوثنية والكفر التى صار اليها أمر الجماعات العربية فى الجاهلية بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة الاسلام منذ قيام دعوة ابراهيم عليه السلام وهداهم الى عقيدة التوحيد فعادوا بعد ذلك كافرين بأنعم الله وجعلوا له أندادا وشركاء فضلوا عن سبيل الله . قال الله تعالى : " ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار "(٢) .

والوثنية العربية كانت قائمة على عبادة الاصنام والاوثان والانصاب والجن وتقديس بعض الاشجار والاستقسام بالازلام عند الالهة كما وجد فريق من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون انهم بنات الله ، يقول أنور الجندى : " والمؤرخون على أن الوثنية فى الحجاز وبلاد العرب كانت مرضا أجنبيا طارئا عليها من شرق الاردن وبلاد كنعان حمله منها عمرو بن لحى فى بعض الوقت الذى تولت خزاعة الحكم فى الحجاز قبل الهجرة بنحو أربعمائة سنة فهى أقصر وثنيات العالم عمرا ولانها قصيرة العمر لم تقم لها فى بلاد العرب هياكل ولا تهاويل أو أنظمة وأساطير كالتى كانت للوثنية فى الهند والصين ومعابد أثينا وروما (٣) " .

---

(١) انظر انور الجندى ، الاسلام والعالم المعاصر ، ص ٩٥ ، وكذلك كتاب ظهور الاسلام ...... ص ٢٦-٢٧ . للدكتور عبد الحميد بخيت .
(٢) سورة ابراهيم (٢٨-٣٠) .
(٣) انور الجندى ، المصدر السابق ص ٩٥ .

وأما الاوثان والاصنام فقد كان العرب يتخذونها من الحجارة أو الخشب أو المعادن وكان بعضها على صورة الانسان أو الحيوان فى حين كان البعض الاخر يمثل قوى الطبيعة كالكواكب وغيرها أو مايزعمون أنه يمثل الملائكة . وقد كانت الكعبة البيت الحرام مليئة بمجموعة كبيرة من هذه الاصنام والاوثان " ويذكر أنه وجد فيها يوم فتح مكة ثلاثمائة وستون صنما [1] " وكذلك كانت منتشرة فى أماكن كثيرة فى بلاد العرب . وقد ورد ذكر بعض أصنام العرب فى القرآن الكريم ، وورد ذكر مجموعة اخرى منها فى كتب الادب والتاريخ لم يرد ذكرها بأسمائها فى القرآن الكريم ولكنها بطبيعة الحال داخلة فى نطاق مايعبد من دون الله قال تعالى : " ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير [2] " . ونذكر فيما يلى أشهر اصنام العرب فى الجاهلية :

١ - هبل : وهو أعظم أصنام قريش وكبير آلهتهم [3] ويقال انه كان من عقيق أحمر على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش هكذا فجعلت له يدا من ذهب .

٢- اللات : وهى لثقيف فى الطائف وكانت جميع العرب يعظمونها " ويرجح بعض الباحثين انها تمثل الشمس [4] " وكان لبعض المشركين اصنام تمثل قوى الطبيعة (الشمس والقمر والكواكب) وكانوا يعتقدون ان لها تاثيرات فعالة فى شئون العالم السفلى .

٤ - العزى : وهى من آلهة قريش ، وكانت جميع القبائل العربية يعظمونها بصورة خاصة " ويقال انها تمثل الزهرة " [5] .

---

(١) انور الجندى ، الاسلام والعالم المعاصر ص ٩٨ .
(٢) سورة الحج (٢٢/٧١) .
(٣) انظر ابن هشام (١/ ٨٢ ؛ ٨٦ .
(٤) نفس المصدر (١/ ٩٠ .
(٥) ،، الازرقى ، (١/ ١٢٥-١٢٨ .

٤- مناة كانت لهذيل وخزاعة وقد نصبت على ساحل البحر من ناحيــــة المشلل بقديد بين مكة والمدينة .

قال الله تعالى فى شأن هذه الاصنام الثلاثة/ الاخيرة: " أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى . ألكم الذكر وله الانثى . تلك اذا قسمة ضيزى . ان هى الا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى [1] " .
وتدل هذه الايات على أن العرب كانوا يعتقدون أن هذه الاصنـــام الثلاثة تمثل الملائكة وان الملائكة بنات الله فهم يشفعون الى اللـــه الذين يعبدونهم ليقربوهم اليه ، وكانت قريش تقول عند طوافها بالكعبة واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى فانهن الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن لترتجى .

٥ - أساف ونائلة : وهما من آلهة قريش وقيل انها نصبت أحدهما علـــى الصفا والآخر على المروة [2] .

٦ - الشعرى العبور : وهو من الالهة التى عبدها أهل مكة . ويمثل النجـم المعروف بالشعرى . وهو الذى ورد ذكره فى قوله تعالى :" وانه هـــو رب الشعـــرى [3] " .

٧ - سعد : وهو لكنانة وقد نصب فى مكان بساحل جدة .

٨ - نهم : كان لقبيلة مزينة .

---

(١) سورة النجم (١٩-٢٣).
(٢) هشام بن الكلبى : كتاب الاصنام ص ٢٩ . انظر الازرقى ١/ ١٢٢-١٢٣ .
(٣) سورة النجم (٤٩).

٩ - ذ والخلصة : وهو لخثعم وبجيلة وازد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن وكان منصوبا فى تبالة بين مكة واليمن على بعد سبع ليال وكانوا يعبدونه ويستقسمون بالازلام عنده .

وهذه اشهر اصنام العرب وهناك اوثان واصنام كثيرة كانت منتشرة فى انحاء بلاد العرب . وقد كان لكل اهل دار فى مكة وغيرها من المدن العربية صنم يعبدونه من دون الله وكان الواحد منهم اذا اراد السفر فآخر مايصنعه فى بيته هو ان يتمسح بصنمه ويدعوه ليحفظه فى سفره حتى يرجع الى اهله سالما وهكذا يفعل اذا عاد من سفره فما ان يدخل بيته حتى يهرع الى صنمه ليتمسح به ويشكره ان حفظه فى حله وترحاله . والى جانب ذلك كله كانت هناك انصاب كثيرة فى اماكن متفرقة فى الجزيرة العربية ويوجد منها حول الكعبة وكانت العرب تعظم هذه الانصاب ويعبدونها ويذبحون لها الذبائح ويصبون دماءها عليها تقربا الى الالهة ، وكذلك كانوا يستقسمون بالازلام عند هذه الالهة اذا ارادوا امرا ذا بال ليروا ماذا تأمر به الالهة . قال الله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون[1] " وكذلك كان العرب يقدسون بعض الاشجار ويعتقدون ان أرواحا طاهرة تحل بها فتكسبها روحانية وقدسية فلذلك كانوا يعظمونها ويأتون عندها ببعض الطقوس تقربا اليها ورغبة فيما تجلب لهم من الخير . ومن هذه الاشجار المقدسة السمرات الثلاث التى قيل " ان العزى كانت تاتيها على صورة شيطانية وكانت ببطن نخل وهى التى عضدها خالد بن الوليد بأمر النبى صلى الله عليه وسلم[2] " ومنها ذات انواط وهى شجرة عظيمة خضراء كانت قريش وجميع القبائل العربية يأتون اليها كل سنة فيعلقون عليها اسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عندها يوما واحدا .

---

(١) سورة المائدة (٩٠) .

(٢) انظر الازرقى ، اخبار مكة وماجاء فيها من الاثار (١ / ١٢٧) .

ومن أراد الحج ممن ياتون الى ذات انواط وضع زاده عنده ا ويدخل مكة بغير زاد تعظيما لها فلا يتعرض أحد لزاده حتى يرجع اليها [1] " قال الله تعالى في شأن المشركين : " واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا [2] ".

واما عبادة الملائكة فقد جاء في القرآن الكريم ان بعض العرب كانوا يعتقدون ان الملائكة بنات الله فسموهم تسمية الانثى وقد اتخذوا بعض الاصنام مثل اللات والعزى ومناة وزعموا انها تمثل الملائكة فعبدوهم من دون الله معتقدين انهم سيشفعون لهم عند الله لما لهم من جاه عظيم ومكانة رفيعة عنده . وقد وردت آيات كثيرة في ابطال هذه الاعتقادات قال الله تعالى : " وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون [3] " . وقال تعالى : " وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى . ان الذين لا يؤمنون بالاخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى . ومالهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا [4] " . وان هؤلاء الذين يعبدون الملائكة ويعتقدون فيها تلك الاعتقادات الباطلة كانوا يصدرون عن اوهام وظنون اذ لم يشهدوا خلقهم ولم يروا احدهم قط فلاسبيل للبشر الى الاتصال بالملائكة الا لمن يشاء الله فهم عباد الله المكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ومن خشيته مشفقون . وان هؤلاء الناس لم يكونوا يعبدون الملائكة في حقيقة أمرهم بل كانوا يعبدون الجن فهم الذين يتراءون لهم ويعدونهم في الشر فمنهم مؤمن ومنهم كافر . قال الله تعالى : " ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول

---

(١) انظر الازرقي ١ / ١٢٩-١٣٠ ، والطبري ، تاريخ الامم والملوك ٩ / ٢٩ .

(٢) سورة مريم (٨١-٨٢) .

(٣) سورة الزخرف (١٩-٢٠) .

(٤) سورة النجم (٢٦-٢٨) .

للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبد ون ؟ قالواسبحانك انت ولينا من د ونهم بل كانوا يعبد ون الجن اكثرهم بهم مؤ منون [١] ". وقد كان هناك فريق من العرب جعلوا الجن شركاء لله فى تد بير شئون الكون والحياة واعتقد وا انهم يعلمون الغيب ويقد رون على د فع المكروه عن الناس او جلب الضرة لهم ، وقد تصوروهم كائنات غيبية مرعة ومخلوقات غريبة منتشرة فى الا ود ية والشعاب والجبال ود اخل الاشجار وفى الغابات وما الى ذ لك وتخيلوهم فى صورة البهائم ذ ات الشعور الطويلة وكانوا يعتقد ون ان لهم قوة فائقة فى الظهور والاختفاء وتغيير صورهم واشكالهم كما يشاءون فباستطاعتهم ان يتمثلوا فى صورة إنسان او اى نوع من انواع الحيوانات كالحية والنعامة والكلب وغير ذ لك واذ ا اعتد ى عليهم الانسان فانهم ينالون منه بمسه فيصبح مجنونا وقد يهلكونه . قال تعالى فى الرد على اعتقاد اتهم الفاسد ة فى الجن : " وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون " [٢] . وقال تعالى : " وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون [٣] " . واذ ا كان المشركون فى سفر ونزلوا بواد قفر وجن عليهم الليل تعوذ وا بالجن ليحموهم من شر ما يخافون منه وناد وا باعلى اصواتهم ان ياعزيز هذ ا الواد ى نعوذ بك من السفهاء الذ ين فى طاعتك ايمانا منهم بقد رة الجن على د فع المكروه عنهم او ايقاع الضرة والاذ ى عليهم . قال الله تعالى : " وانه كان رجال من الانس يعوذ ون برجال من الجن فزاد وهم رهقا [٤] " . وقد كان المشركون يظنون ان الالهة التى اتخذ وها من د ون الله لها عند الله جاه عظيم ومنزلة رفيعة تجعل لها قوة التاثير فى شئون الحياة فعظم بذ لك شأنها فى نفوسهم وتعالى قد رها فى انظارهم فجعلوا هذ ه الاوثان والاصنام والانصاب آلهة صغرى

---

(١) سورة سبأ (٤٠-٤١) .
(٢) سورة الانعام (١٠٠) .
(٣) سورة الصافات (١٥٨) .
(٤) سورة الجن (٦) .

واعتقدوا انهم هم الطريق الى الله والوسطاء بين البشر وبين الاله الخالق فتوجهوا اليهم بصنوف العبادة واقاموا لهم الهياكل وبنوا لهم البيوت واتخذوا لهم السدنة ورتبوا لهم الطقوس والمراسيم وعكف لخدمتهم الكهنة حتى صاروا هم المبلغين عن هذه الالهة ، وكان الناس يحجون اليها ويقربون لها القرابين ويلطخونها بدمائها وكانوا يعتقدون ان عبادتهم لما اتخذوه من الانداد والشركاء تقربهم الى الله منزلة وتجعلهم يحظون بشفاعتهم عنده قال الله تعالى : " ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون [1] " . وقال تعالى : " ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار [2] " . وقد انكر الله على المشركين كل اعتقاداتهم ومزاعمهم جاء ذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم وفي عبارات بليغة وصريحة ابطلت كل ما يبررون به عبادتهم لما اتخذوه من آلهة والزمتهم الحجة حيث ان ما جعلوه لله من شركاء واندادا عباد أمثال عابديهم فهم خاضعون لامر الله وسلطانه لا يملكون شيئا وهم من امر ربهم مشفقون قال تعالى : " ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين [3] " . وقال الله تعالى : " ام اتخذوا من دون الله شفعاء قل اولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والارض ثم اليه ترجعون [4] " . وقد سجل القرآن الكريم ان شرك المشركين بالله يتناول الجانبين المهمين اللذين تقوم عليهما شئون حياة الانسان وهما جانب العبادة والخضوع والتذلل لله وجانب طاعته واتباع اوامره . فالمشركون يعبدون غير الله ويتذللون لهم ويتضرعون اليهم طالبين منهم قضاء

---

(١) سورة يونس (١٨) .
(٢) سورة الزمر (٣) .
(٣) سورة الاعراف (١٩٤) .
(٤) سورة الزمر (٤٣-٤٤) .

حوائجهم يدفع المكروه عنهم كما يطيعون الكهنة فيما يامرون به اوينهون عنه فأحلوا لهم اشياء وحرموا عليهم أخرى وأصبح ذلك على تعاقب الاجيال تقاليد وقوانين تواضع الناس على احترامها وتعظيمها وكانوا يرون ان الاخلال بها يجرعليهم ويلات لآلهة حيث تنالهم بسوء ومضرة . يقول الله تعالى :" سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا باسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون [1] ". وقال تعالى في آية اخرى : وقال الذين اشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين [2] ".

ومن هذا المنطلق اصبح للعرب تقاليد واعراف احلوا لانفسهم امورا كثيرة وحرموا عليها اشياء اخرى ومن جملة ما احلوا واصبح تقاليد واعرافا يرون جوازها زواج الرجل بزوجة ابيه بعد موته [3] والجمع بين الاختين [4] . وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير واكل ماذبح للاصنام والانصاب [5] وشرب الخمر ولعب الميسر [6] وما الى ذلك . وكذلك من جملة ما حرموا على انفسهم بعض الانعام والحرث فقد حرموا السائبة والبحيرة والوصيلة والحامي فلا ياكلون منها ولا يركبونها ولا يحجون عليها؛ ومنها ما هو حرام على النساء دون الرجال فلا ياكلن لحومه ولا يشربن لبنه وكذلك كانوا يجعلون مما يحرثون نصيبا لله واخر للالهة ولكنهم كانوا يراعون مايجعلونه لشركائهم من حقوق ويقدمونها على مايجعلونه لله في زعمهم . يقول الله

---

(١) سورة الانعام (١٤٨).
(٢) سورة النحل (٣٥).
(٣) جاء تحريم ذلك في سورة النساء اية (٢٢).
(٤) جاء تحريم ذلك في سورة النساء (٢٣).
(٥) ورد ذكرها في سورة المائدة (٣).
(٦) ورد ذكرها في سورة المائدة (٩٠).

تعالى : " قل ارأيتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون "(١) . ويقول الله تعالى : " وقالوا هذه انعام وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وانعام حرمت ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم(٢) " . وقال ايضا : " ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب واكثرهم لا يعقلون "(٣) وقال تعالى : " وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون (٤) " . وهكذا كانوا يسعون لارضاء الالهة ويضيعون حقوق الله ويفترون عليه .

وبما ان الوثنية تقوم على الايمان بتعدد الالهة فقد كان المشركون ينكرون بشدة وعنف عقيدة وحدانية الله ولا يطيقون سماعها فاذا دعوا الى ذلك اجابوا الداعى اليه بالتكذيب ونسبوه الى الافتراء والاختلاق وناصبوه العداء والتنكيل وقد رأينا ذلك بوضوح فى الموقف الشديد الذى اتخذه مشركو العرب تجاه الدعوة الاسلامية طيلة ثلاث عشرة سنة قضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة يدعوهم الى الاقرار بوحدانية الله ونبذ ما يعبدون من دونه . يقول الله تعالى : " وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشىء يراد . ماسمعنا بهذا فى الملة الاخرة ان هذا الا اختلاق (٥)

---

(١) سورة يونس (٥٩)

(٢) سورة الانعام (١٣٨-١٣٩) .

(٣) سورة المائدة (١٠٣) .

(٤) سورة الانعام (١٣٦) .

(٥) سورة ص (٤-٧) .

وقال تعالى : " انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركو الهتنا لشاعر مجنون [1] وقال تعالى : " واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالاخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون [2] " واذا بحثنا عن سبب رفض هؤلاء الكفار لعقيدة التوحيد نجد انهم قد ادركوا معنى الاقرار بهذه العقيدة وعلموا انها هدم للاسس والمبادئ التى تقوم عليها شئون حياتهم فى ظل الوثنية حيث ان هذه العقيدة تستلزم الاستسلام والخضوع لامر الله وحده لا شريك له فى كل شأن من شئون حياة الانسان فلا عبادة ولا طاعة الا له وحده ولا خوف ولا رجاء الا منه والخلائق جميعا عباده فهم أمامه سواء لا يملك احد منهم نفعا ولا ضرا والله تعالى هو الذى بيده ملكوت كل شئ . واذا كانت هذه هى مستلزمات عقيدة التوحيد فانها القضاء الكامل على ماكانوا يتشبثون به من اشكال الحياة فى جاهليتهم الوثنية .

ومع هذا الانكار العنيف والرفض الشديد لعقيدة التوحيد فان المشركين كانوا يقرون بوجود الله ويعترفون بانه هو الخالق الرازق وانه هو الذى بيده ملكوت كل شئ والذى يحيى ويميت والذى يدبر امر السماء والارض . وقد وردت ايات كثيرة فى القران الكريم أثبتت اعتراف مشركى العرب بهذه الامور فى شان الله تعالى فقد جاءت بعض هذه الايات فى معرض السؤال والجواب وذلك لاقامة الحجة عليهم وابطال ماكانوا عليه من الكفر والشرك . قال الله تعالى : " قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل افلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون [3] " . وقال تعالى : " قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل افلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال

---

(١) سورة الصافات (٣٥-٣٦) .
(٢) سورة الزمر (٤٥) .
(٣) سورة المؤمنون (٨٤-٨٩) .

فأنى تصرفون (١) ". وقال تعالى : " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن اللـــه فأنى يؤفكون (٢) ". وكذلك كان المشركون يلجأون الى الله فى الشدائد ويتضرعون اليه ويدعونه مخلصين له الدين وينسون مايشركون فى تلك الفترة الحرجة التى تحدق بهم المخاطر واذا ما أنعم الله عليهم وكشف مابهم من ضر وانجاهم مماكانوا فيـــه من المهالك فسرعان مايعودون الى شركهم مرة اخرى وينسون الله الذى استجاب لدعائهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : " واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبـــا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسى ماكان يدعو اليه من قبل وجعل لله أندادا ليضـــل عن سبيله (٣) . . الاية . ويقول تعالى : " فاذا ركبوا فى الفلك دعوا اللـــه مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون (٤) " وقال الله تعالى : " هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيـــط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما انجاهم اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق (٥) . . الاية . وان هذا الاقرار الذى سجله القرآن الكريم على المشركين ذو دلالتين واضحتين احداهما ان اقرارهم بكـــل ماتقدم فى شأن ربوبية الله تعالى وحده يعنى ان الالهة والشركاء الذين يعبدونهم من دون الله لا يفعلون من ذلك من شىء فهم اذا مخلوقات امثال عابديهم وهـــم خاضعون لسلطان من هو فوقهم ومفتقرون الى من هو غنى عن العالمين ولما انتفى عنهم وصف الربوبية وثبت انهم من مخلوقات غيرهم تبين انهم ليسوا اهلا لان يكونوا آلهة ولا مستحقين لشىء من العبادة والطاعة . واما ثانية الدلالتين فهـــى

---

(١) سورة يونس (٣١-٣٢) .
(٢) سورة الزخرف (٨٧) .
(٣) سورة الزمر (٨) .
(٤) سورة العنكبوت (٦٥) .
(٥) سورة يونس (٢٢-٢٣) .

فهى ان الاقرار للهوحده بالربوبية يستلزم بطبيعة الحال الاقرار له بالالوهية والوحدانية اذ هو الذى اليه الخلق والامر كله ومن هو شأنه هكذا لا يكون كمن ليس بيده شىء،واذا لم يكن الرب الخالق لكل شىء هو وحده الذى يستحق ان يكون الها يقصد بالعبادة والطاعة فمنذا الذى يستحق ذلك من مخلوقاته؟ فلذلك انكر الله تعالى على المشركين عبادتهم للالهة والشركاء بعد ان اقروا له بالربوبية جاء ذلك فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : " أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا انفسهم ينصرون وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها ام لهم اعين يبصرون بها ام لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون (١)" . وقوله تعالى : "أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون (٢) "

وقوله تعالى : " يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز (٣) ".

وكان العرب يعتقدون ان ليس وراء الحياة الدنيا حياة أخرى فالانسان عندهم يعمل فى هذه الحياة ويلقى جزاءه فيها ان كان خيرا او ينال عقابه ان كان شرا . فقد يضيع عمله فلا يلقى له جزاء وقد يستطيع ان يفلت من يد العذاب باى سبب من الاسباب . وهكذا يمضى طول حياته حتى ينتهى امره بالموت فيصبح عظاما بالية يستحيل ترابا فلا يمكن ان يعود الى حياة اخرى بعد ذلك باى حال من الاحوال . يقول الله تعالى فى شأن انكار مشركى العرب لعقيدة البعث

---

(١) سورة الاعراف (١٩١-١٩٥)
(٢) سورة النحل (١٧).
(٣) سورة الحج (٧٣-٧٤).

والحساب : " وقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين [١] ". وقال تعالى : " وكانوا يقولون أ اذا متنا وكنا ترابا وعظاما أ انا لمبعوثون أو آباؤنا الاولون . قل ان الاولين والاخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم [٢] ". وقال تعالى : " زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير [٣] " . وبناء على هذا الاعتقاد الباطل كانت الحياة وما فيها من مادة وزخارف هى الغاية عند هؤلاء الناس . فان هم الانسان وجهده وسعيه فى الحياة كل ذلك موجه نحو الحصول على متعة الحياة ما وسعه ذلك لان الحياة فى اعتقاده فرصة لن تعوض، وهكذا استحوذت الحياة وزخارفها على افكار الناس وملكت عليهم نفوسهم واصبحوا يصدرون فى جميع شئون حياتهم عن ايحاءات المادية المتطرفة .

هذا وان الوثنية العربية بجميع انواعها واشكالها - على النحو الذى سبق تفصيله - لم تكن تقوم على اساس من العلم والحق ولم يؤت اصحابها كتابا حتى يكونوا على بينة من امرهم ولكنهم كانوا يستندون فى اعتقاداتهم وتصوراتهم الى الظنون والاوهام ويتبعون الاهواء ويحسبون انهم على هدى من الله حيث كانوا يعتقدون انهم على آثار ابائهم الاقدمين الذين كانوا على عبادة الله الحق واتبعوا ملة ابراهيم عليه السلام. وقد فاتهم انهم لم يتبعوا الا اباءهم المتأخرين الذين انحرفوا عن الحق واتخذوا من دون الله الهة اخرى يقول الله تعالى عنهم : " وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون [٤] ". قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الارض ام لهم شرك فى السموات ايتونى بكتاب من

---

(١) سورة الانعام (٢٩).
(٢) سورة الواقعة (٤٧-٥٠).
(٣) سورة التغابن (٧).
(٤) سورة الزخرف (١٩-٢٢).

قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين (١) . وقال تعالى : " ألا إن لله من فى السموات ومن فى الارض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون (٢) " . الى غير ذلك من الايات التى تبين الاسس الفاسدة التى تقوم عليها الوثنية وما يتمسك به المشركون من حجج واهية . وهكذا كان المجتمع العربى يغص بالاوهام والخرافات والاساطير قبل ظهور الاسلام وقد نشأت فى اجواء هذا المجتمع امراض نفسية كثيرة فادعى بعض الناس العلم بالغيب والقدرة على التاثير فى الاقدار فنشأت الكهانة والعرافة ووجد سدنة المعابد طريقا سهلا لاكل اموال الناس بالباطل ونشر الخرافات والضلالات وكان لهم شان عظيم واثر كبير فى تكدير صفو الحياة الدينية وابعاد الناس عن صراط الله المستقيم .

وتجدر الاشارة هنا الى ما ذهب اليه الدكتور احمد شلبى فى دراسته للوثنية العربية . فقد عقد لذلك فصلين فى كتابه موسوعة التاريخ الاسلامى أثبت فى الفصل الاول ان عبادة العرب للاصنام لم تكن عبادة ذاتية حيث لم ينسوا اله ابراهيم وكانوا يعبدون الالهة تقربا اليه فاضطربت حالهم بين موحدين ووثنيين وفى ذلك يقول : " وينبغى ان يتضح ان عبادة العرب للاصنام لم تكن عبادة ذاتية انما كانت فى نظرهم وسيلة يتقربون بها الى الله (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) (٣) وهذا دليل على انهم لم ينسوا اله ابراهيم حتى حينما كانوا فى ظلماتهم يعمهون . ومما يؤكد ذلك أن الهتهم التى انتشرت فى الجزيرة العربية والتى اقاموا لها البيوت ورتبوا لها السدنة لم تشغلهم عن الكعبة بيت ابيهم ابراهيم فظلوا لها يحجون كما سبق القول . والدارس لذلك الموضوع يدرك اضطراب

---

(١) سورة الاحقاف (٤) .
(٢) سورة يونس (٦٦) وسورة النجم (٢٣ - ٢٨) .
(٣) سورة الزمر (٣) .

العرب بين موحدين على دين ابراهيم وبين وثنيين عبدة للاصنام . ويقول ابن الكلبى (١) : ويوحدونه بالتلبية ويدخلون معه الهتهم ويجعلون ملكها بيده ويقول الله عز وجل : " وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون " (٢) . أى مايوحدونني بمعرفة حقي الا وجعلوا معى شريكا من خلقي " (٣) . وان كل ماتقدم تفصيله فى هذا الفصل يغنينا عن الافاضة مرة اخرى فى هذا الموضوع . فالايات القرانية التى اوردناها سابقا تدل دلالة صريحة على ان العرب كانوا يعبدون من دون الله آلهة اخرى ولما انكر عليهم الاسلام ذلك قالوا انهم يرجون وراء عبادتهم للالهة التقرب الى الله درجة ومنزلة، ثم انهم قد نسوا اله ابراهيم عليه السلام وان كانوا يحجون الى بيت الله الحرام ويأتون ببعض امور لها صلة بدين ابراهيم فقد كانوا يقصدون بذلك عبادة ما اتخذوه الهة من دون الله ويعتبرونه تقاليد وعادات توارثوها كابرا عن كابر وهكذا انحرفوا عن ملة ابراهيم وعادوا مشركين، وان ابراهيم عليه السلام لم يكن من المشركين بل كان حنيفا مسلما مطيعا لله تعالى يقول الله تعالى : " ماكان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وماكان من المشركين (٤) " . وان ماقاله الدكتور احمد شلبى من اضطراب أمر العرب بين موحدين على دين ابراهيم وبين وثنيين عبدة للاصنام وان عبادة الاصنام لم تشغل العربى عن دين ابراهيم بل ظل على صلة به (٥) كل ذلك يتعارض مع صريح الايات التى تدل على ان العرب لم يكونوا على دين ابراهيم حيث لم يقروا بعقيدة التوحيد ولم يكونوا يعبدون الله حق عبادته وانما اتخذوا آلهة اخرى متعددة كانوا يعبدونها من دون الله وكان هذا من الوضوح بحيث لا يختلف فيه احد . فكيف يمكن القول بعد ذلك بأنهم لم ينشغلوا عن دين

---

(١) كتاب الاصنام ص ٧ .
(٢) سورة يوسف (١٠٦) .
(٣) موسوعة التاريخ الاسلامى ١ / ١٧١-١٧٢ .
(٤) آل عمران (٦٧) .
(٥) المصدر السابق ص ١٧٢ .

ابراهيم ولم يرغبوا عنه . وقد دعا ابراهيم ربه ان يبعده هو وذريته من عبادة غيره تعالى . وقد تبرأ ممن ينحرف عن ملته ويشرك بالله تعالى غيره . جاء ذلك في قول الله تعالى : " واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد امنا واجنبني وبني ان نعبد الاصنام رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم (١) " . وفي الفصل الثاني تحت عنوان عبادة الاصنام ليست جدية يقول الدكتور احمد شلبي : " ان الذي يقرأ بامعان كتاب الاصنام لابن الكلبي يصل الى حقيقة هامة هي ان عبادة الاصنام عند العرب لم تكن جدية وانها لم تتعمق في قلوبهم وان الثورة على الاصنام كانت تحدث من حين الى آخر فيطيح الثائر براس صنمه وينهال عليه تهشيما وسخرية وليس هذا فقط من العقلاء المفكرين كزيد بن عمرو وورقة بن نوفل وغيرهما بل ان الثورة على الاصنام كانت تحدث من عابد بها واتباعها فكان العابد ينقلب فجأة الى ساخر ساخط لادنى سبب من الاسباب مما يدل على ان عبادتهم للاصنام كانت في كثير من الاحوال سطحية لا تعمق فيها (٢) . وقد اورد على ذلك ادلة من كتاب ابن الكلبي منها ان لقبيلة كنانة صنما يقال له " سعد " فاتى اليه رجل منهم ليقف ابله عليه تبركا بذلك فيها وعند ما دنا من الصنم نفرت الابل وتفرقت وانطلقت في الفلاة هاربة من شدة الخوف مما راته على الصنم من أثر دماء الذبائح فغضب الرجل حين ادرك ضعف الصنم وعلم ان لا نفع في الاتيان اليه وتناول حجرا ورماه به وقال لا بارك الله فيك الها انفرت علي ابلي ثم تركه وذهب في طلب الابل حتى جمعها وانصرف وهو يقول :

أتينا الى سعد ليجمع شملنا	فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وما سعد الا صخرة لا قوى لها	ترجى ولا تدعى لغى ولا رشد (٣)

---

(١) سورة ابراهيم (٣٥-٣٦) .

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامي ١/١٧٢-١٧٣ .

(٣) انظر ابن الكلبي - كتاب الاصنام ص ٣٧ .

وكذلك قصة خزاعى بن عبد نهم من قبيلة مزينة وكان لهم صنم يقال له " نهم" تولى خزاعى هذا امر سدانته ولكنه عند ما سمع بالدعوة الاسلامية ثار على صنم قبيلته فكسره حين تبين له حقيقة أمره وأنشأ يقول :

ذهبت الى نهم لاذبح عنده — عتيرة نسك كالذى كنت أفعل
فقلت لنفسى حين راجعت عقلها — اهذا اله ابكم ليس يعقل
ابيت فدينى اليوم دين محمد — وربى الاله الماجد المتفضل(١)

وجاء فى قصة امرىء القيس انه عند ما قتل بنو اسد اباه واراد غزوهم للاخذ بثأره عرج على صنم قومه الذى يقال له ذو الخلصة واستقسم بالازلام عنده فى أمر أعدائه فخرج السهم " الناهى " اى الامر بعدم الاقدام على الغزو والاخذ بالثأر من خصمه ولما اعاد الامر فى المرة الثالثة وجاء ناهيا عن الحرب والانتقام كسر القداح وضرب بها وجه الصنم من شدة الغضب وأبى إلا أن يأخذ بالثأر ومضى فى طريقه وهو ينشد :

لو كنت ياذا الخلص الموتورا
مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل الغداة زورا (٢) .

وهذا بعض ما يستدلون به على عدم جدية العرب فى عبادتهم للاصنام حيث كانت سطحية لا تعمق فيها . ونحن نعلم ان الوثنية عبادة جافة لا روح فيها ولا يمكن ان تقبلها الفطرة السليمة باى حال من الاحوال لانها قائمة على اساس غير سليم حيث إنها ترتكز على مجموعة من الظنون والاوهام والخرافات والتهاويل فلذلك كلما احس الانسان بنفحة من الحرية الحقة وتجرد من الاهواء وتفكر فى امر الوثنية بجدية

---

(١) انظر ابن الكلبى كتاب الاصنام ص ٣٧ .
(٢) موسوعة التاريخ الاسلامى ١ / ١٧٤ .

وعمق فانه يدرك ان ما يعبده من اصنام واوثان وانصاب وغير ذلك لا يستحق ان يكون الها اذ لا يملك نفعا ولا ضرا لنفسه ولا لغيره فعبادة مثل هذا الاله الذى ليس بيده شئ يتعارض مع الفطرة السليمة والعقل الراجح بشكل ظاهر لا لبس فيه ولا غموض . وهذا ما رايناه فى شان هؤلاء الذين ثاروا على اصنامهم وانكروا احقيتها للالوهية بعد ان كانوا لها عابدين فان الذى وقف ابلمعند "سعد " يرجو خيره وبركته وفوجئ بخيبة الامل حين ظهر له عجز الهه فى تلبية حاجته وراجع عقله فى امر مثل هذا الا له الضعيف العاجز الذى لا يملك شيئا فتبين له ان الذى ينبغى ان يرجى ويدعى انما هو الرب القادر المالك المتفضل . وكذلك حال امرئ القيس فعملية الاستقسام بالازلام عند الالهة قائمة على الخرافات والكذب والتدجيل فالاصنام لا تعلم الغيب ولا تأثير لها فى تدبير شئون الكون والحياة وكذلك السدنة الذين يبلغون عنها فلا غرابة أن نرى من عبدة الاصنام من يكذبها اذا جاء قضاؤها متعارضا مع مصلحته وهواه . ولكن هذه الحالات المفردة لا تتخذ دليلا على عدم جدية العرب عامة فى الايمان بهذه الاصنام وعبادتها . واما ما كان من امر خزاعى الذى تنكر لصنم كان نعتقد ما سمع بالدعوة الاسلامية فليس ذلك ايضا حجة على عدم جدية العرب فى عبادة الاصنام لان الرجل لم يثر على الصنم الا بعد ان جاءه العلم وادرك حقيقة ما كان عليه من الكفر والضلال . وليس هناك شئ أدل على جدية العرب فى عبادتهم لما اتخذوه من آلهة من دون الله من ايمانهم الشديد بهذه الالهة واهتمامهم بامرها واصرارهم على عبادتها رغم ما اقامه الاسلام عليهم من حجة بالغة ودحضه لجميع مزاعمهم ومعتقداتهم الباطلة . ويتضح لنا ذلك فى الموقف الشديد الذى اتخذه مشركو العرب تجاه الدعوة الاسلامية طوال ثلاث عشرة سنة فى العهد المكى من حياة الدعوة . ولو انهم كانوا مستخفين بدينهم غير جادين فيه لما وقفوا ذلك الموقف المتصلب ولتركوا دينهم عند ما جاءهم الهدى من الله . فالامر الذى لا جدية لصاحبه فيه يسهل عليه تركه لاى سبب من الاسباب . وما رأيناه من حالة مشركى العرب فى تمسكهم الشديد بالوثنية وتعصبهم لها واصرارهم على البقاء عليها ومعاداتهم الشديدة لكل من اراد تحويلهم عنها لهو اكبر دليل على

ان عبادتهم للالهة كانت متأصلة فى قلوبهم لا يتخلون عنها او يقبلون بها بدلا فى سهولة ويسر . ولا يعنى ذلك نفى وجود بعض حالات يقوم فيها بعض الافراد بالثورة على الالهة وانكار صلاحيتها للعبادة وذلك بفعل عوامل خارجية قاهرة .

هذا بجانب الوثنية وجدت فى بلاد العرب قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ديانات اخرى منها ما يرجع فى اصله الى الرسالات السماوية السابقة كالنصرانية واليهودية ومنها مالا صلة له بالسماء كالمجوسية والصابئة ولكن كتب التاريخ تذكر ان المجوس والصابئين كانوا قلة قليلة جدا . ولقد كان العرب على صلة باهل هذه الديانات الذين كانوا يقيمون فى مناطق الجزيرة وكان لهم أتباع وانصار من القبائل العربية رغم قلة عددهم بضآلة شأنهم فى جانب الوثنيين الذين كانوا اغلبية ساحقة بين سكان الجزيرة انذاك . وانا لنجد فى القرآن الكريم - فى السور المكية منه والمدنية على السواء - ايات كثيرة تخاطب اهل هذه الديانات وتحاجهم وتبطل مزاعمهم وتبين فساد ارائهم ومعتقداتهم وتقيم الحجج القاطعة على بطلان مايتمسكون به ، كما تستعرض قصص أنبياء الله السابقين ومنهم الرسولان موسى وعيسى عليهما السلام اللذان تزعم اليهود والنصارى انهم ينتمون اليهما . فهذه الايات البينات تدل بلا شك على وجود تلك الطوائف فى بلاد العرب وان العرب كانوا على اتصال بهم وعلى معرفة بدياناتهم قبل ظهور الاسلام ومن هذه الايات قوله تعالى : " ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شىء شهيد (١) " . وقوله تعالى : " لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا

---

(١) سورة الحج اية (١٧) .

وأنهم لا يستكبرون (١) ". الى غير ذلك من الايات التى يأتى ذكرها فى ثنايا هذا الفصل . ويؤكد قولنا بان العرب كانوا على اتصال باهل هذه الديانات انهم كانوا على معرفة بما كان بين كل فرقة من خلاف وتفرق ونزاع وما بين أهل الديانات جميعا من تباغض ومعاداة حيث كانت كل فرقة تعتد بآرائها وتتعصب لمعتقداتها وتتربص بالاخرين الدوائر . وقد جاء فى بعض الايات انهم كانوا يتندرون باصحاب هذه الديانات وينعون عليهم اختلافهم وتنازعهم وتفرقهم بعد ان جاءهم الهدى من الله ويتطلعون الى ظهور نبى منهم كما ارسل الى الامم من قبلهم ويقسمون بالله ان لو جاءهم نذير ليكونن اهدى من هؤلاء الامم من حولهم يقول الله تعالى فى شأن هؤلاء : " واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا . استكبارا فى الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا (٢)".
وقد كانت اليهودية معروفة فى بعض مناطق بلاد العرب منذ زمن بعيد لم نقف على تاريخ دخولها فيها على وجه التحديد . وقد استقرت جماعة من اليهود فى القسم الشمالى من الجزيرة فى يثرب وخيبر و فدك وتيماء ووادى القرى وكان بيثرب ثلاث قبائل من اليهود هم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة . وكذلك كان هناك يهود فى اليمن وقد نشطت فيها الدعاية اليهودية . واحتدم فيها الصراع بين اليهود و النصارى واشتد بينهم النزاع والتنافس من اجل كسب الانصار والاتباع ، وقد استمرت الحال هكذا حتى فترة احتلال الاحباش حيث قويت الدعاية المسيحية بعد ذلك ورجحت كفتها على اليهودية بسبب قوة الاحتلال التى كانت تعمل لنشرها وتمكينها فى البلاد ولكن رغم ذلك لم تستطع اقصاء اليهود عن حلبة الصراع وظل لهم وجود باليمن حتى فترة دخول الاسلام اليها وكان بها آنذاك جالية يهودية كبيرة . وقد اعتنق اليهودية بعض القبائل

---

(١) سورة المائدة آية (٨٢) .
(٢) سورة فاطر ايتا (٤٢-٤٣) .

العربية في اليمن يذكر المؤرخون منهم بنى كنانة وكندة وبنى الحارث بن كعب وكذلك انتشرت اليهودية في قبيلة حمير حتى لقد اعتنقها الملك ذو نواس الحميرى ملك اليمن وكان لها سندا وظهيرا وبذل مجهودات كبيرة فى سبيل نشر اليهودية وقد تبعه كثير من رعيته (١) .

وأما النصرانية فكانت معروفة ايضا فى بعض مناطق الجزيرة وقد دخلت اليمن منذ وقت مبكر وقويت شوكتها وعظم شأنها بعد احتلال الاحباش لها ، فاعتنقها بعض القبائل العربية كان أشهرها قبيلة ربيعة وقضاعة الذين كانوا يكثرون التردد على بلاد الروم للتجارة وكذلك تبعها كثير من بنى تغلب وتنوخ وحمير وطىء وكان للنصارى مركز هام فى نجران وقد انتشرت المسيحية بين اهلها . ويذكر ابن هشام ان ذا نواس ملك اليمن قاد حملة عنيفة لتهويد الناس بالقوة وقد وجه قوة عسكرية كبيرة الى نجران ولما سقطت تحت رحمة سيوفهم خيروا الناس بين قبول اليهودية و الموت وقد لقى هؤلاء الذين رفضوا قبول اليهودية من ايدى هذه القوات أشد العذاب واليم العقاب وقد اضطهدوهم وحرقوهم وقتلوهم شر تقتيل (٢) . يقول الله تعالى فى شأن هؤلاء : " قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد (٣) " .

واما دولتا الغساسنة والحيرة فقد دخلتهما المسيحية وانتشرت فيهما فدولة الغساسنة كانت وثيقة الصلة بدولة الروم منذ زمن طويل وقد ذكرنا سابقا انها وقعت فى النهاية تحت احتلال الروم فمن طبيعة الامور ان تكون المسيحية قد دخلت الغساسنة عن طريق علاقاتها مع الروم ثم نشطت الدعاية المسيحية بعد احتلال الروم لها فانتشرت المسيحية بين سكانها .

---

(١) انظر الدكتور احمد شلبى موسوعة التاريخ الاسلامى ١ / ١٧٤ ، وكذلك حامد عبد القادر . الاسلام ظهوره وانتشاره ص (٤٢-٤٤) .

(٢) انظر كتابه " سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ١ / ٣٥ . وكذلك الاسلام ظهوره وانتشاره ص ٥٧-٥٨ .

(٣) سورة البروج (٤-٨) .

واما الحيرة فكانت اهم مراكز المسيحية ببلاد العرب وقد انتشرت المسيحية بين الطائفة المعروفة بالعباد وهم قبائل شتى من العرب استقروا بالحيرة وكانوا اهم سكانها وقد اجتمعوا على المسيحية . ولما تنصر ملوك هذه الطائفة قويت شوكة المسيحية فى الحيرة وكثرت فيها البيع والاديار[1] كان اشهرها دير هند الكبرى الذى بنته هند ام الملك عمرو بن المنذر، واما عن وجود اليهود والنصارى فى مكة قبل الاسلام فانا لنجد فى بعض السور المكية آيات كثيرة تدل على وجود اجانب فى مكة كان يطلق عليهم اسم اهل الكتاب، والمعروف ان اهل الكتاب هم اليهود والنصارى . وبعض هذه الايات تتحدث عن قصة موسى [2] عليه السلام مع فرعون واخبار بنى اسرائيل مما يدل على أن هناك صلة بين اهل مكة وبين اليهود وانهم على معرفة بدياناتهم .

. . .

---

(١) انظر جورجى زيدان ، تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٢٠٠ .

(٢) سورة طه (٨-٩٩) وكذلك سورة القصص (من اول السورة الى اية ٤٦) .



الباب الأول

المجتمع الإسلامي الأول المثالي
وعناصر تكوين الجيل الأول
وأسس بناء
المجتمع المسلم الأول

الباب الاول

المجتمع الاسلامى الاول فى صورته المثاليـــة

فى الفصل التمهيدى الذى قدمناه بين يدى هذا البحث تحدثنا عـــن حقيقة الجاهلية ومظاهرها المتفشية فى حياة الناس قبل قيام دعوة الاسلام ، ونحن الان بصدد الحديث عن التحول الضخم والتغيير الشامل الذى أحدثه الاســلام فى حياة البشر منذ ان بزغ فجره على العالم واعتنقه الجيل الاول من هذه الامــة وامتلات قلوبهم بالايمان بالله فتغيرت حياتهم من اساسها وارتقت ارواحهــــم وسمت نفوسهم واتسعت مداركهم وتطهرت اخلاقهم وتحولت انماط حياتهم ظهــرا لبطن وارتفعوا من الحضيض الى المستوى السامق الرفيع من الدين والاخـــلاق الفاضلة مما حير العقول يعجز عن تحليله عباقرة الفلسفة وعلماء الاخلاق والاجتماع حيث لاعهد للبشرية جمعاء بدعوة كهذه فى قوة تاثيرها على النفوس وكمالهـــا وشموليتها من حيث محتوياتها ومضامينها وغاياتها وفى نجاحها الباهر الـــذى حققته بسرعة فائقة ولم يكن لنا بد لكى يأخذ هذا الحديث صورته الكاملــــة الواضحة فى الاذهان من التقديم له بالحديث عن حقيقة الجاهلية ومظاهرهــــا وحالاتها التى عاشها الناس قبل مجئ الاسلام والتى يعيشونها فى كـــــل المجتمعات الجاهلية المتكررة على مدار التاريخ حين يبتعدون عن هدى الاسلام ونوره الذى يبدد ظلمات الجاهلية ويزهق الباطل بما جاء به من الحق المبيــن وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال : " لا يعرف الاسلام من لـم يعرف الجاهلية " .

ان ذلك التغيير الجذرى العميق الذى حدث فى نفوس الرعيل الاول مــن المسلمين وظهرت له آثار ملموسة واضحة فى كل منحى من مناحى حياتهم كان أغرب ماشهده تاريخ البشرية كله من انقلابات وتحولات لانه عظيم وشامل . ولم تكـن العظمة التى اتسم بها هذا التحول العظيم محصورة فى جانب معين محدود ولكنه

انقلاب كل شيء فيه عظيم وغريب يبهر العقول ويجعلها في حيرة من أمرهـــا ،
اذا نظرت اليه لاول وهلة رأته امتدادا لدعوة النبيين السابقين فلم يكن غريبـــا
في نوعه لما سبقه من رسالات سماوية متعددة " قل ماكنت بدعا من الرسل وماادرى
مايفعل بي ولابكم ان اتبع الا مايوحى الى وما انا الا نذير مبين [1] ". ولكنهـــا
حين تنظر اليه مرة أخرى من زوايا متعددة يبدو لها شيئا عظيما وغريبا في عمقـه
وسعته وشموله وقوة تأثيره في النفوس ، عظيما في وضوحه وجلائه وقربه الى الافهـام
غريبا في قوته وسرعة انتشاره ومدى ماحققه من نجاح باهر وانتصارات عظيمة خـلال
فترة قصيرة من الزمن .

ولقد كانت البشرية في فوضى من الافعال والاخلاق والسلوك والسياسـة
والاجتماع والاقتصاد وكانت الديانة مجموعة خرافات وترهات وضلالات حيـث
كان الناس يعبدون بعضهم خلق لاجلهم ويخضع لارادتهم وتصرفهم ولا يملك لنفسه
ولا لغيره نفعا ولا ضرا . كما ان عباداتهم لالهتهم المختلفة المتعددة كانـت
سطحية طافية في واقع حياتهم لم يكن لها سلطان على ارواحهم ونفوسهم ولا لهـا
تاثير في اخلاقهم وشئون حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ولكنهـم
كانوا يصدرون عن الاهواء ويركبون العمياء ويخبطون خبط عشواء ويتعبـدون
للقبيلة ويخضعون لسلطانها في غيها ورشدها سواء ويقدسون التقاليد والاعراف
والعادات وهذه كلها هي الطواغيت التي كانت تسيطر على مشاعر النـاس
وافكارهم وتشكل سلوكهم في واقع الحياة .

ولقد نقل الاسلام البشرية من المعارف العليلة الباطلة التي تمسك بهـا
وتبنى عليها شئون حياتها الخاصة والعامة الى معرفة عميقة واضحة ذات سلطـان
على الروح والنفس والقلب والجوارح ذات تاثير كبير على الاخلاق والاجتماع وجميع
مناحي الحياة البشرية ، والنقلة التي احدثها الاسلام في نفوس أتباعه كانت نقلـة

---

(١) سورة الاحقاف آية (٩) .

بعيدة جدا من حياة جاهلية جهلاء الى حياة اسلامية طاهرة سعيدة من عدم المعرفة الحقة بالله والتوجه بالعبادة الى غيره من مخلوقاته ورفض اتباع ما أنزل الله والتحليل والتحريم من عند انفسهم حسبما تمليه الاهواء والنزعات والمصالح المتضاربة ، كانت نقلة من ذلك كله الى معرفة عميقة بالله وحده لا شريك له وايمان راسخ بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وطاعة مطلقة لاوامر الله ونواهيه ابتغاء وجهه ومرضاته .

ففى الحياة الدينية كان التحول واضحا جدا من عبادة المادة كلها والتعلق بالخرافات والضلالات الى عبادة الله الواحد الاحد فهو نقلة بعيدة رفعت من احساس المسلمين وسمت بنفوسهم وارتقت بعقولهم وحلقت بها فى سماء الايمان والعبودية الحقة لله . وفى الحياة السياسية كانت النقلة من حياة فوضوية يحكم الناس فيها القوة فى جميع شئونهم دون تفكير حتى اصبحت دستورا وقانونا يتبعونه ويحترمونه ويخضعون لسلطانه ويعيشون فى ظله فى اضطراب وعدوان مستمر باسهم بينهم شديد وقلوبهم شتى والقبائل فى حروب دائمة أو هدنة متعارضة ، وكانت بعض القبائل العربية تقوم بغارات السلب والنهب والعدوان بل وجدت فى جزيرة العرب جماعات الصعاليك الذين يعيشون على أعمال النهب والسلب حتى أصبح ذلك عندهم فى جنح الظلام او فى وضح النهار عملا عاديا لا يمنعهم منه إلا شدة الحراسة ويقظة الحراس وشدة انتباههم .

وكان من أبرز صفات العرب الاخذ بالثأر والقسوة فى الانتقام ، فمن ذلك كله نقلهم الاسلام الى حياة طاهرة هادئة يستسلمون لاوامر الله ويخضعون لسلطانه ويدينون للحق ويتبعون ما شرع الله لهم من النظم والقوانين ويلتزمون حدود ما أنزل الله حتى اصبحت الشريعة الالهية دستورهم والعدالة الربانية رائدهم فلا افتيات منهم فى الرأى ولا نزاع مع الحكم الالهى ولا خيرة لهم بعد

الامر ولا تحاكم الى الطواغيت ولا صدور عن الهوى ولا تمسك بتقاليد الاباء والاجداد ولا مشاقة للرسول وانما طاعة لله تعالى ونزول عند امره ونهيه خشعا ركعا يبتغون فضلا من الله ورضوانا . " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما "(١) . "والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها وانابوا الى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله وأولئك هم اولوا الالباب "(٢) .

وقد كان الرعيل الاول من المؤمنين فى العهد المكى من تاريخ الدعوة الاسلامية يقاسون اشد انواع العذاب ويسامون أسوأ التنكاية بالاذى والاضطهاد حتى مات منهم تحت وطأة العذاب من مات دون أن يدافعوا عن انفسهم من اعتداءات قريش حيث لم يكن الامر قد اتاهم بذلك ولم يسجل التاريخ حادثة واحدة دافع فيها مسلم عن نفسه طول ذلك العهد وانما سجل عنهم صبرهم واحتمالهم اقسى العنت والنكال والاضطهاد فى سبيل الدعوة دون ان يثنيهم مايلاقونه من ذلك عن وجهتهم الصحيحة او يوهن من عزائمهم القوية حتى أذن الله لهم بالهجرة الى المدينة والدفاع عن انفسهم وحريتهم الدينية " أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ... (٣) الاية . وتلك قمة عالية فى الطاعة والانقياد لأمر الله .

---

(١) سورة الفتح اية (٢٩) .
(٢) سورة الزمر ايتا (١٧-١٨) .
(٣) سورة الحج (٣٩-٤٠) .

ومن الناحية الاجتماعية والاخلاقية فقد نقل الاسلام العرب من الحياة القبلية التى يخضع فيها الانسان لتفكير جماعته وسلطانها يسالم من سالمت ويقاتل من قاتلت دون ان يسأل نفسه مرة واحدة لماذا يطاوع قبيلته فى خيرها وشرها وهى حياة طمست فيها شخصية الانسان العربى لدرجة ان كيانه ووجوده مرتبط بوجود قبيلته بعزها وسيادتها ان هى تحركت تحرك معها وان سكنت لزمه السكون وان اضمحلت وهلكت فالويل له ان بقى بعدها الا ان يحتمى بعض قبيلة اخرى تذوب فيها شخصيته مثلما يذوب الملح فى الماء . من هذه الحياة التعسة نقلهم الاسلام الى حياة أخرى افضل اتضحت فيها عناصر تكوين شخصية الفرد ومقوماته وتحديد مسئولياته وواجباته تجاه نفسه والمجتمع الذى يعيش فيه . وكان لزاما على كل فرد ان يتبع طريق المحسنين البررة ويتبرأ من الاشرار العصاة ولو كانوا اقرب الناس اليه وأعزهم لديه ان لا يعفيه من المسؤولية كونه اتبع غيره مهما كان ذلك الغير " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون "(١) . . . " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب "(٢) . وهذه نقلة عظيمة من افق ضيق من الولاء للقبيلة وحب الاهل والعشيرة والمال بما هو فوق الحد اللازم الى آفاق انسانية عالية وحياة روحية سامية تجعل بنى البشر أسرة واحدة تحت راية الايمان بالله وتحدد مسؤوليات كل فرد وواجباته تجاه الاخرين على أساس من الاخوة والمحبة والعدالة من اجل تحقيق السعادة والامن والاستقرار والسلام للبشرية " قل ان كان آباؤكم / وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين(٣) " . وكذلك نقل الاسلام العرب من نظام الطبقات وما يتبعه من الاعتداد بالفوارق الاجتماعية

---

(١) سورة التوبة اية (٢٣) .
(٢) سورة المائدة (٢) .
(٣) سورة التوبة (٢٤)

والامتيازات الطبقية والعصبيات القبلية والقومية والعرقية الى المساواة الانسانية والاخوة الروحية وقضى على جميع عوامل التفرقة بين عباد الله وجعل الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لاحد هم على الآخر عند الله الا بالتقوى والعمل الصالح . والى جانب ذلك كانت الحياة الاباحية والعهر والفسوق التى تعيشها العرب فى الجاهلية فحولها الاسلام الى حياة الطهر والعفة حتى اصبح الرجل الذى عاش عمره المديد فى الفسق والفجور والشهوات وأخذ منها بالنصيب الوافر ينتقل بالاسلام الى مرحلة بعيدة فى الطهر والعفة فيغض البصر ويبعد عن مواطن الرذيلة والزلل واذا وقع يوما فى حبائل الشيطان وغلبه على نفسه رغم تحفظه الشديد حتى ارتكب فاحشة وهو بعيد عن انظار الناس ، بعيد عن متناول يد السلطة والقانون تذكر الله الذى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور والذى لا يخفى عليه شئ فى الارض ولا فى السماء وخاف وعيده الشديد وعقابه الاليم وسارع الى الاعتراف بما وقع منه من خطيئة لتطهير نفسه وهو يعلم ان عقوبته الرجم حتى الموت ولكن ذلك اهون عليه لتكفير ذنبه وجريرته من ان يلقى الله يوم القيامة وهو عليه غضبان . وهكذا اصبح خلق الطاعة والامانة والصدق والوفاء والعدل والعفة والطهر بعض كيان المسلم وعنوان شخصيته المتميزة نتيجة هذه النقلة العظيمة التى حدثت فى حياة المسلمين (١) .

وهكذا كان هذا التحول العجيب الذى أحدثه الاسلام فى حياة المسلمين فتغيرت نفسيتهم بالايمان الواسع العميق تغيرا عجيبا وارتفعت عقليتهم وسمت اخلاقهم حتى كان الواحد منهم منذ لحظة دخوله فى الاسلام تتحول أنماط حياته وتتغير نظرته الى الاشياء وتتسع فكرته عن الله والكون والانسان والحياة الانسانية فيصبح رجلا غير الرجل وكأنما خلق خلقا جديدا فقد تغلغل الايمان فى أحشائه وتسرب فى جميع عروقه وأفكاره ومشاعره وجرى منه مجرى الروح والدم

---

(١) انظر د . احمد شلبى : المجتمع الاسلامى ، ص ٤٩-٥١ .

واقتلعت جذور الجاهلية والكفر من قلبه وامحت اثارها من نفسه ومن واقــــع حياته وظهرت مكان ذلك كله من روائع الايمان واليقين والحب والتفاني في سبيل الحق ومن محاسن الاعمال وفضائل الاخلاق ماجعل ذلك الجيل الاول مــــن الامة الاسلامية خير امم الارض قاطبة أخرجه الله من ركام الجاهلية ومن ظلمات الكفر فكونه احسن تكوين ورباه احسن تربية ليتبوأ مكان الصدارة والسيادة والقيادة بين العالمين ، واحتل ذلك المركز القيادي بقوة الايمان واتباع نهج اللــــه القويم فحمل رسالة الخير والسلام والعدل والعودة الى الناس اجمعين ، فسار النصر في ركابه على نحو لم يسبق له مثيل وقد عجز التاريخ ان يجد له مثيــلا او نظيرا في قديم الزمان او حديثه (١) .

واذا كان "المثل الاعلى" للانسان في الحياة الجاهلية يتمثل في عبادة الالهة التي اتخذوها من دون الله واتباع التقاليد والعادات الموروثة عن الابــاء والاجداد والتعصب الاعمى للقبيلة والخضوع المطلق لسلطانها واتباع الاهـواء والشهوات والاعتداد بالشجاعة الشخصية والشهامة والكرم الى حد الاسراف ، والتبذير لقصد الفخر والرياء وبعد الصيت والقسوة في الانتقام والاخذ بالثـــأر والفخر بالانساب والاحساب والنجدة ومجالسة علية القوم وفي حانات الخمــر والتمتع بالشراب في وسط الندامى والقيان ارضاء لنوازع النفوس المتلهفة المتعطشة الى الفجور والعهر فقد حول الاسلام هذه الحياة الماجنة المعربدة الى حياة طاهرة كريمــة تتحقق فيهـــــــا السعادة والامن والسلام للبشر فكان المثل الاعلى فــي الحياة الاسلامية الايمان بالله والخضوع له والانقياد التام لامره واتباع اوامــره واجتناب نواهيه واخلاص العبادة له وحده والتحلي بالاخلاق الفاضلة والصفـات الحميدة والصدور في كل الاعمال عن ايمان راسخ بالله وابتغاء وجهه ومرضاتــه

---

(١) انظر : ابو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٠١ .

وقصد الخير العام واخضاع المنفعة الشخصية ومصالح الجنس والقبيلة والعشيرة والاهل لاوامر الدين تحقيقا للمصلحة العامة لبنى البشر[1] . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين المثل الاعلى للانسان المسلم فى الحياة منها قوله تعالى : " ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصلوة وآتى الزكوة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون[2] " . وقوله تعالى : " أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى انما يتذكر اولو الالباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلوة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار[3] " . وقوله " الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلوة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور[4] " .

- ظروف قاسية عاشها الجيل الاول فترة بدء الدعوة :

لقد عاش الجيل الاول من الامة الاسلامية ظروفا قاسية وحالات قمع وتعذيب واضطهاد استمرت طول العهد المكى كله فمنذ ان بدأت دعوة الاسلام فى مكة وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى عبادة الله وحده لا شريك له واتباع ما أنزل إليه من ربه ، قامت قيامة الجاهلية ودافعت عن معتقداتها وتقاليدها

---

(١) انظر احمد امين ، فجر الاسلام ص ٧٦-٧٨ .
(٢) سورة البقرة اية (١٧٧) .
(٣) سورة الرعد ايات (١٩-٢٢) .
(٤) سورة الحج اية (٤١) .

بقوة وعنف واعلنت قريش حنقها على هذا الدين الجديد وسلكت كل السبل للقضاء عليه فى مهده قبل أن يستفحل خطره واجلبت على الرسول صلى الله عليه وسلم وكل من آمن معه بخيلها ورجلها ورمتهم من قوس واحدة فكانت تلك الحوادث المروعة من الاضطهاد والتعذيب والاذى التى شهدتها فترة العهد المكى .
وحتى حين اخرجت قريش المؤمنين من ديارهم واموالهم بغير حق واضطروا للهجرة الى المدينة كانت روح العداء ماتزال على اشدها فازدادت حدة التوتر بين الفريقين فشنت قريش على المسلمين حربا ضارية وحزبت عليهم الاحزاب ، واحتدم الصراع بين الحق والباطل (١) وذلك من سنن الله فى هذا الكون منذ أن عرف فى دنيا الناس حق وباطل ولكن الغلبة والقهر لا تكون فى النهاية الا للحق حين يقذف الله به على الباطل فيدمغه فاذا هو زهوق وهباء منثور(٢) .

لقد مرت مقاومة قريش لدعوة الاسلام بمراحل ثلاث ، اتجهت اول الامر الى العبيد والضعفاء فعرضوا لاقسى انواع العذاب فكانوا يضربون ويحبسون ويحرمون من الطعام والشراب ويوثق ظهر احدهم بالرمضاء وتوضع فوقه الحجارة المحماة الثقيلة لانهم آمنوا بالله وحده ورفضوا الشرك وتبرأوا من أهله (٣) ، ومن هؤلاء ياسر وزوجه سمية وابنه عمار وبلال بن رباح وخباب بن الارت وصهيب ابن سنان الرومى وعامر بن فهيرة وامثالهم من الذين عذبوا فى سبيل الله فمنهم من مات تحت وطأة العذاب دون ان ينال المشركون ما أرادوا. ورغم كل الاعتداءات المستمرة المتنوعة التى عرضت قريش العبيد والضعفاء لها لتفتنهم عن دينهم فقد رأت ان الدعوة يزداد انتشارها ليس فقط بين العبيد والضعفاء بل انضم لها الاشراف من مختلف بطون قريش الامر الذى يشكل خطرا بالغا يهدد كيان الشرك بالزوال وينذر اهله بالهلاك . وازاء ذلك لم يجد هؤلاء

---

(١) انظر : ابوالحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ٩٥-٩٧ .
(٢) انظر : السيد سابق : عناصر القوة فى الاسلام ص ٢٣-٢٤ .
(٣) انظر : الحافظ ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٥٧-٦٠ .

المشركون طريقا آخر لوقف موجة هذه الدعوة غير مضاعفة الضغط وتنويع اساليب التعذيب فاصبح كل مسلم هدفا للهجوم والايذاء لا تشفع له مكانته من قريش ولا ثراؤه وجاهه وقوته ترد عنه الكيد والاذى فقد نال الاذى سادة أمجاد أمثال أبي بكر (١) وعثمان بن عفان والزبير وابي عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون وغيرهم (٢) . وقد اصاب المسلمين من العذاب الشديد والبلاء والمهانة ما تفيض به حوادث ثلاث عشرة سنة قضوها في مكة بعد ظهور الاسلام حتى اضطروا للهجرة الى الحبشة مرتين قبل هجرتهم الاخيرة الى المدينة فرارا بدينهم وطلبا للامان والاستقرار . وقد تعرض الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه للهجوم والايذاء وخاصة بعد رفضه عليه الصلاة والسلام مبادرة قريش لاغرائه بالعروض المالية السخية وبالملك والسلطان ليكف عما أرسل به إليهم - وقد اعلن عن رفضه ذلك بقولته المشهورة لعمه ابي طالب : " ياعم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله أو اهلك دونه ماتركته (٣) " . وقد اصبح الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك هدفا لهجوم قريش وايذائهم حين فشلوا في المفاوضة معه ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يخافون قيام حرب أهلية بين العشائر وذلك لان ابا طالب - وهو ذو مكانة رفيعة بين العرب - وقف في وجه قريش لحماية رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله بنو هاشم وبنو عبد المطلب فيما عدا ابا لهب وابا جهل وعقبة بن ابي معيط وكان لذلك ابعاده في صرف ثقل عدوان قريش الى مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب وضرب الحصار عليهم . ولا شك ان موقف بني هاشم هذا كان له اكبر الاثر في رد كثير من اذى قريش واعتداءاتها وكيدها عن الرسول صلى الله عليه وسلم (٤) . " وهم ينهون عنه وينئون عنه وان يهلكون الا انفسهم وما يشعرون " (٥) .

---

(١) اقرأ قصة عزمه على الهجرة إلى الحبشة في البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ٣ / ٩٣-٩٥ .

(٢) اقرأ قصة ايذاء قريش لهؤلاء وهجرتهم في نفس المصدر ٣ / ٦٦-٧٩ .

(٣) الحافظ ابن كثير : البداية والنهاية ٣ / ٤٨

(٤) انظر المصدر نفسه ٣ / ٨٤-٨٨ .

(٥) سورة الانعام اية (٢٦) .

وقد استمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الله تعالى ليلا ونهارا سرا وجهرا ويبشر برسالته الخالدة بكل عزم وقوة لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يرده عنه راد ولا يصده عن تبليغ ما أمر بتبليغه صاد ، يتبع الناس فى انديتهم ومجامعهم وفى المواسم ويدعو كل من لقيه من حر وعبد وضعيف وقوى وفقير وغنى يصدع لهم بالحق فى قوة وصراحة . ولقد صبر هو ومن معه من المؤمنين على ايذاء قريش حتى أذن الله لهم بالهجرة الى المدينة وايد دينه ورسوله بنصره وبالمؤمنين المهاجرين والانصار الذين التفوا حول الرسول صلى الله عليه وسلم واسلموا وجوههم لله وابتغوا مرضاته وراموا ثوابه وجنته لا يستهويهم فى سبيل الحق مطمع من مطامع الدنيا وحطامها الفانى ولم يزدهم ما لاقوه من قوى الشر الطاغية التى تكيل لهم العذاب وتحيك لهم الكيد والمكر وتسعى لتحطيمهم الا قوة فى ايمانهم وحبا لدينهم وتمسكا به وتوثبا شديدا للتضحية والتفانى فى سبيل نجاحه . وهكذا ثبت الرسول صلى الله عليه وسلم على الحق الذى جاءه من الله وثبت معه اصحابه المؤمنون وشرعوا فى تطبيق تعاليم الاسلام ومبادئه وتوجيهاته فى جميع شئون حياتهم الخاصة والعامة واقامة مجتمعهم كله على أساس تلك المبادىء والتعاليم والتوجيهات ، ايمانا منهم بصدق وعد الله لهم بالاستخلاف والتمكين فى الارض والعزة والنصر والاستعلاء . فتحقق لهم ذلك كله حين قويت عزائمهم وبذلوا فى سبيل الحق اقصى مافى وسعهم من الجهود والطاقات وحققوا الشروط الربانية التى وضعها لتحقق وعده وحاشا لوعد الله ان يتخلف " .... وكان حقا علينا نصر المؤمنين (١) " . " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين .. (٢) الاية . " ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين (٣) " . " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا (٤) " الاية .

---

(١) سورة الروم اية (٤٧) .
(٢) سورة المنافقون اية (٨) .
(٣) سورة ال عمران اية (١٣٩) .
(٤) سورة النور اية (٥٥) .

تلك هى الظروف القاسية التى عاشها اولئك المؤمنون الاوائل فــــترة بدء الدعوة وهم أفراد قلائل مستضعفون مضطهدون لا يقوون على الدفاع عــــن انفسهم من ايدى قوى الكفر الطاغية التى كانت تفتنهم عن دينهم وكادت تبتلعهم وتفنيهم لولا عناية الله ونصره المؤزر " واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون فـــى الارض تخافون ان يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون (١) " .

ان ظروف القمع والمقاومة العنيفة التى تعرضت لها الفئة المؤمنة طوال فترة العهد المكى وهم مشردون معذبون لم تكن لتتهيأ معها الفرصة لقيـــــام مجتمع اسلامى يكون له كيانه المستقل يدير المسلمون فيه شئونهم كلها على اساس المبادىء والاسس والتعاليم التى يؤمنون بها ، فقد أبى مشركو مكة أن يكـــون للمسلمين كيان مستقل خارج نطاق المجتمع الجاهلى حتى لا تكون لهم قوة تقف منهم وجها لوجه ولكن رغم ذلك كان هناك شىء مهم بدأ فى مكة على مرأى من المشركين ومسمع منهم ولا سلطان لهم لوقف موجته الكاسحة او توهين قوته المؤثرة وكان له ابعاده واثاره الكبيرة فى بناء المجتمع الاسلامى بالمدينة بعد الهجـرة ذلك هو عملية تكوين الشخصية المسلمة واعداد العناصر الصالحة التى كانت لبنات قوية فى بناء المجتمع المسلم ، وهى عملية مهمة جدا فى تاريخ الدعوة الاسلامية ومن ابرز الاعمال التى حققها الاسلام بسرعة مذهلة غير معهودة فى تاريـــــخ البشرية كله . وقد استمرت هذه الفترة الاولى فى عملية التكوين والتربية ثـــلاث عشرة سنة على رغم كونها فترة عصيبة وظروفا قاسية كانت من الممكن ان تعرقـــل سير الدعوة نفسها فضلا عن عملية تكوين الاتباع والانصار ولكن من سنة الله أن الحق دائما يعلو ولا يعلى عليه فلذلك ظل للجماعة المسلمة فى تلك الفترة - على قلتهم وبلائهم - وجود بارز وشخصية متميزة وملامح واضحة ظاهرة .

---

(١) سورة الانفال اية (٢٦) .

وبعد هذا الاستعراض الذى قدمناه حان لنا ان نخطو خطوات الى الامام لندرس نشأة ذلك الجيل الاول الفذ ونتعرف على العوامل والمقومات التى أثرت فى تكوينه النموذجى الرائع الذى لم يسبق له مثيل فى قوته وعمقه وسعته وفعاليته عبر تاريخ الرسالات السماوية السابقة كما لم يبلغ ذلك المستوى الرفيع اى جيل من الاجيال الاسلامية اللاحقة .

* * *

الفصل الاول : عناصر ومقومات تكوين الجيل الاول .

المبحث الاول : القرآن الكريم .

المبحث الثاني : السنة النبوية المطهرة .

المبحث الثالث : المثل الاعلى والاسوة الحسنة فى شخصية الرسول الفذة .

* * *

تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (١) ... " الاية .
" وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا (٢) " . الاية .

ولقد أنعم الله على هذه الامة بالقرآن الكريم معجزة الرسول الخالدة التى تشهد بصدقه صلى الله عليه وسلم وسمو رسالته وعظمته فهدى به قلوب المؤمنين وأنار به بصائرهم وقوم به نفسيتهم وهذب به اخلاقهم ونظم به شئون حياتهم وجعلهم به أمة وسطا حملوا الى الناس جميعا رسالة الخير والعدل والاحسان فكان به وحدة العقيدة والعبادة والسلوك والفكر والاتجاه ووحدة المبدأ والطريق والمصير (٣) " ... قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم (٤) " . " ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم اجرا كبيرا " (٥) .

ولقد كانت عناية الرعيل الاول من الامة الاسلامية بالقرآن عظيمة جدا ، تمسكوا به واهتدوا بهديه واحلوا حلاله وحرموا حرامه ووقفوا عند امره ونهيه وتأدبوا بآدابه وتخلقوا باخلاقه وحكموه فى جميع شئونهم فحكمه عندهم فصل وقضاؤه نافذ . وماكانوا يدعونه الى غيره مهما كان الامر وماكانوا يتجاوزون عشر آيات حتى يعملوا بها فيحفظوا العلم والعمل معا وبذلك حققوا سعادة الدنيا والاخرة . عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : " كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن (٦) " . وقال

(١) سورة آل عمران اية (١١٠) .
(٢) سورة البقرة اية (١٤٢) .
(٣) انظر احمد العسال : الاسلام وبناء المجتمع ص ١٠٤ .
(٤) سورة المائدة ايتا (١٥-١٦) .
(٥) سورة الاسراء اية (٩) .
(٦) ذكره الحافظ ابن كثير فى مقدمة تفسيره من رواية الاعمش عن ابى وائل (١ / ٣) .

أبوعبد الرحمن السلمى حدثنا الذين كانوا يقرئوننا : أنهم كانوا يستقرئون من النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا اذا تعلموا عشر ايات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العلم فتعلمنا القرآن والعمل جميعا (١) " .

ويمكن القول بان محتويات القرآن تمثل منهجا متكاملا للتربية الاسلامية فسواء ماجاء منها من أسس عقدية ومبادىء اخلاقية وتوجيهات سياسية واقتصادية واجتماعية ونظم وتشريعات وماجاء منها فى معرض القصص والاخبار والمواعظ، وفى عرض مشاهد القيامة وما الى ذلك . وما من امر ذى بال فى كل شأن من شئون الحياة والاحياء والكون الا وقد كشف القرآن عنه النقاب اجمالا أوتفصيلا حسب أهميته وعلى ماتقتضيه حكمة الله تعالى وتتطلبه حاجات البشر ومصالحهم " ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (٢) " . " هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين (٣) " . " مافرطنا فى الكتاب من شىء (٤) " .

ولنستعرض بعض موضوعات القرآن التى وضحت الاسس والمبادىء الاسلامية وبينت منهج الاسلام المتكامل فى الحياة مما كان له الاثر الاكبر فى تنشئة وتكوين الجيل الاول من المؤمنين . ويجب ان أؤكد أن عرض بعض هذه الموضوعات فى دراسة اثر القرآن فى ذلك التكوين الفريد لا يعنى

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير فى مقدمة تفسيره ٣/١
(٢) سورة النحل اية (٨٩) .
(٣) سورة آل عمران اية (١٣٨) .
(٤) سورة الانعام اية (٣٨) .

الاشارة الى عظم اهميته وقوة تأثيره اكثر من غيره لان كل كلمة وردت فى القرآن الكريم جزء من ذلك المنهج الاسلامى المتكامل فى التربية ولذلك فان محتويات القران جميعها فى الاهمية وعظم التأثير سواء " لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتذكرون (١) ". وفى هذا الباب سنتناول الحديث عن موضوع عقيدة الالوهية وعقيدة البعث والجزاء والتصور الاسلامى لحقيقة الانسان والكون والحياة وموضوع النظم والتشريعات الاسلامية والتوجيهات الاخلاقية وهذه الموضوعات من أبرز ماعرضه القرآن وحسم مادته وقدم فيه حلولا ناجحة أنقذت البشرية من ضلالاتها ومتاهاتها وحققت لها السعادة الحقة التى لا شقاء بعدها ولا تعاسة مادامت مستمسكة بحبل الله المتين ومهتدية بهديه ونوره (٢) .

أولا : موضوع عقيدة الالوهية :

ان موضوع عقيدة الالوهية والوحدانية هو اكثر الموضوعات ورودا فى القرآن وقد شغل منه مكانا فسيحا ، فما من سورة من سور القرآن الا وقد عرضت هذا الموضوع اجمالا أو تفصيلا لان الاعتقاد الصحيح فى الله هو أصل الاصول العقائدية وما ينبنى عليها فى الاسلام من العبادات والمعاملات والنظم والتشريعات وما الى ذلك . وهو العامل الاول الذى يحقق للمسلم العزة والكرامة والارتقاء النفسى والعقلى والاحساس بالطمأنينة والراحة . وحتى يصح دين الانسان يجب ان يكون على معرفة حقة بالله بافراده بالالوهية والاقرار له بالعبودية وان يكون اليه وحده مرد الامر كله فى الدنيا والاخرة يتلقى منه وحده الحلال والحرام ويتحاكم الى شريعته فى كل شأن من شئون المجتمع والحياة ويستشعر عظمته وجلاله فى كل لحظة ويتطلع اليه بالرجاء ويتوجه

---

(١) سورة الحشر اية (٢١) .
(٢) انظر على سرور الزنكلونى : "الدعوة والدعاة واسباب التخلف ومنهج التطبيق " ص ٢٢٩ .

اليه بالخشية ويقصد وجهه في كل أمر من اموره ويستعينه ويتقيه في سره وعلانيته . وبهذه العقيدة الصحيحة في الله سما الاسلام بالروح البشرية وحررها من اصار قيود العبودية والتذلل والخضوع لاى مخلوق من مخلوقات الله تعالى مهما علا شأنه وعظم سلطانه ثم وجهها الى الخير العام والاحسان وابتغاء وجه الله ومرضاته في كل أمورها كما جعل مناط الاعمال كلها النية التي لا يعلمها ولا يحيط بها الا عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء .

وهكذا رفع الاسلام المستوى العقلي والفكري في الناس عربا وعجما مما كانوا فيه من انحطاط في النظر واسفاف في الفكر وسخافة في العقل الى درجة عالية في المعرفة الحقة بوحدانية الله تعالى في ذاته وصفاته واسمائه حتى اصبحوا يؤمنون ايمانا خالصا بالله الذي لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ، رب العالمين ومدبر الكون والذي بيده ملكوت كل شيء والذي لا معبود بحق الا هو له الحكم واليه يرجع الامر كله . وهذه العقيدة الصحيحة التي دعا اليها الاسلام هي الدعامة الكبرى لاصلاح النفس البشرية والحياة البشرية وهي الطريق الامثل للتربية الحقة ولا طريق يعدلها كما لا تؤتي مثل ثمارها اية وسيلة أخرى . ومن المعلوم أن النفس البشرية معقدة التركيب دقيقة النسج كثيرة المنافذ والابواب واذا زاغت هذه النفس او اعوجت وفسدت لا يؤثر فيها كثيرا إصلاح جانبي وتغيير جزئي بمعالجة داء معين من ادوائها واصلاح عيب من عيوبها أو إزالة عادة من عاداتها بل لابد من اصلاح نفساني عميق وتغيير وجداني جذري لتحويل اتجاه النفس من الشر الى الخير ومن الفساد الى الصلاح حتى تقتلع منها جرثومة الفساد وتجتث جذور الشر ويغرس فيها حب الخير والصلاح والفضيلة لتأخذ طريقها نحو الوجهة السليمة وذلك حين يكون الله تعالى حاضرا في النفس تستشعر عظمته وقدرته وجلاله وتستسلم لأمره وتطيعه في كل اوامره ونواهيه وترجو رحمته وفضله وهدايته وتخافه وتتقيه في جميع حركاتها

وسكناتها . وانا نرى ان كل ناحية من نواحى الفساد فى الحياة البشرية وكل داء او مشكلة من ادواء المجتمع الانسانى ومشكلاته يتطلب اصلاحها وتغييرها مدة طويلة من الزمن قد تستغرق اعمار عدد من المصلحين يتصدون لهذا الاصلاح الجانبى يرومون هذا التغيير الجزئى دون ان يحققوا النجاح الذى وقفوا حياتهم كلها من اجله وبذلوا فى سبيله اقصى جهودهم .

ولو ان احدا من المصلحين وقف حياته كلها من اجل القضاء على جريمة الزنا او شرب الخمر فى مثل المجتمع العربى الجاهلى الذى نشأ على حياة الترف والبذخ ودان باللهو واللذة والمتعة حتى بطرت معيشته لاعياه هذا الامر، وحبطت مساعيه وجهوده فى هذا السبيل وذلك لان جريمة الزنا والخمر ماهما الا بعض آثار نفس فاسدة نبتت فيها جرثومة الشر والفساد فاصبحت تعشق اللذة حتى فى السم الزعاف وتبتغى المتعة والنشوة حتى فى الفسق والفجور وهذه النفس الخبيثة لا يمكن ان تهجر ما تعودته من المنكرات والفواحش بمجرد دروس من الوعظ والارشاد ونشر الكتب فى بيان مضاره الصحية ومفاسده الخلقية والاجتماعية التى تعود على المجتمع باضرار بالغة . كما انها لا تهجره ايضا بسن القوانين الشديدة وفرض العقوبات الصارمة حتى يسبق ذلك كله تغيير نفسى عميق واصلاح روحى شامل لتتجه النفس نحو الوجهة الصحيحة وتاخذ طريقها الى الصلاح والخير والاحسان وتعيش حياة سعيدة آمنة مستقرة . يقول الله تعالى : " ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (١) . واما اذا كانت هذه النفس قد ارغمت على ترك ما ترتكبه من المعاصى والجرائم او ترك التقاليد والعادات الشنيعة المتأصلة فيها بغير ذلك الاصلاح النفسى العميق والتربية الروحية القويمة فانها لا ترعوى عن غيها لان جرثومة الشر والفساد المتأصلة فى اعماقها لم تقتلع فلا تزال تتحايل على القانون باستباحة مامنعت منه بتغيير الاسماء والاشكال ، او تتستر عن انظار الناس ، كما انها لا تفتأ تتسلل الى انواع كثيرة من الجرائم

---

(١) سورة الرعد اية (١١) .

والمنكرات ، ولذلك كله أولى الاسلام جانب العقيدة والتربية الروحية اهتماما كبيرا لما له من آثار فعالة فى تقويم النفوس واصلاح القلوب . ولو أننا تتبعنا تاريخ الدعوة الاسلامية ابتداء بالعهد المكى حتى فترة قيام المجتمع الاسلامى وظهور امر الامة الاسلامية فى العهد المدنى لوجدنا ان اول ما اولاه الاسلام اهتمامه البالغ انما هو الاصول العقائدية الاسلامية التى نزلت لتقريرها آيات كثيرة فى القرآن الكريم قبل نزول التشريعات والتنظيمات والاخلاقيات ولذلك لتعرف النفوس طريقها الى الله وتستقيم القلوب على خشيته وطاعته وتتربى تربية صحيحة على الخضوع التام لسلطانه والانقياد الكامل / لكل اوامره والتذلل لقدرته وجبروته ، مستشعرة عظمته وجلاله . فبذلك تصبح هذه النفوس مهيأة للتقبل عن الله ومستعدة للتنفيذ الفورى لاوامر الله بايمان عميق راسخ لا تردد فيه ولا تلكوء ولا ارتياب . ومن اعظم الادلة على أثر الاصلاح النفسى والتربية الروحية على النفس البشرية والحياة البشرية ان الجيل الاول من المؤمنين بعد رسوخ العقيدة الاسلامية وتمكنها فى نفوسهم كانت تنزل ايات من القرآن الكريم باوامر أو نواه فتتلو عليهم ساعة نزولها فيقوم كل واحد منهم من فوره بالتنفيذ والطاعة وهناك أمثلة كثيرة فى الواقع التاريخى لذلك الجيل الاول الفريد ومن ذلك آيات تحريم الخمر فى قوله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون . وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين (١) " . فلما نزلت هذه الايات ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً ينادى فى طرقات المدينة : " ايها الناس ألا ان الخمر قد حرمت ألا ان الخمر قد حرمت ، " فحين سمع المسلمون ذلك قاموا من فورهم بامتثال أمر الله تعالى فأخذ كل من كان عنده دن خمر يريقه فى الطريق ومن كان فى فمه شربة لا يطيق ابتلاعها بعد ما بلغه

---

(١) سورة المائدة ايات (٩٠-٩٢) .

تحريمها وهكذا كسرت الدنان وسالت طرقات المدينة بما اريق فيها من الخمر ساعة نزول النهى من الله . وهذه من أعظم ما روى فى التاريخ فى قوة الايمان والطاعة الجادة والاذعان الكامل لامر الله تعالى ، وهى بلا شك قمة سامقة فى ضمان الاصلاح للنفس البشرية وسعادة الحياة البشرية وذلك حين يرتكز منهج التربية والاصلاح على دعائم العقيدة الصحيحة فى الله ويسير على هداها وهذا ما يبين لنا سر العناية الكبيرة التى اولاها القرآن موضوع العقيدة الذى شغل اكبر مساحة منه ليس فى الجزء المكى منه فحسب وانما كذلك فى الجزء المدنى على السواء .

وفى المنهج الربانى فى التربية والاصلاح دعا الاسلام الى التطابق التام بين التصور والسلوك وبين القول والعمل وربط بين العلم والاعتقاد وجعل معرفة الله الخالق الواحد الاحد اساس كل الخير والصلاح والفلاح وكذلك حين وضع الاسلام المفاهيم والافكار لم يضعها لتكون شعارات ترفع ويروج لها دون ان تكون قابلة للتطبيق والعمل ولكنه وضعها لتكون قوى دافعة محركة تعين الانسان على أداء واجبه تجاه ربه وخالقه على النحو الذى يحبه ويرضاه حتى يكون على استعداد تام للتقبل عن الله والعمل بمقتضى أمره ونهيه ، وبذلك نرى ان الاصول العقائدية فى الاسلام هى محك الامر كله وهذا ما يؤكد حاجة الانسان الى رصيد ضخم من المعرفة الصحيحة والايمان العميق بالله لينطلق من شاطئ الامان الى رحلة الحياة فى غاية من الاطمئنان موقنا بالسعادة والنجاة .(١)

ولقد استخدم القرآن الكريم وسائل شتى فى تعريف المؤمنين بربهم وخالقهم وتعميق شعورهم بعظمته وجلاله وقدرته الفائقة وربط قلوبهم به جل وعلا فى كل الحالات رغبة ورهبة سرا وعلانية . فالقرآن الكريم يحوى آيات كثيرة تقرر

---

(١) انظر انور الجندى ، الاسلام والعالم المعاصر ، ص ٢١٨ .

عقيدة الالوهية والربوبية وتشرح حقيقتها وتوضح مفهومها وتبين لوازمها ، ومن ذلك ماوصف الله به نفسه من صفات الكمال والعظمة والجلال من قدرة وارادة ، وعلم وحياة وخلق واحياء واماتة وما الى ذلك . فالله سبحانه وتعالى هو الرزاق الذى لا رازق غيره يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولا حرص الانسان ذاته يسوق اليه رزقا ولا كراهيته ايضا ترد عنه شيئا " وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين (١) " . وهو الخالق الذى لا خالق غيره فكل ماسواه مخلوق له سبحانه وتعالى " ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شئ فاعبدوه وهو على كل شئ وكيل " (٢) . وهو المحيي المميت ولا أحد يملك الحياة والموت غيره وهذا مما يبعث فى نفس المؤمن روح الشجاعة والاقدام واحتقار الموت والرغبة فى الاستشهاد فى سبيل الحق وهو موقن ان الامر كله بيد الله تعالى فلا الاقدام ينقص من عمره ولا الاحجام يزيده " وماكان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا.. (٣) " إن الله له ملك السموات والارض يحيى ويميت ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير " (٤) . وهو الله الخافض الرافع الضار النافع المعطى المانع وليس هناك احد من مخلوقاته تبارك وتعالى مهما علا قدره وعظم شأنه يستطيع ان يسوق الى الانسان ما اراد الله منعه او ان يمنع عنه ما اراد الله ان يعطيه اياه . " ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك اذا من الظالمين . وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم (٥) " واذا ادرك الانسان ان الامر كله لله

---

(١) سورة هود اية (٦) .
(٢) سورة الانعام اية (١٠٢) .
(٣) سورة ال عمران اية (١٤٥) .
(٤) سورة التوبة اية (١١٦) .
(٥) سورة يونس ايتا (١٠٦-١٠٧) .

وان الخلائق كلهم عبيده خاضعون لسلطانه وقدرته القاهرة لا يملكون من امرخلقهم وتدبير شئون حياتهم شيئا تحررت نفسه من سيطرة اى مخلوق من مخلوقات الله لتأخذ طريقها الى الكمال الروحى والعبودية الحقة لله تعالى . والله سبحانه وتعالى هو عالم الغيب والشهادة الذى لا يخفى عليه شئ فى الارض ولا فى السماء ، يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور . وهو مالك يوم الدين الذى يبعث الناس فيه ليحاسبهم على اعمالهم وليوفيهم اجورهم وهم فيها لا يظلمون ولا يبخسون " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره "(١) .

وهذه الصفات التى تقدم ذكرها وغيرها من صفات الكمال والعظمة والجلال التى وصف الله بها نفسه فى كتابه العزيز معاعرف المؤمنين الاوائل بربهم حق معرفته وعمق فى قلوبهم شعورا بجلال الله وقدرته فازدادوا به ايمانا ويقينا وحبا وطاعة وتطلعا الى نعمه وآلائه وحده لا شريك له . وكان لهذه المعرفة الحقة بالله وتوحيده فى الوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته آثارها العميقة فى تكوين ذلك الجيل الاول من المسلمين حتى تحررت نفوسهم من كل ماسوى الله تعالى وتطهرت قلوبهم من ادران الشرك والكفر واحسوا بالطمأنينة والسكينة واحتملوا الاهوال بشجاعة نادرة وبسالة فائقة وثبتوا امام الخطوب موقنين بعون الله لهم وتأييده غير مكترثين بقوى الارض الطاغية التى تداعت عليهم لمواجهتهم وسحقهم فلم يتسرب الخوف والجزع الى قلوبهم ولا عرف الوهن واليأس الى نفوسهم سبيلا بل صدقوا الله ماوعدوه فتحقق لهم وعد الله بالمقابل " ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين"(٢) " الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور (٣) " .

---

(١) سورة الزلزلة ايتا (٧-٨) .
(٢) سورة ال عمران اية (١٣٩) .
(٣) سورة الحج اية (٤١) .

وهناك طرق اخرى استخدمها القرآن الكريم لتعريف المؤمنين بربهم واثارة وجدانهم بعظمته وقدرته القاهرة وسلطانه الواسع منها عرض آيات الله فى هذا الكون الرهيب وخضوع كل شئ فيه لمشيئة الله تعالى وارادته ، فقد لفت القرآن الكريم نظر الانسان الى كثير من بدائع مخلوقاته فى العالم العلوى والسفلى واحكامه خلقها وتدبيره لشئون الكون بكل مافيه لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء وكذلك أرشد القرآن الكريم البشر الى كثير من علوم الكون ونظام الطبيعة ليستدلوا على قدرة الله الخالق وعظمته وسلطانه بما يقع تحت قدرتهم الحسية والعقلية وما لا يدرك كنهه الا الله تعالى . ومن جملة ما ذكره القرآن من آيات الله الكونية ما يتصل باصل خلق الانسان وتطوراته وما اودعه الله فى هذا الانسان من قدرات وطاقات واختلاف الاجناس والالوان والالسن . " ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون . ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لايات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لايات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لايات لقوم يسمعون (1) " . ومنها كذلك ما يتصل بقوى الطبيعة التى سخرها الله للبشر نعمة منه سبحانه وتعالى ورحمة بهم ، فخلق لهم ما فى السموات وما فى الارض من الشمس والقمر والنجوم والجبال والنبات والدواب والمطر والرياح والانهار والبحار والليل والنهار وسخر لهم الفلك لتجرى فى البحر بما ينفع الناس الى غير ذلك من اصناف مختلفة واشكال متعددة من ايات الله الكونية الدالة على وحدانيته وكمال قدرته التى يدبر بها الامر ويصرف بها الايات وسعة علمه واحاطته بدقائق امر الخلائق وظواهره وبواطنه " خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين . والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون .

---

(1) سورة الروم ايات (٢٠-٢٣) .

ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم اجمعين هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لاية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لايات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الارض مختلفا الوانه ان فى ذلك لاية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الارض رواسى ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون . وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم (١) " .

والى جانب ذلك ذكر القرآن كثيرا من سنن الله الكونية التى لا تختلف ولا تتوانى منها مايتصل باحوال الامم السابقة فى القرون الغابرة ونصر الله تعالى للمؤمنين المتقين الذين اتبعوا اوامره وساروا على نهجه فأحياهم حياة طيبة سعيدة فى الدنيا واعد لهم فى الاخرة اجرا جزيلا جنات عدن يدخلونها يرزقون فيها بغير حساب ، واما المكذبون الضالون الذين رفضوا السير على هدى الله تعالى واتبعوا اهواءهم فكان عاقبة امرهم خسرا حيث اخذهم الله اخذا وبيلا وبطش بهم بطشا شديدا لا يجدون منه مناصا ولا مهربا . " وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من اهل القرى أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الاخرة خير للذين اتقوا افلا تعقلون . حتى اذا

---

(١) سورة النحل ايات (٣-١٨) .

استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين[١]". "أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الارض فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون (٢) " . والقرآن الكريم بكل هذه الطرق السابقة التى سلكها فى تعريف المؤمنين بربهم وتقرير وحدانية الله تعالى فى ذاته وأسمائه وصفاته وعرض آياته المتعددة فى الكون وبيان سنن الله فى الامم الخالية وما الى ذلك كان يهدف الى تقوية ايمان المسلمين وتعميق احساسهم وشعورهم بعظمته وجلاله حتى يصبحوا أقرب الى طاعة أوامره واجتناب نواهيه واتباع هديه ونوره الذى نزل على رسوله تعبدا له وانقيادا لامره وانابة اليه وطمعا فى مرضاته ورجاء فى عطائه ونواله وخوفا من عقابه وعذابه حين تستقيم نفوسهم وترتفع وتسمو عن الماديات والشهوات ، وتستعلى على لذائذ الدنيا وحطامها الفانى ويكون مثلهم الاعلى فى الحياة هو طاعة الله واتباع امره والسير على نهجه . هكذا كان الرعيل الاول من المسلمين ، فقد رباهم القرآن على معرفة حقة بالله سبحانه وتعالى فامتلأت قلوبهم ايمانا بربهم وقويت عزائمهم وعرفوا الله حق معرفته فعبدوه حق عبادته ونفذوا تعاليم دينه الحنيف وتوجيهاته فى كل شأن من شئون حياتهم حتى استطاعوا ان يقطعوا مراحل الحياة بنجاح ويتغلبوا على صعابها وعقباتها ويحققوا لانفسهم السعادة والهناء والامن والاستقرار ، حين بلغوا مستوى سامقا فى العبودية الحقة لله واخلاص العمل له والطاعة الجادة لأمره . وكانت حياتهم نموذجا رائعا وتطبيقا عمليا لمنهج الله القويم الذى أرسل به رسول الهدى لاخراج الناس من الظلمات الى النور "كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (٣) " .

---

(١) سورة يوسف آيتا (١٠٩-١١٠)

(٢) سورة غافر آيات (٨٢-٨٥) .

(٣) سورة آل عمران آية (١١٠) .

ثانيا : الايمان باليوم الآخر :

ان موضوع عقيدة الايمان باليوم الاخر والبعث والجزاء من اهم الموضوعات التي عرضها القران الكريم واولاها اهتمامه البالغ وذلك لما له من اثار فعالة ملموسة في منهاج التربية والاصلاح . ان التصديق باليوم الاخر ركن من اركان الايمان وهو مرتبط تمام الارتباط بالايمان بالله تعالى ومترتب عليه حيث لا يمكن للانسان ان يسلم بصدق اليوم الاخر وما يتصل به من البعث والجزاء والحساب والميزان والجنة والنار الا بعد التسليم بوجود الله تعالى والاقرار له بالالوهية والربوبية والوحدانية والحاكمية ولذلك نجد القران الكريم في مواطن كثيرة يقرن بين الايمان بالله واليوم الاخر من ذلك ماورد في حالة اثبات الايمان لجماعة من المؤمنين او عند دعوتهم لتحقيقه والاتيان بلوازمه " لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم او اخوانهم أو عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الايمان ..... الاية "(١) .

وكذلك ماجاء في وصف جماعة من اهل الكتاب في قوله تعالى : "ليسوا سواء من اهل الكتاب أمة قائمة يتلون ايات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الاخر ... الاية "(٢) . ويأتي كذلك تارة اخرى في حالة النفي وبيان أسباب كفر الكافرين بالله "والذين ينفقون اموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا "(٣) . وفي ذلك كله دليل واضح على اهمية الايمان باليوم الاخر والارتباط الوثيق القائم بينه وبين الايمان بالله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة المجادلة اية (٢٢) .
(٢) سورة آل عمران ايتا (١١٣-١١٤) .
(٣) سورة النساء اية (٣٨) .

ونلاحظ أن القرآن الكريم لم يكتف بذكر الادلة على صدق اليوم الاخر وامكان البعث والجزاء كما فعل فى اثبات وجود الله تعالى وتقرير ربوبيته وألوهيته ووحدانيته لان حديثه عن اليوم الاخر وما يتعلق به حديث عن عالم آخر وراء هذا العالم لا سبيل للوصول اليه من طريق البحث والاستنتاج ولا يقوم برهان عقلى محض على صدقه ولا شعور للانسان به جملة وتفصيلا الا عن طريق السماع . ولذلك ركز القرآن فى هذه القضية تركيزا كبيرا على وجوب الايمان بالله أولا ليكون ذلك منطلقا ينطلق منه المسلم وأساسا قويا يعتمد عليه فى رحلته الايمانية . وهذا -كما يبدو - من أسرار اقتران ذكر الايمان باليوم الاخر بالايمان بالله تعالى وربط اولهما مع الاخر فى ايات كثيرة فى القرآن الكريم . فالانسان اذا سلم بوجود الله تعالى وأقر له بالربوبية والالوهية وايقن ان الخلق والامر كله لله وحده ، وانه هو الذى خلق هذا العالم وكل مافيه بقدرته الباهرة من العدم المحض وهو القادر على كل شىء والفاعل المختار ، ثم سلم بعد ذلك بمسيس حاجة البشرية الى أن يرسل الله اليهم الرسل وينزل معهم الكتب ليبين لهم غاية وجودهم ومهمتهم فى هذه الحياة ، ولعلم هذا الانسان بصدق الرسل والكتب المنزلة من عند الله يسلم بكل ما جاء عن الله عن ايمان واسع به تعالى ويقين تام بصدق ما اخبر به جل وعلا وبخاصة فى مسألة الغيبيات التى لا مجال لمعرفة حقيقتها وصدقها الا عن طريق السماع "يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا "(١) . وبذلك يعلم الانسان يقينا ويسلم عن ايمان عميق - تنزيها لله تعالى عن العبث واللعب - ان الحكمة الربانية تقتضى ان تكون هناك حياة اخرى للانسان بعد الحياة الدنيا التى هى

---

(١) سورة النساء آية (١٣٦) .

دار العمل والكفاح تتحقق فيها العدالة بأكمل صورتها حين يحاسب الله تعالى كل إنسان على ما عمل في الدنيا لينال جزاء ذلك موفوراً إن خيرا فخير وإن شرا فشر. "وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار "(١).

وحين يلاحظ الإنسان اهتمام القرآن الشديد بعقيدة اليوم الآخر والبعث والجزاء في آيات كثيرة في السور المكية قد يتبادر الى ذهنه ان سبب ذلك انما هو إنكار العرب لها في الجاهلية جملة وتفصيلا في مثل قوله تعالى: " وقالوا أءذا كنا عظاما ورفاتا أءنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة او حديدا او خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيد نا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون اليك رءوسهم ويقولون متى هو ؟ قل عسى ان يكون قريبا (٢) " ولكن حينما يستعرض السور المدنية ويجد فيها مجموعة من الآيات البينات تخاطب المؤمنين بعد قيام المجتمع الاسلامى واستقامة أمر الأمة الإسلامية على دعائم العقيدة الصحيحة في الله والفكرة الشاملة المتكاملة عن حقيقة الكون والإنسان والحياة ، وتقرر لهم هذه الآيات عقيدة اليوم الآخر والبعث والجزاء وتعرض لهم مشاهد القيامة وتذكر الجنة وما اعد الله فيها للمؤمنين من نعيم مقيم وتذكر النار وما فيها من عذاب مهين للكفار المعاندين .. حين يجد الإنسان ذلك كله في السور المدنية يدرك ما لهذه العقيدة في الإسلام من اهمية كبيرة دائمة كانت البشرية بحاجة الى التزود بهذه العقيدة في جميع احوالها فهي لا تخص المنكرين المعاندين فحسب بل تشمل المؤمنين الذين تذوقوا حلاوة الايمان واطمأنت قلوبهم بذكر الله .

---

(١) سورة ص آية (٢٧-٢٨) .
(٢) سورة الاسراء الايات (٤٩-٥١) .

وان عقيدة اليوم الاخر والبعث والجزاء تمثل جانبا مهما من المفاهيم الاسلامية الاساسية فى واقعيتها ونظرتها الشاملة الى حقيقة الحياة الانسانية التى تجمع بين الجوانب المادية والروحية معا وتعتبر الحياة الدنيا دار تجربة وعمل وكفاح وطريقا الى دار الاخرة التى هى دار الحساب والجزاء " يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه فأما من اوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى أهله مسرورا وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا ... الى آخر الايات(١) .

ومن الجانب الاخرفان النفس البشرية فى جميع احوالها بحاجة ماسة جدا الى الايمان بالله واليوم الاخر ليكون عونا لها على قطع مراحل الحياة بنجاح وذلك ان الله تعالى حينما خلق هذه النفس جعل لها مهمة جليلة تقوم بها فى هذه الحياة وغاية سامية تسعى لتحقيقها ، هذه المهمة وتلك الغاية هى عبادته وحده والخلافة عنه فى الارض " وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون "(٢) . " واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ... الآية "(٣) . ثم ان الله سبحانه وتعالى قد أودع فى فطرة الانسان حوافز ودوافع قوية للطعام والشراب وحب المسكن والملبس والجنس والتملك والبقاء والشرف والمكانة وما الى ذلك ، هذه القوى الدافعة فى فطرة الانسان أودعها الله تعالى فيها لحكمة بالغة يريدها لكى تعين هذا الانسان على القيام بمهام العبودية لله والخلافة عنه فى الارض حتى لا تقف العواجز والعقبات عائقة بينه وبين ماخلق له . ومهمة هذه القوى والحوافز المودعة فى فطرة الانسان انها تدفع الانسان الى النشاط والحركة والعمل الدءوب والانتاج فى سبيل عمارة الارض وتنظيم شئون الحياة

---

(١) سورة الانشقاق الايات (٦-١٥) .
(٢) سورة الذاريات اية (٥٦) .
(٣) سورة البقرة اية (٣٠) .

وفق ارادة الله وعلى مقتضى أوامره وتوجيهاته يقول الله تعالى فى وصف قـــوة هذه الحوافز والدوافع " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطيـــر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحيـــاة الدنيا .... الاية "(١) . ولكن الله تعالى العليم بخلقه وحدود طاقتهـــم يعلم بضرورة وجود ضوابط الى جانب ما أودعـــه فى فطرتهم من القوى الدافعة والحوافز المحركة حتى تحد من قوتها وشدتها وتقفها عند حدودها الامنـــة بعيدا عن المزالق والمهالك التى تودى بالحياة الانسانية ، فلذلك جعل اللـــه فى فطرة الانسان هذه الضوابط من عقل وارادة وقدرة على التمييز والاختيـــار واستعداد فطرى للتحصيل " والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئـــا وجعـل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون (٢)" . " ونفس وما سواهـــا فألهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها (٣) " وبعـــد ذلك كله ماكان الله ليكل الانسان الى نفسه لمعرفة ما هو الحسن له او القبيـــح من أمور هذه الحياة بهذه القوى الضابطة التى منحه اياها دون ان يجعـــل له من عنده مايعينه على ذلك ويأخذ بيده الى سواء الصراط ولذلك أرسل اللـــه الرسل الى الناس تترا وانزل معهم الكتب للتبشير والتذكير والانذار ، وجعـــل أهم اصول رسالات الرسل جميعا الايمان بالله واليوم الاخر والكتاب . " ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الاخر وعمل صالحـــا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٤)" "يا أيها الذين آمنـــوا امنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر

---

(١) سورة ال عمران اية (١٤) .
(٢) سورة النحل اية (٧٨) .
(٣) سورة الشمس ايات (٧-١٠) .
(٤) سورة البقرة اية (٦٢) .

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر فقد ضل ضلالا بعيدا (١) " .

لقد كان للايمان باليوم الاخر اثار كبيرة فى النفس البشرية ، فهو العامل القوى - بعد الايمان بالله - الذى يمكن ان يؤثر فى الانسان تاثيرا بالغا حتى يلتزم حدود الله فى شئون حياته ويراقب الله فى أعماله فى السر والعلن ويرتفع عن الماديات ويحد من شهواته ولذائذه ورغباته ، ويتنازل عن القدر الزائد عن حاجته من متاع الحياة الدنيا موقنا بان مايفوته فى هذه الحياة فى سبيل طاعة الله وعبادته وابتغاء وجهه ومرضاته سيعوض عنه فى الاخرة بجنات عدن يرزق فيها بغير حساب ، له فيها مايشاء من أنواع النعيم مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهو خالد فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء الله عطاء غير مجذوذ ، وبذلك تخف ثقلة المادة ومتاع الدنيا وحطامها فى نفس الانسان وتثقل فى حسه تقوى الله ومخافته ويرجو رحمة ربه ويشفق من عذابه وعقابه ويسارع فى الخيرات " لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للابرار "(٢) . هكذا أصبح الايمان باليوم الاخر باعثا قويا للحيوية وعاملا اساسيا لاستمرار حركة الحياة واتجاهها نحو الخير والصلاح والسعادة وفق ارادة الله واوامره ومن اجل ذلك وضع الاسلام هذه القضية نصب الاعين والعقول والافهام لتجرى أعمال الدنيا كلها من خلال ربط الدنيا مع الآخرة باعتبارها طريقا موصلا الى الاخرة ليذكر الانسان دوما ان كل شئ عمله فى الدنيا يلقى جزاءه موفورا عند الله يوم القيامة فيكون بشعوره العميق بوقوع الجزاء الاوفى فى دار الاخرة واحساسه المرهف بثقل المسئولية امام ربه اقرب الى طاعة الله واتباع اوامره واجتناب نواهيه . " والوزن يومئذ

---

(١) سورة النساء اية (١٣٦) .
(٢) سورة آل عمران اية (١٩٨) .

الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا انفسهم بماكانوا بآياتنا يظلمون (١) ".

ولقد كان لعدم الايمان باليوم الاخر وانكار البعث والجزاء شان خطير جدا فى تشكيل حياة الناس فماكانوا يشعرون بالمسئولية الفردية ولا يعترفون بالالتزامات الاخلاقية والاجتماعية الا فى حدود مايحقق لهم المصالح الدنيوية العاجلة دون اى تقدير لمهمة الانسان فى الحياة ومسئوليته تجاه نفسه والمجتمع الذى يعيش فيه لانهم يعتقدون ان الحياة الدنيا فرصة واحدة لا تتكرر ولا تدوم ، وأن عمر الانسان فيها قصيروان عمر الف سنة ، فلذلك يندفعون وراء الشهوات واللذات ومصالح الارض المتضاربة وزخارف الدنيا الفانية ينهبون منها بنهم وشغف ويبددون من اجلها جميع طاقاتهم ويدمرون ما اودعه الله فى فطرتهم من القوى الدافعة للحركة والنشاط والضوابط التى تعينهم فى معرفة الخير والصلاح وتحول بينهم وبين الشر والفساد فيعيشون حياة التحلل والترف والمجون واللامبالاة وتتفتح غرائزهم لانتهاب كل شئ من متاع الحياة وتتبلد احاسيسهم وتنحرف مداركهم حتى تستوى فى نظرهم الحسنة والسيئة وتهبط نفوسهم الى المستوى الادنى لتصبح حياتهم لعبا ولهوا وزينة وتفاخرا بينهم وتكاثرا فى الاموال والاولاد وتطاولا فى البنيان والقصور الشامخة وميدانا فسيحا للمسابقة والمنافسة والقتال من أجل الجاه والشرف والسلطان والمناصب والالقاب وذلك كله هو الافق الضيق المحصور والمستوى الادنى الهابط الذى صرف الناس عن الافاق العليا المشرفة التى رفع الاسلام المؤمنين اليها حتى بلغوا مستوى سامقا فى كل مجال من مجالات الحياة .

---

(١) سورة الاعراف ايتا (٨-٩) .

ان فكرة الاسلام حول قضية اليوم الاخر والبعث والجزاء كانت متسقة تماما مع طبيعة هذا الدين الحنيف ومنهجه ونظرته الشاملة المتكاملة الى حقيقة الكون والانسان والحياة . ولذلك كان لهذه العقيدة الصحيحة التى ابرزها الاسلام فى شان اليوم الاخر والبعث والجزاء اثر عظيم جدا فى نفوس الرعيل الاول من المؤمنين فكانوا يصدرون فى جميع اعمالهم عن ايمان عميق بالله سبحانه وتعالى يراقبونه فى السر والعلن ويقصدون وجهه فى كل أمر ويدينون انفسهم ويحاسبونها قبل وقوفهم بين يدى الله تعالى فماكان ذكر الاخرة ليغيب عن بالهم لحظة واحدة فكانوا دائما يرجون الاخرة ويعملون جاهدين لذلك اليوم العظيم ملتزمين حدود الله تعالى فى كل أمر مراعين حقوق الله وحقوق الناس فى كل شىء مبتغين بذلك وجه الله ومرضاته مشفقين من سخطه وعذابه حتى هانت عليهم انفسهم وحياتهم وكل شىء يملكونه فى هذه الحياة امام امر الله تعالى وما فرضه عليهم من الواجبات فباعوا انفسهم وكل شىء لهم فى الحياة فى سبيل الله واعلاء كلمته ونشر الخير والسعادة بين بنى البشر . " ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد "(1) . " من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا "(2) . " والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة . . . الاية "(3) .

هكذا كان المؤمنون الاوائل على فهم عميق لعقيدة اليوم الاخر والبعث والجزاء كانوا يدركون تماما ان ايمانهم باليوم الاخر يحتم عليهم ان يكون كل شىء

---

(١) سورة البقرة اية (٢٠٧) .
(٢) سورة الاحزاب اية (٢٣) .
(٣) سورة الحشر آية (٩)

فى حياتهم سائرا على نهج الله القويم مطابقا - على قدر استطاعتهم - لما اراد الله لما هنالك فى يوم القيامة من مسئولية وحساب وجزاء . فالحياة الدنيا مرحلة الابتلاء والامتحان وهى دار العمل والنشاط والكفاح وهى الطريق الى دار الاخرة التى هى الحياة الحقيقية التى لا نهاية لها . " وماهذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الاخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون "(١).

هذا مافهمه المؤمنون الاوائل من ايمانهم باليوم الاخر وكانت حصيلة هذا الفهم العميق فى نفوسهم قوة هائلة يصدرون عنها فى كل شأن من شئون حياتهم تدفعهم الى استباق الخيرات وتمنعهم من اتيان المنكرات وارتكاب الظلم والمعاصى حتى اصبحوا - فى حدود طاقاتهم البشرية - يقفون عند امر الله وينفذون اوامره ويطبقون تعاليمه ويخففون من ثقلة متاع الحياة الدنيا وحطامها على انفسهم بل يعرضون انفسهم احيانا للحرمان من هذا المتاع كله حين يقدمونها رخيصة ويشرونها فى سبيل الله رجاء ماعند الله من الخير وحسن المآب " يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم وبايمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم "(٢) . وبذلك ارتفعوا الى مستويات عالية فى الطاعة وتنفيذ اوامر الله واتباع نهجه حتى استطاعوا ان يقيموا صرح العدالة ويحققوا السعادة الحقة للبشرية على مستوى عال فريد فى التاريخ .

...

---

(١) سورة العنكبوت اية (٦٤).
(٢) سورة الحديد اية (١٢).

ثالثا : التصور الاسلامى لحقيقة الكون والانسان والحياة :

حينما يتأمل الانسان فى شأن هذه الحياة ويجول بفكره فى هذا الكون الواسع الفسيح ويرى من حوله انواعا متعددة واشكالا متباينة من المخلوقات يرى السماء مرفوعة فوقه بغير عمد فيها الشمس والقمر والنجوم ويرى الارض ممدودة ممهودة فيها الجبال الراسيات الشامخات والبحار والانهار والنبات والدواب ويرى الفلك التى تجرى فى البحر كالاعلام وماينزل من السماء من ماء طهور واختلاف الليل والنهار وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض كما يرى الناس من حوله اجناسا وقبائل وشعوبا على اختلاف الالوان واللغات ويعلم ان الانسان لم يكن من قبل شيئا مذكورا فخلق من تراب ثم خلق نسله من سلالة من ماء مهين يكون فى بطن الام الى أجل معلوم ثم يخرج بعد ذلك طفلا لا يعلم شيئا ولا يقدر على شىء ثم ينمو ويترعرع حتى يبلغ اشده ويستوى ليدخل فى معترك الحياة مع بنى جنسه الى اجل مسمى لا قدرة له على تحديد طوله او قصره ثم يموت بعد ذلك ويدفن تحت التراب لتنتهى بذلك رحلته فى الحياة . حينما يستعرض الانسان هذه الحقائق وغيرها عن الكون والانسان والحياة الانسانية مما يدرك كثيرا منه بفطرته الانسانية السليمة وفيما قرره القرآن الكريم فى ذلك وفصله غاية التفصيل بأساليب متنوعة وارشد الناس الى التفكر فيه . . حين يستعرض الانسان هذه الحقائق وغيرها سيواجه بقضايا أخرى مهمة تتبلور فى ذهنه وتعرض له وتلازمه فى كل لحظة من لحظات حياته - سواء وعاها الإنسان أو لم يعها - وتطلب منه معرفة الحلول لها وعلى ضوء هذه الحلول تتحدد معالم رحلته فى الحياة وتتشكل أنماط حياته سواء اكانت هذه الحلول ناجعة او خاطئة فانها بلاشك ذات تأثير كبير فى تشكيل حياة الإنسان .

وهذه القضايا التى تنبثق من حقائق الموجودات فى هذا الكون الفسيح وفى الحياة الانسانية تنحصر فى اربع نقاط رئيسية :

اولا : ماصدر الكائنات جميعا بما فيهـا الانسان نفسه ؟

ثانيا : ماصير هذه الكائنات ومانهايتها ؟

ثالثا : ماغاية وجود الانسان وامهمته فى الحياة ؟

رابعا : ماهو المنهج الاقوم للانسان فى الحياة ؟

هذه القضايا الاربع لابد ان يحس بها الانسان فى حياته بصورة واعية اوغير واعية ولكن مهما تكن صورة هذا الاحساس قوية اوضعيفة ، عميقة او سطحية ، صحيحة اوخاطئة فانها بدون شك تؤثر بصورة ملموسة فى تشكيل حياة الانسان وتاسيس افكاره واتجاهاته وأنماط سلوكه وتلوين مشاعره وأحاسيسه . وحين يجد الانسان لهذه القضايا حلولا ناجعة فإنه ينعم بها ويحيا حياة طيبة سعيدة لانه يدرك لوجوده غاية ومهمة ولحياته معنى فهو بذلك يقوم بما عليه من الواجبات تجاه خالقه وبارئه الذى وهب له الحياة كما يقوم بما عليه ايضا نحو نفسه والمجتمع الذى يعيش فيه . ولكن حين لا يهتدى الانسان الى الحلول الصحيحة السليمة فانه يشقى فى حياته شقاء بالغا ويعيش حياة الفسق والفساد حياة العربدة والمجون واللذة لانه لا يفهم لحياته معنى ولا يدرك لوجوده غاية وانما ينظر الى الحياة على انها عبء ثقيل يجب أن يخفف من وطأته باللهو واللعب والاكل والشرب واللذة " ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومانحن بمبعوثين "(١) .

والقرآن الكريم - الكتاب الاعظم للتربية والاصلاح - ماكان ليترك الناس فى حيرة من امرهم او يدعهم فى تيه وضياع وضلال عن الصراط المستقيم الذى يقود هم الى النجاة والسلامة والسعادة وهو الذى نزل ليخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم الى اقوم صراط فقد قدم لهذه القضايا حلولا سليمة وضحت لهم معالم رحلتهم

---

(١) سورة المؤمنون اية (٣٦) .

فى الحياة من نقطة البدء الى نقطة الانتهاء فارتاحت لها نفوس المؤمنين الاوائل واطمأنت بها واستمسكوا بحبل الله المتين واتبعوا هداه فى كل شأن من شئون حياتهم لا يرضون به بديلا ولا يتجهون الى غيره لحل مشكلات الحياة فى اى حال من الاحوال . وقد اعطى القران الكريم الشخص المؤمن عن حقيقة الكون والانسان والحياة فكرة اوسع واشمل واقوم مما يمكن ان يخطر على قلب انسان لم يفتح الله عليه بنعمة الهداية والايمان . ولذلك نجد المحاولات البشرية التى ارادت ان تفسر هذه القضايا لتجد لها حلولا مناسبة من غير ان تكون لها صلة بهدى السماء تسير بنوره وتتلقى الامداد من قوة الازل الخالدة - نجدها دائما تقدم افكارا ونظريات قاصرة سخيفة تبنى أسسها على الجانب المادى فى الحياة وتركز على الجانب الغريزى الحيوانى من الإنسان فمن هذه النظريات نظرية تصور رحلة الانسان فى الحياة على انها من اجل البحث عن الطعام وترجع كل شىء فى الحياة حتى الدين والاخلاق وحوادث التاريخ وتطور المجتمعات الى الظروف المادية للحياة كما تنكر ان يكون هناك إله خالق مدبر لشئون الكون وكل ما فيه . وقد قال ماركس الفيلسوف الاكبر للشيوعية : لا إله والحياة مادة " وقال انجلز : لا محل مطلقا لوجود خالق . وهكذا نرى كيف ادت الحلول القاصرة الباطلة بالانسان الى الالحاد والكفر والطغيان والشقاوة والهلاك .

المسألة الاولى : ماصدر الكائنات بما فيها الإنسان نفسه ؟

يقرر القران الكريم ان كل شىء فى هذا الوجود مخلوق لله تعالى ، فالسموات والارض والجبال والبحار والأنهار والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والانس والجن والنبات والدواب وما اليها خلقها الله من العدم المحض . وأما الإنسان بوجه خاص فقد ذكر القران ان الله خلقه من قبضة من طين الارض ونفخة من روحه وجعل له خصائص وطاقات يتميز بها عن سائر المخلوقات ثم كرمه الله تعالى وفضله على كثير

من خلقه وسخر له مافى السموات والارض جميعا منه . وقد جاء ذلك كله فى ايات كثيرة من القرآن الكريم منها قوله تعالى : " ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه (١) . . الاية . وقوله : "الله الذى خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار واتاكم من كل ماسألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار (٢) " . " وسخر لكم مافى السموات ومافى الارض جميعا منه " (٣) وقوله تعالى : " الله الذى خلق السموات والارض ومابينهما فى ستة ايام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع افلا تتذكرون . يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذى احسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون " (٤) .

وكذلك أوضح القرآن الكريم أن الانسان كائن متميز فهو كما سبق ان قلنا - قبضة من طين الارض ونفخة من روح الله . وبذلك يجمع فى تركيبه الفطرى طاقات مادية وقوى روحية تطلبينه اجابة ندائها وتدفعه الى اهداف وغايات ذات صدى بعيد فى كيانه البشرى . فهو ليس حيوانا يعكف على اشباع الغرائز وتحقيق الرغائب والمطالب المادية فقط كما انه فى الوقت نفسه ليس ملكا يتسامى عن المادة ويتحرر من آصارها لينكب على اشباع الروح وتغذيتها بل يجب عليه ان ياخذ مايريد من الحياة المادية والحياة الروحية دون ان يكون فى ذلك تقديس للمادة وحدها على حساب

---

(١) سورة الانعام اية (١٠٢) .
(٢) سورة ابراهيم ايات (٣٢-٣٤) .
(٣) سورة الجاثية اية (١٣) .
(٤) سورة السجدة ايات (٤-٩) .

مطالب الروح ولا تلبية لمطالب الروح وحدها على حساب الجانب المادى فى الحياة بحيث يقتضى العمل لاحد الجانبين الانقطاع عن الجانب الاخر او مزاحمة وقته . يقول الله تعالى : " وابتغ فيما اتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا "(١) الاية . " قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . . (٢) " الاية .

وعن ابى جحيفة قال " آخى النبى صلى الله عليه وسلم بين سلمان وابى الدرداء . . . (الى ان قال): " فقال له سلمان : ان لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولاهلك عليك حقا فاعط كل ذى حق حقه "(٣) الحديث . وقد اثبت القرآن للانسان خصائص عديدة تميزه عن سائر المخلوقات وتتمثل هذه الخصائص فى القوى المتعددة التى اجتمعت فى تكوينه الفطرى وهى تشمل القوة الحيوانية الغريزية والقوة العقلية الفكرية والقوة النفسية الوجدانية . الا ان الجانب العقلى الفكرى والجانب الروحى النفسى هما اللذان يحكمان هذا الكيان البشرى المعقد ويهيمنان على هذه القوى والطاقات المتعارضة . وان ما فى الانسان من قوة الارادة والقدرة العقلية والاستعداد الفطرى لتحصيل العلم والمعرفة واستيعاب ذلك وانمائه . كل ذلك مما يعينه على معرفة الخير والشر والتمييز بين الهدى والضلال والقدرة على اختيار احد الطريقين . " اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين "(٤) . " انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . انا هديناه السبيل

---

(١) سورة القصص اية (٧٧) .
(٢) سورة الاعراف اية (٣٢) .
(٣) اخرجه البخارى فى كتاب الصوم باب من اقسم على اخيه ليفطر فى التطوع ٢ /٢٤٣ . المكتب الاسلامى . تركيا .
(٤) سورة ص ايتا (٧١-٧٢) .

اما شاكرا واما كفورا "(١) . وقوله تعالى : "ونفس وماسواها فالهمها فجورها وتقواها "(٢) . وقوله تعالى : "الم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين (٣) " . ان هذا التصور الشامل لحقيقة الانسان المستمد من المصدر الالهى يقوم على أساس معرفة حقة بفطرة هذا الانسان وفهم صحيح لواقعه وموقعه من الكون ودوره فيه وصلته بالمخلوقات من حوله وادراك كامل لواجبه تجاه خالقه وبارئه ومهمته فى الحياة من دون تحيز ولا ميل لتقديس جانب معين واهمال الجوانب الاخرى "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير " .(٤)

. . .

المسألة الثانية :ماسمصير الكائنات ومانهايتها ؟

ان القرآن الكريم يقرر حقائق واضحة لا لبس فيها ولا غموض فى مسألة نهاية الكائنات ومصيرها شأنه فى كل المسائل التى يعالجها . فقد بين القرآن ان كل شىء فى هذا الوجود هالك وفان . فالحياة الدنيا بكل مافيها زائلة فانية حتى تصبح كانها لم تقم يوما واحدا او فترات محدودة من يوم . فنظما فى هذه الحياة الدنيا من السموات والارض والجبال والبحار والنباتات والدواب والليل والنهار والانس والجن كلهم اجمعون لابد انهم سائرون الى القدر المحتوم الى الفناء والزوال . انهم مدينون بذلك فلا مناص لهم ولا مهرب اذ لا شىء منهم قدر له البقاء والخلود فى هذه الحياة . "كل من عليها فان . . الاية " (٥) . "كل نفس ذائقة الموت(٦) . الاية"

---

(١) سورة الانسان ايتا (٢-٣) .
(٢) سورة الشمس ايتا (٧-٨) .
(٣) سورة البلد ايات (٨-١٠) .
(٤) سورة الملك اية (١٤) .
(٥) سورة الرحمن اية (٢٦) .
(٦) سورة آل عمران اية (١٨٥) .

" فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية (١) " . " ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا (٢) ". " يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا اول خلق نعيده "(٣) . الاية وما الى ذلك من الايات البينات التى تتحدث عن نهاية المخلوقات فى هذه الحياة . ثم الى جانب ذلك يقرر القرآن الكريم أن البقاء لله سبحانه وتعالى وحده فهو الأول والآخر والظاهر والباطن الذى له الخلق والحكم والتدبير واليه يرجع الامر كله " لا اله الا هو كل شئ هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون "(٤) . " كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام"(٥) .

وبعد أن قرر القرآن الكريم ان الله تعالى هو الذى خلق المخلوقات جميعا وانهم كلهم لله تعالى داخرون وان ليس هناك شئ منهم باق فى هذه الحياة وان الحياة الدنيا دار امتحان واختبار جعل الله للناس فيها استقرارا ومتاعا الى وقت معلوم ثم هم راحلون عنها بعد انتهاء اجلهم المقدر المحتوم الى حيث اراد لهم خالقهم وبارئهم - بعد ذلك كله - عرض القران موضوع اعادة الخلق الى حياة اخرى بعد الموت واوضح ان بدء الخلق من الله تعالى فمن يكن له الايجاد من العدم المحض فلا شك انه قادر على الاعادة ومن يكن البدء منه فلابد ان يكون الانتهاء اليه . " وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ... الاية "(٦) . " اليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا انه يبدأ الخلق

---

(١) سورة الحاقة (١٣-١٦) .
(٢) سورة طه ايات (١٠٥-١٠٧) .
(٣) سورة الانبياء اية (١٠٤) .
(٤) سورة القصص اية (٨٨) .
(٥) سورة الرحمن ايتا (٢٦-٢٧) .
(٦) سورة الروم اية (٢٧) .

ثم يعيده . . الاية "(١) . " ان الى ربك الرجعى "(٢) . وان الله سبحانـــــه وتعالى لم يخلق الخلق عبثا وانما خلقهم بالحق وكرم الانسان وفضله على سائــــر مخلوقاته ثم أتاه من القوى الروحية والمادية مايجعله اهلا لتحمل الامانة والقيـــام بالمسئولية والواجبات المكلف بها . ثم ارسل الرسل وانزل معهم الكتـــــــب وارشد الناس الى الخير والصلاح ودعاهم الى ترك الشر والفساد وامرهم باشياء ونهاهم عن اخرى ليعلم من يخافه بالغيب ؟ فهم يعملون فى هذه الحياة ويكـــــون ليلقوا جزاء ذلك موفورا عند الله يوم الحساب فلاشئ من عمل الإنسان يذهـــب سدى والله مطلع على دقائق الاعمال وجلائلها وظواهرها وبواطنها فهو يحصيها لهم ثم يجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى " افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لاترجعون "(٣) . " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ماكانوا يعملون (٤) " . " وأن ليس للانسان الا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفـــى وأن الى ربك المنتهى "(٥) .

---

(١) سورة يونس اية (٤) .

(٢) سورة العلق اية (٨) .

(٣) سورة المؤمنون اية (١١٥) .

(٤) سورة النحل اية (٩٧) .

(٥) سورة النجم ايات (٣٩-٤٢) .

المسالة الثالثة :ـ ما مهمة الانسان في الحياة ؟ اوبعبارة اخرى لماذا خلق الله الانسان؟

يقرر القرآن الكريم في مواطن كثيرة ان كل شيء في هذا الكون الفسيح مخلوق لله تعالى خاضع لارادته وتقديره مستسلم لامره وتدبيره طوعا وكرها فلا قدرة لشيء من خلقه ولا سلطان له على الخروج عن أمر الله وارادته ، وسواء كان ذلك الخضوع والاستسلام من الخلق بصورة ظاهرة او خفية محسوسة او غيرمحسوسة " وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون "(١) . " اولم يروا الى ماخلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ولله يسجد مافي السموات ومافي الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون "(٢) . وهذا الخضوع والانقياد لله تعالى هو سير كل الكائنات وفق ارادة اللهوأمره بحيث لا تستطيع معه ان ترفض او تتوانى او تابى وتنكص . " ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين "(٣) .

وأما الانسان فمخلوق متميز جمع الله في تكوينه الفطري العنصرين : الروح والمادة ثم جعل له قوى وطاقات متعددة غريزية وعقلية وفكرية وروحية ثم سخر له كل مافي الكون مما يتصل باسباب عيشه ويشبع طاقاته ومواهبه ورغباته ويمكنه من اقامة حياة سعيدة راقية ومن نعم الله واياته المتنوعة مالا يمكن حصره وتعداده . ويذكر القران انهذا الانسان المتميز الذى رفع الله قدره بين مخلوقاته وفضله على كثير منهم قد خلق لمهمة جليلة يقوم بها في هذه الحياة وانه ماكان ليستحق مامنح من التكريموالتفضيل والميزات ومازود به من الطاقات والخصائص الفطريةالا من اجل تمكينه

---

(١) سورة ال عمران اية (٨٣) .
(٢) سورة النحل ايتا (٤٨-٤٩) .
(٣) سورة فصلت اية (١١) .

من أداء مهمته فى الحياة على أكمل وجه .

ونجد القرآن الكريم يقرر هذا المقصود الاعظم من ايجاد الانسان ويحدد المهمة الكبرى المكلف بها فى الحياة فى ايات محدودة بعبارة واضحة صريحة على انها هى عبادة الله وحده والخلافة عنه فى الارض ، وقد تناولها القرآن بالتفصيل والبيان فى سوره واياته البينات ونستطيع ان نقول ان موضوعات القرآن كلها من العقائد والعبادات والمعاملات وما ذكر فيه من آيات الله الكونية المتعددة وما اورد فيه من اخبار الامم الخالية من المؤمنين والكافرين وما الى ذلك - هذه كلها - انما هى تفصيل وتوضيح لمهمة الانسان فى الحياة فى جزئياتها وكلياتها حتى تتضح امام الانسان معالم طريقه الى غاية وجوده ، ويتبين له منهج الله الامثل الذى يجب ان يسير على منواله لتحقيق السعادة والفوز والنجاة فى الدنيا والآخرة .

وبذلك يبين القرآن نظرته الشاملة فى الانسان والحياة الانسانية مؤكدا الغاية التى اوجد الله الانسان من اجلها والمهمة التى كلفه اياها فى الحياة فالانسان - من ناحية - خليفة الله فى الارض فهو مكلف بعمارة الكون واقامة الحياة على الاسس والمبادئ والتوجيهات التى وضعها الله تعالى وبينها فى كتبه وعلى ألسنة رسله الكرام ليعيش الناس فى ظل هدى الله ونوره فى سلام وأمن واستقرار وتنتهى الفتنة فى الارض ويكون الدين كله لله والناس له عابدون او مستسلمون لامره خاضعون لسلطانه .

ومقتضى هذه الخلافة الربانية التى كرم الله بها الإنسان هو أن يقوم هذا الانسان بحق هذا الاستخلاف خير القيام يعرف ربه والهه حق المعرفة ويقدره حق قدره ويصدر فى كل شأن من شئون حياته عن امره ويسير على هديه وتوجيهاته

ويطيعه في كل ما أمره به ويجتنب كل ما نهى وزجر عنه ولا يتعدى الحدود المرسومة له في المهمة المكلف بها ولا يتصرف فيها كيفما يشاء حسب رأيه الخاص وهواه بل عليه ان يسعى لتنفيذ ارادة الله وتحقيق مشيئته في الحياة واقامة نظام هذه الحياة طبق منهج الله القويم واجراء شئونها وفق تعاليمه واوامره حتى يكون المجتمع البشرى على الصورة الناصعة التي يريدها الله تعالى من النزاهة والجمال والخير والرشد والفلاح والسعادة وتتجلى فيه المآثر والمكارم والفضائل التي يحبها الله ويسود اجواءه الخير والمحبة والاخوة ويقضى في هذا المجتمع على كل مايبغضه الله من صنوف الظلم والشر والفساد والفوضى ليصبح مجتمعا طاهرا نقيا يتمتع فيه الانسان بكل ماله من حقوق ومصالح ويستطيع ان يقوم بكل ماعليه من واجبات ومسئوليات تجاه نفسه والمجتمع الذى يعيش فيه . والى جانب ذلك كله يجب على الانسان ان يبذل اقصى ماأوتى من قدرات وطاقات ويستخدم كل مازود به من معلومات وافية عن الكون والحياة الانسانية ليتعرف على آيات الله الباهرات المسخرة له في السموات والارض ويستكنه اسرارها ويفكر في طريقة استغلالها واستخراج مافيها من المنافع والفوائد التي تعود على الجنس البشرى بالخير والسعادة والطمأنينة وتحقق له التقدم والرخاء والرفاهية وقد جاء تنويه القرآن الكريم بما شرف الله به الانسان من مهمة الاستخلاف في الارض في ايات كثيرة منها قوله تعالى : " واذ قال ربك للملائكة انى جاعل في الارض خليفة ... الاية "[1] . " ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله[2]. ... الاية .

---

(١) سورة البقرة اية (٣٠).

(٢) سورة ص اية (٢٦).

وقوله تعالى : " وهو الذى جعلكم خلائف فى الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم "(١) . وقوله تعالى : " هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها (٢) " الاية .

ويظهر مما تقدم أن معنى استخلاف الله للإنسان فى الأرض هو اختياره وتكريمه بمهمة عمارة الكون واقامة شئون الحياة كلها وفق منهاج الله وتنفيذ امره فى كل شىء واجراء احكامه وشريعته وتعاليمه وبذل الجهد المستطاع فى سبيل الانتفاع بما سخر الله له من مخلوقاته فى الكون لازدهار الحياة ورقيها وقيامها على دعائم الحق والعدل والخير والفلاح .

ومن ناحية أخرى فإن هذا الإنسان مخلوق ابتداء ليعبد الله الذى أوجده من العدم ووهب له الحياة وخلق له مافى السموات ومافى الارض نعمة منه وفضلا " وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون "(٣) . " ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت (٤) الاية . وليس المقصود من العبادة هنا هو الشعائر التعبدية فحسب كما يفهمه بعض الناس ولكن المقصود هو المعنى الشامل والمفهوم الواسع الذى يتناول جوانب حياة الانسان كلها فيكون المراد هو توجه الانسان بكل مشاعره وافكاره واعماله الى الله تعالى يصدر عن امره ويتبع هداه ويبتغى مرضاته فى كل مايقوم به من شئون حياته الخاصة والعامة ولا يخرج عن نطاق هذا المعنى الشامل والمفهوم الواسع للعبادة جانب من جوانب الحياة البشرية الروحية والمادية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية فكل هذه النواحى والميادين من الحياة الانسانية يجب ان يسير فيها الانسان مستنيرا بنور الله المبين متبعا هديه مقتفيا آثار رسله الكرام لا يخرج عن دائرة منهاج

---

(١) سورة الأنعام آية (١٦٥) .
(٢) سورة هود آية (٦١) .
(٣) سورة الذاريات آية (٥٦) .
(٤) سورة النحل آية (٣٦) .

الله القويم قيد شعرة وذلك لضمان اقامة الحياة على دعائم الحق والعدل والخير والرشاد تحقيقا للغاية العظمى التى من أجلها خلق الانسان فى الحياة .

المسألة الرابعة : مامنهج الانسان فى الحياة ؟

ان رحلة الانسان فى الحياة رحلة شاقة متعبة والطرق امامه كثيرة متفرقة وشعب الحياة ومجالاتها متعددة متباينة ومسالك الشر والفساد فيها كثيرة والطريق الى الخير والصلاح واحد لا التواء فيه ولا اعوجاج والانسان مخلوق ضعيف يملك قدرة عقلية محدودة وما أوتى من العلم قليل فهو غير قادر على معرفة طريقه الى النجاة والسعادة ان هو اعتمد اعتمادا كليا على عقله المحدود وعلمه القليل القاصر دون أن يستمد القوة والعون والهداية والنور من الله الخالق المدبر القهار . والله سبحانه وتعالى العليم بخلقه وما يصلح لهم فى الحياة ومايصلحون له والمنزه عن العبث والباطل ماكان ليدع الناس فى حيرة وفوضى من امرهم يخبطون خبط عشواء ويركبون كل عمياء ويجرون وراء كل ناعق ويتعبدون للاهواء ، ويستجيبون لداعى المطامع والشهوات موكولين الى انفسهم دون أن يضع الله لهم منهجا قويما متكاملا يسيرون عليه فى شئون حياتهم فيه كل الخير والصلاح والرشد ، فلذلك ارسل اليهم الرسل وانزل فيهم الكتب لئلا يكون لهم عليه حجة من بعد ذلك .

لقد رسم القرآن الكريم طريقا مستقيما واضحا يسير عليه الانسان فى الحياة كانت أسسه ومبادئه وتعاليمه التى قدمها فى العقيدة والتشريع والتنظيم والاخلاقيات مثلاعليا للانسانية لا يبلغ مستواها فى الرفعة والكمال والشمول اى نظام من وضع البشر كما ان منهجه فى التربية والاصلاح فريد من نوعه شامل متكامل لا يعتريه نقص

ولا قصور وقد راعى فيه الحق تبارك وتعالى فطرة الانسان وطبيعته وحدود طاقاته ومصالحه وملابسات حياته " ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم (١) " الاية .
" ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (٢) " وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الايات لقوم يذكرون (٣) " فمن اتبع هدى الله ونوره وسار على نهجه السوى وأستسلم لله وخضع خضوعا كاملا لامره وحكم شريعته فى كل شأن من شئون الحياة لا يقبل بها بدلا ولا يبغى عنها حولا فى اى حال من الاحوال فانه يضمن لنفسه الحياة الطيبة السعيدة وتمكين الله له فى الارض .
وبذلك يسير فى رحلة الحياة آمنا مطمئنا ، يجد طريق الخير والصلاح والسلام ممهداً امامه فيسابق اليه ويرى سبل الشر والفساد مكشوفة ظاهرة فيجتنبها ويفر منها الى الله تعالى ليسلم من الضلال والتيه والهلاك وينال الاجر الجزيل والثواب العظيم الذى أعده الله للمتقين يوم المعاد " قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا باياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون (٤) " " وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (٥) " . وأما من يرفض السير على هدى الله ونوره وابتغى غير منهجه طريقا واتبع هواه وانساق وراء اللذات والشهوات وزخارف الدنيا الفانية وتمرد على الله فانه يضل عن سواء السبيل ويشقى فى الحياة شقاء بالغا وهو فى الاخرة من

---

(١) سورة الاسراء اية (٩) .
(٢) سورة النحل اية (٨٩) .
(٣) سورة الانعام اية (١٢٦) .
(٤) سورة البقرة ايتا (٣٨-٣٩) .
(٥) سورة الانعام اية (١٥٣) .

الخاسرين . " فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى (١) " . "ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى (٢) " . "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين (٣) " .

. . .

رابعا : التشريعات والتنظيمات الإسلامية :

ان التشريعات والتنظيمات الاسلامية هى الاصول العامة والقواعد الكلية والمبادىء والاسس والقيم الثابتة التى عرضها القران الكريم وفصلتها السنة المطهرة لتحديد منهج الله القويم الذى ينبغى ان تسير الحياة البشرية على منواله . وقد جاءت هذه التفصيلات شاملة لجميع شئون الانسان فى شتى مجالات الحياة الروحية والمادية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية بحيث تتناول جوانب الحياة البشرية فى جزئياتها وكلياتها على السواء .

واننا نلاحظ ان منهج القران الكريم فى تكوين الشخصية المسلمة تكوينا صالحا نموذجيا وبناء المجتمع الاسلامى على الحق والعدل هو ترسيخ العقيدة الاسلامية الصحيحة فى نفوس المسلمين وتعميق جذور الايمان فى قلوبهم واعطاؤهم فكرة واسعة شاملة عن حقائق الكون المتصلة بالحياة الانسانية من اجل تربية هذه النفوس وتهيئتها لتكون صالحة لحمل المسئوليات وتقبل التكاليف والاوامر الشرعية والالتزامات الاخلاقية التى تطالب بها بعد ذلك . فلذلك نرى ان

---

(١) سورة النازعات آيات (٣٧-٤١) .
(٢) سورة طه اية (١٢٤) .
(٣) سورة ال عمران اية (٨٥) .

التشريعات والتنظيمات التى تناولها القران لم تتنزل الا بعد ان استقامت نفوس المسلمين على الحق وتهذبت طباعهم واتسمت افكارهم عن طبائع الاشياء واعتدلت نظرتهم اليها فاصبحوا مهيئين ومعدين اعدادا نموذجيا للتقبل والطاعة والتنفيذ . وانما كان ذلك كذلك لان طبيعة اقرارهم لله بالالوهية والربوبية والحاكمية وتصديقهم باليوم الاخر وبالملائكة والرسل والكتب تفرض عليهم السمع والطاعة والوقوف عند امر الله والتزام تعاليمه وتوجيهاته وتحكيم شريعته فى كل شأن من شئون حياتهم الخاصة والعامة لا يحيدون عن ذلك قيد شبر ولا يصرفهم عنه اى صارف مهما كان ولا يتجهون شمالا او يمينا ملتمسين النظم والقوانين مستوردين الافكار والنظريات من امم الارض التى لم تهتد الى ماكانوا عليه من الحق المبين لانهم على يقين تام بانهم هم الاعزة والاعلون بينما كان كل من سواهم من قوى الأرض الطاغية اذلة اسفلين . فما كانوا ليهبطون من المستوى الرفيع الذى ارتقوا اليه لينحدروا إلى الحضيض الذى تتمرغ فيه البشرية فى ضلال وفساد وهلاك .

وفى مواطن كثيرة من القرآن الكريم وصف الله تعالى حال المؤمنين الاوائل الذين التفوا حول الرسول صلى الله عليه وسلم مبينا قوة عقيدتهم فى الله وتصديقهم بكل ماجاءهم من عنده وخضوعهم وانقيادهم لامره واستقامتهم على الحق ، ولا يكادون يبلغون بامر الهى ويسمعونه إلا ويبادرون إلى التنفيذ والامتثال وبذلك استقامت حياتهم حتى صارت نموذجا حيا فى الحق والعدل وصورة رائعة فى الخير والصلاح هى اقصى ماتستطيعه القدرة البشرية "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير "(١) . "الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة

---

(١) سورة البقرة اية (٢٨٥) .

وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور " (١) .

والقرآن الكريم فى منهجه الاصلاحى التربوى يقرن بين التشريعات والتنظيمات وبين الايمان ويجعل صحة الايمان اساسا متينا تبنى عليه الاعمال فى الاسلام صحة وقبولا بالاضافة الى ما ذكرنا حول المرحلة التمهيدية التى سبقت زمن تزول هذه التشريعات والتنظيمات حيث عنى فيها بترسيخ العقيدة الاسلامية الصحيحة فى النفوس وتوضيح التصورات الاسلامية الحقة وتجلية الحقائق المتعلقة بالكون والانسان والحياة الانسانية لاعداد نفسى عميق وتربية روحية قويمة ظهر ذلك بصورة واضحة طول العهد المكى من الدعوة ثم حينما بدأت هذه التشريعات والنظم تنزل على المسلمين فى العهد المدنى من الدعوة لم تنزل دفعة واحدة وانما كانت تنزل مفرقة حسبما تقتضيه الحاجات والظروف والاحوال فكانت تعالج القضايا وتحل المشكلات وتقرر اسسا ثابتة ومبادىء عامة وقواعد كلية وتضع قيما اخلاقية رفيعة لاعداد العناصر الصالحة التى يتكون منها المجتمع وتنشأ منها الامة الموحدة .

واذا علمنا ان التشريعات والتنظيمات الاسلامية تكاليف وواجبات وتبعات سواء منها ما كان بين العبد وربه وما كان بينه وبين الناس من حوله والمجتمع الذى يعيش فيه فاننا ندرك بالتالى بعض الاسباب التى من أجلها ربط القرآن بينها وبين الايمان وجعلها مترتبة عليه وكان دائما يوجه الخطاب بها الى المؤمنين كما جعل تحقيق الايمان من خلال امتثال المسلم اوامر الله تعالى واجتناب نواهيه اذ لا يقوم بذلك ولا يلتزم به على الوجه المطلوب الا المؤمنون الصادقون الذين

---

(١) سورة الحج اية (٤١)

استجابوا لله ووجهوا وجوههم له حنفاء غير مشركين به مستقيمين على الحق غير مرتابين " ألم . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون "(١) . وقد استخدم القرآن الكريم عبارات متعددة للدلالة على ماتقدم بيانه من الارتباط الوثيق القائم بين التكاليف الشرعية و الايمان ، ومن هذه العبارات المتنوعة (يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا أو لا تفعلوا كذا وكذا) و (لا تفعلوا كذا او افعلوا كذا ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر) و (من يفعل كذا وكذا وهو مؤمن) و (لا يؤمن حتى يفعل كذا وكذا) و (ماكان لمؤمن ان يفعل كذا) و (لا تجد قوما او جماعة يؤمنون بالله واليوم الاخر يفعلون كذا وكذا) .. وما الى ذلك . ولنستعرض بعض الامثلة من الايات التي وردت فيها هذه التعبيرات القرآنية لنرى مابين التكاليف الشرعية و الايمان من تلازم وتوافق فى المنهج الربانى للحياة البشرية ، وقد ورد فى معرض الحديث عن طاعة الله ورسوله وطاعة اولى الامر فى غير معصية الله تعالى والتحاكم الى شريعته الغراء قوله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلك خير واحسن تاويلا (٢) " . وقوله : " انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا وأولئك هم المفلحون "(٣) .

وورد فى حديث القرآن عن المحرمات والفواحش والمنكرات ودعوة المسلمين الى

---

(١) سورة البقرة ايات (١-٤) .
(٢) سورة النساء اية (٥٩) .
(٣) سورة النور اية (٥١) .

تطهير انفسهم ومجتمعهم منها واقامة حدود الله فى المخالفين قوله تعالى :
" يا ايها الذين امنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (١) " . وقوله تعالى " الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رافة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .... الاية (٢) . وورد فى حديث القرآن عن اخلاص الحب والولاء لله ورسوله قوله تعالى : " لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم او اخوانهم او عشيرتهم اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه ... الاية " (٣) وورد فى بيان أسس التعامل التجارى بين المسلمين قوله تعالى : " يا ايها الذين امنوا لا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم .. الآية " (٤) . وقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون (٥) " . وجاء فى بناء الاسرة وعلاقات بعضها ببعض فى الاسلام آيات كثيرة منها قوله تعالى : " ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكم اولئك يدعون الى النار ... الاية " (٦) . وقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم واهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد

---

(١) سورة المائدة اية (٥٠)
(٢) سورة النور اية (٢) .
(٣) سورة المجادلة آية (٢٢) .
(٤) سورة النساء اية (٢٩) .
(٥) سورة ال عمران اية (١٣٠)
(٦) سورة البقرة اية (٢٢١) .

لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون (١) " . وقوله تعالى : " يا أيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة ...... " الى ان قال : " ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الاخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب .... الاية (٢) . وورد فى القيم الاخلاقية ، والاداب الرفيعة قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين (٣) " وكذلك قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم (٤) " . وليس فى استطاعتنا فى هذا المقام سرد آيات الاحكام والتشريعات والنظم التى وردت فى هذا الشأن ولكن يكفينا اننا أوضحنا من خلال هذا الاستعراض ان التشريعات والنظم الاسلامية وثيقة الصلة بمسألة الايمان وانهما متلازمتان فلا يصح عمل بدون ايمان صحيح ولا يستقيم ايمان المرء ولا يتحقق استقراره فى القلب الا اذا انعكست اثاره على سلوك الانسان . فبقدر قوة الايمان ورسوخه فى القلب تكون اثاره فى سلوك الانسان فى الحياة من حيث مطابقته لمنهاج الله القويم وموافقته لما أنزله من الحق المبين .

---

(١) سورة التحريم آية (٦) .
(٢) سورة الطلاق آيات (١-٣) .
(٣) سورة التوبة آية (١١٩) .
(٤) سورة الحجرات آيتا (١١- ١٢) .

وبعد ذلك كله يجب أن نعلم أن الخالق سبحانه وتعالى قد راعى في هذه التشريعات والنظم المطابقة التامة لحاجات فطرة البشر وملابسات حياتهم فهي من حيث محتوياتها ومضامينها متكاملة شاملة تتناول جميع جوانب الحياة الانسانية ومن حيث التكاليف والواجبات التي تفرضها على الانسان والحقوق التي تطالبه بها والمصالح والمنافع التي تكفلها له قد حققت التوازن بين مطالب الروح ورغائب المادة وبين مصالح الدنيا والاخرة وبين مصالح الفرد والجماعة وما الى ذلك كما انها من ناحية الازمان والبيئات المختلفة تتصف بالمرونة والحيوية فهي قابلة للتشكل والتوسع والامتداد في معالجة القضايا المستجدة على النحو الذي يتفق مع اصولها العامة وقواعدها الكلية ، ومن اجل ذلك كان باب الاجتهاد مفتوحا في كل عصر وكل بيئة اذا توفرت شروطه لتفهم مايعرض للمجتمع المسلم من قضايا ومشكلات مستجدة وايجاد حلول مناسبة لها على ضوء الكتاب والسنة .

• • •

خامسا : القيم والتوجيهات الاخلاقية :

في المنهاج الأخلاقي الإسلامي يقرر القرآن الكريم قيما وتوجيهات رفيعة بنيت على ركيزة العقيدة الصحيحة وكان بينهما من التلازم الكامل والتوافق التام بحيث لا يمكن الفصل بينهما بأي حال ، فالأخلاقيات الإسلامية قائمة على دعامة خشية الله وتقواه وقد أخذ الله ميثاق عباده المؤمنين حين أذعنوا له وألزموا أنفسهم بالسمع والطاعة " واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور " (١) . ولذلك كانت الأخلاق

---

(١) سورة المائدة آية (٧) .

في التصور الاسلامى مرتبطة بالدين مستمدة منه لا يمكن ان تنفصل عنه او تخالفه ، ولا تقرر خارج نطاقه ان لا تغاير ولا تباين بين التصورات والافكار والسلوك العملى في الاسلام .

وان هذه القيم والتوجيهات الاخلاقية قواعد اساسية ثابتة لانها ترتبط بالكيان الانسانى الذى هو ذاته عنصر ثابت وليست ناتجة من متغيرات المجتمع وتطورات الحضارات وتقلبات الظروف الاقتصادية واختلاف الازمان والبيئات " ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها "(١) . وبذلك نرى أن طابع الثبات فى الاخلاق فى التصور الاسلامى يرجع الى طبيعة الانسان وفطرته التى لا تتغير ولا تتبدل باختلاف الاجناس وتباين الازمان والبيئات لان الحوافز والغرائز والصفات التى اودعها الله فى فطرة الانسان منذ أن خلق الله البشر لم تتغير ولم تتبدل فالحقائق الثابتة فى الانسان باقية كما هى لا يتطرق اليها التغيير والتحويل ولذلك فان طابع الثبات فى العقيدة واصول الشريعة وقواعدها والقيم والتوجيهات الخلقية اساس متين ومبدأ اصيل تقرره الاسلام لكى يعين الانسان على مواجهة التغيرات والتطورات فى الحياة . ولو ان الحقائق المتعلقة بفطرة الانسان غير ثابتة بحيث تختلف الحوافز والغرائز والصفات فى كل جنس وكل عصر وكل بيئة لكان الانسان فى حاجة الى ان يعطى اسسا وقواعد غير ثابتة فى العقيدة واصول الشريعة والقيم الخلقية حتى تكون لكل جنس وكل عصر وكل بيئة قواعد واصول مستقلة تختلف بطبيعة الحال حسب اختلاف طبائع الاجناس البشرية وتباين الظروف والاوضاع والعصور والبيئات وذلك مخالف للحقيقة القائمة مخالف لسنة الله فى خلقه فما دامت الحقائق

---

(١) سورة الشمس ايات (٧-١٠) .

المتصلة بفطرة الانسان ثابتة فقد اقتضت حكمة الخالق سبحانه وتعالى ان يعطيه تبعا لذلك اسسا وقواعد ثابتة فى العقيدة والشريعة والاخلاق .

وبالاضافة الى كل ماتقدم فان القيم والتوجيهات الاخلاقية فى الاسلام شاملة متكاملة فهى ليست محصورة فى جانب معين من جوانب الحياة البشرية بحيث تهمل بقية الجوانب أو تغفل عنها بل هى اسس ومبادئ تناولت جميع تصرفات الانسان وعلاقاته فى المجتمع فكل اعمال الانسان فى الحياة صغيرة كانت اوكبيرة فى خاصة نفسه او فى علاقاته مع بنى جنسه او حتى مع الحيوان كل ذلك بلا شك داخل فى دائرة القيم الاخلاقية الاسلامية . ولا مجال اطلاقا فى التصور الاسلامى لفكرة التفريق بين اعمال الانسان ومجالات نشاطه فى الحياة بحيث يكون بعضها داخلا فى دائرة الاخلاق بينما يكون البعض الاخر خارجا من هذه الدائرة أصلا وكما هو معلوم فى نظم وقوانين الامم الاخرى غير المسلمة قديما وحديثا ان الحياة العملية تعتبر خارجة تماما من مفهوم الدين والاخلاق (١) عندهم . ولذلك

---

(١) وهذا لا ينفى وجود بعض الاعمال والصفات الانسانية البارزة فى حياة هؤلاء القوم الا انهم لا يصدرون فيها عن عقيدة صحيحة ولا يلتزمون بالمعايير الثابتة من الحق والفضيلة . وكما هى الحال فى الجاهلية العربية قبل الاسلام حيث كانت توجد بعض الاعمال والصفات الحسنة انحرف فيها الناس الى حد كبير اذ كانوا يصدرون فيها عن الاهواء والمطامع والمنافع العاجلة وكذلك الامر بالنسبة للجاهليات الحديثة المتمثلة فى الدول الغربية والشرقية الكافرة فقد وجدت عندها بعض الاعمال والصفات النفعية يلتزم بها الناس ويدعون غيرهم اليها ويعيبون على من تقاعس عنها الا أن هذه الاعمال والصفات والعادات لا تمت الى العقيدة الصحيحة بصلة ولا تستظل بالمعايير الانسانية الثابتة على دعائم الحق والعدل والفضيلة وانما هى فى الحقيقة قائمة على ركيزة الاهواء والمصالح والمنافع الدنيوية العاجلة وبذلك فقدت اصالتها وثباتها وفقدت تبعا لذلك قوتها وفعاليتها فى التأثير التلقائى على قلوب الناس وفى سلوكهم العملى فى الحياة .

فان شئون السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلاقات الاسرية وغيرها لا تخضع لهيمنة الدين ولا ترتبط بالاخلاق الفاضلة .

وأما فى الاسلام فقد فصل القرآن الكريم منهجه الاخلاقى وربطه بالعقيدة الصحيحة وجعل جميع اعمال الانسان فى الحياة خاضعة لمقياس اخلاقى وذلك لما اوتى هذا الانسان من القدرة على التمييز والقدرة على الاختيار والقدرة على تحصيل المعرفة مما يعينه على التعرف على الحسن والقبح والخير والشر . " ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها " (١) وبذلك يتميز الانسان عن الحيوان الذى لا توجد فيه هذه القدرات والطاقات مما جعل أعماله غير خاضعة للقيم الاخلاقية لانها اعمال عضوية تصدر بغير إرادة ولا شعور .

ولقد عرض القرآن الكريم مجموعة من التوجيهات الخلقية التى تهدف الى تحقيق غايات انسانية سامية لكى يصبح الانسان بسلوكه العملى اقرب مايكون الى الخير والصلاح وذلك حينما تتمثل فى شخصه صورة عالية من الاخلاق ويكون فى المستوى اللائق بكرامة الانسان والمتفق مع ماخلق له من عبادة خالقه والخلافة عنه فى الارض . وان هذا الاصلاح الخلقى الرفيع الذى بسط القران أسسه ومبادئه امام المسلمين مع ماتقدم الحديث عنه من التغيير النفسانى العميق الذى أنشأه الايمان بالله واليوم الاخر هما أعلى مراتب الإصلاح والتغيير لصلاح الفرد وصلاح الجماعة فقد كانت عناية القرآن بالجانب الاخلاقى من اجل تكوين عناصر قوية وافراد صالحين يكونون لبنات قوية فى بناء مجتمع اسلامى فاضل يسير على هدى الله وينفذ ارادته .

---

(١) سورة الشمس ايات (٧- ١٠) .

وإن الاخلاقيات الاسلامية التى قررها القرآن الكريم كثيرة متعددة وهى مبثوثة فى اماكن كثيرة من سوره وآياته الكريمات ، ولا يمكن ان تستوعب جميعها فى مثل هذا المقام ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله . وسنعرج على ذكر أهم هذه الفضائل الاخلاقية التى قررها القرآن وندب المسلمين الى التحلى بها لبلوغ أقصى ماتسمح به القدرة البشرية من الصلاح والكمال ثم بعد ذلك نورد عليها أمثلة رائعة من الايات البينات التى تشتمل عليها .

ومن هذه الاخلاق الفاضلة والاداب الرفيعة : اقامة الحق والعدل بين الناس والبر والتقوى والصدق والوفاء بالعهود واداء الامانة والصبر على الشدائد والثبات على الحق والعفو والصفح وكظم الغيظ وسلامة الصدر والاحسان والرحمة والشفقة وحب الخير لجميع الناس والتعاون والتناصر على البر والتناصح فى الدين والتواصى بالحق وايثار محبة الله وطاعته والاستعلاء بالايمان على كل اوضاع الارض والتحاب والتواد فى الله والتضحية والتفانى فى سبيل الحق واخلاص النية والعمل لله تعالى وقصد وجهه ومرضاته فى جميع الامور والاستعلاء بطاعة الله وتقواه على الهوى والشهوات والملذات والمصالح والتواضع والحياء والعفة والنزاهة ومعرفة الواجب واداؤه وما الى ذلك . ولنستعرض بعض الايات البينات التى تشتمل على هذه الاخلاق الفاضلة والصفات الحميدة التى تشحن المؤمنين بطاقات عظيمة وترفعهم من حضيض الحيوانية والمادية الى اعلى مستوى الانسانية وتحلق بهم فى آفاق الكمال البشرى .

ومن ذلك قول الله تعالى : " ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا ."(١) . وقوله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء

---

(١) سورة النساء اية (٥٨) .

لله ولو على أنفسكم او الوالدين او الاقربين ان يكن غنيا او فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا (١) ". وقوله تعالى : أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر اولو الالباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب .والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار "(٢) . وقوله تعالى : "والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فاجره على الله انه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ماعليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم .ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور (٣) " . وهذه الايات وغيرها تتضمن التوجيهات الاخلاقية الرفيعة التي يدعو الاسلام المسلمين الى وجوب تطبيقها في علاقاتهم بعضهم مع بعض ليفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .

. . .

---

(١) سورة النساء اية (١٣٥).

(٢) سورة الرعد ايات (١٩-٢٢).

(٣) سورة الشورى ايات (٣٧-٤٣).

المبحث الثانـــى

السنة النبوية المطهـــرة

تحدثت فى الفصل السابق حديثا مفصلا مستفيضا عن القرآن الكريم ومنهجـه التربوى الاصلاحى فى تنشئة الجيل الاول من المسلمين وعرضت لنماذج من أهـم الموضوعات التى عالجها القرآن وحسم مادتها وبينها ووضحها بمالا مجال معـه لادنى لبس او غموض فكان لها الاثر البالغ فى ذلك التكوين الجديد، وذلك بما فتحه القرآن أمام المسلمين من آفاق واسعة فى المعرفة الحقة بالخالق سبحانـه وتعالى فى الوهيته وربوبيته وما يتصل بذلك من أمور العقيدة وبما وضعه أمامهـم من تصور صحيح وفكرة شاملة عن حقائق الامور المتعلقة بالانسان والكون والحيـاة وبما قرره من تشريعات عادلة واخلاقيات وادب سامية لاسبيل للبشرية الى اقامـة الحق والعدل وتحقيق الفوز والنجاة فى الحياة الا بالتمسك بما جاء فيهمـا وقبول السير على هديها .

واما فى حديثنا عن السنة المطهرة فى منهجها التربوى الاصلاحى بوصفها هى الاخرى عاملا مؤثرا فى حياة ذلك الجيل الاول الفذ فلسنا بحاجة الـى الاسهاب فيه مثلما فعلنا فى الحديث عن القرآن وذلك لان السنة فى الحقيقة مشتملة على جميع الموضوعات الواردة فى القرآن ، فكل ماتقدم الحديث عنه فـى موضوعات القرآن فبامكاننا ان نقوله فى معرض حديثنا هنا عن السنة ونمثل له بامثلة وافرة او ان نختار موضوعات أخرى غير تلك،وأيا مافعلنا من ذلك فسنجد ان السنة المطهرة تشتمل على كل ماجاء فى القرآن من الموضوعات والمسائل مع مزيد بيـان وتفصيلات وايضاحات وبذلك يتضح لنا كون السنة بيانا تفصيليا وشرحا توضيحيـا لمسائل القرآن وموضوعاته .

وقد ورد في بعض آيات القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى أنــزل الكتاب والحكمة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وآتاه من العلم والفقه مالم يكن يعلم من قبل وكذلك جاء في تحديد القرآن لمهمة الرسول صلى اللـه عليه وسلم بالنسبة لهذا الكتاب المنزل عليه أنه مكلف بتبليغ رسالة ربه الـى الناس يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويبين لهم مانزل اليهم ، يفصلـه لهم ويوضح مراميه ومضامينه ، ويبدو واضحا من اقتران ذكر الكتاب بالحكمـة وعطفها عليه ان الحكمة المشار اليها في بعض آيات القرآن شيء آخر غيـر القرآن فهي - كما قال جمهور العلماء والمحققين - ما أطلعه الله عليه وعلمـه من أسرار دينه وتفصيلات احكام شريعته وبيان اصولها العامة وقواعدها الكليـة وذلك مايعبر عنه بالسنة . قال تعالى " .. وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمـك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما "(١) . وقال تعالى : " لقد من اللـه على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهـم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين "(٢) . وقال تعالى : " وأنزلنـا إليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون (٣) " وفي الحديث عـن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : " ألا انـي أوتيت الكتاب ومثله معه "(٤) .

ولقد أمر الله تعالى المسلمين بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واخبـر أن ذلك من طاعته تعالى ، كما جعل اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم دليـل

---

(١) سورة النساء اية (١١٣) .
(٢) سورة آل عمران اية (١٦٤) .
(٣) سورة النحل اية (٤٤) .
(٤) رواه ابوداود . (في كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ٤ / ٢٠٠

صدق حب المسلمين لله تعالى وانقياد هم له ، فكان لزاما عليهم ان يمتثلوا لكل ما أمر به ويجتنبوا ما نهى عنه وينزلوا عند حكمه فى كل شأن ويرد وا ماقد يختلفون او يتنازعون فيه الى الله ورسوله . وقد حذرهم تحذيرا شديدا من مخالفة أمره ، جاء ذلك كله فى ايات كثيرة متعددة فى القرآن منها قوله تعالى : " من يطع الرسول فقد أطاع الله . . . الاية (١) " . وقوله تعالى : " قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم . . . الاية " (٢) . وقوله تعالى : " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب (٣) " وقوله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم . فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلك خير واحسن تأويلا " (٤) . وجمهور العلماء على ان المراد بذلك بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم رد الشيء المتنازع فيه الى الكتاب والسنة وكذا ماجاء فى قوله تعالى : " فلاوربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " (٥) . والمعنى تحكيم الكتاب والسنة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم . وفى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " دعونى ماتركتكم انما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على انبيائهم فاذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه واذا امرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم " (٦) . وقال الله تعالى : " فليحذر الذين يخالفون

---

(١) سورة النساء اية (٨٠) .
(٢) ال عمران اية (٣١) .
(٣) الحشر اية (٧) .
(٤) سورة النساء اية (٥٩) .
(٥) سورة النساء اية (٦٥) .
(٦) رواه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن النبى صلى الله عليه وسلم ٨/ ١٤٢ .

عن أمره ان تصيبهم فتنة " او يصيبهم عذاب أليم "(١) . فبهذه الاوامر القاطعة التى وردت فى وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وامتثال اوامره واجتناب نواهيه يكون كل ماصدر عنه صلى الله عليه وسلم مقصودا به التشريع والاقتداء ملزما وحجة على المسلمين ومصدرا تشريعيا تستنبط منه الاحكام الشرعية الى جانب القرآن الكريم وذلك لان الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله تعالى فهو مكلف بتبيين مانزل اليه وتعليم الناس امور دينهم وهو بعيد كل البعد عن الهوى واللهو والباطل حينما يؤدى مهمته الجليلة " وماينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى "(٢) وبذلك يتضح لنا أن السنة مبينة وموضحة لما جاء فى القرآن فهى ملزمة كالقرآن وواجبة التنفيذ والاتباع . ولقد كان المسلمون الاوائل يعلمون أن أوامر القرآن وأوامر الرسول كلتيهما صادرة من عند الله تعالى وانهما مصدران اساسيان فى التشريع الاسلامى أوجب الله على المسلمين اتباعهما والتزام حدودهما ابتغاء لمرضاة الله وخوفا من عقابه الشديد . فقد كانوا يأخذون كل ماجاء فى الكتاب والسنة بجدية فائقة ويحرصون على التنفيذ الفورى والتطبيق العملى الشامل لكل مابلغهم عن الله ورسوله لا يتوانون فى شئ من ذلك ولا يتلكؤون أو يترددون او يحسون فى انفسهم حرجا او نقيصة وانما كانوا يذعنون ويسلمون ويلتزمون ويتبعون كل حسب قدرته وطاقته .

وقد ورد فى كتب السنة أمثلة كثيرة رائعة تصور لنا جدية هؤلاء المسلمين الاوائل فى الاخذ بالسنة واهتمامهم البالغ بتنفيذ اوامر الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة النور اية (٦٣) .
(٢) سورة النجم ايتا (٣-٤) .

واجتناب نواهيه وحرصهم الشديد على تطبيق توجيهاته الرشيدة حتى ماجاء منها فى معرض الاداب فماكانت نفوسهم تسوغ لهم مناقشته فى قليل من ذلك أو كثير فضلا عن مخالفته وعصيانه . ومن أمثله ماورد فى ذلك حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيسة عينا ينظر ماصنعت عير أبى سفيان .... الى ان قال : فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى سبقوا المشركين الى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يقدمن أحد منكم الى شىء حتى أكون أنا دونه " فدنا المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قوموا الى جنة عرضها السموات والارض " قال يقول عمير بن الحمام الانصارى : يارسول الله جنة عرضها السموات والارض ؟ قال " نعم " قال : بخ بخ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مايحملك على قولك بخ بخ " قال لا والله يارسول الله الا رجاءة أن أكون من أهلها . قال " فانك من أهلها " فاخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه انها لحياة طويلة . قال فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل (١) . وحديث ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم راى خاتما من ذهب فى يد رجل فنزعه فطرحه وقال : " يعمد احدكم الى جمرة من نار فيجعلها فى يده " فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم خذ خاتمك انتفع به قال لا والله لا آخذه أبدا ، وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) . وعن المعرور بن سويد قال : لقيت أبا ذر رضى الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه حلة مثلها فسألته عن ذلك فقال انى ساببت رجلا فعيرته بأمه فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر أعيرته بأمه ؟

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الامارة باب ثبوت الجنة للشهيد ١٣/ ٤٤-٤٦ ، شرح مسلم للنووى .

(٢) رواه مسلم فى كتاب اللباس باب تحريم خاتم الذهب على الرجال ، ١٤/ ٦٥-٦٦ .

انك امرؤ فيك جاهلية اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم (١) " . وعن عمر بن ابى سلمة " ربيب رسول الله " قال " كنت غلاما فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدى تطيش فى الصحفة فقال لى رسول الله : " ياغلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك فمازالت تلك طعمتى بعد "(٢) . وعن ابى بكر بن عبد الله بن قيس عن ابيه قال سمعت ابى رضى الله عنه وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان ابواب الجنة تحت ظلال السيوف " فقام رجل رث الهيئة فقال يا ابا موسى آنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا قال : " نعم " قال فرجع الى اصحابه فقال أقرأ عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فالقاه ثم مشى بسيفه الى العدو فضرب به حتى قتل (٣) .

هكذا كان المسلمون الاوائل يأخذون اوامر الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الجدية الفائقة وقد فهموا ان السنة المطهرة هى المصدر الثانى للتلقى بعد القرآن فهى التى تبين ما ورد فى القرآن الكريم من احكام وتعاليم ومبادىء وافكار ومفاهيم وعرفوا كذلك ان العمل بتكاليف الاسلام وواجباته على الوجه الاكمل وفهم روح الدين ومقاصده كل ذلك لا يمكن باى حال الا بالاخذ بالتطبيقات العملية التى تصدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيان أمور الدين فلذلك كانوا يصدرون فى جميع اعمالهم وفق نور الكتاب المبين وعلى هدى السنة

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الايمان باب المعاصى من أمر الجاهلية ١/ ١٣ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الاطعمة باب التسمية على الطعام والاكل باليمين ٦/ ١٩٦ .

(٣) رواه مسلم فى كتاب الامارة باب ثبوت الجنة للشهيد ١٣/ ٤٦ شرح النووى المطبعة المصرية .

المطهرة ويخضعون جميع شئونهم فى الحياة لهيمنة الدين الحنيف وتعاليمه السمحة ولا يخرجون من اطاره قيد شبر .

واننا نلاحظ ان القرآن الكريم قد اتبع منهجا تفصيليا فيما عرضه من موضوعات حول تقرير العقائد الاسلامية من الوهية الله وربوبيته وعقيدة اليوم الاخر وما يتصل به الى غير ذلك من المسائل مع مزيد من التركيز والاهتمام والتفصيل والبيان فيما يتعلق بقضية الالوهية بينما نجد السنة فى هذه الموضوعات تقرر وتؤكد المعانى الواردة فى ذلك فى القرآن مع بعض البيانات التفصيلية التوضيحية .

وأما الشعائر التعبدية والمعاملات فمنهج القران فيها ايراد الشعيرة او المعاملة مجملا من غير بيان تفصيلى تاركا مهمة ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ولذلك وجدنا السنة شارحة مفصلة ومحددة لجميع الموضوعات فى هذا المجال .

وأما فى الامور المدنية والجنائية والسياسية والاقتصادية والاخلاقية والعلاقات الدولية وغيرها فقد وردت بشأنها فى القرآن الكريم تشريعات وقيم ومبادئ ومفاهيم جاءت فى معظم الحالات رؤوس موضوعات وعناوين بارزة مقترنة بشئ قليل من التفصيل احيانا ثم جاءت السنة المطهرة ففصلتها وشرحتها وبينت مراميها ومضامينها وحددت مفاهيمها تحديدا دقيقا شاملا . ومن المعلوم فى دراسة الشريعة الاسلامية أن القرآن الكريم وهو يقرر هذه المبادئ والقيم ويضع هذه التشريعات لم يتعرض لذكر البيانات التفصيلية المتعلقة بكل قضية عرضها وانما ترك مهمة ذلك للرسول المعلم المكلف بتبيين ذلك للناس . وقد وافتنا السنة المطهرة بما لا مجال معه لقيام لبس أو غموض أو قصور فى فهم أمور الدين وشئون الحياة الانسانية .

ونعود بعد ذلك كله لنقرر ان منهج القرآن الكريم ومنهج السنة المطهرة فى التوجيه التربوى والاصلاح الروحى والاخلاقى متكاملان شاملان يسيران فى اتجاه موحد وعلى طريق واحد مما كان له الاثر البالغ فى تنشئة الجيل الاول من هـــذه الامة واخراجه قائدا رائدا للامم كلها يدعوهم الى الخير والصلاح وينقذهم من متاهات الجهل والفساد والهلاك.

• • •

المبحث الثالث : القدوة العملية فى شخصية الرســـول صلى الله عليه وســلـــم

ليس فى وسع أى باحث مهما كان اطلاعه واسما وثقافته عالية ان يحيــط بجميع جوانب الكمال او يكشف عن جميع اسرار العظمة المتمثلة فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فمهما اوتى من قوة البلاغــة وقوة التعبير ودقة التصوير فلـــن يستطيع ان يوفى الرسول صلى الله عليه وسلم حقه كاملا فى اية ناحية من نواحــى كماله وعظمته فضلاعن الاحاطة بها جميعا . فالحديث عن شخصية هذا الرســول الكريم حديث عن اعظم انسان واكرم بشر عرفته الدنيا على الاطلاق .

ولقد جمع الرسول صلى الله عليه وسلم اسمى صفات الكمال وأبلغ معانــى الحسن والجمال كما حوى فى شخصه الكريم آفاقا عالية من العظمة كانت متعددة الجوانب شاملة مستوعبة اشتملت على جميع ماتفرق فى غيره من كريم الخصـــال وحسن الصفات والاخلاق دون أن يبلغوا فى ذلك المستوى الرفيع الذى بلغه صلى الله عليه وسلم من الكمال .

واذا كانت عظمة الرجال تقاس بامور عظام فى مجالات الحياة الانسانية يكون الزعيم او العبقرى قد نجح فى بعضها وحقق لامته مهمة جليلة ترفع من شأنهـــا بين الامم وتحلق بها فى سماء المجد والسؤدد فان ماعهدناه فيمن يعدون مـــن عظماء الدنيا وعباقرة التاريخ ونوابغ الدهر انهم كانوا اذا احسوا بثقل الاوضـــاع القائمة والظروف السيئة التى ألمت باممهم يندفعون متاثرين الى محاولة التغييـــر والاصلاح فيكافحون بعض الامراض والمشكلات الاجتماعية او يرومون تقويم بعـــض الانحرافات الاخلاقية او رفع بعض المظالم السياسية او حل بعض الازمـــات

الاقتصادية او اصلاح بعض نواحى الحياة الروحية فى المجتمع . فمنهم من ينذر حياته كلها ويقف جهوده ومساعيه كلها لانهاض أمته من الحضيض الذى تمرسف فيه وجمع كلمتها بعد تفرق وشقاق حتى تصبح بعد تخلفها وضعفها كيانا قويا مرهوب الجانب . ومنهم من تشرب الروح العسكرية فكون من أمته جيشا جرارا تعهدهم بالتدريب والتعليم حتى اتقنوا فنون القتال وبعث فيهم روح الفداء والتضحية والولاء له ولقومهم فخاض بهم المعارك فحقق بعض المكاسب الذاتية او المصالح القومية او المطامع التوسعية ومنهم من جنح الى التربية الروحية والتطهر الخلقى وظل يوجه قومه ويربيهم على ماوضعه فى ذلك من المبادىء والافكار حتى يحقق بعض النجاح فى مهمته فيحملهم على مذهبه - ايا كان هذا المذهب - يعتنقونه ويتعصبون له ويدافعون عنه ويتفانون فى سبيل نشره وتمكينه فى الارض . ومن هؤلاء من يحالفه الحظ والنصيب فيحقق نجاحا ملموسا فى مهمته فترة من الزمن ومنهم من يهلك قبل نضوج ثمار جهوده وتحقيق جميع امانيه وأطماعه .

وان عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن ان تقاس بمعايير العظمة المعهودة فى هؤلاء العظماء والعباقرة لتباين مابينهما جملة وتفصيلا . ان افاق عظمة الرسول صلى الله عليهوسلم لم تعلم البشرية لها مثيلا حتى فى انبياء الله ورسله الكرام فضلا عمن يسمون عباقرة التاريخ وعظماء الدنيا ولا اقول الافرادالعاديين من البشر .

ومن أبرز جوانب العظمة فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم انه وجد امته - بل امم الارض قاطبة - فى أسوأ حالة من الجهالة والتخلف والتفكك والشقاق والفرقة والعداوة . كانوا يعيثون فى الارض فسادا باسهم بينهم شديد وقلوبهم متنافرة متناكرة يسطو القوى منهم على الضعيف فيستذله ويستعبده أو يسومه سوء

العذاب او يقتله فاستطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يوحد صفوف هذه الامة ويجمع كلمتها ويوجهها نحو الخير والصلاح وينهض بها ويدفع بها نحو التقدم والرقي ويربطها باسم الارض بوشاح العقيدة في الله لتحتل بذلك مكان الزعامة والريادة والقيادة وتحمل مشاعل الهدى والنور والعرفان لخير البشرية جمعاء . وقد استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستخرج من امته مجموعة من الاتباع والانصار كانوا نواة طيبة صالحة تعهدهم بالتربية والتوجيه والاصلاح من غير ان يكون له من وراء ذلك مطمع دنيوي سوى حب الخير للناس وحب هدايتهم الى الحق ، فكان لهم الأب الرحيم والمعلم البار ، وكان شديد الحرص على مصلحتهم وصلاحهم يصبر على انحرافاتهم واخطائهم وزلاتهم ويتحمل ايذاء بعضهم له ومخالفتهم ومضايقاتهم في كل مرة وهو يريد لهم الخير والصلاح والهداية .وكان يخطو بهم خطوة خطوة الى الامام ويسير بهم رويدا رويدا نحو الافق السامي وكان بعضهم يفلتون من يده ويهبطون عن بلوغ المستوى الذي يريده لهم فلم يضعف ولم يمل ولم ييأس بل شمر عن ساعد الجد وبذل اقصى ماوسعه من جهد حتى استطاع ان يرقى بهم حيث يريد لهم الاسلام ويثبتهم على الجادة فارتقوا آفاقا عالية في الخير والصلاح وصاروا مثلا عاليا للاجيال اللاحقة تحتذى حذوهم وتحاول الاقتراب من المستوى الذي بلغوه في السمو الروحي والتطهر الخلقي وتنفيذ المنهج الرباني في الارض . وكذلك استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم ان يجعل من المؤمنين الاوائل امة واحدة عزيزة الجانب قوية العريكة كون منها جيشا كبيرا من المجاهدين متحابين في الله معتصمين بحبله المتين ارواحهم مترابطة متآلفة أشداء على الكفار رحماء بينهم عباد بالليل فرسان بالنهار تشربت قلوبهم روح الجهاد فخاضوا غمار المعارك

الفاصلة بين الحق والباطل فضربوا اروع أمثلة فى التضحية والفداء والتفانى فى سبيل اعلاء كلمة الله ونصرة دينه واقامة الحق والعدل ونشر الخير والهدى بين الناس فحققوا بفضل الله وتوفيقه انتصارات باهرة مكن الله لهم بها دينهم ووسع بها سلطانهم فى الآفاق .

هذه بعض جوانب العظمة التى ظهرت واضحة جلية فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وكل ماذكرنا فى هذه السطور القليلة السابقة ان هو الا غيض من فيض او قطرات من البحر الخضم . وهناك جوانب اخرى متعددة ظهرت فيها عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم بما هو فوق المعهود فى التاريخ ولا يمكن استيعابها مفصلة فى هذا المقام . وقد بذل الرسول صلى الله عليه وسلم فى سبيل مهمته العظيمة مالم يبذله أحد قبله وبلغ فى كل جانب من جوانب عظمته مستوى رفيعا وأفقا عاليا لم يبلغه احد من قبله ولن يبلغه احد بعده وحقق فيها من النتائج والغايات مالا نعلم له مثيلا فى التاريخ . ونجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حوى تلك العظمات المتعددة واشتمل عليها فى توازن وتوافق ملموسين الى جانب شمولها وعمقها واتساع آفاقها فلم يهمل منها جانبا ولا طغى فيها جانب على آخر بحيث نجده على مستوى عال من الكمال فى بعض الجوانب بينما يكون فى بعضها الاخر هابطا منحدرا ناقصا . وان رسول الله صلى الله عليه وسلم شخصية فذة قد اصطفاه الله تعالى على العالمين وجعله متفردا فى تكوينه واعده بقوة فائقة من عنده فكان المثل الاعلى للبشرية فى كل شئ كان العابد المتبتل والسياسى المحنك والقائد المظفر والهادى البشير والمربى العظيم والاب الحانى والمعلم البار والقاضى العادل والصديق الوفى والزوج الرفيق والرسول الرؤوف الرحيم فهو الكمال المجسم فى الدين والخلق والنموذج الحى الشامخ فى الخير والصلاح .

ولقد كان من حكمة الله البالغة أنه لم يجعل هذا الرسول ملكا يكون فـوق مستوى البشر ولم يرسله من غير كتاب ولم ينزل الكتاب مجردا لدعوة الناس الى الحق ـ وهو الفاعل المختار القادر على ان يهدى من يشاء حتى من غير رسول او كتـاب ـ ولكن اقتضت ارادته ان يبعث محمدا بشرا رسولا وانزل عليه الكتاب هدى ونـورا فامتلأ قلبه عليه الصلاة والسلام بما جاءه عن الله تعالى وطبقه بحذافيره فى شخصـه الكريم وحوله الى واقع ملموس يشاهده الناس فى وضوح وجلاء فكان هو القـدوة العملية والاسوة الحسنة للبشرية فى تنفيذ منهج الله القويم المنزل وكان هو المربى والمعلم والهادى البشير الذى يمثل تطبيقا عمليا صحيحا لمبادئ الاسلام ومفاهيمه وتعاليمه واخلاقياته ،روى مسلم فى صحيحه من حديث قتادة عن زرارة بن أوفـى عن سعد بن هشام قال قلـت يـا ام المؤمنين أنبئينى عن خلق رسـول الله صلى الله عليه وسلم قالت:ألست تقرأ القرآن " قلت بلى . قالت : فان خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن (١)

يقول الشيخ محمد الغزالى : " اذا كان القرآن هدية الله لخلقه فان محمدا صلى الله عليه وسلم هو التطبيق الحى لما حواه من معان والمظهر العملى لما تضمنه من توجيهات ووصايا ... " الى أن قال : " والمؤمنون الذين استجابوا لدعوة النبى صلى الله عليه وسلم قد خلبتهم روعة الحق فى حياة نبيه قدر ما اعجبهم ذلـك فى آيات الكتاب الذى نزل عليه (٢) " .

ولقد اختار الله تعالى هذه الامة لمهمة جليلة متفردة من أجلها اخرجهـا للناس ، هذه المهمة هى أن تكون أمة وسطا قائمة على الحق شاهدة على الامم قائدة ورائدة للبشرية كلهـا . وكانت عناية الخالق سبحانه وتعالى بهذه الامة المختصة

---

(١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل والوتر ٦/٢٦

(٢) كتاب كيف نفهم الاسلام ص٢٦

بمثل هذه المهمة العظيمة التى لم يسبق ان كلفت بها امة قبلها ان يختار لها شخصية فذة متفردة فى تكوينها متفردة فى رسالتها وفى مدى ما حققته فيها من نجاح وما احرزته من نصر وتمكين ، "وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا" (١) ... الاية . " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ... (٢) الاية .

وقد تفضل الله على رسوله الكريم فرباه أفضل تربية ونشأه أكمل تنشئة وأدبه أحسن تأديب فكان مهيأ بعناية ربانية لما أكرمه الله به من الرسالة والنبوة وفاض قلبه بما نزل عليه من الهدى والنور وثبت فؤاده على الحق المبين فتمثلت القدوة الحسنة فى شخصه الكريم بما حواه من خلق عظيم فى سلوكه الفردى وفى صلاته باسرته وفى علاقاته مع الناس وفى قيامه بحق الله تعالى عليه وأدائه لواجبه نحوه وفى قيامه بواجباته ومسئولياته تجاه مجتمعه وفى ثبوته على الحق وتضحيته وتفانيه من اجله وفى حبه للخير وحرصه الشديد على نشره بين الناس وفى قضائه وأحكامه العادلة وقيادته الحكيمة وسياسته الرشيدة وفى زهده فى الدنيا وعزوفه عنها واستعلائه على الماديات وفى معاملاته مع اعداء دينه فى السلم والحرب الى غير ذلك من آفاق عالية فى خلقه العظيم صلوات الله وسلامه عليه .

وقد أفاض رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين من خلقه العظيم فأرشدهم ووجههم وعلمهم واراهم مكارم الاخلاق مجسمة فى واقع حياته ممثلة فى شخصه الكريم واستحق بذلك ثناء الله عليه فى محكم التنزيل " وانك لعلى خلق عظيم (٣) " " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر ... (٤) الاية .

---

(١) سورة البقرة اية (١٤٣) .
(٢) سورة ال عمران اية (١١٠) .
(٣) سورة القلم اية (٤) (٤) سورة ال عمران اية (١٥٩) .

" لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤ منين رءوف رحيم"(١)
وجاء فى الحديث الذى رواه الامام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " انما بعثت لاتمم صالح الاخلاق "(٢) .

وان الحديث عن اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم متعدد النواحى مترامى الاطراف وليس فى مقدورنا ان نستوعب جميع جوانبها فى مثل هذا المقام ولكننا سنكتفى بالاشارة الى أبرز هذه الخصال والصفات ماكان له ابلغ الاثر فى نجاح دعوته .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعدل الناس شديد الحرص على اقامة الحق والعدل بين الناس ولا يعرف فى ذلك قريبا او صديقا او عدوا بل كان يطبق العدل على نفسه وأهله واصدقائه واتباعه واعدائه على السواء فكل انسان عنده مسئول عن اعماله امام الله وامام الشريعة وكان مثالا كاملا فى الصدق والامانة والوفاء وقد اشتهر بهذه الخصال الحميدة منذ صغره حتى لقب بالامين وشهد له بالصدق اعداؤه واحباؤه ولم يجربوا عليه كذبا قط . "فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " (٣) . وكان احسن الناس واجودهم واشجعهم وكان جم التواضع يكره ان يظهر فى اى مظهر من مظاهر السلطان والملك والرياسة وكان لين الجانب يحب اصحابه ويمازحهم ويخالطهم ويداعب صبيانهم ويجيب دعوة الحر والعبد وكان ملجأ الفقراء والارامل والايتام والضعفاء وكان عفوا كريما لا يكافىء السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح وقد قال لاهل مكة يوم الفتح "اذهبوا فانتم الطلقاء " وكانت له صباحة ودماثة تحببانه الى كل من رآه ويجمعان

---

(١) سورة التوبة اية (١٢٨)
(٢) مسند الامام احمد ٢ / ٣٨١ عن ابى هريرة .
(٣) سورة الانعام اية (٣٣) .

اليه قلوب من عاشرهم وقد بلغ في ذلك بين الضعفاء والاقوياء مبلغا لم يبلغه احد قبله . ومن اكبر الادلة على حب الضعفاء له ان فتى مستعبدا يفقد اباه واسرته - كزيد بن حارثة - ثم يظهر له ابوه بعد طول الغيبة وانقطاع الامل فيؤثر البقاء مع الرسول صلى الله عليه وسلم على الذهاب مع أبيه .[1] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحم الناس بعياله وخيرهم لاهله وكان فى بيته يرقع ثوبه ويحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعقل بعيره ويأكل مع الخادم . وكان شديد الزهد فى الحياة المادية لا يدخر شيئا لغده مستعدا ان يعطى كل مايملك فى سبيل الله وكان فى معاملته مع اعداء دينه من اهل الكتاب يضفى عليهم من خلقه السمح بالاضافة الى ما احتوته وثيقة المعاهدة فكان يحضر ولائمهم ويعود مرضاهم ويزورهم فى بيوتهم ويكرمهم اذا زاروه ويقترض منهم ويرهن عندهم امتعته حتى لقد توفى ودرعه مرهونة عند يهودى فى قوت عياله .

والحديث عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث طويل مستفيض لا يمكن ان نوفيه حقه كاملا فى هذا المقام ولكننا نقول بايجاز: من اراد ان ينظر الى القرآن وهو مجسم يمشى على ظهر الارض فلينظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سيرته العطرة وخلقه العظيم ومن اراد ان ينظر الى الاسلام فى صورته التطبيقية الصحيحة الكاملة فلينظر كذلك الى هذا الرسول العظيم فى خلقه الكريم وسيرته الطاهرة النقية .

ونعود بعد ذلك كله لنقرر ان وجود مثل هذه الشخصية الفذة المتفردة بين الجيل الاول من المسلمين كان له بلاشك اثره البعيد فى تنشئة ذلك الجيل وتربيته حتى استقام على الحق وارتفع الى افاق عالية عظيمة اقرب الى ان تكون مثالية فى سمتها وعلوها وقوتها على غير مثال سابق فى التاريخ كله .

---

(١) انظر ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣ / ٤١-٤٢ وكذلك ابن الاثير : اسد الغابة ٢ / ١٣٠ .

وعلينا أن نؤكد ان قولنا هذا لا يعنى ان وجوده صلى الله عليه وسلم بشخصه الكريم ضرورة دائمة لاقامة هذا الدين فى الارض فى كل زمان ومكان ولو كان الامر كذلك لانتهى الاسلام بوفاته صلى الله عليه وسلم وقد قال الله تعالى : " وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل إنقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين (١) " . وجاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى الا هالك (٢) " الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام : " انى قد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا ابدا كتاب الله وسنتى (٣) . الحديث . ولو ان شخصيته الفذة هذه مؤثرة بذاتها فى كل حالة لما كفر به اناس من معاصريه ونافق فى دينه اخرون . ولكن مالا شك فيه ولا ريب ان وجوده بشخصه الكريم على ذلك المستوى الرفيع من الكمال الخلقى والتطهر النفسى كان حافزا اساسيا بعث الحيوية فى روح الجيل الاول ومثل امام ذلك الجيل افاقا عليا فى الخير والصلاح يحاول بلوغها باقتفاء اثر هذا الرسول العظيم والاقتداء به وترسم خطاه المستقيمة .

حقا ان الجيل الاول من الامة الاسلامية قد وصل ذروة عالية فى تمثيل الاسلام فى صورته الصحيحة وذلك بجعله الرسول قدوته واسوته فى كل شىء

---

(١) سورة العمران اية (١٤٤) .

(٢) رواه ابن ماجه فى المقدمة باب اتباع سنن الخلفاء الراشدين المهديين ١/ ١٥ عن العرباض بن سارية .

(٣) رواه الحاكم فى مستدركه كتاب العلم باب خطبته صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ١/ ٩٣ .
وروى الامام مالك نحوه فى كتاب القدر باب النهى عن القول بالقدر ص ٥٦٠ .

ومحاولته الاقتراب من المستوى السامق الذى بلغه صلى الله عليه وسلم. وحقا ان هذه الذروة التى بلغها الجيل الاول لم تتكرر فى الاجيال الإسلامية اللاحقة على تلك الصورة الرفيعة الواسعة الوضاءة وإن كانت اتت صور قريبة من هذا المستوى الرفيع متمثلة فى نماذج حية متفرقة على طول التاريخ الإسلامى ولكن من الممكن فى كل عصر وكل مكان -إذا صدق العزم- أن يبلغ جيل من أجيال هذه الأمة أو فئة من فئاتها أو فرد من أفرادها مستوى لائقا قريبا جدا من المستوى العالى الذى كان عليه الجيل الأول أو الأجيال المفضلة التى أتت بعده وذلك حين يمثل الإسلام خير تمثيل ويطبق جميع تعاليمه ومبادئه فى جميع شئونه ويتخذ الرسول قدوة وأسوة حسنة يقتدى به فى حياته ويجعل سيرته الطاهرة النقية نبراسا يستنير به ويسير على هداه حتى يكون فى ذلك وكأنما يعيش أيام الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يوجهه ويرشده ويأخذ بيده نحو الخير والصلاح . " وليس محمد صلى الله عليه وسلم وحده الصورة الصادقة لما نزل عليه من وحى بل صحابته المخلصون وتلامذته الصالحون وخلفاؤه الراشدون أولئك جميعا شروح جيدة للحق الذى صدعوا به ودعوا الناس إليه وحاجة الحياة إلى هذه الشروح تؤكدها تجارب الماضى والحاضر "(١) .

* * *

---

(١) الشيخ محمد الغزالى : كيف نفهم الاسلام ص ٢٦ .

الفصل الثانـــى

اسس بناء المجتمع الاسلامـــــــــــى الاول

المبحث الاول : العقيدة الاسلاميـــة .

المبحث الثانى : العدل الربانى المتمثل فى مبادىء الاخوة والمساواة والتحرر

المبحث الثالث : التكافل الاجتماعى .

المبحث الرابع : سياسة الحكم والمال .

...

الفصل الثانـــــى

أسس بناء المجتمع الاسلامـــــى الاول

قلنا فيما سبق من الحديث ان الجماعة المسلمة فى العهد المكى من الدعوة الاسلامية كانوا قلة قليلة مستضعفين فى الارض غير قادرين على الدفاع عن انفسهـــم مما تدبر لهم قريش من الكيد والمكر والمؤامرة وما تعرضهم له من العذاب والاضطهاد والعنت فكانوا يعيشون فى مكة فى ضيق ومشقة وعسف ويهاجرون منها احيانـــا الى حيث يوجد نوع من الامن فرارا بدينهم وحفاظا على حريتهم ولم يكونوا مـــن العدد والقوة والمنعة بحيث يكونون مجتمعا مستقلا او يشكلون كتلة قوية تقــف فى وجه قوى الشر الطاغية التى تحاول تحطيمهم وتسعى لازالتهم من الوجـــود . وقد ظلت الدعوة الاسلامية طوال ثلاث عشرة سنة تستخدم شتى الوسائل فى تقريــر الحق والعدل والفضيلة .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يبذل اقصى المستطاع من الجهد فى دعوة الناس الى دين الله وتربية الافراد القلائل الذين آمنوا بما جاء به واعدادهـــم اعدادا صالحا نموذجيا حتى استطاع بفضل الله وتوفيقه ان يكون من وسط هذه الظلمات القاتمة عناصر صالحة ونواة طيبة من المسلمين، ثم هاجر هو والذين آمنـــوا معه الى المدينة وامده الله بالانصار الذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ويؤثرونهم على انفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن هؤلاء المهاجرين والانصار تكون المجتمع الاسلامى الاول الفريد فى التاريخ .

وجدير بنا ان نتدبر الامور بعمق ودقة ونتلمس الاسباب الكامنة وراء الاحداث لنقف على الحقائق التى تصنع هذه الاحداث بكل مافيها من عظمة وجلال واعجوبـــة نادرة .

ومعلوم أن تشييد اى بناء يحتاج الى توافر مواد اولية من اخشاب وحديد واحجار وتراب وغير ذلك . ومع أن هذه المواد تعتبر عناصر اساسية مهمة لا يقوم البناء الا بها، فإن مجرد الحصول عليها ليس كل شىء فى تشييد البناء ، والى جانب ذلك يجب أن تكون هذه المواد قوية صالحة وان يكون لدى البنائيين معرفة وكفاءة ومقدرة وخبرة واسعة فى الهندسة والفنون المعمارية وطرق استغلال المواد حتى يبرز البناء فى غاية من الروعة والجمال والقوة .

ويتبين لنا من خلال هذا التمثيل أن اسس بناء المجتمع الاسلامى ما هى الا مجموعة مبادىء وقيم وتعاليم وتوجيهات قررها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فهى لم توضع امام المسلمين لتكون نظريات خيالية لا تقبل التطبيق وانما قدمت لهم منحة من الله تعالى ورحمة وهداية ليقوموا بتنفيذها فى شئون حياتهم ويترجموها الى واقع ملموس . فهذه المبادىء والقيم والتعاليم والتوجيهات لا تاثير لها فى حد ذاتها وانما ياتى تاثيرها وفعاليتها عندما تتربى عليها جماعة من المسلمين وتمتلىء نفوسهم بهديها ونورها ويسرى روحها فى عروقهم ويحولونها الى واقع ملموس من حياتهم ويقيمون دعائم بناء مجتمعهم على هديها وتوجيهاتها . وبعناية الله تعالى وتوفيقه ربى الرسول صلى الله عليه وسلم الجيل الاول من هذه الامة على عينه وبنى بنفسه المجتمع الاسلامى الاول فعلمنا بذلك طرق التربية الصحيحة والاسس الركيزة التى يتم بها بناء المجتمع .

ويجب ان نؤكد قبل البدء فى الحديث عن تلك الاسس ان الظروف الصعبة التى احاطت بالدعوة الاسلامية قبل قيام المجتمع الاسلامى الاول لم تكن باقل صعوبة وتعقيدا من الظروف والاوضاع التى يعيشها المسلمون اليوم فى جميع الاقطار والامصار .

ومن هنا نعلم مقدار الجهد الذى يتطلبه الامر من المسلمين . ولقد استطاعت الامة الاسلامية فى ايامها الاولى ان تطبق فى واقع حياتها جميع تعاليم الاسلام ومبادئه وقيمه ومفاهيمه فترة طويلة من الزمن . ورغم كل ما اصابها من انحراف تدريجى بدأ مبكرا ثم أخذ فى التزايد والتوسع على طول تاريخها فقد استطاعت ان تنشىء واقعا تاريخيا ضخما لم تستطع اى امة قبلها اوبعدها ان تنشىء مثله . وقد ترك هذا الواقع على طول التاريخ خطوطا عريضة وملامح واضحة لا تمحى آثارها ولا تزول معالمها . وسنمرج على عرض جوانب من الواقع التاريخى للامة الاسلامية عقب الحديث عن كل عنصر من العناصر الاربعة التى يتضمنها هذا الفصل لنعطى صورة واقعية واضحة عن ذلك المجتمع الفريد . وهذه الاسس والعناصر الاربعة تعتبر عوامل اساسية فى بناء ذلك المجتمع ونجاحه فى اول دور من ادوار حياتها التاريخية فماكادت تجتمع هذه الاسس والمبادىء لدى الجيل الاول حتى اخذ يطبقها فى عالم الواقع فارتفع من الحضيض الى المستوى الشامخ وآل اليه ميراث الارض واصبح فى يده زمام القيادة والريادة لامم الارض كلها فاصبح المسلمون امة واحدة رفيعة البنيان عظيمة السلطان ثابتة الاركان ممكنة فى الارض وتم لها وعد الله الذى لا يتخلف ولا يتبدل " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا "(1) . . . الآية".

---

(١) سورة النور اية (٥٥) .

ونستطيع ان نحدد عناصر هذا الفصل في اربع نقاط :

(١) العقيدة الاسلامية الصحيحة .

(٢) العدل الرباني المتمثل في مبادئ الاخوة و المساواة

(٣) التكافل الاجتماعي .

(٤) سياسة الحكم والمال .

. . .

المبحث الاول : العقيدة الاسلامية الصحيحة

ان العنصر الاساسى فى كيان الانسان هوالنفس . هذه النفس هى منشأ الفعل ومصدره فاذا كانت صالحة كان عمل الانسان صالحا واذا كانت فاسدة كان عمل الانسان فاسدا تبعا لذلك . وصلاح هذه النفس وحياتها تكون بتقبل العقيدة الصحيحة ونشأتها عليها ورسوخ الايمان بالله تعالى واستقراره فى أعماق النفس حتى تمتلىء باشعاعه ونوره وتهتدى بهديه وتنعكس آثاره بصورة واضحة ملموسة فى واقع حياة الانسان . "او من كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها (١) . . الاية .

ولقد كان الايمان بالله تعالى اكبر تربية نفسية واعظم مدرسة خلقية تنشىء المسلم نشأة جديدة وتربيه على فضائل الاخلاق وكريم الصفات من صدق وعزيمة وقوة نفس وشجاعة نادرة وتضحية وايثار وتفان فى سبيل اقامة الحق ونصرته وحب شديد لله ورسوله وطاعة جادة وانقياد تام واستسلام كامل لكل ماجاء عن الله تعالى . وقد نشأ المسلمون الاوائل من هذه الامة على ايمان قوى راسخ عميق بالله تعالى وتصديق تام بكل ماجاء عنه سبحانه وتعالى فكانوا صادقين مع الله تعالى فى اقوالهم وسلوكهم فى الحياة فى سرهم وعلانيتهم يراقبون الله فى حركاتهم وسكناتهم ويستحضرون فى كل لحظة من لحظات حياتهم عظمة الله وسعة علمه وقوة بطشه بالظالمين ورحمته الواسعة بالصالحين الاوابين حتى اصبح هذا الايمان فى نفس احدهم باعثا قويا يدفعه الى المسارعة والمسابقة فى الخيرات ورقيبا ملازما يراقبه فى أمانته وكرامته وعفافه وفى جميع سلوكه فى الحياة ويكبح جماحه

---

(١) سورة الانعام اية (١٢٢) .

امام المطامع والشهوات الجارفة فى السر والعلن .

وهذه بعض السمات والملامح الواضحة التى اتسم بها الجيل الاول من هذه الامة . وفى واقع حياة هذا الجيل نماذج رائعة وصور اخلاقية عالية تدل على رسوخ الايمان بالله وعمقه وقوته فى قلوب هؤلاء المسلمين فقد ضربوا اروع امثلة فى كل منحى من مناحى حياتهم الواقعية تكاد تكون خوارق عادات فى عظمتها وسموها وليس فى استطاعتنا استقصاء كل النماذج والصور الاخلاقية العالية حول هذه السمات البارزة فى المجتمع الاسلامى الاول لا على مستوى الافراد ولا على مستوى المجتمع كله . وقبل ان نستعرض النماذج عن الافراد نحب ان نقرر حقيقة كبرى فى واقع ذلك المجتمع فى مجموعه . هذه الحقيقة هى ما كان عليه المؤمنون الاوائل من الاحساس المرهف بالتبعات والواجبات التى تمليها عليهم طبيعة ايمانهم العميق بالله وخضوعهم له واستسلامهم لامره وتصديقهم بكل ما جاء من عنده . كان كل فرد مسلم من الجيل الاول يشعر فى اعماق نفسه ان عليه واجبات وتبعات ومسئوليات فى ذات نفسه وتجاه المجتمع الذى يعيش فيه ، كان عليه طاعة الله وتنفيذ اوامره فى كل شان من شئون حياته ليصنع من نفسه باحساسه المرهف وتفكيره الخالص وسلوكه العملى صورة مطابقة ـ على قدر استطاعته ـ للصورة الاسلامية الصحيحة التى يريد الله ورسوله ان يكون عليها الفرد المسلم، كما يحس احساسا عميقا بما عليه من الواجبات المماثلة تجاه المجتمع الذى يعيش فيه حيث يعلم انه لا يكفيه فى الاسلام ان يكون هو ذاته فى سلوكه العملى صورة من الفرد المسلم وانما كان عليه بعد ذلك ان يقدم اقصى ما فى وسعه من الجهود ويحمل نصيبه من التبعات فى سبيل اقامة مجتمعه على الاسس الاسلامية القويمة حتى تتاح الفرص وتتهيأ الاجواء لكل فرد فى المجتمع لاقامة دينه واتباع اوامر الله فى جميع شئون الحياة .

ان هذا الاحساس المرهف فى نفوس المؤمنين الاوائل كان نتيجة ادراكهم لما كانوا عليه من الحق المبين وتصديقهم التام بكل ما جاء عن الله تعالى وشعورهم بانهم وحدهم الذين توفرت فيهم عناصر القوة الحقيقية التي جعلتهم قوة مستعلية ممكنة فى الارض قائدة ورائدة للامم كلها تدعوها وترشدها الى الخير والصلاح وتنقذها من الضلال والفساد والهلاك . . هذا الشعور العميق هو الذى جعل قوى الارض الطاغية ضئيلة امام هؤلاء المسلمين لا يرهبون لها جانبا ولا يقيمون لها وزنا ولا تقديرا . " ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين (١) " وحين وقف المسلمون الاوائل فى وجه قوى الباطل مجتمعة حققوا هذا الاستعلاء بقوة الايمان واتباع امر الله تعالى ولم ينفع تلك القوى تفوقها على الامة الاسلامية فى الناحية المادية من كثرة العدد ووفرة المال والثروة والقوة الحربية والخبرة الفائقة فى فنون القتال والرقى الحضارى ، فقد اندحرت قوتها وانهزمت هزيمة نكراء أمام قوة صغيرة من المسلمين كانت دونها فى الخبرة والكفاءة الحربية وفى العدد والعدة والعتاد . وان هذا الاستعلاء الذى تحقق للامة الاسلامية فى هذا المجال وفى كل مجالات الحياة كان مصدره قوة الايمان وعمقه والاحساس المرهف بما يمليه هذا الايمان من الواجبات والتبعات العظام والشعور العميق بالقوة والعظمة باتباع امر الله والسير على نهجه . كل ذلك هو الذى صنع لهذه الامة ما حققته من امجاد وعظمة وسؤدد .

والان نعرض بعض النماذج الرائعة والصور العالية فى الدين والاخلاق من واقع حياة افراد الجيل الاول من المسلمين مما يدل على صدق ايمانهم بالله تعالى وقوته وعمقه وطاعتهم المطلقة لله ولرسوله وتنفيذهم الفورى لكل ما يصدر عن الله تعالى . فمما ورد فى قصة تحريم الخمر حديث أنس بن مالك قال : " ما كان

---

(١) سورة آل عمران آية (١٣٩) .

لنا خمر غير فضيحكم هذا الذى تسمونه الفضيح فانى لقائم اسقى ابا طلحة وفلانا وفلانا اذ جاء رجل فقال وهل بلغكم الخبر فقالوا وما ذاك قال حرمت الخمر. قالوا اهرق هذه القلال يا أنس قال فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل (١)". وفى رواية اخرى عن أنس بن مالك قال : "كنت ساقى القوم فى منزل ابى طلحة فنزل تحريم الخمر فامر مناديا فنادى فقال ابوطلحة اخرج فانظر ماهذا الصوت قال فخرجت فقلت هذا مناد ينادى الا ان الخمر قد حرمت فقال لى اذهب فاهرقها قال فجرت فى سكك المدينة (٢)". الحديث

وروى ابن ابى حاتم عن صفية بنت شيبة قال : "بينما نحن عند عائشة قالت : فذكرنا نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة رضى الله عنها : ان لنساء قريش لفضلا وانى والله مارأيت أفضل من نساء الانصار اشد تصديقا لكتاب الله ولا ايمانا بالتنزيل. لقد انزلت سورة النور "وليضربن بخمرهن على جيوبهن" انقلب رجالهن اليهن يتلون عليهن ما أنزل الله اليهم فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته واخته وعلى كل ذى قرابته فما منهن امرأة الا قامت الى مرطها المرجل فاعتجرت به تصديقا وايمانا بما انزل الله من كتابه فاصبحن وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم متعجرات كأن على رؤوسهن الغربان" (٣) . وعن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : جاء رجلان من الانصار يختصمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواريث بينهما قد درست ليس بينهما بينة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "انكم تختصمون الى وانما أنا بشر ولعل بعضكم ان يكون ألحن بحجته او قد

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التفسير باب قوله تعالى "انما الخمر والميسر ... الاية ٥/١٨٩.

(٢) رواه البخارى فى كتاب التفسير فى نفس الباب ٥/١٩٠.

(٣) ذكر روايته الحافظ ابن كثير فى تفسيره ٣/٢٨٤ ثم قال ورواه ابو داود من غير وجه عنها.

قال لحجته من بعض فانى اقضى بينكم على نحو ما اسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فانما اقطع له قطعة من النار يأتى بها انتظاما فى عنقه يوم القيامة " فبكى الرجلان وقال كل منهما حقى لاخى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أما اذ قلتما فاذهبا فاقتسما ثم توخيا الحق بينكما ثم استهما ثم ليحلل كل منكما صاحبه "(١) .

ولما سار النبى صلى الله عليه وسلم الى بدر وأتاه خبر نفير قريش استشار الناس فقال المقداد فاحسن وكذلك أبوبكر وعمر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الانصار لانهم عدد الناس فقال سعد بن معاذ والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل . قال سعد : فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به الحق واعطيناك مواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد . وماتكره ان تلقى بنا عدونا انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك فينا ماتقر به عينك . فسر بنا على بركة الله فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) " . ومما جاء فى شدة حب هؤلاء المؤمنين الاوائل لله تعالى ولرسوله وقوة ولائهم لهما وتضحيتهم بالمال والنفس وكل مايملكونه فى سبيل الحق واستعلائهم بالايمان على عرض الحياة الدنيا وحطامها وارتفاعهم الى آفاق روحية وخلقية سامية ما اخرجه ابن الاثير قال : " حين بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم قول عبد الله بن ابى فى غزوة بنى المصطلق " لئن رجعنا

---

(١) رواه الامام احمد فى مسنده ٦ / ٣٢٠ .

(٢) ابن الاثير ، اسد الغابة فى معرفة الصحابة ٢ / ٢٢٤ وانظر كذلك ابن هشام ١ / ٦١٥ .

الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل " دعا عبد الله بن عبد الله بن أبى فقال له : " الا ترى مايقول أبوك " قال مايقول بأبى انت وامى ؟ قال " يقول لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل " قال عبد الله بن عبد الله بن أبى للنبى هو والله الذليل وانت العزيز يارسول الله ان اذنت لى فى قتله قتلته فوالله لقد علمت الخزرج ماكان بها احد أبر بوالده منى ولكنى أخشى أن تأمر به رجلا مسلما فيقتله فلاتدعنى نفسى انظر الى قاتل ابى يمشى على الارض حيا حتى أقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار فقال النبى صلى الله عليه وسلم " بل نحسن صحبته ونترفق به ماصحبنا ولا يتحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه ولكن بر أباك واحسن صحبته "(١) .

وعن سعد بن ابى وقاص قال : " مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة من بنى دينار وقد أصيب زوجها واخوها وابوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد فلما نعوا لها قالت مافعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا خيرا . يا ام فلان هو بحمد الله كما تحبين قالت أرونيه حتى أنظر اليه قال فأشير لها اليه حتى اذا راته قالت كل مصيبة بعدك جلل (٢) " .

وفى وقعة احد حين انكشف المسلمون واصاب منهم العدو ، وكسرت رباعية النبى صلى الله عليه وسلم وجرحت شفته العليا وشج فى جبهته كان ابو دجانة من النفر القليل الذين ثبتوا مع رسول الله يدفعون عنه العدو وقد " ترس ابو دجانة دون رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يقع النبل على ظهره وهو منحن عليه حتى كثر فيه النبل "(٣) .

---

(١) اسد الغابة فى معرفة الصحابة ٣ / ١٩٣ ، انظر كذلك الحافظ ابن كثير : البداية والنهاية ٤ / ١٥٧ - ١٥٨ .
(٢) الحافظ ابن كثير البداية والنهاية ٤ / ٤٧ من رواية ابن اسحاق .
(٣) المصدر نفسه ٤ / ٣٤ .

وجاء في قصة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة ومعه ابوبكر فيما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغار ومعه أبوبكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله : فقال له يارسول الله أذكر الطلب فامشي خلفك ثم اذكر الرصد فامشي بين يديك فقال يا ابا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون لك دوني ؟ قال نعم والذي بعثك بالحق[1]... الحديث . وابوبكر الصديق هو نفسه الذي احتمل ماله كله ليضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجهز به " جيش العسرة " الى تبوك تعبيرا عن صدق ايمانه ويقينه بالله وعبوديته الكاملة له تعالى . وعن عمر بن الخطاب يقول : " أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك مالا عندي فقلت اليوم اسبق ابابكر ان سبقته يوما قال فجئت بنصف مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ابقيت لاهلك ؟ قلت مثله . و اتى ابوبكر بكل ماعنده فقال يا ابا بكر ما أبقيت لاهلك ؟ قال ابقيت لهم الله ورسوله فقلت والله لا أسبقه الى شيء أبدا (٢) .

وعن ابي عثمان النهدي عن صهيب قال : لما اردت الهجرة من مكة الى النبي صلى الله عليه وسلم قالت لي قريش ياصهيب قدمت الينا ولا مال لك وتخرج انت ومالك ؟ والله لا يكون ذلك ابدا . فقلت لهم : ارايتم ان دفعت اليكم مالي تخلون عني ؟ قالوا نعم فدفعت اليهم مالي فخلوا عني فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " ربح صهيب ربح صهيب "(٣)

---

(١) اخرجه الحاكم في مستدركه ٣ / ٦ وقال حديث صحيح الاسناد على شرط الشيخين لا ارسال فيه ولم يخرجاه .

(٢) اخرجه الترمذي في سننه في كتاب المناقب باب ماجاء في مناقب ابي بكر وعمر ٥ / ٦١٤- ٦١٥ وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٣) اورد ابن كثير هذا الحديث في تفسيره ١ / ٢٤٧ وقال رواه ابن مردويه بسنده عن صهيب الرومي . ثم قال ابن كثير : قال ابن عباس وانس وسعيد بن المسيب وابوعثمان النهدي وعكرمة وجماعة نزلت اية البقرة " ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله . . الاية في صهيب بن سنان الرومي . انظر كذلك ابن سعد الطبقات الكبرى ٣ / ٢٢٨-٢٢٩ . وابن الاثير : اسد الغابة ٢ / ٤١٩ .

وحدث الطبرى قال : " لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الاقباض اقبل رجـــل بحق معه فدفعه الى صاحب الأقباض فقال والذين معه مارأينا مثل هـــذا قط مايعدله عندنا ولا يقاربه فقالوا هل اخذت منه شيئا ؟ فقال أما والله لولا الله ما أتيتكم به فعرفوا ان للرجل شأنا فقالوا من أنت فقال لا والله لا اخبركم لتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى ولكنى احمد الله وارضى بثوابه فاتبعوه رجلا حتى انتهى الى اصحابه فسأل عنه فاذا هو عامر بن عبد قيس(١) " . وكذلك كان ايمانهم بالاخرة قويا وعميقا فى نفوسهم فقد دفعهم الى المسابقة الى الخيرات والمسارعة الى كريم الفعـــال وفضائل الاخلاق وبعث فى قلوبهم شجاعة نادرة وحنينا غريبا الى الجنة واستعــلاء نادرا على الحياة الدنيا وزخارفها طمعا فى مرضاة الله وخوفا من عقابه . ومن قــوة ايمانهم بالاخرة وتصديقهم بوعد الله لهم بالجنة والمغفرة يوم المعاد كان احدهم يتمثل الدار الاخرة فتتكشف له الجنة ويتراءى له نعيمها المقيم وكأن تلك الجنـــة منه قاب قوسين او ادنى وخزنتها واقفون على ابوابها يقولون لاصحابها المؤمنين فى ترحاب حار وحفاوة بالغة سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وبذلك خفــــت ثقلة متاع الحياة الدنيا فى حسهم واصبحوا يراقبون الله تعالى فى حركاتهم وسكناتهم وفى جميع شئونهم فى حياتهم ويتذكرون دار الاخرة ومافيها من حساب وجزاء وعقاب فى كل لحظة من لحظات حياتهم يرجون رحمة الله ويخافون سوء الحساب . وعن أنس بن مالك قال غاب عمى أنس بن النضر رضى الله عنه عن قتال بدر فقال يارسول اللـــه غبت عن اول قتال قاتلت المشركين . لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين اللـه ما اصنع فلما كان يوم احد انكشف المسلمون قال اللهم انى اعتذر إليك مما صنـــع هؤلاء يعنى اصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين ثم تقدم فاستقبلـــه

---

(١) تاريخ الطبرى ٤/١٩ .

سعد بن معاذ فقال ياسعد بن معاذ الجنة ورب النضر انى اجد ريحهـــا من دون أحد فقال سعد فما استطعت يارسول الله ماصنع قال انس فوجدنا بضعا وثمانين ضربة بالسيف او طعنة برمح او رمية بسهم ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون فما عرفه احد الا اخته ببنانه . قال أنس كنا نرى - او نظن - ان هذه الاية نزلت فيه وفى أشباهه " من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ... " ... الحديث (١) " . وتقدم حديث انس بن مالك الذى رواه فى قصة عمير بن الحمام الانصارى حين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم بدر قوموا الى جنـــة عرضها السموات والارض ... الحديث (٢) . وكذلك حديث عبد الله بن قيس قال سمعت ابى وهو بحضرة العدو يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلـــم "ان ابواب الجنة تحت ظلال السيوف (٣) .. الحديث . وعن شداد بن الهاد قال " جاء رجل من الاعراب الى النبى صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه فقـــال أهاجر معك فاوص به بعض اصحابه فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله صلـــى الله عليه وسلم شيئا فقسمه وقسم للاعرابى فاعطى اصحابه ماقسم له وكان يرعـــى ظهرهم فلما جاء دفعوه اليه فقال ماهذا ؟ قالوا/قسم قسمه لك رسول الله صلى اللــه عليه وسلم فاخذه فجاء به الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ماهذا يارسول اللــه قال " قسم قسمته لك " قال ماعلى هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على ان ارمى ها هنا - واشار الى حلقه - بسهم فاموت فأدخل الجنة فقال " ان تصدق الله ليصدقك " ثم نهضوا الى قتال العدو فاتى به النبى صلى الله عليه وسلم وهو مقتول فقـــال " هو هو " قالوا نعم . قال " صدق الله فصدقه " فكفنه النبى صلى الله عليه وسلم فى جبته ثم قدمه فصلى عليه وكان من دعائه له اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا فى

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الجهاد باب قول الله عزوجل " من المومنين رجـــال صدقوا .. الاية ٣/ ٢٠٥ .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الامارة باب ثبوت الجنة للشهيد ١٣/ ٤٤-٤٦ شرح مسلم للنووى .

(٣) رواه مسلم فى كتاب الامارة باب ثبوت الجنة للشهيد ١٣/ ٤٦ والترمذى فى فضائل الجهاد ٤/ ١٨٦ .

سبيلك قتل شهيدا وانا عليه شهيد (١) " . وجاء فى قصة عمرو بن الجموح الانصارى انه لما ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى بدر أراد الخروج معهم فمنعه بنوه بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم لشدة عرجه فلما كان يوم احد قال لبنيه منعتمونى الخروج الى بدر فلا تمنعونى الخروج الى أحد فقالوا ان الله قد عذرك فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ان بنى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك فيه . والله انى لارجو ان أطأ بعرجتى هذه فى الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك وقال لبنيه لاعليكم ان لا تمنعوه لعل الله ان يرزقه الشهادة فأخذ سلاحه وولى وقال اللهم ارزقنى الشهادة ولا تردنى الى أهلى خائبا فلما قتل يوم أحد جاءت زوجه هند بنت عمرو عمة جابر بن عبد الله فحملته وحملت أخاها عبد الله بن عمرو بن حرام فدفنا فى قبر واحد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لقد رأيته يطأ فى الجنة بعرجته (٢) ". ولدينا وفرة من الامثلة الرائعة التى تدل على صدق ايمان هؤلاء المسلمين الاوائل بالله تعالى واليوم الاخر وتصديقهم بكل ماجاء عن الله تعالى حتى سمت نفوسهم وارتفعت الى آفاق عالية فى العبودية الحقة لله تعالى والالتزام الكامل باوامره واجتناب نواهيه - وكل ماتقدم ذكره ان هو الا غيض من فيض - فقد بلغ الايمان من هؤلاء المسلمين مبلغا من القوة والعمق والرسوخ حتى كان احدهم حينما تجمح نفسه فى وقت من الاوقات ويسقط هذا الانسان سقطة اويكبو كبوة جذبته اليها ثقلة الارض وغريزة الحيوان وس الشيطان وهو بعيد عن انظار الناس بعيد عن متناول يد السلطة

---

(١) اخرجه النسائى والبيهقى فى السنن الكبرى مع الجوهر النقى، كتاب الجنائز ٤/١٥-١٦ (بنحوه)
(٢) ابن الاثير : اسد الغابة فى معرفة الصحابة ٣/٧٠٥ من رواية ابن الكلبى ، وانظر كذلك الحافظ ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/٣٧ من رواية ابن اسحاق .

نجده يتذكر الله تعالى ويخاف وعيده الشديد فى الاخرة فتنقلب نفسه لوامة عنيفة ويصبح هذا الانسان فى قلق وضيق لا يرتاح له ضمير ولا تسكن له نفس حتى يتقدم الى الاعتراف بجريرته امام ولى الامر لينفذ فيه حكم الله تعالى . وهكذا يقدم نفسه للعقوبة الشديدة عن طواعية ورضا ويتحمل مشاقها باطمئنان مشفقا من سخط الله وعذابه الاليم فى الاخرة . وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الاسلمى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله انى قد ظلمت نفسى وزنيت وانى اريد ان تطهرنى فرده فلما كان من الغد أتاه فقال يارسول الله انى قد زنيت فرده الثانية فارسل الرسول صلى الله عليه وسلم الى قومه فقال اتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا ؟ فقالوا مانعلمه الا وفى العقل من صالحينا فيما نرى فأتاه الثالثة فأرسل اليهم أيضا فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم قال فجاءت الغامدية فقالت يارسول الله انى قد زنيت فطهرنى وانه ردها فلما كان الغد قالت يارسول الله لم تردنى ؟ لعلك ان تردنى كما رددت ماعزا ؟ فوالله انى لحبلى قال اما لا فاذهبى حتى تلدى فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة قالت هذا قد ولدته قال اذهبى فارضعيه حتى تفطميه فلما فطمته اتته بالصبى فى يده كسرة خبز فقالت هذا يانبى الله قد فطمته وقد اكل الطعام فدفع بالصبى الى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها الى صدرها فرجموها فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله صلى الله عليه وسلم سبه اياها فقال " مهلا ياخالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لوتابها صاحب مكس لغفر له " ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت(١) " وان مثل هذه

(١) رواه مسلم فى كتاب الحدود باب حد الزنا (٢/١١) ٢٠٢-٢٠٣ .

الحوادث التى وقعت فى عهد النبوة أفضل العهود الاسلامية قد وقعت لحكمة بالغة يريدها الله تعالى حتى يكتمل التشريع ويتم الدين ولكى يقوم الرسول صلى الله عليه وسلم ببيان أحكام الدين للمسلمين وتطبيقها تطبيقا عمليا فى واقع حياة الامة الاسلامية فى عهده وهذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان هذه المخالفات التى حصلت من بعض الافاضل من اصحاب الرسول - رغم كونهم اكمل الناس - كما نرى فى قصة الثلاثة (١) الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وفى حديث (٢) الافك وفى غزوة الاحزاب حين ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا حتى زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر من شدة الرعب والخوف (٣) ، ان وقوع مثل هذه المخالفات من المؤمنين الاوائل لدليل قاطع على انهم على الرغم من القمم السامقة التى ارتفعوا اليها كانوا بشرا وقد يظهر من احدهم من الضعف البشرى فى فترة من الفترات مايجعله يرتكب جريمة كبيرة او خطيئة او ذنبا ولكن سرعان مايفيق ويصحو من غفلته حينما يلامس بشاشة نفسه نفحات ايمانية فيصبح هذا الانسان فى قلق وحيرة وضيق غير قادر على تحمل عظم الذنب الذى اقترفه فيسارع الى الاعتراف لتطهير نفسه لعلمه ان عذاب الدنيا مهما كان شديدا فهو أهون من عذاب الاخرة ، هكذا رباه الاسلام ودربه على الحق والصدق والاستقامة . وبذلك يتبين لنا ان المجتمع الاسلامى الاول مجتمع بشرى له خصائصه وسماته البارزة ومهما ارتقى

---

(١) اخرجه البخارى فى كتاب المغازى باب حديث كعب بن مالك وقول الله عزوجل " وعلى الثلاثة الذين خلفوا " ٥ / ١٣٠-١٣٥ عن عبد الله بن كعب بن مالك .

(٢) اخرجه البخارى فى كتاب المغازى باب حديث الافك ٥ / ٥٥-٦٠ عن عائشة رضى الله عنها .

(٣) انظر قصة ليلة الاحزاب حين طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من اصحابه من يأتيه بخبر القوم ويكون معه يوم القيامة ولم يجبه احد حتى دعا حذيفة ولم يجد بدا حين دعاه باسمه وذلك فى الحديث الذى رواه الامام مسلم فى كتاب الجهاد والسير باب غزوة الاحزاب ١٢ / ١٤٥-١٤٦ عن ابراهيم التيمى عن أبيه .

درجات عالية من الكمال الانسانى والسمو الروحى والتطهر الاخلاقى فلـــن يخرج عن كونه مجتمعا بشريا فى اكمل صورته الانسانية ولا يمكن بحال ان يتجاوز حدود طاقته البشرية او يتعدى اقصى القدر المقدر له بلوغه بحكم طبيعتـــه الانسانية ليرتفع الى مستوى الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلـــون مايؤمرون .

• • •

المبحث الثانـــى

العدل الربانى المتمثل فى مبادىء الاخوة والمساواة والتحرر

ان الاساس الثانى الذى يقوم عليه بناء المجتمع المسلم هو المبادىء السامية التى قررها الحق سبحانه وتعالى لاقامة صرح الحق والعدالة بين بنى البشر ، هذه المبادىء هى الاخوة والمساواة والتحرر فقد جعلها الاسلام روابط قوية واواصـــر متينة تربط افراد المجتمع بعضهم مع بعض وتشد اركان بناء المجتمع متماسكـــة متشابكة . وهذه الروابط والاواصر ترتكز على العقيدة الصحيحة فى الله وتستمـــد وجودها وقوتها داخل اطارها وتجعل لها الاعتبار الاول فى انشاء العلاقـــات بين الناس وتحديد اطارها وفى اداء الحقوق والواجبات المتعلقة بها .

وسنتحدث عن هذه المبادىء لنكشف بعض الحقائق المهمة فى الموضـــوع ورغم ان المقام لا يسمح بالحديث المفصل المطول فسنحاول ابراز تلك الحقائـــق التى كانت دعائم بناء المجتمع المسلم الاول وعناصر قوته ثم بعد ذلك نذكر شيئـــا يسيرا من النماذج الرائعة فى الواقع التاريخى المشرف الذى اقامه الجيل الاول لنرى كيف طبقت هذه المبادىء على اكمل صورة فى تاريخ البشرية .

اولا : مبدأ الاخوة الاسلامية :

ان الاخوة التى يدعو اليها الاسلام رابطة عقدية وعلاقة روحية اصيلـــة تنبنى على الايمان بالله وحده لا شريك له واعتناق فكرة موحدة عن الحياة الانسانيـــة ، وهذه الاخوة عميقة الجذور واسعة الافاق تسمو فوق حدود المادة وترتفع عن نطـــاق المصالح والمنافع ورغم ان هذا الارتباط الاخوى الوثيق يحقق للناس حقوقا ادبيـــة ومادية كثيرة ويفرض عليهم واجبات وتبعات تجاه الاخرين فان اساس التعامل فيه قائـــم على ركيزة العقيدة الصحيحة فى اللــه والايمان باليوم الاخر . يقول الله تعالـــى :

وسيجنبها الأتقى

الذى يؤتى ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى (١) " . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ان من عباد الله ناسا ماهم بانبياء ولا شهداء يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى . قالوا يارسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير ارحام بينهم ولا اموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى نور ولا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس وقرأ هذه الاية : " ألا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " (٢) وهكذا يقرر الاسلام وجوب قيام رابطة اخوية وثيقة تربط بين المسلمين تفوق جميع الروابط الاخرى التى يتمسك بها الناس فى المجتمعات الجاهلية ويلتفون حولها ، فبذلك جعل الاسلام هذه الاخوة فى الله أساسا راسخا لبناء المجتمع المسلم ومبدأ قويما لتحديد علاقات الناس بعضهم مع بعض واقامة الحق والعدل بينهم وحفظ الحقوق واداء الواجبات وازالة الشر والظلم والعدوان بين الناس حتى يسود الخير والصلاح اجواء المجتمع وتغمرها المحبة والسعادة والفلاح . فالمسلمون اخوة بايمانهم باله واحد واعتناقهم فكرة موحدة عن الحياة واعتصامهم بحبل الله المتين وقبولهم السير على منهج الله فى الحياة فلايفرق بينهم اختلاف اجناسهم وشعوبهم ولا تعدد قبائلهم وعشائرهم ولا تباين لغاتهم والوانهم ولا تباعد اوطانهم واقطارهم وانما هم امة واحدة مترابطة متآلفة متعاونة نشأت على وحدة العقيدة ووحدة الفكرة ووحدة الغاية والمصير .

وان روح الاخوة الاسلامية تنبع فى قلوب المؤمنين ببساطة ويسر وتصدر عن طواعية واقتناع ورضا حين تلتقى هذه القلوب على الحب فى الله ويعمرها الايمان واليقين من غير ان يستكره الانسان عليها ولا ان تفرض عليه فرضا او تحقق بتقديم

---

(١) سورة الليل ايات (١٨-٢١)
(٢) اخرجه ابوداود فى كتاب البيع باب فى الرهن ٣ / ٢٨٨ عن عمر بن الخطاب .

عروض مالية سخية ولو بما فى الارض جميعا ، ولكنها نتيجة شعور كلى يملأ قلب كل مسلم ويشغل كل حيز فيه ويسيطر عليه سيطرة تامة حتى يصبح هو الدافع الحقيقى والباعث الاقوى الذى يبعث فيه الروح والحيوية ويدفعه نحو الخير والصلاح ويوجهه فى جميع حركاته وسكناته، ويؤكد الإسلام أن الأساس المتين الذى تنشأ عليه الامة الاسلامية ومحور التعامل والعلاقات بين افراد المجتمع المسلم وأسمى غاية للوجود الانسانى هو أن يلتقوا جميعا على حب الله ويعملوا من أجله ويبتغوا مرضاته وحده فبذلك تتآلف قلوبهم وتتماسك وتقوى ليصبحوا جسدا واحدا يتجه فى قوة وعزم نحو الخير والسعادة ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شىء اذا فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم "(١) .

وان للاخوة الاسلامية حقوقا وواجبات يجب على كل فرد من أفراد المجتمع المسلم أن يلتزم بها ويؤديها على أكمل وجه،فهو مكلف بها على انها دين يحاسب عليه وامانة يجب عليه أداؤها ، وبهذه الاخوة الخالصة أوجد الاسلام لدى الفرد المسلم احساسا قويا بالجماعة المسلمة ومصالحها وخيرها كما اوجد لدى الجماعة ايضا احساسا قويا بالفرد ومصالحه وخيره وكانت نتيجة هذا الشعور العميق بالمسؤولية والاحساس المتبادل بين افراد المجتمع قيام تضامن روحى وتضامن مادى متمثلا فى حب المسلمين بعضهم بعضا والتراحم والتعاون على البر والتقوى والتعاضد والوحدة والايثار والمواساة وتفريج الكرب وستر العورات حتى اصبحوا اخوة فى دين الله وامة واحدة مثل الجسد الواحد

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الايمان باب بيان انه لا يدخل الجنة الا المؤمنون ٢/٥٣ عن ابى هريرة .

يحس كل فرد منهم بما عليه من واجبات ومسئوليات تجاه الجماعة ويدرك ان ايمانه لا يتم وان دينه لا يكمل الا بالاخلاص للجماعة والسعى فى خيرها وصلاحها وسعادتها وبذلك اصبحت الجماعة وحدة مترابطة متضامنة تكفل جميع افرادها وتحفظ لهم حقوقهم وتطالبهم بأداء ماعليهم من الواجبات وتسعى نحو خيرهم وسعادتهم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " (١) ويقول عليه الصلاة والسلام : " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى (٢) " .

وان هذه الحقوق والواجبات التى تفرضها الاخوة الاسلامية على الفرد المسلم نحو اخوانه المسلمين كانت لها ميزتها الخاصة فى الاسلام اذ انها تؤدى طاعة لله تعالى وقربة يبتغى بها وجهه ورضوانه بالاضافة الى انها علاقات اجتماعية وروابط قوية لها تاثيرها الملموس فى زيادة التقارب والترابط بين المسلمين وتماسك اركان بناء المجتمع وقوتها . يقول الله تعالى : " ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا " (٣) . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه " (٤) . وعن معاذ أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن افضل الايمان قال " أن تحب لله وتبغض فى الله وتعمل لسانك فى ذكر الله " قال وماذا يارسول الله قال : " أن تحب للناس ماتحب لنفسك وتكره لهم ماتكره لنفسك " (٥)

---

(١) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ١٦/ ١٣٩ عن ابى موسى .

(٢) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة باب تراحم المؤمنين الخ ١٦ / ١٤٠ عن النعمان بن بشير .

(٣) سورة الانسان ايتا (٨-٩) .

(٤) رواه البخارى فى كتاب الايمان باب من الايمان ان يحب لاخيه مايحب لنفسه ١ / ٩ عن أنس بن مالك .

(٥) رواه الامام احمد فى مسنده عن معاذ ٥/ ٢٤٧ .

ولقد حدد الاسلام صورة العلاقات الاخوية القائمة بين المسلمين فى مجموعة وصايا تدعو الى التحاب والتواد والتراحم والتعاون والتساند والتناصح والتواصى بالحق والصبر وحب الخير للمسلمين والحرص على تحقيق التضامن المعنوى والمادى بينهم يقول الله تعالى : " محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ... الاية (١) . وقال تعالى : " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان .. الاية (٢) " وقال تعالى : " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله (٣) .. الآية . وجاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة (٤) " . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع " (٥) . وبالاضافة الى هذه الاعمال الفاضلة والاخلاق الكريمة التى تحققها الاخوة الاسلامية بين المؤمنين مما يعود على الفرد والجماعة بالخير والفلاح فقد عالج الاسلام بها كثيرا من السوءات الاجتماعية فكانت من اكبر وسائله للقضاء على الشر والظلم والعدوان مما يعكر صفو هذه الاخوة ويهدم بناء المجتمع من قواعده .

---

(١) سورة الفتح اية (٢٩) .
(٢) سورة المائدة اية (٢) .
(٣) سورة التوبة اية (٧١) .
(٤) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم ١٦ / ١٣٤ - ١٣٥ عن سالم عن ابيه .
(٥) رواه الطبرانى وابويعلى ورجاله ثقات قاله الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨ / ١٦٧ .

ومن هذه السوءات الاجتماعية التي عالجها الاسلام تحقيقا لروح الاخوة بين المسلمين وحفاظا على حقوقهم وصيانة لاعراضهم واموالهم ودمائهم ايذاء المسلم لاخيه في نفسه وماله وعرضه والتجسس والنميمة والغيبة وسوء الظن والاثرة والذبذبة والنفاق والكبر والتحقير والسخرية بالناس والاحتيال والغش والقطيعة والهجران والتباغض والتحاسد والتدابر والتنازع والتظالم في علاقات الناس بعضهم مع بعض والاعتزاز بالفتك والجبروت والتعالي على الناس واستمطال القوة لاذلالهم واستعبادهم من اجل تحقيق المصالح الذاتية والغايات المادية ، والتفريق بين الناس على أساس الشعوبية والقومية والقبلية والطبقية والمفاضلة بينهم في الحقوق والواجبات وفق هذه التقسيمات والمفاخرة بها والتعصب لها وتجمع الناس حولها . فقد شن الاسلام حربا شعواء على هذه المظالم الاجتماعية والمساوىء الخلقية المتفشية في المجتمعات الجاهلية ودعاهم الى تحقيق روح الاخوة والمساواة واقامة الحق والعدل فيما بينهم يقول الله تعالى : " واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين "(١).
ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا "(٢) . ويقول عليه الصلاة والسلام : " . . . شرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الاحبة . . . (٣) الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام " لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا انما هم ليكونن اهون على الله من الجعل الذى يدهده الخرء بأنفه ان الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية

---

(١) سورة الانفال اية (٤٦) .
(٢) رواه البخاري في كتاب الادب باب يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ..... الاية ٧ / ٨٩ عن ابي هريرة .
(٣) رواه الامام احمد في مسنده ٤ / ٢٢٧ عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم .

وفخرها بالاباء انما هو مؤمن تقي او فاجر شقي ، الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب (١) " . وقال صلى الله عليه وسلم " ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية (٢) " . ومن حرص الاسلام الشديد على حفظ علاقة الاخوة قوية بين المسلمين وسعيه الحثيث لتحقيق تكافل الجماعة المسلمة ووحدة الصف وجمع الشمل أنه يدعو الى اصلاح ذات بين المسلمين وانهاء الخلافات التي تقوم بينهم ورد الامور المتنازع فيها الى حكم الله ورسوله، وشرع قتال الطائفة الباغية حتى تعود الى امر الله وتلزم جانب الحق والعدل، كما قرر القضاء على من يحاول التفريق ويسعى الى التفكك والهدم وبث روح العداء والشقاق بين المسلمين . قال الله تعالى : " وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين . انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون (٣) " وقال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلكم خير واحسن تأويلا (٤) " ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " انه ستكون هنات وهنات فمن اراد أن يفرق أمر هذه الامة وهي جميع فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان (٥) " .

---

(١) رواه الترمذي في كتاب المناقب ٩ / ٤٣٠ وقال حديث حسن . ورواه ابو داود في كتاب الادب ٥ / ٣٤٠ .
(٢) رواه ابو داود في الادب باب العصبية ٤ / ٣٣٢ عن جبير بن مطعم .
(٣) سورة الحجرات ايتا (٩ - ١٠) .
(٤) سورة النساء اية (٥٩) .
(٥) رواه مسلم في كتاب الامارة باب حكم من فرق امر المسلمين وهو مجتمع ١٢ / ٢٤١ عن عرفجة .

ثانيا : مبدأ المساواة فى الاسلام :

كان الناس فى المجتمعات الجاهلية يتميزون ويتفاضلون بمعايير معينة تقوم على اساس الظلم والجور وتتنافى مع مبادىء الحق والعدل، فقد كانوا يقسمون انفسهم الى فئات متعددة وطبقات مختلفة أحرار وعبيد وموال وأشراف وضعفاء مستضعفين . وكان التعامل والتعايش يجرى بين الناس وفق هذه التقسيمات، فقد أحكمت الاسوار حول الطبقات والفئات الدنيئة فى المجتمع واقيمت حواليها الحواجز والسدود وضيقت عليها آفاق الحياة الواسعة وصدت أمامها طرق العيش الكريم والتقدم والحركة فظلت تعيش داخل حدودها الضيقة ذليلة محرومة يائسة لا تجرؤ أن تتخطى حواجزها الفاصلة او تحطمها لترتقى الى مستوى من فوقها من الطبقات العليا والفئات الممتازة . وهذه الطبقات والفئات المتعالية على الناس والمتسلطة على رقابهم كانت ترعى العدالة لنفسها بينما كانت تنكرها على من سواها وكانت تحرص أشد الحرص على حقوقها فى حين كانت تنكر ان تكون للاخرين حقوق وتعتبر كل شىء فى الحياة مخلوقا من اجلها ولمصلحتها فقط .

والاسلام - حين يضع للناس أسس بناء المجتمع المسلم - يقرر وحدة الاصل الذى صدر عنه الناس جميعا ويبين ان البشر جميعا خلقهم الله تعالى من نفس واحدة،فهم يحملون خصائص هذه النفس وينتمون اليها على سواء . قال الله تعالى " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . . . الاية (١) . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ان أباكم واحد وان دينكم واحد ابوكم آدم وآدم خلق من تراب(٢) . . " الحديث.

---

(١) سورة النساء اية (١).

(٢) اورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨ / ٨٤ وعزاه الى البزار وقال : ورجاله رجال الصحيح .

وبهذا هدم الاسلام قواعد التفرقة الزائفة التى أقامها الناس حواجز تفرق بينهم ومقاييس يحتكمونها فى علاقاتهم بعضهم مع بعض ترتفع بها اقوام وترقى الى درجات عالية فى العز والسيادة والسلطان ويتسفل بها آخرون ويتقلبون فى دركات الذل والمهانة والحرمان . ويقرر الاسلام أن الناس جميعا خلق الله وعبيده متساوون فى القيمة الانسانية فهم أبناء أب واحد وام واحدة لا يفترقون الا فى الايمان بالله أوالكفر به . فأما المؤمنون فهم جميعا سواء فى الحقوق والواجبات فليس هناك أحد - مهما عظم شأنه - يعتبر فوق القانون والمسؤولية وليس هناك طائفة او طبقة او قبيلة تختص بميزة او فضل فى حق من الحقوق العامة ولا فى اسقاط واجب من الواجبات عنها، وكذلك ليس لها اى حق فى التسلط على رقاب الناس وتسخيرهم لمصالحها الذاتية وأذلالهم واستعبادهم فما دام الناس يجتمعون فى اصل واحد وينتمون الى نفس واحدة ويحمل كل واحد منهم خصائصها فهم بذلك سواء فى الكرامة الانسانية وفى الحقوق والواجبات سواء أمام الحكم والتشريع سواء امام الامر والتكليف لا فضل لاحد هم فى ذلك ولا ميزة على الاخرين . عن عائشة رضى الله عنها ان قريشا اهمتهم المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا من يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يجترىء عليه الا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " اتشفع فى حد من حدود الله ثم قام فخطب فقال يا أيها الناس انما ضل من قبلكم انهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف فيهم اقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها (1) " . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الحدود باب كراهية الشفاعة فى الحد اذا رفع الى السلطان ١٦/٧ .

" الناس مستوون كأسنان المشط ليس لاحد على احد فضل الا بالتقوى (١) ".

ويقول الله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم اوالوالدين والاقربين ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما فلاتتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا اوتعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا (٢) " وفى كل ماتقدم من الحديث يؤكد الاسلام أن القواعد والمعايير التى تواضع الناس عليها فى التفاضل والامتياز على الاخرين من شرف الاسرة اوالقبيلة وفضل الثراء والغنى وكرم الجنس والعنصر ووحدة اللون واللغة والوطن وقوة النفوذ والغلبة والسيادة والاشتراك فى المصالح والمنافع كل هذه ليست مقاييس صحيحة لان يجتمع عليها الناس، او يفترقون من اجلها . وان كون الناس شعوبا واجناسا وقبائل متعددة واختلاف الالوان واللغات ايةمن آيات الله فى الكون وهو سبيل للتعارف والتقارب والتعاون بين الناس . ولقد وضع الاسلام مقياسا جديدا للفضل والامتياز وذلك هو مقياس التقوى والعمل الصالح . وكلما اطاع الانسان ربه فى كل ما أمر به وكل مانهى عنه واخذ من اسباب الخير لنفسه وللناس جميعا وتجنب اسباب الشر والفساد فى نفسه ولم يعرض لها احدا من عباد الله كان له الفضل عند الله تعالى والتقدير فى الدنيا والاخرة . يقول الله تعالى :" يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم (٣) . .الاية . وبذلك اصبحت المجالات مفتوحة فى المجتمع المسلم امام كل فرد ذى موهبة وذكاء واستعداد ليبلغ ماقدر له من المنازل الرفيعة فى خدمة

---

(١) اخرجه الديلمى عن انس قاله العجلونى فى كشف الخفاء ٢ / ٤٣٣ .
(٢) سورة النساء اية (١٣٥) .
(٣) سورة الحجرات اية (١٣) .

المجتمع بمقدار نصيبه من البذل والعمل ويجنى ثمار سعيه وجهده دون أن يقف فى وجهه عائق من لون أوجنس او لغة او يحط من شأنه كونه من عشيرة او قبيلة ضعيفة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه (١)"

ومن الجانب الاخر يقرر الاسلام ان من سنة الله فى الحياة الانسانية تفاوت الناس فى الذكاء والمواهب والكفاءات وفى القدرة على العمل والانتاج وتحقيق النفع العام للمجتمع ، وهذا التفاوت الطبيعى فى العقول والافهام والطاقات والخبرات مما يقضى بالتفاوت فى الفضل والتقدير فى الدنيا والاخرة وهوايضا سبيل الى عمارة الكون واستمرار حركة الحياة فى تدفق وتفاعل واحتكاك لان تعدد فئات الناس واختلاف شعوبهم وقبائلهم ولغاتهم وتفاوت احوالهم ضرورة تقضى بالتعارف والتقارب والتعاون بين الناس ، كل فيما يستطيعه ويحسنه من العمل وبما أعطيه من قدرة وخبرة . يقول الله تعالى :" ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم . . الاية (٢) . ويقول تعالى : "اهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون "(٣) .
والتفضيل هنا نتيجة اختلاف الكفاءات والمواهب والتفاوت فى القدرة على البذل والعمل لا تفضيل امتيازات وتفاخر ولا تسخير اذلال واستعباد لتقسيم المجتمع الى طبقات وفئات مختلفة يتعالى بعضها على بعض ويستعبد بعضها بعضا .
وهذه هى الحقائق الناصعة التى قررها الاسلام حول مبدأ المساواة لتحقيق العدالة بين الناس حتى يسود المجتمع روح التضامن والاخوة وتقوم الحياة

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء . . باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ١٧ / ٢١-٢٢ عن ابى هريرة .
(٢) سورة الانعام اية (١٦٥) .
(٣) سورة الزخرف اية (٣٢) .

على المحبة والعدل والإحسان . وهذه المساواة المطلقة التى قررها الإسلام كانت مرتبطة بالعقيدة الصحيحة فى الله تعالى والعبودية الحقة له والتحرر الوجدانى المطلق من جميع القيم والأسس الزائفة التى تتنافى مع الحق والعدل ، فهذلك صانها الإسلام من عبث التحايل والتظاهر والدعاوى المريضة المغرضة واخرجها من عالم الشعارات والنظريات الى عالم التطبيق العملى فى واقع حياة الأمة الإسلامية ، ففى هذا الواقع التاريخى المشرف نماذج رائعة لتطبيق مبدأ الأخوة الإيمانية وتحقيق المساواة المطلقة بين أفراد المجتمع المسلم بصورة فريدة فى التاريخ . ولقد استطاعت الجماعة المسلمة أن تحقق فى عالم الواقع معنى " الأمة " على حقيقتها حيث انها أرست دعائم بناء مجتمعها على العقيدة الصحيحة فى الله وإقامة الحق والعدل بين الناس والأخوة الخالصة فى الله والمساواة أساس الحق والعدل والتحرر من جميع القيم والاعتبارات التى تخدش هذه المبادئ القويمة وتقوض أركان بناء المجتمع المسلم . وقد تكون المجتمع الإسلامى بعد الهجرة إلى المدينة من المهاجرين والأنصار كان معظمهم أبناء قبائل عربية متعددة وفيهم أفراد متفرقون من أجناس أخرى ، كما كان من بينهم أشراف وأثرياء وضعفاء من الموالى والفقراء . وقد كان هؤلاء الناس فى الجاهلية يعيشون فى عداوة وشقاق وتدابر وتفرق لا تجمعهم كلمة ولا تضمهم راية وإنما كانوا قبائل وعشائر وطبقات متنافرة متناحرة بأسهم بينهم شديد وقلوبهم متناكرة ولا تكاد تنتهى بينهم حرب حتى توقد نار لأخرى أشد وهكذا ساد الظلم والجوروالفساد أجواء المجتمع الجاهلى وعاش الناس فى شقاء وهلاك . ولكن لما جاء الإسلام ودخل فيه هؤلاء المهاجرون والأنصار وكانوا من قبائل واجناس متعددة جمعتهم العقيدة فى الله على صعيد واحد فالتقت قلوبهم على حب الله ورسوله فتآلفت وترابطت واصبحوا بنعمة الله إخوانا متحابين بجلال الله متضامنين مترابطين بحبل الله

متعاونين على البر والتقوى وقد زالت بينهم الحواجز والعوائق المقامة بين مختلف الشعوب والقبائل والعشائر وذابت الفوارق القائمة بين مختلف طبقات المجتمع وفئاته ، وأصبح المسلمون أمة واحدة مترابطة متساندة متضامنة تتساوى أفرادها في الحقوق والواجبات وهم جميعا مطالبون بتحقيق العبودية لله تعالى وتنفيذ أمره وإرادته في شئون الحياة الإنسانية والتحرر من كل عبودية وتذلل وخضوع لغير الله تعالى ولا فضل لأحدهم على الآخر عند الله إلا بالتقوى والعمل الصالح ا وقد امتن الله تعالى على المؤمنين الأوائل بما أنعم عليهم حيث ألف بين قلوبهم وجمعهم على حبه وحب رسوله إخوانا وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها .... الآية (١) . ويقول تعالى : " .. هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم (٢) " . وبعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة شرع في بناء المجتمع المسلم فآخى بين المهاجرين والأنصار وجعل كل اثنين منهم أخوين فكانوا يتوارثون بذلك إرثا مقدما على صلة القرابة حتى نسخ الله ذلك بآيات المواريث (٣) . وقد أثنى الله تعالى على المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وانضموا إلى إخوانهم الأنصار لنصر الله ورسوله وإقامة دينه وبذلوا في سبيل ذلك أموالهم وأنفسهم مبتغين فضل الله ورضوانه كما أثنى الله تعالى أيضا على الأنصار الذين آمنوا بالله حقا وأحبوا إخوانهم

---

(١) سورة آل عمران آية (١٠٣) .
(٢) سورة الانفال ايتا (٦٢-٦٣)
(٣) انظر الحديث الذي رواه البخاري في ذلك في كتاب الفرائض باب ذوي الارحام ٨/٨ عن ابن عباس .

المهاجرين بحب الله ورسوله وآووهم فى منازلهم وواسوهم فى أموالهم وكانوا يؤثرونهم على أنفسهم ولو فيما اشتدت حاجتهم إليه يقول الله تعالى : " للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون .. والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .... (١) الآية . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال المهاجرون يارسول الله مارأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلا فى كثير لقد كفونا المؤنة وأشركونا فى المهنأ حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله قال لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله عز وجل لهم (٢) " . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أصابنى الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا رجل يضيّف هذه الليلة يرحمه الله " فقام رجل من الأنصار فقال أنا يارسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدخريه شيئا فقالت والله ماعندى إلا قوت الصبية قال فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفئ السراج ونطوى بطوننا الليلة ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " لقد عجب الله عز وجل أو ضحك من فلان وفلانة " فأنزل الله عز وجل " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (٣) " . وجاء فى الحديث الذى رواه أنس رضى الله عنه أن فتى من أسلم قال يارسول الله إنى أريد الغزو وليس معى ما أتجهز به قال إئت فلانا

---

(١) سورة الحشر ايتا (٨-٩) .
(٢) اخرجه الامام احمد فى مسنده ٣ / ٢٠٠ .
(٣) رواه البخارى فى كتاب التفسير باب قوله تعالى " ويؤثرون على انفسهم " ٦ / ٥٩ .

فإنه قد كان تجهز فمرض فأتاه فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام ويقول أعطني الذى تجهزت به فقال يافلانة أعطيه الذى تجهزت به ولا تحبسى عنه شيئا فوالله لا تحبسى منه شيئا فيبارك لك فيه (١) " . هكذا كانت قوة الرابطة الأخوية التى قامت بين المسلمين الأوائل أخوة خالصة ومحبة وتعاونا على البر والتقوى وإيثارا نادرا على النفس وتضامنا ووحدة تحت راية الحق والعدل . وكذلك حينما اتسعت رقعة دولة الإسلام وامتد نفوذها إلى خارج الجزيرة العربية فى مشارق الأرض ومغاربها جمعت الأمة الإسلامية شعوبا وأجناسا وقبائل متعددة على صعيد واحد وتحت ظل الأخوة فى الله فشملت الأمة الإسلامية العرب والفرس والروم والمصريين والسودانيين والبرابرة والهنود والأتراك وغيرهم وأصبحوا جميعا إخوانا فى دين الله وأمة واحدة متضامنة متعاونة وأينما ذهبوا فى أنحاء بلاد المسلمين الفسيحة لا يحسون بغربة أو نفرة وإنما يشعرون أنهم بين إخوانهم الأحباب الذين يقدمون لهم كل مايحتاجون إليه من عون ومساعدة تحقيقا لروح الأخوة الوثيقة التى تربط بينهم .

وأما فى مجال إقامة الحق والعدل وتحقيق المساواة المطلقة بين أفراد المجتمع المسلم فقد شهد الواقع التاريخى لهذه الأمة نماذج رائعة تعتبر معجزة شرف الله بها هذه الأمة لم يتحقق مثلها إلى اليوم لأمة من أمم الأرض غير هذه الأمة ولا فى أى بقعة من بقاع الأرض غير بلاد المسلمين .

فلننظر الآن إلى الصورة الوضاءة لتطبيق المساواة بين أفراد المجتمع المسلم من زاويتين اثنتين : زاوية الأشراف والأقوياء الذين أوتوا نصيبا من الجاه

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازى فى سبيل الله تعالى ١٣/ ٣٩ .

والمكانة والمال،وزاوية الضعفاء من الموالي والفقراء الذين انحدروا من قبائل أو عشائر أو أسر ضعيفة ولا مال لهم ولا جاه ولا مكانة،فبذلك نعلم كيف يعامل الإسلام كل فرد من أفراد المجتمع المسلم قويا كان أو ضعيفا غنيا كان أو فقيرا حرا كان أو عبدا .

ولنبدأ الحديث عن ضعفاء المسلمين من الموالي والفقراء فإن الإسلام يفتح أمامهم مجالا عالحياة الفسيحة فى المجتمع ويهيب بهم ويحثهم على العمل لبلوغ أقصى مايستطيعون من مراتب العز والمجد فى كل اتجاه، وكذلك يحترمهم ويرفع من شأنهم وينزلهم فى مستوى واحد مع الأقوياء فى الحقوق والواجبات ، فهو يحقق لهم حقوقهم كاملة ويطالبهم بأداء ماعليهم من الواجبات حسب استطاعتهم ولا يدع أحدا يمتاز عليهم فى ذلك بشىء لا بحسبه ونسبه أو جاهه وماله، وإنا نجد التطبيقات العملية لهذه المبادىء من الحق والعدل والمساواة كثيرة ومتنوعة فى واقع حياة الجيل الأول من المسلمين وليس فى استطاعتنا حصرها أو استيعابها فى هذا المقام ولكننا سنذكر شيئا يسيرا من ذلك على سبيل المثال .

فحينما آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فى أول الهجرة كان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين وكان أبوبكر وخارجة بن زيد أخوين وأبوالدرداء وسلمان الفارسى أخوين وخالد بن رويحة الخثعمى وبلال بن رباح أخوين . وهذه الأخوة كانت من القوة بحيث إنها تعدل صلة القرابة فى النفس والمال [١] وسائر مظاهر الحياة . ومن ذلك أيضا تزويج [٢] الرسول صلى الله عليه

---

(١) وقد نسخ الله تعالى التوارث بهذه الأخوقبايات المواريث كما أشرنا إليه سابقا .

(٢) انظر الحافظ ابن الحجر العسقلانى ،الإصابة فى معرفة الصحابة ٤ / ٤٨ ، وكذلك ابن الاثير ،اسد الغابة ٢ / ١٣١ .

وسلم إبنة عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد ومعلوم أن الزواج من أهم المسائل التى لا يتغاضى الناس فيها عن شرط الكفاءة والمساواة . ولقد ارتقى الموالى فى الإسلام إلى مستوى المسئولية فى الشئون العامة فى المجتمع فكان منهم قواد عظام وحكام على بعض المناطق كما كان منهم علماء أفاضل وفقهاء ألمعيون ولقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بزيد مولاه قائدا لغزوة مؤتة وكذلك بعث بابنه أسامة قائدا لغزو الروم فى جيش كبير يضم مجموعة من كبار المهاجرين والأنصار منهم أبوبكر وعمر وسعد بن أبى وقاص وغيرهم (١) . وقد عين الرسول صلى الله عليه وسلم مهران الفارسى واليا على اليمن واستخلف عليه الصلاة والسلام بلال الحبشى على المدينة عند خروجه لإحدى غزواته وكان بالمدينة مجموعة من المهاجرين والأنصار . " وكانت عائشة رضى الله عنها تقول مابعث رسول الله زيد بن حارثة فى سرية إلا أمره عليهم ولو بقى لاستخلفه بعده (٢) " . وحين طلب إلى عمر بن الخطاب أن يستخلف أحدا بعده قال " قد رأيت من أصحابى حرصا سيئا وإنى جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ثم قال لو أدركنى أحد رجلين فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به : سالم مولى أبى حذيفة وأبى عبيدة بن الجراح (٣) " . وهذا دليل على أن سالما عنده مفضل على الستة أهل الشورى وفيهم عثمان وعلى وسعد بن أبى وقاص . وقد رأينا عمر بن الخطاب قبل ذلك يولى عمار بن ياسر (٤) على الكوفة وهو من الموالى كما رأينا عامل عمر بن الخطاب على مكة والطائف نافع بن

---

(١) انظر الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية ٦/٣٠٤-٣٠٥

(٢) ابن الاثير اسد الغابة ٢ / ١٣١ ، وانظر كذلك ابن حجر العسقلانى ، الاصابة ٤ / ٤٩ .

(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات ٣ / ٣٤٢ - ٣٤٣ من رواية أبى رافع .

(٤) انظر المصدر نفسه ٣ / ٢٥٥ من رواية حارثة بن مضرب .

الحارث الخزاعى قد استخلف على أهل مكة حينما خرج منها لبعض حاجته أحد الموالى وهو عبد الرحمن بن أبزى وقال عمر لنافع من استعملت على مكة ؟ قال عبد الرحمن بن أبزى قال استعملت عليهم مولى قال إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض "(١) . ولما توفى عمر بن الخطاب نظر المسلمون فإذا صهيب يصلى بهم المكتوبات بأمر عمر فقدموا صهيبا فصلى على عمر(٢) ". وما جاء فى احترام ضعفاء المسلمين وتكريمهم لمكانتهم فى نصرة الدين وأهله وحسن بلائهم فى ذلك وتقديمهم على من دونهم فى ذلك ولو كانوا من أشراف القوم ماروى أن سهيل بن عمرو بن الحارث وأبا سفيان بن حرب وجماعة من أشراف قريش وقفوا بباب عمر بن الخطاب يوما يستأذنونه فى الدخول عليه فأذن قبلهم لصهيب الرومى وبلال الحبشى وهما موليان فقيران لانهما كانا من اهل بدر ومن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغضب أبوسفيان لهذا التقديم الذى لم يكن معهودا ولا مطاقا فى الحياة الجاهلية فلم يكن الموالى يتساوون مع السادات فى شئ فضلا عن أن يتفوقوا أو يمتازوا عليهم بشئ فقال : " لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه (٣) .

وفى عهد الخليفة عمر ومن بعده كثرت الفتوح الإسلامية وكثر بسبب ذلك الأرقاء والموالى من الرجال والنساء والذرارى وقد انتج هؤلاء الأرقاء والموالى فى الجيل التالى لعهد هذا الفتح الكبير عددا كبيرا من العلماء والائمة والفقهاء

---

(١) انظر الحافظ ابن حجر ، الاصابة ٦/ ٢٥٨ .
(٢) اخرجه ابن سعد فى الطبقات ٣/ ٣٦٧ عن سعيد بن المسيب .
(٣) انظر : سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الاسلام ص١٦٣ .

منهم من يعد من سادات التابعين وخير المسلمين . ولقد كان هناك جملة من العلماء العرب فى العصر الأموى مثل سعيد بن المسيب وعلقمة وشريح ومسروق وإبراهيم النخعى وغيرهم ولكن الأكثرين كانوا من الموالى ومن هم من أبوين عربى وعجمى . فكان فى المدينة سليمان بن يسار وأبوه مولى ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ونافع مولى عبد الله بن عمر وربيعة الرأى وهو شيخ الإمام مالك ، وكان من علماء مكة مجاهد بن جبر مولى بنى مخزوم وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء بن رباح مولى بنى فهر واشتهر من علماء الكوفة سعيد بن جبير مولى بنى والبة ومن علماء البصرة الحسن بن يسار مولى زيد بن ثابت ومحمد بن سيرين وهو من فقهاء البصرة والحسن البصرى ، وكان أبوه من سبى ميسان واشتهر من أهل الشام مكحول بن عبد الله وهو معلم الأوزاعى واشتهر فى مصر يزيد بن حبيب مولى الازد وكان مفتى أهل مصر وكان بربرى الأصل أبوه من أهل دنقلة (١) .
وهناك أيضا كثير من العلماء غير هؤلاء كانوا من أبوين عربى وعجمى مثل سالم ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب والقاسم بن محمد بن أبى بكر وعلى بن الحسين ابن على بن أبى طالب والمعروف بزين العابدين فإن الزمخشرى يروى أن أمهاتهم بنات يزدجر ، وكذلك الشعبى علامة التابعين فإن أباه عربى وأمه من سبى جلولاء . ويذكر ياقوت الحموى أن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : لما مات العبادلة : عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه فى جميع البلدان إلى الموالى (٢) ، ثم عدد جملة ممن تقدم ذكرهم من العلماء والفقهاء . وكما لا يمنع الانسان حسبه ونسبه وضعف مكانته فى المجتمع

---

(١) رجعنا فى نسب هؤلاء الموالى ومحل إقامتهم الى الطبقات الكبرى لابن سعد وكذلك ابن خلكان .
(٢) انظر معجم ياقوت الحموى ، مادة خرسان ،

من بلوغ أقصى مراتب العز والمجد فى أى مجال من مجالات الحياة فى المجتمع المسلم فكذلك الأمر بالنسبة للحرفة والصناعة والعمل فلا يخدش منزلة الإنسان فى المجتمع المسلم ولا يحط من قدره أن تكون حرفته أو صناعته ما تكون ولا يمنعه ذلك من أن يرقى إلى أعلى المراتب فى الشئون العامة فى المجتمع ولا أن يحرز تفوقا يعترف له به فى أهم العلوم الإسلامية كالفقه والحديث وغيرهما . ولقد كان كثير من رجال الفقه والحديث تجارا أو صناعا ولم تكن تجارتهم ولا صناعتهم لتضيرهم أو تقف عائقا يمنعهم من بلوغ مكان الصدارة فى مجال اختصاصهم والاعتراف لهم فيه بالفضل والشرف . فالإمام أبو حنيفة كان خزازا وكذا الإمام احمد بن عمر بن مهير صاحب كتاب الخراج وغيره من كتب الفقه فإنه كان يعيش من خصف النعال . وهناك عدد كبير من العلماء الأجلاء فى خلال حقب التاريخ اشتهروا بالعلم والفقه والورع والتقى كانوا يعيشون على أعمال التجارة والصناعة منهم الكرابيسى والقفال والصفار والحلوانى والدقاق والبقالى والصابونى والقدورى وغيرهم .

ونعود بعد ذلك إلى الحديث عن الزاوية الأخرى وهى معاملة المجتمع المسلم للأشراف والأقوياء الذين أوتوا نصيبا وافرا من الجاه والمكانة والمال والسلطان . فإن الإسلام يسوى بينهم وبين الضعفاء فى الحقوق والواجبات فلا فضل لهم عليهم ولا ميزة بسبب الحسب والنسب والجاه والمال وإنما يتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى والعمل الصالح وبذلك كان الأقوياء والضعفاء فى الإسلام فى مستوى واحد أمام الحق والعدل لا فرق فى ذلك بين الحاكم والمحكوم والقوى والضعيف والغنى والفقير والرجل والمرأة وما إلى ذلك . وهكذا طبقت المساواة المطلقة بين جميع أفراد المجتمع المسلم على صورة فريدة فى التاريخ . ولدينا وفرة من الأمثلة الرائعة

فى واقع حياة المسلمين الأوائل نذكر منها هذا القدر اليسير . يروى أن زيد بن سفنة اليهودى دائن الرسول صلى الله عليه وسلم بدين وتأخر الرسول صلى الله عليه وسلم فى أداء الدين لعسرة ألمت به وجاء زيد فأمسك بتلابيبه وجذبه بقسوة وقال له أما آن لك يا محمد أن تسدد ما عليك من دين ؟ وارتاع عمر لقسوة زيد فأخرج سيفه وهم بضربه فصاح به الرسول " ضع ياعمر سيفك فى جرابه لقد كان خيرا لك أن تنصحنى بحسن الأداء وتنصحه بحسن الطلب وذهل اليهودى مما رآه من خلق كريم إقامة للحق والعدل بين الناس رغم اختلاف المكانة والدين فأعلن إسلامه (١) " " وقد كان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافوه بالموسم فاذا اجتمعوا قال : أيها الناس إنى لم أبعث عمالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم وإنما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم بينكم فمن فعل به غير ذلك فليقم فما قام أحد إلا رجل واحد قام فقال يا أمير المؤمنين إن عاملك فلانا ضربنى مائة سوط قال فيم ضربته ؟ قم فاقتص منه ، فقام عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك فقال أنا لا أقيد وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيد من نفسه قال فدعنا فلنرضه ، قال دونكم فأرضوه فافتدى منه بمائتى دينار كل سوط بدينارين (٢) . وحينما تطاول ابن عمرو بن العاص واعتدى على ابن المصرى ولطمه فاشتكى المصرى إلى ولى الأمر وكان بحضرة الخليفة عمر بن الخطاب أقاد له الخليفة عمر من ابن عمرو وهو يقول للمصرى " اضرب ابن الاكرمين " ثم اتجه إلى عمرو بن العاص فقال : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . " وخطب عمر بن الخطاب الناس

---

(١) روى البخارى حديثا بنحوه عن ابى هريرة فى كتاب الاستقراض باب استقراض الابل ٣ / ٨٣ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٣ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ عن عطاء وكذلك ص ٢٨١ .

بعد توليه الخلافة ولما قال : إن رأيتم فى اعوجاجاً فقومونى " قام رجل من عامة المسلمين فقال : " لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا " فماكان مثل عمر ليغضب لهذا القول ، وماكان يزيد على قوله " الحمد لله الذى جعل فى رعية عمر من يقومه بحد سيفه " لأنه يعلم أن حقه على الناس فى السمع والطاعة مشروط باستقامته على الحق وتنفيذه لحكم الله وأنه لا سمع وطاعة له عليهم فى معصية الخالق سبحانه وتعالى . وفى عهد عمر بن الخطاب رضوان الله عليه غنم المسلمون أبراداً يمانية فخص عمر منها برد واحد - كأى رجل من المسلمين - ولما لم يكفه برد واحد حيث إنه رجل طوال أعطاه ابنه عبد الله برده فضمه إلى برده . ثم وقف يخطب فى الناس وعليه ثوب من البردين فقال أيها الناس اسمعوا وأطيعوا ، فوقف سلمان الفارسى فقال لا سمع لك علينا ولا طاعة ، قال عمر : ولم؟ قال سلمان : من أين لك هذا البرد الذى ائتزرت به وقد نالك برد واحد كبقية المسلمين وأنت رجل طوال لا يكفيك برد واحد . قال عمر لا تعجل ، ونادى ياعبد الله فلم يجبه أحد ثم قال ياعبد الله بن عمر فقال لبيك ياأمير المؤمنين قال ناشدتك الله البرد الذى ائتزرت به أهو بردك ؟ قال عبد الله اللهم نعم قال سلمان الآن مر نسمع ونطع . وهناك قصة شهيرة عن جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة ، فقد دخل الإسلام وكان الخليفة عمر يكرمه ويجله وحدث له مرة أن وطىء رجل من عامة المسلمين ذيل إزار جبلة وهو يطوف بالبيت فأخذته الحمية الجاهلية فاستدار قبل الرجل ولطمه لطمة شديدة على وجهه فهشم أنفه ، فاشتكى الرجل إلى الخليفة عمر رضى الله عنه فاستدعى عمر جبلة وأجلسه بجوار خصمه للقضاء فاعترف جبلة بأنه ضرب الرجل فحكم عمر بالقصاص فقال جبلة كيف ذلك

وأنا ملك وهو سوقة تجلسه بجوارى وتقتص له منى ؟ قال عمر إن الإسلام قـد سوى بينكما وقد استمهل جبلة عمر بن الخطاب حتى يرضى خصمه ويطيب خاطره فاستجاب له فهرب من وجهه وفر إلى بلاد الروم وارتد عن الإسلام (١) .

• • •

(١) انظر البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الاول ص ١٦١ ، والعقد الفريد ٢/٢٥٩ - ٢٦٠ لابن عبد ربه .

المبحث الثالث :

مبدأ التكافل الاجتماعي

للتكافل الاجتماعي في الاسلام جانبان واضحان يتميز بهما عن سائر النظم والمذاهب جانب التضامن الروحي والترابط المعنوي وجانب التكافل المادي أو الواجبات المفروضة والحقوق المادية المترتبة على التكافل الروحي بين أفراد المجتمع المسلم .

ان الروابط الروحية والاواصر المعنوية التي تربط بين المسلمين تجعلهم أمة واحدة تجمعهم وحدة العقيدة الخالصة في الله تعالى ووحدة المنهج في الحياة وهم يتضامنون ويتعاونون في حمل المسئوليات وأداء الواجبات في مواجهة الحياة وحل مشكلاتها والتغلب على الازمات والخطوب التي قد تواجه مجتمعهم وتعترض طريقهم الى تحقيق الامن والاستقرار والسعادة .

ومبدأ التكافل المادي في الاسلام يقوم على دعائم التضامن الروحي والترابط المعنوي الذي بينا أسسه وقواعده فيما سبق من مباحث هذا الفصل . وعناية الاسلام في جعل التضامن الروحي الأساس الاول المتين الذي يقوم عليه التكافل المادي دليل على صدق نظرة الاسلام في معالجة الصلة بين أفراد المجتمع المسلم بعضهم مع بعض وواقعية الاسس والمبادىء التي يقيم عليها بناء هذا المجتمع حيث راعى فيها طبيعة الانسان وفطرته حتى يصدر هذا الانسان في كل مايقوم به في هذا المجال عن رضا وطواعية ممتثلا لامر الله تعالى متبعا لهدى الدين وتعاليمه واخلاقياته . ولئن كانت القيم النهائية للحياة البشرية روحية في طبيعتها وحقيقتها فان ذلك لا يعني ان الحقائق والقيم الروحية أمور منفصلة تمام الانفصال عن الجوانب المادية من الحياة ، بل اننا نلاحظ ان معظم هذه القيم والمبادىء لا يمكن تطبيقها في واقع الحياة الا من خلال الجوانب المادية وبذلك نعلم أن المجتمع الصالح الذي يطالب الاسلام باقامته لا يقوم من أجل تحقيق المطالب الروحية والقيم الخلقية فحسب ولكن لتحقيق المصالح المادية كذلك ، من أجل عمارة الكون وازدهار الحياة وتوفير وسائل الراحة والأمن

والسعادة للانسان .

وللتكافل المادى في الاسلام موارد متعددة تشمل جميع مصادر كسب الانسان وعمله وتستخرج من فضولها لتصرف في سد حاجات أفراد المجتمع وفي الصالح العام ، من أجل تحقيق توازن اجتماعى يقرب الفوارق بين الاغنياء والفقراء ، وجعل المال متداولا بين الناس بحيث يضمن الكفاية لكل فرد أو يمكن الانسان من المشاركة الفعلية في مشاريع العمل والتكسب لاستثمار منابع الثروة حتى لا تكون متركزة في ايدى فئة قليلة من الناس تستغل مصالح الاخرين وتستذلهم لمصالحها الذاتية .

ومن وسائل الاسلام المحددة لتحقيق التكافل الاجتماعى في المجتمع المسلم مايكون بالمال الخاص كالزكاة بجميع أصنافها والصدقات والمبرات وأنواع المعاملات المالية وغيرها ومنها مايكون بالاموال العامة كالفيء والخراج والجزية وخمس الغنيمة وعشر الركاز وما الى ذلك ، وان نظام المعاملات المالية في الاسلام جانب مهم في خطط الاسلام ووسائله لتحقيق التكافل الاجتماعى بين أفراد المجتمع . فقد وضع الاسلام في هذا المجال أسسا قويمة ومبادئ سامية تقوم على دعائم الحق والعدل وتقوى روح الاخوة والمحبة والتعاون والتساند ونشر الخير والفضيلة بين الناس. ثم ان من واقعية نظام الاسلام في تحقيق التكافل الاجتماعى بين افراد المجتمع المسلم وضعه على مراتب ودرجات بعضها فوق بعض . فقد أوجب الاسلام على الانسان أن يبدأ في البر والاحسان بأهله وعياله ثم ذوى القربى والارحام ،الاقرب منهم فالاقرب ثم الجيران والأصحاب الادنى فالادنى وهكذا تأخذ آفاق التكافل الاجتماعى في الامتداد والاتساع حتى تشمل جميع أفراد المجتمع المحتاجين من الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل والغارمين والأرقاء وغيرهم سواء منهم الاقارب والاباعد حتى يصبح المجتمع المسلم كالجسد الواحد لا يشتكى منه عضو حتى تتداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى .

ففي واقع حياة المسلمين في المجتمع المسلم الاول تحقق مبدأ التكافل الاجتماعي في أسمى معانيه واعلى صوره . لقد عرف كل فرد في هذا المجتمع ماعليه من مسئوليات وواجبات وقام بادائه - في حدود استطاعته - لصالح الجماعة، كان كل فرد في هذا المجتمع يحب الخير لنفسه ولاخوانه المسلمين ويستبق الخيرات والمبرات وفضائل الاخلاق ، يقف الى جانب اخوانه المحتاجين يشد أزرهم ويسد خلتهم ويمسح جراحهم وآلامهم وينفس عنهم الكرب ، وهو يصدر في ذلك كله عن قوة ايمانه بالله تعالى واتباعه لتعاليم الدين واخلاقياته وطاعته لامر الله تعالى وامر رسوله صلى الله عليه وسلم واحساسه المرهف بمسئولياته وواجباته تجاه اخوانه المسلمين ، ولم يكن احد من أفراد هذا المجتمع يعيش حياة العزلة والانفراد وحب الذات ويهرب عن حمل المسئولية والتبعات وينكل عن واجبه تجاه اخوانه او ينكر الصلة الاخوية الوثيقة التى تربط بينه وبين افراد مجتمعه في شئ أو يقدم مصلحته الذاتية على مصالح الجماعة التى هو فرد منها . وكذلك كانت الجماعة من جانبها أيضا قد عرفت حدود مسئولياتها وواجباتها تجاه افرادها فلم تهمل العناية بهم ولم تضيع حقوقهم ومصالحهم او تنكل عن السعى لتحقيق الخير والفضيلة وتوفير وسائل الامن والاستقرار والسعادة لجميع أفراد المجتمع ، وبهذا الايمان العميق بالله تعالى وهذا الفهم الصحيح لتعاليم الدين الحنيف واخلاقياته وهذا الاحساس المرهف بالمسئولية من جانب أفراد المجتمع المسلم الاول بعضهم مع بعض قويت رابطة الاخوة بينهم وتماسكت اركان بناء مجتمعهم على دعائم التحاب والتراحم والتعاون والتساند والتكاتف والحب في الله ونشر الخير والفضيلة والاحسان الى المحتاجين وايثار طاعة الله وامتثال اوامره في كل شأن ، وبذلك استطاعوا ان يحققوا في عالم الواقع مبادىء العدالة الاجتماعية الرفيعة وان يقضوا على الفقر والعوز ويسدوا ثغرات الحاجة والمسكنة ويوفروا الكفاية من المعيشة لكل فرد في المجتمع . لقد استطاع الاغنياء منهم ان يطهروا قلوبهم من البخل والشح وادواء الاثرة والانانية ونزعة السيطرة والاستبداد ومشاعر

حب الذات والاستعلاء والظهور والتطاول على الآخرين بكثرة المال ورفعة الشأن والمكانة فوسعوا اخوانهم المحتاجين بمالهم وعطفهم ورعايتهم ومحبتهم ، كما استطاع الفقراء من جانبهم ايضا ان يطهروا قلوبهم من الحقد والبغض والحسد والضغينة والغل فعاش الجميع اخوانا في الله متحابين متضامنين متساندين كالبنيان يشد بعضه بعضا .

فلنعرض الان بعضا من النماذج العاليةوالامثلة الرائعة من واقع حياة الامة الاسلامية في البر والاحسان والتكافل الاجتماعي . فقد حفل واقع حياة المسلمين الاوائل بالنماذج والأمثلة الكثيرة المتعددة في هذا الاتجاه بحيث لا يمكننا استيعابها والاحاطة بها في هذا المقام. وسنكتفي هنا بايراد بعض الأمثلة من زاوية الحالات الفردية والجماعية التي يرتفع فيها الافراد والجماعات الى الافاق الانسانية العالية في تطبيق مبادىء التكافل الاجتماعي في المجتمع المسلم ، ومن زاوية جهاز الحكم الذى يقوم بمهمته في تطبيق خطط الاسلام ووسائله في تحقيق التكافل الاجتماعي بين افراد المجتمع ويلزم الناس بها في علاقاتهم بعضهم مع بعض .

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال " أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نتصدق فوافق ذلك مالا عندى فقلت اليوم أسبق أبا بكر ان سبقته يوما ، قال فجئت بنصف مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما أبقيت لاهلك قلت مثله . واتى أبو بكر بكل ماعنده فقال " يا أبابكر ماابقيت لاهلك " ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله قلت والله لا اسبقه الى شىء أبدا" (١) ؟ كان ابو بكر صديقا تقيا كريما بذالا لامواله في طاعة الله تعالى ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويروى ابن سعد انه يوم أسلم كان له اربعون الف درهم مدخرة من ربح

---

(١) رواه الترمذى في كتاب المناقب باب في مناقب أبى بكر وعمر ٥/ ٦١٤ = ٦١٥ وقال هذا حديث حسن صحيح .

تجارته ، وقد نما ماله وكثر ربح تجارته بعد اسلامه ، ولكن ابا بكر قد انفق ماله كله في افتداء الضعفاء المضطهدين من الموالي المسلمين الذين يسامون سوء العذاب ويفتنون عن دينهم كما أنفقه في بر الفقراء ومواساة المساكين المعوزين حتى لم يبق له من هذا المال عندما هاجر الى المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى خمسة الاف درهم ، وقد استمر ابو بكر في المدينة ينفق بسخاء في سبيل الله (١) . وأما عمر بن الخطاب فهو رجل فقير ، ويذكر ابنه عبد الله انه " أصاب بخيبر ارضا فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أصبت أرضا لم أصب مالا قط أنفس منه فكيف تأمرني به قال : " ان شئت حبست أصلها وتصدقت بها " ، فتصدق عمر - انه لا يباع اصلها ولا يوهب ولا يورث - في الفقراء والقربى والرقاب وفي سبيل الله والضيف وابن السبيل لا جناح على من وليها ان يأكل منها بالمعروف او يطعم صديقا غير متمول فيه . " (٢) وذكر ابن عبد البر أن بئر رومة كانت ركية ليهودي يبيع المسلمين ماءها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من يشتري رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم وله بها مشرب في الجنة ؟ " فأتى عثمان اليهودي فساومه بها فأبى ان يبيعها كلها فاشترى نصفها باثني عشر الف درهم فجعله للمسلمين فقال له عثمان رضي الله عنه ان شئت جعلت نصيبي قرنين وان شئت فلي يوم ولك يوم قال بل لك يوم ولي يوم فكان اذا كان يوم عثمان استقى المسلمون مايكفيهم يومين فلما رأى ذلك اليهودي قال فسدت علي ركيتي فاشترى النصف الاخر فاشتراه بثمانية الاف درهم . وكذلك جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيرا واتم الالف بخمسين فرسا . (٣)

---

(١) انظر الطبقات ٣ / ١٧٢ من رواية زيد بن أسلم
ذكر المفسرون ان خواتم سورة الليل نزلت في ابي بكر رضي الله عنه وهي قوله تعالى : " وسيجنبها الاتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى " آيات (١٧-٢١)
وقد حكى بعضهم الاجماع على ذلك .

(٢) رواه البخاري في كتاب الوصايا ، باب الوقف كيف يكتب ٣ / ١٩٦

(٣) الاستيعاب في معرفة الاصحاب (على حاشية كتاب الاصابة لابن حجر) ٧ / ٣٢ - ٣٣

وهؤلاء الانصار في المدينة يضربون أروع أمثلة في الايثار حين رحبوا باخوانهم المهاجرين في ديارهم واشركوهم في أموالهم ومساكنهم وواسوهم خير مواساة حتى ان احدهم ليؤثر اخاه المهاجر على نفسه فيما اشتدت حاجته اليه ،عن ابى هريرة قال قالت الانصار اقسم بيننا وبينهم النخل قال: "لا" قال: تكفونا المؤنة وتشركونا في التمر ؟ قالوا سمعنا وأطعنا (١) . "وعن انس رضي اللهعنه انه قال : قدم علينا عبد الرحمن بن عوف وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع وكان كثير المال فقال سعد قد علمت الانصار انى من اكثرها مالا سأقسم مالى بينى وبينك شطرين ولى امرأتان فانظر اعجبهما اليك فاطلقها حتى اذا حلت تزوجتها فقال عبدالرحمن باركالله لك في أهلك فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئا من سمن واقط ... (٢) الحديث .

وعن انس رضى الله عنه قال : كان ابو طلحة اكثر الانصار بالمدينة مالا من نخل وكان احب اموالـه اليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى اللهعليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس : فلما نزلت هذه الآية " لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون"

جاءأبو طلحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ان الله تبارك وتعالى يقول : "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مماتحبون ." وان أحب اموالى الى بيرحاء وانها صدقة لله ، أرجو برها وذخرها عند الله فضعها ، يارسول الله حيث أراك الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح وقد سمعت ماقلت وانى أرى ان تجعلها في الاقربين " . فقال ابو طلحة

---

(١) رواه البخارى في كتاب مناقب الانصار باب اخاء النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والانصار ٤/٢٢٣

(٢) رواه البخارى ، في نفس الكتاب ونفس الباب ٤/ ٢٢٢

أفضل يارسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه [١] . " وعن عبد الله ابن مسعود قال : لما نزلت من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له " قال ابو الدحداح الانصارى يارسول الله وان الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال " نعم يا أبا الدحداح " قال ارنى يدك يارسول الله ، قال فناوله يده ، قال فانى قد اقرضت ربى عز وجل حائطي قال : وحائط له فيه ستمائة نخلة وام الدحداح فيه وعيالها - قال فجاء أبو الدحداح فناداها ياأم الدحداح قالت لبيك قال اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل [٢] . " وعن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان الاشعريين اذا ارملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ماكان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في اناء واحد بالسوية فهم منى وانا منهم [٣] " وعن سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه قال جاء النبى صلى الله عليه وسلم يعودنى وأنا بمكة - وهو يكره ان يموت بالارض التى هاجر منها - قال يرحم الله ابن عفراء ، قلت يارسول الله اوصى بمالى كله قال :" لا قلت : فالشطر قال : لا " قلت الثلث ، قال : فالثلث والثلث كثير انك ان تدع ورثتك اغنياء خير من ان تدعهم عالة يتكففون الناس في ايديهم وانك مهما انفقت من نفقة فانها صدقة حتى اللقمة ترفعها الى في امرأتك وعسى الله ان يرفعك فينتفع بك ناس ويضر بك آخرون ولم يكن له يومئذ الا ابنة" [٤] " .

---

(١) رواه البخارى في كتاب الزكاة باب الزكاة على الأقارب ٢/ ١٢٦

(٢) قال ابن كثير في تفسيره ١/ ٢٩٩ رواه ابن ابى حاتم عن عبد الله بن مسعود وقد رواه ابن مردويه عن عمر مرفوعا بنحوه .

(٣) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل الاشعريين ١٦/ ٦١-٦٢ شرح مسلم للنووى .

(٤) رواه البخارى في كتاب الوصايا ، باب الوصية بالثلث ٣/ ١٨٦

ومما ورد في الأمثلة الرائعة في التيسير على المعسر ووضع الدين عنه ما جاء في حديث عبادة بن الصامت قال خرجت انا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل ان يهلكوا فكان أول من لقينا " ابا اليسر " صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غلام له معه ضمامة من صحف ، وعلى أبي اليسر بردة ومعافري وعلى غلامه بردة ومعافري فقال له أبي : ياعم انى أرى في وجهك سفعة من غضب قال أجل ، كان لي على فلان بن فلان الحرامي فأتيت أهله فسلمت فقلت ثم هو ؟ قالوا : لا فخرج على ابن له جفر فقلت اين أبوك ؟ فقال سمع صوتك فدخل اريكة أمي ، فقلت أخرج الى فقد علمت أين أنت . فخرج فقلت ماحملك على ان اختبأت مني ؟ قال أنا والله احدثك ثم لا اكذبك ، خشيت والله ان احدثك فاكذبك أو اعدك فاخلفك وكنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنت والله معسرا قال : قلت آلله ؟ قال الله قلت آلله قال الله قلت آلله قال الله قال : فأتى بصحيفته فمحاها بيده فقال ان وجدت قضاء فاقضني والا أنت في حل فاشهد بصر عيني هاتين ووضع اصبعيه على عينيه - وسمع أذني هاتين ووعاه قلبي هذا وأشار الى نياط قلبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول " من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله . . . " (1) الحديث طولا

ولقد قطع المجتمع المسلم شوطا بعيدا في ميدان التكافل الاجتماعي وطبق مبادىء الاسلام وأسسه في تحقيق التراحم والتعاطف والتعاون بين أفراد المجتمع . والذى يراجع أى مجال من مجالات التكافل في المجتمع المسلم يرى صورا مضيئة تعكس ايمان هذا المجتمع بمبدأ التكافل وحرصه الشديد على تحقيقه .

ففي مجال الأوقاف مثلا نرى أن ثروات ضخمة قد وضعت عن رضا واقتناع لتحقيق غايات انسانية كريمة من خدمة البائسين وكفاية الفقراء والمساكين وسد

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الزهد باب حديث جابر الطويل وقصة ابى اليسر ١٨/١٣٤ - ١٤٧

حاجات المعوزين واعانة الأيتام والارامل والعجزة والمعوقين وغيرهم من ذوى الحاجات .

ولم يكن أمر التكافل الاجتماعى في الاسلام متروكا للوجدان الفردى والجماعى وحده ولكن جهاز الحكم في المجتمع المسلم قد حمله على عاتقه يطبقه ويلزم الناس به . وقد وقف القرآن الكريم موقفا حاسما من محاولات فردية لمنع الزكاة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم جعل أصحاب تلك المحاولات عبرة للناس كما جاء في الحديث (١) الذى رواه أبو امامة الباهلى في قصة ثعلبة بن حاطب الأنصارى الذى نزل فيه قوله تعالى : " ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون(٢)" وكذلك حين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وامتنع بعض العرب من دفع الزكاة وصمموا على اسقاطها من الفرائض وقالوا انها نوع من الاتاوات والعرب لا تدين لقريش بالاتاوات وقف أبو بكر الصديق موقفا حاسما من هؤلاء المرتدين وآلى على نفسه ليوجهن كل قوى الدولة لمطالبة هؤلاء بحقوق الفقراء والمساكين وقتالهم ولو منعوه ماقيمته حبل يعقل به البعير . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : " لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر وكفر من كفر من العرب فقال عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله تعالى ، فقال أبو بكر : والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها قال عمر فو الله ماهو الا أن قد

---

(١) وقد أورد هذا الحديث ابن جرير الطبرى فى تفسيره (١٠/١٨٩-١٩٠)

(٢) سورة التوبة آيات (٧٥ - ٧٧)

شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق (١) . "

ولقد فرض عمر بن الخطاب للأطفال المفطوم وغير المفطوم وكذلك المسن والمريض فريضة من بيت المال وذلك غير مصارف الزكاة والصدقات التى تشمل ذوى الحاجات . ولم تكن آفاق التكافل الاجتماعى في الاسلام مقصورة على أفراد المجتمع من المسلمين بل امتدت الى غيرهم من النصارى واليهود ، روى أن عمر بن الخطاب رأى شيخا ضريرا يسأل على باب فسأل فعلم أنه يهودى فقال له ما ألجأك الى ما أرى ؟ قال الجزية والحاجة والسن ، فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله فاعطاه مايكفيه ساعته وأرسل الى خازن بيت المال ، انظر هذا وضرباءه فوالله ماانصفناه ان اكلنا شبيبته ثم نخزه عند الهرم ، انما الصدقات للفقراء والمساكين - وهذا من مساكين اهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه . وذكر عنه ايضا انه لما سافر الى دمشق مر بأرض قوم مجذومين من النصارى فأمر ان يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت . والأمثلة في هذا المجال كثيرة متوفرة لا يمكن حصرها وحسبنا ماذكرنا من ذلك .

---

(١) رواه البخارى في كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة ٢ / ١٠٩-١١٠

المبحث الرابع

سياسة الحكم والمـــــال

في حديثنا عن الواقع الضخم الذى أقامه الجيل الأول الفريد في مجـــال سياسة الحكم والمال لا نلجأ الى عرض الأسس والمبادىء والتوجيهات التى قررهـــا الاسلام في هذا المجال لان ذلك من شأن البحوث المتخصصة في الحديث عـــن الاسلام عقيدة وعبادة ومنهج حياة وفي توضيح حقائق هذا الدين وبيان قيمـــه ومبادئه السامية ، ولكننا سنكتفي هنا بوضع اطار عام نبين فيه مدى فهم المسلمين الاوائل وادراكهم لمنهج الاسلام في شئون الحكم والمال ثم نعرض بعد ذلـــك الواقع العملى الرائع الذى اقامه هؤلاء المسلمون في حياتهم لنعرف كيف طبقـــوا تعاليم الاسلام وتوجيهاته في هذا المجال .

لقد كان المسلمون الاوائل على فهم عميق وادراك واع بعناية الاســـلام الفائقه بأمر الدين والدنيا من شئون البشر حيث جمع الدنيا والاخرة في طريـــق واحد وجعل الدنيا دار العمل وطريق الاخرة بينما جعل الآخرة نهاية المطاف فـي رحلة الحياة ودار الحساب والجزاء،وأن الدين الاسلامي عقيدة وعبادة ونظـــام حياة وهو بذلك كل لا يتجزأ ولا تنفصل اجزاؤه لما بين قيمه ومبادئه وأسسه مـــن ترابط محكم وتشابك قوى بحيث لا يمكن بأى حال فصل أحدها مستقلا عن الاجـــزاء الاخرى أو أخذ مبدأ او قاعدة بمفردها دون بقية الأسس والمبادىء وكذلك علـــم هؤلاء المسلمون أن الله سبحانه وتعالى الخالق المدبر هو وحده الذى له الحكـــم والتشريع وقد أنزل الكتب وأرسل الرسل لهداية الناس الى مافيه الخير والصلاح حتى يقومـــوا بالحق والعدل فآمنوا بالله حقا وصدقوا الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر بـــه واتبعوا النور الذى أنزل اليه وكانوا يحكمون به ويحكمونه في كل شأن من شئـــون حياتهم ويرضون بحكم الله ويسلمون لأنهم يعلمون أن عدم الحكم بشرع الله وتحكيـــم غيرشـــرع الله والرضا بحكم الطواغيت اشراك بالله تعالى في الحكم مثل الاشـــراك به تعالى في عبادته ، فقد اتضح لهم أن الدين هو ماشرعه الله تعالى والحـــلال

هو ما أحله والحرام هو ماحرمه سبحانه وتعالى لأنه هو المختص بالحاكمية المطلقة وحده لا شريك له وليس هناك أحد من خلقه يشاركه في شيء من صفات الربوبية والالوهية التى اتصف بها واستحق بها ان يكون له الحكم والتشريع دون غيره

ثم ان هؤلاء المسلمين الاوائل قد فهموا من كون الحكم والتشريع لله وحده لا شريك له ان كتابه العزيز وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هما مصدرا التشريع والحكم في الاسلام ، وأن القرآن الكريم هو أساس الشريعة الاسلامية وأصلها الاول وان جاءت نصوصه على الاحكام والنظم والتشريعات في كثير من الأمور على نحو اجمالى ومن غير بيان تفصيلى للجزئيات الدقيقة فان مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هى تبيين ذلك وتفصيله وشرحه شرحا وافيا . وهكذا كانوا يقبلون كل ماجاء عنه صلى الله عليه وسلم مابينه من أمور هذا الدين وكل ماحكم به وأرشد اليه وكانوا يتبعونه ويطيعونه ويمتثلون أمره وينتهون الى نهيه ولا يخالفون عن أمره في شيء من ذلك . وهكذا كان لهذين المصدرين الكتاب والسنة الهيمنة الكاملة على شئون حياة الرعيل الاول من المسلمين في جميع مجالاتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية والاخلاقية والقضائية . لقد فهم المسلمون الاولون من أمر الله عباده بالحكم بما أنزل على رسوله وأمره لهم بتحكيم شرعه في كل ماشجر بينهم أن ذلك معناه اقامة شئون الحياة الانسانية كلها على هدى دين الله ومنهجه وشريعته وانه لا يتعين حد الايمان الكامل ولا يتحقق شرط الاسلام الصحيح سواء للحكام أو للمحكومين الا بذلك ، وأن مناط الأمر في ذلك هو الحكم بما أنزل الله من الحكام وقبول هذا الحكم والتسليم له من المحكومين وعدم ابتغاء غيره من الشرائع والنظم البشرية . وبهذا الفهم الصحيح عرف المسلمون الاولون ان ليس لاحد من البشر ـ لا لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو جماعة نصيب من الحاكمية أو شيء من أمر التشريع فالبشر جميعا لا يملكون أن يشرعوا لانفسهم قانونا وليس لهم ان يغيروا شيئا مما شرع الله لهم او يلغوه من تلقاء أنفسهم دون أن يكون لهم سلطان من الله تعالى . وعلى هذا فان منهج الحكم

في حياة الجيل الاول من المسلمين كان قائما على أساسين ثابتين هما العدل الربانى الذى هو شرع الله المنزل ومبدأ الشورى الذى قرره الاسلام في الامور المباحة التي لم تنزل فيها نصوص من كتاب أو سنة . وكان من ولى شيئا من أمور المسلمين يدرك ما أوجبه عليه من الحكم بما أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم واتباع هدى الله ومنهجه لاقامة الحق والعدل بين الناس كما يحس دائما بعظم المسئولية التي تحملها امام الله تعالى فيما استرعاه اياه من أمور عباده لعلمه انه سيقف بين يدى الله تعالى ليحاسبه على كل صغيرة وكبيرة يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم . من أجل هذا كان ولاة امور المسلمين والحكام يحرصون اشد الحرص على تنفيذ امر الله وامر رسوله في كل شأن ويتوخون الحق والعدل والمصلحة في تصريفهم لامور المسلمين ويسعون جادين لاقامة جميع شئون حياة الناس في المجتمع على أساس شرع الله ومنهجه ، وكان أفراد المجتمع جميعا عندهم سواء في ميزان الحق والعدل وليس لاحد منهم ميزة على غيره ولا حق يختص به دون غيره الا في حدود ما يقرره الشرع الربانى الذى لا يحابى أحدا ولا يراعى له جانبا في شيء البتة بل يجعل الناس جميعا امام الحق والعدل سواء لا فرق بين انسان وآخر حاكما كان أو رعية قويا كان أو ضعيفا غنيا كان أو فقيرا شريفا كان او وضيعا وهكذا أرسوا دعائم الحق والعدل في المجتمع المسلم الاول وعاش الناس في ظل منهج الله وشريعته ينعمون بالامن والاستقرار والسعادة . لقد علم المسلمون الاوائل ان مهمة ولاة أمور المسلمين محددة بحدود شرع الله ومحصورة في نطاق تنفيذ أمر الله وامر رسوله والسير فى أمور الامة على هدى الكتاب والسنة وروح الدين الحنيف ، واللجوء الى مشاورة أهل العلم والصلاح في الامور العامة المستجدة التي لم ترد لها احكام صريحة واضحة في الكتاب والسنة ، وكانوا يدركون تمام الادراك بأن الشورى التي قررها الاسلام ليست طليقة العنان في تصريف شئون المسلمين بل هي محددة بحدود الدين التي قررها الله تعالى في شريعته وتابعة للقاعدة الاساسية فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول . . " وعلى ضوء ذلك كان ولاة أمر المسلمين يتولون دراسة الامور العامة في المجتمع لمعرفة مافيه الخير والصلاح

للناس ومايدفع الضرر والمفسدة عنهم مسترشدين بماجاء في الكتاب والسنة من القواعد الكلية والمبادىء العامة ليستنبطوا منها الاحكام للامور المستجدة ، كما كانوا يتباحثون في مجال الحكم والتشريع لتوضيح المعنى الصحيح لاى نص من نصوص الكتاب والسنة او بيان كيفية تطبيقه واخراجه الى حيز التنفيذ حتى يتحقق مطلبه تحققا تاما ، وماكانوا بأى حال يتباحثون فيما أصدره الله ورسوله من حكم في أمر من الامور ليصدروا فيه حكما تلقائيا من عند انفسهم لانهم يعلمون أن الحكم والتشريع لله وحده لا شريك له وان مهمة العلماء والفقهاء محدودة في نطاق تفهم نصوص الكتاب والسنة لاستنباط الاحكام منها ، والاجتهاد في المسائل التى لم ترد فيها احكام صريحة من الكتاب والسنة سائرين على هدى هذين المصدرين الأساسيين مسترشدين بماجاء فيهما من القواعد والأسس والتوجيهات فهم بذلك مفسرون وشراح لماتضمنته النصوص من احكام وشرائع وتعليمات وليسوا مشرعين من تلقاء أنفسهم .

والآن بقى علينا أن نعرض شيئا يسيرا عن الواقع التاريخى للجيل الاول من المسلمين في مجال سياسة الحكم والمال لكى نرى كيف ترجمت المبادى والقيم والتوجيهات الاسلامية السامية الواردة في هذا الشأن الى واقع عملى سام في كل اتجاه خلال عهد هذا الجيل الفريد .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرص الناس واقواهم على العمل بكل ماجاءه من عند الله تعالى وكان مثلا اعلى فى اتباع ما أنزل الله اليه والحكم به بين الناس بما أراه الله لاقامة الحق والعدل بينهم ، وكان الى جانب ذلك يلجأ الى مشاورة اصحابه في الامور العامة المباحة التى لم ينزل فيها وحى من الله تعالى كما أمره الله تعالى وقد دلتنا الروايات ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر من استشارته لاصحابه فى المسائل التى لم ينزل فيها قرآن حتى قال أبو هريرة رضى الله عنه : مارأيت احدا قط كان اكثر مشاورة لاصحابه من رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ابو بكر وعمر في مقدمة الذين كان الرسول يعتمد عليهم في ذلك . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يصدر قضاءه فيما يعرض له من المسائل العامة التي لم ينزل فيها وحي على ضوء اجتهاده واستشارته لاصحابه فان حالفه التوفيق في قضائه كان بها وان لم يصب في ذلك نزل الوحي من الله معلما ومقررا الحق والصواب كما هو واضح في قصة الذين استأذنوه صلى الله عليه وسلم في التخلف عن غزوة تبوك فاذن لهم (١) وكذلك مسألة اسرى بدر (٢) وصلاته صلى الله عليه وسلم على رأس المنافقين عبد الله بن ابي بن سلول (٣) وما الى ذلك .

وبعد ذلك نلقي بعض الاضواء على عهد الخلفاء الراشدين لنرى منهجهم في مجال الحكم والمال وسيرهم في تنظيم شئون المسلمين وفهمهم لمهمة الخلافة التي تولوها ومعرفتهم لحدود وظيفتهم وكيف واجهوا المشكلات التي استجدت في عهدهم او باختصار كيف طبقوا تعاليم الاسلام وقيمه وتوجيهاته في مجال سياسة الحكم والمال في واقع حياتهم على تلك الصورة الناصعة المشرقة التي لم تتكرر في التاريخ .

لقد كان عهد الخلافة الراشدة فترة رائعة في التطبيق العملي الكامل لمبادئ الاسلام وقيمه وتعاليمه وتوجيهاته واخلاقياته ليس فقط في مجال سياسة الحكم والمال وانما في جميع مجالات الحياة ، انها فترة ممتازة في حياة الامة الاسلامية رغم ان هذه الصورة الممتازة لم تعمر طويلا حيث لم تستمر عند الاجيال الاسلامية اللاحقة على طول تاريخ هذه الامة . وليست العلة في ذلك راجعة الى طبيعة النظام الاسلامي في حد ذاته ولكن كانت هناك عوامل متعددة وأحوال وظروف ألمت بالمسلمين وأدت الى فتن عويصة قاصمة كانت تزداد شدة وتفاقما

---

(١) سورة التوبة آية (٤٢ وما بعدها)
(٢) سورة الانفال آية (٦٧ - ٦٨)
(٣) سورة التوبة آية (٨٤)

على مر العصور وتعاقب الأجيال - على ماسنبينه فيما بعد - " ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (١) " وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير. (٢)

جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال .. " وأن امتكم هذه جعلت عافيتها في أولها وان آخرها سيصيبهم بلاء وامور ينكرونها تجيء فتنة فيدقق بعضها لبعض فتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف ثم تجيء فيقول هذه مهلكتي ثم تنكشف فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الاخر وليأت الى الناس الذي يحب أن يؤتى اليه ومن بايع اماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ان استطاع فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الاخر . " (٣)

وأما عن منهاج الخلفاء الراشدين في سياسة الحكم فاننا سنوجز الحديث عنه مكتفين بذكر اهم الاسس والمبادىء التي قام عليها منهاجهم في هذا المجال . ونرى أن من خير مايوضح لنا هذا المنهاج ويبين لنا تصورهم للحكم هو الخطب التي ألقوها على الناس بعد توليتهم امر الخلافة ، وقد ضمنوها مجموعة من المبادىء والقيم الاساسية التي قررها الاسلام في سياسة الحكم وأوضحوا فيها الطريقة التي يسيرون عليها في تنظيم الامور العامة في المجتمع المسلم وذلك الى جانب الواقع الضخم الذي أقاموه في مجال التطبيق العملي لتعاليم الاسلام ، وكان خير شاهد على صدقهم ووفائهم واخلاصهم . فلنعرض بعضا من هذه الخطب لنرى مدى فهمهم للتصور الاسلامي الصحيح للحكم وادراكهم التام لمهمة الولاية

---

(١) سورة الرعد : آية (١١)
(٢) سورة الشورى : آية (٣٠)
(٣) رواه النسائي في كتاب البيعة باب ذكر ماعلى من بايع الامام واعطاه صفقه يده... الخ ١٥٣/٧ وابن ماجه في كتاب الفتن ، باب مايكون من الفتن ١٣٠٦/٢ .

والحكم في الاسلام .

خطب أبو بكر رضي الله عنه الناس في المسجد عقب البيعة فقال : " أما بعد أيها الناس فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فاعينوني وان أسأت فقوموني الصدق امانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه ان شاء الله والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم قط الا عمهم الله بالبلاء أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . (١) "

وقال في خطبة أخرى : " أما بعد فاني وليت هذا الامر وأنا له كاره ووالله لوددت أن بعضكم كفانيه الا وانكم إن كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً أكرمه الله بالوحي وعصمه به ألا وانما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فراعوني فاذا رأيتموني استقمت فاتبعوني وان رأيتموني زغت فقوموني واعلموا ان لي شيطانا يعتريني فاذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني لا أوثر في اشعاركم وأبشاركم . (٢)" وجاء في الخطبة التي ألقاها عمر بن الخطاب عقب البيعة قوله : " أيها الناس ما أنا الا رجل منكم ولولا أنني كرهت أن أرد امر خليفة رسول الله ماتقلدت امركم . . " وجاء في خطبته الثانية قوله : " ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها ، لكم على ألا أجتبي شيئا من خراجكم ولا ماأفاء الله عليكم الا من وجهه ولكم على اذا وقع في يدى الا يخرج منها الا في حقه ولكم على الا القيكم في المهالك ولا اجمركم في ثغوركم واذا غبتم في البعوث فانا أبو العيال ". وكذلك خطب على بن أبي طالب عقب البيعة فقال : " أيها الناس انما انا رجل منكم لي مالكم وعلى ماعليكم واني حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ماأمرت به . . ألا ان كل قطيعة أقطعها عثمان وكل ما أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فان الحق لا يبطله شيء ولو وجدته قد تزوج به النساء وملك الاماء وفرق في البلدان لرددته فان في العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق . أيها الناس . . ألا لا يقولن

---

(١) روى ابن اسحاق هذا الاثر في السيرة عن انس بن مالك وذكره السيوطي في تاريخ الخلفاء ص٧٧

(٢) اخرجه ابن سعد في الطبقات ٢١٢/٣ عن الحسن البصري

رجال منكم غدا قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجروا الانهار وركبوا الخيل واتخذوا الوصائف المرققة. اذا ما منعتهم ماكانوا يخوضون فيه وأصرتهم الى حقوقهم التي يعلمون حرمنا ابن ابى طالب حقوقنا . ألا وأيما رجل من المهاجرين والانصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته فان الفضل غدا عند الله وثوابه واجره على الله. الا وايما رجل استجاب لله ولرسوله فصدق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الاسلام وحدوده فانتم عباد الله والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية ولا فضل فيه لاحد على احد وللمتقين عند الله أحسن الجزاء" .

هذه الخطب البليغة وغيرها تشتمل على عدة مبادئ واسس مهمة في سياسة الحكم ، وهي في غاية البيان والوضوح بحيث لاتحتاج الى شرح أو تعليق ولكننا نذكر على سبيل المثال بعض ماورد فيها من القيم والمبادئ. ومن ذلك أن مهمة الحاكم تنفيذ أمر الله وأمر رسوله والحكم بين الناس بما أنزل الله على رسوله لاقامة الحق والعدل بينهم فالحاكم يستحق طاعة الرعية له ما أطاع الله ورسوله في تصريف أمورهم ولا طاعة له عليهم اذا عصى الله ورسوله وخالف أمرهما . وان واجب الرعية طاعة امره ما استطاعوا واعانته في امره ومؤازرته ومساندته مادام متقيدا بشرع الله كما أن من واجبهم ايضا تقديم النصح له وتقويمه اذا رأوا فيه اعوجاجا أو انحرافا عن منهج الله القويم ، ولا يجوز للحاكم أن يكمم أفواه الناس من الكلام فيما ينكرون عليه من الامور المخالفة لتعاليم الدين بل الواجب عليه ان يستمع لتوجيهاتهم ونصائحهم ويقبل الحق بصدر رحب ثم يبادر الى العمل بمافيه الخير والصلاح وفق هدى كتاب الله وهدى سنة رسوله ، وكذلك لا يجوز للرعية أن يسكتوا عما يجب التنبيه اليه والامر به من المعروف ومايجب النهى عنه من المنكر لان في ذلك هلاك الامة وذهاب قوتها وخيرها وفشو الفساد والشر والظلم بين الناس حتى يعمهم الله بعقاب أليم . ومن ذلك أيضا التزام الحاكم بفضائل الاخلاق وكريم الصفات كالصدق والاخلاص والعدل والوفاء والعفة وحب الخير للناس وما الى ذلك وتجنب مساوئ الاخلاق والصفات

الذميمة مثل الكذب والخيانة والظلم والتجبر والكبر والتعسف والعنف والطغيان والسعي بالفساد في الارض ونحو ذلك .

ومما ورد في هذه الخطب أيضا وجوب تطبيق مبدأ المساواة بين المسلمين جميعا ،فان واجب الراعي ان يسوى بينهم في اعطائهم حقوقهم ومطالبتهم بالواجبات فلا يفضل أحدهم على الاخر ولا يخصه بشيء الا بالحق فان الفضل عند الله يوم القيامه للمتقين ، ولا يقرب اليه احدا منهم ولا يخصه بأمر من الامور العامة أو يعطيه شيئا من المال العام ان كان قريبه او صديقة أو محبه بل عليه ان يلتزم حدود الحق والعدل في كل أمر فالظلم ظلمات يوم القيامة . وان الناس جميعا امام شرع الله سواء فمن اتبع امر الله واطاع ولي الامر فيما استطاع في حدود شرع الله وان كان فقيرا ضعيفا فهو قوى في ظل عدل الله ، قوى في ميزان الحاكم المسلم اذا ظلمه احد كان لزاما على الحاكم أن يأخذ له حقه كاملا من أي يد كانت . وأما من عصى امر الله وامر رسوله واعتدى على حقوق الاخرين معتمدا على قوة بأسه وسلطانه العريض فهو امام شرع الله وعند ولي أمر المسلمين ضعيف يجب اخضاعه لامر الله حتى يرد مافي يده من حقوق الاخرين . ومن المبادىء التي اشتملت عليها هذه الخطب أيضا واجب الحاكم في احقاق الحق وابطال الباطل وبذل أقصى الجهد في القضاء على الفساد والفواحش ورفع الظلم والجور وسد جميع مسالك الشر والهلاك ،واذا وقعت مظالم من بعض الولاة فان واجب الحاكم المسلم رفعها عن كواهل الناس ثم الاقدام بعزم وقوة على اصلاح الاخطاء وتقرير الحق لان الحق لا يبطله شيء والباطل لا يصير حقا بأي حال . وكذلك تؤكد بعض فقرات هذه الخطب واجب المسلمين في الدعوة الى دين الله والجهاد في سبيل الله لاعلاء كلمة الله ونشر الخير والصلاح والعدل بين بني البشر ، فما ترك قوم الجهاد الا أصابهم الله بالذل والهوان ، الى غير ذلك من الأسس والمبادىء التي تقوم عليها سياسة الحكم في الاسلام .

ولقد سار الخلفاء الراشدون في حكمهم بقوة وحزم واخلاص على هدى تعاليم الاسلام وتوجيهاته القيمة وترسموا في اعمالهم خطى المنهج النبوى العادل ولم ينحرفوا عنه قيد شبر ، فكان دستور حكمهم كتاب الله العزيز وسنة رسوله المطهرة لم يخرجوا عن حدود مبادئ الاسلام وتعاليمه وأسسه في قليل ولا كثير وبذلك أقاموا صرح الحق والعدل بين الناس . وكانوا يتبعون طريقة الشورى في تنظيم شئون المسلمين العامة ، وقد جعلوا من كبار الصحابة مجلس مشورة لا يبرمون امرا ولا ينقضونه الا بعد مذاكرتهم والاستئناس بنصيحتهم وما عندهم من احاديث الرسول ومأثوراته وكانوا كثيرا مايلجأون للشورى العامة فيدعون الناس الى الاجتماع في المسجد ويعرضون عليهم الامر الذى يهمهم فيستمعون لارائهم ويفيدون من اتجاهاتهم وأفكارهم ، أخرج ابو القاسم البغوى عن ميمون بن مهران قال : " كان أبو بكر اذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله فان وجد فيه مايقضى به بينهم قضى به وان لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله عليه الصلاة والسلام في ذلك الامر سنة قضى بها فان اعياه خرج فسأل المسلمين وقال : اتانى كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قضى فى ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع اليه النفر كلهم يذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء فيقول ابو بكر : الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ عن نبينا فان اعياه ان يجد فيه سنة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم فان اجمع امرهم على رأى قضى به . وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك فان أعياه أن يجد في القرآن والسنة نظر هل كان لابى بكر فيه قضاء فان وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به والا دعا رؤوس المسلمين فاذا اجتمعوا على امر قضى به [1] . " ومن الامور العامة التى تمت معالجتها عن طريق الشورى في عهد الخلفاء الراشدين مسألة اختيار [2] الخليفة وقتال [3] مانعى

---

(١) الامام السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ٤٧ - ٤٨

(٢) وقد وردت في ذلك آثار كثيرة ، انظر ابن هشام ٢ / ٣٧٢ - ٣٧٣ في قصة مبايعة أبي بكر وكذلك تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٧٤ - ٧٧ ، وعن استخلاف ابى بكر عمر والبيعة له ص ٩١ - ٩٣ وعن تعيين عمر الستة أهل الشورى وكيف تم اختيار احدهم خليفه ص ١٤٨ - ١٥٠ ، وعن مبايعة على بن ابى طالب ص ١٩١ - ١٩٢

(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ص ١٠٤ ، والمبرد الكامل في التاريخ ١ / ٣٤٣-٣٤٤ والسيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ٨٣ .

الزكاة ومسألة جمع (١) القرآن وتدوين (٢) الدواوين ومسألة (٣) الخراج وتطبيق مبدأ الضرورة في كثير من الاحداث المهمة كما في قصة المرأة التى زنت لحاجتها الشديدة الى الماء ، وغير ذلك من المسائل .

ولقد كان الخلفاء الراشدون على معرفة تامة وادراك كامل للمهمة التى تولوها من أمر المسلمين ، فهي لا تزيد في تصورهم على القيام بتنفيذ أمر الله وتحكيم شريعته بين الناس فلذلك لم يكونوا يعتقدون أبدا أن توليهم منصب ولاية امر المسلمين يجعل لهم حقوقا جديدة او امتيازات لم يكونوا يتمتعون بها قبل ذلك أو أنه يسقط عنهم شيئا من الواجبات والتكاليف التى يؤدونها سواء في ذوات أنفسهم أى بينهم وبين ربهم أوفى شئون عشيرتهم واخوانهم المسلمين . وماكان يخطر على بال أحدهم انه يملك حرية مطلقة في التصرف في شئون المسلمين العامة كيفما يريد وحسبما يهوى لا في شئون الحكم ولا في سياسة المال ولا فى غيرهما ولكنهم على العكس من ذلك كانوا يعرفون حدود وظيفتهم ومقدار الصلاحية المخولة لهم ، ويدركون عظم المسئولية والتبعات التى حملوها وان اعباءها لتنوء بجميع قواهم وطاقاتهم ان لم تتداركهم عناية الله وتوفيقه ، ولذلك كانوا دائما في يقظة تامة لطبيعة واجبهم وحدود مهمتهم يشعرون في كل لحظة شعورا عميقا ويحسون احساسا مرهفا بما عليهم من الواجبات نحو رعيتهم ، وكان هذا الاحساس المرهف مصاحبا لهم في كل ظرف وكل ملابسة حتى انهم كانوا يعدون انفسهم مسؤولين عن حاجة كل فرد من الرعية لا يعفيهم عن هذه المسؤولية عدم علمهم بذلك أو عدم رفع المحتاجين حاجاتهم اليهم بل كانوا يشعرون أن من واجبهم ان يتفقدوا احوال الناس ويسألوهم عن حاجاتهم .

---

(١) ثبت ذلك في الاثر الذى اخرجه البخارى عن زيد بن ثابت .
(٢) اخرج ابن سعد في ذلك اثرا عن جبير بن الحويرث انظر الطبقات ٣ / ٢٩٦
(٣) اقرأ قصة الخراج في الماوردى ، الاحكام السلطانية ص ١٣١ - وابو يوسف ، الخراج ص ٢٩ - ٣٠ ويحي بن آدم الخراج ص ٢٧ - ٢٨ ، ٤٨

عن أبي صالح الغفاري : أن عمر بن الخطاب كان يتعاهد عجوزا كبيرة عمياء في بعض حواشي المدنية من الليل فيستقي لها ويقوم بأمرها فكان اذا جاء وجد غيره قد سبقه اليها فأصلح ما أرادت فجاءها غير مرة كلا يسبق اليها فرصده عمر فاذا هو بأبي بكر الصديق الذي يأتيها وهو يومئذ خليفة فقال عمر أنت هو لعمري (١) .

ومما يدل على شدة حساسية عمر بن الخطاب وشعوره العميق بحق المسلمين عنده ومسئوليته عن كل فرد من أفراد المجتمع المسلم ما جاء في الاثر الذي رواه زيد ابن اسلم عن ابيه ان عمر بن الخطاب طاف ليلة فاذا هو بامرأة في جوف دار لها وحولها صبيان يبكون واذا قدر على النار قد ملأتها ماء ،فدنا عمر بن الخطاب من الباب فقال يا أمة الله ايش بكاء هؤلاء الصبيان ؟ فقالت بكاؤهم من الجوع قال فما هذه القدر التي على النار ؟ فقالت قد جعلت فيها ماء اعللهم بها حتى يناموا او همهم ان فيها شيئا من دقيق وسمن فجلس عمر فبكى ثم جاء الى دار الصدقة فأخذ غرارة وجعل فيها شيئا من دقيق وسمن وشحم وتمر وثياب ودراهم حتى ملاء الغرارة ثم قال يا أسلم احمل على فقلت يا أمير المؤمنين انا احمله عنك فقال لي لا أم لك يا أسلم انا احمله لاني انا المسئول عنهم في الاخرة قال فحمله على عنقه حتى اتى به منزل المرأة قال واخذ القدر فجعل فيها شيئا من دقيق وشيئا من شحم وتمر وجعل يحركه بيده وينفخ تحت القدر قال أسلم وكانت لحيته عظيمة فرأيت الدخان يخرج من خلل لحيته حتى طبخ لهم ثم جعل يغرف بيده ويطعمهم حتى شبعوا ثم خرج وربض بحذائهم كأنه سبع وخفت منه ان اكلمه فلم يزل كذلك حتى لعبوا وضحكوا ثم قال يا أسلم اتدري لم ربضت بحذائهم قلت لا يا أمير المؤمنين قال رأيتهم يبكون فكرهت ان اذهب وادعهم حتى أراهم يضحكون فلما ضحكوا طابت نفسي (٢) . وقد كان عمر بن الخطاب يعد نفسه مسئولا عن اخطاء عماله وولاته وما كان يعتقد أن مجرد حسن اختياره لهم يعفيه عن هذه المسئولية فلذلك اوجب

---

(١) اخرجه ابن الاثير في اسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/٢٢٣

(٢) ابن الاثير في نفس المصدر ٣/٦٦٢ - ٦٦٣

على نفسه متابعة اعمالهم ومحاسبتهم كلما لزم الامر ذلك وقد قال رضى الله عنه مرة لمن حوله " أرايتم اذا استعملت عليكم خير من اعلم ثم امرته بالعدل اكنت قضيت ماعلى ؟ قالوا نعم قال لا حتى انظر في عمله لأرى عمل بما أمرته أم لا " . وقد جعل عمر موسم الحج وقت استطلاع ومحاسبة فكان يستقبل فيه ولاته فيسمع منهم ويستقبل المسلمين من جميع المناطق ويسألهم عما يشكون منه ـ وكذلك يستقبل الذين يوفدهم الى مختلف المناطق ليروا احوال الناس وسلوك الولاة ثم كان يعطى كل ذى حق حقه كاملا دون تردد أو خوف او محاباة (١) .

ومن خلال كل ماتقدم في الحديث نرى نوع الحكام الذين رباهم الاسلام من الجيل الاول من المسلمين وكيف اعدهم اعدادا نموذجيا فريدا حتى ارتفعوا الى مستوى عال من المعرفة بتعاليم الاسلام وقيمه ومبادئه وبلغوا منزلة رفيعة سامقة في الايمان والتقوى والصلاح والاخلاص فكانوا احرص الناس على اقامة الحق والعدل بين الناس والالتزام بتعاليم الاسلام واخلاقياته واقامة دين الله وتنفيذ شرعه في الارض وكانوا حكاما ورعين اتقياء ماكانوا يتطلعون الى الولاية ولا يحرصون عليها ولا يطلبونها ، وقد ولوا هذا الامر وهم له كارهون ولولا اشفاقهم من وقوع الفتنة على المسلمين وحرصهم على خيرهم وصلاحهم ماتقلدوه ولطالما كانوا يرجون لو أن غيرهم كفاهم ذلك لعلمهم بعظم المسؤولية وثقل الاعباء ، وعن عبد الرحمن بن عوف قال : خطب ابو بكر فقال : والله ماكنت حريصا على الامارة يوما ولا ليلة قط ولا كنت راغبا فيها ولا سألتها الله في سر ولا علانية ولكنى اشفقت من الفتنة ، ومالى في الامارة من راحة لقد قلدت امرا عظيما مالى به من طاقة ولا يد الا بتقوية الله . " (٢)

ولقد تجرد هؤلاء الخلفاء لله تجردا كاملا ونسوا انفسهم واهليهم منذ تولوا امر المسلمين وقد بلغوا من التنزه والتقى والاخلاص مبلغا رفيعا حتى كانوا

---

(١) انظر ابن سعد ، الطبقات ، ٣/٢٩٣ - ٢٩٤ ، وكذلك ٢٨١

(٢) اورد هذا الامام السيوطي هذا الاثر في تاريخ الخلفاء ص ٧٧ - ٧٨ وقال اخرجه موسى بن عقبة في مغازيه والحاكم وصححه .

وكأنما ليس لهم في الحياة هوى أو مصلحة ، وبذلك استطاعوا ان يقيموا بين الناس عدلا منزها لا يعرف محاباة ولا مجاملة ولا مصالح ذاتية ولا قرابة او صداقة وانما يعرف حدود شرع الله الذى يطبق بين الناس جميعا ليعيشوا في ظل عدله الله آمنين مطمئنين . وكذلك كانوا حكاما رحماء متواضعين ورعين يحيون حياة التزهد والحرمان والشظف ويأخذون ادنى مايحل لهم من مال المسلمين وكثيرا ماكانوا يتحرجون ويتعففون من الشيء اليسير الذى رضوه لانفسهم من ذلك ومن عطاء بن السائب قال لما استخلف ابو بكر أصبح غاديا الى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فقالا له : أين تريد ياخليفة رسول الله ؟ قال السوق ،قالا تصنع ماذا وقد وليت امر المسلمين ؟ قال فمن اين اطعم عيالي ؟ قالا له انطلق حتى نفرض لك شيئا فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاه وماكسوه في الرأس والبطن (١) . " ولما أشرف ابوبكر على الموت لم تطب نفسه بما أخذ من مال المسلمين نظير تفرغه لمصالحهم فقال : " ان عمر لم يدعني حتى اصبت من بيت المال ستةآلاف درهم وان حائطي الذى بمكان كذا وكذا فيها ، فلما توفي ذكر ذلك لعمر فقال يرحم الله أبا بكر لقد أحب ان لا يدع لاحد بعده مقالا (٢) . " ومن ابى بكر بن حفص قال : قال أبو بكر - لما احتضر- لعائشة رضى الله عنها : " .. اما انا منذ ولينا امر المسلمين لم نأكل لهم دينارا ولا درهما ولكنا قد اكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير الا هذا العبد الحبشي وهذا البعير الناضح وجرد هذه القطيفة فاذا مت فابعثي بهن الى عمر وابرئي منهن ففعلت فلما جاء الرسول عمر بكى حتى جعلت دموعه تسيل في الارض ويقول رحم الله ابا بكر لقد اتعب من بعده رحم الله ابا بكر لقد أتعب

---

(١) اخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/١٨٤ من طريق مسلم بن ابراهيم

(٢) المصدر نفسه ٣/١٩٣ من طريق يزيد بن هارون .

من بعده (١) ، وجاء في الاثر الذى رواه الاحنف بن قيس ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل يوما عما يحل له من مال الله تعالى فقال : " انا اخبركم بما استحل منه ، يحل لى حلتان حلة في الشتاء وحلة في القيظ وما احج عليه واعتمر من الظهر وقوتي وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ثم انا بعد رجل من المسلمين يصيبني ماأصابهم (٢)" وعن البراء بن معرور ان عمر خرج يوما حتى أتى المنبر وكان قد اشتكى شكوى فنعت له العسل وفي بيت المال عكة فقال : ان اذنتم لى فيها أخذتها والا فهى على حرام فأذنوا له " (٣)

واذا كان العهد بالحكام انهم يجمعون الاموال بنهم وطمع بالغين ويزيدون في ثرواتهم من أى طريق كان ، معتمدين على قوة السلطان والشرف حيث لا يخضعون للمراجعة والمحاسبة امام احد من الرعية فيما يأخذونه لانفسهم من الاموال العامة مهما كان كثيرا ، فاننا قد رأينا لأول مرة في الاسلام حكاما كانوا قبل اسلامهم أو بعده اغنياء ثم فقدوا اموالهم من كثرة انفاقهم منها في سبيل الله . وكان مثلهم الاعلى في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان فقيرا ذا عيال فاغناه الله عمن سواه " الم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى (٤)" وقد خيره ربه بين أن يكون ملكا رسولا أو عبدا رسولا فاختار أن يكون عبدا رسولا . وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم أهله ويبيت على الطوى وقد مات عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند يهودى في قوت عياله .

وكان ابو بكر غنيا قبل الاسلام وكان له في منزله من ربح تجارته يوم أسلم أربعون الف درهم ولما خرج الى المدينة في الهجرة لم يبق له من ذلك سوى خمسة آلاف فقد أنفق كله في الرقاب والعون على الاسلام (٥) . ثم انه لم يزل

---

(١) اخرجه ابن سعد في الطبقات ١٩٦/٣ ، واورده السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٨٨
(٢) اخرجه ابن سعد ، نفس المصدر ٢٧٥/٣ – ٢٧٦ من طريق اسماعيل بن ابراهيم
(٣) جلال الدين السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٥٤
(٤) سورة الضحى ايات (٦ – ٨)

(٥) ابن الاثير ، اسد الغابة في معرفة الصحابة ٢٢٣/٣

كذلك في دار الهجرة وكان يعيش من رزقه في التجارة وينفق أكثر ما يحصل عليه من ربح في سبيل الله حتى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ان من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخوة الاسلام ومودته "[١].

وأما عمر فكان رجلا فقيرا ومع ذلك فقد جاء يوما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصف ماله لينفقه في سبيل الله فسأله رسول الله ما أبقيت لأهلك، فقال مثله[٢]. ولما أصبح خليفة على المسلمين وقد امتد الاسلام في عهده الى بلاد الفرس والروم وسوريا ومصر وغيرها وكثر عدد رعيته وانفتحت أبواب الخير على المسلمين وكثرت موارد بيت المال الذي تحت يده لم يزل عمر يسكن في بيته الصغير وكان أحيانا ينام في المسجد على حصير يؤثر في جنبه ويرتدي لباس الفقراء، قال قتادة " كان عمر يلبس - وهو خليفة - جبة من صوف مرقوعة بعضها بأدم " وقال أنس: " رأيت بين كتفي عمر أربع رقاع في قميص له "[٣].

وأما عثمان رضي الله عنه فكان من أغنى تجار العرب، وقد أنفق أكثر ماله في سبيل الله . وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان الى النبي عليه الصلاة والسلام بألف دينار حين جهز جيش العسرة ففرغها عثمان في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يقلبها ويقول: " ما ضر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب قول النبي " سدوا الابواب الا باب أبي بكر ٤ / ١٩١ عن ابي سعيد الخدري .

(٢) انظر الحديث بتمامه في سنن الترمذي كتاب المناقب باب في مناقب ابي بكر وعمر ٥ / ٦١٤ - ٦١٥ عن عمر بن الخطاب .

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣ / ٣٢٧ من طريق عفان بن مسلم، وذكره السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ١٤٣ .

عثمان ما عمل بعد هذا اليوم قالها مرارا "(١) وكذلك كان على بن ابى طالب ـ فقد روى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال : دخلت على على بن أبى طالب عليه السلام فاذا بين يديه لبن حامض آذتنى حموضته وكسر يابسة فقلت يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا ؟ فقال لى يا أبا الجنوب كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا ـ وأشار الى ثيابه ـ فان لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به . "

وأما منهج الخلفاء الراشدين فى سياسة المال فهو قائم على روح الاسلام العامة وفكرته الشاملة وتابع لتصورهم الصحيح لسياسة الحكم وطريقة تسيير دفته ومعرفتهم لحدود وظيفة الراعى وحقوق الرعية. وكما هو معلوم فى الشريعة الاسلامية أن الشارع الحكيم لم يضع فى سياسة الحكم ولا فى سياسة المال تفصيلات ثابته جامدة حتى لا تصطدم بالنمو المطرد والتطور المستمر فى أحوال الجماعة المسلمة على مر العصور وتعاقب الاجيال ولكنه فى الوقت نفسه لم يترك الناس يتصرفون فى شئون الحكم والمال على هواهم من غير أن يضع لهم أصولا ثابتة وقواعد كلية وتوجيهات عامة يسيرون على هديها فى وضع منهاج العمل ورسم الخطط وتنفيذها وكيفية اتخاذ الاساليب المناسبة لمعالجة أوضاع المجتمع وحل مشكلات الناس المستجدة فى هذا المجال ففى سياسة المال لم يحدد الاسلام طريقة معينة لاشتراك الناس فى مال الله الذى أعطاه الجماعة هل تكون طريقة الاشتراك بتأميم المرافق العامة أو باشراك العمال فى رأس المال وتقسيم الربح أو تكون باعطاء العمال أجورا تكفل حاجاتهم الضرورية فى الحياة ، لم يحدد الاسلام صورة معينة من هذه الصور أو غيرها وانما ترك الأجيال المتعاقبة تفكر لنفسها وتختار الصورة التى تناسب ظروفها وتتلاءم مع أحوالها وامكاناتها فى حدود تعاليم الاسلام وقيمه وتوجيهاته .

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب المناقب باب مناقب عثمان بن عفان ٥/ ٦٢٦ عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة وأخرجه الحاكم فى كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر مقتل أمير المؤمنين عثمان ٣ / ١٠٢ عن عبد الرحمن بن سمرة .

لقد كانت سياسة المال في المجتمع المسلم على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفترة الخلافة الراشدة تسير وفق التصور الاسلامي الصحيح وعلى هدى تعاليم الدين وأسسه القويمة ، كان المال العام مال الجماعة ولا حق للحاكم بنفسه أو بقرابته أن يأخذ منه شيئا الا بحقه وكذلك العمال والولاة ولا حق للحاكم ولا لواليه أو عامله أن يعطي أحدا من هذا المال الا بقدر ما يستحق .

وفي أيام الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن موارد بيت المال وفيرة لاسباب كثيرة منها أن المهاجرين قد اضطروا الى ترك ديارهم وأموالهم فرارا بدينهم وأصبحوا في مهجرهم فقراء مساكين فوسعهم الانصار وشاركوهم أموالهم ، وكان عدد المسلمين بعد محدودا ، وقبل فرض القتال لم يكن لبيت المال مورد غير الزكاة وهو يومئذاك مورد ضئيل لا يفي بحاجات الفقراء لقلة عدد الاغنياء . وكانت أموال الزكاة مع قلتها تصرف للاصناف الثمانية المذكورة في سورة التوبة (١) . ولما فرض القتال زاد مورد آخر هو الغنيمة - ويقرر الاسلام للمحاربين منها أربعة أخماس وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعطي الراجل سهما والفارس ثلاثة أسهم كما كان يعطي الأعزب سهما والمتزوج سهمين . وأما الخمس الباقي من الغنيمة فكان صلى الله عليه وسلم يوزعه حسب مصارفه المذكورة في سورة الانفال (٢) ، وكذلك كان يصرف الفيء للاصناف التي يصرف لها خمس الغنيمة على ما قررته الآيات الواردة في ذلك في سورة الحشر (٣) .
وعندما وقع أول فيء في غزوة بني النضير جعله الرسول صلى الله عليه وسلم للمهاجرين خاصة ولم يعط الانصار منه الا رجلين فقيرين وذلك لتحقيق التوازن بين الجماعة المسلمة .

---

(١) آية رقم (٦٠) .
(٢) آية رقم (٤١) .
(٣) آيات رقم (٦ - ٨) .

ولما جاءت فترة الخلافة الراشدة كانت موارد بيت المال وفيرة بسبب ما فتح الله على المسلمين من الفتوح العظيمة. وكان التصور الاسلامي الصحيح في سياسة المال هو السائد في المجتمع حيث ان الخلفاء الراشدين كانوا يسيرون في تصريف المال العام وفق هدى تعاليم الشريعة الاسلامية،لقد كان الخليفة يأخذ لنفسه من بيت مال المسلمين قدراً ضئيلا يفرض له مقابل تفرغه لرعاية مصالح المسلمين وانشغاله بذلك عن كسب الرزق لينفق منه على نفسه وعياله ، كما كان يعطي عماله وولاته وأصحاب الفرائض حسبما يستحقون وما بقي بعد ذلك يحفظه في بيت المال وينفق منه في مصالح المسلمين العامة وفي اعانة المحتاجين وفي تجهيز الجيوش للجهاد في سبيل الله . أخرج ابن سعد عن سهل بن أبي حيثمة وغيره أن أبا بكر كان له بيت مال بالسنح معروف ليس يحرسه أحد فقيل له يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الا تجعل على بيت المال من يحرسه ؟ فقال لا يخاف عليه قلت لم ؟ قال عليه قفل ، وكان يعطي ما فيه حتى لا يبقى فيه شيء فلما تحول أبو بكر إلى المدينة حوله فجعل بيت ماله في الدار التي كان فيها وكان قدم عليه مال من معدن القبلية ومن معادن جهينة كثير وانفتح معدن بني سليم في خلافة أبي بكر فقدم عليه منه بصدقته فكان يوضع ذلك في بيت المال فكان أبو بكر يقسمه على الناس نقرا نقرا فيصيب كل مائة انسان كذا وكذا وكان يسوي بين الناس في القسم الحر والعبد والذكر والانثى والصغير والكبير فيه سواء وكان يشتري الابل والخيل والسلاح فيحمل في سبيل الله واشترى عاما قطائف اتي بها من البادية ففرقها على ارامل أهل المدينة في الشتاء فلما توفي أبو بكر ودفن دعا عمر بن الخطاب الأمناء ودخل بهم بيت مال أبي بكر ومعه عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما ففتحوا بيت المال فلم يجدوا فيه دينارا ولا درهما ووجدوا خيشة للمال فنفضت فوجدوا فيها درهما فرحموا على أبي بكر . . . (١)" وأما عمر بن الخطاب فكان يقول " والله الذي لا اله الا هو ثلاثا ما من الناس أحد الا له في هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد احق به من احد

---

(١) الطبقات الكبرى ٢١٣/٣ من طريق محمد بن يحيى بن سهل وغيره .

الا عبد مملوك وما أنا فيه الا كأحدكم ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فالرجل وبلاؤه في الاسلام والرجل وقدمه في الاسلام والرجل وغناؤه في الاسلام والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه (١) " ويقول ايضا : انى انزلت نفسي من مال الله منزلة والى اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت اكلت بالمعروف فان ايسرت قضيت (٢) " وعند ما رتب عمر بن الخطاب المرتبات جعل لكل طفل من أطفال المسلمين نصيبا وكان يعطى الاسر بحسب عدد الاولاد فيها ، وكان في بادئ الامر لا يعطى الطفل الا اذا جاوز الرضاع ولكنه عدل عن ذلك فكان يعطى كل طفل نصيبا لا فرق في ذلك بين رضيع وغيره . (٣)

وهكذا نرى من خلال هذه النماذج الفريدة الحية في واقع المجتمع المسلم الاول في مجال سياسة المال ان المبرر الاكبر للاستحقاق من مال الجماعة انما هو الحاجة والجهد والمصلحة ،فالرجل يعطى حسب حاجته والرجل يعطى حسب مقدار جهده وغنائه في الاسلام وبلائه فيه . فالزكاة توزع على المستحقين الاصناف الثمانية لسد حاجتهم ، والفئ وخمس الغنيمة وخمس الركاز يصرف على مصارفه الخاصة وعلى المصالح العامة للمسلمين . والضمان الاجتماعي الذى أقره الاسلام لكل عاجز وكل محتاج والتكافل الاجتماعي العام لا يستحق الانسان نصيبه منهما الا بسبب الحاجة والمصلحة . ثم ان التفاوت في مقدار مايعطى الانسان من المال العام وتخصيص بعض الناس بالعطاء دون غيرهم قد يكون للحاجة والمصلحة كما يظهر من هديه صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده من

---

(١) الطبقات الكبرى ٣ / ٢٩٩ من طريق محمد بن عمر . واخرج عبد الرزاق نحوه في الكتاب المصنف ١١ / ١٠١ من طريق الزهرى وعكرمة بن خالد .

(٢) الطبقات الكبرى ٣ / ٢٧٦ من طريق وكيع .

(٣) انظر الاثر الذى اخرجه ابن سعد في ذلك في الطبقات الكبرى ٣ / ٣٠١ من طريق يزيد بن هارون وجاء فيه ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه امر مناديا فنادى " ألا لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فانا نفرض لكل مولود في الاسلام"

تقديم الأهم فالاهم والاحوج فالاحوج وتزويج العزب وقضاء ديون الغارمين واعانة ذوى الحاجة ، وفي اعطاء الاعزب حظا والمتزوج حظين . وقد يكون هذا التفاوت لمقدار الجهد المبذول في خدمة الدين والذود عن حماه وفي مصلحة الجماعة قياسا على مايعطى العاملين على الزكاة بسبب جهدهم وعملهم وعلى طريقة توزيع أربعة اخماس الغنيمة على المحاربين الفارس منهم والراجل . وقد تحقق في واقع المجتمع المسلم الأول مبدأ تحقيق التوازن الاقتصادى بين الجماعة المسلمة لئلا تكون مصادر الثروة دولة بين الاغنياء ، فعند الضرورة القصوى والحاجة الشديدة أوقيام الاوضاع السيئة الناتجة عن اختلال التوازن في المجتمع وظهور الفوارق الواسعة بين فئات المجتمع كان ولى أمر المسلمين يخصص الفقراء والمحتاجين ببعض المال العام أو يلزم الاغنياء القادرين بحمل قسط من الانفاق العام في سبيل محاولة انهاء الازمة القائمة واصلاح الاوضاع المختلة ولكى تتعادل المفارم في المجتمع المسلم ويعيش الناس في توازن وتقارب وتعاون وتساند وتحاب . أخرج ابن سعد عن ابى محمد بن الحجازى قال : " سمعت عمر بن الخطاب وهو يطعم الناس زمن الرمادة يقول : " نطعم ماوجدنا أن نطعم فان اعوزنا جعلنا مع أهل كل بيت ممن يجد عدتهم ممن لا يجد الى ان يأتي الله بالحيا (١)" . وروى عن ابن عمر أيضا ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال " لو لم أجد للناس من المال مايسعهم الا ان ادخل على كل أهل بيت عدتهم فيقاسمونهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بحيا فعلت ، فانهم لن يهلكوا عن انصاف بطونهم " . (٢)

---

(١) الطبقات الكبرى ٣/٣١٦ من طريق محمد بن عمر

(٢) المصدر نفسه ٣/٣١٦ من طريق محمد بن عبيد



الباب الثاني

خط الانحراف التاريخي في حياة الأمة الإسلامية ومجالات الانحراف عن جادة الإسلام في التاريخ الحديث والآثار السيئة التي ترتبت على ذلك في شتى مجالات الحياة في القرون الأخيرة .

الباب الثانــــي

الفصل الاول : خط الانحراف التاريخي في حياة الامة الاسلامية

من خلال ماتقدم من بحث حول المجتمع الاسلامي الاول رأينا الذروة العالية التي وصلت اليها الامة الاسلامية وسنرى فيما يأتي من فصول في دراسة احوال المجتمع الاسلامي المعاصر ـ الهوة السحيقة التي انحدرت اليها هذه الامة . ويجب علينــــا أن نمد جسرا تاريخيا يمتد من نهاية الفترة المثالية في حياة هذه الامة حتــى ينتهي الى الفترة الاخيرة البائسة التي يعيشها المسلمون اليوم ، فقد كان بيــن الفترتين نقلة بعيدة امتدت في احقاب وعهود كثيرة مرت على الاجيال الاسلاميـــة المتعاقبة خلال ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن على وجه التحديد وحصلت في هـــذه الفترة الطويلة من الزمن تغيرات خطيرة واحداث جسام انعكست اثارها على الحياة الاسلامية في شتى مجالاتها على طول الرقعة الاسلامية الفسيحة وعرضها . وان هذا التحول الخطير الذي بدأ في حياة المجتمع المسلم منذ انقضاء الفترة المثالية وأخذ هذا المجتمع في التدني والهبوط والانحطاط حتى بعدت الشقة بينه وبيــن ماضي الامة الاسلامية في رفعته وقوته وامجاده لايمكن بأي حال ان يكون قد حدث كله فجأة وبدون اسباب ، فسنن الله في حياة المجتمعات البشرية وتطورها قـــوة وضعفا وتبدل احوالها رفعة وانهيارا تأبى ذلك وترفضه " ذلك بان الله لم يــك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم "(١) .

لقد أنعم الله على هذه الامة بنعمة الاسلام ، فقدرت هذه النعمـــة حق تقدير وكانت جادة في الاخذ بالاسلام وتحقيق مبادئه وتعاليمه وتطبيق شريعته

---

(١) سورة الانفال اية (٥٣) .

فى جميع شئون حياتها ، وآمنت بربها حق الايمان وعبدته حق العبادة وقامت بواجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ونفذت ارادة الله فى الارض ، وجاهدت فى الله حق جهاده ، فبذلك تحققت فيها شروط الخيرية المطلقة من بين سائر الامم وتمكين الله لها فى الارض واستخلافه إياها فاصبحت قوة مستعلية فى الارض تقود البشرية الى الهدى والنور والخير والصلاح "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله "(١) ، " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا "(٢) وطالما بقى المسلمون محافظين على هذه الشروط مراعين عوامل قوتهم وعزهم فان وعد الله لهم متحقق على الدوام فالله لا يخلف وعده لعباده المؤمنين . ولكن لما بدأ المسلمون ينحرفون عن جادة الطريق ويخرجون عن الخط السوى كان لابد ان يصيبهم الانهيار والضعف والهوان حسب سنة الله فى خلقه ، والسنة الالهية لا تتبدل ولا تتحول أبدا " سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٣) " .ومن سنة الله تعالى ان الانحدار والانهيار فى حياة المجتمعات البشرية لا يحدث فجأة ولا يحدث بدون أسباب ، وهذا واضح فى تاريخ المجتمع المسلم الذى كان فى عهده الاول متين البناء قوى الاركان ثم بدأت تنخر فى كيانه عوامل الهدم من الداخل والخارج حتى أفقدته قوته وانهارت به فى حضيض الضعف والهوان رغم ان هذه

---

(١) سورة آل عمران اية (١١٠) .
(٢) سورة النور اية (٥٥) .
(٣) سورة الفتح اية (٢٣) .

العوامل لم تستطع أن تحطم قوة هذا المجتمع وتضعف تماسكه الا بعد قرون طويلة اصطلحت فيها العوامل المتعددة للنيل من الاسلام وكسر قوة المسلمين وتزايدت الانحرافات جيلا بعد جيل وانتشرت عوامل الفساد التدريجي وعمت أنحاء المجتمع فكانت الحال البائسة والظروف الحرجة التي يعيشها المسلمون في ارجاء العالم الاسلامي كله . ولا شك أن تحولا كبيرا قد وقع في حياة المسلمين وان انحرافا خطيرا قد حدث على طول تاريخ المجتمع المسلم وهذا ما يتضح للانسان عندما يقارن بين صورة المجتمع المسلم الاول وصورة المجتمع المعاصر لما بينهما من فارق كبير في كل اتجاه .

ولندرس الآن حركة هذا المجتمع وتطوره وسنن تغيره وتبدله في شتى مجالات الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية وغيرها في خلال أطواره التاريخية التي مر بها لكي نعرف كيف بدأ الانحراف وكيف أخذ خط هذا الانحراف في التوسع والامتداد حتى صارت حال المجتمع المسلم الى ما صارت اليه في عصور الانحطاط وفي القرنين الاخيرين بصفة خاصة . يقول أحد الادباء " أمران لا يحدد لهما وقت بدقة ، النوم في حياة الفرد والانحطاط في حياة الامة فلا يشعر بهما الا اذا غلبا واستوليا " . هذا الكلام وان صدق في حق كثير من امم الارض التي لا تسير على هدى الله ونوره فانه في حق هذه الامة غير صحيح البتة ، فواقع حياة هذه الامة أكبر برهان على تفنيد هذا القول لأن بدء الانحطاط والتدني في حياتها أوضح منه في حياة الامم الاخرى الجاهلية . فالاسلام خطه مستقيم لا اعوجاج فيه، وهديه بين واضح فأي انحراف او ميل عن صراط الله السوي وأي خروج عن طريقه المستقيم لابد ان يتبين ويظهر من اول الطريق " وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (١) " .

(١) سورة الانعام آية (١٥٣) .

المبحث الاول : العهد الاموى :

لقد بدأ الانحراف فى العصر الاموى محصورا فى زاوية ضيقة من الحياة الاسلامية وكانت المظاهر البارزة لهذا الانحراف تتمثل فى تحويل الخلافة الاسلامية الى ملك عضوض فى نظامه الوراثى وبحبحة الخلفاء والامراء فى بيت المال العام وظهور النعرة القبلية والجنسية فى المجتمع وظهور الفساد النسبى والتحلل الخلقى فى عاصمة الدولة الأموية .. ففى مجال سياسة الحكم تحولت الخلافة الاسلامية الى ملك عضوض يقوم على اساس النظام الوراثى . وقد نزع حق اختيار الخليفة من الجماعة وصار من اختصاص ولاة بنى أمية فأصبحت الجماعة غير حرة وغير مختارة فى تعيين امامها . وقد كانت الدولة - المتمثلة فى شخص الخليفة وحوله بنو أبيه - هى التى تفرض على الامة من تختاره لولاية العهد استنادا الى قوة الجند وسلطان الوراثة . وكان ولاة بنى أمية يلزمون الناس بالسمع والطاعة لكل من قدموه منهم لولاية الامر بما كانوا ينزلون على المخالفين والمنازعين لهم فى هذا الامر من أشد العذاب واقسى انواع العنت والتنكيل كما حدث لخصومهم العلويين والعباسيين وانصارهم . وقد كان بعض الصحابة الافاضل امثال عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن ابى بكر ومحمد بن على بن ابى طالب وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم يقبلون ويسلمون للامر الواقع خوفا من وقوع الفتن بين المسلمين وتفريق كلمتهم وتشتيت وحدة الامة ذاكرين ما حذرهم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم من شق عصا الطاعة ومفارقة الجماعة والدخول فى كل ما من شأنه ان يحدث الفتن بين المسلمين ويفرق وحدتهم مما جاء فى احاديث كثيرة عنه صلى الله عليه وسلم منها قوله صلى الله عليه وسلم:

" انكم سترون بعدى أثرة وامورا تنكرونها قالوا فما تأمرنا يارسول الله قال أدوا اليهم

حقهم وسلوا الله حقكم (١) ". وقوله عليه الصلاة والسلام: " من رأى من اميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فانه من فارق الجماعة شبرا فمات الا مات ميتة جاهلية (٢) ". وقد روى الثبت العدل عن محمد بن المنكدر قال قال ابن عمر حين بويع يزيد " ان كان خيرا رضينا وان كان شرا صبرنا " (٣) . وثبت عن حميد بن عبد الرحمن قال : دخلنا على رجل من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استخلف يزيد بن معاوية فقال : تقولون ان يزيد بن معاوية ليس بخير أمة محمد لا افقهها ولا اعظمها فيها شرفا وانا اقول ذلك ولكن والله لان تجتمع أمة محمد أحب الى من أن تفترق أرأيتم بابا دخل فيه أمة محمد ووسعهم أكان يعجز عن رجل واحد لو كان دخل فيه ؟ قلنا لا . قال أرأيتم لو أن امة محمد قال كل رجل منهم لا أريق دم أخي ولا آخذ ماله أكان هذا يسعهم ؟ قلنا نعم قال فذلك ما اقول لكم ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يأتيك من الحياء الا خير " (٤) . وهناك بعض كبار الصحابة خافوا من هول الفتنة واشفقوا على انفسهم من التلطخ والتدنس برزاياها فاعتزلوا موطن الفتنة وانحازوا الى خاصة أنفسهم طلبا للسلامة والخلاص متمطين بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي من تشرف لها تستشرفه فمن وجد فيها ملجأ او معاذا فليعذ به (٥) " . وكان هناك فريق من الناس اذ هلتهم الفتنة

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ستروں بعدى أمورا تنكرونها " ٨٧/٨ عن عبد الله بن زيد .
(٢) رواه البخاري في كتاب الفتن ٨/ ٨٧ .
(٣) القاضي ابوبكر بن العربي العواصم من القواصم ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٢٦ .
(٥) رواه البخاري في كتاب الفتن ٩٢/٨ .

وخافوا وطأة العذاب والاضطهاد الذى يصيب المخالفين لولاة بنى أمية فقعدوا عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما كان يقع من حكام بنى أمية من المخالفات فى مجال سياسة الحكم. وهذه المخالفات وان كانت فى حد ذاتها طفيفة ومحصورة فى زاوية ضيقة فى مجال الحكم الا انها كانت ذات قيمة فى ميزان الاسلام لانها تمثل بداية الانحراف الذى أخذت تتداعى منه مبادىء العدل الاسلامى فى مجال الحكم على مدار تاريخ الامة الاسلامية . وهكذا بدأ الانحراف فى بعض نواحى الحكم فى العهد الاموى حيث قصر الامويون الخلافة الاسلامية على بنى أبيهم وجعلوها خالصة لهم من دون المسلمين واحدثوا بدعة ولاية العهد بالوراثة واعتمدوا على ما فى ايديهم من القوة والسلطان فى فرض من يختارونه خليفة على المسلمين. ولما قدم معاوية ابنه يزيد لولاية العهد من بعده وتفرق الناس فى أمره لجأ الى سلطان القوة فى فرض ارادته على الناس واخضاعهم للامر الواقع حتى الذين يشهد معاوية نفسه انهم خير منه (١) مثل ابن عمر وغيره . وعن عكرمة ابن خالد عن ابن عمر قال : " دخلت على حفصة ونَسْواتُها تَنْطِف قلت قد كان من أمر الناس ما ترين فلم يجعل لى من الامر شىء فقالت الحق فانهم ينتظرونك واخشى أن يكون فى احتباسك عنهم فرقة فلم تدعه حتى ذهب فلما تفرق الناس خطب معاوية وقال "من كان يريد ان يتكلم فى هذا الامر فليطلع لنا قرنه فلنحن أحق به منه ومن ابيه قال حبيب بن مسلمة فهلا أجبته قال عبد الله : فحللت حبوتى وهممت ان اقول احق بهذا الامر منك من قاتلك واباك على الاسلام فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم ويحمل عنى غير ذلك فذكرت ما أعد الله فى الجنان فقال حبيب : حفظت وعصمت (٢) " وهكذا نرى كيف اصبح الترشيح

---

(١) اقرأ خطبة معاوية التى اعترف فيها بوجود من هو خير منه لولاية امر المسلمين وعد منهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو. البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ١٣٤/٨.

(٢) رواه البخارى فى كتاب المغازى باب غزوة الخندق ٥ / ٤٨.

والاختيار لمنصب الخلافة فى هذا العهد قائما على اساس مغاير لروح الاسلام وتوجيهاته السامية التى وضعت لتمكين الجماعة من تعيين الاصلح والاقوى على تنفيذ أمر الله - بارادة تهاورضاها وقبولها - من الاشخاص المرشحين الذين تتوفر فيهم شروط الاهلية من الاستقامة فى السيرة والقيام بحرمة الشريعة والعمل باحكامها والعدل بين الناس والنظر فى مصالحهم وحب الخير لافراد الامة والرفق بهم والقيام بأعباء الجهاد فى سبيل الله لحفظ بيضة الدين وتوسيع آفاق الدعوة فى مشارق الارض ومغاربها . وهكذا نرى أيضا كيف كانت عطية أخذ البيعة للخليفة أو ولى عهده تتم فى أجواء يسودها الترهيب والتسلط والتحكم حيث جنود الدولة تحيط بالجموع المحتشدة لاخذ البيعة وبوارق السيوف تلمع فوق رؤوس الناس فالويل كل الويل لمن تسول له نفسه المخالفة . نقل القاضى ابوبكر بن العربى الاخبار (١) المروية عن وهب بن جرير بن حازم فيما جرى من وقائع عند ما عهد معاوية بالولاية من بعده لابنه يزيد وعلق عليها قائلا : لسنا ننكر ولا يلفت بنا الجهالة ولا لنا فى الحق حمية جاهلية ولا ننطوى على غل لأحد من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بل نقول : " ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم " الا أنا نقول : ان معاوية ترك الافضل فى ان يجعلها شورى والا يخص بها احدا من قرابته فكيف ولدا ، وأن يقتدى بما أشار به عبد الله بن الزبير فى الترك أو الفعل فعدل الى ولاية ابنه وعقد له البيعة وبايعه الناس وتخلف عنها من تخلف . . . (٢) " وعلى هذا النحو سار الامر من بعد معاوية حيث استأثر بنو أمية بالولاية وتوارثوها فيما بينهم فأخذ المروانيون الامر من السفيانيين بعد

---

(١) راجع هذه الاخبار فى كتاب العواصم من القواصم ص ٢١٥-٢٢٢ .

(٢) العواصم من القواصم ص ٢٢٢ .

خلافة يزيد بن معاوية وظل فيهم حتى نهاية العهد الاموى . ولكن رغم هذا كله ظل الانحراف محصورا فى نطاقه الضيق ولم يستطع ان يسرى الى بقية الجوانب المهمة فى سياسة الحكم ذاتها . وقد كانت الدولة تقر بأن شريعة الله هى مصدرها الدائم لتصريف شئون الحياة وتنظيم علاقات الناس بعضهم مع بعض فى المجتمع المسلم كما تقر ايضا بان هذه الشريعة هى دستورها الوحيد الذى لا تقبل به بدلا ولا تعدل الى غيره تحولا . وفى الواقع العملى كان حكام الدولة الأموية حريصين كل الحرص على تحكيم شريعة الله وتطبيق روح الاسلام وتعاليمه وتوجيهاته فى كل شأن من شئون المجتمع ، ولم يكن الانحراف اليسير الذى ظهر منهم فى سياسة الحكم ليؤثر فى تصور افراد المجتمع المسلم لمفهوم الحكم فى الاسلام او يؤثر كثيرا فى سلوكهم العملى تجاه حكام بنى أمية بل ظل أثر هذا الانحراف مقصورا على حكام بنى أمية وامرائهم الذين أصبحوا يرون لانفسهم حقوقا وامتيازات تخصهم من دون بقية المسلمين ويتبعهم فى ذلك انصارهم المتملقون المستنفعون الذين يمدون لهم فى هذا الامر ويقرون لهم بهذه الحقوق الزائدة التى لا يعترف بها الاسلام . ولكن رغم كل ما تقدم من مظاهر هذا الانحراف فى الناحية العملية والسلوكية لهؤلاء الولاة فان تصورهم لمبادىء الشريعة الاسلامية وروح الاسلام وتوجيهاته كان صحيحا وسليما لم تشبه شائبة فلذلك رأينا الحكام ملتزمين بحدود الشريعة لا يتعدونها فى قليل او كثير ، ولم يجرؤ أحدهم ان يضع للناس قانونا خارج نطاق الشريعة فضلا من ان يعدل عن شريعة الله الى غيرها فى اى شان من شئون المجتمع وحتى فى تلك المخالفات التى تصدر منهم فيما يختص باشخاصهم واقربائهم فى شئون الحكم والمال فانهم كانوا يتحايلون على احكام الشريعة ويتوسعون فى حدود مهمة الحاكم وفى حدود الحق الذى أعطاه الاسلام فى عمل مايراه مناسبا لرعاية مصالح المسلمين ودرء المفاسد عنهم . يقول شيخ الاسلام

ابن تيمية في وصف أول الخلفاء الامويين " كانت سيرة معاوية مع رعيته من خيار سير الولاة وكان رعيته يحبونه" (١) . ويقول فيه ايضا "لم يكن من ملوك المسلمين ملك خيرا من معاوية ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خيرا منهم في زمن معاوية إذا نسبت أيامه الى ايام من بعده وأما اذا نسبت الى ايام ابي بكر وعمر ظهر التفاضل" (٢) . وقد ولي معاوية الشام للخلافة الراشدة مدة عشرين سنة ثم اضطلع بولاية امر المسلمين في الوطن الاسلامي الكبير مدة عشرين سنة أخرى" " فكان معاوية في الحالتين قواما بالعدل محسنا الى الناس من كل الطبقات يكرم أهل المواهب ويساعدهم على تنمية مواهبهم ويسع بحلمه جهل الجاهلين فيعالج بذلك نقائصهم ويلتزم في الجميع احكام الشريعة المحمدية بحزم ورفق ومثابرة وايمان . يؤمهم في صلواتهم ويوجههم في مجتمعهم ومرافقهم ويقودهم في حروبهم (٣) " .

واما في مجال سياسة المال فكان الانحراف فيه في هذا العهد متمثلا في بحبحة الخلفاء والامراء الامويين في اموال بيت المال حيث كان الخلفاء يتصرفون في الاموال العامة وكأنها أموالهم الخاصة التي هم في حل من التصرف فيها حسبما يرون أو يشاءون . فقد كانوا يطلقون ايديهم في المال العام ينفقون جانبا منه لتحقيق اغراض سياسية ومصالح شخصية وأمور اخرى جانبية مما لا يمت بصلة الى اهداف الاسلام في هذا المجال، وهذا - بطبيعة الحال - الى جانب مايقومون به من تحقيق الاهداف الانسانية والمصالح العامة التي تعود على افراد المجتمع بالخير والسعادة .

(١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ٣ / ١٨٩

(٢) المصدر نفسه ٣ / ١٨٥

(٣) من تعليق محب الدين الخطيب على كتاب العواصم من القواصم لابن العربي ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

كان خلفاء بنى أمية يستخدمون جانبا من المال العام فى تأليف القلوب وشراء الانصار والمؤيدين لكى يقفوا الى جانب الدولة يمكنون لها فى الارض ، وينصرونها فى التغلب على الجانب المنازع لها فى هذا الامر وكذلك كانوا يخصصون قسطا من هذا المال ليفرقوه على المتملقين والشعراء والمطربين الذين يغشون مجالس الخلفاء والامراء ويتزاحمون على ابوابهم طمعا فى العطايا والمنح فأصبحنا نسمع فى هذا العهد بخليفة يمنح عطاء ضخما لمغن او مطرب يقدر بالالاف من الدنانير او الدراهم كما نسمع بخليفة يعطى العطاء الجزيل لاحد اقاربه او محبيه يقدر بعشرات الالاف من الدنانير لا لعمل قام به او خدمة اداها للصالح العام وانما لمجرد القرابة او الصداقة . واما الامراء الامويون فقد اصبحت لهم امتيازات واسعة فكان الخليفة يخصهم ببعض الاموال العامة ويعطيهم قدرا كبيرا من الاعطيات والقطائع بين الحين والحين حتى تجمع لديهم اموال طائلة ونشأ فى صفوفهم مايشبه الاقطاع بما كانوا يملكون من الاراضى الواسعة والضياع الكثيرة والعدد الهائل من العبيد والجوارى الذين يستخدمونهم لمصالحهم . وكان هؤلاء الامراء وكبار رجال الحاشية يبعثرون الاموال التى فى ايديهم فى صنوف اللهو والتسلية واعمال الترف والترفيه . وانه ليمكن القول من غير مبالغة ان شطر اموال الامة او ثلثها على الاقل كان بلاشك فى ايدى بنى امية قد استأثروا به من غير وجه حق .

وقد كان فى العهد الأموى بيتان للمال : بيت المال العام الذى كانت موارده ومصارفه للجماعة وبيت المال الخاص الذى كانت موارده ومصارفه من خاصة الخليفة ولكن رغم اختلاف موارد ومصارف هذين البيتين فانا نجد ان قدرا كبيرا من

الاموال العامة كان يحمل الى بيت المال الخاص كما نجد ايضا ان مصـــارف خاصة كانت تؤ خذ من بيت المال العام . كانت العطايا وجميع نفقات دار الخلافة توخذ من بيت المال العام وكانت موارد بيت المال الخاص تأتى من وجوه متعددة منها الاموال المخلفة التى يتركها الخلفاء فى بيت المال الخاص ومال الخـــراج والضياع العامة الذى يجبى من اعمال فارس وكرمان واموال الجزية التى تأتى مـــن مصر والشام واموال الضياع والخراج بالسواد والاهواز والاموال التى يستفضلهـــا الخلفاء فى كل سنة وما الى ذلك (١) . ويظهر لنا مما تقدم كيف كان الانحـــراف فى سياسة المال فى العهد الاموى حين صرف الحكام جانبا من الاموال العامة فى وجوه لا تتفق مع مبادئ الاسلام وتوجيهاته ولا تحقق العدالة الاجتماعية بيـــن افراد الامة الاسلامية . وكان من آثار ذلك أن كثرت المظالم وبخس الناس بعض حقوقهم فى حين كان الخلفاء والامراء والوزراء يعيشون فى بحبوحة من العيـــش وكانت ثروة الامة دولة بينهم فتكدست فى ايديهم اموال طائلة وكان ذلك سببـــا لارتفاع مستوى الثراء والترف فـــى هذه الطبقة الى جانب حالة البؤس والفقـــر التى يعيشها بعض افراد المجتمع فاختل بذلك التوازن فى المجتمع وان كانت نسبة هذا الاختلال فى هذا العهد قليلة بالقياس الى العهد الذى جاء بعده . ولكن رغم ذلك كله لم يكن هذا الانحراف اليسير الذى وقع من الحكام الامويين فى مجال سياسة المال ليتمدى هذا الجانب المعين الذى وصفناه الى بقية الجوانـــب الاخرى المهمة فى هذا المجال . فقد كان هؤلاء الحكام يقرون بان المال مال الله وان الله قد اعطى هذا المال للجماعة وان الخليفة نائب عن الجماعة فى التصرف فيـــه حسبما يراه محققا للمصالح العامة . وكان الواقع العملى لهؤلاء الحكام قائما فى جملته

---

(١) اقرأ كتاب الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى تاليف ادم ميتز ترجمة الاستاذ محمد عبد الهادى ابوريدة .

على اساس هذا التصور الصحيح الا انهم توسعوا فى حدود هذا الحق المعطى لهم واصبحوا يتحايلون على مبدأ الاستحقاق واسباب التخصيص بالعطاء فيما يختص بأشخاصهم واقاربهم وانصارهم ومحبيهم فوسعوا على الجميع من المال العام. والى جانب ذلك كانوا يقومون بما عليهم من مطالب الدولة واعطاء الناس حقوقهم وانشاء المرافق العامة وتحقيق التكافل الاجتماعى بين افراد المجتمع والعناية باعداد الجند وتنظيم اعمال الجهاد لحماية البيضة وسد الثغور والظهور على اعداء الدين فى البر والبحر ونشر دعوة الاسلام فى الافاق . وكذلك كانوا حريصين على اقامة جميع العلاقات المالية من طرق الكسب ووسائل تنمية المال ووجوه انفاقه على هدى المبادىء والاسس الاسلامية حتى يكون التعامل بين افراد المجتمع قائما على اساس المحبة والتعاون وحب الخير للناس.

ومن مظاهر الانحراف كذلك ظهور النعرة القبلية والجنسية فى المجتمع فمنذ ايام الحكم الاموى ظهرت النعرة القبلية والجنسية ونشط الصراع بين بعض القبائل العربية .كما اشتد النزاع بين العرب والفرس بوجه خاص . وقد عادت العصبيات الجاهلية تمط عملها فى هدم كيان الامة وتفريق وحدتها واضعاف قوتها حيث وقع عداء شديد ونزاع عنيف بين بنى امية وبنى هاشم والعلويين والعباسيين . وكذلك كان هناك نزاع وعداء بين القحطانية والعدنانية فى مختلف البلدان والاقطار كالشام والعراق والاندلس وخراسان . ووقع من الامويين ضغط شديد على الفرس بصورة لا تتفق مع روح الاسلام ومبادئه السامية فكان رد فعل هذا الصنيع من العناصر الفارسية ان اشتد حقدها على العرب واصبحت تنظر اليهم نظرة عداء شديد وتتحين الفرصة للكيد لهم والانتقام منهم ، ولم يغب عن بال هؤلاء الفرس

ان مايدبرونه للعرب من المكايد وما يحيكونه لولاة امر المسلمين من مؤامرات سيضر ولا شك بهذا الدين ويقوض بناء المجتمع المسلم ويضعف قوة المسلمين حين يصبح مجتمعهم مسرحا للاحداث الجسام التي تراق فيها الدماء وتهتك فيها الحرمات وتداس فيها الحريات وهذا ما حدث في النهاية اذ لم تزل العناصر الفارسية المتهورة تنشط في تدبير المكايد وحياكة المؤامرات ضد الدولة الاموية حتى استطاعت ان تسقطها في نهاية الامر بوقوفها الى جانب بني هاشم .

والى جانب تلك الانحرافات السابقة كان الفساد والتحلل الخلقي النسبي الذي ظهر في عاصمة الدولة الاموية بسبب انفتاح الدنيا على هذه الامة وكثرة الاموال ودخول الشعوب والاجناس المختلفة في الاسلام والتقاء الحضارة الاسلامية بحضارات هذه الشعوب وتقاليدها التي كانت مناقضة ومنافية لروح الاسلام وقيمه وتعاليمه فحدث ان انتقل مع هذه الشعوب الى المجتمع المسلم شيء قليل من مظاهر الفساد التي كانت تنشأ في اجواء تلك الحضارات ظهرت اثارها في العاصمة وفي صفوف الاسرة الحاكمة ورجال حاشيتهم بصفة خاصة .

ولكننا نعود بعد ذلك كله لنقرر ان المجتمع المسلم في هذا العهد - رغم تلك الانحرافات التي ذكرناها - ظل مجتمعا اسلاميا في مجموعه حيث بقي محتفظا بكيانه المتميز وبنائه المتين لم تؤثر الانحرافات في عوامل قوته ونهضته ولم تعوقه عن الانطلاق بدعوة الاسلام في الافاق . فقد كان معظم المسلمين جادين في الاخذ بالاسلام والالتزام بحدود الشريعة في جميع امورهم وكانوا يعيشون في مفهوم الاسلام الشامل ويطبقون تعاليم الدين ومبادئه وقيمه في شئونهم الخاصة والعامة . وكانت اخلاقيات الاسلام ومبادئه في العدالة الاجتماعية والاخاء الاسلامي

ونحو ذلك تظلل المجتمع بظلالها الوارفة . وكان المسلمون حريصين على نشــــر الدعوة فى ربوع الارض فواصلوا الجهاد الاسلامى بكل عزم وقوة فكانت راية الاســلام تخترق الافاق برا وبحرا على ايدى المجاهدين المسلمين لدعوة الناس الى ديـن الحق . وبذلك كله استطاعوا ان يحققوا العزة التى ارادها الله لهذه الامــة خلال فترة قصيرة من الزمن .

...

المبحث الثانى : العهد العباسى :

ان الانحرافات التى ظهرت فى العهد الاموى قد ازدادت حدة وتعمقا فى شئون حياة المجتمع المسلم خلال العهد العباسى ونشأت الى جانب ذلك انحرافات اخرى خطيرة فى الحياة الاسلامية .

ففى مجال سياسة الحكم كان الملك العضوض بنظامه الوراثى الذى تحولت اليه الخلافة الاسلامية منذ العهد الاموى قد استقرت دعائمه ورسخت قوائمه فى الحياة الاسلامية السياسية . ويضاف الى ما تقدم شرحه حول انحراف حكام بنى أمية فى سياسة الحكم أن مطالبة بنى هاشم بولاية الحكم على المسلمين قبل قيام الدولة العباسية وحصر الحكم فيهم بعد ذلك بالوراثة كانت تستند الى اساس القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم التى تجعلهم - فى نظرهم - احق الناس بهذا الامر . ولئن كانت وراثة الحكم فى العصر الاموى تتم بصورة تضمن - فى اغلب الحالات - اختيار الشخص الصالح الذى تتوفر فيه شروط الاهلية - وان كان يوجد امثاله أو من هو افضل منه احيانا من غير بنى امية - فقد صار الامر فوضى فى العصر العباسى حيث كانت وراثة الحكم تتم بالدور اكثر منها بالاختيار واعتبار الاهلية مما جعل ولاية العهد مثار نزاعات ومتاعب لخلفاء بنى العباس وبخاصة بسبب سياستهم فى ولاية العهد لاكثر من واحد اذ كان منهم من اختار اثنين او ثلاثة من ابنائه لولاية العهد من بعده بالتعاقب كما فعل هارون الرشيد وكان منهم ايضا من خلع ولى عهده وقدم عليه ابنه كما فعل المنصور ومنهم من حاول ذلك وفشل وهو محمد الامين . وقد كان ذلك سببا لحدوث نزاعات حادة داخل صفوف بنى العباس انفسهم حتى وصل الامر فى بعض الحالات الى ان يحارب بعضهم بعضا ويضرب بعضهم رقاب بعض فوقعت الامة المسلمة فى مشكلات عويصة

زادت فى حدة التوتر فى المجتمع . ونلاحظ ما آل اليه الامر فى العصر العباسى الثانى حين قبض الاتراك على السلطة الفعلية فى الدولة بسبب ضعف الخلفاء العباسيين واعتمادهم الكلى على العناصر التركية فى كثير من امور الدولة الكبرى حيث كان هؤلاء الاتراك يحرصون اشد الحرص على ان تظل ولاية العهد بالدور حتى اذا جاء الدور على شخص جاهل ضعيف او صبى دون العاشرة من عمره فلا يكون هناك اى مانع من ان يتولى هذا الامر وبذلك تسنح لهم الفرصة ليحققوا ماربهم ويعيثوا فى الارض فسادا . وقد عهد الخليفة المعتضد بالامر من بعده لابنه جعفر المقتدر وهو صبى دون سن الرشد وذلك بمشورة الاتراك المقربين اليه ودعمهم وتاييدهم . فيا ترى بيد من تكون السلطة الفعلية فى مثل هذه الحال؟ أفتكون فى يد صبى لا يحسن التصرف فى اموره الشخصية فضلا عن الامور العامة التى لا علم له بها ولا خبرة له فيها ام تكون فى ايدى هؤلاء الزعماء الاتراك الذين صار لهم نفوذ كبير وسلطان واسع فى ايام ابيه وايام الذين كانوا قبل أبيه .

واما فى مجال سياسة المال فان الانحراف الذى وقع من حكام بنى أمية فى بحبحتهم النسبية فى بيت المال العام قد زاد فى العصر العباسى وكثرت مظاهره وامتدت مجالاته نتيجة انفتاح الدنيا على هذه الامة وتدفق الاموال على الدولة من موارد الفىء والخراج والجزية والغنائم والزكاة ومن التجارة الواسعة التى يقوم بها المسلمون ومن ازدهار النشاط الصناعى وقيام النهضة العمرانية . ففى عهد الرشيد الذى يعتبر ذروة عهود بنى العباس كان المحمول الى بيت المال من مصر وحدها فى ايام الرشيد يبلغ مائة الف دينار فى كل سنة كما بلغ المحمول اليه من الزاب اربعين الف دينار كل سنة (١) . وذلك الى جانب مايحمل اليه من الاقاليم الاخرى، وان ايرادا

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٣ / ٢٢٨ .

كهذا فى تلك الايام كان ايرادا كبيرا . ومن ذلك فى خليفة كان يستلقى على ظهره وينظر الى السحابة المارة ويقول " اذهبى الى حيث شئت فسياتينى خراجك " وقد ترك الرشيد فى بيت المال تسعمائة الف الف دينار (١) ". وكان المعتضد يستفضل فى كل سنة من سنى خلافته بعد النفقات ما كان يحصله بيت مال الخاصة الف الف دينار حتى اجتمع فى بيت المال تسعة الاف الف دينار . وهكذا نرى كيف بسطت الدنيا على هذه الامة .

ولقد كان الخلفاء العباسيون يطلقون ايديهم فى الاموال العامة ينفقونها بسخاء لتاليف القلوب لا للاسلام كما قررته الشريعة وانما للدولة . فكانوا يعطون عطايا وهبات ضخمة لكسب الانصار والمؤيدين الذين يناصرون الدولة ويمكنون لها فى الارض من المتزلفين والمتملقين والشعراء كما يعطونها لاقربائهم وندمائهم وللملهين والمطربين والمغنين . وقد اصبحنا نسمع فى هذا العهد بخليفة يمنح قريبا له او شاعرا او مطربا عشرات الالاف او بضع مئات الالاف من الدنانير دون ان يثير ذلك استغراب الناس ولا استنكارهم . واما الامراء فقد زادت امتيازاتهم فكانوا يعطون العطايا والقطائع الكثيرة والعبيد والجوارى وكانت لهم ضياع واقطاعات واسعة فى بعض المدن الكبرى واملاك كثيرة فى البلاد المفتوحة . وكان بعضهم يعيشون حياة اقرب الى الاقطاعية منها الى الحياة الاسلامية الطاهرة التى تقوم على دعائم الحق والعدل الربانى . وكذلك كان الوزراء والقواد وكبار رجال الحاشية حيث صار لهم سلطان عريض واملاك واسعة . والبرامكة قبل نكبتهم على يد الخليفة هارون الرشيد كانوا يملكون اقطاعات واسعة فى بعض ضواحى

---

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٣/ ٢٩٩ .

العاصمة شيدوا فيها قصورا رفيعة شاهقة فيها كل الوان البذخ والترف .

بدأ الانحراف في سياسة المال في مجال ضيق كما رأينا ثم أخذ يزداد على تعاقب العهود مع انبساط الدنيا على الامة وكثرة ايراداتها المالية حتى أدى الامر في هذا العصر الى نشأة الترف في حياة المسلمين وما يسير دوما في ركاب الترف من الفساد والتحلل الخلقي وحياة العربدة والمجون والتفاهة . ومن المعلوم ان الترف في جميع حالاته داء قاتل وهو المعول الهدام لصرح حضارات الامم في التاريخ .

لقد بدأت مظاهر الترف في هذا العصر في مدينة بغداد العاصمة داخل قصور الخلفاء والامراء والوزراء حيث ظهرت فيها صنوف اللهو واللعب والطرب والوان الفساد والانحلال الخلقي متمثلة في الشراب والجواري - والجواري المغنيات والراقصات بصفة خاصة - والملهين والمطربين والشعراء والمغالاة في أدوات الزينة وفي الاكل والشرب واللباس ثم سرت العدوى الى قصور الاغنياء وكبار التجار الذين يملكون ثروات طائلة ثم اخذ هذا الترف في الانتشار والذيوع فتخطى حدود العاصمة الى بعض المدن الكبرى في العالم الاسلامي فانتقل الى قصور الامراء وحكام المناطق وقصور الاثرياء في الكوفة والبصرة ودمشق والقاهرة وخراسان ونيسابور وغيرها . وفي هذه القصور التي تموج بالرياش الفاخر والاثاث الثمين وتعج بالجواري والقيان تقام الحفلات الزاهية التي تزخر بالوان اللهو والطرب والغناء وما الى ذلك من الاعمال التي تلهي السراة المترفين وتصرف اهتماماتهم عن الامور المهمة والاعمال الجادة . وقد روى لنا التاريخ اخبار هؤلاء الجواري الحسان والمغنيات والراقصات اللاتي لعبن أدوارا بارزة في افساد قصور الخلفاء والامراء وشغلن بالهم بمكايد

النساء وحيلهن ما ألهاهم عن التفرغ لجديات الامور والتفكير فى المشكلات الجادة . وقد سجل التاريخ صورا من ترف الخلفاء العباسيين ومجونهم واستهتارهم نذكر منها هذه النماذج القليلة . ذكر المؤرخون ان الخليفة العباسى الاول ابا العباس السفاح كان فى اوائل ايامه يظهر للندماء ثم احتجب عنهم بعد سنة اشار عليه بذلك اسيد بن عبد الله الخزاعى فكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستارة " احسنت والله اعد هذا الصوت "وكان لا يحضره نديم ولا مغن ولا ملهى فينصرف الى بصلة او كسوة قلت او كثرت وكان لا يؤخر احسانه لغد "(١) . واذا كان الخليفة المنصور لا يشرب الخمر ولا يسمح بشرابه على مائدته فقد خطا الخليفة المهدى الخطوة الاولى بان سمح لندمائه بالشرب فى حضرته مع أنه كان لا يشرب واما الهادى والرشيد فقد كانا يشربان فى قصر أبيهما منذ كانا اميرين "(٢) . واما محمد الامين ابن الرشيد فقد ذكر انه " أرسل عقب بيعته فى طلب الخصيان وابتياعهم ووجه الى جميع البلدان فى طلب الملهين وضمهم اليه واجرى عليهم الارزاق ...... وقسم ما فى بيوت الاموال وما بحضرته من الجواهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلواته وعمل خمس حراقات فى دجلة على صورة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس وانفق فى عملها مالا عظيما . وهذان شاعرا الامين الحسين بن الضحاك وابونواس قد سجلا له مديحا طيبا نتبين منه ملامح مجونه وترفه الزائد حين وصفا حراقات دجلة ولياليه الاتى ينغمس فيها فى المرح واللهو وسط الجوارى والغلمان (٣) " ويروى ابن طباطبا ان الحسن بن

---

(١) انظر الجاحظ : التاج فى اخلاق الملوك ص ٣٣ ، والمسعودى : مروج الذهب ٢٧٩/٣ .

(٢) انظر ابن الاثير اسد الغابة ٦ / ٣٤-٣٥ ، وكذلك ابن طباطبا : الفخرى ص ١٢٥-١٢٧ .

(٣) اقرأ ديوان ابن نواس ، وكذلك فريد رفاعى " عصر المأمون " ٢٩٢/٣ - ٣٠٢ واقرأ ترجمة الحسين بن الضحاك فى كتاب الاغانى ١٦٥/٦ - ٢٠٥ .

سهل وزير الخليفة المأمون بذل فى زواج المأمون من ابنته بوران اموالا طائلة ونثر من الدرر مايفوق حد الكثرة وفرش للمأمون حصيرا منسوجا من الذهب ونثر عليه الف لؤلؤة من كبار اللؤلؤ (١) " ... ولا شك ان شيئا من مظاهر هذا الترف والفساد قد انعكس على المجتمع المسلم ولكن من الخطأ الفاحش أن نتصور ان المجتمع المسلم كله فى هذا العهد كان على صورة مدينة العاصمة وقصورها الزاخرة بالوان الترف والفساد وحياتها الماجنة المعربدة اذ المعلوم ان واقع الامر فى كل عصر وجيل يختلف كثيرا فى مدى قوة انتشار الفساد وذيوع الترف وتقبل الناس لدواعيه بين الحياة فى العاصمة والمدن الكبرى العامرة وبين الحياة فى القرى والارياف وحتى فى مدينة العاصمة نفسها يختلف الامر بالنسبة للافراد والاسر والجماعات.

والى جانب هذا الترف البالغ والانغماس فى متاع الحياة نشأت الصوفية وهى دعوة الى الحياة الروحية المحضة والتربية النفسية بالاستعلاء على متاع الحياة مع اتخاذ موقف سلبى انعزالى من مفاسد هذه الحياة من اجل تحقيق التطهر الخلقى والارتقاء النفسى . فالصوفية فى مفهومها هذا انحراف خطير فى فهم العبادة والزهد والتوكل على الله تعالى . وقد انعكست اثار هذا الفهم السىء المنحرف الذى بنيت عليه عقائد الصوفية على الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية فى العالم الاسلامى منذ العصر العباسى وظلت الصوفية بانحرافاتها تؤثر فى هذه المجالات وتزيد الشقة اتساعا بين المسلمين وحقيقة الدين وفهم مبادئه وقيمه على المعنى الصحيح الشامل واخذ يتزايد خطرها ويمتد فى الافاق حتى نهاية العصر العثمانى . وقد تكون نشأة الصوفية فى العصر العباسى امرا طبيعيا إذ إنها جاءت رد فعل للترف والفساد الذى انهمك فيه بعض الناس فى ذلك العصر

و(١) انظر تفاصيل القصة فى الفخرى لابن طباطبا ص ١٨٠.

ولكن يا ترى هل الحل المناسب للقضاء على المفاسد وكبح جماح النفس عن الشهوات واللذات والارتقاء بها من الاخلاد الى متاع الحياة هو بحرمان هذه النفس من المتاع والانعزال عن معترك الحياة خوفا من التلطخ بارجاسها ؟ حاشا وكلا

ولذلك فشلت الصوفية فى اصلاح المجتمع المسلم عن طريق اصلاح افراده اصلاحا جزئيا ناقصا ومتطرفا وبالتالى فشلت فى تحقيق القوة والعزة للامة الاسلامية فى شتى مجالات الحياة . ولو ان الحركة الصوفية اخذت بالمفهوم الاسلامى الصحيح فى الزهد والتوكل على الله وهو الاستعلاء على متاع الحياة مع الاخذ بوسائل القوة فى الحق وفى الجهاد فى سبيل الله والايجابية الكاملة فى الحياة والتفاعل التام مع نواميس الكون لكان لها الاثر الفعال فى القضاء على ادواء المجتمع ومشكلاته . ولكن الاتقياء المتطهرين واجهوا الفساد الذى انتشر فى المجتمع بالانعزال عن الناحية العملية والانتباذ فى زوايا المسجد والخلوات يرددون الاذكار والتسابيح ويقومون بانواع الرياضات النفسية تاركين الميدان فسيحا للشر وأهله ليعملوا وحدهم فى معترك الحياة دون محاولة تقويم اواصلاح او مقاومة حتى استشرى الشر وتنفس اهله الصعداء وعثوا فى الارض فسادا . ولا شك ان الصوفية بهذا المفهوم الخاطئ نبت غريب فى ارض الاسلام لشدة تأثرها بالاديان التى تدين بها الشعوب التى دخلت الاسلام أثناء مده الكبير فى الافاق كاليهودية والنصرانية والبوذية والهندوكية . وقد واكب الصوفية انحراف اخر هو التواكل وعدم الاخذ بالاسباب وهو نتيجة طبيعية لما يمكن أن تؤدى اليه انحرافات الصوفية بسبب سوء فهم الناس لحقيقة التوكل على الله حيث ظنوا انه يعنى القعود عن العمل وعدم بذل الجهد واهمال الاخذ بالاسباب اعتمادا على قدر الله وقضائه ، ولم يعلموا أن ذلك ليس من التوكل فى شىء وانما هو من التواكل الذى أصاب المسلمين حين بدأوا ينحرفون

عن حقيقة الاسلام وادى الى ضعفهم وتخلفهم وانحطاطهم . ان التوكل فى المفهوم الاسلامى هو اللجوء الى الله تعالى وطلب معونته والاعتماد عليه مع الاخذ بالاسباب التى تتحقق معها الغاية المنشودة . فالاسباب فى حد ذاتها لا تحقق الغايات بدون مشيئة الله تعالى والغايات ايضا لا تتحقق من تلقاء نفسها بدون اخذ اسبابها الا اذا اراد الله ذلك خرقا للعادة ، اذ هو الذى يرتب النتائج على الاسباب وهو على كل شئ قدير .

وأما النعرات القبلية والجنسية التى بدأت فى عهد بنى امية فقد اصبحت قوية متأصلة فى العهد العباسى وكانت تقوم بسببها النزاعات الحادة والصراعات العنيفة . وقد عادت العصبية القبلية الى حياة المجتمع المسلم بكل قوتها وطغيانها ومساوئها وفى صورة قريبة من صورتها البشعة فى الحياة الجاهلية . وقامت نزاعات عنيفة بين القبائل والعشائر العربية واشتدت بينهم روح العداء والنكاية وتفرقوا شيعا واحزابا يضرب بعضهم رقاب بعض وقد رأينا النزاع العنيف الطويل الذى قام بين بنى امية وبنى هاشم وراح ضحيته الالاف المؤلفة من المسلمين وكذلك قام صراع مرير بين العلويين والعباسيين طيلة العهد العباسى وقتل فيه من العلويين خلق كثير فى حروب دامية وامثال هذا العداء وهذه الصراعات الناجمة عن التعصبات القبلية كثيرة جدا . ثم الى جانب ذلك اشتد الصراع فى العصر العباسى بين العرب والشعوب التى دخلت فى الاسلام والفرس والترك بوجه خاص . وكان من اهم اسباب هذا الصراع حقد بعض هذه الشعوب على الاسلام الذى ازال عروش ملكهم ورفع العرب الى قمة القيادة والريادة على البشرية وكذلك اعتماد العباسيين على العناصر الفارسية والتركية فى الامور المهمة فى الدولة مما رفع شأن هؤلاء وجعلهم يحاولون استغلال الخلافة العباسية لمآربهم الشخصية وسلب السلطة

من ايدى الخلفاء . واما الفرس فقد انكشفت نياتهم الخبيثة منذ وقت مبكر من العهد العباسي الاول فأنزل الخلفاء العباسيون ببعض زعماء الفرس ألوانا من التنكيل والتعذيب حيث قتل ابوسلمة الخلال وابومسلم الخراساني والفضل بن سهل والمقنع الخراساني ونكل الخليفة الرشيد ببعض زعماء البرامكة . واما مشكلة الاتراك فقد بدأت منذ عهد الخليفة المعتصم الذى فتح لهم باب الدولة على مصراعيه فاتخذ منهم جيشه واكثر من استعمالهم فى الامور العامة وعين عليهم الرؤساء منهم ومنحهم سلطانا واسعا حتى انه قد اسلم الى يد الاتراك امر سلامته الشخصية حيث جعل منهم حرسه الخاص وسنحت الفرصة للاتراك ان يزحفوا تدريجيا الى السلطة الكاملة وخاصة فى عهد الواثق والمتوكل . وقد استطاعوا فى عهد المتوكل ان يهجموا على مقر الخلافة ويقتلوا الخليفة فبدأت منذ تلك الفترة سلسلة اعتداءات قاسية ظالمة من هؤلاء القساة الطغاة على الخلفاء استمرت طيلة عهد المماليك وامتدت الى عهد البويهيين . وقد تعرض الخلفاء خلال هذين العهدين لاعمال عنف شملت القتل وسمل العيون والايقاف فى الشمس المحرقة والضرب والخلع وما الى ذلك فقد اوقفوا المعتز بالله فى الشمس وضربوه ثم قتلوه بعد ذلك صبرا . كما قطعوا راس المقتدر والقوا جثته بالطريق عدة ايام واما المستكفى فقد خلعوه وسملوا عينيه ثم اعتقلوه حتى مات . والقاهر والطائع هما اخف الخلفاء عذابا فقد قبض عليهما الاتراك بقسوة وخلعوهما واهانوهما اهانة شديدة (١) .

ان الاحداث الداخلية الجسام التى وقعت خلال العهد العباسى والصراعات السياسية العنيفة التى واجهها العباسيون والحروب الطاحنة واعمال الضغط

---

(١) اقرأ النهايات الاليمة التى تعرض لها خلفاء هذين العهدين فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ، والفخرى لابن طباطبا وغيرهما .

والاضطهاد والتنكيل التى لجأوا اليها لاخضاع الطوائف المناوئة لهم كل ذلك قد أدى الى ازمات قاسية وصدمات عنيفة متوالية عانت منها الدولة العباسية الامرين وكادت تخضد شوكتها وتقضى عليها القضاء النهائى فى بعض الفترات .

فهناك صراع العباسيين مع بنى أمية وحروبهم الطاحنة فى أول عهدهم للقضاء على بقية الامويين وكذلك نزاعهم العنيف مع العلويين وما وقع بين الطرفين من حروب دامية قتل فيها خلق كثير من العلويين وقضى على معظم زعمائهم منهم محمد بن عبد الله بن الحسن (المعروف بالنفس الزكية) واخوه ابراهيم اللذان قتلا فى عهد المنصور ، والحسين بن على بن الحسن الذى قتل فى عهد الهادى ويحيى بن عبد الله وادريس بن عبد الله ((مؤسس دولة الادارسة) اللذان قتلا فى عهد الرشيد ومحمد الديباج الذى قتل فى عهد المأمون وهذا كله من جانب ومن جانب اخر كان الصراع المحتدم بين العباسيين والعناصر الفارسية فى العهد العباسى الاول واسفر ذلك عن تنكيل العباسيين بزعماء الفرس وقوادهم وابعاد العناصر الفارسية عن شئون الدولة الا قليلا فكانت النتيجة ضعف قوة خلفاء بنى العباس السياسية والحربية وظهور عوامل التفكك فى الدولة حيث استغلت الطوائف المناوئة للدولة الفرصة لاعلان الانفصال فانشق الاندلس وقام فيه حكم اموى بزعامة عبد الرحمن الداخل وقامت دولة الادارسة والاغالبية والزيادية مستقلة عن الحكم العباسى كما انحاز الفرس المتهورون الى بلادهم وأنشأوا الدولة الطاهرية . وبعد ذلك جاء دور الاتراك حين فسحت الدولة العباسية لهم المجال فصار لهم سلطان عريض ونفوذ كبير فى الامور العامة حتى وصلوا الى السلطة الكاملة فترة من الزمن واعقب ذلك هجوم جيوش المماليك الاتراك على عاصمة

الدولة واحتلالها وقيام حكمهم فيها ثم جاء من بعدهم البويهيون والسلاجقة وقد امتد عهد المماليك الاتراك بطوائفهم الثلاث الى ما يقارب اربعة قرون منذ عهد المتوكل سنة ٢٣٢ هـ حتى عهد الناصر سنة ٦٢٢ هـ . وخلال هذه الفترة الطويلة سلب الاتراك السلطة من ايدى الخلفاء العباسيين بحيث لم يبق لهم اى نفوذ ولا سلطان واصبحوا كالدمى ينتفع بها الاتراك المتسلطون ويستغلونها فى مصالحهم الذاتية كما ذهبت اهمية بغداد السياسية وانتقلت الى شيراز فى ايام البويهيين ، كما انتقلت الى نيسابور ثم الرى فى ايام السلاجقة . وعندما تمت للاتراك السيطرة الكاملة على عاصمة الدولة حولوا البلاد الى مسارح للنزاعات والمؤامرات والمذابح واماتوا فى المسلمين روح الكفاح والجهاد بعسفهم وجبروتهم فتوالت على المجتمع المسلم احداث مروعة انهكت قواه واضعفت مقومات حياته وصار ينحدر ويتدرج يوما بعد يوم فى هوة وانهيار وهلاك . ويضاف الى ذلك أن حركة التوسع والامتداد التى كانت قوية ونشيطة فى العهد الاموى قد اصبحت فى العهد العباسى ضعيفة جدا حيث توقف العباسيون عن الانطلاق واكتفوا بالغارات الصوائف والشواتى لغرض اظهار القوة وتخويف العدو وصد هجومه وتامين حدود البلاد ..

وفى وسط خضم هذه الاحداث الجسام التى وقعت خلال العهد العباسى وفى ادواره المختلفة كانت الدولة تعيش فى حالة بائسة من الضعف والوهن مما كان له الاثر الخطير فى العالم الاسلامى كله . ومن ذلك ان كثيرا من ولاة الاقاليم التابعة للخلافة العباسية حينما ظهر لهم ضعف الخلفاء وانكماش سلطانهم وذبوله وانتقال السلطة الفعلية الى ايدى الاتراك الذين استبدوا بالامر دون وجه حق انف هؤلاء الولاة من الخضوع للاتراك فبدأت حركات الانفصال والانقسام فتصدع بناء المجتمع

المسلم المتماسك وتفرقت وحدته السياسية وانقسم العالم الاسلامى لاول مرة فى التاريخ الى دويلات وامارات متعددة . ومن الدول التى استقلت عن الحكم العباسى خلال هذه الفترة الدولة الصفارية بفارس والسامانية بخراسان والزيدية بطبرستان والرى والجبل واليعفرية بصنعاء والحمدانية بالموصل وحلب والطولونية والاخشيدية بمصر والشام والفاطمية فى الشمال الافريقى . ولم يبق تحت سلطان الخليفة العباسى فى اواخر العهد السلجوقى غير السواد والعراق . وهكذا صار الاسلام منقطع الاوصال منصوم العرى ليس له جامعة سياسية وكل فريق من المتغلبين على الاقطار الاسلامية يعادى الاخر ويكيد له (١) " ولكن رغم كل ما اصاب الخلافة العباسية من ضعف وتخلف وانحطاط نتيجة الانحرافات المتزايدة عن حقيقة الاسلام فى بعض مجالات الحياة وانتشار الفساد والتحلل الخلقى واحتدام الصراعات السياسية والنزاعات القبلية والجنسية فقد بقيت الدولة تتقلب فى طور شيخوختها الواهية حتى دهمتها جيوش المغول سنة ٦٥٦ هـ وقضت عليها القضاء النهائى . لقد كانت هذه الفترة الاخيرة حقا فترة عصيبة بائسة فى تاريخ المجتمع المسلم ظلت القيادة الاسلامية خلالها غير قادرة على اصلاح حالها والدفاع عن نفسها ومقاومة الاخطار المحدقة بها من كل جانب . وعندما وصل الامر الى هذا الحد من السوء والخطورة البالغة سنحت للاعداء المتربصين الفرصة التى طالما كانوا يترقبونها فانقضوا على العالم الاسلامى للقضاء على الاسلام وكسر شوكة المسلمين وانهاء سلطانهم فى الارض . فكانت الحروب الصليبية الرهيبة التى شنتها القوى الاوربية المسيحية على العالم الاسلامى خلال العهد السلجوقى واستغرقت مايقرب من قرنين من الزمان . لقد كانت الحروب

---

(١) انظر الشيخ محمد الخضرى : تاريخ التشريع الاسلامى ص ٢٣٣-٢٣٤ .

الصليبية اكبر خطر واجهه المسلمون بعد فتنة الردة حيث ان الصليبيين وجهوا حملات عنيفة للاستيلاء على العالم الاسلامى وقد استطاعوا ان يستولوا على بيت المقدس وفلسطين كلها بعد سلسلة حروب طاحنة باء اكثرها بالفشل ، ولم يكتف الصليبيون باعمال العسف والتدمير والتنكيل والتقتيل التى اتبعوها فى حروبهم مع المسلمين ولكنهم قصدوا ابادتهم وافناءهم عن اخرهم ولذلك لم يكونوا يستثنون احدا من القتل لا امرأة ولا ولدا صغيرًا ولاشيخا كبيرا (١) . وفى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الامة الاسلامية قيض الله للاسلام بعض القادة العظام حفظ الله بهم شرف هذا الدين وعزته وأعاد بهم القوة الى العالم الاسلامى المنهار فجاء القائد عماد الدين اتابك زنكى ومن بعده ولده نور الدين محمود زنكى فتصديا لخطار الصليبيين والحقا بجيوشهم هزائم نكراء فى معارك كثيرة ثم بعد ذلك جاء القائد المظفر صلاح الدين الايوبى الذى هيأه الله لهذه الامة فقاتل الصليبيين بعزيمة صادقة وبسالة نادرة فحقق الله على يديه انتصارات عظيمة للمسلمين وبخاصة فى معركة حطين سنة ١١٨٧م التى استرد فيها بيت المقدس وفلسطين كلها . وهناك حقيقتان مهمتان نحب ان نقررهما فى هذا الصدد :

اولاهما ان ظهور صلاح الدين الايوبى فى هذه الفترة العصيبة التى كانت تعيشها الامة الاسلامية وتكالبت عليها القوى الاوربية الحاقدة على الاسلام وانتصاره العظيم على اعداء الله وتحقيق القوة والعزة للمسلمين لدليل قاطع على ان الاسلام لم يكن لينتهى دوره فى تلك الفترة بضعف قوة القيادة العباسية وانهيارها ولم يكن هذا الدين ليفقد الحيوية والقوة المكنونة فيه رغم كل ما اصاب المسلمين من الصدمات

(١) اقرأ سلسلة اعتداءات الصليبيين على المسلمين وحملاتهم العنيفة الموجهة لتدمير العالم الاسلامى فى كتاب حضارة العرب للدكتور غوستاف لوبون ص ٣١٩-٣٢٩ وكذلك التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية الجزء الخامس للدكتور احمد شلبى فصل الحروب الصليبية دوافعها وادوارها ونتائجها .

العنيفة والضربات القاصمة فى الحروب الصليبية وتبل الحروب الصليبية . فقد استطاع صلاح الدين الايوبى ان يوحد اجزاء مهمة من العالم الاسلامى مابين نهر الفرات والنيل تحت قيادته الفذة وان يؤلف بين العناصر الاسلامية المتنازعة والقبائل والعشائر العربية المتناحرة فكون منهم جامعة اسلامية موحدة للمرة الاولى بعد انهيار قوة الدولة العباسية فخاض بهم المعركة الفاصلة مع الصليبيين فأحرز للاسلام نصرا عظيما ، والحقيقة الثانية هى ان العالم الاسلامى عاد بعد صلاح الدين الى حالته البائسة التى كان عليها منذ عهد المماليك الأتراك وعاد المسلمون مرة اخرى الى سيرتهم الاولى من تفكك وانقسام ونزاعات وتناحر وانحرافات متزايدة عن حقيقة الاسلام وانحلال اخلاقى وترف فاحش وحياة ماجنة تافهة ولم يرزق الامة الاسلامية خلال هذه الفترة قائد مخلص للاسلام متجرد لله ولنصرة دينه حريص على الجهاد والتفانى فى سبيله محبب الى المسلمين بحسن سيرته واستقامته على الحق تلتف حوله القلوب كما التفت حول صلاح الدين . واذا كان من بين الملوك والقواد المسلمين الذين ظهروا فى هذه الفترة من يعدون نماذج حسنة فى دينهم وتقواهم وفى سيرتهم واخلاقهم وحزمهم وعزيمتهم الصادقة فى نصرة الدين فقد كان معظم هؤلاء الملوك شديدى الانحراف عن الاسلام وتعاليمه فى سيرتهم واخلاقهم حتى انهم لا يذكرون فى التاريخ الاسلامى الا تجملا .

وفى اثناء ضعف قوة الصليبيين فى اخر عهد السلاجقة فى منتصف القرن السابع الهجرى زحف التتار زحفهم المدمر على العالم الاسلامى فدخلوا عاصمة الدولة العباسية وقتلوا الخليفة ورجال حاشيته واسرفوا فى اراقة دماء المسلمين وازهاق ارواحهم وفتكوا بهم فتكا قاسيا وحطموا معالم الحضارة الاسلامية واسقطوا الخلافة

العباسية . ولقد كان لهجوم التتار الكاسح أثر خطير ووقع اليم على الاسلام والمسلمين اذ لم يكن من بين الخطوب التى نزلت بساحة الاسلام خطب أشد هولا ولا فتنة اعظم خطورة من فتنة المغول فى هجومهم الكاسح الماحق الذى انسابت فيه جيوشهم انسياب الثلوج من قمم الجبال مكتسحة ما فى طريقها من المدن الاسلامية حتى أتت على بغداد العاصمة فدمرتها اشنع تدمير ثم اخذ التتار بعد ذلك يمشون فى الارض فسادا يتجاسرون على المسلمين ويسومونهم سوء العذاب ويقتلونهم شر تقتيل حتى كادوا يمحون الاسلام وحضارته من الوجود .

ولما زال الشبح الذى كان يخيف الاعداء بسقوط الخلافة العباسية آلت قيادة العالم الاسلامى الى ايدى التتار الهمجيين الجهلاء الوحشيين الذين لا دين لهم ولا علم ولا حضارة ولا مدنية وكفى بؤسا وشقاء للمسلمين ان يرث قيادة مجتمعهم قوم هذه صفاتهم . ظل خطر التتار فترة من الزمن يدمر العالم الاسلامى ويهد بنيان المجتمع المسلم من اساسه وكانت جيوشهم تواصل هجماتها العنيفة للاستيلاء على بقية بلاد المسلمين حتى وصلت فى غطرستها وكبريائها الى عين جالوت فى الشام فهزمت شر هزيمة ولم تقم لها قائمة بعد ذلك . وبذلك زال خطر التتار عن العالم الاسلامى . ولكن المسلمين نتيجة هذه النكبات والازمات القاسية المتوالية قد ازدادوا ضعفا الى ضعفهم وانحطاطا فوق انحطاطهم فانحلت وحدتهم وتفككت عرى المجتمع الاسلامى وذل شأن المسلمين بعد قوة وعزة ومنعة الى أن من الله عليهم بالقيادة العثمانية التى ظهرت فى القرن الرابع عشر الميلادى وكانت قوة اسلامية عظيمة ظلت ترهب اعداء الاسلام وتحقق للمسلمين امجادا عظيمة طيلة ما يقرب من خمسة قرون .

المبحث الثالث : العهد التركي " العثماني "

في أعقاب الحروب الصليبية وانتصار المسلمين على التتار في اوائل القرن الرابع عشر الميلادي قام الاتراك العثمانيون بتاسيس دولتهم في الجزء الشمالي الغربي من آسيا الصغرى ومنذ اول عهد هم برهنوا على كفاءتهم الحربية الفائقة وقوة شكيمتهم وعزيمتهم الصادقة في نصرة الدين الاسلامي وتفوقهم على الامم المعاصرة في فنون القتال فاصبحوا بذلك موضع ثقة المسلمين في القيام بمهام القيادة الاسلامية فتجدد رجاء المسلمين وانبعثت البهجة في نفوسهم فعلقوا على هذه الدولة الاسلامية الفتية آمالا كبيرة في استرداد قوة المسلمين وسيادتهم على الامم وحمل رسالة الاسلام الى الافاق . ولم تمض فترة طويلة من الزمن حتى قويت شوكتها وظهر تفوقها ومهارتها في مجال السياسة وفي ميدان القتال مما ظهرت على مسرح التاريخ كقوة كبرى في العالم وبدأت حركة الجهاد الكبير لنشر الاسلام في الافاق فاخذ العثمانيون يتوغلون في المناطق المسيحية المجاورة في آسيا الصغرى ثم اتجهوا بعد ذلك الى اوربا الشرقية فتوغلوا داخل اراضي الدولة البيزنطية والدول الاوربية المسيحية فاحرزوا انتصارات عظيمة اهلتهم لتبوء مركز القيادة والسيادة على الامم فترة غير يسيرة من الزمان كانت الدولة العثمانية خلالها مرهوبة الجانب تحسب الامم الكافرة لها الف حساب وترتعد فرقا من قوتها الهائلة ويهرع ملوكها الاقوياء الى الدخول في ذمة السلاطين العثمانيين . وقد شملت الدولة العثمانية أجزاء شاسعة من اوربا واسيا وافريقيا وظلت قائمة تضطلع بمهام القيادة الاسلامية في العالم وترهب أعداء الله وتحفظ بيضة الدين ما يقرب من خمسة قرون رغم ما اصابها في عهودها الاخيرة من عوامل الضعف والوهن والانهيار .

لقد توغل العثمانيون فى شرق اوربا حيث فتحوا اهم مدنها التاريخية العريقة وعلى رأسها مدينة القسطنطينية العظمى عاصمة الدولة البيزنطية التى استعصت على المسلمين طوال ثمانية قرون وقد فتحها محمد الثانى بن مراد فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى . وقد بلغت الدولة العثمانية ذروة مجدها وقوتها فى القرن السادس عشر الميلادى فى عهد سليمان القانونى حيث امتدت فى القارات الثلاث " ففى اوربا كانت تشمل شبه جزيرة البلقان كلها حتى نهر الدانوب شمالا وفى شمال نهر الدانوب كانت تملك ترانسلفانيا ومولدافيا وولاشيا واغلب اراضى المجر واقليم بودوليا فى بولنده كما كانت تملك كل الشاطئ الشمالى للبحر الاسود . وفى آسيا كانت الدولة العثمانية تشمل آسيا الصغرى وارمينيا واغلب القوقاز ووادى دجلة والفرات حتى الخليج العربى جنوبا وكل بلاد الشام وفلسطين واجزاء واسعة من شبه الجزيرة العربية كما شملت فى افريقيا مصر وطرابلس وتونس والجزائر وفى البحر الابيض المتوسط كانت تملك علاوة على كل ذلك جزيرة كريت وجزيرة قبرص وكل جزائر بحر ايجه (١) يقول المؤرخ الانجليزى فنلى Finlay فى التعليق على عظمة الدولة العثمانية فى عهد السلطان سليمان القانونى " لقد اصبح السلطان سليمان سيدا لعدة ممالك وحاكما لثلاث قارات ومتحكما فى بحرين هما البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر" (٢) .

لقد كان للعثمانيين حماسة شديدة فى خدمة الاسلام وعزم قوى لتحقيق القوة والسيادة للمسلمين ونشر رسالة الاسلام فى العالم . ويشهد التاريخ لهم بعبقريتهم العسكرية وقوتهم السياسية العظيمة التى استخدموها باخلاص لنشر الدعوة الاسلامية

---

(١) الدولة العثمانية والمسالة الشرقية د . محمد كمال الدسوقى ص ٦٢ .

(٢) The History of Greece P. 6

وبسط قوة المسلمين فى الارض ورد عادية الامم المناوئة للاسلام (١) . فمنذ اول عهدهم ابدوا اهتماما كبيرا بفنون الحرب وتنظيم الجيوش وتعبئتها وقد برعوا فى استعمال المعدات الحربية واستخدموا البنادق والمدافع والبارود على نطاق واسع وانشأوا قوة بحرية عظيمة لا قبل لاوربا بها فتحقق لهم التفوق العسكرى فى البر والبحر على السواء .

ومن مآثر العثمانيين ومزاياهم التى يستحقون عليها الثناء والتقدير انهم عوضوا المسلمين عما فقدوه من بلاد الاندلس فى اوربا الغربية بما فتحوه من اراض واسعة فى اوربا الشرقية كما استطاعوا ان يحطموا القوى الصليبية التى تتداعى على المسلمين بين الحين والحين وتحاول الانقضاض على العالم الاسلامى وقد انقذوا بلاد شمال افريقيا من الحملات البحرية الاسبانية التى كانت تلاحق فلول المسلمين فيها بعد طردهم من الاندلس . وظل العثمانيون يحمون العالم الاسلامى من خطر الغزو الصليبى الذى لا يزال يهدده زهاء اربعة قرون ولم تتمكن القوى الاوربية من تحقيق غاياتها الصليبية التى كانت تسمى اليها منذ الحروب الصليبية الاولى الا بعد انهيار الدولة العثمانية .

ولكن هذه المزايا التى خلدها التاريخ للعثمانيين لم تكن لتنفى وجود انحرافات ورثتها الدولة العثمانية عن اسلافها فاخذت تمد خطها وتوسعه وتزيد انحرافات اخرى حتى أدى بها الامر فى النهاية الى الانهيار .

---

(١) راجع توماس . و . ارنولد . الدعوة الى الاسلام . الفصل الخاص بالاتراك العثمانيين ص (١٧١-٢٣٤) نقل هذا الكتاب الى العربية وعلق عليه . حسن ابراهيم حسن و د . عبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى .

لقد استمرت الدولة العثمانية تسير على خط الانحراف الذى بدأ منذ العهد الاموى وظل يزداد توسعا على مر العصور الاسلامية حتى بدأت حيث انتهت اليه الحال من السوء والخطورة عند قيام سلطانها . ففى مجال سياسة الحكم والمال كانت الحال أسوأ بكثير مما صورناه فى اواخر ايام الحكم العباسى فقد استمر الحكم على طريقة الملك العضوض بنظامه الوراثى الاستبدادى حيث استبد آل عثمان بالامر وحصروا الحكم فيهم كما فعل الامويون والعباسيون من قبل ، ولم يجعلوه شورى بين المسلمين . وقد سبب النظام الوراثى واتباع طريقة ولاية العهد فى الحكم متاعب كثيرة واحدث مشكلات قاصمة ادت الى فوضى واضطرابات وقلاقل ذاق العثمانيون وبالها وفتنتها طيلة عهدهم وبخاصة حين أخذت دولتهم تضعف منذ اواخر القرن السادس عشر الميلادى . كانت تنشب خلافات حادة وتقوم نزعات عنيفة بين آل عثمان فكان من السلاطين العثمانيين من يقتل ولى عهده ليفسح المجال لابنه كما وجد منهم من يفنى اخوته عن اخرهم لازاحة المشكلات عن طريقه وضمان استقرار الامر له وبقاء الحكم فى عقبه وكانوا يعتمدون على مساندة جند الانكشارية لتوطيد دعائم ملكهم وفرض ارادتهم على الناس وازالة العوائق عن طريقهم . وقد نشبت خلافات حادة بين ابناء بايزيد الاول ، استمرت عشر سنوات حتى انتهت بانفراد محمد الاول بالحكم بعد التنكيل باخوته ويذكر المؤرخون أن بايزيد الثانى هو اول من سن سنة سيئة بقتله لاخيه الذى يرث الحكم من بعده فظل ذلك متبعا من بعده لمدة قرن من الزمان . وهذا محمد الثالث بن مراد الثالث الذى استهل حكمه بقتل اخوته التسعة عشر الذكور لكى يضمن عدم وجود منافسين له على العرش يسببون له المتاعب والمشكلات . ومع تزايد الصراعات بين الاسرة الحاكمة واعتماد السلاطين على جند الانكشارية

فى تغلب بعضهم على بعض وضرب بعضهم رقاب بعض ضعفت قوة هـؤلاء السلاطين وبدأ نفوذهم وسلطتهم فى التقلص والذبول فى الوقت الذى اخذت قوة جند الانكشارية فى النمو والظهور حتى استفحل خطرهم واصبحوا يظهرون التمرد والطغيان ويثورون ضد السلاطين بين الحين والحين وينصبون على العرش من يشاءون ويخلعون من يشاءون حسب اهوائهم ومصالحهم. وقد ظهرت قوة جند الانكشارية بشكل واضح بعد عهد محمد الثالث حيث تعاقب على عرش الملك سلاطين ضعاف امثال مصطفى وعثمان الثانى ومراد الرابع وغيرهم ممن كانوا ضحايا ثورات الانكشارية وطغيانها. وعندما اسند هؤلاء الجنود المخربون الامر الى مراد الرابع بعد خلع مصطفى كان مراد صبيا فى الحادى عشر من عمره فسنحت لهم الفرصة للتحكم فى أمور الدولة وسلب السلطة الفعلية من يد السلطان الجديد فكثرت المظالم والمفاسد واعمال العنف والاضطهاد دون ان يملك السلطان القدرة على القضاء عليها.

ولم تزل الانكشارية تحتل مركز الثقل فى شئون الدولة وتتحكم فى مصاير السلاطين وتحدث القلاقل والفتن وقد ازداد الامر خطورة منذ ايام السلطان ابراهيم فى اوائل القرن السابع عشر الميلادى واستمر فى عهد محمد الرابع وسليمان الثانى وسليم الثالث ومصطفى الرابع فعاشت البلاد فى ظروف قاسية انتشرت فيها موجات الفساد والفوضى والاضطرابات وكثرت فيها المذابح الجماعية ولم يكن فى مقدور السلاطين اخضاع جند الانكشارية لارادتهم فظل الامر على هذه الحال السيئة حتى جاء السلطان محمود الثانى فاستطاع بحسن تدبيره ومقدرته السياسية الفائقة ان يتخلص من شرور هؤلاء الجنود المخربين الذين عاثوا فى الارض فسادا فقضى عليهم القضاء النهائى ، ولكن ذلك جاء متأخرا جدا اذ كانت عوامل الضعف

والوهن قد نخرت فى كيان الدولة العثمانية فصارت قوتها الرهيبة تسرع الخطى الى مرحلة الانهيار والزوال منذ عهود السلاطين الضعاف المتعاقبة . وقد ظهرت هذه النتيجة الحتمية - حسب السنة الربانية - فى القرن التاسع عشر الميلادى حين اعادت القوى الصليبية الكرة على العالم الاسلامى فحطمت القوة العثمانية واقتسمت اسلابها وكافة املاكها .

ونلاحظ فى فترة ضعف الدولة العثمانية ان الحريم ورجال البلاط قد اصبح لهم نفوذ كبير فى شئون الدولة ، وكانت سيطرة الحريم على بعض السلاطين العثمانيين سمة بارزة من سمات الحكم وسببا من اسباب ضعف قوة الدولة منذ نهاية القرن السادس عشر الميلادى . وقد روى التاريخ ماكانت تتمتع به السلطانة بافو *Baffo* من السيطرة والنفوذ العريض فى امور الحكم طوال فترة حكم ثلاثة من السلاطين وكذلك مثيلاتها من بعدها اللاتى كن عظيمات التاثير فى شئون التعيين للوظائف والمناصب كما كن يثرن جند الانكشارية للقيام بالثورات كلما احتجن للضغط على السلطان حتى ينزل على ارادتهن ويحقق رغباتهن (١) .

واما فى مجال سياسة المال فقد ازداد الانحراف توسعا وامتدادا على مر العصور الاسلامية . وفى هذا العهد كان السلاطين اكثر انحرافا ممن سبقوهم وقد كانوا يتصرفون فى الاموال العامة بلا قيود ولا حدود فكانوا ياخذون مايطيب لهم ويخصون الامراء بنصيب وافر منها ويعطون انصار الدولة اعطيات ضخمة لكسب حبهم وولائهم لهم . ولما كان من سياسة الدولة العثمانية تعيين الوالى لمدة محدودة يعزل عن العمل بعد انقضائها كانت نتيجة ذلك ان الولاة اصبحوا

---

(١) انظر الدكتور الدسوقى ، الدولة العثمانية ص ٨٦ .

يوجهون اهتماماتهم لتكوين ثروات ضخمة خلال هذه الفترة المحدودة فكانـــوا يلجأون الى ظلم الناس وابتزاز اموالهم واقتطاع قسط مما فى ايديهم من الامـوال العامة ولا يهتمون كثيرا بتحقيق المصالح العامة بقدرما يهتمون بمصالحهمـــــم الذاتية . والى جانب ذلك تطورت ظاهرة الاقطاعية التى نشأت منذ العهـد العباسى حتى اصبحت فى هذا العهد على صورة الاقطاعيات الاوربية فـــى مظالمها وويلاتها . وكان البكوات فى الاقطاعيات الزراعية يقدمون للسلطـــان عددا من الفرسان المدربين بخيولهم وسلاحهم وزادهم حسب مساحة اقطاعياتهم واهميتها لكى يحصلوا على مزيد من القطائع . يقول الاستاذ محمد كرد علـى : "ان العثمانيين قلما كانوا يهتمون بتطهير المملكة من اهل الفساد ولا ينفذون مـن ناموس الادارة مايخففون به فقر البلاد وبؤسها فتركوا الاهلين يعملون ماشاءوا اذا ادوا ماعليهم لخزانتها (١) " .

ولقد انتشر الفساد والتحلل الخلقى فى العهد العثمانى فكان السلاطين والامراء يعيشون عيشة الترفوالبذخ والتفاهة وقد اسرف بعض السلاطيـــــن العثمانيين فى اعمال القتل والتعذيب فانتشرت الفوضى والاضطرابات فى البلاد . يقول الاستاذ محمد كرد على عن حياة الترف والمجون التى كان يعيشها بعـــض السلاطين العثمانيين : "اجمع مؤرخوهم (اى الترك) ان بايزيد الثانى كـــان من السفاهة على جانب عظيم فانتشرت المفاسد والمنكرات فى ايامه فى كل مكـــان بين الخاص والعام ونسوا الشرع وعبثوا باحكام الدين وكانت تحمل الى قصـــــر بايزيد اجمل الفتيات والفتيان من كل ارض كما تحمل اليه اطيب المسكرات والطـف المغنين والمغنيات والموسيقيين والموسيقيات والمهرجين والمساخر ولا شـــــأن

---

(١) الاسلام والحضارة العربية ، ٢/٣١٦ .

للكبراء وفى طليعتهم صدره الاعظم الا ان ياتوه بما ترغب فيه نفسه من الجوارى والغلمان (١) ".

ومن عيوب الدولة العثمانية وانحرافاتها ان العثمانيين وان كانوا قد امتدوا بالاسلام فى ميدان الفتح ما شاءت لهم عبقريتهم الحربية فقد جمدوا به فى ميادين كثيرة كان من اهمها ميدان الفقه وميدان العلم وميدان الاقتصاد وميدان السياسة وما الى ذلك من مجالات الحياة .

ففى ميدان الفقه مثلا اعتمدت الدولة المذهب الحنفى وكانت تطبقه بتعصب شديد وعارض السلاطين العثمانيون والعلماء فتح باب الاجتهاد الذى أغلق منذ القرن الرابع الهجرى لاسباب ليس هنا مجال ذكرها . وكانت حجتهم ان التراث الفقهى الذى خلفه فقهاء الحنفية السابقون فيه الكفاية اذ لم يتركوا شيئا الا بينوه حتى انهم قد تخطوا حدود الفقه الواقعى الى الفقه الافتراضى فكفوا من ياتى بعدهم مؤنة البحث وذلك بالاضافة الى ان المحدثين ليس فيهم من تتوفر فيه شروط الاجتهاد . وفى هذا الوقت الذى قيد فيه الفقه فى دائرة محدودة فجمد جمودا معيبا وتوقف عن النماء كانت الحياة البشرية جارية متطورة تتغير فيها الظروف والاحوال وتستجد فيها الوقائع والاحداث فضاقت دائرة الفقه المدون عن الاحاطة بها اذ لم يستنبط لها الفقهاء القدامى الاحكام من الشريعة وكانت النتيجة ان السلاطين الذين دفعتهم قواهم الى عدم الاذن بفتح باب الاجتهاد كانوا يلجأون الى قوانين اصلاحية لا تستظل بظل الشريعة الاسلامية . وقد فات هؤلاء السلاطين والعلماء المعارضين لفتح باب الاجتهاد فى العهد التركى ان التغيرات والوقائع التى تحدث فى الحياة لا يستطيع العقل

---

(١) الاسلام والحضارة العربية ٢ / ٥٠١ .

البشرى ان يتصور ابعاد ها ومراحلها على مر الاجيال والعصور لانه محجـــوب عن علم الغيب ومن ثمة فان اى مجتهد فى الشريعة مهما بلغ علمه وقوى ادراكـــه ودق نظره سيظل محصورا بواقع بيئته وعصره لا يملك القدرة على تعديه . وقـــد أدى تجميد الفقه الى توقف نمو المجتمع المسلم وتجميده على صورة معينة لمرحلة من مراحل الحياة كانت البشرية قد قطعت بعدها اشواطا فى التطور والنمـــو وهكذا قصر الفقه المستنبط عن مجاراة تطور الحياة ونموها فى المجتمع المسلـــم نتيجة سوء فهم الحكام والعلماء الى ان جاء الوقت الذى كسر فيه باب الاجتهـــاد بدافع من حاجات المجتمع الملحة فاصبح الامر فوضى لا يراعى الناس شروطـــه ولا يقدرون عظم المسئولية . يقول الشيخ محمد الغزالى : " مع أن الزمن لا يقـــف ومع انه تحدث للناس اقضية بقدر ما احدثوا من فجور ومع ان الجماعة الانسانيـة تدخل فى اطوار متباينة من ناحية العلاقات الدولية والاوضاع الادارية والاقتصادية والسياسية ومع ضرورة بقاء الدين مهيمنا على توجيه القافلة السائرة مع هذا كلـــه فان التفكير الاسلامى الفقهى توقف فى اغلب ميادين المعاملات ان لم يكن جمـد فيها كلها واغلقت ابواب الاجتهاد بضعة قرون حتى انكسرت اخيرا تحت ضغط الحاجات الملحة وصحب انكسارها فوضى منكرة فى الفهم والتطبيق (١) .

والى جانب ذلك كانت انحرافات الصوفية تزداد انتشارا وسوءا مع مرور الأيام وقد اصبحت الصوفية فى هذا العهد وكأنها الطريقة المثلى الوحيدة للتديـــن والصورة الحقيقية للاسلام . وكان التركيز على جانب الشعائر التعبدية مـــن الدين دون بقية جوانبه الاخرى المهمة . وقد حصل تحول خطير فى معنى الدين

---

(١) الاسلام والطاقات المعطلة ص ١٠٠-١٠١ .

بسبب سوء فهم المتصوفين لمعنى العبادة والتوكل على الله ومعنى الزهد في الاسلام حيث انحسر الدين ومفهوماته في نظرهم في زاوية ضيقة من نشاط الانسان ومهمته في الحياة . فتقرر في حس الناس في هذه العصور الاخيرة ان الدين انما هو شعائر تعبدية فقط وعلاقة خاصة بين العبد وربه واما بقية جوانب حياة الانسان من تصرفاته واعماله وجهوده في واقع الارض فكأنها خارجة من اطار الدين . وهذا الفهم الخاطئ للدين من أشد الانحرافات التي اصابت المسلمين في العصور الاخيرة وادت الى نتائج لا يزالون يعانون منها حتى اليوم . وقد ادى انحراف الصوفية في مفهوم العبادة الى انحرافات اخرى خطيرة سرت معه وواكبته في مسيرته وتلك هي التواكل والقعود عن العمل وترك الاخذ بالاسباب وقد وصل الامر في هذا العهد الى حالة سيئة جدا نتيجة هذه الانحرافات اذ صار الدين - وحتى الشعائر التعبدية - مظاهر خالية من الروح وتقاليد لا معنى لها ولا حقيقة . ثم دخلت الخرافات والبدع مع تحول الدين الى مظاهر وتقاليد لا تحمل دلالة ولا رصيدا في واقع الحياة فانحسر مفهوم الدين في نظر العامة في أولياء ومشايخ وكرامات واضرحة ومسابح واذكار وبدع وخرافات وذبائح واحتفالات وأمور اخرى كثيرة ليست من الدين في شيء .

. . .

الفصل الثانـــى

مجالات الانحراف عن جادة الاسلام فى التاريخ الحديث

- الانحراف فى مفهوم عقيدة الالوهية .
- الانحراف فى مفهوم العبادة .
- الانحراف فى مفهوم القضاء والقدر .
- الانحراف فى مفهوم الجهاد فى سبيل الله .
- الانحراف فى مسألة الاجتهاد .

...

الفصل الثانـــى

مجالات الانحراف عن جادة الاسلام فى التاريخ الحديث وأسبابه

ان مجرد الموازنة بين صورة المجتمع الاسلامى منذ العصر الاموى حتـــى القرون الثلاثة الاخيرة وصورة المجتمع الاسلامى الاول فى عهد الرسول صلى اللـــه عليه وسلم وفترة الخلافة الراشدة يبين لنا الفرق الكبير والتفاوت البعيد بين صـورة المجتمعين فى صفاتهما وخصائصهما ولكن هذا الاختلاف والتبدل الذى وقع فيـــه المجتمع المسلم قد ازداد وضوحا وظهورا منذ عصور الانحطاط حتى عصـر الغزو الاجنبى وتوغل الحضارة الغربية فى انحاء العالم الاسلامى .

بدأ خط الانحراف فى تاريخ الامة الاسلامية منذ فترة مبكرة جدا كما رأينـــا فى الفصل السابق واول مابدأ هذا الانحراف كان فى ناحية السلوك العملى مـــن حياة المسلمين . ولم يقع فيها انحراف واحد وانما وقعت عدة انحرافات جزئيـــة تفرعت عن الخط المنحرف كما انه فى الوقت نفسه لم يحدث هذا الانحراف فجـأة وانما بدأ فى صورة ضئيلة وفى زاوية ضيقة ثم اخذ بعد ذلك فى التزايد والانتشـار فى شتى مجالات الحياة الاسلامية . ولكننا نلاحظ فى العهود الاسلامية الثلاثة التى تقدم الحديث عنها ان الانحرافات التى وقعت فى مجال سياسة الحكم والمال وفى مجال الاخلاق والاجتماع قد ظلت فى ناحية السلوك دون ان تمتد الى مجال التصور، وذلك الى جانب ماظهر من بعض الفرق الاسلامية وبخاصة الصوفية والمرجئة من انحرافات عقيدية وسلوكية متعددة منذ العصر العباسى . وهكذا حتى جـاءت القرون الثلاثة الاخيرة فاصبح المجتمع المسلم يتدنى وينحدر فى ادراج الانحراف

فى فهم حقيقة الاسلام واستيعاب مفهوماته التصورية فى معانيها ومدلولاتها الواسعة الشاملة فعانت هذه المفاهيم الاسلامية انحسارا خطيرا ادى الى نتائج سيئة وعواقب وخيمة ثم كان فى اثناء ذلك الغزو الاجنبى وتوغل الحضارة الغربية فاصابت الامة الاسلامية صدمات وهزات عنيفة حين تنبهت من نومها العميق فرأت موقعها فى ذيل الامم الراقية وهى تتقلب فى حمأة الضعف والوهن والانهيار بينما تناطح هذه الامم عنان السماء فى التقدم الحضارى والعلمى والتفوق السياسى والعسكرى فانبهرت الامة المغلوبة على امرها ايما انبهار فاشتد ولعها بتقليد الامم الغالبة فاوقعها ذلك بطبيعة الحال فى انحرافات خطيرة لم يقف عند خروجها فى السلوك عن الخط المستقيم وانما وصل الامر الى زعزعة العقائد والقيم والمفاهيم الثابتة التى كانت تؤمن بها فانجرفت مع موجة الالحاد المادية التى اجتاحت الدول الاوربية وقادتها الى التنكر للاديان والقيم الانسانية الثابتة ومحاربتها بكل سلاح وفى كل ميدان من ميادين الحياة . ومن المعلوم فى سنن تبدل احوال المجتمع وتغيرها ان الانحراف والتشويه يبدأ اول ما يبدأ فى ناحية السلوك العملى ثم يمتد منها مع مرور الاجيال وتعاقب العهود الى ناحية التصور نتيجة فشو الجهل واتباع هوى النفس . عن ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير قوله تعالى : " وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا "(1) قال : " صارت الاوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد . . . . الى ان قال " اسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا اوحى الشيطان الى قومهم ان انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون انصابا وسموها باسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك اولئك وتنسخ

---

(١) سورة نوح اية (٢٣).

العلم عبدت "(١) . ان الصورة المعروضة عن الاسلام في اذهان الناس وفي واقع حياتهم في القرون الاخيرة تتصف بالتشويه والانحراف حتى تجسد الاسلام في صورة منحرفة فكرا واعتقادا وعملا وسلوكا بعدت الشقة بينها وبين الصورة الصحيحة بقدر مادخل عليها من عناصر غريبة وما اعتراها من تشويهات وانحرافات واذا بحثت عن الاسلام في اذهان المسلمين وترسمت روحه ورسالته ومبادئه السامية في واقع حياتهم تجد انحرافا كبيرا في مفهوماته التصورية وانحسارا لمعاني هذه المفهومات في زاوية ضيقة من مجالات الحياة الانسانية . ومن ذلك انحرافهم في مفهوم الالوهية والعبادة والجهاد والقضاء والقدر والتوكل والزهد وما الى ذلك . يقول الشيخ محمد الغزالي : " وقد نظرت الى الامة الاسلامية (في القرون الاخيرة) فوجدت اوضاعها العامة تدعو الى الرثاء . ان الخدر سرى في كيانها حتى لتحسبه اعراض موت . . . . والذي يغلغل النظر في علل هذه الامة يلحظ على عجل انها تتنفس في جو فكري خانق وان تغذيتها النفسية والاجتماعية والعقلية والعاطفية رديئة اشد الرداءة "(٢) . ويقول في موضع آخر : "ومن بضعة قرون والمادة المستخلصة من الاسلام لتغذى مشاعر المسلمين وافكارهم مشوبة باخلاط غريبة . . . ان تعاليم الاسلام والدعوة اليه اتخذ طريقا شاردة انتهت بالامة الاسلامية الى هذه الوحشة الهائلة وجعلت الوفا مؤلفة من الناس تحيا باسم الاسلام وهي اقص ماتكون عن فقهه وادبه وأنأى ماتكون عن روحه ونصه . ونحن نلتفت يمنة ويسرة في طول العالم الاسلامي وعرضه فنرى شعوبا بينها وبين "محمد " العظيم " وتراثه " الضخم مثل مابين عابد العجل وعالم الذرة ، ومع هذا البون البعيد فان هذه الشعوب تزعم انها مسلمة وتعرف في انحاء العالمين

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير باب ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ٦ / ٧٣ .
(٢) الشيخ محمد الغزالي : كيف نفهم الاسلام ص ٦ .

بهذه الاشارة وان كانت تجر وراءها اثقالا من الجهالة والخرافة والتخلف تزرى بكل نسب (١) " . ان هناك مجموعة ضخمة من الناس فى انحاء الرقعة الاسلامية الفسيحة اعتنقت هذا الدين وعرفت به ولكنها تحيا فى صورة من الصور المشوهة المنحرفة للاسلام وهى بعيدة عن حقيقة هذا الدين فى تصورها وتطبيقها حتى لو ان محمدا رسول الله بعث حيا ثم قيل له هذه أمتك ماعرف فيها رسالته ولا ترسم فيها سنته من كثرة مادخل عليها من تقاليد تافهة وعرج مطرد وانحرافات عريضة ومظاهر جوفاء يتشدق بها الناس ويحسبونها حقيقة الاسلام .

فلنستعرض الان اهم المفاهيم الاسلامية التى انحرف فيها المسلمون فى القرون الاخيرة لكى نعرف مدى خطورة هذا الانحراف الذى أبعد المسلمين عن صورة الاسلام الصحيحة وادى الى نتائج سيئة وبخاصة فى هذا القرن الأخير . " ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم (٢) " .

. . .

---

(١) الشيخ محمد الغزالى : كيف نفهم الاسلام ص٩٠ .
(٢) سورة الانفال اية (٥٣) .

المبحث الاول : الانحراف فى مفهوم عقيدة الالوهيـــة

ان أهم المفاهيم الاسلامية التى انحرف فيها المسلمون فى القرون الاخيرة هو مفهوم لا اله الا الله ، وذلك لان عقيدة الالوهية هى الاساس المتيـــن الذى تبنى عليه نظرة الاسلام العامة ، كما أنها الاساس الفكرى لعقلية المسلم والاساس النفسى لسلوكه العملى فى الحياة حيث ان نظرته الى ميادين الحيـــاة الفكرية المختلفة وسيره فى جميع مجالات الحياة العملية تقوم على اساس عقيـدة صحيحة فى الله وتنبثق من هديها " قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى للــه رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (١) " يقول الاستـاذ أبو الاعلى المودودى : " اول ما امر النبى صلى الله عليه وسلم ان تؤمن به واهمه هو " لا اله الا الله " وهذه الكلمة هى التى يقوم عليها بناء الاسلام وهى التى تميـز المسلم من الكافر والمشرك والملحد ، وهى التى تحدث الفرق العظيم بين الانسان المؤمن بها والانسان المعرض عنها فالذين يؤمنون بها طائفة لهم الفلاح والسعادة والفوز والرقى فى الدنيا والاخرة والذين يعرضون عنها طائفة اخرى لهم الخسران والخزى والخذلان فى الدنيا والاخرة " (٢) . ويقول فى موضع آخر فى بيـــان قيمة كلمة لا اله الا الله واهميتها بالنسبة لمعتقدات الاسلام واحكامه ونظمه " وهذا الايمان بـ "لا اله الا الله " هو الركن المهم الاساسى من تعليم النبى صلى اللـه عليه وسلم وهو مركز الاسلام وأصله ومصدر قوته وكل ماعداه من معتقدات الاســلام وأحكامه وقوانينه انما تقوم على هذا الاساس ولا تستمد قوتها الا منه والاسلام لا يبقـى منه شىء بعد زوال هذا الاساس من مكانه " (٣) .

---

(١) سورة الانعام ايتا (١٦٢-١٦٣)

(٢) مبادىء الاسلام ص ٧٢ ، تعريب محمد عاصم الحداد .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٩٠ .

لقد قامت الدعوة الاسلامية طوال عهدها الاول على اساس ترسيخ عقيدة الالوهية والوحدانية فى نفوس الناس وتوضيح مدلولاتها الواسعة الشاملة لهم حتى فهم المسلمون الاوائل انها دعوة الى نظرة جديدة شاملة الى الوجود تحرر الانسان من الخضوع للاساطير ومن العبودية لكل ماسوى الله تعالى من بنى البشر والحيوانات والجمادات وتجعله خليفة فى الارض يخضع لله دون غيره ويوحده بصفته الهه وخالقه وربه المعبود ويطيعه وينقاد لامره ويقر بالمسئولية امامه فى الحياة الاخرة وفهموا معنى كلمة لا اله الا الله على انه ليس فى هذا الكون أحد يستحق ان يعبده الناس (على المعنى الواسع الشامل للعبادة) ويسجدوا له بالطاعة والعبادة الا الله تعالى كما ليس لهذا الكون من مالك ولا حاكم الا هو وحده وكل شىء مفتقر اليه مضطر الى استعانته فى جميع الامور (1) والحالات . وهذا المعنى باختصار هو رد السلطة المطلقة فى كل شىء الى الله تعالى ونزعها من يد كل ماسواه والالتزام بكل ماجاء من عنده سبحانه وتعالى . يقول العلامة ابن القيم : "فان التصديق الحقيقى بلا اله الا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها وجميع اصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة فلا يكون العبد مصدقا بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ولا يكون مؤمنا بالله اله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله ولا يكون مؤمنا بأن لا اله الا الله حتى يسلب خصائص الالهية عن كل موجود سواه ويسلبها فى اعتقاده وارادته . . . . الى ان قال : والتصديق بلا اله الا الله يقتضى الاذعان والاقرار بحقوقها وهى شرائع الاسلام التى هى تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع

---

(١) انظر الشيخ محمد المبارك نظام الاسلام ، العقيدة والعبادة ص ٣ـ٤ وكذلك مبادىء الاسلام للمودودى ص ٧٢ ومابعدها .

أخباره وامتثال اوامره واجتناب نواهيه هو تفصيل لا اله الا الله فالمصدق بهـا على الحقيقة الذى يأتى بذلك كله وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الاطلاق إلا بها وبالقيام بحقها وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الاطلاق الا بهـا وبحقها" (١) وكان حصيلة الفهم الصحيح الذى كان عليه المسلمون الاوائل قـوة دفاقة فى نفوسهم دفعتهم الى الالتزام بمقتضى هذه الكلمة واستيعاب مدلولاتها على اوسع نطاق فاستسلموا لامر الله فى جميع شئون حياتهم الاختيارية وقامـوا بمجاهدة الوضع الجاهلى القائم فى الارض وتقويض أركانه واقامة حكم الله وتنفيـذ أمره فى الارض بتطبيقهم العملى الواقعى لاسس الاسلام ومبادئه وتوجيهاته والسعى الى ذلك بكل قوة وعزيمة صادقة . وهذا ماكان عليه المسلمون الاوائل فالايمان بكلمة التوحيد هو المدخل الى بناء الاسلام وبه يدخل الانسان فى زمـرة المسلمين ولكن لا يستكمل اسلامه حتى يترجم ذلك فى واقع عملى حين يطبـع ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى من الاحكام والاوامـر . ويتبين من ذلك انه بقدر مايكون التزام المرء بما يعتقده ويقربه يكون كمال ايمانـه كما انه بقدر مايكون الفرق بين مقتضيات الايمان ومدى التزامه بها يكون ايمانـه ناقصا غير كامل . وفى المرحلة الاولى من تاريخ الدعوة الاسلامية كان الواحد مـن الصحابة الكرام اذا دخل فى الاسلام ونطق بكلمة التوحيد خلع على عتبته كل ماضيه فى الجاهلية وقطع صلته به وتبرأ من رواسبه جملة وتفصيلا وانتقل نقلة بعيدة من حياة جاهلية جهلاء وتصورات خاطئة للكون والحياة والانسان وعادات وتقاليـد سخيفة وعبودية وخضوع لغير الله تعالى الى حياة رحبة يملؤها نورالله وهديه وقوامها تصور كامل شامل منبثق عن امر الله ، واستعلاء على كل عبودية الا العبوديـة

---

(١) التبيان فى اقسام القران ص ٣٧-٣٨ .

الحقة لله وحده (١) . وقد تقدم حديث مستفيض حول هذا الموضوع فى فصل العناصر الاساسية فى تكوين الجيل الاول .

وبينما نرى هذا الافق الاعلى الذى كان المسلمون الاولون يحلقون فيه فى فهمهم الصحيح لعقيدة الالوهية والتزامهم بمقتضاها فى واقع الحياة نرى فى الجهة المقابلة الهوة السحيقة التى انحدر اليها المسلمون فى فهم هذه العقيدة فى القرون الاخيرة حيث بلغ انحرافهم مداه فى فهم هذه العقيدة على حقيقتها ومعناها الشامل كما فهمها الاولون .

ونحب ان نقرر حقيقة كبرى قبل ان نبدأ الحديث عن انحراف المسلمين المتأخرين فى مفهوم عقيدة الالوهية وغيره ، هذه الحقيقة هى ان العقيدة الاسلامية فى جملتها حين التقت بالفلسفة اليونانية فى العصر العباسى الاول وتاثرت بها تحولت عند خاصة الناس الى مناقشات فلسفية كلامية (٢) ، فشغلوا انفسهم بقضايا ومسائل جعلوها موضوعا للبحث النظرى والخلافات لم يكن السابقون الاولون من هذه الامة يشغلون انفسهم بها . فقد خاض علماء المسلمين منذ العصر العباسى فى مسائل العقيدة الاسلامية مثل مسألة الذات والصفات هل هى عينها اوغيرها ومسألة خلق القران والبحث فى جزئيات الحياة الاخرة وفى العرش والكرسى ايهما اقدم .. الى غير ذلك من المسائل التى شغلت الخاصة عن العقيدة الاسلامية الصافية التى تحرر الانسان من عبادة ماسوى الله تعالى وتدفعه الى تحرير بنى البشر من الخرافات والاساطير وتحمله مسئولية كبرى امام خالقه والهه ، كما أن البحث فى هذه المسائل قد نقل العقيدة الاسلامية من حيز القوة الحيوية الدافعة

---

(١) انظر معالم فى الطريق ، سيد قطب ص ١٥-٢٦ فصل جيل قرآنى فريد .
(٢) انظر المجتمع الاسلامى المعاصر ، محمد المبارك ص ٥٤-٥٦ .

الى حيز المناقشات الفلسفية والمناظرات الكلامية والخلافات المذهبية التى لا طائل تحتها ، يقول الشيخ محمد الغزالى : " وأشد الاساءات الى الاسلام ان تسلك به متاهات الفلسفة وان تدور به مع حيرة العقل الانسانى فى البحث عن الحق بعيدا عن هدايات الله وسنن المصطفين الاخيار من عباده . . . الى ان قال : " فان الاسلام لم يصب فى ميادين الحياة من شىء مثلما اصيب فى هذه الاثواب المزورة التى اظهر فيها وتلك التشويهات التى الصقت به " (١) . وأما عند العامة فقد اصبحت العقيدة الاسلامية مزيجا من اخلاط غريبة تحتوى على نزر يسير من عقائد الاسلام مخلوطا بمجموعة من المعتقدات الباطلة مثل الاعتقاد بقبور " الاولياء " وقصدها للعبادة وتقديس هؤلاء الاولياء وطلب قضاء الحاجات منهم احياء وامواتا والاعتقاد بتصريفهم لشئون الكون ومعرفتهم لعلم الغيب ، بالاضافة الى تعلق الناس بانواع الرقى والتمائم والتولة والطلاسم ونحوها مع تعطيل الاخذ بالاسباب فى الغالب وما الى ذلك من الامور المخالفة للعقيدة الاسلامية .

وأما بالنسبة للانحراف الذى حصل فى مفهوم عقيدة الالوهية فى القرون الاخيرة فقد شابت مفهوم هذه العقيدة شوائب كثيرة واصابه انحسار خطير فى الناحية الفكرية التصورية وفى ناحية الحياة العملية السلوكية فتقلصت مدلولاته الواسعة فى نطاق ضيق محدود . واصبح الناس يعتقدون ان مجرد النطق بلا اله الا الله يكفى لضمان نجاة الانسان فى الدنيا والاخرة ظنا منهم ان التلفظ بهذه الكلمة يعطى الانسان صفة الاسلام الكامل وان لم يعرف مضمونها معرفة تامة ولم يلتزم بمقتضاها . وهناك مجموعة من الناس تردد هذه الكلمة صباح مساء باعداد

---

(١) كيف نفهم الاسلام ص ٢٤٧ .

هائلة ولكنها تجهل ما لهذه الكلمة من مقتضيات والتزامات كما ان معظم الذين يعرفون ان لهذه الكلمة مقتضيات لا يتبلور ذلك فى اذهانهم بصورة واضحة شاملة . وانك تجد عددا كبيرا من عامة المسلمين وبخاصة المتصوفين منهم يجلس احدهم فى زاوية من المسجد او فى مكان خلوته فى داره وهو يردد كلمة التوحيد فى ساعات الليل والنهار من دون معرفة ووعى وتدبر لمعناها وادراك صحيح لمقتضاها ولوازمها حتى اذا فرغ من عبادته وخرج الى الحياة العملية تجده ينخرط فيما يناقض العقيدة التى يقر بها بلسانه ويجهد نفسه بترديدها الف مرة لتنطلق اصداؤها فى الفضاء وتذروها الرياح كما تجد اخرين وبخاصة فى هذا العصر يزعم احدهم انه مقر بعقيدة الالوهية ولكنه لا يشعر باى غضاضة او عيب حين يبوح باعتناق نظريات اجتماعية واقتصادية او سياسية بينها وبين نظم الاسلام ومبادئه فرجة بعيدة واسعة لا يمكن معها اى التقاء او تقارب او تفاعل باى حال من الاحوال .

ولقد لعبت طائفة المرجئة دورا خطيرا فى انحسار مفهوم عقيدة الالوهية فى نطاق ضيق فى اذهان الناس وفى واقع حياتهم العملية حيث اسسوا مذهبهم فى العقيدة على قاعدة خاطئة تقرر ان الايمان بالله هو المعرفة فقط او الاقرار او التصديق بالقلب واللسان وان الكفر هو الجهل فقط، وان الكفر لا يكون الا باللسان دون غيره من الجوارح (١) . وقد اخروا العمل عن الايمان وقالوا انه لا يضر مع الايمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة ، واوردوا بعض النصوص العامة لتقرير صحة

---

(١) انظر مقالات الاسلاميين للاشعرى ١/١٩٧-٢٠٧ وكذلك الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٠٢-٢٠٧ .

مذهبهم دون النظر لجميع النصوص العامة والخاصة التي وردت في هذه القضية الخطيرة ولم يرجعوا الى مابينه السلف في هذه المسألة في كتب الحديث والتفسير .
وقد كان اكثر السلف يقسمون توحيد الالوهية الى توحيد المعرفة والاثبات وتوحيد الطلب والقصد ويجعلون التزام طاعة الله وامره ونهيه من حقوق التوحيد ومكملاته . وبعضهم يقسمونه إلى قسمين متلازمين الاول توحيد الطاعة والاتباع (اى الحاكمية) والثانى توحيد الارادة والقصد (وهو عبادة الله وخلع مايعبد من دونه) . وقد رد شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من السلف على المرجئة وفندوا اراءهم الفاسدة وكشفوا عن معتقداتهم الباطلة وبينوا للناس المفهوم الصحيح لعقيدة الالوهية بحجج ساطعة مقنعة ليس هنا مجال ذكر تفاصيلها ولكن رغم ذلك كان لمذهب المرجئة تاثير كبير فى افكار المسلمين من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون . ومن الخطأ ان نعتقد ان عقيدة المرجئة هى وحدها التى اثرت فى افكار المسلمين وسببت لهم هذا الانحراف الخطير فى مفهوم الالوهية اذ المعلوم ان هناك عوامل اخرى داخلية وخارجية عملت الى جانبها فيمابعد ووسعت الشقة بين المسلمين والفهم الصحيح لهذه العقيدة ولكن الشيء الذى لا يمكن انكاره هو ان عقيدة المرجئة تعتبر اول واهم العوامل الفكرية المنحرفة التى ادت الى هذه النتائج السيئة . وقد استدلت المرجئة ببعض النصوص العامة لاثبات صحة مذهبها منها قوله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله "(١) . وقوله صلى الله عليه وسلم لابى هريرة " .. اذهب

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الايمان باب الامر بقتال الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ١/ ٢١٠ - ٢١١ عن ابى هريرة .

بنعلى هاتين فمن لقيك من وراء هذا الحائط يشهد ان لا اله الا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة [(١)] .... الحديث . وحديث ابى ذر رضى الله عنه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم عليه ثوب ابيض ثم اتيته فاذا هو نائم ثم أتيته وقد استيقظ فجلست اليه فقال " ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة " . قلت وان زنى وان سرق ؟ قال وان زنى وان سرق ، قلت وان زنى وان سرق ؟ قال وان زنى وان سرق ثلاثا ثم قال فى الرابعة على رغم انف ابى ذر فخرج ابو ذر وهو يقول وان رغم انف أبى ذر " (٢) . وجاء فى حديث طويل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله " ... فان الله قد حرم على النار من قال لا اله الا الله يبتغى بذلك وجه الله " (٣) . وحديث ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه " أو " نفسه " (٤) . وكذلك الحديث الذى أنكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أسامة قتل من قال لا اله الا الله (٥) . الى غير ذلك من النصوص العامة التى وردت فى هذه المسألة . قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى توضيح هذه المسألة : " وقد علم بالاضطرار من دين الرسول صلى الله عليه وسلم واتفقت عليه الامة ان اصل الاسلام واول ما يؤمر به الخلق شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فبذلك يصير الكافر مسلما والعدو وليا والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال ثم ان كان ذلك من قلبه فقد دخل فى الايمان وان قاله بلسانه دون قلبه فهو فى ظاهر الاسلام دون باطن الايمان (٦) . ويقول العلامة

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الايمان باب من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ، ١ / ٢٣٤ - ٢٤٠ الحديث مطولا .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الايمان باب من مات لا يشرك بالله دخل الجنة ٢ / ٩٤ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الصلاة باب المساجد فى البيوت ١ / ١١٠ عن عتبان بن مالك .

(٤) رواه البخارى فى كتاب العلم باب الحرص على الحديث ١ / ٣٣ عن ابى هريرة .

(٥) رواه مسلم فى كتاب الايمان باب تحريم قتل الكافر بعد قوله لا اله الا الله ٢ / ٩٨ - ١٠١ .

(٦) الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٨٩ .

ابن القيم : " ليس التوحيد مجرد اقرار العبد بأنه لا خالق الا الله وان الله رب كل شئ ومليكه كما كان عباد الاصنام مقرين بذلك وهم مشركون بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له والذل له وكمال الانقياد لطاعته واخلاص العبادة له وإرادة وجهه الاعلى بجميع الاقوال والاعمال والمنع والعطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحبه وبين الاسباب الداعية الى المعاصى والاصرار عليها ومن عرف هذا عرف قول النبى صلى الله عليه وسلم "ان الله حرم على النار من قال لا اله الا الله يبتغى بذلك وجه الله " . وقوله : "لا يدخل النار من قال لا اله الا الله " وما جاء فى هذا الضرب من الاحاديث التى أشكلت على كثير من الناس . . . الى ان قال " فان الشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد القول باللسان فقط فان هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام فان المنافقين يقولونها بالسنتهم وهم تحت الجاحدين لها فى الدرك الاسفل من النار (١) " . ويقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ فى بيان المراد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث عبادة بن الصامت "من شهد ان لا اله الا الله . . . . الى ان قال " أدخله الله الجنة على ما كان من العمل " (٢) يقول الشيخ : "اى من تكلم بها (عقيدة التوحيد)عارفا لمعناها عاملا بمقتضاها باطنا وظاهرا فلابد فى الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولها كما قال الله تعالى " فاعلم انه لا اله الا الله " وقوله تعالى " الا من شهد بالحق وهم يعلمون " اما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما يقتضيه من

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٣٠-٣٣١

(٢) رواه البخارى فى كتاب الانبياء باب قوله تعالى يا اهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم .. الاية ٤/ ١٣٩ .

البراءة من الشرك واخلاص القول والعمل - قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح - فغير نافع بالاجماع "(١) . ويقول الاستاذ ابو الاعلى المودودى بعد ان اورد بعض تلك الاحاديث المذكورة التى تحتج بها المرجئة : " الخطاب - فى هذه الاحاديث موجه للافراد الذين لاشك فى انهم بلغوا الذروة فى حسن الاسلام وكماله ولم يكونوا يدركون تمام الادراك تعاليم القرآن وقوانين الاسلام فحسب بل كانوا فوق ذلك يتكيفون بها فى حياتهم الواقعية . فالذى اله صلى الله عليه وسلم لهم لا يخشى منه ابدا انه يجعلهم يقتنعون بعقيدة التوحيد ويعتبرون كل ما سواه من المقومات الاساسية للاسلام وحقوقه والتزاماته امرا لالزوم فيه للمسلم . ولذلك فان الرسول صلى الله عليه وسلم اقتصر على ان يسترعى انتباههم الى جوهر الاسلام وركنه الاساس وهو عقيدة التوحيد وان يذكر لهم ان الغاية الحقيقية التى استهدفتها بعثة الانبياء والرسل هى ان يخرجوا الناس من ظلمات عبودية غير الله الى نور عبودية الله وحده وان سعادة الانسان فى الدنيا وفلاحه فى الاخرة يكمن فى خروجه من عبودية غير الله الى عبودية الله وحده . ومن ادرك هذه الحقيقة السامية وعلم أحسن العلم ان ليس فى الدنيا شئ غير الله يملك ولو جانبا يسيرا من الالوهية وان الله هو الواحد الذى يجب على الانسان ان يعبده ويطيعه وينقاد له ويفزع اليه ، من أدرك ذلك يتجنب فى حياته بدون ماريب الطرق الملتوية المؤدية الى الدمار ويسلك سواء السبيل وتستقيم فطرته فلا يبتغى الا الصدق ولا يتحرى الا سبيل التقوى ولا يماطل اداء ما الزمه الله من الحقوق ولا يقصر فى القيام بما فرضه الله عليه من الفروض (٢) . وبذلك نرى أن عقيدة

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٤٠ .

(٢) مفاهيم اسلامية ص ٤٨ . تعريب خليل احمد الحامدى مدير دار العروبة للدعوة الاسلامية .

التوحيد تكفل للانسان سلامة الفكر وسداد الرأى ونزاهة السلوك والاستقامة على الحق وان كان ذلك لا يمنع ان تصدر منه أخطاء وذنوب فى بعض الاحيان بحكم ما هو مفطور عليه من الضعف الا ان قوة ايمانه سترغمه على الندم عليها والتوبة الى الله وعدم الاصرار . ومن خلال كل ما تقدم نقف على المعنى الصحيح لتلك الاحاديث السالفة الذكر ونحوها كما فهمها الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الكاملون فى ايمانهم الراسخون فى العلم الذين بين لهم الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة الكبرى وفهموها فهما صحيحا ووعوا مدلولاتها الواسعة الشاملة وما كان احد هم يفهم من هذه الاحاديث ان مجرد الاقرار بعقيدة الالوهية كاف لضمان الفوز والنجاة للانسان فى الدنيا والاخرة وقد نهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم ان يبوحوا بهذه الحقيقة لعامة المسلمين حتى لا يسيئوا فهمها كما جاء فى حديث أنس رضى الله عنه عندما قال للرسول صلى الله عليه وسلم "أفلا أخبر به الناس فيستبشروا فقال عليه الصلاة والسلام : " اذن يتكلوا "(١) . وقد حصل ذلك لطائفة المرجئة ثم امتد خطؤهم الفاحش وسوء فهمهم الى المتأخرين من هذه الامة حين اكتفوا بمجرد التلفظ بعقيدة الالوهية وحسبوا ان ذلك يعطيهم صفة الاسلام الكامل وان لا مانع بعد ذلك ان ينادوا بما شاءوا من النظريات الباطلة والمعتقدات المنحرفة وان يقترفوا ما احبوا من الوان الفسق والفجور وانواع الرذائل والمعاصى والبدع والخرافات وقد فاتهم الا نجاة فى الاخرة بدون العمل الصالح (وهو التزام طاعة الله واتباع اوامره واجتناب نواهيه) فالقرآن الكريم لا يبشر بالفوز والنجاة والجنة الا من

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان باب من مات على التوحيد دخل الجنة (١/ ٢٤٠-٢٤٢ عن قتادة عن أنس بن مالك .

جاء يوم القيامة بالايمان والعمل الصالح كما جاء ذلك فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : " والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات (١) . . . الاية .

وقوله : " ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الانهار (٢) . . الاية .

وقد كان من نتائج سوء فهم المسلمين لعقيدة الالوهية فى القرنين الاخيرين بوجه خاص انحرافهم الخطير فى السلوك العملى فى مقتضى توحيد الطاعة والاتباع (اى حاكمية الله) فقد نسوا او تناسوا تلك القاعدة الإيمانية الكبرى " لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق " وغفلوا او تغافلوا عن معنى قوله تعالى : " اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء " (٣) . وقوله تعالى : " وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق (٤) . . الاية . وقوله تعالى : " أفحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون " (٥) . وكان نتيجة ذلك ان صرف المسلمون هذا النوع من العقيدة (اى الحاكمية) او بعض خصائصها الى فئتين من الناس اولاهما الحكام والولاة واخراهما الاولياء ومشايخ الطرق الصوفية . واما الحكام والولاة فقد ازداد انحرافهم فى منهج الحكم واخذوا يتوسعون فى خطط " الاصلاحات " التنظيمية والادارية والدستورية وكانوا يقتبسون النظم والقوانين من الامم الاكثر حضارة منهم . واننا لا ننكر ان بعض هؤلاء الحكام يصدر عن حسن نية ولكن هذا العمل بدون شك قد مهد الطريق لمن جاء بعدهم من الحكام المارقين الذين

---

(١) سورة النساء آية (٥٧) .
(٢) سورة التغابن آية (٩) .
(٣) سورة الاعراف آية (٣) .
(٤) سورة المائدة آية (٤٨) .
(٥) سورة المائدة آية (٥٠) .

استوردوا النظم والقوانين الوضعية واحلوها محل شريعة الله ونحوا شرع الله عن مجال الحكم والسياسة وكان على راس هؤلاء مصطفى كمال اتاتورك ثم جاء بعده عدد كثير من امثاله فى أنحاء العالم الاسلامى . وكان علماء المسلمين والمشايخ قد لزموا السكوت وقعدوا عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما يخص مسألة الحكم وتحكيم شريعة الله فى واقع الارض وقد رأيناهم يدعون الناس الى تحقيق عقيدة الالوهية والالتزام بمقتضاها حين يقولون لهم ليل نهار ان من سجد لغير الله فقد اشرك ومن اعتقد ان هناك من يخلق ويرزق ويدبر الامور من دون الله فقد اشرك الى غير ذلك من الامور التى تنافى عقيدة الالوهية والوحدانية ولكنهم خوفا من الفتنة لا يعرجون على ذكر من يحكم بغير ما انزل الله ومن رضى بهذا الحكم ، وقد استمرت الحال على هذا الوضع فترة من الزمن ، قامت فى اثنائها عوامل اخرى داخلية وخارجية تمد خط هذا الانحراف وتوسعه واصبح مفهوم الدين ينحصر فى اذهان الناس فى دائرة ضيقة فى شئون حياة الناس وانفصل مجال الحكم والسياسة والتنظيم الادارى عن نطاق توجيهات الدين حتى غاب عن حس عامة المسلمين ان تحكيم شرع الله فى شئون الحياة العملية من اهم وآكد مستلزمات عقيدة الالوهية وكان بعضهم اذا حدثته عن ذلك يصرخ فى وجهك ويقول لك ما للدين والسياسة .. السياسة لعبة قذرة يجب ان ينزه الدين واهله من التلطخ بادرانها وهكذا توطد فى اذهان الناس عدم قيام علاقة بين الدين والسياسة حين اساءوا فهم عقيدة الالوهية واصبح الدين فى تصورهم وفى سلوكهم محصورا فى زاوية الشعائر التعبدية ومجرد علاقة بين العبد وربه وهو للاخرة وليس لدنيا الناس وللجانب الروحى والنفسى وليس له علاقة بالجانب المادى وبذلك اصبح الناس فى حل ان ينظموا شئونهم الدنيوية كيفما اتفق لهم وكيفما شاءوا دون ان يلتزموا بمنهج معين ينبثق

عن العقيدة الصحيحة فى الله ويقوم على توجيهات الدين ، ونقول لهؤلاء ...

ان الاسلام كل لا يتجزأ فاما ان يؤخذ كله واما انه لا يتحقق فى الواقع ولا تنطبق صفته على من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض فينتقص من اجزاء بنائه ويهدم بعض مقوماته الاساسية فهو عقيدة وعبادة وشريعة ومعاملات واخلاق (اى منهج متكامل لشئون الحياة الانسانية)ولا فائدة فى الاكتفاء ببعض اجزاء بناء الاسلام وترك البعض الآخر " يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا ان الله عزيز حكيم " (١) . " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " (٢) ." ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون " (٣) .

واما العلماء ومشايخ الطرق الصوفية والمشعوذون فقد انحرفوا كثيرا وانحرف عامة الناس باتباعهم فانتشرت بينهم المعتقدات الباطلة والبدع والخرافات والاباطيل ، فجاوزوا الحد المشروع فى تعظيم من يسمونهم اولياء وصالحين وغلوا فى تقديسهم واصبحوا يأتون عند قبورهم واضرحتهم بامور مستنكرة ومناقضة لعقيدة الالوهية حيث يطلبون منهم مالا يطلب الا من الله تعالى ويسألونهم قضاء حاجاتهم سواء كانوا امواتا ام احياء ويتخذونهم واسطة ووسيلة لا يدعون الله الا عن طريقهم ويبتغون عندهم شفاء المرض وتفريج الهم والكرب وزيادة الرزق وجلب المنفعة

---

(١) سورة البقرة اينا (٢٠٨-٢٠٩) .
(٢) سورة النساء اية (٦٥) .
(٣) سورة المائدة اية (٤٤) .

ودفع المضرة ويعكفون عند القبور والاضرحة والمشاهد للعبادة والتبرك معتقدين ان لهم بذلك عند الله الزلفى والقربى وانهم يثابون على ما يقومون به من النذور والذبائح والصدقات تقربا الى الموتى . وكانوا ينسبون الى هؤلاء الاولياء القدرة على التصرف فى شئون الكون فى حياتهم وبعد موتهم كما ينسبون اليهم الكرامات والكشوفات وجعلوا ذلك مقياس تقواهم وقربهم الى الله ودليل صدقهم ووجوب اتباع الناس لهم وكذلك يعتقد هؤلاء الجهال ان من اوليائهم ابدالا ونقباء وأوتادا ونجباء وسبعين وسبعة واربعين واربعة والقطب الذى هو الغوث للناس والذى عليه المدار بلا التباس . الى غير ذلك من معتقداتهم الفاسدة التى أخلت بصفاء العقيدة الاسلامية ونقلتها من حيز القوة الحيوية الدافعة الى مجموعة من الخرافات والخزعبلات والاباطيل نتيجة ضعف تفكيرهم وسخافة عقليتهم وجهلهم بحقيقة دين الله وعقائده الناصعة وتعاليمه الرشيدة وأدى ذلك الى ضعفهم وتخلفهم فى مضمار الحضارة والرقى والتقدم فى مجالات الحياة .

• • •

المبحث الثاني : الانحراف فى مفهوم العبـــــادة

ان مفهوم العبادة من أهم المفاهيم الاسلامية التى انحرف فيها المسلمــون عبر تاريخهم الطويل ، فقد عانى المفهوم الصحيح للعبادة انحسارا كبيــــرا وتشويها خطيرا فى الناحية التصورية الفكرية والناحية العملية السلوكية من حيـاة المسلمين منذ قرون طويلة .

والعبادة - كما يقررها الاسلام وكما فهمها المسلمون الاولون فى العهــد الاول من تاريخ الدعوة الاسلامية - هى الغاية العليا التى خلق الله الجـن والانس من أجلها . وهى مهمتهم فى الارض . قال الله تعالى : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " (١) . يقول الاستاذ ابو الاعلى المودودى فى بيان معنى العبادة وحقيقتها : " ان تصور العبادة فى حقيقته تصور شامل يكتمل بامتزاج تصورين ضمنيين هما العبودية والتنسك . اما العبودية فمعناها ان يقر الانسان بالكبرياء والجبروت فى قوة أعلى ثم يطيعها ويسلم لها قياده . واما التنســك فمعناه ان يعتبر الانسان فى قوة أعلى قداسة وعصمة وسموا ثم يطأطئ لها رأسه ويؤدى لها الطقوس وينذر لها النذور والقرابين (٢) " . ويتابع حديثه ويقــول : " ان التوحيد بين العبودية والتنسك هو الذى يمتاز به الانسان عن سائــر مخلوقات الله فى الارض وبه ينال عليها الفضل وينعم بالمكانة التى قال الله عز وجــل عنها إنها خلافته فى الارض . ومعنى عبودية الانسان لله تعالى انه متقبل له خاضع لقانون

---

(١) سورة الذاريات اية (٥٦) .
(٢) مفاهيم اسلامية ، تعريب خليل احمد الحامدى ص١٢ .

فطرته بدون قصد ولا معرفة وفى هذا لا يختلف الانسان عن سائر مخلوقات اللـــه ،
ثم اذا استخدم هذا الانسان مامنحه الله من حرية الارادة والاختيار وما وهبـــه
من قوة العلم والادراك لكى يعرف الهه الذى خلقه فيعبده ويطيعه فى كل ماشرعـــه
لعباده من الدين فقد جمع بين العبودية والتنسك ونال الشرف والفضيلـــة
على سائر المخلوقات واستحق منزلة الخلافة فى الارض (١) " . ويوضح الاستـــاذ
المودودى معنى التنسك وحقيقته بذكر امرين لا يتحقق التنسك فى صورته الكاملـــة
الا بهما ، أولهما " أن يعرف الانسان معبوده الحقيقى معرفة خالصة لا تشوبهـــا
ادنى شائبة للشرك او الكفر او الجحود اوالريب والشك ، ولا يخاف معهـــا
أحدا غيره ولا يطمع فى انعامه ولا يتوكل على قوته ولا ينسب اليه الالوهية اوالربوبية
ولا يرجو منه نفعا او ضرا ولا يتعلق به علاقة العبد بمعبوده فهذا هو الايمان " .
وثانيهما : "أن يطيع فيما يخص (يختص) بحياته الاختيارية الحكم الخلقى لهذا
المعبود كما يطيع حكمه الطبعى فيما يخص (يختص) بحياته الاجبارية حتى تصير حياتـــه
بنا حيتيها قائمة على منهج الله سائرة على هديه وشرائعه وتعاليمه وتكون مصطبغة
بصبغته بحيث لا يبدو فيها شىء من التخالف والتناقض من أى جهة من الجهات
فهذا هو العمل الصالح " (٢) . ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية فى بيان معنـــى
العبادة ودائرتها الرحبة التى تشمل شئون الانسان كلها وتستوعب نواحى الحيـــاة
كلها : " العبادة هى اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الاقوال والاعمـــال
الباطنة والظاهرة . فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث واداء الامانة
وبر الوالدين وصلة الارحام والوفاء بالعهود والامر بالمعروف والنهى عن المنكـــر

---

(١) مفاهيم اسلامية ص ٢٥-٢٦ (بتصرف بسيط) .
(٢) نفس المصدر ص ٢٩-٣٠ (بتصرف بسيط) .

والجهاد للكفار والمنافقين والاحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الادميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وامثال ذلك من العبادة . وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والانابة اليه واخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وامثال ذلك هي من العبادة لله "(١) ، ويقول في موضع آخر عن شمول معنى العبادة لاعمال الانسان في الحياة العادية من الاخذ بالاسباب ومراعاة السنن التي اقام الله عليها الكون : " فكل ما أمر الله به عباده من الاسباب فهو عبادة "(٢) .

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا المفهوم الصحيح للعبادة كما بينه كتاب الله وشرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما فهمه المسلمون الاولون وعاشوا حياتهم كل لحظة من لحظاتها وكل حين من احيانها في دائرة العبادة الواسعة ومجالاتها الفسيحة . وقد فهم المسلمون الاوائل ان خوفهم لله تعالى في كل شأن من شئون حياتهم وابتغاءهم مرضاته في كل اعمالهم واتباعهم شريعة الله وسيرهم على منهجه وصدورهم عن مقتضى امره فيما يفعلونه او يدعونه من الاعمال وصبرهم على كل ماينالهم في سبيل طاعة ربهم ورفضهم كل مايخالف امر الله كل ذلك يجعل اعمالهم وتصرفاتهم في كل لحظة من لحظات حياتهم عبادة لله تعالى . وبذلك كانت حياتهم من أولها الى آخرها عبادة لله تعالى وفي حياة تلك صفاتها ومقوماتها .لا يكون الاكل ولا الشرب ولا النوم و لا اليقظة ولا القعود والقيام والمشي ولا الكلام والسكوت والتفكير ولا النطق والسمع الا من عبادة الله تعالى .وكما كانوا يعبدون الله حين يؤدون عباداتهم المفروضة من صلاة وزكاة وصوم وحج فكذلك كانوا يعبدونه حين يتخلون

---

(١) العبودية ص ٣٨ ، طه المكتب الاسلامي .

(٢) نفس المصدر ص ٧٣ .

عن الحرام في حياتهم ويتلمسون الحلال ويرضون بما قسمه الله لهم وحين يتجنبون الظلم والكذب والغش والفحش ويلتزمون بالصدق والامانة والعدل والخير وحين يعاملون الناس بالحسنى ويؤدون اليهم حقوقهم ولا يبخسونهم شيئا منها وحين يتعاطون انواع التجارة والصناعة ويقومون بالخدمات ويؤدون الواجبات . كانوا يعبدون الله حين يفعلون ذلك كله لأنهم لا يفعلونه الا لان الله يحبه ويأمرهم به ، انهم يصدرون عن مقتضى امر الله ويراعون احكامه وشرائعه ويبتغون وجهه ومرضاته في كل شأن من شئون حياتهم ، فالذي يقضي حياته على هذا الطريق تكون لحظات حياته كلها في عبادة الله . هذه هي العبادة في معناها الحقيقي ومفهومها الصحيح وهدف الاسلام حين يدعو الناس الى عبادة الله هو ان يعيشوا لحظات حياتهم كلها في عبادة الله على هذا المعنى الواسع الشامل وليس هدفه ان يخصص الانسان دقائق معدودة او ساعات محدودة من حياته اليومية لبعض الوان العبادات المفروضة ليحيا في اجوائها بنفحات العبودية وحلاوة التقرب الى الله ثم بعدها ينقطع عن عبادة الله في بقية لحظات حياته ومجالاتها (١) . وهذا المفهوم الصحيح للعبادة هو معنى قوله تعالى : " قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين "(٢) . فالعبادات المفروضة المعروفة من صلاة وزكاة وصوم وحج وذكر وتسبيح ودعاء ونحوه ان هي الا تمرينات تربوية تعد الانسان نفسيا وروحيا للعبادة الكبرى التي تسمو بحياته الى أرفع درجات الحياة الانسانية وتجعله في كلتا حالتيه الاجبارية والاختيارية خاضعا لله مطيعا لاوامره منفذا لارادته في جميع حركاته وسكناته (حسب استطاعته) يعيش

---

(١) انظر مبادىء الاسلام للمودودي ص ١١٧-١١٩ ، و "مفاهيم اسلامية للمؤلف نفسه ص ٢٩-٣٢ .

(٢) سورة الأنعام آيتا (١٦٢-١٦٣) .

فى دائرة العبودية الرحبة فى جميع نواحى حياته (١) . ومن هذه الناحية حظيت هذه العبادات باهمية كبيرة فى الاسلام حيثجعلت اركانا اساسية لبناء الاسلام كمااعتبرت فرائض وتكاليف لا يتم بناءالحياة الاسلامية الا بها . وهكذا فهم الاولون من المسلمين العبادة على اوسع معانيها وفى شمولها للدين كله كما تقدم فى كلام الشيخ ابن تيمية ولنواحى الحياة الانسانية كلها ولكيان الانسان وروحه وقلبه وجوارحه (٢) . وبهذا الفهم الشامل الكامل الذى تعمق فى قلوبالاولين شمروا عن ساعد الجد وواصلوا مسيرتهم الميمونة لبلوغ اعلى درجاتالعبادة فى شتى مناحى الحياة فاخلصوا دينهم لله واجهد وانفسهم للوفاء بماعاهدوا الله عليه وقصدوا وجه الله تعالى ومرضاته فى جميع امورهم واعمالهم فعاشوا حياتهم كلها فى عبادة ربهم وطاعته ولم يكتفوا بتطبيق تعاليم الدين والتزام منهجه وشريعته فى ذوات انفسهم وفى مجتمعهم المحدود بل سعوا بجد وعزم بالغين لنشر دين اللهوتنفيذ اوامره وارادته فى العالم كله . ولم يقنعوا بماكانوا يتمتعون به فى ظل الاسلام من السعادة والامن والاستقرار بل جاهدوا جهاد المستميت فى سبيل نشر الحق واقرار الامن والاستقرار فى المجتمعاتالبشرية من حولهم لانقاذها ماترزح تحته من الوان الذل والهوان والظلم والفساد وتخليصها من قبضة الطغاة المتجبرين وانظمتهم الظالمة وقد قدموا فى سبيل ذلك أمثلة رائعة من التضحيةوالتفانى فكان جزاؤهم فى الدنيا هو مابينه الحق سبحانهوتعالى فى كتابه العزيز " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كمااستخلف الذين من قبلهموليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا (٣) . . الاية .

---

(١) انظر الاستاذ محمد قطب : " هل نحن مسلمون " ص ٤٤ـ٥ ٤ .

(٢) راجع كلام العلامةابن القيم حول قواعد العبادة ومراتبها واستيعابها للنشاط البشرى كله وشمولها لكيان الانسانكله فى مدارج السالكين ١ / ٠ ٩ ١ومابعدها .

(٣) سورةالنورآية (٥٥) .

هذا هو الأفق الأعلى الذى وصل اليه الاولون فى فهم العبادة وتطبيقها على أوسع معانيها فى واقع حياتهم كما رأينا ثم اننا نلاحظ منذ عصور طويلة من تاريخ هذه الامة ان هذا المفهوم الصحيح للعبادة قد عانى (لايزال يعانى) انحسارا خطيرا وتشويها كبيرا فى الناحية الفكرية التصورية والناحية العملية السلوكية معا ، فقد وقع المسلمون فى خطأ كبير فى فهم العبادة على حقيقتها ومعناها الصحيح وحصروا مدلولاتها فى نطاق محدود وضيقوا مجالاتها الواسعة وابعدوا معظم مقوماتها الاساسية عن مقاصدها وغاياتها وبذلك تبدلت صورة العبادة الصحيحة وتحولت الى صور ناقصة او منحرفة مشوهة تحوى نسبة ضئيلة من ملامح ومقومات الصورة الأصيلة للعبادة قد اضيفت اليها مجموعة من أخلاط وعناصر غريبة تتناقض مع عقائد الاسلام ومبادئه وتعاليمه .

فلننظر الان متى بدأ هذا الانحراف فى الظهور وكيف أخذ فى التزايد والانتشار حتى غطت مظاهره أجواء الحياة الاسلامية وأدى ذلك مع مرور الزمن الى هذه الحالة السيئة التى يعيشها المسلمون اليوم فى انحاء العالم الاسلامى .

بدأ الانحراف فى مفهوم العبادة منذ العصر العباسى حين ظهرت الصوفية (١) فى الحياة الاسلامية رد فعل لانكباب الناس على الدنيا وانغماسهم فى حياة الترف والعربدة والمجون وانصرافهم عن الاهتمام بالدار الاخرة . ولكن رد الفعل نفسه كان انحرافا اخر خطيرا لان الصوفية تتبنى نظرة عدائية للحياة الدنيا وتدعو الى الانعزال عن ركبها وتصر نشاط الانسان وعمله فى الحياة على جانب التربية الروحية النفسية والتطهر الخلقى وكان من نتائج ذلك كله انحصار مفهوم

---

(١) كلامنا عن الصوفية هنا وفى جميع المواضع التى وردت فيها لفظة الصوفية او المتصوفين في هذا البحث انما نقصد بها تلك التى لم تاخذ بمنهج القران الكريم والسنة المطهرة فانحرفت عن جادة الطريق قليلا او كثيرا .

العبادة فى دائرة الشعائر التعبدية والاذكار والمراسم واعتبار مجالات الحياة المتعددة خارجة عن نطاق العبادة لان الدنيا ملعونة وملعون ما فيها وليس ينقذ الانسان من شر الدنيا الا العزوف عنها والفرار منها والاقبال على الاخرة .
وقد ادى هذا الانحراف الى انقسام الناس فى المجتمع المسلم الى فئتين كبيرتين كل منهما يسىء فهم العبادة على حقيقتها ومعناها الصحيح وينظر الى الدنيا والاخرة نظرة خاطئة وكانت الفئة الاولى تعد نفسها صالحة بانصرافها الى انواع الشعائر والقربات وتركها الدنيا ومجالاتها الواسعة التى يعتبر الاسلام العمل فيها من العبادة والطاعة اذا حسنت النية وقصد به وجه الله تعالى .وأما الفئة الثانية فقد أخلدت الى الحياة الدنيا وهى مفتونة بشهواتها وزخارفها فالهاها ذلك عن جانب كبير من مهام الدين وصرفها عن الاهتمام العمل للاسلام وقضايا المسلمين .

وهكذا "اقبل العامة بقيادة المتصوفين على الطقوس والاوراد واقبل الحكام ومن فى حواشيهم وركابهم على الشهوات والملذات .وهذا الخلط الصوفى الاحمق يعتبر اول صدع أصاب التفكير الاسلامى فى صميمه بل اول تصدع أصاب كيان الامة الاسلامية - فيما بعد - بالانهيار "(١) . والواقع ان مجموعة كبيرة من الناس لم ينقطعوا عن الدنيا والعمل فيها ولكن نظرتهم الى الحياة المادية كانت مشوبة بافكار الصوفية السيئة وكان احساسهم حين يقومون باعمال دنيوية أنهم خارجون عن دائرة عبادة الله منخرطون فى الناحية المذمومة من الحياة لانهم لا يرون انفسهم يعبدون الله ويطيعون امره حين يعملون فى مجالات الحياة المادية لان العبادة فى نظرهم تقتضى الانقطاع الكامل عن الدنيا بكل ما فيها

---

(١) الشيخ محمد الغزالى : الاسلام المفترى عليه ص ٦٨ .

لاخلاص الوجه والقلب والعمل لله والتفرغ لانواع الشعائر والاذكار والقربات لنيل الاخرة. وهكذا نرى كيف افسد ت افكار التصوف نظرة المسلمين الى الحياة الانسانية - كما رسم خطوطها القرآن - ونرى كذلك كيف افسد ت عمل المسلمين بد ينهم وعملهم له ، وكانت لذلك آثاره السيئة فى نواحى حياة الاجيال الاسلامية المتأخرة (١).

وان الانفصام التدريجى الذى بدأ يظهر فى الحياة الاسلامية منذ ظهور الصوفية وانتشار افكارها الخاطئة بين الناس قد كان الدعاة اليه والعاملون لتمكينه فى المجتمع يتخذون له حجة وسندا من عمل الفقهاء المتاخرين فى تقسيم احكام الشرع الى " عبادات " و " معاملات " (اى اعمال تعبد ية محضة واعمال اخرى تتعلق بالنشاط الاجتماعى والاقتصادى وما الى ذلك) . وقد اصبح هذا التقسيم فيما بعد دعامة قوية يستند اليها هؤلاء المنحرفون فى مفهوم العبادة فازدادوا انزواء عن الحياة الدنيا وازداد الانفصام العملى ظهورا وتعمقا فى الحياة الاسلامية . هذا ولم يكن قصد الفقهاء المتاخرين فى هذا التقسيم الدلالة على ان بعض نشاط الانسان عبادة وان البعض الاخر خارج عن نطاق العبادة ولا ان الجانب التعبدى المحض هو الملزم للامة وان الجانب الاخر المتعلق بالنشاط الاجتماعى والاقتصادى وغيرهما غير ملزم لهم . ولكن عملهم فى هذا التقسيم انما هو لمجرد اعتبارات فنية واصطلاحية تقتضيها طبيعة التصنيف والتأليف العلمى وكان قصدهم مجرد التفريق بين نوعين من الاحكام الشرعية لبيان اصولهما وصورهما وموقف الشارع منهما . فالنوع الاول يضم الصور والكيفيات المحددة التى شرعها الله تعالى ليتقرب عباده اليه بادائها فالمنشىء لهذا النوع من العبادة والامر به هو الشارع الحكيم وليس من حق غيره ان ينشىء او يبتدع صورا

---

(١) اقرأ فصل " علوم الحياة ونشاطها " فى كتاب كيف نفهم الاسلام للشيخ محمد الغزالى ص ٤٨-٧٢ .

للعبادة من عند نفسه وأما الفرع الثاني فهو يشمل الاحكام التي تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض في حياتهم ومعايشهم فالعباد هم المنشئون لهذه العلاقات ولكن مهمة الشارع هي أن يعدلها ويهذبها ويقر الصالح والنافع منها ويمنع الفاسد الضار . يقول الشهيد سيد قطب حول مسألة التقسيم والاثار السيئة التي نتجت عنها في الحياة الاسلامية من الناحيتين التصورية والعملية : " ان تقسيم النشاط الانساني الى عبادات و " معاملات " مسألة جاءت متأخرة عند التاليف في مادة " الفقه " ومع انه كان المقصود به في اول الامر مجرد التقسيم " الفني " الذي هو طابع التأليف العلمي الا انه - مع الاسف - انشأ فيما بعد اثارا سيئة في التصور تبعته - بعد فترة - اثار سيئة في الحياة الاسلامية كلها ان جعل يترسب في تصورات الناس ان صفة (العبادة) انما هي خاصة بالنوع الاول من النشاط الذي يتناوله " فقه العبادات " بينما اخذت هذه الصفة تبهت بالقياس الى النوع الثاني من النشاط الذي يتناوله " فقه المعاملات " . ان ذلك التقسيم - بمرور الزمن - جعل بعض الناس يفهمون انهم يملكون ان يكونوا " مسلمين " اذا هم ادوا نشاط " العبادات " وفق احكام الاسلام بينما هم يزاولون كل نشاط " المعاملات " وفق منهج آخر لا يتلقونه من الله ولكن من اله آخر هو الذي يشرع لهم في شئون الحياة مالم يأذن به الله . وهذا وهم كبير فالاسلام وحدة لا تنفصم وكل من يفصمه الى شطرين - على هذا النحو - فانما يخرج من هذه الوحدة او بتعبير آخر يخرج من هذا الدين " (١) .

لقد استمر انحراف المسلمين في مفهوم العبادة طوال العصور الاسلامية الطويلة وكان المفهوم الصحيح يعاني انحسارا وتقلصا يوما بعد يوم حتى اصبحت

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ص ١٣١-١٣٢ .

صورة العبادة الناصعة مشوهة وقد غشيتها كومة من الغبرة كادت تخفى معالمها الاساسية وبلغ الامر مداه من السوء والخطورة فى اواخر العهد العثمانـــى وفى القرنين الاخيرين بوجه خاص حين امتد خط هذا الانحراف واتسعت دائرتـه حتى شملت افاق الحياة الاسلامية كلها فانتهت العبادة فى تصور المسلمين وفـى واقع حياتهم العملية الى صورة مشوهة منحرفة هزيلة لا تحمل فى عناصر تركيبهـا الا نسبة ضئيلة من العبادة الحقة ممزوجة بمجموعة من البدع والخرافات والاباطيـل .

واذا استعرضت صورة عامة لما تحولت اليه العبادة فى حياة المسلمين تجـد تشويها كبيرا لحقيقة العبادة وانحرافا خطيرا عن معناها الصحيح الذى قـرره الاسلام وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله ثم عاش حياته الطاهـرة كل لحظة من لحظاتها فى عبادة الله وطاعته وكذلك صحابته الكرام ، وفى حيـاة المسلمين المتأخرين اصبحت العبادة مقصورة على الشعائر التعبدية وقـد وجهوا اهتماماتهم اليها وصرفوا اليها وجوههم وقلوبهم وقواهم وكانها هـى العبادة كلها . وقد انعزلوا عن بقية المقومات الاساسية للعبادة واعتقـدوا ان انواع المعاملات والعلاقات العامة فى الحياة الانسانية لا علاقة لها بعبـادة الله بل هى من فضول الاعمال التى يشغل الانسان عن الله وعن عبادته وطاعته .

وبذلك ترك الناس كثيرا من مهام الدين فى مجالات الحياة العامة مما يعتبـره الاسلام من اهم انواع العبادة كالجهاد والامر بالمعروف والنهى عن المنكـر ومقاومة الظلم والطغيان والنظر فى الكون والتفكير فى ايات الله وسننه واتخـاذ الاسباب وعمارة الارض وما الى ذلك من الامور المهمة . وقد ابتدعوا فى دين الله صورا متعددة من العبادات والقربات كصيام ايام مخصوصة لم يرد الامر بصومها واختراع ادعية واوراد واذكار يلتزمون بها ويجهدون انفسهم بترديدها باعـداد

كبير فى ساعات الليل والنهار وممارسة الوان من الامور البدعية عند قبور الاولياء والصالحين "وكانوا يقدسون الموتى ويغالون فى احترامهم وينذرون لهم النذور ويذبحون لهم الذبائح ويشدون الرحال الى قبورهم ويعكفون عليها ويتمسحون بها ويتخذون عندها الاعياد والمراسم والاحتفالات ويطلبون من اوليائهم قضاء حاجاتهم من جلب رزق او دفع مضرة . وقد غدت العبادة بهذه الصورة المنحرفة المشوهة تشغل حيزا كبيرا من حياة الانسان بحيث لا تبقى مكانا للعبادة الحقة والاهتمام بمقوماتها الاساسية . كما أن المقاصد الحقيقية للعبادة وغاياتها السامية التى تحققها فى الحياة الانسانية قد تحولت الى امور معنوية بعيدة المنال واخرى خيالية حيث ان العباد المتبتلين والمرشدين الاقطاب يغرسون فى نفوس اتباعهم ويوجهونهم الى ان الغاية العليا التى ينبغى أن يسموا ويتفانوا فى سبيل بلوغها بعبادتهم هى " الوصول " الى الله والى " المعرفة " وحصول "الفتوح والكشوفات الربانية لهم" كما يغرسون فى نفوسهم ان العبد لا ينال ولاية الله الا بالتفانى والتماوت فى العبادات المخصوصة والاعمال الفردية التى انحصرت فيها العبادة الحقيقية عندهم كما تقدم بيانها . ويقولون لاتباعهم ان من علامات ولاية الله لعبد من عباده فعل الخوارق والكرامات وهو مقياس التقوى والصلاح وهو دليل بلوغ العابد اعلى منازل العبادة ونيله شرف الولاية وبذلك يستحق اتباع الناس له ويكون اهلا لضمان النجاة لهم فى الاخرة . ولقد أسرف كثير من الشيوخ المتصوفين فى دعوى محبة الله وولايته لهم حتى لقد بلغ الامر ببعضهم الى أن يدعوا دعاوى عريضة تتنافى مع مقام العبودية وكانوا يطلبون امورا عظاما لا يجوز حتى للانبياء والمرسلين ان يطلبوها فضلا عن هؤلاء الجهلاء الحمقى . وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ المتصوفة واسباب ذلك ضعف تحقيق العبودية وضعف العقل

الذى يعرف به العبد حقيقته . يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :" وكثير من السالكين سلكوا فى دعوى حب الله انواعا من امور الجهل بالدين اما من تعدى حدود الله واما من تضييع حقوق الله واما من ادعاء الدعاوى الباطلة التى لا حقيقة لها كقول بعضهم : اى مريد لى ترك فى النار احدا فانا برئ منه فقال الاخر : اى مريد لى ترك احدا من المؤمنين يدخل النار فانا منه برئ . فالاول جعل مريده يخرج كل من فى النار . والثانى جعل مريده يمنع اهل الكبائر من دخول النار . ويقول بعضهم : اذا كان يوم القيامة نصبت خيمتى على جهنم حتى لا يدخلها احد ، وامثال ذلك من الاقوال التى تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين هى اما كذب عليهم واما غلط منهم .... الى ان قال : وكثير ممن يدعى المحبة يخرج عن شريعته وسنته صلى الله عليه وسلم ويدعى من الحالات مالا يتسع هذا الموضع لذكره حتى قد يظن احدهم سقوط الامر وتحليل الحرام له وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسنته وطاعته (١)".

وهكذا نرى من خلال ما تقدم كيف كان انحراف المسلمين فى المفهوم الصحيح للعبادة وكيف حصروا مدلولاتها الواسعة الشاملة فى نطاق ضيق محدود لا يتجاوز بعض انواع العبادات المخصوصة ومجموعة من الطقوس والمراسم التعبدية ولا يتناول الا جانبا ضيقا من مجالات الحياة الانسانية ، وكانوا يحسبون ان من أدى العبادة على هذا المعنى الضيق والمفهوم الخاطئ فقد أدى حق العبادة لله تعالى واصبح فى عداد العابدين الذاكرين الله والمصطفين الاخيار من خلقه . وقد وقع فى هذا الخطأ الجسيم عامة المسلمين وخاصتهم . اما الخاصة فقد انتظموا الى العبادة فى مفهومها الخاطئ واخذوا سبحاتهم وسجداتهم

---

(١) العبودية ص ١٢٩-١٣١ المكتب الاسلامى .

وانحازوا الى خاصة انفسهم وقبعوا فى حجراتهم وفى زوايا المساجد يؤدون العبادات المفروضة ويتبعونها بالصلوات النافلة فى ساعات الليل والنهار وصيام التطوع ويقومون بالاذكار والاوراد والادعية المأثورة والمخترعة المبتدعة ويقرأون القرآن آناء الليل واطراف النهار ولكن لنيل ثواب التلاوة فقط وقد يختم احدهم القرآن فى يوم وليلة وبعضهم فى ثلاثة او سبعة ايام ومنهم من يلتزم ذلك طول حياته لا يتوانى فيه ولا ينقطع وكذلك يقرأون احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ويدرسون سيرته العطرة وسيرة اصحابه الكرام ولكن لمجرد التبرك والاعجاب بروعة القصص والاخبار ، انهم لا يجدون فى قراءتهم لايات القرآن الكريم واحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ولا فى دراستهم لسيرته ماوجده الاولون من قوة وحيوية دفعتهم الى القيام بواجبات الدين ودعوة الناس الى الخير والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله بكل مايملكون من نفس ونفيس . ان هؤلاء الاولياء والائمة الصوفية والعلماء العابدين قد انعزلوا عن ركب الحياة واستغرقوا فى العبادات المخصوصة والاعمال الفردية مغلقين على أنفسهم ابواب بيوتهم مغمضين عيونهم فى بلاهة وجهل عما يجرى من حولهم فى واقع مجتمعهم البائس المنحل الذى عمته ظلمات متراكمة من الشر والظلم واحاط الجهل والضلال بالناس فى فكرهم وعقلهم وسلوكهم وكادت السيول الجارفة من الفسق والفجور والانحلال تبلغ الزبى على مرأى من هؤلاء العباد المتبتلين ومسمع وهى تناطح جدران بيوتهم وتطاولها وتحاول ان تقتحمها عليهم ولا يزيدهم ذلك الا هروبا عن الدنيا وقضايا المجتمع وانزواء الى خاصتهم تاركين ميدان الحياة للطغاة الجبابرة فسيطروا على مقاليد الامور فى المجتمع ونشروا افكارهم ومعارفهم المضللة وطأطأت لهم الرؤوس ، وخضعت لهم الرقاب فنال هؤلاء المنحرفون المارقون والطغاة الجبابرة السيادة

والقيادة في الارض في حين نرى العباد المتبتلين الذين يعبدون الله على فهم ناقص ومعنى خاطئ ويحسبون انهم يؤدون العبادة على أكمل وجه ، ويستوفونها حقها غير منقوص / نراهم يجرون اذيال الذل والهوان ليس لهم حظ من الدنيا ولا لهم نصيب من سيادة الارض وقيادتها ولا يحظى دينهم بالتمكين والظهور ولم يتحقق لهم الامن والاستقرار ، واذا كان وعد الله لعباده المؤمنين الذين يعبدون الله حق عبادته ويعملون الصالحات هو استخلافهم في الارض ، وتمكين دينهم وتحقيق الامن والاستقرار لهم وكان حال هؤلاء العابدين هو ما وصفناه سابقا - مع العلم ان وعد الله لعباده لا يتخلف ولا يتبدل - افلا يكون ما أصاب هؤلاء من ذل وهوان وضعف وتخلف وخذلان امام اعدائهم هو نتيجة عدم تحقق الشرط الرباني فيهم وهو انهم لا يعبدون الله حق عبادته وعلى الوجه الذى يريده الله تعالى وكما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام بيانا شافيا ؟؟ . واما العامة فقد بلغ بهم الجهل بالدين مداه حيث لا تشغل العبادة من حياتهم اليومية الا دقائق معدودة او سويعات محدودة يقومون خلالها بانواع الشعائر والطقوس والمراسم والبدع والخرافات ويقضون بقية اوقاتهم في مختلف مجالات الحياة في حل من عبادة الله وطاعته . فتراهم يسيرون في اتجاهات مناقضة لمنهج الله وهديه ويتبعون من دون الله اولياء وينكسون رؤوسهم لكل الصور الالهة الباطلة من اهواء وتقاليد واعراف وطواغيت ، ويتعدون حدود شرع الله ولا يأتمرون بامره ولا ينتهون الى نهيه ، ويجترحون السيئات والمنكرات من الكذب والخيانة والغش ويفسدون في الارض ، ويمشون بين الناس بالغيبة والنميمة ، وينكثون العهود والمواثيق ، ويستحلون المحارم ، ويظلمون الضعفاء ، ويبخسونهم حقوقهم ، ولكنهم حين يفعلون ذلك كله يحسبون انهم مسلمون

حقيقيون عابدون الله مخلصون له الدين لانهم يؤدون الصلوات الخمس ولو أداء آليا لا روح فيه ولا معنى ويقرأون القرآن ولو مجرد قراءة لا تتجاوز اللسان والحلقوم ولا يصحبها تدبر لمعاني الايات وعمل بما فيها من شرائع واحكام وتوجيهات وآداب ولانهم يصومون شهر رمضان ويؤدون زكاة بعض اموالهم ويؤدون فريضة الحج وسنة العمرة بالاضافة الى ما تقدم بيانه مما يقومون به من الطقوس والمراسم والاذكار والادعية والمزارات والقربات والنذور والاحتفالات . وقد وصل بهم الامر من السوء حتى جعلوا هذه الامور بديلا عن اتخاذ الاسباب المشروعة لتحقيق الغايات المادية فى واقع الحياة فكانوا يكتفون بهذه الامور من صلاة النوافل وصيام التطوع وقراءة الادعية او قراءة القرآن كله او بعض سوره لجلب الرزق بدل السعى والعمل ولطلب الشفاء بدل استعمال الدواء ولطلب النصر على الاعداء بدل اعداد القوة للجهاد وقد يلجأون الى انواع الرقى والتمائم والطلاسم والتمتمات وزيارة بعض الامكنة الخاصة من اجل التماس المنفعة ودفع المضرة عن انفسهم . وقد نسوا أو تناسوا ان المسلمين الاوائل كانوا يتخذون الاسباب المشروعة لتحقيق امورهم الدنيوية ، كانوا يعدون لكل امر عدته بكل ما أوتوا من قوة وعلم وخبرة كما أمرهم ربهم ثم الى جانب ذلك كانوا يدعون الله ويبتهلون اليه ويتقربون اليه بما يحب من صلاة وصيام ودعاء وأعمال صالحة يرجون بها رحمته ويبتغون بها فضله ونصره وتأييده . وهكذا كان الاولون يجمعون بين الامرين معا كما علمهم الله فى كتابه العزيز . يقول الله تعالى : " واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم [1] ... الاية . وقال تعالى قبل ذلك :

---

(١) سورة الانفال اية (٦٠) .

" يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون" (١).
ويقول الله تعالى : " فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين " (٢) وقوله
تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر
الله .... الى قوله تعالى " فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا
من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (٣) " .

...

(١) سورة الانفال آية (٤٥).
(٢) سورة آل عمران آية (١٥٩).
(٣) سورة الجمعة آيتا (٩-١٠).

المبحث الثالث :

الانحراف في مفهوم القضاء والقـــدر

ان الايمان بالقضاء والقدر أصل من أصول الايمان الستة ، ولا يتم ايمان المسلم الا بالتسليم للقضاء والقدر والقيام بالعبودية الواجبة لله والتوكل عليه والرضا بماكتب والصبر على مايصيب العبد من مكروه . فالله سبحانه وتعالى هو الخالق الرازق وهو العليم بكل شيء المحيط بدقائق الامور وجلائلها ومبدئها ومنتهاها المدرك لمستقرها ومستودعها " ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير " (١) " عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين " (٢) وكل شيء في هذا الكون بقضاء الله وقدره وهو خالق كل شيء " انا كل شيء خلقناه بقدر (٣) " وخلق كل شيء فقدره تقديرا (٤)" " والذى قدر فهدى (٥)" ولا يقع في هذا الكون الا مايريده سبحانه وتعالى وكل شيء مسطور في سجلات علمه الدقيق المحيط " ماأصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير (٦)" وعن عبد الله ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" ان الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة " وزاد ابن وهب " وكان عرشه على الماء (٧) ." الى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من الأدلة القاطعة

---

(١) سورة الملك : آية (١٤)
(٢) سورة سبأ : آية (٣) .
(٣) سورة القمر : آية (٤٩) .
(٤) سورة الفرقان : اية (٢) .
(٥) سورة الأعلى : آية (٣)
(٦) سورة الحديد : اية (٢٢) .
(٧) اخرجه مسلم في كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى .. ٢٠٣/١٦

على قدرة الله تعالى وخلقه كل شيء وكتبه مقادير الخلق وعلمه الواسع المحيط وارادته ومشيئته النافذة .

ولقد كان المسلمون الاوائل على فهم عميق بعقيدة القضاء والقدر وكانوا على ادراك تام لمدلولاتها الواسعة بحيث لا يشوب ايمانهم بها لبس أو غموض أو نقص أو تشويه . وقد فهموا أن كل شيء في هذا الكون بقضاء الله وقدره وأن الله عليم بكل شيء أزلا وأبدا . لا يخفى عليه شيء ولا يند عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات ، وكذلك علموا أن اقدار الله تجرى على الناس وفق سننه الثابتة التي أوضحها لهم ، وبذلك وضح لهم ان الارادة الالهية ليست كخبط العشواء ولا هي الصدف العمياء اذ انها لا تتم بدون قيام المقدمات التي رتب الله عليها حصول النتائج ، ولكن هذه النتائج لا تترتب على قيام المقدمات والاسباب بصورة حتمية انما تتعلق بالمشيئة الالهية ، كما أن هذه المشيئة الطليقة يمكن ان تنشئ الامور انشاء بلا مقدمات ولا أسباب . ولم يفهم هؤلاء المسلمون الاوائل أن معنى صفات الله تعالى من الخلق والعلم والمشيئة والارادة والقدرة على كل شيء هو أن البشر امام الارادة الالهية كالريش في الهواء لا كيان لهم ولا تماسك ، وانما الذى فهموا من ذلك " ان الارادة الالهية هي سنن الله التى بثها في الكائنات وانتظمت بها أحوال الأرض والسموات " . (١) وقد تلقوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الايمان بقدرة الله وعلمه المحيط وكتبه المقادير قبل خلق الارض والسموات كل ذلك لا يمنع الانسان من العمل وفعل الاسباب بل الواجب عليه السعي وتعاطى الاسباب لعدم علمه بما هو مقدر له ولان قدر الله انما يجرى من خلال أفعال العباد ، فليس ما جفت به الاقلام وجرت به المقادير الا ميدانا فسيحا للعمل والسعي فكل انسان ميسر لما خلق له . عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فاتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال : " ما من نفس منفوسة الا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار والا وقد كتبت شقية

---

(١) الشيخ محمد الغزالي ، " هذا ديننا " ص ٢٢

أو سعيدة " قال فقال رجل يارسول الله أفلانمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : " من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير الى عمل أهل الشقاوة ثم قال : اعملوا فكل ميسر ، وأما أهل السعادة فييسرون لعمل اهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى" (١) وعن زهير عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال يارسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل ؟ قال لا بل فيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير قال ففيم العمل ؟ قال زهير ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه فسألت ماقال ؟ فقال اعملوا فكل ميسر ." (٢)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :" المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز وان أصابك شيء فلاتقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وماشاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان " (٣) يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في بيان المراد بالحرص على ماينفع العبد : " والمراد: الحرص على فعل الاسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخراه مماشرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة ويكون العبد في حال فعله السبب مستعينا بالله وحده دون كل ماسواه ليتم له سببه وينفعه ويكون اعتماده على الله تعالى في ذلك لان الله تعالى هو الذي خلق السبب والمسبب ولا ينفعه سبب الا اذا نفعه

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر ، باب كيف خلق الآدمي في بطن أمه ... الخ ، ١٦/١٩٥ - ١٩٦ شرح مسلم للنووي .

(٢) رواه مسلم في كتاب القدر في نفس الباب ١٦/١٩٧ - ٩٨ ا شرح مسلم للنووي

(٣) رواه مسلم في كتاب القدر باب الايمان للقدر والاذعان له ١٦/١٢٥ ، شرح مسلم للنووي .

الله به فيكون اعتماده فى فعل السبب على الله ففعل السبب سنة والتوكل على الله توحيد فاذا جمع بينهما تم له مراده باذن الله .(1)

وقد كانت حصيلة هذا الفهم الذى كان عليه الاولون وادراكهم الشامل الواعى وايمانهم العميق بعقيدة القضاء والقدر ما انبعث فى نفوسهم من قوة دافعة للعمل والحركة والانتاج فى شتى مجالات الحياة ومن شعور عميق بمسئوليتهم عما يفعلونه بإرادتهم وما يترتب على أعمالهم من نتائج ، فبذلك كانوا يسعون بكل عزم وقوة من أجل/تحقيق المنافع والخيرات ، من كسب الرزق وطلب الشفاء ، وعمارة الأرض واكتشاف مجاهلها ، والتفاعل مع سنن الله فى الكون ، والعمل فى مجال اقامة الحق ، والدعوة الى الخير ، والجهاد فى سبيل الله لانهم يعلمون أنهم مطالبون بالعمل والسعى فى هذه المجالات وغيرها وفق أوامر الله وتعاليم دينه وليسوا مسئولين عن النتائج مادامو قد أدوا ما عليهم من العمل ولكنهم مسئولون عن العمل وعليه يثابون ان أدوه طبق أمر الله وارادته أو يعاقبون ان قصروا فى شىء من ذلك أو أهملوا أو رفضوا . وهكذا كان الايمان بالقضاء والقدر عاملا قويا بعث فى نفوس الأوائل القوة والحيوية التى دفعتهم الى العمل والانتاج فى واقع الحياة حتى استطاعوا أن يقدموا للبشرية أعمالا خيرة وانجازات ضخمة فى شتى مجالات الحياة .

ومع مرور الايام وتعاقب الاجيال واتساع الرقعة الاسلامية ودخول مختلف الاجناس البشرية فى هذا الدين واحتكاك المسلمين بأصحاب النحل والملل المختلفة والتقاء حضارة الاسلام بحضارات الامم ، سرت العقائد الباطلة والأفكار المنحرفة والمعارف المحلولة الى الحياة الاسلامية فأخذت المفهومات الاسلامية تعانى انحسارا

---

(1) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٤٧٤ .

وتشويها في الناحية التصورية والناحية السلوكية معا ، وكان من بين هذه المفهومات مفهوم عقيدة القضاء والقدر . وقد أساء المسلمون منذ قرون فهم هذه العقيدة على حقيقتها ومعناها الصحيح . والمفهوم الخاطىء الذى رسخ فى أذهانهم وقام عليه سلوكهم العملي في واقع الحياة هو أن الايمان بقضاء الله وقدره معناه الاستسلام للواقع والخضوع لما تقوم عليه الحياة البشرية من خير أو شر ولزوم السكون وعدم الحركة تجاه ما يجرى من المقادير ، والرضا به والصبر عليه باعتباره - تقدير الله السابق وارادته النافذة دون أن يبذل الانسان من جانبه أى جهد أو يتعاطى الاسباب التي وضعها الله تعالى فى الكون وقدر أن تجرى عليها مقاديره فى الخلق وجودا وعدما وباذنه تعالى . وقد كانت نتيجة هذا الفهم السقيم أن الايمان بالقضاء والقدر بدل أن يكون قوة دافعة للعمل والحركة مع طمأنينة القلب اصبح عاملا مخدرا أدى الى السلبية والانعزالية وترك الاخذ بأسباب الحياة ووسائلها المباحة ، وبدل أن يكون هذا الايمان باعثا للشعور بالمسئولية والتبعة اصبح المسلمون المتأخرون يحتجون بالقدر فى تأخرهم وعجزهم وذلهم وهوانهم على أن ذلك قدرالله الذى يجب الاستسلام له والرضا به دون أن يبذلوا وسعهم فى محاولة تغيير حالهم واصلاح أمرهم . صحيح ان كل شيء بقدرالله وقضائه وأن ما اصاب المسلمين فى عصور الانحطاط من ذل وضعف ونكبات وهزائم معنوية وحسية من قدرالله الذى لا يقع فى الكون الا ما يريد ولا يخفى عليه شيء مما يجرى فيه ولكن المسلمين قد اساءوا فهم عقيدة القضاء والقدر وأساءوا تطبيق مقتضياتها فى واقع حياتهم حيث اتخذوها حجة لعجزهم وضعفهم . وقد غفلوا أو تناسوا أن القرآن الكريم الى جانب تقريره لعقيدة القدر وبيانه لقدرة الله القاهرة وعلمه الواسع المحيط وارادته النافذة فى كل شأن من شئون الكون يوجه المسلمين ويرشدهم إلى العمل والسعى واتخاذ الاسباب والوسائل من أجل تحقيق المنافع والخيرات كما يدعوهم الى اصلاح الواقع السيىء بانكار المنكر ومحاولة ازالته ومقاومة الظلم والظالمين

والدعوة الى الخير والجهاد فى سبيل الله قال تعالى : " هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور."[١] " الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون"[٢]. وقوله تعالى " ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون "[٣]

وبينما نرى القرآن الكريم يقرر بتأكيد جازم ان الكفار مهما بلغت قوتهم المادية واعدادهم الحربى لايعجزون الله لانه تعالى قد قضى فى عليائه أن الغلبة ستكون للمؤمنين فى النهاية وأن العاقبة للمتقين وأنه حق عليه أن ينصر المؤمنين ولو بعد حين ، بينما يقرر القرآن ذلك كله نراه من الجانب الآخر يهيب بالمؤمنين ويأمرهم باعداد كل ما وسعهم من قوة لقتال اعداء الله ومقاومة طغيانهم وازالة الآصار والاغلال التى كبل بها الطواغيت ايدى الناس وأرجلهم عقولهم قال تعالى : " ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لايعجزون وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . . . الآية[٤] . وفى غزوة أحد انهزم المسلمون وكانت هزيمتهم بقضاء الله وقدره ، ما فى ذلك شك ولا ريب ولكن القرآن الكريم يبين أسباب هذه الهزيمة بكل وضوح وجلاء ويؤكد أن المسلمين هم المسئولون عن ذلك ، فقد وعدهم الله بالنصر ووعده لايتخلف ، وقد صدقهم الله وعده منذ بداية المعركة حين بدأوا يحققون الانتصار على العدو حتى اذا فشلوا وتنازعوا وعصوا امر الرسول جاءهم البلاء واصابتهم المصيبة . يقول الله تعالى : " ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا

---

(١) سورة الملك آية (١٥)

(٢) سورة الجاثية آيتا (١٢ - ١٣) .

(٣) سورة آل عمران آية (١٠٤) .

(٤) سورة الانفال آيتا (٥٩ - ٦٠) .

ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم[1] . . . الآية " أو لما أصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند انفسكم ان الله على كل شيء قدير وما اصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا[2] . . الآية يقول المستشرق الالماني باول شمتز في حديثه عن حال المسلمين في القرون الاخيرة مقارنا بين اثر الايمان بالقدر في حياة سلف هذه الأمة واثره في حياة المسلمين المتأخرين : " طبيعة المسلم التسليم لارادة الله والرضا بقضائه وقدره والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار . وكان لهذه الطاعة اثران مختلفان ، ففي العصر الاسلامي الاول لعبت دورا كبيرا في الحروب اذ حققت نصرا متواصلا لانها دفعت في الجندي روح الفداء . . . وفي العصور الاخيرة كانت سببا في الجمود الذي خيم على العالم الاسلامي فقذف به إلى الانحدار وعزله وطواه عن تيارات الاحداث العالمية .[3] " ولقد فطن هذا المستشرق للفارق الكبير بين اثر الايمان بالقدر في حياة سلف الامة الاسلامية وخلفهم ، ولكنه لم يدرك السبب الذي أدى الى هذا التباين في الاثر . وكان يعتقد أن الايمان الذي كان قوة وحيوية في الاولين هو الذي كان سبب الضعف والانهيار في المتأخرين . ويجب ان نتساءل عما اذا كان يمكن ان يكون للشيء الواحد اثران مختلفان بل متضادان في آن واحد ، كيف يمكن ان يكون الايمان بالقدر قوة دافعة وعامل صعود وارتقاء وتقدم لسلف هذه الامة في كل اتجاه ثم يكون هذا الايمان نفسه عامل تخلف وضعف وجمود وانهيار للاجيال المتأخرة ؟ ان المنطق السليم يأبى هذا ويرفضه إذا فلابد أن يكون هناك شيء غريب طرأ في الامر ، وذلك ما أفضنا في الحديث عنه فيما تقدم . ونزيد هنا الموضوع ايضاحا فنقول ان الاجيال الاسلامية المتأخرة تعتقد أن الايمان

---

(١) سورة آل عمران اية (١٥٢)
(٢) سورة آل عمران ايتا (١٦٥ - ١٦٦)
(٣) الاسلام قوة الغد العالمية ص ٩٠ تعريب د / محمد شامة .

بالقضاء والقدر معناه الاستسلام الخانع للواقع الفاسد والتقاعس عن العمل والحركة فى واقع الحياة لان الله تعالى له كل شئ وليس للناس منه شئ بأى حال ، وأن الشئ المقدر للانسان لابد أن يصير اليه وان لم يعمل لتحصيله . ولا بد أن هؤلاء قد تأثروا قليلا أو كثيرا بأفكار الجبرية الذين غلوا فى اثبات القدر وزعموا "أن التدبير فى افعال الخلق كلها لله تعالى وهى كلها اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة وحركات الاشجار ، واضافتها الى الخلق مجاز وهى على حسب ما يضاف الشئ الى محله دون ما يضاف الى محصله . "(1) ولكن لو كان ما عليه هؤلاء المتأخرون صحيحا لكان اولى الناس بانتهاج هذا النهج والسير على هذا الدرب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم المكلف ببيان ما نزل اليه من ربه وكذلك صحابته الكرام الذين اخذوا الدين عنه غضا طريا وكانوا على فهم صحيح وادراك شامل لقيم الاسلام ومبادئه وتعاليمه والواقع ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستسلم للواقع الفاسد الذى كان يعيشه قومه في الحياة الجاهلية على أن ذلك قضاء الله وقدره وانما دعاهم الى الحق والخير وانكر ما كانوا عليه من الظلم والجهل والفساد وقاومه وحاربه حتى استطاع باذن الله ان يحقق نصرا مبينا وكذلك كان دائما يوجه اصحابه الى ضرورة اتخاذ الاسباب والوسائل لتحقيق غاياتهم المعنوية والمادية ويؤكد لهم أن الله تعالى هو خالق الاسباب والمسببات وهو الذى رتب ان يكون جريان المسببات من خلال تعاطى الأسباب وفق ارادته ومشيئته . " ولا يجوز للعبد أن يتحدث عن حول الله وطوله وقوته ومشيئته اعتذارا عن تكليف أو فرارا من واجب ، انما يحلو الكلام عن القضاء والقدر وعن سلطان الله المطلق عند مطالعة النتائج لا عند مباشرة الاسباب . ذلك أن العبد عند مباشرته للاسباب يؤدى رسالته المتاحة له والتى خلق لها ، فاذا جاءت النتائج كمايحب سر بما أدى وحمد الله الذى أعان ووفق وقد كان قديرا على التعويق والمنع . واذا تخلفت النتائج

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية ، للعلامه على بن على بن محمد بن أبى العز ، ص ٤٩٣ ، المكتب الاسلامي .

عما قدر العبد - لأسباب خارجة عن طوقه - استكان لمشيئة الله وسلم لمما أراد ولم يجزع لهزيمة او حرمان [1]. " ماأصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير ،لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور [2] ."

وبهذا الفهم الصحيح عمل سلف هذه الأمة في واقع الأرض في شتى مجالات الحياة عن معرفة حقة بقدرة الله واطمئنان تام لقضائه وقدره سائرين على هدى القاعدة الكبرى التي قررها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق ذكره بقوله " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " [3] .

ان سوء فهم المسلمين المتأخرين لعقيدة القضاء والقدر وانحرافهم في تطبيقها على حقيقتها ومعناها الصحيح في سلوكهم العملي في الحياة قد أدى الى انحراف آخر خطير في مفهوم التوكل على الله . فالجبرية في غلوهم المريض في اثبات القضاء والقدر يعتقدون أن الله هو الخالق لافعال العباد فهي بقضاء الله وقدره ، والعباد ليسوا فاعلين على الحقيقة لان الافعال التي تصدر منهم تأتي اضطراريا لا اختياريا فهي بمنزلة طول الانسان ولونه . وبناء على هذا فان الاسباب لا تولد النتائج والقول بتوليدها للنتائج يناقض ويعارض الاعتقاد بأن الله هو الخالق للحوادث ، وبذلك هونت الجبرية من شأن اتخاذ الاسباب مادية كانت أم معنوية لانهم لا يرون في ذلك فائدة مع الامور المقدرة وقد أدى ذلك ببعض الناس الى ترك الأسباب وتعطيلها وانك ترى هؤلاء يتماوتون ويقولون لا قدرة لنا ولا إرادة ويتسكعون في الحياة ويقولون لم العمل ؟ كل شيء مكتوب وماشاء الله كان .

---

(١) الشيخ محمد الغزالي ، " هذا ديننا " ص ٢٥ - ٢٦ بتصرف بسيط

(٢) سورة الحديد آيتا (٢٢ - ٢٣)

(٣) وردت زيادة " لما خلق له " في رواية اخرى لحديث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، الذي رواه مسلم انظر شرح مسلم للنووي ١٦/١٩٧ .

وأما الصوفية وان لم يذهبوا مذهب الجبرية لانهم يعتقدون أن العباد يفعلون باختيارهم ومشيئتهم ،ولا يكون الا ما أراد الله تعالى فهم بذلك لا ينكرون توليد الأسباب للنتائج فقد تأثروا ببعض افكار الجبرية بسبب سوء فهمهم للايات والاحاديث الواردة في الايمان بالقدر والتوكل على الله حيث اعتقدوا أن العابد لايبلغ أعلى مراتب التقوى واليقين الا بالاستسلام للواقع على أنه تقديرا لله والرضا به والصبر عليه وعدم الاخذ بالاسباب . وهذا مايفهمونه من قول الله تعالى " ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه . . . الآية (١) " وقول الرسول صلى الله عليه وسلم " من انقطع الى الله كفاه الله كل موءنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله اليها" (٢) وغير ذلك من الآيات والاحاديث ثم انهم من ناحية اخرى لم يكونوا تاركين الأخذ بالاسباب المادية والمعنوية جميعا ولكنهم بسبب انحراف تصورهم لعلاقة الانسان بالناحية المادية من الحياة حيث يعتقدون انها مذمومة مطلقا وأن الواجب على العبد العزوف عنها حتى لا تشغله عن اخلاص الوجه لله ولا تصرفه عن عبادته ، قصروا جهودهم واعمالهم على الناحية الروحية والتربية النفسية وطلب الآخرة بحرمان الانسان من الناحية المباحة له من الدنيا واضاعة نصيبه منها واهمال مسئوليته فيها .

ان الفكرة الشائعة بين المتصوفين وتبعهم فيها عوام المسلمين جهلا وحماقة هي أن الموءمن بقدر الله حق الايمان والمتوكل على الله حق توكله هو المنقطع الى العبادة (على المفهوم الخاطيء للكلمة) العايش في نفحات التربية الروحية المحضة في عزلة عن الحياة الدنيا واستسلام خانع لواقعه المادى من دون عمل وانطلاق في الارض لطلب اسباب الحياة ولو عاش عمره كله في حرمان وفقر

---

(١) سورة الطلاق آيتا (٢ - ٣) .
(٢) رواه ابن ابي حاتم بسنده من حديث عمران بن حصين ،قاله ابن كثير في تفسيره ٤ / ٣٨٠ . (سورة الطلاق) .

وذل وهوان . وهذا عند هؤلاء القوم هو الانسان الكامل المثالي الذى بلغ أعلى مراتب التقوى وأرفع مقامات التوكل يقول الامام ابو حامد الغزالي . في بيان مقامات التوكل على الله تعالى : " الأول : مقام الخواص ونظرائه وهو الذى يدور في البوادى بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعا ومافوقه أو تيسير حشيش له أو قوت او تثبيته على الرضا بالموت ان لم يتيسر شيء من ذلك". المقام الثاني أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والامصار وهذا أضعف من الاول ولكنه ايضا متوكل لانه تارك للكسب والاسباب الظاهرة معول على فضل الله تعالى في تدبيرأمره من جهة الأسباب الخفية ولكنه بالقعود في الأمصار يتعرض لاسباب الرزق .. (١) الخ " واذا كان هذا الكلام من الامام الغزالي وهو يعد من معتدلي المتصوفة فمابالك بغلاتهم : وماذا يكون نظر الدهماء في علاقة الانسان بالحياة الدنيا ومسئوليته فيها ؟ وهكذا نرى مدى انحراف المسلمين في مفهوم التوكل حتى جعلوا العيش على هامش الحياة وترك العمل وتعطيل الاسباب الظاهرة هو أعلى مراتب الايمان والتوكل ، وسموا ذلك يقينا أو قناعة" ودعوا الناس الى هذا التواكل المذموم الذى ماأنزل الله به من سلطان وليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ولا يعلمه الانبياء ولا المرسلون ولا سلف هذه الأمة من الصحابة والذين اتبعوهم باحسان . " وعندما قيل للامام احمد بن حنبل ان في المسجد جماعة لا يعملون ويقولون انهم متوكلون قال رحمه الله " هؤلاء مبتدعة هؤلاء قوم سوء ارادوا تعطيل الدنيا " . ولماقيل له انهم يحتجون بقول الرسول صلى الله عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم الله كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا " قال أى شيء هذا غير العمل تغدو وتروح " وفي قول آخر له " انهم نسكوا نسكا أعجميا (٢) . " ويقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ

---

(١) احياء علوم الدين : ٤/٣٣٣ اقرا كتاب التوحيد والتوكل كله /٤/٣٠٢ ــ ٣٦٥

(٢) المجتمع الاسلامى المعاصر للشيخ محمد المبارك ، ص ٦٠

في تعليقه على حديث ابن عباس الذى جاء فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " عرضت على الأمم .. " الى أن قال " فنظرت فاذا سواد عظيم فقيل لى هذه امتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب " .. فقال هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولايكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون [1] ... "

يقول الشيخ عبد الرحمن " واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب اصلا فان مباشرة الاسباب في الجملة أمر فطرى ضرورى لا انفكاك لاحد عنه بل نفس التوكل مباشرة لاعظم الاسباب كماقال تعالى ٦٥/٣ " ومن يتوكل على الله فهو حسبه " . أى كافيه . وانما المراد أنهم يتركون الامور المكروهة مع حاجتهم اليها توكلا على الله تعالى كالاكتواء والاسترقاء فتركهم له لكونه سببا مكروها لا سيما والمريض يتشبث ـ فيما يظنه سببا لشفائه ـ بخيط العنكبوت . أما مباشرة الأسباب والتداوى على وجه لا كراهة فيه فغير قادح في التوكل فلا يكون تركه مشروعا لمافي الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعا " ما أنزل الله من داء الا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله " وعن اسامة بن شريك قال : " كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وجاءت الاعراب فقالوا يا رسول الله أنتداوى ؟ قال نعم ياعباد الله تداووا فان الله عز وجل لم يضع داء الا وضع له شفاء غير داء واحد قالوا وماهو ؟ قال الهرم ؟ " رواه أحمد . وقال ابن القيم رحمه الله تعالى وقد تضمنت هذه الاحاديث اثبات الاسباب والمسببات وابطال قول من أنكرها والامر بالتداوى وأنه لا ينافي التوكل كمالا ينافيه دفع ألم الجوع والعطش والحر والبرد باضدادها بل لا تتم حقيقة التوحيد الا بمباشرة الاسباب التى نصبها الله تعالى مقتضية لمسبباتها قدرا وشرعا وان تعطيلها يقدح في نفس التوكل كما يقدح في الامر والحكمة ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل . فان تركها عجز ينافي التوكل الذى حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ماينفع العبد في دينه ودنياه ودفع مايضره في دينه ودنياه . ولا بد مع هذا الاعتماد

---

(١) رواه مسلم في كتاب الايمان ، باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولاعذاب ٣/٩٣ - ٩٤ .

من مباشرة الأسباب والا كان معطلا للحكمة والشرع فلا يجعل العبد عجزه توكلا ولا توكله عجزا (١)" .

ويواكب هذا الانحراف في مفهوم القدر والتوكل على الله ويسايره انحراف آخر في حقيقة صلة المسلم بالحياة الدنيا . وجاء خطأ التصوف في ذلك من سوء فهمهم لهذه الصلة وتشويههم لمفهوم الزهد الذى رأوه علاجا ناجعا لما انطوت عليه الدنيا من شرور ومساوئ وأدواء .

تتبنى المتصوفة فكرة خاطئة عن الحياة الدنيا حيث اعتقدوا أنها مذمومة مطلقا لما ورد في الكتاب والسنة من وصفها بأنها لعب ولهو وأنها متاع الغرور وأنها دنيئة فانية زائلة وأنها دار فتنة وبلاء وأنها ملعونة وملعون مافيها وأنها في جانب الاخرة لا تساوى شيئا ، بينما ورد في وصف الاخرة أنها خير وأبقى وانها دار قرار ونعيم وانها الحياة الحقيقية التي لا نهاية لها ." وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الاخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون" (٢)" وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور (٣) . " فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وماعند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٤)" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . " والله ما الدنيا في الآخرة الا مثل مايجعل احدكم أصبعه هذه وأشار بالسبابة في اليم فلينظر بما ترجع ."(٥) ويفهم هؤلاء القوم من هذه النصوص وغيرها أن الحياة الدنيا كلها ملعونة وان مافيها كذلك مذموم وملعون فلا عاصم للانسان من شر الدنيا وفتنتها الا العزوف والانزواء عنها لانه لا يمكن

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص٧٤- ٧٥

(٢) سورة الانعام : آية (٣٢)

(٣) سورة آل عمران : آية (١٨٥)

(٤) سورة الشورى : آية (٣٦)

(٥) اخرجه مسلم في كتاب الجنة ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر ١٩٢/٤٧ عن مستورد .

أن يصح للانسان ايمان ولا تتحقق عبوديته لله الا بنبذ الدنيا ولا يخلص عمله في طلب الاخرة الا بهجر الدنيا . وبهذا الفهم السقيم نفروا الناس من حب الدنيا ومتاعها وراحوا يحصون مثالبها ويعددون شرورها وأدواءها ويقبحون الاتجاه اليها في أي صورة كان . وكانوا يعبرون عن فكرتهم في صلة المسلم بالحياة بضرورة خلع الكون وترك الوجود ومحو الاغيار من القلب من أجل خلوص الوجه والقلب لله وحده .

يقول أحد شعرائهم :

فاخلع نعال الكون كي تـراه وغض طرف القلب عن سـواه

وقال آخر :

حسن بأن تدع الوجود بأسره حسن فلا يشغلك عنه شاغل

وقد طلبت الصوفية من الناس قطع علائق النفوس بالحياة الدنيا لانها تشغلهم وتلهيهم عن ذكر الله وعبادته ، ولكي يخلص قصد الاخرة والعمل لها فلابد من خلو القلب من هموم الدنيا وخواطرها وهواجسها وقالوا " ان الهواجس البشرية كالطير السارحة في الجو كلما وجدت شجرة مورقة اوت اليها واتخذت من غصونها اعشاشا ومسارح للغناء . . ، ومادامت شجرة الدنيا باسقة في القلب فلن تفتأ الهواجس والخواطر تهجم على الانسان وتعكر عليه مناجاته لربه وتجعل صلاته مشوشة ، والطريقة المثلى لخلوص القلب ، قطع هذه الشجرة من الفؤاد ومن ثم تنطرد هموم الدنيا من تلقاء نفسها اذ لن تجد مكانا تحوم فيه . . وأول آثار هذا الكلام - في وعي مسلم يقف بين يدي الله خمس مرات في اليوم - أن علاقته بالدنيا سوف تضعف بل سوف تنقطع يقينا ." (١)

ان النظرة السلبية للحياة الدنيا وقطع علاقة الانسان بها واعتبار ملذاتها ومنافعها محرمة على الانسان لانها جيفة ولا يطلب الجيفة الا الكلاب ؟ هذه النظرة التي تبنتها المتصوفة ان هي الا طريقة مبتدعة في الدين لم يقل بها نبي ولم تـرد

---

(١) الشيخ محمد الغزالي ، الاسلام والطاقات المعطلة ، ص ٤٢ - ٤٣ .

بها شريعة ، ولكن القوم انساحوا مع الجهل وقصور الفهم فاحدثوا في دين الله طريقة غريبة هي في أصلها تنتمي الى العقائد الوثنية والرهبانية التى ابتدعتها النصارى . والذى يعرفه الاسلام هو أن صلة الانسان بالدنيا لاصقة بفطرته وأن طلب الدنيا والاهتمام بشئونها لاحرج فيه دينا مادام الانسان يعتبر الدنيا وسيلة لا غاية ، ولا يجعلها مقصودة لذاتها أو اكبر همه ومبلغ علمه بل طريقا لنيل الآخرة ، ومادامت منافعها ومتاعها تنال بالوسائل المشروعة ، ومادام التعلق بالدنيا لا يورث الانسان حبا ينسيه ذكر الله والدار الاخرة ويقعد به عن أداء مهمته الكبرى في الحياة من عبادة الله والجهاد في سبيل الحق . " قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ." (١)" وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا . . . الآية " (٢)

وان الفكرة الخاطئة التى كانت شائعة بين المتصوفين حول صلة الانسان بالحياة قد أدت بهم الى الترويج والدعوة الى ضرورة انتهاج حياة الزهد والحرمان للظفر بالاخرة ونعيمها المقيم ، فقد رسخ في اذهان هؤلاء الناس أن لا علاج لشرور الحياة وفتنتها سوى اللجوء الى حياة التزهد والتقشف والرضا بالفقر والحرمان ، وعدم التملك وترك الاشتغال بالكسب والاخذ بالحلال من متاع الحياة ، وراحوا يساندون موقفهم بالاشادة بالفقر والدعوة اليه محتجين بما ورد في مدح الفقراء ودعوتهم الى الصبر وأنهم هم العناصر الطيبة في كل مجتمع وهم المستجيبون للرسل والانبياء وهم انصارهم ومؤيدوهم في كل زمان ومكان ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان فقيرا ومات ودرعه مرهونة عند يهودى في قوت أهله . وهكذا شوهوا الزهد الاسلامي

---

(١) سورة الاعراف : آية (٣٢) .
(٢) سورة القصص : آية (٧٧) .

الذى حقيقته ايثار الاخرة وتفضيلها على الدنيا وجعل موازينها مرجحة ومقدمة على موازين الحياة الدنيا والتضحية باكبر قدر ممكن من نصيب الانسان في الحياة في سبيل نيل الاخرة مع الممارسة الكاملة لكل الجوانب الايجابية من الحياة . فالاسلام لا يعرف الزهد الذى يطرح الناس فيه الحياة جانبا ويهملونها اهمالا كاملا بل لابد من العمل في الدنيا والسعى لكسب الرزق وتحصيل المال ليس فقط لان ذلك مباح ولكن لانه مطلوب طلبا/موكدا من أجل سد حاجة الانسان وحاجة من يعول ونفع عباد الله وعمارة الارض .

ومن الآثار السيئة لهذا الاتجاه المنحرف في تصور علاقة المسلم بالحياة وتشويه مفهوم الزهد التخلف الحضارى وركود الحياة الاقتصادية وضعف قوة الانتاج وموت روح الحركة والانطلاق وقد ذاق المسلمون من ذلك الأمرين طوال عصور الانحطاط وأصبحت أيديهم صفرا من أسباب الحياة المادية ومقوماتها فعانوا الام الجوع والفقر والمرض والذل والهوان .

واذا بحثت عن أسباب ذلك تجد أن المسلمين قد تأثروا بهذه المفاهيم المنحرفه الى حد كبير حتى انك ترى كثيرا منهم اذا تقدم بهم العمر وضعفت قواهم أو تعبوا من ضجيج الحياة العامة وأفاقوا من غفلتهم وتنبهوا لماهم فيه من التقصير . في واجبهم الدينى ثم ارادوا التوبة الى الله والعودة الى جادة الدين فانهم يفكرون أول مايفكرون في الانسلاخ من الحياة الدنيا واعتزال الناس والانزواء الى خاصتهم والانضمام الى صفوف التصوف حيث الرياضات النفسية والتربية الروحية والاوراد والاذكار وكأن هذا وحده هو طريق الحق والدين الخالص الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى .

المبحث الرابـــع

الانحراف في مفهوم الجهاد في سبيل الله

ان مفهوم الجهاد في سبيل الله من المفهومات الاسلامية التى عانـــت انحسارا وتشويها بالغين من الناحيتين التصورية والسلوكية في حياة المسلميـن .
فقد بدأ الانحراف في مفهوم الجهاد نتيجة لسلسلة انحرافات اخرى وقع فيها المسلمون حين أساءوا فهم معاني الاسلام ومبادئه وتعاليمه وقلبوا حقائقه الناصعة وخلطوهـا بمجموعة خرافات وبدع وترهات وانحصرت مدلولاتها الواسعة الشاملة في زاوية ضيقـة ونطاق محدود من الحياة الواقعية . وكان من ذلك تقلص المعنى الواســـع للجهاد وانحساره وتشويه صورته بسبب الفهم الخاطئ وما أصاب المسلمين من وهـن شديد وحبهم للدنيا وكراهية الموت والتضحية بشيء من متاع الدنيا وملذاتها ممـا أدى بهم الى ترك معالى الامور وتمسكوا بسفاسفها فآل حالهم الى ضعف وتأخـر وذل وهوان .

وقد كانت الانحرافات المتعددة تنخر في كيان الامة الاسلامية وتعمل عملهـا في تقويض بنية الحياة الاسلامية رويدا رويدا حتى جاء عهد الحروب الصليبيـة العاتية فكانت حال المسلمين من التفرق والتباعد والضعف والتخلف مالم يكن لهـم عهد به من قبل . فقد اتجه كثير منهم - كما هي الحال اليوم - الى ايثار العافيـة وطلب السلم الرخيصة واختاروا لانفسهم حياة الانعزالية والزهد والتقشف والتنسك وتخلوا عن تبعات الجهاد لحمل دعوة الاسلام وتبليغ رسالته للناس كافة ومتابعـة الرسول صلى الله عليه وسلم في جهاده ومواصلة السير على الدرب الذي سار فيـه اصحابه الكرام في قوة عزيمتهم وتضحياتهم وتفانيهم في سبيل الله ، وقد كرهـوا الجهاد العملي القتالي واعرضوا عن مواجهة قوى الكفر والبغي ومنازلة اعداء اللـه في ساحة الوغى فانصرفوا الى مايعتبرونه جهادا اكبر من هذا ، جهاد النفس

والهوى أو التربية النفسية والتطهر الاخلاقي ،فاكثروا من الصلاة والصيام والذكر والتسبيح والدعاء زاعمين ان ذلك وحده هوماتحصل به النجاة في الدنيا والآخرة ومايناال به العبد جنة الخلد يوم القيامة . وقد غفلوا او تغافلوا عن الايات المتعددة والاحاديث النبوية التي وردت في بيان وجوب الجهاد والقتال وتحديد مفهومه وبيان مراحله وانواعه والغاية منه ، وماتحمل هذه الايات والاحاديث المؤمنين من التبعات الجسام للقيام بفريضة الجهاد حتى تكون حياتهم كلها في سبيل الله ويكون اعلاء كلمة الله اعظم غاياتهم،ونيل الشهادة في سبيل الله اكبر امانيهم . قال الله تعالى أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (١) وقال تعالى " انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون ." (٢)

وقد كان للاتجاه الصوفي المنحرف أثر كبير في تشويه معاني الاسلام السامية وقلب حقائقه وتعاليمه وتحويلها الى مجموعة أخيلة وأوهام وخرافات وخزعبلات منافية لروح الدين وقيمه مناقضة للعقل الراجح والفطرة السليمة . ان مفهوم الجهاد الواسع الشامل ، والاهتمام الجاد بأمر الدعوة ونشرها في الآفاق ، والتصدى للقوى المناهضة لها لإنقاذ البشرية وتحريرها من العبودية لغير الله وبذل النفس والمال في ميادين الجهاد العملى القتالى لكي يكون الدين كله لله الواحد الاحد ، كل ذلك قد أصبح لا يشغل تفكير المسلم " العابد " ولا يمثل جانبا يذكر في واقع حياته بقدر مايكون اهتمامه بحياة العزلة والفرار الى الزوايا والمغارات وترك تبعة الجهاد العملى والاستعاضة عنه بالتماوت في التربية النفسية والاخلاقية الناقصة والظهور في مسوح التنسك القاصر.

---

(١) سورة آل عمران : آية (١٤٢)
(٢) سورة الحجرات : آية (١٥)

وهكذا نرى كيف تبدلت حقيقة الجهاد الاسلامي وتقلص مفهومه في أذهان المسلمين وفي سلوكهم العملي حتى اننا نجد معظم المسلمين اليوم في الأقطار الاسلامية الفسيحة بعيدين عن التصور الصحيح والفكرة الشاملة من الجهاد . فقد جهلوا منهج هذا الدين في الجهاد وانحرفوا فيه انحرافا كبيرا ، وغفلوا عن رسالة الاسلام الى البشرية ، وأبوا حمل المهمة الملقاة على كواهلهم وأداءها على الوجه المطلوب ، ومنوا أنفسهم بالخرافات والترهات ، وعللوها بالتعاويذ والطلاسم والسبحات والرياضات،انهم يتلمسون طرقا شتى للنجاة سهلة ممهدة تريحهم من أهوال الجهاد ومشقات الكفاح وشدائده ، فوجهوا وجوههم الى القبور والاضرحة والمشاهد يتوسلون بها وبرجالها لبلوغ غاياتهم المادية والمعنوية . وهناك بعض المسلمين شغلوا أنفسهم بمسائل شتى من فروع الدين عن أصول الاسلام ومبادئه الكلية الشاملة ، وجروا وراء الجزئيات الدقيقة في القضايا التي لم يكلفوا البحث عن ماهيتها وكنهها وتفصيلاتها فأهملوا روح الدين ،وقصروا في الغاية التي خلقوا من أجلها وتركوا الأمور المهمة الى أمور لا وزن لها ولا اعتبار .

وهناك كثير من كبار الصوفية الذين عاصروا الحروب الصليبية وحملات التتار لم يكن لهم أثر في الدعوة الى الجهاد وتحريض المسلمين على قتال الاعداء .
ولقد مالأ بعضهم التتار أثناء حملتهم القاسية على الشام وتدميرهم لها واراقتهم دماء المسلمين بغزارة ، وقد شاركوا التتار الافساد في الأرض بممالأتهم اياهم وترك قتالهم وتثبيطهم للمسلمين عن القتال وبخاصة عندما تظاهر التتار بالاسلام فأتى هؤلاء المنحرفون الناس من ناحية الدين فقالوا ان القوم قد نطقوا بالشهادتين ودخلوا في دين الله ولم يبقوا على الكفر كما كانوا من قبل فكيف نقاتلهم وهم مسلمون ؟ وقد رد عليهم شيخ الاسلام ابن تيمية بقوله : " كل طائفة خرجت عن شريعة الاسلام الظاهرة المتواترة فانه يجب قتالها باتفاق المسلمين وان تكلمت بالشهادتين . فاذا أقروا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلوات الخمس وجب قتالهم حتى يصلوا وان امتنعوا عن الزكاة وجب قتالهم حتى يؤدوا الزكاة (١)

وهذا العماد الأصفهاني يقول في احدى رسائله في تصوير دقيق لحال أعداء الاسلام اثناء الحروب الصليبية ومقارنتها بحال المسلمين " وماينقضي عجبنا من تضافر المشركين وقعود المسلمين فلا ملبي منهم لمناد .. فانظروا الى الفرنج أي مورد وردوا وأي حشد حشدوا .. ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم الا جارى جاره في مضمار الانجاد وبارى نظيره في الجد والاجتهاد .. والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا وغفلوا وكسلوا ولزموا

---

(١) مجموع الفتاوى ، ٥٠٩/٢٨

الحيرة وعدموا الخيرة ." (١) وهذا يدل دلالة واضحة على مدى بعد المسلمين من حقيقة دينهم وانحرافهم في مفهوم الجهاد وانحصار معناه في نطاق ضيق محدود .

وان لانحراف المسلمين في مفهوم الجهاد في سبيل الله تعالى مظاهر متعددة وصورا كثيرة ولكننا سنكتفي بالحديث عن أهم هذه المظاهر والصور.

نبدأ حديثنا في هذا الصدد بالفكرة الشائعة بين كثير من المسلمين أن الجهاد الاكبر هو جهاد النفس والهوى وأن الجهاد الأصغر هو جهاد العدو الظاهر لاقامة دين الله ونشره في الآفاق ، ويستدل على ذلك بما ذكره الخطيب في تاريخه من طريق يحي بن العلاء قال حدثنا ليث عن عطاء بن أبي رباح عن جابر قال " قدم النبي صلى الله عليه وسلم من غزاة له فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قدمتم خير مقدم وقدمتم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر مجاهدة العبد هواه " وفي رواية أخرى " رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر قالوا وما الجهاد الأكبر ؟ قال "جهاد القلب أو جهاد النفس" . (٢) قال الباجوري " الجهاد أى القتال في سبيل الله مأخوذ من المجاهدة وهى المقاتلة لاقامة الدين وهذا هو الجهاد الأصغر أما الجهاد الاكبر فهو مجاهدة النفس فلذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول اذا رجع من الجهاد رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الاكبر." (٣) وقال المناوى " الجهاد الأصغر هو جهاد العدو المتبين والجهاد الاكبر هو جهاد العدو المخالط (٤)" (اى النفس)

---

(١) ذكره د . محمد أمين المصرى ، المجتمع الاسلامى ،ص ٦٩

(٢) قال البيهقي اسناده ضعيف وتبعه العراقي في تخريجه أحاديث الاحياء وحكم السيوطي أيضا بضعفه في جامعه الصغير وقال الحافظ ابن حجر في تسديد القوس هو مشهور على الالسنة وهو من كلام ابراهيم بن عيلة

(٣) نقله عنه احمد محمد جمال ، الجهاد في الاسلام ..... ، ص ١٢-١٣

(٤) د . محمد امين المصرى ، سبيل الدعوة الاسلامية ،ص ٨٠

يقول الدكتور محمد البهى أحد الباحثين المصريين وهو يدعو الى مواجهة أخطار الغزو الفكرى في النظامين الرأسمالي والشيوعي ومقاومتها في مجال التربية والتعليم : " ان جهاد المسلمين اليوم يكفى أن يكون في المرحلة الاولى جهادا بيقظة العقل والقلب وبالدعوة واللسان حتى لا يقع بعضهم في صداقة أو مودة لاصحاب الاتجاه الراديكالي الماركسي او الاتجاه العلماني الرأسمالي فعدم الولاء لاى من الجانبين الراديكالي والرأسمالي هو الصورة التي يجب ان يبرز فيها جهاد المسلمين اليوم في سبيل الله (1) ." ولقد أساء كثير من المسلمين فهم الجهاد في معناه الواسع الشامل وانحرفوا فيه انحرافا بينا بمثل هذا الحديث الضعيف الواهي ، وكانوا منذ قرون طويلة يدعون دعاوى عريضة يقولون انهم في جهادهم الاكبر مجاهدة النفس والهوى والشيطان بينما تدال دولة المسلمين وتتداعى عليهم الامم لتحطيم قوتهم وسلطانهم والقضاء على دينهم وينهار بنيان مجتمعهم تحت وطأة أقدام الغزاة الذين أوقعوا المسلمين في شر مستطير وأحاطوا بهم احاطة السوار بالمعصم يستعمرون ديارهم ويسلبون أموالهم وينهبون ثرواتهم ويقتلونهم شر تقتيل ويبذلون كل جهودهم لمحو عقيدتهم أو زعزعتها في نفوسهم ليوجهوهم الوجهة التي يرضونها لهم ، بينما يحدث هذا كله على مرأى من هؤلاء ومسمع فانهم لا يزالون يعتقدون أنهم في جهادهم الاكبر وهم يتماوتون في التربية النفسية الناقصة والاعداد الخلقى القاصر ويحسبون أنهم بذلك يؤدون ما عليهم من فريضة الجهاد . وأما الجهاد العملى القتالى لاقامة دين الحق ونشره في العالم ، وصد كيد الاعداء ، ودفع عادية أهل الكفر والطغيان ، وانقاذ البشرية من الظلم والجهل ، وتخليصها من قبضة الطغاة المتجبرين ، وبذل الجهد والنفس والمال في هذا السبيل ، فلا يزالون يعتبرون ذلك جهادا أصغر لا يعطونه من الاهتمام والاقبال الا قدرا ضئيلا جدا لا يبلغ عشر معشار ما يولونه للجهاد الأول .

---

(1) في بحث له حول " الجهاد " نشرته مجلة الوعى الاسلامى ، العدد ٦٦ ، سنة ١٣٩٠هـ .

وان هذا الحديث الضعيف الذى اعتمد عليه هوءلاء في دعواهم يعارض معارضة بينة قول الله تعالى : " لا يستوى القاعدون من الموءمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . (١) كما يعارض الحديث الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه انه قيل يارسول الله مايعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل قال لا تستطيعونه فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول لا تستطيعونه ثم قال في الثالثة :" مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولاصلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى . (٢) وهذا الحديث والآية السابقة يقرران فضل المجاهد على القاعد ،فلاشيء يعدل الجهاد في سبيل الله لا القعود مجردا ولا القعود للتربية النفسية والتطهر الخلقى . وذلك لأن الجهاد بمعنى الخروج لقتال الاعداء وبذل النفس والمال في سبيل اعلاء كلمة الله هو ثمرة الايمان وثمرة العبادة ومقياس صدق العبد في تقوى الله وطاعة أمره . فمن آمن بالله حق الايمان وعبده حق العبادة هان عليه أن يقدم نفسه وماله في سبيل الله . وقد كان المسلمون الأوائل يجمعون بين الجهاد النفسي والجهاد العملى القتالى لأنهم كانوا على فهم عميق بأن المجاهد في سبيل الله قبل خروجه للجهاد وفي أثناء اداء مهمته في ساحات القتال هو أحوج مايكون الى أعلى مراتب الجهاد النفسي والاعداد الخلقى ليقوى ايمانه ويقينه في الله تعالى ووعده المبذول له ، ويتغلب على اكبر رغبة من رغبات النفس : رغبة البقاء ورغبة الحياة ، فهو لا يستطيع الاقدام ولا يقدر على تحمل المشقات والصبر والثبات الا ببلوغ مرتبة عالية في التربية الايمانية الصحيحة ، وكذلك كانوا يفهمون أن الجهاد القتالى هو الميدان الذى تظهر فيه/ثمرة التربية من قوة الايمان وهيمنته على القلب، وفيه يميز الصادق من الكاذب ويمحص المومن من الكافر قال تعالى: "ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح

---

(١) سورة النساء : آية (٩٥)

(٢) رواه مسلم في كتاب الامارة ، باب فضل الشهادة في سبيل الله ١٣، ٢٤/ ٢٥-٢٤

مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ." (١)

واذا لم يكن الغرض من جهاد النفس هو تطهيرها من ادران الشرك والكفر وتربيتها على الايمان بالله لتخلص لعبادة الله وطاعته فيما أمر به ونهى عنه والعمل على اقامة دين الله والدعوة اليه والتضحية والتفاني في سبيل ذلك فهو جهاد ناقص ، بل هو تشويه للمفهوم الصحيح للجهاد في الاسلام . ولسنا ننكر أهمية الجهاد النفسي والاعداد الخلقي ووجوبه في دين الله وأنه يجب ان يسبق الجهاد القتالي كاعداد له ، كما يجب أن يسير معه جنبا الى جنب ليمكن المجاهد من تحقيق النصر على الاعداء باذن الله ."وأن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الاكبر في نفسه مع الشيطان ،مع هواه ، وشهواته ، مع مطامعه ورغباته ، مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه ، مع كل شارة غير شارة الاسلام ومع كل دافع الا العبودية" لله وتحقيق سلطانه في الأرض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله (٢)" ويقول العلامة ابن القيم تعليقا على قول الله تعالى " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (العنكبوت ٦٩) :" علق سبحانه الهداية بالجهاد ؛ فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادا وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة الى جنته ، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ماعطل من الجهاد . قال الجنيد : والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الاخلاص ، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر الا من جاهد هذه الاعداء باطنا فمن نصر عليها نصر على

---

(١) سورة آل عمران : آيات (١٤٠ - ١٤٢)
(٢) الاستاذ سيد قطب ، معالم في الطريق ،ص ١٠٣ - ١٠٤

عدوه ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه ." (١) وبذلك يتبين لنا أهمية جهاد النفس في عملية التربية والاعداد فهو الذى يؤهل لجهاد العدو ويقوى في المؤمن روح الكفاح ويبعث فيه روح الشجاعة والاقدام حتى يندفع للقتال في ساحة الوغى وهو فرح مستبشر لا يثنيه شئ من متاع الدنيا ورغباتها ، لا يقاتل الا لاعلاء كلمة الله ولا يرجو الا احدى الحسنيين . ولكن رغم ما للجهاد النفسي من الاهمية فانه وسيلة لا غاية في نفسه وليس هو وحده الجهاد في مفهوم الاسلام ولا هو بأفضل من الجهاد القتالي الذى وعد الله المؤمنين عليه أجرا عظيما . يقول الله تعالى : " فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالاخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ." (٢) وعن عبد الله بن أبي أوفى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .. " (٣) الحديث . وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : " مر رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته فقال لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب ،ولن أفعل حتى استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ؛ لا تفعل فان مقام احدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاما ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ، اغزوا في سبيل الله ، من قاتل في سبيل الله فُوَاق ناقة وجبت له الجنة " (٤)

ولقد كان لحديث جابر الذى تقدم ذكره " قدمتم خير مقدم قدمتم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر مجاهدة العبد هواه " أثر كبير في تشويه مفهوم الجهاد في أذهان كثير من المسلمين حيث اطعمهم الطمأنينة وحبذ لهم القعود فصرفوا وجوههم وقلوبهم الى ماتقرر عندهم أنه الجهاد الاكبر وأقبلوا

---

(١) كتاب الفوائد : ص ٥٩
(٢) سورة النساء : آية (٧٤)
(٣) اخرجة البخارى في كتاب الجهاد والسير ،باب الجنة تحت بارقة السيوف ٣/ ٢٠٨
(٤) رواه الترمذى ،في فضائل الجهاد ،باب ماجاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله : ٤/ ١٨١

على التربية النفسية نتيجة سوء فهمهم للجهاد وانحسار معناه الواقعي أذهانهم وتهوينهم من شأن الجهاد العملي والحط من قدره بتصويره جهادا اصغر الى جانب التنويه بشأن جهاد النفس ورفع قدره وتفضيله على الجهاد العملي بتصويره جهادا اكبر مما أدى الى عدم الاهتمام بهذا الجانب المهم من الجهاد وقعود المسلمين عن العمل لاعلاء كلمةالله وبسط سلطان دينه في الأرض وتحمل المشقات وتجرع المرائر في سبيل هداية الناس جميعا الى نورالاسلام .

ومن مظاهر انحراف المسلمين في مفهوم الجهاد في سبيل الله تشويه بعض مبادىء الاسلام التي تتعلق بالعلاقات بين المسلمين وغيرهم مثل التسامح والامن والسلام وغير ذلك مايقرره الاسلام ويدعو اليه . ولقد اساء بعض المسلمين فهم الآيات الكثيرة الواردة في ذلك ومن بينهم فريق من الباحثين المصريين الذين تأثروا بما يروجه الاعداء من أفكار كاذبة خاطئة حول الجهاد في الاسلام فماد بعضهم يقول بقولهم والبعض الآخر حين يحاول دفع الاتهامات يخبط خبط عشواء ويلبس الحق بالباطل ، يقول هؤلاء المنحرفون ان دعوة الاسلام الى قتال اصحاب الديانات والعقائد الاخرى بعد تقريره مبدأ التسامح بين المسلمين وغيرهم ومطالبة اتباعه بالسعي لتحقيق الامن والسلام في العالم ان هذه الدعوة تجعل للاسلام موقفين متضادين متعارضين في علاقات المسلمين مع المخالفين لهم ، فهو من جانب يدعو الى اقرار الامن والسلام بين بني البشر وتحقيق التسامح والتعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم ويطلب من اتباعه ان يتحملوا عقائد غيرهم واعمالهم على كونها باطلة في نظرهم ولا يطعنون فيهم بمايؤلمهم رعاية لعواطفهم واحاسيسهم ولا يلجأون الى وسائل الإكراه والقهر لاخراجهم من دينهم و صرفهم عن عقائدهم أو منعهم مما يقومون به من الاعمال وهو بهذا يعطيهم الحرية الكاملة في البقاء على أديانهم وعقائدهم ويمنع اتباعه من التدخل في شئونهم . ويستدل هؤلاء على ذلك بآيات كثيرة من كتاب الله العزيز منها

قوله تعالى : " لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي[1] . . الآية وقولـــــه تعالى : " قل ياأيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون ولا انتم عابدون ما اعبد ولا اناعابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ما اعبد لكم دينكم ولي دين[2] . وقوله تعالى :" فلذلـــك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنتبما أنزل الله من كتاب وأمـــــرت لاعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم اعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمـــع بيننا واليه المصير ." [3] وغير ذلك من الايات . ثم يقول هؤلاء ان الاســــلام من الجانب الاخر يأبى أن يعترف لغير المسلمين بأى حق في اقامة نظـــام الحكم على أسس عقيدتهم ودينهم ويلجأ الى فرض نظامه عليهم قسرا والغــــاء قوانينهم وانظمتهم ويعلن عليهم حربا شعواء بحجة أنهم ينظمون شئون الحيـــاة وفق نظرياتهم وافكارهم ومبادئهم المناقضة لاسس الاسلام وقيمه ومبادئه وهذا مايعتبره الفتنة التي يجب ان ينتهي منها الكفار . ويستدلون على ذلك بآيات الجهـــاد والقتال منها قوله تعالى " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخــــر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتـــاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ." [4] وقوله تعالى " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلاعدوان الا على الظالمين ." [5]

واذا كان المراد من الانتهاء في الآية الاخيرة ليس هو انتهاء المخالفين من كفرهم وشركهم وانما هو انتهاؤهم من الفتنة فان الغاية من الجهاد والقتـــال اذن هي القضاء على هذه الفتنة لاقامة نظام الاسلام في الأرض وبذلك يتبيـــن

---

(١) سورة البقرة : آية (٢٥٦)
(٢) سورة الكافرون :
(٣) سورة الشورى : آية (١٥)
(٤) سورة التوبة : آية (٢٩)
(٥) سورة البقرة : آية (١٩٣)

بوضوح أن غاية الجماعة المسلمة هي القضاء على نظم الحكم التي أسس بنياتها على غير قواعد الاسلام واستئصال شأفتها وبذل أقصى الجهد لاقامة نظام الحكم المؤسس على قواعد الاسلام . وتعتبر هذه الجماعة مقصرة في تحقيق البغية التي انشئت من أجلها ان لم تسع سعيا حثيثا ولم تجاهد حق الجهاد في هذا السبيل . وبالاضافة الى ذلك فان آيات الجهاد والقتال تقرر أن الواجب على الجماعة المسلمة ابتغاء للاصلاح العام المنشود وسعيا وراء ضمان السلام العالمي وتحرير البشرية من قبضة الطغاة الجبابرة وحفظا لكيانها واستقرار الأمن في حدود بلادها أن لا تقنع باقامة دين الله ونظام حكمه داخل حدود بلادها فحسب بل عليها الا تدخر وسعا في مواصلة مسيرتها لنشر هذا الدين وبسط نفوذه وسلطانه في أرجاء المعمورة ، فلن يتوقف المسلمون عن الجهاد وقتال الاعداء مالم ينتهوا عن فتنة الناس وتسلطهم على رقابهم وتطبيق قوانينهم وأنظمتهم الباطلة في الأرض وتعبيدهم الناس للالهة المزيفة من دون الله .

ويقول الاعداء ومن لف لفهم ممن يدعون الفكر والعلم من المسلمين المنحرفين اذا كانت هذه هي رسالة الاسلام ومهمة المسلمين وفريضتهم الدينية" فان معنى ذلك أن الاسلام يدعو أتباعه الى حرب هجومية شاملة ضد المخالفين لهم لا تنقطع ولا تنتهي في وقت من الأوقات ولا يهدأ أوارها في أية بقعة من العالم . وهذه الفريضة التي فرضها الاسلام على أتباعه من شأنها أن تجعل وجود الجماعة المسلمة تحديا سافرا للأمم غير المسلمة لأنها تعتمد على وسائل القوة والقهر والاكراه لفرض عقيدتها ونظامها على الناس قسرا والقضاء على عقائد الامم الأخرى وقلب أنظمتها وقوانينها وهذا بلاشك يجعل المسلمين في موقف عدائي مستمر مع هذه الأمم الامر الذي يكون من المحال معه أن يحيا المسلمون في الدنيا حياة آمنة مستقرة وأن يتعايشوا مع غيرهم في تسامح وتعاون وأمن وسلام . فكيف يمكن ذلك اذا كانت عقيدتهم الدينية هي العقبة الكأداء في سبيل تحقيق الأمن والسلام العالميين . وبالاضافة الى ذلك فان الاخذ بمفهوم الجهاد على هذا

النطاق الواسع لا يجعل المسلمين يرفعون لواء الجهاد في مواجهة الأمم الكافرة فحسب بل يحتم عليهم أيضا مواجهة الدول المسلمة " المنحرفة " التي تحكم بغير شريعة الله . وهذا يجعل المسلمين في موقف حرج ليس فقط مع الدول المسلم الواقعة خارج حدود بلادهم فقط بل مع المخالفين لهم في المجتمع نفسه . ومعلوم أن السياسة العالمية في العصر الحديث تسير في اتجاهات معينة لا تتمكن معها أى جماعة من المسلمين من التعامل مع الامم غير المسلمة - ولا حتى مع المسلمين المخالفين لها في الاتجاه فضلا عن غير المسلمين في داخل المجتمع المسلم نفسه الا بطرق مقبولة ومعترف بها ، فان الدول القوية غير المسلمة لا يمكن بأى حال أن تتحمل كيان جماعة من المسلمين تسير في تعاملها مع غيرها في اتجاه مخالف لميول هذه الدول واتجاهاتها ، فانها لا تجد بدا في الترصد لها وترقب وجودها لتحطمها قبل أن تقوى شوكتها ويستفحل خطرها .

وليس هنا مجال مناقشة هذه الافكار ، ولكننا نحب أن نسرد بعض حقائق مهمة توضح مافي كلام هوءلاء من زيغ وخلط وتشويه وتحريف وماينطوون عليه من فهم سقيم وعقلية سخيفة .

ان ماقرره الاسلام من مبدأ التسامح مع غير المسلمين وعدم اكراههم في الدين معناه ان الاسلام لا يفرض عقيدته عليهم قسرا لان العقيدة لا يمكن ادخالها في قلوب الناس قسرا ، وكذلك لا يرغمهم على قبول شعائره التعبدية لانها ذات صلة وثيقة بالعقيدة اذ لا معنى للعبادة في الاسلام بدون ايمان صحيح . فالاسلام يمنح الناس حريتهم في هاتين الناحيتين ولكنه لا يرضى أبدا أن تكون القوانين المدنية والانظمة الاجتماعية التي تسير عليها الدولة وضعية يضعها وينفذها الطغاة الذين لا يوءمنون بالله ولا يدينون دين الحق ويعيش الناس - مسلمين وغير مسلمين - تحت سيطرتهم وجبروتهم خاضعين مستسلمين مقهورين . وان موقف الاسلام في هذه الناحية مبني على اعتبار أن نظامه هو الحق والعدل وهو الذى فيه السعادة والفلاح للبشرية لانه من الله الخالق

العليم وأن كل نظام سواه باطل لأنه من وضع البشر . ومن أجل هذا يطالب الاسلام أتباعه برفع راية نظامه خفاقة في أرض الله واقامة شرع الله بين عباده وتنكيس راية كل نظام آخر غيره في الأرض . وان حكم الاسلام ببطلان النظم الاخرى الوضعية يستلزم رفض علوها وتغلبها ومطالبته أتباعه بتحطيمها والقضاء عليها واقامة نظامه العادل مكانها حتى يكون الدين لله الواحد الاحد ولكن دون أن يكون هناك اكراه للناس فيما يخص عقائدهم وعباداتهم . يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله : " ان الاسلام لله هو الأصل العالمي الذى على البشرية كلها أن تفيء اليه أو تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأى حائل من نظام سياسي أو قوة مادية وأن تخلى بينه وبين كل فرد يختاره أو لا يختاره بمطلق ارادته ولكن لا يقاومه ولا يحاربه فان فعل ذلك أحد كان على الاسلام أن يقاتله حتى يقتله أو حتى يعلن استسلامه . (١)"

ويجب أن يعلم أن تدخل أهل الكفر والطغيان في شئون الحياة المدنية وفرض الوهيتهم وحاكميتهم على الناس يجعل لاهوائهم ونظرياتهم السيادة والسيطرة على جزء كبير من شئون حياة الناس . وليس من التسامح أبدا ان يرضى الاسلام بسيطرة الطغاة الخارجين عن طاعة الله وتسلطهم على رقاب الناس في شئون الحياة الاجتماعية لان معنى ذلك مطالبة الاسلام بالتنازل عن ركائزه الاساسية وتعاليمه وافساح المجال أمام النظم والنظريات الباطلة للسيادة والتحكم في مصاير الناس المستضعفين . إن الأخذ بمبدأ التسامح على المعنى الذى يريد هؤلاء المنحرفون ان يحملوا قوله تعالى " لا اكراه في الدين " لا يعني الا أن يظل الناس مقرين بسيادة الباطل وظهور الظلم والفساد في الارض ويصبح المسلمون مستسلمين لهذا الواقع السيء خاضعين لما يجرى في مجالات الحياة الاجتماعية مما يتعارض مع مبادىء الحق والعدل ومنهج الله في الحياة الانسانية ، وياترى أى نوع هذا من أنواع التسامح وبموجب أى دليل يصح تفسير " لا اكراه في الدين " بأن يبقى جماهير الناس مستضعفين في الأرض مغلوبين على أمرهم خاضعين

---

(١) معالم في الطريق ، ص ٨٠

لجبروت حفنة من الطغاة المستكبرين في الأرض أو أن يتحمل المسلمون الاكـــراه في دينهم من قبل المخالفين لهم الذين كفروا بالله ونصبوا أنفسهم آلهة من دون الله ويظن بعض الناس أن الاسلام قد جاوز حد التسامح في بعض النواحي حين رفـــض اعطاء المخالفين حقهم في التعامل على الطرق الفاسدة التى تتنافى مع الحـــق والعدل الذى يقرره شرع الله ، ولكن الحق أن الاسلام لا يريد من وراء هـــذا التضييق عليهم ولا اضطهادهم وانما يريد الزامهم حدود الحق والعدل ويقصـــد الى القضاء على كل مافيه شر على المجتمع وافساد للاخلاق وخراب للعمران وظلـــم وافتئات على حقوق الناس .

والله سبحانه وتعالى حين يوجب على المسلمين دعوة الناس جميعا الـــى دين الحق وينهاهم عن اكراههم على اعتناق العقيدة الاسلامية فانه تعالى مـــن الجانب الاخر يحملهم مسئولية كبرى في بذل كل مافي وسعهم من جهود واعـــداد ما استطاعوا من قوة لانهاء الفتنة الناتجة عن غلبة الكفر واستعلاء الكفار وطغيانهم في أرض الله وعلى عباده حتى تعلو كلمة الله ويسود نظامه أرجاء المعمورة وتكون كلمة الذين كفروا السفلى حتى يعلنوا استسلامهم وخضوعهم لسلطان الله ودينـــه وعباده الذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والذين يعبدون الله ويسلمـون له ويطيعونه ويقيمون له الدين .

ومن سمات منهج هذا الدين في الجهاد كما يقول شهيد الاسلام الاستاذ سيد قطب أنه " حركة تواجه واقعا بشريا .. وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي انها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية، تقوم عليها أنظمة واقعية عملية تسندهـــا سلطات ذات قوة مادية . ومن ثم تواجه الحركة الاسلامية هذا الواقع كلـــه بما يكافئه . تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات تواجهـــه بالقوة والجهاد لازالة الانظمة والسلطات القائمة عليها ، تلك التى تحول بيـــن جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ، وتخضعهـــم

بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل ؛ انها حركة لا تكتفى بالبيان في وجه السلطان المادى كما أنها لا تستخدم القهر المادى لضمائر الافراد وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين . وهو يتحرك لاخراج الناس من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده . (١) " ويقول الاستاذ المودودى (٢) رحمه الله " ولا يظن أحد أن المسلمين مجرد جماعة من الوعاظ المبشرين يعظون الناس في المساجد ويدعونهم الى مذاهبهم ومسالكهم بالخطب والمقالات ، لا ، ليس الامر كذلك وانما هم جماعة أنشأها الله لتحمل لواء الحق والعدل بيدها وتكون رائدة للناس ، ومن مهمتها التى ألقيت على كاهلها من أول يوم أن تقضى على منابع الشر والعدوان وتقطع دابر الجور والفساد في الأرض والاستغلال الممقوت ، وأن تكبح جماح الالهة الكاذبة الذين تكبروا في أرض الله بغير الحق وجعلوا أنفسهم أربابا من دون الله ، وتستأصل شأفة ألوهيتهم وتقيم نظاما للحكم والعمران يتفيأ ظلاله القاصى والدانى والغنى والفقير . والى هذا المعنى أشار الله تعالى في غير واحدة من آى الذكر الحكيم . " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله (٣) . . الايه " هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٤) . "

ان كثيرا من المسلمين اليوم يعتقدون أن السلام الذى يدعو اليه الاسلام

---

(١) معالم في الطريق ، ص ٧٧ - ٧٨
(٢) الجهاد في سبيل الله ص ٣٠ - ٣١ بتصرف

(٣) سورة الانفال : آية (٣٩)
(٤) سورة التوبة : آية (٣٣)

هـو أن يعيش المسلمون عيشة وادعة آمنة في ظل أى نظام قائم في الأرض يسيـر في شئون حياتهم وفق الفلسفة والنظريات التي يؤمن بها الواضعون له ، فما دام المسلمون يتمتعون في ظل هذا النظام بأكبر قسط ممكن من المنافع والمصالـح ولا يمنعون من ممارسة شعائرهم التعبدية ولا تصيبهم مصيبة في أنفسهم ولا في أموالهم فانه لا يضيرهم أن يسلموا قيادهم لهؤلاء الذين فرضوا ألوهيتهم على الناس ونفذوا حاكميتهم في الأرض ويكونوا مطايا ذلولة لهم . وهذه نتيجة الوهن الذى أصـاب المسلمين في القرون الاخيرة وأدى بهم الى ايثار العافية وطلب السلم الرخيصـة وترك الجهاد في سبيل الله . وقد نهاهم الله عن ذلك في كتابه العزيـز حيث قال جل شأنه " فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الاعلون والله معكـم ولن يتركم أعمالكم (١) ." ولو أن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام وقفـوا مع مشركى مكة مثل هذا الموقف ورضوا بهذا النوع من التسامح والتعايش السلمـى مكتفين بالجانب العقائدى والتعبدى وكانوا من اللين والمرونة بحيث لا يجدون غضاضة من التضامن مع القوة المسيطرة والخضوع لها والسير فى ركابها مسلمين لها القيـاد لتنفذ في شئونهم أنظمتها وقوانينها لو أنهم وقفوا هذا الموقف لما وجـدوا مشركى مكة من التعنت والعناد والقسوة بحيث يرفضون اعطاءهم حريتهم فى اعـلان دينهم وعقيدتهم وممارسة شعائرهم التعبدية وبذل دعوتهم لمن يريد أن يسمعها منهم وهم بعد قوم خاضعون مسالمون مستسلمون .

ان الجهاد الاسلامي بمفهومه الواسع الشامل فريضة الله على عبـاده ، لا يبطله شيء ، ولا يتذرع لالغائه بما يردده الاعداء والمنحرفون من المسلميـن بأن الجهاد يجعل وجود المسلمين تحديا سافرا للامم غير المسلمة ويمتنع معـه

---

(١) سورة محمد : آية (٣٥)

تحقيق التعاون والتعامل مع غير المسلمين وأنه يتعارض مع مايبشر به الاسلام ويدعو اليه من تحقيق الامن والسلام واقامة الحق والعدل ونشر الفضيلة بين بني البشر . انما ذلك كله أقاويل يراد بها صرف المسلمين عن الجهاد في سبيل الله وقتال الاعداء لتحرير البشرية من العبودية للبشر وانقاذها من قبضة الطغاة الجبابرة ونشر دعوة الحق بين العالمين . جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " .. والجهاد ماض منذ بعثني الله الى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل . (١) .

ومن مظاهر الانحراف في مفهوم الجهاد في هذا العصر الحديث أن كثيرا من المسلمين تحت ضغط الواقع البائس الذى يعيشه العالم الاسلامي في هذا العصر وثقل هذا الواقع في ميزان القوى العالمية قد انخدعوا بحملات المستشرقين العنيفة في تشويه حقيقة الجهاد الاسلامي وبواعثه وغاياته . فقد صوروا الاسلام حركة تسلط وقهر وعنف حملت السيف على رؤوس الناس لاكراههم على اعتناق العقيدة الاسلامية وصرفهم عن دينهم . ان هذه الصورة المنكرة التي صور بها الغرب الاسلام قد أفزعت المسلمين المخدوعين وهالهم الامر واعتراهم الخجل ، فراح فريق من الباحثين العصريين المهزومين روحيا وعقليا ينافحون عن سمحة الاسلام ويدفعون عنه الاتهام . ولكنهم حين يتلمسون الاعذار ويبحثون عن المبررات الدفاعية لتبرئة ساحة الاسلام قد غفلوا عن طبيعة هذا الدين ودوره في الأرض وأهدافه العليا التي أرسل الله من أجلها رسوله محمدا بالهدى ودين الحق وتكفل باظهاره على الدين كله . انهم لم يجدوا للجهاد والقتال مبررات سوى بعض الملابسات الدفاعية الوقتية في العهدين المكي والمدني وكان الجهاد سينطلق

---

(١) اخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ، باب الغزو مع أئمة الجور ١٨/٣ عن أنس بن مالك .

في طريقه سواء وجدت هذه الملابسات أم لم توجد . ان هؤلاء الباحثين كانوا يلبسون منهج الاسلام في الجهاد[1] لبسا مضللا ويخلطون بين النصوص خلطا شديدا ويحملونها مالا تحتمل من المبادئ وقد كانوا يسوقون النصوص الواردة في القتال دون مراعاة طبيعة منهج الاسلام في الجهاد والمراحل المتعددة التي مر بها والوسائل المختلفة التي تقتضيها كل مرحلة لانهم لا يدركون الارتباط القائم بين النصوص المختلفة بعضها ببعض ولا يفهمون علاقة هذه النصوص بكل مرحلة من مراحل حركة دعوة الاسلام . انهم يصلون في دراستهم لهذه النصوص المختلفة الى أن الاسلام لم يقرر القتال الا للدفاع فقط فالمسلمون دعاة خير وحملة لواء الحق والعدل يدعون الناس الى دين الله القويم دين الامن والسلام دين الرحمة والبر والاحسان ، يدعون الناس بالحكمة والموعظة الحسنة بالخطب والرسائل والمقالات ويجادلون الذين يخالفونهم ويعارضونهم بالتي هي أحسن بالحجج الواضحة والبراهين الساطعة حتى يؤمن من يؤمن منهم بدعوة الاسلام عن بينة ويبقى على دينه من أبى ، فهم لا يكرهون الناس حتى يكونوا مسلمين ، هذه هي دعوة الاسلام من غير ما زيادة ولا نقصان . وأما القتال واستعمال القوة فهو شأن عارض مقيد بملابسات وظروف تذهب وتجيء من دفع الظلم وصد العدوان وحماية الدعوة والمستجيبين لها وتأمين حدود بلاد المسلمين أو باختصار ما يسمونه اليوم الحرب الدفاعية . فقد اضطر المسلمون في العهد الاول من الدعوة الى القتال للدفاع عن أنفسهم واموالهم وحريتهم في الاعتقاد والتدين ، ولم يكونوا محبي القتال وسفك الدماء ولكنهم كانوا دعاة خير وسلام . يقول الاستاذ محمد عطية الابراشي بعد سرد تاريخ بدء الدعوة في مكة وبيان ما لاقاه الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه من قريش من معاملة كلها قسوة وغلظة واضطهاد حتى أمره الله تعالى ومن معه بالهجرة الى المدينة ورغم ذلك لم تكف قريش عن ايذاء الرسول وطلبه وملاحقته حيثما كان ، يقول الاستاذ الابراشي : " لكن رسول الله لم يهاجم ولم يقف موقف الهجوم ولكنه وقف موقف المدافع فقط حتى جاءته قريش فهاجمته

← الحاشية رقم (١) في الصفحة المقابلة

وعند ذلك فقط قام ليدافع عن نفسه وقومه ودعوته ، وهذا هو الجهاد المشروع في الدين الاسلامي . وتتسع دائرته فيكون لحماية الدعوة الاسلامية والمستجيبين اليها مطلقا ولو كانوا في السجون بمكة يعذبون ليعبدوا اللات والعزى والاصنام والاوثان " ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا ." (٤/ ٧٥) وتتسع دائرة الجهاد في الاسلام فتشمل ازالة العقبات من طريق الدعوة حتى تأخذ طريقها المشروع لها لأن الدعوة الاسلامية دعوة حق وعدل وانصاف يجب الا يحول بينها وبين الناس حائل ويمكننا أن نقول ان موقف المسلمين من مخالفيهم في العقيدة الدينية لم يكن عدائيا ولكنه كان موقف دفاع لا موقف هجوم ،ولم يكن القتال أساسا للعلاقات بين المسلمين وغيرهم ولكن السلم كان هو الأساس . وان اذن الله للمسلمين بالقتال لم يكن لاكراه الناس على العقيدة الاسلامية بل لحماية الدعوة الى الاسلام وحماية اصحابها فقط . ولو لم يثر المشركون من قريش في وجه الدعوة ويؤذوا الرسول ومن تبعه من المسلمين ويهاجموا محمدا حيث هو ما شهر عليهم المسلمون سيفا ولا أراقوا دما ... " الى أن قال " : ومن ذلك يتبين أن القتال في الاسلام كان تدبيرا وقتيا لأسباب خاصة محدودة ، وأن المسلمين اضطروا اليه اضطرارا وحملوه تحميلا ، وأن الاسلام يأبى على المسلمين أن يقتلوا من يخالفهم في العقيدة والدين لمجرد هذه المخالفة ويأبى عليهم أن يكرهوا الناس حتى يكونوا مؤمنين (١) ." ويقول في موضع آخر (٢)" فالمنصفون من الباحثين يرون أن الاسلام لم ينتشر بالسيف ولم يأمر باراقة الدماء كما يتضح من الآيات القرآنية المتعددة .... ولم يدخل محمد في حرب الا مضطرا وقد روى عن

---

(١) كتاب روح الاسلام ،ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٥ - ١١٦ .

عائشة رضي الله عنها " ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختار أيسرهما مالم يكن اثما فان كان اثما كان أبعد الناس عنه " وقد بين الله ذلك في قوله " ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة " (٢/١٩٥) .

والحق أن الجهاد الاسلامي أمر آخر لا علاقة له البتة بحروب الناس اليوم لا في طبيعته ولا في بواعثه وغاياته ، وهو شأن دائم لا حالة عارضة . وذلك لأن الحق والباطل لا يمكن أن يتعايشا تعايشا سلميا جنبا الى جنب في هذه الأرض ، وأن الله في عليائه قد تكفل أن يدفع الناس بعضهم ببعض لدفع الفساد والظلم عن عباده " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز (١) " يقول الاستاذ المودودى " ان ما اصطلح عليه الناس اليوم من تقسيم القتال الى الهجومي والدفاعي لا يصح اطلاقه على الجهاد الاسلامي البتة وانما يصدق هذا المصطلح على الحروب القومية والوطنية فقط لان هاتين الكلمتين المصطلح عليهما لا ينطق بهما وما جرى استعمالهما الا بالنسبة الى قطر مخصوص أو أمة بعينها (٢) . "

والمسلمون خير أمة أخرجت للناس فهم يؤمنون بالله ورسوله ويحملون على كواهلهم نشر رسالة الحق والعدل واقامة دين الله في الارض وتطبيق منهج الله الشامل للحياة الانسانية ، فدينهم ورسالتهم لا تفرق بين أمة دون أمة ولا تخص قطرا دون قطر ، وهم يدعون جميع الامم والشعوب على اختلاف اجناسها ولغاتها الى فكرتهم ومناهجهم مفتوحة أبوابهم لكل من يريد أن يشارك في دفع مسيرة الخير والحق الى الامام ، وهم لا يسعون بجهادهم الا للقضاء على القوى المادية الجائرة وأنظمتها وقوانينها المناقضة لمبادئ الحق الخالدة ليقيموا مكانها نظاما صالحا مؤسسا بنيانه على قواعد الحق والعدل التى يقررها دينهم

---

(١) سورة الحج : اية (٤٠)
(٢) كتاب الجهاد في سبيل الله ص ٤٢ بتصرف بسيط

ويدعو اليها .. من أجل هذا لا مجال البتة في دائرة أمة هذه صفاتهـــا لما اصطلحوا عليه من نوعي القتال الهجومي والدفاعي .

ومن مظاهر الانحراف في مفهوم الجهاد في سبيل الله أن كثيـــرا من المسلمين اليوم قد غلب على قلوبهم الوهن وحب الدنيا وكراهية الموت وراحـــوا يتعلقون بجملة اعذار واهية لدفع فريضة الجهاد يقولون في انحرافهم كيف يمكـــن الجهاد في هذا العصر والمسلمون يعيشون في حالة بائسة من ضعف وتخلـــف وذل وهوان وتشتت وتناحر وجهل وبعد عن روح الإسلام وتعاليمه السامية وقد تفرقوا شيعا واحزابا فلا تجمعهم كلمة ولا تضمهم راية ، بأسهم فيما بينهم شديد ، بينما أعداؤهم متفوقون عليهم تفوقا ظاهرا في النواحي المادية من الحياة وبخاصـة الناحية العسكرية والتنظيم الحربي ، وصناعة الاسلحة والعتاد . فالمسلمـــون اليوم يعيشون في ظروف قاسية صعبة ويمرون بمرحلة حرجة لم يسبق لها مثيـــل في تاريخهم الطويل ، وذلك لان كيد الاعداء ومكرهم مابلغ في يوم في احكامـــه وشدته واتساع مداه مابلغه في القرون الثلاثة الاخيرة ، كما أن خضوع المسلميـــن واستسلامهم للواقع البائس ورضاهم بالذل والهوان لم يبلغ في يوم مدى مابلغه فـــي هذه الفترة الاخيرة . ان الذى حدث بالمسلمين في هذه الفترة العصيبة هـو هزيمتهم النفسية امام اعدائهم حين رأوا قوتهم الهائلة وتفوقهم في النواحي المادية من الحياة فأيقنوا الا قبل لهم بجيوشهم فوهنوا واستكانوا واستسلموا لحكم الواقع .

ولكنهم لجأوا في هذه الايام الاخيرة الى سلاح المهزومين فأخذوا يتشدقون بمبررات عديدة ومعاذير عريضة ليخففوا عن أنفسهم شدة الهزيمة ووقع الضربـــات وآلام الجراح . وان وسائل التخدير المتعددة التي يستخدمها الاعداء لاتـزال تعمل عملها في عقول هؤلاء المسلمين بحيث لا يشعرون معها بماحل بهم من نكبات جسمية ومايحفهم من مخاطر ومايدبر لهم من مكايد وحيل ومؤامرات . ولو أنهـــم وعوا رسالة الاسلام الى بني البشر وفهموا مهمتهم ودورهم في الارض وأحســـوا مامنى به العالم كله من خسارة كبيرة بسبب تخليهم عن مهمتهم لا جتمعت قلوبهـــم

من تفرقها وتناكرها ورجعوا الى دينهم ليقوموا بمهمتهم في هداية البشرية .

وان بعض المسلمين يقولون ان حال المسلمين اليوم تشبه حال المسلمين في مكة عند بدء الدعوة حيث كان اعداؤهم متفوقين عليهم ماديا ومعنويا فلم يقووا على مواجهتهم وقتالهم فقيل لهم "كفوا ايديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ..(١) الآية

ان الذى نحب أن نوضحه هنا هو أن المسلمين الاولين في مكة لم يكونوا في ذل ووهن ، لم يكونوا خاضعين لعلو الكفر ولا مستسلمين لغلبة الاعداء ولكنهم كانوا فى جهاد كبير مع الكفر وأهله ،فقد أعلنوا ايمانهم بالله وكفرهم بالطواغيت في عقائدها وأنظمتها وتقاليدها مجاهرين ببراءتهم منها وخروجهم عليها وكانوا في تحد مستمر للاعداء وفي صبر لا يعرف الضعف واليأس لما يصيبهم من أذى وتعذيب واضطهاد وتنكيل في سبيل دينهم . انهم لم يكونوا في لعب ولهو وآمان معسولة وانما كانوا في مرحلة اعداد وتهيوء وتخطيط وجد وعزيمة ثم أنهم كانوا في فترة كان القتال فيها منهيا عنه لم يشرع بعد ولم يؤذن لهم به . ولما فرض عليهم الجهاد والقتال استجابوا لامر ربهم وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده بأموالهم وانفسهم حتى نصرهم الله على أعدائهم ومكن لهم ولدينهم في الأرض .

---

(١) سورة النساء : آية (٧٧)

المبحث الخامس

" اقفال باب الاجتهاد "

الفقه هو الذى يمثل الجانب العملى التطبيقى في الشريعة الاسلامية وهو الذى يساير الناحية المتطورة من الحياة الانسانية لمعالجة الامور المستجدة وحل المشكلات ووزن القضايا والأحداث بميزان المصلحة والمفسدة على ضوء مبادىء الاسلام الكلية وقواعده العامة حتى لا يجد الناس عسرا ولا مشقة ولا حرجا فيما يعرض لهم من أمور ومشكلات واحداث ومايستحدث في مجتمعهم من وسائل النمو والتطور . فالتجدد والتطور من سنة الحياة فهو ضرورى لحياة المجتمع المسلم وضرورى أيضا لحياة الدين نفسه من أجل الحفاظ على قوته وسيادته وسيطرته على الناحية المتطورة من شئون الحياة والانسان وتقرير صلاحيته لكل زمان ومكان . وقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ان الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها "(١) فالامة بعد مضى حقب من الزمن بحاجة الى مجدد ومصلح قدير يدعو الى اقامة الدين وعدم الانحراف عن جادته ويصلح ما فسد من أحوال الناس وما أهملوه من أمور دينهم ويدلهم على أحكام ما استحدث في المجتمع من قضايا ووسائل لم يكن للناس بها عهد من قبل .

وان الاجتهاد في طلب أحكام الأمور المستحدثة والاحوال المتجددة في المجتمع واجب من واجبات هذا الدين الاسلامى الذى لا يخص أمة دون أمة وليس محدودا بفترة معينة من الزمن أو مكان خاص في الأرض وانما هو دين الناس أجمعين في كل زمان ومكان . واذا كان من طبيعة الحياة التبدل والتغير

---

(١) رواه ابو داود في كتاب الملاحم ، باب مايذكر في قرن المائة ٤/ ١٠٩ عن ابى هريرة .

والتطور ، الأمر الذى تختلف معه شئون الناس واحوالهم وحاجاتهم حسب اختلاف ظروف الزمان والمكان ، وكانت مهمة الدين اقامة الحق والعدل بين الناس وتوجيههم الى الخير ورعاية مصالحهم وتحسين احوال معاشهم وتحقيق السعادة لهم في رحلة الحياة .. اذا كانت تلك هى طبيعة الحياة وكانت هذه هى مهمة الدين ورسالته فلابد من الاجتهاد المؤسس بنيانه على قواعد العدل والمصلحة التى قررها الاسلام لرفع الحرج عن الناس وعدم تضييق آفاق الحياة الواسعة في وجههم . كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبى موسى الأشعرى مرة في شأن الاجتهاد يقول " ... الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله ولا سنة النبى صلى الله عليه وسلم ثم اعرف الأشباه والامثال فقس الامور عند ذلك بنظائرها واعمد الى أقربها الى الله وأشبهها بالحق .. " (١)

ولقد برهنت العصور الاسلامية الزاهرة على ملاءمة الاسلام للحياة الانسانية في أطوارها المختلفة وقدرته على الاستجابة لكافة شؤونها وظروفها وأوضاعها بما يحتوى عليه من مبادىء كلية وقواعد عامة . فقد اجتهد الخلفاء الراشدون فيما استجد على الناس من أمور وماعرض لهم من مشكلات وأحداث واقترحوا لها الحلول ، وكانوا دائما يوائمون بين مبادىء الدين وتعاليمه وحاجات الناس ومصالحهم . وكان الى جانبهم علماء مجتهدون من أفاضل الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يعينونهم في ذلك . فقد اجتهد أبو بكر الصديق رضى الله عنه في مسائل كثيرة وقعت في عهده منها مسألة جمع القرآن وقتال مانعى الزكاة وتعيين الخليفة من بعده وغير ذلك . ولما جاء عهد

---

(١) جمهرة رسائل العرب ١/٢٥٢ أحمد زكى صفوت

عمر بن الخطاب وقد استقرت الفتوح واتسعت رقعة الدولة الاسلامية وقامت في المجتمع المسلم ظروف وأحوال ووقعت أحداث لم يكن للناس بها عهد زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وزمن أبي بكر وكانت حاجة المجتمع شديدة الى وضع نظم جديدة تتلاءم مع هذه الاحوال وتحل مشكلاتها (١)، لما حدث هذا كله في عهد الخليفة عمر، واجه الفاروق الامر بقوة ايمان وصدق عزيمة واجتهد لمواجهة الظروف الجديدة مع حرصه على ان تكون اجتهاداته ملائمة لأحوال المجتمع ومتفقة في الوقت ذاته مع روح المبادئ والتعاليم الاسلامية .. ومن نماذج اجتهاد عمر رضي الله عنه موقفه من كبار الصحابة في عدم السماح لهم بالخروج الى الأقاليم وامتلاك الضياع بها، واقتراح مسألة الخراج، ومنع عطاء المؤلفة قلوبهم، وتطبيق مبدأ الضرورة في كثير من الأحداث المهمة وغير ذلك . وهكذا سار موكب الاجتهاد في عهد الخليفة عثمان وعهد علي بن أبي طالب ومن جاء بعدهم حيث كان الخليفة يتولى مهمة الاجتهاد ومعه عدد من العلماء يعينونه في ذلك .

وقد استمر الأمر هكذا حتى جاء زمن الخلفاء الذين لا حظ لهم من العلم والفقه ولم يكن لديهم من التربية الدينية وملكة التفقه والاستنباط ما يؤهلهم للاضطلاع بمهمة الاجتهاد في المسائل الدينية والأمور الدنيوية (٢) فتركوا هذه المهمة الى العلماء واخذوا على عاتقهم شئون الحكم والسياسة ووكلوا الى العلماء والفقهاء مهمة القضاء والفتيا واتخذوا منهم مستشارين يستعينون بهم في الأمور المهمة .

ولقد امتازت القرون الاسلامية الاولى بالابداع العلمي وازدهار الفقه

---

(١) انظر أحمد أمين، فجر الاسلام، ص ٢٣٤ - ٢٣٥

(٢) انظر، أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٤٧ .

منذ عهد الصحابة حتى عهد الأئمة المجتهدين في القرن الثاني الهجري وبعد ذلك بقرنين أو ثلاثة على الاكثر حيث شهد المجتمع الاسلامي نهضة علمية هائلة في شتى مجالات العلوم النظرية والعملية والدينية والدنيوية . ففي عصر الائمة المجتهدين بلغ الفقه والاجتهاد مبلغا كبيرا من النشاط والازدهار ، ولم يقف هؤلاء العلماء في عملهم الجاد المثمر في مجال البحث والدراسة عند حدود حل مشكلات عصرهم ومعالجة احوال مجتمعهم والأمور المستجدة على الناس فيه فحسب بل تخطوا ذلك الى افتراض مشكلات واحداث واقتراح الحلول المناسبة لها . لقد أطلقوا لخيالهم العنان فقدروا آلافا مؤلفة من الاسئلة والافتراضات في جميع أبواب الفقه ، منها مايمكن حدوثه عقلا ومنها مالا يحتمل تصوره عقلا فضلا عن وقوعه . والذى يستعرض أعمال هؤلاء الائمة الاعلام وجهودهم العظيمة في مجال الفقه والاجتهاد وجهود تلاميذهم النجباء من بعدهم ، الذى يستعرض هذه الاعمال والجهود يعلم يقينا أنهم خلفوا ذخيرة علمية واسعة للأجيال المسلمة من بعدهم وكأنهم كانوا يريدون أن يحملوا عن الأجيال اللاحقة مشقة البحث والدراسة ويريحوها من متاعب كد الذهن فيما سيعرض لها من مشكلات وأمور وأوضاع جديدة .

ولما جاءت الاجيال التالية لعهد الائمة وجدت أن الائمة السابقين قد ذللوا أمامها الطريق وقدموا لها كل ماكانت بحاجة اليه في عصرها ، وجدت أن الفقه قد دون بتفصيلات دقيقة واسعة شاملة بحيث لم يدع لها مجالا تحتاج معه الى اجتهادات جديدة . وقد رأت تلك الاجيال أن نشاط الأولين شمل معظم ما استجد في عهدهم من أمور وأحداث فاكتفوا بما خلفوه . وقام كل فريق من فقهاء المذاهب المختلفة باظهار علل الاحكام التى استنبطها امامه وبالترجيح بين الآراء المختلفة في مذهب امامه وبنصرة هذا المذهب جملة وتفصيلا وذلك بنشر ماكان عليه امام المذهب من العلم الواسع والورع الصادق

وحسن الاستنباط والاتباع التام لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وترجيح مذهبه في كل مسألة خلافية[1] . وهكذا وقف موكب الاجتهاد عند النقطة التي انتهى اليها الأولون حيث ان الاجيال التالية لهم رأت عدم الحاجة الى اجتهادات جديدة .

ثم جاء بعد ذلك جيل متاخر فوجد أن فقهاء الاجيال السابقة قد تركوا الاجتهاد فأساء فهم موقفهم وظن أنهم لم يجتهدوا لأن باب الاجتهاد قد أقفل وانه لم يعد جائزا للفقهاء أن يجتهدوا في الدين اذ لم تتوافر فيهم شروط الاجتهاد كما توافرت في الائمة السابقين ، وأن الواجب على المتأخرين انما هو تقليد هؤلاء السابقين واقتفاء آثارهم . وهكذا أقفل باب الاجتهاد منذ القرن الرابع أو الخامس للهجرة، وكان الفقهاء يحمدون تقليد أئمة المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة ، كان العالم أو الفقيه يتبع اماما من هؤلاء الائمة ويستوعب مذهبه ويتعصب له ثم لا يجيز لنفسه ان يتعداه الى غيره وظل الامر هكذا فترة طويلة من الزمن حتى جاءت القرون الاخيرة وبخاصة بعد القرن العاشر الهجرى حين جرى الفقهاء على شرح مؤلفات من سبقهم في كتب مطولات أو اختصارها في متون موجزة وأخذ اقوالهم مجردة عن أدلتها من الكتاب والسنة ، وقد كانوا يعتمدون على أقوال الائمة المتقدمين وآرائهم في حل المشكلات ومعالجة القضايا والمسائل دون النظر الى الادلة الشرعية الاصلية ومراعاة مقاصد الشريعة والمصلحة العامة حتى وصل الامر بهؤلاء الفقهاء الى أن يجعلوا قول الامام أصلا يطبقون عليه الدليل الأصلي من الكتاب والسنة[2] ، فاذا كانت الآية أو الحديث مخالفين لقول الامام فهما اما منسوخان واما مؤولان

---

(١) انظر الشيخ محمد الخضرى ، تاريخ التشريع الاسلامى ص٢٤١ - ٢٤٣

(٢) انظر الشيخ محمد المبارك ، المجتمع الاسلامى المعاصر ، ص٦٥

بما يوافق رأي الامام ، ذكر الشيخ محمد الخضري أن أبا الحسن عبيد الله الكرخي وهو طليعة فقهاء الحنفية في زمانه يقول : " كل آية تخالف ماعليه أصحابنا فهي مؤولة أو منسوخة وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ . [١] "

ويقول الشيخ الخضري في تصوير الدور الخامس والسادس من الادوار التي مر بها الفقه منذ شرف الله محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته الى يومنا هذا : " لا شك أنه كان في كل دور من الأدوار السابقة مجتهدون ومقلدون ، فالمجتهدون هم الفقهاء الذين يدرسون الكتاب والسنة ويكون عندهم من المقدرة مايستنبطون به الاحكام من ظواهر النصوص أو من معقولها . والمقلدون هم العامة الذين لم يشتغلوا بدراسة الكتاب والسنة دراسة تؤهلهم الى الاستنباط فهؤلاء كانوا اذا نزلت بهم نازلة يفزعون الى فقيه من فقهاء بلدهم يستفتونه فيما نزل بهم فيفتيهم ، أما في هذا الدور (أي الدور الخامس[٢]) فان روح التقليد سرت سريانا عاما واشترك فيها العلماء وغيرهم من الجمهور ، فبعد أن كان مريد الفقه يشتغل أولا بدراسة الكتاب ورواية السنة اللذين هما أساس الاستنباط صار في هذا الدور يتلقى كتب امام معين ويدرس طريقته التي استنبط بها مادونه من الاحكام فاذا تم ذلك صار من العلماء الفقهاء ومنهم من تعلو به همته فيؤلف كتابا في احكام امامه اما اختصارا لمؤلف سابق أو شرحا له أو جمعا لما تفرق في كتب شتى ولا يستجيز الواحد منهم لنفسه ان يقول في مسألة من المسائل قولا يخالف ما افتى به امامه كأن الحق كله نزل على لسان امامه وقلبه[٣] . " ويقول عن الدور[٤] السادس : " وأعظم مميزات هذا الدور تمكن روح التقليد المحض

---

(١) تاريخ التشريع الاسلامي ، ص ٢٣٦

(٢) هو دور القيام على المذاهب وتأييدها وشيوع المناظرة والجدل من أوائل القرن الرابع الهجرى الى سقوط الدولة العباسية .

(٣) تاريخ التشريع الاسلامي ، ص٢٣٦

(٤) هو دور التقليد المحض ، منذ فترة سقوط الدولة العباسية الى الان .

من نفوس العلماء فلم ير منهم من سمت نفسه الى رتبة الاجتهاد الا القليل منهم وذلك في النصف الأول من هذا الدور وهو العهد الذى حلت فيه القاهرة محل بغداد وصارت مقرا لمملكة اسلامية وخلافة عباسية ففى هذا العهد كان ينبغ من آن لآخر من يصلون هذه الرتبة لكنهم مع ذلك واقفون عند الانتساب الى الائمة المعروفين أما في النصف الثانى وهو من أوائل القرن العاشر الى الآن فان الحال قد تبدلت والعالم قد تغيرت وأعلن انه لا يجوز لفقيه ان يختار ولا أن يرجح وأن زمن ذلك قد فات وحيل بين الناس وبين كتب المتقدمين واقتصر الحال بهم على تلك الكتب التى بين أيديهم . . . " الى ان قال" فلانسمع باسم عالم كبير أو فقيه عظيم أومؤلف مجيد بل نجد قوما غلبت عليهم القناعة في الفقه فقلما نجد من يشتغل بغير مذهبه واذا اشتغل بمذهبه اقتصر على تلك الكتب التى اشتد بها الاختصار حتى كأنها ما ألفت لتفهم ، كأن السقوط السياسى سقط بالعلم ولا سيما الدينى منه الى هوة بعيدة الغاية"(١)

لقد منى الفقه الاسلامي في العصور الاخيرة بظاهرتين كان لهما آثار سيئة في الحياة الاسلامية أولاهما التقليد الاعمى في اخذ اقوال المذاهب من غير معرفة الدليل الشرعى ، والتقاعس عن دفع موكب الاجتهاد الى الامام ومواصلة البحث والدراسة استجابة لطبيعة الحياة الانسانية في تطورها وتبدل أحوالها واختلاف ظروفها واوضاعها . وثانيتهما التعصب الشديد لعلماء المذاهب المختلفة وبخاصة من الفقهاء المتأخرين ، والاعتقاد بخطأ المذاهب الاخرى وخطأ المنتسبين لها ، وجافاة اتباع المذاهب بعضهم لبعض(٢) . وقد قام بسبب ذلك خلاف كبير بين اتباع المذاهب المختلفة اسفر عن عداء طويل

---

(١) تاريخ التشريع الاسلامي ص ٢٦٦ - ٢٦٧

(٢) انظر الشيخ محمد المبارك ، نظام الاسلام (العبادة) ص ١٣ - ١٤

عنيف وأدى في كثير من الأحيان الى اندلاع نار حروب طاحنة بينهم سفكت فيها الدماء بغزارة ودمرت فيها البلدان وأهلك فيها الحرث والنسل ، ولو أردت ان تقف على مدى ما منى به المسلمون من الضرر البالغ والخسارة الفادحة بسبب التقليد والتعصب الممقوت والخلاف الحاد بين اتباع المذاهب المختلفة فاقرأ لياقوت الحموى كتابه معجم البلدان تجده في مواضع كثيرة بعد الحديث عن بلدة من البلدان الخاوية الخربة يقرر أن هذه البلدة قد خربت بسبب حرب قامت بين الشافعية والحنفية .

ومن الجانب الآخر فقد أدى التقليد والتعصب الشديد الى ضعف القدرة العلمية وفقدان ملكة الابداع والاجتهاد وضعف الحركة العلمية الناهضة التي بدأت منذ القرن الثاني الهجرى ، فأصاب الفقه الاسلامي ركود وجمود وجمدت معه الحياة الاسلامية بسبب اقفال باب الاجتهاد وسريان روح التقليد والتعصب في المجتمع المسلم ووقفت القافلة عند النقطة التي انتهت اليها في القرن الخامس الهجرى تقريبا . ولكن رغم ذلك لم يخل قرن من القرون الاسلامية من علماء مجتهدين يقومون في هذه الامة على طريقة السلف الصالح يجددون لها دينها ويسيرون بها في الطريق الذى يحقق صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان ويبذلون كل مايملكون من جهود لاصلاح ما فسد من أحوال المجتمع وما انحرف الناس فيه من تعاليم الدين . ولقد عانى هؤلاء الشيء الكثير من المحلات العنيفة التي يشنها عليهم العلماء الذين يدينون بالتقليد ويمنعون فتح باب الاجتهاد ومواصلة البحث والدراسة في حل المسائل المستجدة على الناس حيث كانوا يهيجون عليهم العامة ويوقعون بينهم وبين الحكام في كثير من الحالات . وقد أدى ذلك الى توقف كثير من العلماء عن الاجتهاد أو اخفاء ملكة الابداع وقدرة الفهم والتفقه التي منحهم الله اياها خشية الفتنة التي لا تهان فيها اعراضهم ولا يطعن في عقيدتهم ودينهم فحسب بل يعرضون في كثير

من الأحيان لانواع العذاب والتنكيل . وبذلك قل في هذه القرون من يـــــرد هذا الطريق الوعر وكثر رواد طريق التقليد ومنع فتح باب الاجتهاد ، وكانـــــت لذلك آثاره السيئة في الحياة الاسلامية ، وقد عانت الامة من جمود هـــــؤلاء العلماء وركودهم منذ عصور الانحطاط وفي القرون الاخيرة بوجه خاص . ولم يكـــن ذلك فقط هو ماحدث في عصور الانحطاط بل الى جانب ذلك كان قصر العلمـــــاء عناتهم في دراسة الفقه على الجانب المادى الجاف واهمالهم للجانب الروحـــى المعنوى حتى بدت الدراسات الفقهية في صورة جافة لا حياة فيها ولا روح ، وشمـل ذلك جميع ابواب الفقة حتى تلك التى كانت وثيقة الصلة بالجانب الروحـــــى والناحية الاجتماعية ، ولم يكن الفقهاء وحدهم هم الذين اتجهوا هذا الاتجـــاه القاصر كما لم يكن علم الفقه هو فقط الذى يعانى من هذه المشكلة بل كذلـــك كان معظم العلماء فى شتى مجالات العلوم الاسلامية كالحديث والتفسيـــــر والتوحيد والتاريخ وعلم المنطق والنحو والصرف والبلاغة ، والى جانب ذلـــك كان هؤلاء العلماء في اتجاههم الناقص المحدود يعدون ماسواه انحرافـــا وضلالا يحذرون الناس منه ويمنعونهم من السير في الطريق المخالف لطريقهـــم في قليل او كثير . وقد بذلوا جهودا مضنية في حمل الا مقعلى قبول آرائهـــم وأفكارهم وعدم الخروج عن دائرتها بأى حال . وقد حققوا لانفسهم نجاحـــا كبيرا في هذا المجال ، ولكن ذلك ادى الى التخلف والضعف في الحيـــاة العملية والاجتماعية في المجتمع المسلم . وقد بلغ الامر في ذلك مبلغا مـــن السوء حتى ان بعض الباحثين المعاصرين المتأثرين بالمستشرقين لا يرون اصلاحـا لحال المسلمين في هذا المجال الا بفصل العلم عن الدين واطلاق حريـــة العلم وعدم اخضاعة لضوابط وقيود تمنعه السير في الاتجاه الذى يريده أوبعبـارة صريحة نبذ الدين وراء الظهر أوحصره في نطاق ضيق محدود كما حدث للأمـــم الأوربية الكافرة . وهذا مايدعو اليه الاستاذ احمد أمين بقوله : " ان اصـــلاح

حال المسلمين يكون بشيئين احدهما فصل العلم عن الدين والتوسع في العلم الى أقصى حد مستطاع . (١) "

وهكذا سارت الامور في عصور الانحطاط ، ثم انه لما كان من طبيعة الحياة الانسانية حسب سنة الله أن يجرى فيها التطور والتغير والتبدل باستمرار فقد قامت في المجتمع المسلم خلال تلك الفترة ظروف وأحوال واحداث مختلفة وظهرت حاجات ومشكلات جديدة لم يستقصها فقه مدون ولم يستوعبها مذهب مأثور ولا فتاوى موءلفة ولا حتى مجموعة الفروض والاحتمالات التى خلفها السابقون والشروح والتعليقات التى أضافها المتأخرون الى أعمال المتقدمين ، وقد كانت الاحداث والمشكلات المستجدة والاحوال والاوضاع القائمة تتطلب من الفقهاء تقديم حلول مناسبة تتلاءم مع روح العصر ومقتضيات الاحوال ولكنهم كانوا يرون في التقليد الطريق الامثل فدانوا به واخذوا يدافعون عنه ويهاجمون من يقدم على الاجتهاد ويرمونه بالكفر والزندقة . ومر الزمن . وكانت حال المجتمع المسلم تزداد سوءًا بسبب جمود الحياة الاسلامية وركودها وظهرت أمارات الضعف والتخلف والانهيار على العالم الاسلامي وبدأت قيمته تنحط في ميزان القوى العالمية وبخاصة في أواخر عهد الدولة العثمانية . وقد ازداد ذلك وضوحا بعد قيام الثورة الفرنسية في أوربا وولادة النهضة الحضارية الأوربية على اثر ذلك فتبدلت حال الدول الأوربية وصارت الى قوة بعد ضعف وتخلف ، وتقدمت في شتى مجالات الحياة وبخاصة في المجال الصناعي والحربي والسياسي . وفي الوقت الذى كان يحدث ذلك كله في أوربا وكانت الدول الأوربية تستجمع كل قواها لدفع عجلة النهضة الى الامام استجابة لمقتضيات الاحوال وتفاعلا مع طبيعة الحياة الانسانية... كانت الدولة العثمانية (زعيمة العالم الاسلامي آنذاك) في أواخر عهدها وقد

---

(١) يوم الاسلام ، ص١٨٩

ناءت بها روح التقليد وشلت قواها عن الانطلاق وعرقلتها عن السير في الاتجاه الصحيح ، وأخذت تئن تحت وطأة الجمود والركود وهى في طريقها الى الانحدار والتدني وبدت عليها امارات الشيخوخة والضعف والوهن بعد أن كانت ممكنة في الارض قوية الشكيمة مرهوبة الجانب يحسب لها أعداؤها الف حساب وتتهاوى قواتهم امام جيشها الباسل وهو يزحف كالسيل العرم .

ولكن يجب ان نؤكد هنا انه ليس صحيحا ماشاع في أوساط الباحثين والمفكرين والمؤرخين أن الدولة العثمانية هى التى اقفلت باب الاجتهاد ، وقد ذكرنا سابقا أن باب الاجتهاد قد أقفل في القرن الخامس الهجرى تقريبا . وقد جرت الدول الاسلامية منذ ذلك الوقت بقيادة كثير من العلماء على منع فتح هذا الباب لاعتقادهم بأن الاجتهاد قد انتهى بانتهاء عصر الائمة . وان الذى جعل من جاء بعد الأئمة المجتهدين خلال جيلين أو ثلاثة يتوقفون عن الاجتهاد انما هو علمهم بعدم جواز ذلك لهم ولعدم توافر شروط الاجتهاد فيهم أو لعدم قيام الحاجة للاجتهاد ، وهكذا اساءوا فهم موقف السابقين من الاجتهاد . وأما الذى حدث من الدولة العثمانية فهو انها رفضت السماح بفتح باب الاجتهاد لان العلماء أنفسهم ذهبوا هذا المذهب ، وتقاعسوا عن بلوغ درجة الاجتهاد بسبب جريانهم على التقليد والتعصب المذهبي حتى لم يعد فيهم من يقدر على القيام بهذه المهمة، فلذلك منعت الدولة العثمانية فتح باب الاجتهاد لعدم وجود من تتوافر فيه شروطه .

وبينما نجد بعض السلاطين العثمانيين وقد دبت في نفوسهم اليقظة حينما رأوا تدهور حال الامة الاسلامية الى جانب قوة اعدائها وتفوقهم في شتى مجالات الحياة وتهديدهم المباشر المستمر للعالم الاسلامي ، وأرادوا أن يقوموا ببعض اصلاحات ضرورية في شئون الدولة عن طريق الاستفادة بما وصلت اليه أوربا من علم وخبرة وفن وصناعة في مجال الاعداد الحربي ، بينما كان ذلك من

بعض السلاطين العثمانيين ، رأينا العلماء قد اتخذوا منهم موقف المعارضة وقاوموا محاولاتهم مقاومة شديدة رغم أنهم لم يكن في جعبتهم شيء يقدمونه لاصلاح الوضع المتدهور ورفع شأن الامة وأنهم هم الذين ألجأوا امتهم الى ان تمد عينها الى الامم الاخرى . ومن ذلك أن السلطان سليم الثالث رأى في عهده أن الحاجة تدعو الى اصلاح وضع الجيش العثماني نظرا للظروف العسكرية الدولية التي لم يعد يصلح معها بقاء الجيش العثماني على المستوى الذى كان عليه حيث ان كفة الاعداء تكاد تكون راجحة على كفة دولته . ولكن السلطان رأى أن العلماء - وهم الذين يمثلون قادة الفكر في الدولة - ليس في مقدورهم القيام بمهمة وضع لوائح تنظيمية حربية تتفق مع روح العصر وتساير طبيعة الاحوال المتطورة في العالم لانهم يعيشون في عالمهم الضيق المحدود في معزل عن واقع عصرهم ومشكلاته واحداثه كما أن قادة الجيش أنفسهم ليس في استطاعتهم أيضا الادلاء بأى دلو في هذا المجال نتيجة حالة الجمود الفكرى والركود العلمى التى كانت تعيشها الامة الاسلامية . ولما كان الاصلاح غير ممكن على الصعيد الداخلى وعن طريق العناصر الداخلية اضطر السلطان سليم الثالث الى اللجوء الى دول الغرب المانيا ، وفرنسا والسويد وغيرها يستجلب منها المدربين والخبراء العسكريين ليتولوا تدريب وتنظيم الجيش العثمانى . وفى هذه الفترة فقط في تاريخ الاسلام الطويل شعرت الامة الاسلامية بحاجة ملحة الى الاستفادة من اعدائها من أجل بناء قوتها . وقد عارض العلماء هذه المسألة من أساسها وقاوموها بشدة وأسفرت مقاومتهم عن خلع السلطان ثم قتله (١) بعد ذلك . ولكن العملية لم تتوقف بعد القضاء على السلطان لأن حاجة الدولة أخذت تزداد يوما بعد يوم الى الاستفادة ماتوصلت اليه أوربا من الوسائل والخبرات والانتاج العلمى الحديث ، واذا كانت العملية قد قامت في أول امرها بدافع حسن النية والرغبة في اصلاح الوضع المتدهور في العالم الاسلامي فقد نتجت عنها مخاطر جسيمة بسبب انجراف الناس مع سيلها

---

(١) راجع كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للشيخ ابى الحسن الندوى ، ص ١٧١ - ١٧٢ -

وقد أخذت هذه العملية بعد ذلك تسير في طرق ملتوية وبصورة بطيئة خطوة اثر أخرى كلما سنحت الفرصة وانفسح المجال وظهرت حاجة جديدة حتى جاء الوقت الذى أصبحت العملية مصدرا ثابتا ومنهجا لا يرى الناس في التمسك به والسير في ركابه أى عيب أو منقصة أو خطر ، فاستوردت الاجيال الاسلامية المتأخرة القوانين والنظم والطرائق والمناهج الاجنبية في شتى مجالات الحياة أهمها مجال الاعداد الحربى والتنظيم الادارى ومجال الحكم والتشريع والتنظيمات السياسية وفي مجال الاقتصاد والاجتماع ومجال التعليم والثقافة وما الى ذلك (١) . وهذه هي النتائج السيئة التى أدى اليها سوء فهم العلماء لموقف المتقدمين من الاجتهاد واتخاذهم هم أنفسهم موقفا متصلبا في منع فتح باب الاجتهاد وسريان روح التقليد فيهم وجمودهم وتخلفهم وعجزهم عن توجيه الفقه الاسلامي وجهة صحيحة حية متحركة ليكون قادرا على مسايرة روح العصر والاستجابة لطبيعة الحياة . وقد رأينا كيف أدى الامر الى فقدان العلماء سيادتهم ونفوذهم في المجتمع ودورهم في مجال التوجيه والفكر والابداع في شئون الحياة ولم يعد الناس - وبخاصة الحكام - يخضعون لافكارهم واتجاهاتهم القاصرة التى تضيق عليهم آفاق الشريعة الاسلامية الواسعة وتضيق عليهم بالتالى آفاق الحياة التى تسرع الخطى يوما بعد يوم نحو التطور والتقدم .

وهكذا فقد الفقه الاسلامي سيادته على شئون حياة المجتمع بسبب سوء فهم العلماء وانحرافهم وحصرهم دائرة الفقه في حدود ضيقة لا تستوعب مجالات الحياة ولا تستجيب لجميع مطالبها فوجد الناس فراغات وثلمات في بناء الحياة الاسلامية عجز العلماء عن سدها فوجهوا وجوههم شطر الدول الأوربية " المتقدمة " يستوردون القوانين والنظم والمناهج وساروا في اتجاهات شتى لا تستظل بالشريعة الاسلامية ولا تستنير بتعاليم الدين الحنيف ومبادئه العامة وقواعده الكلية تاركين

---

(١) راجع العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الاسلامية المعاصرة ، سفر بن عبد الرحمن الحوالى ص ٥١٤ - ٥١٥

العلماء يعيشون بافكارهم واتجاهاتهم على هامش الحياة بعيدا عن مجـــال التوجيه والسلطة الفعلية . ثم ان الهوة القائمة بين اتجاه العلماء واتجـــاه المجتمع في أحواله المتجددة قد أخذت تتسع دائرتها في العهود الأخيرة ، واخـــذ الناس ينفلتون من زمام العلماء حتى لم يبق لهم سوى سلطانهم الدينى ، وقـــد خرجت مجالات متعددة من الحياة العملية من رقابة الدين وتوجيهه وسيادته

فانحصرت دائرة عمله في نطاق ضيق محدود . ولما جاء أبناء الجيل الحديـــث نظروا الى هؤلاء العلماء وآرائهم وافكارهم نظرة اشمئزاز وازدراء حيث رأوهم عناصـــر غريبة في المجتمع ترتع في حمأة الجمود والتخلف ولا تريد منها نهوضا ولا تقدمـــا ، ثم جاءت النتيجة السيئة لذلك حين ظن هؤلاء الأبناء ـ متأثرين بالافكـــار التى يرددها المرجفون والمارقون المنحرفون ـ أن جمـــود العلماء وركودهـــم وتخلفهم انما هو ناشىء عن جمود في الدين الاسلامي وقصور وعجز في تعاليمـــه ومبادئه عن مسايرة تطورات الحياة وتبدلات الظروف والاحوال ، وبذلك اعطـــوا الصفة " الشرعية " لعملية تقبل المناهج الاجنبية واتباع الطرائق التى يجـــدون فيها ماقصر عنه الدين (فى زعمهم) من شئون الحياة العملية فأبعدوا النجعـــة وكانوا كمن يستجير من الرمضاء بالنار وازدادت حالهم سوءا الى سوء وتاهـــوا وشقوا فى رحلتهم في الحياة .

الفصـــل الثالـــث

الآثار السيئة التي ترتبت على هذه الانحرافات التصورية في ناحية السلوك العملي في حياة المسلميـــن في القـــرون الأخيـــرة ، ووقوع العالم الاسلامي تحت الاحتلال الاجنبي .

الفصل الثالث

نتائج الانحراف في حياة المسلمين في القرون الأخيرة

ان سلسلة الانحرافات التصورية والسلوكية التي وقعت في الحياة الاسلامية كما عرضنا لها في الفصل السابق - قد أدت الى نتائج سيئة وعواقب وخيمة ذاقت الأمة الاسلامية وبالها في القرون الأخيرة ولاتزال تعاني من ويلاتها الى اليوم .

وكما قلنا سابقا ان الاسلام قد انتهى في القرون الأخيرة في أذهان المسلمين وفي سلوكهم العملي في واقع الحياة الى صورة مزرية مشوهة تختلف عن الصورة الناصعة الصحيحة التي كان عليها المسلمون الأوائل في العصور الاسلامية الزاهرة . وقد حدث الخلط والمزج في صورة الاسلام وادخل فيها عناصر غريبة ووقعت انحرافات وتشويهات كثيرة لم يبق معها في حياة المسلمين من الاسلام الصحيح الا بعض معالمه رغم أن هذه المعالم الباقية عندهم قد أصبحت خاوية من الروح والقوة والحيوية الدافعة التي امتاز بها الاسلام .

ولقد أدى ذلك كله الى تدهور حالة المجتمع المسلم وانحطاطها وضعف المسلمين وتخلفهم في شتى مجالات الحياة الفكرية والعلمية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية مما أدى بالعدو الصليبي والصهيوني الى شن حروب شرسة وحملات عنيفة على العالم الاسلامي فتناثرت جيوشه الجرارة وسراياه الفكرية المضللة في أنحاء بلاد المسلمين . ولكن مهما بلغت قوة العوامل الخارجية التي تكيد لهذا الدين وتسعى لاضعاف قوة المسلمين وانهاء سلطانهم في الأرض ، فانهم حسب سنة الله في خلقه - لم يؤتوا الا من قبل أنفسهم ، وما عوقبوا الا بما كسبت أيديهم " ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم (١) . وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة الأنفال آية (٥٣)

قال :"........ وان ربى قال يا محمد انى اذا قضيت قضاء فانه لا يرد وانى اعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبى بعضهم بعضا " (١)

ان العوامل الحقيقية التى نخرت فى كيان الأمة الاسلامية تكمن فى المسلمين أنفسهم وفى مجتمعاتهم بما أصابهم من علل وأدواء أضعفت قوتهم وشوهت مقومات حياتهم وحولتهم الى غثاء كغثاء السيل قبل أن يقتحم العدو عليهم ديارهم ويحاول الاجهاز عليهم . ومن أجل هذا اعتبرنا القوى الخارجية المعادية للاسلام فى غزوها العسكرى والفكرى والحضارى المخطط المدبر بكل وسائله وخططه وأساليبه المتعددة ... اعتبرناها ضمن النتائج التى أدى اليها انحراف المسلمين عن جادة الاسلام وتشويههم لحقائق الاسلام ومبادئه وقيمه وتعاليمه ، الأمر الذى أورثهم ضعفا بعد قوة وتخلفا وهوانا بعد سمو وعزة ومنعة . " والهزائم الكاسحة التى أصابت الاسلام وأهله من قرن ونصف والتى ما تزال تلعق مرارتها تعود قبل كل شىء الى الدخل الذى غلب فى أنحاء حياتنا كلها ولم يبق معه مجال لسنة صحيحة أو هدى نقى .. ان الاسلام الحق لا يكاد يبين فى زحمة الموروثات التافهة والعرج المطرد وفى زحمة الرجس الجديد الذى وقع مع الاستعمار الغربى (٢) ."

ومن نتائج انحراف المسلمين عن جادة الاسلام فى المجال الفكرى وقوع تفكك وانفصال منذ عصور الانحطاط فى الوحدة الفكرية المتكاملة التى امتاز بها الاسلام فى مصدريه الأصيلين الثابتين والتى تمثلها وعى المسلمين الأوائل الذين استوعبوا تعاليم الاسلام ومبادئه وقيمه وتشربت نفوسهم روحه الصافية حتى أصبح الواحد منهم يمثل الاسلام — فى حدود استطاعته — فكريا وسلوكيا ووجدانيا ، وقد

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الفتن ١٨ / ١٣—١٤

(٢) الشيخ محمد الغزالى — كيف نفهم الاسلام ص ١١

انفصلت هذه الوحدة الفكرية في عصور الانحطاط الى ثلاث شعب ، أولاها شعبة العقليات وهي من اختصاص علم الكلام والعقائد ، وثانيتها شعبة الأحكام العملية التطبيقية وهي من اختصاص علم الفقه وثالثتها شعبة الوجدانيات وهي من اختصاص أهل الزهد والتصوف . وكانت كل فئة من الفئات الثلاث تعطي عن الاسلام صورة الجانب الذي توليه اهتمامها وكأنه هو وحده الاسلام. فأهل الكلام قصروا اهتمامهم على الجانب الذي تولوا دراسته وبحثه ووجهوا عنايتهم لما جاء في القرآن الكريم من أدلة عقلية يحتجون بها في تأييد مذهبهم وتقرير آرائهم. واعطوا جل اهتمامهم للبحث والمناقشة في المسائل الجزئية المتعددة والقضايا الثانوية . ولكن هذه الفرقة لم تكن ظاهرة متميزة في المجتمع المسلم في القرون الأخيرة باستثناء مدرسة الشيخ محمد عبده في مصر في القرن الهجري الماضي . وقد انقرضت المذاهب الكلامية وهدأت النزعات العقائدية الفلسفية ولم تعد ظاهرة تشكل الخطورة على المجتمع كما كانت الحال في العصور السابقة .

وأما أهل الفقه فوجهوا عنايتهم لما في القرآن من آيات الأحكام وما في السنة من أدلة الأحكام واهتموا بالفروع والجزئيات اكثر من الاشتغال بالقواعد الكلية ودراسة مقاصد الشريعة والأصول العامة ، ويقتصر أهل كل مذهب على عرض الاسلام من خلال مذهبهم وكأنه هو المدخل الوحيد الى الاسلام ، وبذلك حصل نوع من الانغلاق الفكري في اطار المذهبية والتعصب لها وقد توزع العالم الاسلامي على المذاهب الفقهية الأربعة : المذهب الحنفي والمذهب المالكي والمذهب الشافعي والمذهب الحنبلي .

وأما أهل الزهد والتصوف فقد كانت عنايتهم موجهة لما في آيات القرآن الكريم من العبر والمواعظ والمعاني النفسية التربوية من تزكية النفس واصلاحها والتجرد لله واخلاص العمل له والزهد والتقشف وما الى ذلك . ثم مع مرور الأيام تأثرت النزعة الصوفية بعوامل خارجية فانحرفت عن جادة الحق حتى صارت في العصور

الأخيرة صورة مشوهة للاسلام مزجت فيها العقيدة الاسلامية والمفاهيم الاسلامية بمجموعة من العقائد والمفاهيم الأخرى المنافية للدين الحنيف . وقد انتهى الأمر بالنزعة الصوفية الى أن أصبحت في اتجاه مقابل تماما لاتجاه أهل الظاهر من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين الذين يعتمدون على النقل والعقل . وبذلك قام في المجتمع المسلم اتجاهان متقابلان هما اتجاه سلفي نقلي وعقلي واتجاه صوفي باطني ووجدت النزاعات العنيفة والعداوة الشديدة بين الاتجاهين ، ثم ان كل اتجاه من الاتجاهين منقسم على نفسه الى فرق متعددة .

وقد أدت دراسة جوانب الاسلام المتعددة منعزلا بعضها عن بعض وقصر الاهتمام على بعض هذه الجوانب مع اهمال الجوانب الأخرى الى ضياع الارتباط الوثيق القائم بين هذه الجوانب من الناحية الفكرية التصورية وفقدان التأثير الكبير الذى يكون لها مجتمعة في السلوك العملي في واقع حياة المسلمين . وقد رأينا مظاهر ذلك في العصور الأخيرة حيث انقسم المجتمع المسلم الى اتجاهات متعددة ومذاهب متنوعة في الجانب الفكرى والعقدى والجانب الفقهي العملي السلوكي والجانب التصوفي الروحي الوجداني ورأينا كذلك كيف اشتدت الخلافات والنزاعات والعصبيات المذهبية بين المسلمين حتى أقامت حواجز كثيفة حالت دون الوحدة الفكرية والعملية وأضعفت شعور المسلمين بالوحدة الاجتماعية ثم أثارت بينهم روح العداء والمجافاة وشغلتهم عن مواجهة أعداء الاسلام الذين يكيدون لهذا الدين ليل نهار - ولايزالون - من قوى الاستعمار الصليبي وجيوشه الجرارة وكيد اليهودية والصهيونية العالمية ورواد الالحاد المستشرقين وأذناب الاستعمار المبشرين وتيارات الحضارة الغربية المادية . وقد كان أثر ما مني به المسلمون في القرون الأخيرة من ضعف ادراكهم وتصورهم للاسلام في صورته الكلية المتكاملة بجميع جوانبه وأجزائه هو الواقع المزرى الذى شهده المجتمع المسلم منذ قرن ونصف حيث ضعف المسلمون عن مواجهة المذاهب والأفكار الحديثة التى غزت ديارهم وانفسح المجال على أوسع نطاق لتوغل هذه الأفكار والمذاهب

وانتشارها في أنحاء العالم الاسلامي مما أدى الى تراجع الأفكار والمفهومات الاسلامية عن ميدان الحياة العملية واستبدل بها المسلمون النظريات والأفكار الوافدة الغازية التي جعلت من المجتمعات الاسلامية صورا مطابقة للمجتمعات الاوربية اللادينية في كثير من مجالات الحياة . وهذه هي النتيجة السيئة التي أدى اليها التفكك الفكري والانقسامات والتعصبات المذهبية والنظرة الجزئية من جانب علماء الفقه والكلام والتصوف في خرافاتهم وبدعهم وشطحاتهم الصوفية ومناقشاتهم الفلسفية الكلامية وخلافاتهم الفقهية وتقليدهم وتعصبهم المذهبي .

" وان من أشد الاساءات الى الاسلام أن تسلك به متاهات الفلسفة وأن تدور به مع حيرة العقل الانساني في البحث عن الحق بعيدا عن هدايات الله وسنن المصطفين الأخيار من عباده كما أن من أشد الاساءات أن يتسلط على هذا الدين أقوام لهم عاطفة جياشة وليس لهم ذكاء أو لهم ذكاء ولكن الهوى يميل بهم عن الصراط المستقيم . . . فان الاسلام لم يصب في ميادين الحياة من شيء مثلما أصيب من هذه الأثواب المزورة التي أظهر فيها وتلك التشويهات الزرية التي ألصقت به (١) ."

وأما نتائج هذا الانحراف في المجال العلمي والثقافي والحضاري فقد أصاب المسلمين في القرون الأخيرة جمود وركود وتخلف وتأخر لأن الحركة العلمية والحضارية التي كانت مزدهرة في العصور الاسلامية الأولى الزاهرة قد توقفت منذ القرن التاسع الهجري تقريبا . وقد كانت المعاقل والمراكز العلمية مثل المدرسة السليمانية ومدرسة الفاتح في تركيا والأزهر الشريف بمصر والمدرسة النظامية في بغداد وغيرها في أنحاء العالم الاسلامي كانت تعاني من آثار هذا الجمود والركود بحيث انه عندما قامت النهضة الأوربية الحديثة على أساس العلم والفكر وقطعت الدول الأوربية أشواطا بعيدة في مجال التطور الحضاري المادي لم تعد هذه المعاقل والمراكز صالحة للاسهام في هذا المجال كما لم يعد

---

(١) الشيخ محمد الغزالي ، كيف نفهم الاسلام ص ٢٤٧

علماء المسلمين قادرين على الاضطلاع بأعباء التعليم والتوجيه والافادة على الوجه المطلوب . وبدل أن يواجهوا الواقع بقوة وعزم بادخال علوم الطبيعة والرياضيات في مدارسهم وتحمل تبعات المشاهدة والاختبار لتسخير قوى الطبيعة لمصلحة الاسلام والمسلمين ظلوا جامدين على ما هم عليه ومنعوا توغل الأفكار والعلوم الجديدة الى بلادهم ، وكانوا يبذلون جهودا كبيرة في دراسة الفلسفة الالهية والمباحث الكلامية وقيدوها بسلاسل وقيود جعلتها معقدة غامضة لا يفهم العامة منها شيئا ، ثم أوصدوا باب التحقيق والتفكير والابداع والاجتهاد وأهملوا العلوم التجريبية والعملية المثمرة التي تعود على الأمة بالفوائد الجمة .

" وان ما وصل اليه المسلمون في العلوم الطبيعية والتجريبية وان كان أرقى من العصور السابقة وأكثر ثروة في العلم والاختبار الا أنه لا يتناسب مع فتوحهم الواسعة في دوائر علمية أخرى ولا يتلاءم مع المدة الطويلة التي تمتعوا بها في التاريخ ولم يظهر فيها من النوابغ والعبقريين مثلما ظهر في موضوعات أخرى . وان ما خلفوه من كتب في الطبيعيات والكونيات والتجارب العلمية وان كانت مما استفادت به أوربا في نهضتها وأقرت بقيمتها الا أنها تتضاءل جدا أمام هذه المكتبة الهائلة الزاخرة التي انتجتها أوربا في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين فقط . فمهما افتخرنا بآثار علماء الاندلس وحكماء الشرق فانها لا تعد شيئا بجانب الانتاج الغربي الضخم في العلم والحكمة والتجربة والاختبار لا في الكمية ولا في الكيفية ولا في الابداع ولا في الابتكار ولا في التدقيق العلمي ولا في الاتقان الفني . واذا أردت أن تعرف مقدار عناية الشرق الاسلامي بالناحية الروحية ونسبتها الى الناحية العلمية والتجريبية فقارن بين كتاب الفتوحات المكية للشيخ ابن عربي مثلا وأكبر كتاب في الطبيعيات والحكمة تجده متوفقا هائلا في ضخامة المادة والعناية بالموضوع والجهاد في سبيله (١) ." وبالاضافة الى ذلك فقد كان العالم الاسلامي وفي مقدمته الدولة العثمانية يرتع في حالة التدهور

---

(١) الشيخ ابو الحسن الندوى ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٥٠-١٥١

والتخلف العلمي والفكرى عندما أفاقت أوربا من سباتها في القرنين الحادى عشر والثاني عشر الهجريين وبدأت تسخر قوى الطبيعة وتكشف أسرار الكون وتحقق انجازات علمية كبيرة في نواحي الحياة ، وقد بلغ التخلف العلمي في العالم الاسلامي مداه حتى ان الدولة العثمانية لم تدخلها صناعة السفن الا في القرن الحادى عشر الهجرى، ولم تدخلها المطابع والمحاجر الصحية ومدارس الفنون الحربية على غرار المدارس الاوربية الا في القرن الثالث عشر الهجرى .

وقد بلغ الجمود الفكرى والتخلف العلمي والحضارى مبلغه في الدولة العثمانية وفي كافة انحاء البلاد الاسلامية ، وكان المسلمون منعزلين عن النهضة الحضارية الحديثة التي قامت في أوربا بعيدين عن عالم الاختراعات والاكتشافات لدرجة أن الناس في أواخر القرن الثالث عشر الهجرى لما شاهدوا بالونا يحلق فوق عاصمة الدولة العثمانية ظنوه من أعمال السحر (١) . وقد منيت مصر بحالة الركود والجمود في القرن الثالث عشر الهجرى وما قبله حتى ان الدولة عندما أرادت أن تدخل العلوم الرياضية والطبيعية في مدارسها لم تستطع الاقدام على ذلك الا بعد استفتاء شيخ الأزهر في الأمر خوفا من معارضة العلماء وقد أجاز شيخ الأزهر تعليمها وشرط بيان النفع من تعلمها (٢) . من ذلك أيضا أن الأزهر الشريف لم يفكر في فتح أبواب التعليم للبنات الا في سنة ١٩٥٦م كما أنه لم ينشيء كلية للبنات الا في سنة ١٩٦٢م وذلك بعد أن وجدت البنت طريقها من عشرات السنين الى المدارس والجامعات التي انشئت لمزاحمة الأزهر والقضاء على تفرده بمركز التوجيه والتعليم . ويدل أيضا على مدى ما وصلت اليه حال المسلمين في مختلف البلدان الاسلامية من ضعف وتخلف وتأخر في مجال العلم والابداع والانتاج والتطور الحضارى حتى في أوائل القرن الرابع عشر الهجرى انهم حينما رأوا ثمار الحضارة الأوربية المادية لايكادون يصدقون أنها نتاج علم

---

(١) راجع ، الشيخ أبو الحسن الندوى ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٧٠ - ١٧١

(٢) انظر د . أحمد شلبي ، المجتمع الاسلامي ص ٢٣٤

وفكر واختبار بل كانوا يعتبرونها من أعمال السحر وحبائل الشيطان ، وقد حدث ذلك عندما ظهرت الآلات اللاسلكية وشاهد الناس التليفون والمذياع والساعة وما الى ذلك .

ومن ذلك أيضا ما ذكر أن الفقهاء في أوائل القرن الهجرى الماضى كانوا يرون أن كل شيء خارج عن المألوف كفر أو حرام أو مكروه فتحويل الميضأة القذرة الى حنفيات حرام وذهاب للبركة وقراءة كتب في الجغرافية أو الطبيعة أو الفلسفة حرام ولبس الجزمة بدعة فان تحركت نفس صالحة للاصلاح خنقت دعوتها في مهدها ورميت بالزندقة (١) ."

ولم يكن انحطاط المسلمين في مجال العلم والفكر والانتاج فحسب بل كان هذا الانحطاط عاما شاملا لجميع نواحي الحياة الاسلامية . وفي مجال القوة الحربية حدث ضعف وتخلف ملموسان في كيان الأمة الاسلامية وقوتها وسيادتها ، وقد ظهر ذلك في هزيمة العثمانيين النكراء أمام جيوش الدول الأوربية الصليبية في معركة (سان جونار) عام١٧٧٤م واندحار جيوش المماليك بعد ذلك وتلاشيها أمام حملة نابليون سنة١٧٩٨م وما تلا ذلك من وقوع العالم الاسلامي تحت الاحتلال الاوربي خلال القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) . ومنذ هزيمة العثمانيين امام جيوش القوى الأوربية الصليبية في أواخر القرن (الثاني عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) بدأت صفحة سوداء في تاريخ العالم الاسلامي ، فقد ظهر سبق أوربا وتفوقها في ميدان الحرب والقتال وتنظيم الجيوش وصناعة المعدات الحربية القوية وارتفعت الى مركز القوة والقيادة في شتى مرافق الحياة المادية وظهر الى جانب ذلك ضعف العالم الاسلامي وانهياره في هذا المجال وأخذت الزعامة الاسلامية في التقلص والتراجع ليس فقط في قدرتها على الاضطلاع بدورها القيادى في العالم بل وصلت الحال الى أسوأ من ذلك فقد بدأت تضيع من بدها السلطة الفعلية في أرض الاسلام نفسها وقد استطاع الاعداء المحتلون في النهاية أن

---

(١) أحمد أمين ، زعماء الاصلاح ص ٢٨

يغتصبوا السلطة الفعلية من أيدى الحكام والسلاطين وأن يفرضوا على الناس طرائقهم ومذاهبهم وأن يحولوا الأمة الاسلامية الى الوجهة التى يريدونها لها .

وفى المجال السياسى كذلك ضعفت الأمة الاسلامية وانهارت قوتها نتيجة التشويهات والانحرافات التى وقعت فى المفهومات الاسلامية السياسية وأصول منهج الحكم الاسلامى حتى صارت لاتستند الا على أهواء الحكام والسلاطين ومصالحهم فكانت المنافسات والمنازعات والخلافات والانقسامات والاستبداد وفرض السلطة على الناس بالقوة وانتشار الظلم والجور وفساد السلاطين وبذخهم وترفهم العريض ومن ورائهم الأمراء وأصحاب الأموال والدثور وكذلك سوء النظام الادارى وبخاصة فى البلاد المفتوحة .

وأما فى المجال الاقتصادى فقد انعكست آثار هذا الانحراف على الحركة الاقتصادية التى كانت نشطة مزدهرة على اثر انتشار دعوة الاسلام فى الآفاق واتساع رقعة الفتوحات الاسلامية فى العصور الأولى وبخاصة فى العهد العباسى الأول . وقد أصيب النشاط الاقتصادى بالذبول والضعف والركود منذ عصور الانحطاط وبلغ الأمر منتهاه فى القرون الثلاثة الأخيرة فتوقف النشاط الاقتصادى فى العالم الاسلامى فى شتى مجالاته الصناعية والتجارية والزراعية وغيرها . وكذلك حصل فى الحياة الاجتماعية من الناحية الحضارية فقد توقفت الانجازات المادية وقلت مرافق الخدمات العامة التى كانت مزدهرة أيضا حتى العصر العباسى الأول حيث عبدت الطرق الكثيرة وبنيت الجسور وأنشئت المحاجر الصحية ودور العجزة والمعوقين كما أقيمت المدارس وغير ذلك من المرافق العامة التى تعود على الناس بالمنافع الكثيرة .

وأما الناحية المعنوية والأخلاقية من الحياة الاجتماعية فقد كان هناك منذ عصور الانحطاط فساد فى الأخلاق وانتشار الظلم والجور فى صفوف الحكام ومن يتبعهم من أصحاب الجاه والنفوذ والمال . وبينما نجد المترفين يتنعمون فى عيشة بطرة نجد الفقراء والمساكين يعيشون فى حالة بؤس وفاقة ، وقد فقد كثير من

الناس روح التعاون والبر والاحسان . وهذه هي المشاهد العامة للمجتمع، وقد كانت توجد الى جانب ذلك نماذج كثيرة رائعة في الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة في البر والاحسان والتعاون وأداء الأمانة والصدق واقامة الحق والعدل وحب المساكين وما الى ذلك ، ولكنها كانت نماذج متفرقة لاتبلغ من القوة ولا من التجمع ما تدفع به حالة الهبوط والانهيار التي يعانيها المجتمع الاسلامي في مجموعه .

وهذه النتائج السيئة التي ظهرت في المجتمع المسلم في القرون الأخيرة بسبب انحرافه عن جادة الاسلام كما عرضنا لها في هذا الفصل قد أدت الى ماهو أسوأ منها لأن العالم الاسلامي - وهو يعاني ويلات ضعفه وتأخره وتخلفه ويقاسي مرارة انهيار مقومات حياته - لم يكن في عزلة عن الحياة وما يجري فيها من أحداث جسام وصراعات عنيفة بين القوى العالمية المتنافسة المتضادية فقد وجد العالم الاسلامي نفسه فجأة امام خصم قوى حاقد ماكر شهرفي وجهه السلاح يطالب مبارزته في ساحة المعركة وهو في حالة الضعف والوهن يرتعد فرقا من مجرد رؤية عدوه ويسقط السلاح من يده مرة تلو مرة ، ولما غلب على أمره استسلم وألقى السلاح . وعندما استقر الأمر للقوة الغازية راحت تبحث عن مواطن الضعف في الأمة المغلوبة فوجدت فراغات في مجالات عديدة في الحياة الاسلامية فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وتعليمية وحضارية فأقدمت في عزم وتخطيط وخبث لعملية " الخلق الجديد " والمسخ الفكرى فكانت نتائج ذلك سيئة وعواقبه وخيمة على ما سنبينه في الفصل القادم ان شاء الله تعالى .

المبحث الثاني :

وقوع العالم الاسلامي تحت الاحتلال الصليبي

حين بلغ المسلمون مبلغهم من الانحراف عن الدين الحنيف في تعاليمه وقيمه ومبادئه وتوجيهاته ، ولم يبق من الاسلام الصحيح في حسهم وفي واقع حياتهم الا تلك التصورات القاصرة المنحرفة والصورة الهزيلة المزرية التي انتهت حالهم بسببها الى قرارة الضعف والانحطاط وغاية التدهور والانهيار من الناحيتين التصورية والسلوكية من الحياة على النحو الذي سبق الحديث عنه في الفصول السابقة . حين بلغت حال المسلمين هذا المدى الخطير من الانحراف والانحطاط كانت قد دبت في نفس أوربا روح جديدة جياشة وظهرت في كيانها عوامل القوة والحيوية والنشاط من الناحية المادية من الحياة فبدأت تبني مدنيتها وتقيم حضارتها على الأسس المادية البحتة ولم تمض فترة طويلة من الزمن على عملها الدؤوب وجهدها المتواصل في هذا السبيل حتى انتعشت حضارتها وارتقت مدنيتها وقويت بذلك شوكتها ثم أخذت تمد عينها الى ما وراء حدود بلادها وتتوق توقا شديدا الى أن تتبوأ مركز القيادة العالمية وتفرض سيطرتها المادية والسياسية والاجتماعية والفكرية على شعوب العالم أجمع ، وذلك الى جانب تحقيق أهدافها الصليبية الموروثة . . في هذه الفترة العصيبة من تاريخ الأمة الاسلامية لم يكن العدو الصليبي اليهودي الحاقد المتربص ليترك هذه الأمة وهو يعلم بما آلت اليه حالها وهو عدوها اللدود الذي لم يتركها حتى في حالة قوتها وعنفوانها فكيف يتركها وقد سنحت له الفرصة المرتقبة للانتقام والأخذ بالثأر ؟ وهكذا وثب الغرب الصليبي وثبة وحشية ضارية على العالم الاسلامي في حملات صليبية حديثة شرسة للقضاء على قوة الاسلام وانهاء سلطان المسلمين من الأرض واخضاعهم لنير العبودية والاستعمار والاستغلال والذل والهوان .

ان الحديث عن الحملات الصليبية الحديثة على العالم الاسلامي لا يمكن أن يأخذ صورته المتكاملة الشاملة الا بربط هذه الحملات مع الحروب الصليبية

الأولى التي شنتها الدول الأوربية المسيحية على الأمة الاسلامية واستمرت قرابة قرنين من الزمان . ولقد كانت عداوة طوائف اليهود والنصارى للمسلمين من أشنع العداوات وأعنف الصراعات التي شهدتها البشرية في تاريخها الطويل ، ولذلك فان الحروب الصليبية الأولى بكل ضراوتها وشراستها وأهوالها ونكباتها لاتمثل الا مظهرا من مظاهر هذه العداوة المتأصلة في قلوب اليهود والنصارى تجاه المسلمين . ولكن الشيء المهم الذى يمكن أن نتلمسه من هذه الحروب هو ما أضفته على طبيعة هذا العداء من روح جديدة ومظهر مغاير يبدو واضحا في محاولات الدول الصليبية الخطيرة المتكررة وتكتلاتها الضخمة من أجل القضاء على الاسلام ، الأمر الذى جعل آثار هذه الحروب ونتائجها تختلف تماما عما واجهت به هذه الدول المسلمين قبل ذلك من مكايد وحيل وعداوات ومؤامرات . ورغم أن الحروب الصليبية قد حدثت في عهد طفولة أوربا حين كانت خصائص ثقافتها ومقومات حضارتها ومدنيتها لاتزال في طور التشكل والنمو التدريجي فانها قد أحدثت آثارا عميقة الجذور في نفسية الشعوب الأوربية فقد أثارت فيها من الحمية الشديدة مالم يتفق قط أن يحدث لها من قبل ، وكانت النتيجة هي تلك الموجة العنيفة من النشوة التي اجتاحت القارة الأوربية بأكملها وعمت جميع أرجاء بلدانها وشعوبها وامتدت الى مختلف طبقات المجتمع الأوربي وأحست الشعوب الأوربية خلال هذه الموجة العاتية بحاجتها الماسة الى التجمع والتكتل والوحدة لتكون قوة عظيمة قادرة على مواجهة العالم الاسلامي الذى سحقتها جيوشه في الحروب الصليبية سحقا وحطمت أطماعها تحطيما وتدميرا . وفي وسط هذه الظروف الحرجة التي كانت تعيشها الشعوب الأوربية في أجواء الهموم والنكسات التي خلفتها الحروب الصليبية ولدت فكرة "المدنية الغربية" ولم تلبث أن صارت هدفها الأوحد الذى علقت عليه أملها الكبير في النهوض من حالة الضعف والانحطاط التي كانت جاثمة فيها . وقد كانت ولادة هذه "المدنية" من روح الحقد والعداوة التي هيجتها الحروب الصليبية بعنف وقسوة فازدادت شدة

الى شدتها . من أجل هذا ليس غريبا أن تنبت " المدنية الغربية" من طينة روح العداء الشديد للاسلام وتسرى هذه الروح في عروقها (١) ودمها . كتب صاحب مجلة العالم الاسلامي الفرنساوية يقول : " العالم النصراني على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللاسلام على الخصوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، والروح الصليبية كامنة في صدور النصارى كمون النار في الرماد وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرا في عناصرها متغلغلا في أحشائها متمشيا في كل عرق من عروقها وهي أبدا ناظرة الى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الديني الممقوت .... الى أن قال وجميع الشعوب النصرانية مجتمعة متفقة على عداء الاسلام وروح هذا العداء متمثلة في جهد جميع هذه الشعوب جهدا خفيا مستترا لسحق الاسلام سحقا (٢) ويقول " جان بول رو" لقد اعتدنا أن نتحدث عن ثمان حملات صليبية الأولى بدأت سنة ١٠٩٦ م والأخيرة انتهت سنة ١٢٧٠م ، غير أن هذا التقسيم لا يبدو متجاوبا كثيرا مع الواقع ويمكننا أن نزيد هذا العدد اذا أخذنا بعين الاعتبار جميع الدفعات التي وجهت الى الشرق ....." ... فقد قذف بملايين الأوربيين الى شواطيء الشرق ومهمتهم تغيير المعتقدات الشرقية ، ومن أجل الوصول الى ذلك كان عليهم أن يخربوا هذا الشرق (٣)" ثم ذكر بعد ذلك أن الحرب بين الاسلام والمسيحية دامت ثلاثة عشر قرنا ،وقد قسم هذه الحرب الطويلة الى أربع مراحل تاريخية وكانت المرحلة الرابعة والأخيرة منها هي الغزو الصليبي الأخير الذي قضت فيه الدول الأوربية على الدولة العثمانية وأنهت

---

(١) انظر الاسلام على مفترق الطرق ، محمد أسد ص ٥٥ ومابعدها ترجمة د/ عمر فروخ

(٢) أحمد أمين - يوم الاسلام ص ١٠٩ - ١١٠ وهذا الكلام منقول من مقال تحت عنوان "الجامعة الاسلامية والجامعة التركية - نشر في مجلة العالم الاسلامي الفرنساوية في مارس عام ١٩١٣م

(٣) الاسلام في الغرب ص ٤١ - ٤٣ - ترجمة نجده هاجروزميله .

سلطان الاسلام في آسيا الوسطى وفرضت الاستعمار أو الحماية على البلاد الاسلامية التابعة للحكم العثماني وبسطت سيطرتها الكاملة على الشعوب المسلمة وفرضت عليها مفاهيمها في الوجود ونظمها في الحياة وطرائقها في المعيشة وأسلوبها في التفكير ، ومع ذلك لم يكن القضاء على الدولة العثمانية الا مظهرا من مظاهر الهجوم العام الذي يشنه الأوربيون على الاسلام. (١)

يقول " ولفرد كانتول سميث" : " كان النبي (يقصد الاسلام) هو التحدي الحقيقي الوحيد الذي واجهته الحضارة الغربية في تاريخها كله وانه لمما يستحق التذكر أن نتذكركم كان هذا التحدي حقيقيا وكم كان يبدو في وقت من الأوقات تهديدا خطيرا حقا . ولقد كان الهجوم مباشرا في كلا الميدانين الحربي والعقدي وكان قويا جدا . . . . . فقد فقدت المسيحية دفعة واحدة " أجمل مقاطعات الامبراطورية الرومانية " لتتسلمها منها القوة الجديدة وكانت في خطر من ضياع الامبراطورية بكاملها . . . . . وعلى الرغم من أن القسطنطينية لم تقع - تماما - في يد الجيوش العربية كما وقعت مصر وسوريا فقد استمر الضغط عليها فترة طويلة ،وفي موجة التوسع الاسلامي الثانية وقعت القسطنطينية بالفعل سنة ١٤٥٣م وفي قلب أوربا المفزعة ذاتها أحاط المسلمون بفينا سنة ١٥٢٩ بينما ظل الزحف الذي بدأ عنيدا لا يلين مستمرا في طريقه . .كان التهديد والانتصارات (الاسلامية) قائمين في عالم القيم والأفكار ، فقد كان الهجوم الاسلامي موجها الى عالم النظريات كما هو موجه الى عالم الواقع وقد عملت العقيدة الجديدة باصرار على انكار المبدأ الرئيسي للعقيدة المسيحية التي كانت بالنسبة لأوربا الاعتقاد السامي الذي أخذت تبني حوله حضارتها ، وكان التهديد الاسلامي موجها بقوة وعنف وكان ناجحا مكتسحا في نصف العالم المسيحي تقريبا . . . وانه لمن المشكوك فيه أن يكون الغربيون قد تغلبوا قط على آثار ذلك الصراع الرئيسي المتطاول الأمد أو على آثار الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الزمان (٢) ولقد توقفت الحروب الصليبية فترة طويلة من الزمن ولكن توقفها لم يكن فقط بسبب الهزائم الكاسحة المتلاحقة التي منيت بها جيوش الصليبيين - فقد كان الصليبيون يستسيغون الهزائم ويتجرعون مرارتها بصبر عجيب - وانما كان الى جانب ذلك أن

(١) **انظر الاسلام في الغرب،** ص ٥٦ وما بعدها .
(٢) الاسلام في التاريخ المعاصر ص ١٠٩ - ١١٠

الصليبيين لما رأوا التتار في زحفهم المدمر على العالم الاسلامي وضرباتهم القاصمة للقضاء على الاسلام وسحق المسلمين بنفس القسوة والعنف الذى يريدونه هـم . لما رأوا ذلك من التتار وقد انهكت الهزائم المتلاحقة قواهم ـ تركوا لهم الميدان ليريحوهم من أعدائهم فترة من الزمن ريثما يعدون للحرب عدتها من جديد ويضمدون جراح الهزيمة ثم يأخذون بوسائل القوة والنصر في حروبهم القادمة مع المسلمين وما أن قويت شوكة أوربا وصلب عودها ونهضت من سقطتها المنكرة حتى لمت شعثها من جديد وحشدت قواتها فشنت هجمات بربرية عنيفة على الاندلس لتصفية الوجود الاسلامي منه وكان ذلك في أيام قوة الدولة العثمانية الا أن الدولة العثمانية قد عوضت العالم الاسلامي عن خسارته في الاندلس بانتصاراتها وفتوحاتها الجبارة في أوربا الشرقية وبخاصة فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية الذى روع دول أوربا كلها وأذهب عنها فرحتها وغطرستها بالانتصار على المسلمين في الاندلس .

وبعد ذلك كله جاءت طلائع الحملات الصليبية الحديثة المكتشفون (١) الجغرافيون الذين جالوا في أقطار العالم في رحلاتهم ومغامراتهم يكتشفون مجاهل الأرض من المدن والقرى والجبال والسهول والأنهار والطرق والمناخ ويتعرفون على مختلف الشعوب والأجناس ودياناتها ولغاتها وعاداتها وتقاليدها وأحوالها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والحربية وما الى ذلك . وقد قدموا في ذلك تقارير ضخمة تحتوى على معلومات مستفيضة ووضعوها تحت خدمة دولهم . وقد أفادت هذه الدول منها كثيرا في غزوها الاستعمارى واحتلالها للبلدان الواقعة وراء حدودها في القرنين الماضيين .

وعلى أثر المكتشفين الجغرافيين طلائع الحملات الصليبية الحديثة جاءت القوى الاستعمارية الأوربية في محاولاتها الضخمة لاستئصال شأفة الاسلام وسحق المسلمين وقد بدأت المرحلة الحاسمة من هجومها الكاسح على العالم الاسلامي منذ معركة

---

(١) أمثال الأمير هنرى الملاح ، ونيوطن Newton وفاسكودىغاما Vasco Dagama ومقلن Maglin ومنغوبارك Mungo Park وغيرهم .

(سان جونار) سنة ١٧٧٤م التى انهزمت فيها جيوش العثمانيين هزيمتها النكراء أمام القوى الأوربية الصليبية ثم تلت ذلك حملة نابليون العنيفة على مصر سنة ١٧٩٨م وأعقب ذلك احتلال هذه الدول للبلدان الاسلامية وفرض حكمها المباشر عليها ما عدا تركيا وحكومة الشريف حسين فى الحجاز .

ولقد كانت الحملات الصليبية الحديثة أعنف وأخبث من سابقاتها فى العصور الوسطى حيث ان الغرب لم يكتف فى هذه المرة بالغزوات العسكرية الموجهة لكسر شوكة المسلمين كما هو الحال فى الحروب الصليبية الأولى ، ولم يرض بما حققه فى حروبه الحديثة من الاستيلاء على أراضى المسلمين وفرض السيطرة السياسية عليهم ولا بالاستغلال الاقتصادى الذى كان يمارسه بخططه الخبيثة وانما أضاف الى ذلك كله خطة خبيثة اهتدى اليها فى هذه المرة،وهذه الخطة الخطيرة هى الغزو الفكرى والمسخ الثقافى للقضاء على الاسلام فى داخل قلوب المسلمين وتقليص دائرة عمله أو عزله عن واقع حياة المسلمين . وقد علم الغرب أن الاسلام بعقيدته وتعاليمه وقيمه وتوجيهاته هو السر الأعظم لقوة المسلمين وعزتهم وهو الذى يمنحهم روحا دفاقة لانتفاضاتهم المفاجئة المتكررة ، واذا لم يبعد المسلمين عن هذا الدين ولم يقطع صلتهم به أو يوهن قوة ارتباطهم به بصرف قلوبهم عنه فلن يقر له قرار مهما بلغت قوته العسكرية والسياسية ومهما ألحق بهم من هزائم وقتيه ومهما طال أمد الاستعمار والغلبة السياسية فسرعان ما يلم المسلمون شعثهم ويعدون عدتهم من جديد ليعيدوا الكرة تلو الكرة فى مقاومة أعداء دينهم ما بقيت فيهم شعلة من روح هذا الدين . وهذا ما أشار اليه رئيس وزراء بريطانيا جلادستون بقوله فى مجلس العموم البريطانى : " ما دام هذا القرآن موجودا بين أيدى المسلمين فلن تستطيع أوربة السيطرة على الشرق ولا أن تكون هى نفسها فى أمان (١) " . وكذلك قول المبشر بالكراف : " متى توارى القرآن ومدنية مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة " الغربية"

---

(١) جلال العالم : " قادة الغرب يقولون " ص ٣٨

التي لم يبعده عنها الى محمد وكتابه (١)" . ومن أجل هذا اتخذت الحملات الصليبية الحديثة سمة مغايرة ولم يكتف الغرب بالأساطيل والمدافع والرشاشات والفرق العسكرية للاستيلاء على الأراضي وفرض العبودية والاستعمار على الشعوب ولكنه أراد أن تكون ضرباته في هذه المرة أوجع واكثر فعالية وأعمق تأثيرا فوجه اهتمامه منذ تمت له السيطرة الفعلية على زمام الأمر على غزو القلوب وتسميم الأفكار وتشويه المفاهيم عن طريق التربية والتعليم والثقافة واقامة المؤسسات والمدارس ووضع المناهج مع مراعاة اخفاء روح العداوة ودفن جذوة الحقد والضغينة تحت الرماد والظهور في مظهر الصديق الناصح الأمين عند تنفيذ هذه الخطط ،وهكذا اتخذت هذه الحرب ما شاء لها مكر الغرب ودهاؤه من شعارات وصفات متنوعة فنعتت بواعثها بأنها اقتصادية بحتة أو أنها انسانية من أجل نشر الحضارة ورفع مستوى الشعوب المتخلفة وانقاذ البشرية من الفقر والجهل والظلم أو انها من أجل تحقيق المصالح القومية وما الى ذلك ،مع غاية الحذر من الاشارة الى الباعث الديني والحقد الصليبي من قريب أو بعيد حتى لاتستثار الروح الجهادية في المسلمين بانكشاف الخطة المدبرة لهم قبل اكتمال أدوارها فتكون العاقبة وخيمة وتتكرر مأساة حطين مرة أخرى . وقد كانت هذه الخطة الخبيثة من بنات أفكار القديس لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الثانية ، وقد بنيت الخطة على العناصر الأساسية التي تضمنتها النصائح التي قدمها هذا القديس لبني جنسه كخطة مستقبلية في حربهم مع المسلمين . وكانت خلاصة وصاياه تنظيم حملات صليبية سلمية تتألف رسلها من المبشرين الأوربيين والمسيحيين المحليين وتكون مهمتهم محاربة الاسلام في عقائده وتعاليمه ومحاولة وقف انتشاره واضعاف قوته في نفوس المسلمين أنفسهم ،وبذل أقصى الجهد في اتخاذ التدابير اللازمة لايجاد قاعدة حربية للغرب في الشرق الاسلامي لتكون مركزا لقوات الغرب العسكرية ونفوذه السياسي والديني ويكون الانطلاق منه للقضاء على الاسلام وتحطيم قوة المسلمين حينما تتهيأ الفرصة المرتقبة (٢) . وقد كان نابليون أول من حاول

---

(١) الغارة على العالم الاسلامي ،ا . ل . شاتليه ترجمة محب الدين الخطيب ص٣٧

(٢) (راجع الشيخ محمد الغزالي ،معركة المصحف ص٢٠٤ - ٢٠٨

تنفيذ هذه الخطة فقد رأيناه بعد حملته العنيفة على مصر يصدر بيانه الخطير الذى افتتحه بسم الله الرحمن الرحيم وأكد فيه للمصريين أن الفرنسيين مسلمون وأنصار الاسلام وانه هو نفسه مسلم - وان عزّ على المسلمين أن يصدقوه فى ذلك فهو على الأقل حام وصديق للاسلام ، وكان نابليون يرتدى الجبة ويلبس العمامة ويحضر الاحتفالات الدينية وصار يرأس مجلس العلماء ويتظاهر بالتودد والاحترام للعلماء ولكنه رغم ذلك كله لم يستطع اخفاء الأعمال الحقيقية والأهداف الصليبية التي دفعته الى احتلال مصر المسلمة (١) . فقد انكشفت خطته وسقط القناع من وجهه وظهرت حقيقة أمره بما استهل به فترة حكمه لمصر من محاولة جادة لتعطيل الشريعة الاسلامية واحلال القانون الفرنسى محلها والعمل على القضاء على قوة الاسلام بقسوة وعنف وحماقة مما حطم أطماعه واضرم عليه نيران المقاومة حتى اضطر الى الانسحاب . ولكن الدول الاستعمارية قد قدرت وصايا القديس لويس التاسع أحسن تقدير بعد أن رأت فشل نابليون بسبب حماقته وتهوره وحميته الصليبية الشديدة ، فكانت هذه الدول - وبخاصة انجلترا - تحاول دائما أن تتجنب الأساليب الاستفزازية وتعمل فى تنفيذ خططها بطرق ملتوية لا تنبىء عما وراءها من مقاصد وغايات صليبية حتى تأخذ الخطط طريقها دون أن يحس الناس بما تنطوى عليه من مكيدة ومكر وروح عداء .

كان القرن التاسع عشر الميلادى مرحلة عملية نشطة فى تاريخ الدول الغربية الاستعمارية فى احتلالها العسكرى وتوسعها السياسى واستغلالها الاقتصادى لأقطار العالم وراء حدودها فى آسيا وافريقيا . فقد شهد العالم الاسلامى خلال هذا القرن حملات صليبية ضارية شنتها عليه أوربا المسيحية . وبسبب عوامل الضعف والانهيار التى نخرت فى كيان الدولة العثمانية فى أواخر عهدها والهزائم المتلاحقة التى نزلت بساحتها هوت هذه الدولة أمام هجمات الدول الأوربية الصليبية وأصبحت " الرجل المريض" واقتحمت جيوش الاحتلال الأوربى عليها الدارتجوس

---

(١) انظر أحمد جل الوحيد ، " نابليون المسلم " ص ٢٠ - ٣٠

خلالها لتقطع أجزاء بلادها وتحتلها وتفرض سيطرتها عليها . وبمقتضى اتفاقية " سايكس ـ بيكو " توزعت في الأقطار الاسلامية قوى الاستعمار الغربي من انجلترا وفرنسا والبرتغال وهولندا والدنمرك وايطاليا وغيرها (١) . ثم لما خرت الدولة العثمانية صريعة أمام جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى أجهزت القوى الصليبية والصهيونية على الرمق الباقي في جسم " الرجل المريض " فأسلم الروح وقضى نحبه فأحكم الأعداء قبضتهم على ممتلكاته وقسموا بينهم باقي تراثه وكان لانجلترا وفرنسا في ذلك أكبر نصيب وأوفر حظ . وقد كانت هذه المرحلة بالنسبة للمسلمين قاسية ومليئة بالمآسي والنكسات تداعت عليهم قوى العدوان وأحاطت بديارهم من كل جانب وأجلبت عليهم بخيلها ورجلها فكانت الضربات موجعة وقاصمة حيث استطاعت أن تقتلع جذور العقيدة الاسلامية من نفوس المسلمين أو على الأقل استطاعت أن تزعزعها وتوهن قوتها وتنقض عراها ثم غرست في قلوب الأجيال الناشئة عقائدها وأفكارها وطرائقها للحياة ، فحدث تحول خطير في المجتمع المسلم لا تزال آثاره البالغة قائمة حتى اليوم في واقع حياة المسلمين والمثقفين منهم بصفة خاصة . ولكن الأمر لم يكن سهلا ميسورا بالنسبة لقوى الاستعمار نفسها رغم كل مارصدته لهذا العمل من خطط مرسومة ومكايد مدبرة ووسائل متنوعة ، فقد احتاج الأمر الى جهود مضنية متواصلة ووقت طويل حافل بالمشقات والمرائر ولكنها استطاعت بمكرها ودهائها أن تجتاز المرحلة بنجاح وتحقق مطامعها في نهاية المطاف (٢) لأنها ظلت مدفوعة بروح الحروب الصليبية الأولى التي لا تزال تبعث في نفسها الحماسة الشديدة للانتقام والأخذ بالثأر .

ونريد الآن أن نعطي فكرة عامة واضحة عن جهود قوى الاحتلال الغربي في العالم الاسلامي ووسائلها وخططها المرسومة في صراعها المرير مع المسلمين منذ قرنين من الزمن ، وقد قدر لها بلوغ أهدافها ولا تزال حتى اليوم تحقق المزيد من النجاح . ان الحديث عن تاريخ القوى الاستعمارية الغربية في العالم الاسلامي

---

(١) راجع أحمد أمين ، يوم الاسلام ، ص ١١٦ - ١١٧ .

(٢) راجع " هل نحن مسلمون " للاستاذ محمد قطب ص ١٠٩ - ١١١ وكذلك ص ١٣٢ - ١٣٣ .

حديث طويل ومتشعب ليس فقط لطول هذا التاريخ من الناحية الزمنية ولكن لما وقع خلاله من أحداث جسام وتقلبات مذهلة وتحولات خطيرة لم يحدث مثلها في تاريخ العالم الاسلامي كله حتى في أثناء الهزات العنيفة والصدمات الكاسرة التي تعرض لها من قبل من الاضطرابات الداخلية والأدواء الذاتية التي استشرت في كيانه والعوامل الخارجية المناهضة له كغارات التتار المدمرة وهجمات الصليبيين العنيفة .

ان الجهود الضخمة التي بذلتها قوى الاحتلال الصليبي في غزوها الأخير للعالم الاسلامي وما استخدمته من وسائل متنوعة وما سعت نحو تحقيقه من أهداف صليبية متعددة ،كل ذلك لايمكن أن نستوعبه جملة وتفصيلا في صفحات محدودة نكتبها في هذا الفصل . من أجل هذا سنكتفي هنا باستقراء الخطوط العريضة الأساسية لهذه الجهود والمساعي مع بيان الخطط والوسائل وبيان من هم رسل الغرب وجنوده في حربه مع المسلمين ثم نذكر في النهاية نتائج هذه الحرب وآثار هذا الصراع في شتى المجالات .

وأما عن الخطوط الاساسية لجهود قوى الاحتلال الصليبي في العالم الاسلامي من قرنين من الزمن فنستطيع أن نلخصها في هذه النقاط الأربع الآتية :

(١) محاولة جادة في سبيل القضاء على الاسلام وتنحية الشريعة الاسلامية عن مجال الحكم والتشريع واحلال مناهج الغرب وقوانينه الوضعية محلها .

(٢) الترصد للحركات الاسلامية الاصلاحية وبذل كل الجهد في القضاء عليها لمنع عودة قوة الاسلام من جديد . ومحاولة صرف حركات المقاومة الشعبية عن اتجاهها الصحيح بتجريدها من النزعة الدينية وتحويلها الى اتجاهات وطنية محضة لا علاقة لها بالدين من قريب أو بعيد .

(٣) بذل أقصى الجهد لتحقيق السيطرة التامة على مجال التربية والتعليم والثقافة والفن ، والقضاء على المصادر الاسلامية وما يكون لها من آثار في هذا المجال .

(٤) اصطناع العملاء من المسلمين وبخاصة من الزعماء المحليين والعلماء المستغفلين لاستغلال نفوذهم في توطيد دعائم الحكم الاستعماري في البلاد ، وتكوين النخبات الوطنية المثقفة ثقافة غربية لاستخدامها في ربط عجلة الشعوب المستعمرة بقاطرة الاستعمار .

النقطة الأولى :

محاولة القضاء على الاسلام وتنحية الشريعة الاسلامية عن مجال الحكم والتشريع واحلال مناهج الغرب وقوانينه الوضعية محلها .

ما أن تدخل جيوش الاحتلال الصليبي أى بلد من البلدان الاسلامية حتى تفرض سيطرتها السياسية على المسلمين بقوة وعنف وقسوة ، ثم تبدأ بعد ذلك في عملية الهدم وتقويض الحياة الاسلامية وقد كانت القوى الاستعمارية عازمة على القضاء على الاسلام وتنحية الشريعة الاسلامية عن مجال الحكم والتشريع من أول يوم دخولها البلاد ولكنها كانت تحسب ألف حساب لتفادى الصدام مع السلطات المحلية واستثارة حفيظة المسلمين ، من أجل ذلك لجأت الى الكيد والمكر والخداع واتخذت الأساليب والطرق الملتوية لبلوغ غايتها . وقد ساعدها في ذلك الوضع السيء الذى كان يعيشه العالم الاسلامي في هذه الفترة من الضعف والتخلف والانهيار في شتى مجالات الحياة وبخاصة مجال السياسة والقضاء والقوة الحربية . وكانت النتيجة أن أصيبت الأمة الاسلامية بالصدمة النفسية العنيفة حين احتكت في هذه الفترة بأوربا " القوية " وحضارتها المادية " الراقية " وأدت هذه الصدمة الى الشعور بالنقص والقصور في بنية الحياة الاسلامية القائمة ثم أعقب ذلك انبهار شديد بمعطيات الحضارة الغربية الحديثة . وقد توهم المسلمون أن سبب ما يعانونه من الضعف والتخلف انما هو عجزهم في مجال التنظيم والادارة فارتموا بأنفسهم في احضان الدول الأوربية الصليبية لتسعفهم في القضاء على أعراض هذا الضعف وتعيد اليهم " القوة والحيوية والنشاط " حتى يستطيعوا التخلص من الجمود الذى تعانيه الحياة الاسلامية أمام التغيرات

الحيوية الجديدة ، وبذلك تهيأت الأرضية الخصبة لقوى الاستعمار لكي تنفذ خططها المرسومة في هذا السبيل .

ففي مصر مثلا كان أول عمل قام به نابليون بعد حملته العنيفة لمصر هو الغاء الشريعة الاسلامية واحلال القانون الفرنسي محلها . ولكن الفرنسيين ذاقوا وبال أمرهم حيث ووجهوا بمقاومة عنيفة من قبل المسلمين اضطروا معها الى الانسحاب من مصر في النهاية . وبعد رحيل جيوش نابليون جاء محمد علي باشا واليا من قبل السلطان العثماني وكان يسير في ركابه النفوذ الفرنسي . فبدأ عملية " الاصلاحات " في مجال التنظيم والادارة والتعليم وقد أنشأ عدة مدارس بمساعدة الفرنسيين وأرسل البعوث الى فرنسا . وكان عمله هذا مما هيأ الأجواء لتوغل النفوذ الأجنبي والغزو الفكري الغربي في البلاد فيما بعد . وقد سار أبناؤه على نهجه من بعده حتى جاء عهد الخديوي اسماعيل الذي أدخل القانون الفرنسي الى مصر ثم اسفرت سياسته الفاشلة عن احتلال بريطانيا لمصر عام١٨٨٢م . ثم ان بريطانيا كانت عازمة على الغاء الشريعة منذ قبضت على زمام الأمر ، ولكن هداها مكرها وكيدها الى أن تجري العملية وفق خطة ملتوية فاحتضنت دعوة الشيخ محمد عبده لاصلاح التعليم والقضاء والحياة الاجتماعية وأنشأت مجلس شورى القوانين الذي كانت تحكم مصر من خلاله ثم بدأت محاولتها الخبيثة في تفريغ المحاكم الشرعية من محتواها ووضعت الخطة لتدريب القضاة في معهد خاص ينشيء على غرار كلية سراجيفو التي أنشأتها حكومة النمسا والمجر لتخريج قضاة الشرع المسلمين (١) . وقد قدم الشيخ محمد عبده خدمات جليلة لحكومة كرومر في مجلس شورى القوانين وفي وضع خطة انشاء هذا المعهد الذي يخرج القضاة ذوي الطابع التحرري والذين لا تنحصر ثقافتهم في الدراسات الدينية الخاصة كما جاء في تقرير كرومر . ثم أخذ الأمر بعد ذلك اتجاها آخر حين آتت

---

(١) راجع تقرير كرومر السنوي الذي بعثه الى حكومته عام١٩٠٥م في كتاب الفكر الاسلامي دراسة وتقويم - غازي التوبة ص ٣٠ .

الخطة ثمارها فأسست المحاكم المدنية الى جانب المحاكم الشرعية واطلق مجال اختصاص المحاكم المدنية وقصرت المحاكم الشرعية على النظر في مجال الأحوال الشخصية وظل الأمر هكذا فترة من الزمن حتى جاء الوقت الذى رؤى فيه أن هذه المحاكم غير قادرة على الاحتفاظ باستقلالها في هذا المجال الضيق أيضا فألغيت هذه المحاكم وضمت اختصاصاتها وضم قضاتها الى المحاكم المدنية ،وذلك منذ أيام حكم عبد الناصر.
وقد كانت عملية اقتباس نظم الحكم والقوانين من أوربا قائمة على قدم وساق وكانت حاجة المجتمع وظروفه وأحواله المتدهورة تدفعه بقوة نحو الاستزادة من الاقتباس والتعلق بأهداب الغرب . وكان السبب الأكبر لذلك حالة الجمود التي تعانيها الحياة الاسلامية بسبب توقف الفقهاء عن الاجتهاد مما أوجد فراغات واسعة في شتى مجالات هذه الحياة وأدى الى النقض الواعي لعروة الاسلام في مجال الحكم والتشريع حتى استوردت الحكومات الاسلامية النظريات والمناهج الأوربية اللادينية في مجال السياسة والتشريع ثم في مجال الاقتصاد والاجتماع والأخلاق .

وأما في تركيا رغم أنها لم تقع تحت الاحتلال الأجنبي المباشر فقد قامت حركة " الاصلاح" في عهد السلطان عبد المجيد الأول حين أصدر مرسومه الشهير (خط شريف جلخانة) سنة ١٨٣٩م وأعلن فيه وجوب وضع قوانين جديدة في شئون التنظيم والادارة (١) . هذه الحركة التي كانت ضرورية في تلك الفترة والتي كانت عن حسن نية قد استغلت فيما بعد من قبل أذناب المخطط اليهودى الصليبي من المثقفين ثقافة غربية الذين اعتبروا الأمم الغربية متمدنة متفوقة قوية وانبهروا بكل ما عندها . وقد وضعوا لهذه الحركة مواصفات خاصة وخلقوا حولها الأجواء المناسبة للوصول الى غايتهم في السير نحو الاتجاه اللاديني وسحق الاسلام ونبذه وراء ظهورهم . وهكذا قامت حركة ثورية في صفوف هؤلاء المثقفين في عهد السلطان عبد الحميد وهي تطالب بالاصلاح الداخلي

(١) راجع نص المرسوم في تاريخ الدولة العلية العثمانية ،لمحمد فريد ص٢٥٤ وما بعدها وكذلك محمد كمال الدسوقي الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص١٩١ - ١٩٦ .

عن طريق اقامة حكومة دستورية . وكان يتزعم هذه الحركة مدحت باشا وصباح الدين وأحمد رضا . ثم أسست عصبتهم فكرة الطورانية وأعلنت دستورها الذى عبروا فيه عن أهدافهم اللادينية التى تتمثل فى رفعهم الشعارات الماسونية وتقريرهم لمبدأ الحرية الدينية والمساواة التامة بين أصحاب الديانات المختلفة تحقيقا للوحدة الوطنية ثم الغائهم المحاكم الشرعية عن طريق احداث " الاصلاحات التنظيمية والتقنينية ". وهكذا أخذ الأمر يسير على هذا المنوال حتى جاء أتاتورك فسحق الشريعة الاسلامية بكاملها وأعلن تركيا دولة علمانية لادينية ، "فقام بالغاء وزارة الأوقاف والمحاكم الشرعية والمدارس الدينية وتحديد الزى الدينى وعدم السماح بارتدائه الا لطائفة خاصة كالأئمة والخطباء والوعاظ ، ثم وضع قانونا مدنيا بدل مجلة الأحكام العدلية حرم فيه تعدد الزوجات وخول لكل من الزوجين الحق برفع قضية الطلاق لأسباب معينة ،وتحرير المرأة من حيث سفورها ، ومساواتها بالرجل سياسيا واجتماعيا ومدنيا ففتح لها مجال الكسب والتوظف واعتبر الزواج شركة تتألف من جزءين متساويين وشرع للمرأة حق أن تنتخب وتنتخب ، وفصل الدين عن الدولة فلم يستخدم الدين فى التشريع ولا فى الحكم ولا فىالادارة الى غير ذلك وغير كتابة اللغة التركية من الحروف العربية الى الحروف اللاتينية وهكذا كانت مدنية لادينية . . (١)"وقد وضع مصطفى كمال أتاتورك للشعب التركى المسلم قانونا مستقى من القانون السويسرى والقانون الايطالى وغيرهما مع شروح واضافات من عنده ومع ذلك كان يتبجح ويقول بأنه لايريد شيئا من الماضى ولا يريد أن يأخذ مما قاله الآخرون" نحن لانريد شرعا فيه قال وقالوا ولكن شرعا فيه قلنا ونقول (٢) ." وقال : " ان التشريع والقضاء فى أمة عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لأحوال الزمان لاللمبادىء ولا للتقاليد (٣) ." وقال وزير العدل التركى

(١) راجع أحمد أمين ، يوم الاسلام ص ١١٨-١١٩

(٢) الأمير شكيب ارسلان ،حاضر العالم الاسلامى ٣ / ٣٤٣

(٣) المصدر نفسه ٣ / ٣٤٤

محمود أسعد بك : " ان الشعب التركى جدير بأن يفكر لنفسه بدون أن يتقيد بما فكر غيره من قبله ، وقد كانت كل مادة من مواد كتبنا القضائية مبدوءة بكلمة " قال " المقدسة فأما الآن فلا يهمنا أصلا ماذا قالوا فى الماضى بل يهمنا أن نفكر نحن ونقول نحن (١) ."

وأما فى بقية البلاد الاسلامية فقد سار الأمر على أساليب المكر والكيد حيث قام رجال الاستعمار بتنفيذ خططهم ومحاولاتهم فى تدرج وعلى مهل حتى تمت تنحية الشريعة الاسلامية عن مجال الحياة العملية فى مجال الحكم والتشريع والقضاء واحلال نظم الغرب وقوانينه ومناهجه محلها . فالهند التى كانت الشريعة تطبق فيها حتى سنة ١٧٩١م عملت بريطانيا على تنحيتها منذ احتلالها لهذا البلد المسلم حتى تم لها ذلك فى أواسط القرن التاسع عشر الميلادى وكذلك فعلت فرنسا فى الجزائر حيث أدخلت قانونها اليها بعد احتلالها سنة ١٨٣٠ م ، وحدث ذلك أيضا فى تونس والمغرب وليبيا فى أوائل هذا القرن الميلادى كما حدث فى بقية البلاد الاسلامية من قبل ومن بعد . ثم ان الأمر قد تطور فى العالم الاسلامى كله بعد رحيل الاستعمار حيث رأينا الحكام المحليين يواصلون السير على الطريق الذى مهد له رجال الاستعمار كل تمهيد فازدادوا تعلقا بالغرب واقتباسا من نظرياته اللادينية وأفكاره وقوانينه وطرائق حياته ، ولاتزال البلاد الاسلامية تتخبط وتضطرب بين أفكار وأنظمة ومناهج الغرب اللادينية وتزداد خطورة الأمر يوما بعد يوم حتى مع ما نتج عن المحاولات المتعددة فى التطبيق من الفشل والاخفاق . وقد سعى هؤلاء الحكام الى ابعاد الاسلام عن شئون الحياة العملية وافراغ المجتمع من هيمنة الدين . وفرغوا الحكم والتشريع والقضاء من الاسلام وفصلوا بين الدين والدولة وألغوا المحاكم الشرعية وأحلوا محلها المحاكم المدنية ،وأفسحوا المجال لتوغل المبادىء والنظريات والمذاهب الغربية اللادينية الى بلاد المسلمين ورفعوا شعار القومية والوطنية وترصدوا للحركات التى تدعو الى العودة الى التمسك بالدين والسير

---

(١) الامير شكيب ارسلان ، حاضر العالم الاسلامى ، ٣/٣٤٤ — ٣٤٥

علي هديه وعذبوا المسلمين واضطهدوهم وفتنوهم من دينهم. وقد وصل الأمر في تونس مثلا الى أن أعلن رئيسها أن الصيام في شهر رمضان يسبب انخفاضا في الانتاج وأصدر الأمر بمنع العاملين في حقول الانتاج من الصيام كيلا تتناقص نسبة الانتاج وأسقط عنهم بذلك الركن الثاني من أركان الاسلام الخمسة (١).

وأكثر من هذا ما جاء في الخطاب الذي ألقاه هذا الرئيس في مؤتمر المدرسين والمربين لمناسبة الملتقى الدولي حول الثقافة الذاتية والوعي القومي من تصريحات (٢) خطيرة تتضمن القول بتناقض القرآن وانكار قصة عصا موسى وقصة أهل الكهف والقول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان انسانا بسيطا يسافر كثيرا عبر الصحراء العربية ويستمع الى الخرافات البسيطة السائدة في ذلك الوقت وانه قد نقل تلك الخرافات الى القرآن، وكذلك انكار اعطاء المرأة نصف ما يعطى الذكر في الميراث لأنه لا يناسب تطور المجتمع. وأن على الحكام أن يطوروا الأحكام حسب تطور المجتمع، ثم انكار تعدد الزوجات وحجره ذلك على الشعب التونسي والقول بأن المسلمين قد وصلوا الى تأليه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم دائما يكررون " محمد صلى الله عليه وسلم - الله يصلي على محمد." (٣)

وكذلك أعلن رئيس وزراء تونس في أواخر سنة ١٩٥٦م أن الحكومة قررت وضع قانون للأحوال الشخصية يتناول شروط الزواج والطلاق وتعدد الزوجات ويحرم هذا القانون على الرجل التونسي أن يتزوج أكثر من واحدة لغير ضرورة

---

(١) انظر المودودي، الاسلام اليوم ص ٥١

(٢) نشرتها صحيفة الشهاب اللبنانية في عددها الصادر في ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٩٤هـ الموافق ١ نيسان سنة ١٩٧٤م.

(٣) اقرأ الرسالة التي كتبها سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز في الرد على هذه الأمور الشنيعة التي جاءت في هذا الخطاب الخطير، وهذه الرسالة بعنوان" حكم الاسلام فيمن زعم أن القرآن متناقض أو مشتمل على بعض الخرافات أو وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بما يتضمن تنقصه أو الطعن في رسالته والرد على الرئيس أبي رقيبة فيما نسب اليه من ذلك".

وأن يطلق زوجته بغير سبب (١) " مقبول " وقد حدث أكثر من ذلك في تونس وفي عدن في اليمن الجنوبي وفي الصومال وافغانستان وبنجلادش وغيرها من البلاد الاسلامية حتى أبعدت الشريعة الاسلامية ليست فقط من واقع الحياة العملية بل حتى من ناحية التصور والشعور والوجدان .

وفي الآونة الأخيرة اجترأ رئيس ليبيا على الاسلام فأعلن عن الغاء فريضة الحج ودعا الى اعادة كتابة القرآن الكريم . وهكذا حدث ما تنبأ به "جب" حين قال : " .... وكان طبيعيا أن يبقى الاسلام ....وقد يكون الدين الرسمي للدولة ولكنه سلب الحقوق التشريعية ونزل الى مكانه الديانة المسيحية في الدول الاوربية ،وقد يختلف تطبيق هذا المبدأ بطبيعة الحال وفق ظروف كل اقليم (٢)" .

النقطة الثانية :-

الترصد للحركات الاسلامية الاصلاحية وبذل كل الجهد في القضاء عليها لمنع عودة قوة الاسلام من جديد ومحاولة صرف حركات المقاومة الشعبية عن اتجاهها الصحيح بتجريدها من النزعة الدينية وتحويلها الى اتجاهات وطنية محضة لاعلاقة لها بالدين من قريب أو بعيد .

منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى كان العالم الاسلامي قد بلغ مبلغه من الضعف والانهيار وكانت الدولة العثمانية زعيمة العالم الاسلامي قد وصلت حالة من السوء حتى صارت تدعى فيما بعد " الرجل المريض" في هذه الفترة نشطت أوربا الصليبية من عقال الجهل والجمود والتخلف المادى ودبت فيها عوامل القوة والحيوية والنشاط فتحفزت في نفسها الروح الصليبية وأقبلت بخيلها ورجلها تبسط نفوذها في أنحاء بلاد المسلمين ، ولكن العالم الاسلامي رغم ما كان يعانيه من الضعف والجمود والتخلف لم يكن في طريقه الى الزوال - والاضمحلال . وذلك لأن العقيدة الاسلامية فيها من الروح الدفاقة والحيوية

---

(١) د . أحمد شلبي ـ المجتمع الاسلامي ، ص ٢٥٠

(٢) وجهة الاسلام ص ١٥ ترجمة محمد أبو ريده

الجياشة ما يجعلها تجتاز العقبات الكأداء وتحتمل الهزات والصدمات مهمـا كانت قوية وعنيفة ، وقد حدث من قبل أن ابتليت هذه الأمة وزلزلت وصدمت صدمة عنيفة كاسرة ولكنها لا تلبث طويلا حتى تنبعث في نفسها هذه الروح والحيوية فتفيق من الصدمة وتتغلب على الوضع المتردى ثم تأخذ طريقها مرة أخرى نحـو البناء والنشاط والانطلاق . وقد بدأت هذه الروح الحيوية تتحرك في مكامنها لتعاود النشاط والانطلاق من جديد ، ويتمثل ذلك في ظهور حركات اصلاحية دينية في مختلف الاقطار الاسلامية خلال القرن التاسع عشر الميلادى . كدعوة الامام محمد بن عبد الوهاب في نجد والحجاز والشيخ عثمان بن فوديو في شمال نيجيريا وعبد القادر الجزائري في الجزائر وعبد الكريم الخطابي في المغرب الأقصى ومحمد على السنوسي وعمر المختار في ليبيا ومحمد أحمد بن عبد الله المهدى في السودان واسماعيل الشهيد في الهند والحاج عمر بن سعيد تال في دولة السنغال وكذلك حركة الاخوان المسلمين في مصر ، والجماعة الاسلامية في باكستان وغيرهما من النصف الأول من هذا القرن الميلادى .

وقد كانت قوى الاستعمار في صراعها المرير مع العالم الاسلامي حريصة كل الحرص على أن تبقى الأمة الاسلامية ضعيفة متخلفة منهارة القوى ، وكانـت تضع خططا متعددة وتبذل جهودا كبيرة لمنع عودة قوة الاسلام ومجد المسلمين وعزتهم . وكان من سياسة قوى الاستعمار في هذا المجال أن ترصد الحركات الاسلامية الاصلاحية وتتحسس أخبارها في أنحاء البلدان الاسلامية لتكبتهـا وتقتلها قبل أن يمتد نفوذها خارج حدود قطرها الى بقية أنحاء العالـم الاسلامي ، فان قوى الاستعمار كانت تعلم ان قيام حركات اصلاحية واعيه تتبنى اصلاح الحالة المتدهورة في العالم الاسلامي ورفع الجهل والجمود والذل والظلم وتعمل على المحافظة على وحدة العالم الاسلامي وقوة العقيدة الاسلامية وهيمنتها على الحياة الاسلامية بما يحقق للمسلمين القوة والعزة والتمكين . . علمت القـوى الصليبية أن قيام حركات دينية كهذه من شأنه أن يشكل خطرا كبيرا على كيـان

النفوذ الاجنبي في بلاد المسلمين لان هذه الحركات لا تنظر فقط الى كون الاستعمار قوة غازية معادية يجب قتاله ومجاهدته ومقاومة شرائعه وتعاليمه ومناهجه وخططه ومكايده حتى ينجلي خطره وتنقشع سحابته عن سماء البلاد الاسلامية بل انها ستعمل على اعادة قوة الاسلام وسلطان المسلمين وفي ذلك يكمن الخطر الجسيم حيث ان المسلمين لا يكتفون بطرد القوى الغازية من بلادهم ولكنهم سيلاحقون عدوهم القديم الى عقر داره كما حدث بعد الحروب الصليبية الاولى .

من أجل ذلك كله كانت قوى الاستعمار ترفض باصرار قيام حركات اصلاحية كهذه وتبذل كل مافي وسعها من قوة وكيد ومكر للقضاء عليها حتى تستطيع أن تضمن لنفسها الامن والاستقرار وتتمكن من العمل بمنتهى الحرية في محاولة تقويض بناء الحياة الاسلامية وهدم مقوماتها واقامة مناهج حياتها وطرائقها مكانها . وقد أدركت ان نجاحها في هذا السبيل سيجعل لعملية الاحتلال والاستيلاء نوعا من " الشرعية " ولو لفترة من الزمن كما يعطي بعض المبررات لبقاء حكمها واستمرار وجودها أو على الاقل يؤخر الثورة ضدها الى أقصى المدى . وهكذا وقفت قوى الاستعمار من الحركات الاسلامية بالمرصاد فكلما احست بظهور حركة اصلاحية دينية في أى قطر من الأقطار الاسلامية عاجلتها بضرباتها القاصمة قبل أن تأخذ صورتها المكتملة وتبلغ من القوة والتمكين مايمكنها من بسط سلطانها على العالم الاسلامي كله . فدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد والحجاز وحركة المهدى في السودان قد سمت أوربا الصليبية لتحطيمهما بخطة خبيثة حيث أوغرت عليهما صدور الحكام الاتراك ثم استغلت محمد على باشا وأبناءه للقضاء عليها الواحدة تلو الأخرى بعد أن احتضنت فرنسا محمد على باشا وساعدته في بناء قوته الحربية حيث صنعت له أسطولا بحريا ضخما وترسانة حربية و جيشا بريا كبيرا ، كل ذلك لتشجعه على محاولة الاستقلال عن سلطان الحكم العثماني ثم استغلاله هو وأبنائه للقضاء على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في معارك

دامية وقعت بين الفئتين ثم القضاء على حركة المهدى على يد الجيوش الانجليزية المصرية بعد الاحتلال البريطاني لمصر[1] . وأما بقية الحركات الاصلاحية في أنحاء العالم الاسلامي فقد تصدت جيوش الاحتلال الصليبي للقضاء عليها وبخاصة فرنسا وانجلترا فدارت معارك طاحنة بينها وبين جيوش هؤلاء الدعاة المجاهدين استمرت فترة طويلة من الزمن على طول بلاد شمال افريقيا وفي بلاد السودان الغربي وفي الهند وغيرها وأما في مصر منذ أن قامت حركة الاخوان المسلمين في العقد الثالث من هذا القرن الميلادى فقد أخذت الحرب الموجهة ضدها صورة مغايرة حيث ان دوائر الاستعمار والمخابرات اليهودية العالمية حين فشلت في محاولة احتواء دعوة الاخوان لجأت الى خطة خبيثة شبيهة بالخطة المدبرة مع محمد على باشا وأبنائه لتحطيم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحركة المهدى ، وهذه الخطة هي استغلال أذناب المخطط الصليبي الصهيوني من أبناء المسلمين لضرب الحركة من الداخل . وهكذا ضربت الحركة ضربة عنيفة قاسية بقصد التصفية الكاملة للوجود الاسلامي الصحيح من المنطقة ولكن الله أبى الا أن يظهر دينه ولو بعد حين .

وبينما نرى هذه المحاولات الضخمة التى كانت تبذلها قوى الاستعمار من أجل القضاء على الحركات الاسلامية الاصلاحية نرى من الجانب المقابل ما كانت تبذله من جهود متواصلة لخلق الاجواء المناسبة لحدوث تحولات خطيرة وانقلابات جذرية وقيام ثورات مدمرة في المجتمعات الاسلامية على نمط الثورة الفرنسية في أوربا . فقد كانت القوى الصليبية تتبنى فكرة قيام " حركات اصلاح " لا تقوم على أساس دينى تتولى مهمة توجيهها والاشراف عليها وتمدها فكريا وسياسيا وتضع لها المشاريع والخطط والبرامج وتساعدها في تنفيذها كحركات التغريب

---

(١) راجع " هل نحن مسلمون " للاستاذ محمد قطب ، ص ١٢٧ - ١٢٩

والفرنجة والدعوات الوطنية والقومية التى تتمثل في حركة مدحت باشا وأعوانه ثم أتاتورك في تركيا وحركة خيرالدين التونسى في تونس والسير أحمد خان والسيد أمير على في الهند وحركة لطفى السيد وقاسم امين وسعد زغلول وغيرهم في مصر.

ففي تركيا حين دعا السلطان عبد الحميد الى فكرة الجامعة الاسلامية واعلان الجهاد ضد قوى الاحتلال الصليبى وقع صدام عنيف بين فكرته هذه وحركة التغريب والقومية التى يتزعمها مدحت باشا وتدعمها القوى الصليبية والصهيونية .وقد وقفت القوى المحلية المارقة في وجه السلطان وتكاتفت معها القوى الخارجية الحاقدة وبخاصة بعد رفض السلطان باصرار المساومة على أى جزء من أراضى المسلمين بمنح اسرائيل وطنا قوميا في فلسطين . ولم تزل القوى العميلة والحاقدة تعمل بخطط في حركات سرية وتحيك المؤامرات وتدبر المكايد حتى استطاعت في نهاية الامر أن تعزل السلطان عن الحكم وتنفيه هو وجميع آله من البلاد . وهكذا قضى على فكرة الجامعة الاسلامية في مهدها وتنفست الحركة المناهضة لها الصعداء ونشطت الدعوة الى القومية الطورانية وأعلنت الجامعة التركية "وهى دعوة الى تتريك المملكة العثمانية" . وأما بقية ادوار الخطة الصليبية الصهيونية فهى أن العرب لما قرعت اسماعهم الدعوة الى القومية الطورانية والجامعة التركية أحسوا بما تدبره لهم النخبات التركية المثقفة من مكايد فآووا الى ركن بريطانيا " العظمى " يطلبون النجدة والخلاص فظهر على المسرح ممثل المخطط الصليبى الصهيونى لورانس فنادى بالثورة العربية والقومية العربية وتجاوبت أصداء دعوته في أنحاء البلاد العربية كلها (١). فزاد الطين بلة وازداد الامر تفاقما وتعقيدا وأصبحت حالهم كحال من يستجير من الرمضاء بالنار.

---

(١) راجع كتاب القومية والغزو الفكرى لمحمد جلال كشك ص ١٢ - ١٧

وحدث في مصر أيضا أن الشعب المصري المسلم نظم ثورة ضخمة ضد الحكم البريطاني سنة ١٩١٩م ، وكانت هذه الثورة دينية بحتة لأنها كانت نابعة من الأزهر حيث ان علماءه كانوا يبعثون روح الجهاد في قلوب المسلمين ويدعونهم الى حشد الطاقات من أجل انهاء الوضع السيء القائم في البلاد وطرد العدو الكافر الذى تسلط على رقاب المسلمين [1] . وقد لاقى الناس أثناء هذه الثورة الكبيرة العنت والقسوة والاضطهاد من جانب قوى الاستعمار ولكن الروح الدينية الجياشة ظلت تدفعهم نحو التضحية والتفاني ولم تزدهم قسوة جنود الاحتلال الاجنبي وتصرفاتهم الوحشية لانهاء المقاومة الا قوة وثباتا ورغبة في بذل المزيد من الجهد والتضحية حتى يحققوا النصر على العدو المتسلط ولكن هذه الانتفاضة الشعبية الكبيرة التي قامت على أساس الدين وتشكلت من الحماسة الدينية والروح الجهادية قد حول اتجاهها بين عشية وضحاها الى اتجاه وطني محض لاعلاقة له بالدين البتة . فقد ظهر على مسرح الأحداث زعيم شعبي كبير رضع لبان التفرنج والوطنية من مدرسة لطفي السيد ومن جرى مجراه ، وهذا الزعيم الشعبي هو [2] سعد زغلول الذى تزعم قيادة هذه الثورة واستطاع ان يحول اتجاهها عن وجهتها السليمة ويستغلها لمآربه الوطنية حين أطلق شعارا خطيرا جعله ركيزة حركته الوطنية فقال " الدين لله والوطن للجميع " وكان يرى وجوب مراعاة مشاعر الاقلية القليلة من الأقباط والنصارى المشتركين في الثورة ولو أدى ذلك الى رفع شعارات منافية للاسلام وابعاد الاسلام كلية من ميدان النضال الشعبي من أجل دفع الظلم والعدوان . وهكذا تحول الحديث باسم الاسلام لاستنهاض الهمم وبعث روح الجهاد الى الحديث باسم الوطن والوحدة القومية واستبدلت المشاعر الوطنية والوحدة القومية

---

(١) راجع كتاب الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر د . محمد محمد حسين ٢/٨ ، و١٨ - ١٩

(٢) انظر المصدر نفسه ٢/٣٧٣ — ٤٠٤

واستبدلت المشاعر الوطنية والوحدة القومية بالمشاعر الاسلامية ورابطة العقيدة وأبعد الاسلام عن مجال النشاط السياسي ثم عن بقية مجالات الحياة العملية وازدادت النخبات المثقفة تعلقا بأذيال الغرب تترسم خطاه في كل شيء وتذهب مذهبه حتى اصبح من أبناء المسلمين من ينكر صراحة كون مجالات الحياة العملية من السياسة والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك داخلة في نطاق الدين ويرمون من يرى ذلك بالجمود والرجعية والتأخر.

كانت النخبات المثقفة التي رباها الاستعمار قد رضيت - من حيث تدري ومن حيث لا تدري - بأن تكون القوى الاستعمارية نفسها هي المنظمة والموجهة لحركات المقاومة فسارت الامور في الاتجاه الذي خطط له الاستعمار. وان حركات مقاومة الاحتلال الاجنبي التي تتمثل في الحركات القومية والشعوبية كانت منذ نشأتها حركات عاطفية مشبوبة موجهة ضد أعمال التعسف والعنف والاجحاف التي يلحقها الاستعمار بالشعوب المستضعفة. ولم يكن في امكان الشعوب المستعمرة التي كانت متخلفة علميا وحضاريا ان تدرس وتتفهم الخطط التي وضعها رجال الاستعمار لاستعبادها واستغلالها لانهم كانوا أرقى منها عقلا وادراكا وتفهما للامور فكانوا يخضعونها ويستذلونها بالعلم والنظام والتخطيط الدقيق الماكر بينما راحت هذه الشعوب تحاول التخلص من كيدهم بحركات عاطفية واعمال مرتجلة لا تنفذ الى الأعماق ولا تقوم على الأسس السليمة . وقد كان الاستعمار يسعى لضمان مستقبله في البلاد الخاضعة لنفوذه فوضع الخطط ليسد الطريق أمام الشعوب المستعبدة ويحول بينها وبين كل تنبه ويقظة ووعي سليم ، وقد كان عازما منذ استيلائه على مقاليد الامور على افساد الحياة السياسية والاجتماعية وتفريغها من المحتوى الاسلامي لضمان سير الامور في الاتجاه الذي يريده هو . ومن أجل هذا رأينا انه عندما أحسّ بتحرك روح المقاومة ضد وجوده لجأ الى اثارة روح القومية والوطنية وتولى مهمة الاشراف على الحركات الوطنية والقومية وتوجيهها حتى تسير وفق الخطط المرسومة لها وتتجه نحو الاتجاه

الذى يريده الاستعمار لا تحيد عنه قيد شبر لتـأتى النتائج في النهاية فــــي صالح الاستعمار . وهكذا نرى أن الحركات القومية والوطنية هى من أفاعيــــل ايدى الاستعمار ورسله وأذنابه ، فهم الذين نفخوا في روحها واحتضنوهـــــا لقصد اضعاف وحدة الشعوب وتحطيمها واخماد النزعة الدينية وتفريـــــغ قضية النضال وحركة المقاومة من قيمتها الأساسية وتحويلها عن الاتجاه السليـــم . وذلك لأن فكرة القومية والوطنية والاقليمية وفكرة النقابات العمالية والاحـــزاب السياسية التى تزعمت حركات المقاومة وقبضت على زمام الأمر بعد رحيل الاستعمار . . كل ذلك لم يأت من القاعدة وانما نبت في المجتمعات الاسلامية ونما وترعـــرع بين الطبقة المثقفة ثقافة غربية التى كانت تسير بوحى وتوجيه من رجال الاستعمار ، وقد شحن فكرها بالتقسيم الاقليمى المحدود والرابطة العنصرية والدمويـــة والعرقية واللغوية باعتبارها عوامل التجمع والوحدة بين الشعوب حتى اصبحـــت هذه الطبقة لا تقر بفكرة التجمع والوحدة على اساس الرابطة الروحية والأخـــوة الدينيه . ولا شك أن الحرب في ذلك كله موجهة ضد الاسلام لمحو رابطـــة العقيدة التى يعتبرها عاملا أساسيا أكبر ترتكز عليه جميع عوامل التجمـــع والوحدة والتجانس بين بنى البشـــر .

نعود بعد هذا كله لنقرر أن السياسة الاستعمارية التى أنشأت الـــروح القومية ابتداء لم تكن لترضى عنها إذا تجاوزت حدودا معينة وأصبحت خطـــرا على المصالح الاستعمارية ولكنها فى الوقت نفسه لم تكن لتقضى عليها قضـــاء كاملا خشية ظهور البديل الأخطر وهو الروح الإسلامية المجاهدة التى تحســـب لها ألف حساب ، لذلك فانها كانت تقاوم الحركة القومية أحيانا لا لتقتلهـــا ولكن لتردها الى الحدود التى لا تشكل خطرا كبيرا على مصالحها وتحرص فـــي الوقت ذاته على بذل وسعها في استمرار دعمها وتغذيتها فكريا وسياسيـــا حتى تظل المسيطرة على مجرى السياسة فى المجتمعات الإسلامية وذلـــك لابعاد شبح الإسلام الذى يمكن أن يجمع الشعوب الإسلامية المتفرقة ويحشـــد

الطاقات المشتتة" ويوحدها تحت راية واحدة في حركة جهادية خطيرة ضد القوى الاستعمارية الصليبية والصهيونية مجتمعة في معركة فاصلة تنتصر فيها قوة الحق على قوى الباطل والكفر والعدوان كما حدث من قبل في الحروب الصليبية الاولى وبخاصة في عهد القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي وكذلك في فتوحات الدولة العثمانية التي استطاعت ان تبسط سلطان الاسلام في اوربا وآسيا وافريقيا قرابة خمسة قرون متتالية .

النقطة الثالثة : بذل أقصى الجهد لتحقيق السيطرة التامة على مجال التربية والتعليم والثقافة والفن ، والقضاء على المصادر الاسلامية ومايكون لها من آثار في هذا المجال

قبل الاحتلال الصليبي للعالم الاسلامي في القرن الماضي كان التعليم والثقافة في انحاء العالم الاسلامي اسلاميين في أساسهما ويتمثلان في التراث العلمي والفكري الذي توفره المدارس والمعاهد المنتشرة في ربوع بلاد المسلمين ولو أن المستوى العلمي والثقافي القائم في هذه المعاهد والمدارس لم يكن يمثل - في واقع الامر - حقيقة التعليم الاسلامي والثقافة الاسلامية في صورتهما الصحيحة المتكاملة ، وذلك لان التعليم والثقافة ككل شيء في اواخر العهد العثماني كانا راكدين متأخرين موضوعا واسلوبا وجامدين محدودين لا يصلحان لمواكبة الحياة المتطورة .

فبينما كانت مراكز العلم في البلاد الاسلامية الى عصر غير بعيد تدرس العلوم الطبيعية والرياضيات كالفلك والجبر والهندسة والفيزياء والطب الى جانب العلوم الدينية من الفقه والحديث والتفسير واصول الدين وعلوم اللغة من النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق فقد بلغ تقلص ميدان العلم والثقافة وانزواؤه مرحلة خطيرة منذ القرون الثلاثة الاخيرة - على الاقل - نتيجة ذبول الحضارة الاسلامية وانحطاط المسلمين فاقتصر هذا الميدان الفسيح على بقايا

التراث العلمي والفكري الذي خلفه علماء الكلام والفقه واللغة منذ عصور ازدهار الحضارة الاسلامية وتوقفت هذه العلوم أيضا عند النقطة التي انتهى اليها السابقون وجمدت وتحجرت ، ثم أهملت العلوم الاخرى المهمة التي قدم فيها المسلمون انجازات كبيرة في عصور ازدهار الحضارة الاسلامية . وقد حدث ركود علمي وتخلف فكري في المجتمعات الاسلامية خلال القرون الثلاثة الاخيرة نتيجة عجز المسلمين وتهاونهم وانحرافهم مما أدى الى الواقع السيء الذي يعيشونه في كل ناحية من نواحي الحياة .

وفي أثناء احتكاك الامة الاسلامية بالحضارة الغربية المسيحية وخاصة بعد حملة نابليون على مصر استيقظت الامة من رقدتها الطويلة ولكنها أصيبت بصدمة نفسية فقدت معها وعيها ورشدها فانبهرت بالحضارة الغربية أيما انبهار ، فظهر لها مايعانيه التعليم المحلي الذي توفره المعاهد والمدارس الدينية من نقص وقصور وعجز في توفير متطلبات المجتمع الفكرية والعلمية والثقافية والحضارية . ولكن التعليم الغربي الذي يشمل جميع نشاطات الفكر في العلم والثقافة والحضارة كان يعد عند علماء المسلمين تعليما خاصا بالكفار لأنه قائم على أسس غير دينية ويحوي أفكارا وقيما منافية لتعاليم الدين كما يتجه اتجاها لا دينيا ، وبسبب هذا حدثت نفرة شديدة بين التعليمين " الديني " أو المحلي والغربي ثم نشأت على أساس ذلك ازدواجية خطيرة في مجال التعليم عندما أنشئت المدارس الاجنبية في عهد الاستعمار فظلت المدارس والمعاهد الاسلامية تقدم تعليما " دينيا " ضيقا محدودا واصبحت المدارس الاجنبية تقدم الى جانب التعليم النصراني تعليما غربيا لا دينيا يشمل مجالات العلم كلها .

وقبل دخول الاستعمار وفي أثناء قيام حكمه في العالم الاسلامي بدأت محاولات قوية في معظم المراكز العلمية في العالم الاسلامي لاصلاح التعليم ورفع

شأنه الى المستوى اللائق به وان كانت بعض هذه المحاولات جزئية وناقصة بينما بعضها الآخر نابع من الشعور بالنقص والقصور وبالتالي تأثرت بالأساليب الغربية مما جعلها تحيد عن الطريق السوي في الاصلاح والتقويم ولكن بصرف النظر عما يمكن أن يأتي من وراء هذه المحاولات من نتائج فقد كان الاستعمار الصليبي عازما على القضاء على التعليم الاصلي واحتواء المراكز العلمية في انحاء العالم الاسلامي لانها تعتبر معاقل الاسلام التي يردها المسلمون لتلقي العلم والمعرفة وهي بذلك تكون مصدرا من مصادر قوة الاسلام من الناحية العلمية والفكرية والروحية وعاملا من عوامل الوحدة بين الامة الاسلامية رغم ماكانت تعانيه من الجمود والتخلف والتحجر .

ولم تكن قوى الاستعمار - ماعدا فرنسا - بخططها الخبيثة وطرقها الملتوية الماكرة لتقدم على الغاء التعليم الديني وهدم المدارس والمعاهد الدينية بطريقة مباشرة ، فقد اتعظت بما وقع للفرنسيين بعد حملتهم العنيفة على مصر حين ارادوا احداث تغيير جذري في شئون البلاد واستباحوا الأزهر لخيولهم وقذفوه بالمدافع لاخضاع علمائه للموجة الكاسرة المدمرة وكان ذلك سببا مباشرا لقيام ثورة شعبية عارمة ضدهم لقي فيها القائد العسكري الفرنسي مصرعه على يد طالب أزهري ثم اضطروا بعد ذلك الى الجلاء عن البلاد وكذلك مالاقوه من مقاومات شديدة متواصلة في بلاد المغرب حيث كانوا يحولون المساجد والزوايا الى اصطبلات للخيول ومخازن للسلاح بعد طرد طلابها وتشريدهم في الأرض (١) ، وكذلك الفشل الذريع الذي كان يعقب حملات التبشير الهجومية ضد الاسلام واستخدام وسائل القهر والاكراه مماينبه المسلمين الى الكيد المدبر لهم ويستثير حفيظتهم للمقاومة ثم يزدادون استمساكا بدينهم وقوة وحماسة لرد العدوان .

ولكن الذي فعلته قوى الاستعمار - وبخاصة بريطانيا - بعد أن استتب

(١) راجع محمد جلال كشك ،الغزوالفكري ص ٣٤ وما بعدها

لها الأمر وتحققت لها السيطرة السياسية والعسكرية واحكمت قبضتها على مقاليد الامور في البلاد الاسلامية هو أنها وضعت المخططات الدقيقة الماكرة للقضاء على التعليم الديني واحتواء الثقافة الاسلامية لافساح المجال أمام التعليم الغربي المسيحي أو اللاديني كيما يحط رحاله ويأخذ طريقه في الانتشار على انقاض التعليم الديني والمعاهد الدينية المحلية . وقد كانت السياسات التعليمية التي وضعها الحكام المستعمرون في هذا السبيل دقيقة الخطى بعيدة المدى وأكيدة المفعول .

ففي مصر مثلا اثناء الاحتلال البريطاني تولى لورد كرومر ومستشاره التعليمي دنلوب المهمة فوضعا منهجا تعليميا دقيقا للمدارس الجديدة التي انشئت في تلك الفترة ، وكان التركيز الكبير في هذا المنهج على مادة اللغة العربية والدين والتاريخ الاسلامي وكان هذا المنهج يحتوى على نماذج كثيرة من الاكاذيب والدسائس والتشويهات والشبهات فيما يتعلق بالاسلام وتاريخه وحضارته كانت بعضها خفية بينما بعضها الآخر صريحة ، وكان ذلك كله يدرس لأبناء المسلمين في مدارس الحكومة بقسميها الابتدائي والثانوى الى جانب تصوير أوربا وتاريخها وحضارتها في صورة جذابة على انها هي القوة الصاعدة ، هي التقدم والرقي ، هي الحضارة "الحقة" التي كان واجبا على الأمم المتخلفة أن تحذو حذوها وتترسم خطاها وتأخذها مثلها الاعلى في كل شيء(١) . وكذلك وضع المستر كوك منهجا مماثلا في العراق .

وفي شمال نيجيريا قام "هانس فيشر" *Hanns Fisher* أول وزير للتعليم سنة ١٩٠٨م بوضع مخطط للتعليم العالي وفق الطريقة التي اختارها

---

(١) راجع د . علي عبد الحليم محمود ، الغزو الفكرى واثره في المجتمع الاسلامي المعاصر ، فصل حملات التغريب الموجهة ضد الاسلام " في مجال التعليم والثقافة " ص ١٢٣ - ١٣٩ .

لورد كرومر للمصريين [1] . وكذلك وضعت الخطط المماثلة في بقية العالم الاسلامي . وكان الهدف من وراء هذه السياسة هو تحطيم الروح المعنوية عند ابناء المسلمين الذين يدرسون في هذه المدارس ومحاولة ابعادهم عن دينهم من خلال مناهج التعليم .

وأما عن خطط قوى الاستعمار في هذا المجال وان اختلفت قليلا او كثيرا حسب ظروف كل بلد ومدى قوة الاسلام فيه الا أنها في الجملة تتلخص في فتح مدارس غربية لا دينية واخرى تبشيرية على اختلاف مراحل التعليم في معظم البلاد الاسلامية ، واهمال المعاهد والمدارس الاسلامية ومحاولة القضاء عليها والقضاء على الاوقاف التى كانت تعتمد عليها ثم محاولة احتواء التعليم الديني عن طريق ادعاء اصلاحه وتطويره وادراجه ضمن مناهج التعليم الموضوعة لمدارس الحكومة الاستعمارية وبخاصة مادة اللغة العربية والدين والتاريخ الاسلامي ، ثم وضع مناهج التعليم على أساس تشويه حقائق الاسلام والدس على تعاليمه وتلفيق الاكاذيب واثارة الشبهات حول تاريخه وحضارته . ثم التعمد في تحقير المواد الدينية والتحكم في الوضع الاجتماعى والاقتصادى لمدرسي المواد الدينية لاشعارهم بضآلة موردهم وحقارة شأنهم الى جانب غيرهم من المدرسين الذين يدرسون اللغة الانجليزية والعلوم " المدنية " ويلقون احتراما كبيرا في المدرسة والمجتمع حيث تضمن لهم الخطة مستقبلا زاهرا ليتدرجوا في المراكز الاجتماعية العالية وينعموا بقسط وافر من الرخاء المادى . وقد كانت مهمة هذه المدارس في تلك الفترة هى تخريج موظفين كتبة للعمل في الدواوين التى يسيطر عليها الحكام المستعمرون ويديرونها وكانوا يُعْطَون رواتب مغرية في الوقت الذى كان المتعلمون في المدارس الدينية المحلية لا تتاح لهم هذه الفرصة

---

(١) عن التبشير والاستعمار في نيجيريا (رسالة ماجستير) ص١٢٢

وان وجدوا شيئا من العمل فلا يبلغ عائده مايسد به الرمق . وقد ثارت ثائـــرة المسلمين على هذه المدارس الأجنبية وخطتها الخبيثة في بادئ الأمر حيـــث رفض كثير منهم ادخال أبنائهم فيها ولكن بعضهم بتأثير الاغراء المادى العريـــض قد اتجهوا نحو هذه المدارس من ذوات انفسهم فأدخلوا أبناءهم فيها ، ولـــم تمض فترة طويلة حتى أصبح المتعلمون في هذه المدارس الجديدة " طبقـــة جديدة " في المجتمع تستند طبقيتهم الى كونهم حصلوا قسطا من العلوم المدنيـــة الحديثة وأصبحوا يتلقون تشجيعا ظاهرا وخفيا من السلطة الاستعماريـــة المتسلطة حيث كانت تبوئهم مراكز اجتماعية في وظائف الحكومة وتفتح أمامهـــم جانبا من الحياة الجديدة المتطورة حتى يظلوا خاضعين لنفوذها [1] . وقد كـــان للمناهج الغربية والمدارس الاجنبية التي أقامها الحكام المستعمرون في معظـــم بلاد المسلمين آثار عميقة الجذور في تأسيس النهضة العلمية والفكرية وتشكيلهـــا وتوجيهها وجهة غربية لادينية واقصاء التعليم الديني والثقافة الدينية عن ميـــدان الحياة العملية في كافة بلاد المسلمين . ولا أدل على نجاح خططهم في هـــذا السبيل من بقاء آثارها وانتشارها وسيطرتها على شتى مجالات الحيـــاة في المجتمعات الاسلامية منذ عهد الاستعمار حتى يومنا هذا .

ولم يقتصر الامر على الخطط التي وضعها الحكام المستعمرون في مجـــال التعليم لتوجيه العالم الاسلامي نحو الوجهة الغربية اللادينية فقد كـــان أذناب مخططهم الخبيث من أبناء المسلمين وغيرهم لا يقلون عنهم حرصا وجهـــدا في سبيل صبغ المجتمعات الاسلامية بالصبغة الاوربية ، ويظهر ذلك جليا فـــي

---

(١) اقرأ سياسة دنلوب التعليمية للقضاء على التعليم الدينى والمعاهد الدينية في مصر في كتاب " هل نحن مسلمون ؟" للاستاذ محمد قطب ص ١٣٢ - ١٤٣ . وقد تحدث عن خطة " هانس فيشر " التعليمية في شمال نيجيريا بشيء من التفصيل في رسالتي للماجستير " التبشير والاستعمار في نيجيريـــا ، ص ١٢٢ - ١٢٤ . (غير مطبوعة)

في ولائهم لقوى الغرب المسيطرة ودعمهم ومساندتهم لكل مايقوم به رجال الاستعمار من أعمال ومخططات وقبولهم السير في الاتجاه الذى يريدونه حيث كانوا يصدرون في أعمالهم من توجيهات رجال الاستعمار وارشاداتهم ويمهدون الطريق لعملية المسخ والصبغ الكاملين بفتح المدارس ووضعها تحت اشراف الاوربيين وارسال مجموعة كبيرة من الشبان في بعثات علمية ثقافية الى أوربا . وقد حدث ذلك في مصر فى أيام حكم محمد على باشا وفي عهد الخديو اسماعيل حتى قال : " جب " كانت المصادر الاولى التى أخذ الفكر الاوربى يشع منها هى المدارس المهنية التي انشأها محمد علي والبعثات العلمية التي أرسلها الى أوربا " .

وأما المرحلة الثانية من مراحل التغريب في مصر فكانت في عهد الخديو اسماعيل حتى أن الخديوى نفسه في احدى لحظات انبهاره الشديد بالحضارة الغربية وافتخاره بتمسك مصر بأهداب أوربا قال : " ان مصر اصبحت قطعة من أوربا " ولذا كان لابد للادب المصرى من أن يعبر عن استقلاله عن التقاليد الاسيوية والافريقية . " (١) ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الحاسمة بعد الاحتلال البريطانى منذ عهد الخديو توفيق فكانت خطة دنلوب التعليمية والمدارس الانجليزية والبعثات العلمية الى بريطانيا بوجه خاص .

وهكذا سار الامر فى الجرى وراء أوربا والتعلق بالثقافة الغربية والحرص على أخذ كل مايأتى من الغرب فانتشرت المدارس الاجنبية في البلاد واحتل الفكر الغربى والثقافة الغربية مكان الصدارة في المجتمع وسيطر على مجالات الحياة يوجهها الاتجاه الغربى اللادينى واستمر الامر هكذا حتى عقد مؤتمر تبشيرى في القاهره سنة ١٩٠٦ م وأوصى المؤتمرون بانشاء مدرسة جامعة نصرانية في القاهرة

---

(١) راجع هـ . جب ، دراسات في حضارة الاسلام ،ص ٣٢٠ - ٣٢١ وكذلك ص ٣٢٥ - ٣٢٧ ترجمة د . احسان عباس و د . محمد يوسف نجم و د . محمود زايد .

لمناهضة الأزهر الذى أبدوا قلقهم ازاء وجوده حيث يهدد كنيسة المسيح بالخطر ، واتفقت الآراء على كونه عقبة كأداء تعترض طريق جهود التبشير وأعمال المدنية الأوربية فى المنطقة (١) . ولم تمض فترة طويلة على هذا المؤتمر حتى قام أذناب المخطط الصليبى من النخبات المحلية المثقفة أمثال سعد زغلول وزميله أحمد لطفى السيد وأقرانهما بانشاء الجامعة المصرية وكان هدفهم مزاحمة الازهر وازالة تفرده بالتعليم والثقافة منذ عصور طويلة . واذا لم تكن هذه الجامعة الجديدة نصرانية قلبا وقالبا كما أراد لها المؤتمر التبشيرى أن تكون وكما كان واضحا من كلام المبشر الذى قدم اقتراح انشاء جامعة نصرانية في القاهرة حين قال " ربما كانت العزة الالهية قد دعتنا الى اختيار مصر مركز عمل لنسرع بانشاء هذا المعهد المسيحى لتنصير الممالك الاسلامية (٢) ." أقول اذا لم تكن هذه الجامعة كذلك في ظاهر الامر فقد كانت علمانية لادينية . فقد جاء في النص الاول من شروط انشائها " ألا تختص بجنس أو دين بل تكون لجميع سكان مصر على اختلاف جنسياتهم وأديانهم فتكون واسطة للألفة بينهم (٣) . "

ويضاف الى ذلك كله أن المدارس الاجنبية التى أنشئت في أنحاء العالم الاسلامى وان كان الاستعمار قد فرض فيها اتجاهات الغرب اللادينية في المناهج التى وضعها فترة حكمه وسيطرته على مقاليد الأمور في بلاد المسلمين الا أن هذه المناهج لا تزال تطبق بعد رحيل الاستعمار، وقد تعدى الامر حدود قبول مناهج الغرب في التعليم الى استيراد النظريات والافكار والمذاهب ، والأخذ بالعادات والتقاليد الأوربية المنافية للاسلام حتى أقيمت في كثير من المدن

---

(١) راجع تفاصيل وقائع هذا المؤتمر في الغارة على العالم الاسلامى ص٣٢ ومابعدها
(٢) الغارة على العالم الاسلامي ص ٣٣
(٣) احمد لطفى السيد، لحسين فوزى النجار، في سلسلة اعلام العرب، ص ٢٦٢

الاسلامية الكبرى معاهد لتعليم الفنون الجميلة من الرقص والغناء والموسيقى والنحت والتمثيل والتصوير.

ولم يكن رجال الاستعمار وحدهم هم الذين يعملون في مجال التعليم والتربية رغم تلك الجهود الضخمة والمساعي الكثيرة التى قاموا بها فقد كان الى جانبهم المبشرون الذين يعملون في هذا المجال على أوسع نطاق وفى قوة وتخطيط ومكر لا يقل عما يقوم به رجال الاستعمار . وكما صرح القس زويمر ان المبشرين هم طلائع الفتح الاستعمارى في الممالك الاسلامية حيث أن مهمتهم التى ندبتهم لها دول المسيحية في البلاد الاسلامية ليست هى إدخال المسلمين في المسيحية (كما قد يتوقع) وانما هى نشر الافكار الغربية المسيحية واللادينية وبخاصة عن طريق التعليم لانتزاع العقيدة الاسلامية من قلوب المسلمين أو على الاقل زعزعتها ليصبحوا مقطوعى الصلة بالله وبالتالى تذهب عنهم مكارم الاخلاق التى تعتمد عليها الامم في رقيها وازدهار حضارتها [1] . وقد قامت الجمعيات والارساليات التبشيرية على اختلاف نحلها ومذاهبها بفتح مجموعة كبيرة من المدارس والكليات والجامعات والمحاضن ورياض الاطفال ومدارس أيام الاحد ومدارس محو الامية للكبار في شتى انحاء العالم الإسلامي . وكان من بين هذه المدارس والكليات أو على رأسها الكليات التبشيرية التى انشئت في بيروت ولاهور واسلامبول والقاهرة وجنوب السودان وجنوب نيجيريا [2] وغيرها . ويأتى اهتمام المبشرين بفتح المدارس بناء على ماتقرر عندهم من أن المدارس هي اكبر وسيلة وأقصر طريق للوصول الى قلوب المتعلمين والتأثير فيها . وقد قال أحد المبشرين " ان المدارس هى أحسن الوسائل لترويج أغراض المبشرين" [3] وقد يظن أن نتائج

---

(١) اقرأ خطبة القس زويمر التى ألقاها في مؤتمر القدس التبشيرى في كتاب جذور البلاد لعبد الله التل ص ٢٧٥ ومابعدها

(٢) راجع كتاب " اين محاضن الجيل المسلم ليوسف العظم ص ٣٤ ومابعدها ، للوقوف على نموذج من احصاء عدد مدارس التبشير في مختلف بلدان افريقيا

(٣) كتاب الغارة على العالم الاسلامي ، ص ٤٨

مدارس الارساليات التبشيرية تختلف عن نتائج المدارس العلمانية التى أقامتها الحكومة الاستعمارية في بلاد المسلمين نظرا لاختلاف غايتهما في الظاهر وتباين طريقتهما في التعليم ولكن الامر ليس كذلك وقد اوضح ذلك شاتلييه بقوله : " نعم ان غاية المدرسة اليسوعية (في بيروت وهى مدرسة تبشيرية) وطريقة التعليم فيها تختلفان عن غاية وطريقة المدرسة الكلية الفرنساوية في الاستانة (وهى مدرسة علمانية) الا أن النتائج كانت متقاربة من حيث تعميم التعاليم والافكار التى تنشرها اللغة الفرنسية ، ومن هذا يتبين لنا أن ارساليات التبشير الدينية التي لديها أموال جسيمة وتدار أعمالها بتدبير وحكمة تأتى بالنفع الكثير فى البلاد الاسلامية من حيث انها تبث الأفكار الاوربية " (١) وقد بين شاتلييه الغرض الأساسي الذى يتوخاه التبشير عندما كان يستحث حكومة فرنسا على ضرورة انشاء جامعات فرنساوية للمسخ الفكرى في العالم الاسلامي قال :" ويجدر بنا لتحقيق ذلك بالفعل (أى الغزو الفكرى) ان لا تقتصر على المشروعات الخاصة التي يقوم بها الرهبان والمبشرون وغيرهم .. فتبقى مجهوداتهم ضئيلة بالنسبة الى الغرض الذى نتوخاه وهو غرض لا يمكن الوصول اليه الا بالتعليم الذى يكون تحت الجامعات الفرنساوية نظرا لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية والعلمية المبنية على قوة الارادة . وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم الى حيز الفعل ليبث في دين الاسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنساوية (٢) " وقد كان حظ المبشرين في ادخال الافكار الأوربية اللادينية في الحياة الاسلامية أكثر من حظ الحضارة الغربية كما أكد ذلك القس زويمر ، وذلك لان المبشرين رأوا ضرورة تركيز جهودهم على بث الافكار الغربية المنافية للاسلام كوسيلة لنزع العقيدة الاسلامية من نفوس المسلمين . وفي ذلك يقول شاتلييه :" ولا شك

---

(١) من مقدمة كتاب الغارة على العالم الاسلامي .
(٢) نفس المصدر

في أن ارساليات التبشير من بروتستانتيه وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الاسلامية من نفوس منتحليها ، ولا يتم لها ذلك الا ببث الافكار التي تتسرب مع اللغات الاوربية فبنشرها اللغات الانجليزيه والالمانية والهولندية والفرنسية يحتك الاسلام بصحف أوربا وتتمهد السبل لتقدم اسلامي مادي وتقضي ارساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية التي لم تحفظ كيانها ، وقوتها الا بعزلتها وانفرادها (١) ." ولا شك أن الجهود الضخمة التي تبذلها ارساليات التبشير في مجال التربية والتعليم انما هي في سبيل نشر التعاليم النصرانية والافكار الغربية اللادينية التي تؤدي في النهاية الى نزع المعتقدات الاسلامية ومحوها من نفوس المسلمين والى ذلك اشار شاتلييه بقوله : " ومهما اختلفت الآراء في نتائج أعمال المبشرين من حيث الشطر الثاني من خطتهم وهو الهدم فان نزع الاعتقادات الاسلامية ملازم دائما للجهودات التي تبذل في سبيل التربية النصرانية ." (٢) وان مانقصد اليه في هذا الصدد هو أن نبين مدى علاقة التبشير مع الاستعمار وبخاصة في الجهود التي يبذلها الطرفان في مجال التربية والتعليم ونبين كذلك المكايد المدبرة في هذا المجال للقضاء على الاسلام ثم نؤكد ان هذه المكايد لا تزال قائمة على اشدها في علاقات أمم الغرب مع الأمة الاسلامية وان جرت الخطة بعد رحيل الاستعمار في شكله الرسمي على اسلوب التستر والتكتم الشديدين وذلك لان الخطة قد نجحت نجاحا كبيرا ولا تزال تحقق المزيد يوما بعد يوم وبالاضافة الى ذلك فقد استطاع رجال الاستعمار والتبشير أن يوجدوا انصارا وعملاء من العناصر الداخلية يواصلون المسيرة التي بدأوها فوكلوا اليهم مهمة إكمال ادوار الخطة بعدهم فكانوا عند حسن ظن سادتهم المستعمرين في اتمام عملية الهدم والتقويض . واذا كان ميدان

---

(١) من مقدمة كتاب الغارة

(٢) نفس المصدر

عمل رجال الاستعمار في مجال التعليم يتمثل في وضع سياسات التعليم والمناهج التعليمية وتمويل المشاريع المتعددة المقامة في هذا الشأن ، والاعتماد على السيطرة السياسية والعسكرية لفرض اراداتهم وتحقيق مصالح دولهم عن طريق التربية والتعليم فان ميدان عمل التبشير في هذا المجال يتلخص في بذل الوسع في ادخال من استطاعوا في المسيحية من بين الجهلة والعوام من الناس في المدن والأرياف عن طريق نشاطاتهم التربوية والاجتماعية كانشاء المراكز الصحية والمهنية والاجتماعية واقامة المدارس والمعاهد المختلفة وتنظيم برامج توطين البدو واقامة قرى حديثة وغير ذلك من الجهود التي يبذلها المبشرون اثناء احتكاكهم مع مختلف فئات وطبقات المجتمع بقصد النفاذ الى عقولهم لتغيير معتقداتهم وطريقة حياتهم .

والى جانب رجال الاستعمار والتبشير في جهودهم المتواصلة وكيدهم المدبر للاسلام والمسلمين في هذا المجال كان المستشرقون يعملون على أوسع نطاق في مجال الفكر والثقافة ، فقد كانوا يثيرون ضد الاسلام قضايا مختلفة تشريعية واجتماعية واقتصادية وتاريخية وفكرية . وكانت جهودهم في مجال الثقافة والفكر مقصودا بها المتعلمين والمثقفين لانهم هم الذين لديهم ملكة الفهم والادراك لاستيعاب مايثيره هؤلاء المستشرقون من قضايا ومسائل في هذا المجال ، وحيث قد تم تشكيل افهامهم ومداركهم في قوالب معينة وتوجيهها نحو وجهة خاصة بما رضعوا من السموم في مراحل التعليم فهم أسرع الناس الى الاستجابة لافكارهم والتأثر بما يدسونه في الاسلام وتعاليمه وحضارته وتاريخه . وان الغاية العظمى وراء مايبذله المستشرقون من جهود ضخمة ومايشنونه على الاسلام من حرب شرسة في ميدان الفكر والثقافة هي القضاء على الرمق الباقي في جسم الأمة الإسلامية بتحطيم مصادر قوة الاسلام وتدمير المقومات الأساسية للحياة الاسلامية عن طريق تمهيد الارضية الفكرية التي تقود في النهاية الى قيام الحياة اللادينية في المجتمعات الاسلامية وسد جميع الطرق التي تهيىء لبعث الحياة

في الأمة الاسلامية حتى لا تعود الى قوتها وعزتها مرة أخرى . وان هؤلاء المستشرقين الذين خاضوا غمار الغزو الفكرى والثقافى في العالم الاسلامى هم الرهبان والاحبار والخبراء السياسيون والعسكريون الذين تسللوا الى ديار المسلمين متنكرين في مسوح العلم والمعرفة . ونقبوا في أنحاء العالم الاسلامى بحثا عن مصادر التراث الاسلامي في آلاف المخطوطات التى خلفها علماء المسلمين في شتى مجالات العلم . وقد أقاموا مئات المؤسسات الثقافية عكفوا فيها على البحث والتحقيق والدراسة المستفيضة ، وبذلوا في هذا السبيل جهودا كبيرة ولكنهم لم يقصدوا بها خدمة الاسلام ولا مصلحة المسلمين وانما هى من أجل الكيد للاسلام وتلويث مصادره النقية وتشويه صورته الناصعة في نفوس المسلمين واضعاف تمسكهم به أو ابعادهم عنه بالكلية . يقول ليوبولد فايس (محمد أسد)" .... وبعد بضعة عقود جاء زمن أخذ فيه علماء الغرب يدرسون الثقافات الاجنبية ويواجهونها بشىء من العطف أما فيما يتعلق بالاسلام فان الاحتقار التقليدى أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول الى بحوثهم العلمية . وبقى هذا الخليج الذى حفره التاريخ بين أوروبه والعالم الاسلامي غير معقود فوقه بجسر ثم أصبح احتقار الاسلام جزءا أساسيا من التفكير الاوربى ، والواقع أن المستشرقين الاولين في الاعصرالحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الاسلامية وكانت الصورة المشوهة التى اصطنعوها من تعاليم الاسلام وتاريخه مدبرة على اساس يضمن التأثير في موقف الاوربيين من الوثنيين (اى المسلمين) غير أن هذا الالتواء العقلى قد استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسىء توجيهها ، أما تحامل المستشرقين على الاسلام فغريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التى خلقتها الحروب الصليبية بكل مالها من ذيول في عقول الأوربيين الأولين. (١)"

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص ٦٠ - ٦١ ترجمة د/ عمر فروخ .

لقد كانت الجهود الضخمة التي يبذلها المستشرقون في مجال الفكر والثقافة موجهة للكيد لهذا الدين وتلبيس العقيدة الاسلامية والقاء الغبش في التصور الاسلامي بما يوجهونه ضد الاسلام من طعون متعددة ومايضمونه حول تعاليمه وحضارته وتاريخه من شبهات وتشويهات كثيرة. (١) وقد تصدوا للطعن واثارة الشبهات حول أصول الشريعة الاسلامية وتشويه مصادر التراث الاسلامي فتقولوا أقاويل كثيرة ولفقوا اكاذيب متعددة على القرآن والوحي والنبوة والسنة النبوية والفقه الاسلامي ، وقد قالوا ان القرآن من وضع محمد صلى الله عليه وسلم أوانه من املاء الراهب النسطوري الذى كان يتردد عليه محمد أثناء رحلاته الى الشام ، ثم شككوا في النسخة الموجودة اليوم بين أيدى المسلمين فقالوا انها نسخة واحدة من بين النسخ المتعددة التي جمعت من العظام المبعثرة والجلود الرميمة بعد موت معظم الحفاظ ، وان السلطة الحاكمة فترة عملية جمع القرآن هي التي فرضت هذه النسخة المعينة بعد إحراق بقية النسخ المخالفة ، وأن هذه النسخة المعتمدة غير متحدة الموضوع ولامتناسقة السياق ، وقد احتوت على أخطاء لغوية ونحوية كثيرة لا يزال بعضها باقيا الى اليوم !! وعن الوحي والنبوة قالوا ان ماكان يحدث للنبي صلى الله عليه وسلم أثناء تلقي الوحي انما هو

---

(١) ويحسن الرجوع الى كتب المستشرقين للوقوف على حملاتهم العنيفة على الاسلام وللاطلاع على طعونهم المستفيضة الموجهة ضد الاسلام وحضارته وتاريخه. ومن هذه الكتب على سبيل المثال" الاسلام في التاريخ المعاصر " لولفرد كانتول سميث و " العقيدة والشريعة في الاسلام " لجولد تسيهر ، و" الدولة العربية " لفلهوزن ، "والاسلام" لمرونيباوم و " حياة محمد " لكل من وليليم موير وأميل درمنغم و " محمد في مكة " لمونتغمرى واط ، وتاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمان ، و" الحضارة الاسلامية " لادم متز ، و" الصوفية في الاسلام " لينكلسون و" دراسات في حضارة الاسلام " و " وجهة الاسلام للمستشرق هـ. جب . ومختصر دراسة للتاريخ لارنولد توينبي وغير ذلك .

نوبات من الصرع والهستيريا ، وأن الذى كان يملى عليه مايقول انما هو الراهب بحيرا ثم شككوا في نسبه صلى الله عليهوسلم وقالوا انه مجهول النسب لانه كان يدعى محمد بن عبدالله جريا على عادة العرب الذين كانوا يطلقون على من يجهلون نسبه اسم عبدالله . وأما عن السنة النبوية فقد تعمدوا انكار وجودها على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وقالوا انها لم تولد الا في اثناء النزاعات السياسية الداخلية التي وقعت بين المسلمين حيث كان كل فريق من الفرق المتنازعة يضع أقوالا على لسان الرسول لتأييد موقفه في كل شأن . ثم جاء علماء المسلمين بعد ثلاثة قرون فجمعوا هذه الاقوال وهذبوها ورتبوها في كتب سموها كتب الحديث والسنة ثم الزموا الناس بالايمان بها على أنها المصدر الثاني من مصادر الشريعة الاسلامية . ولم تقتصر جهود المستشرقين في الطعن في السنة عند هذا الحد بل تعدته الى الطعن في الأسانيد فنالوا من كبار الرواة والحفاظ من الصحابة والتابعين وغيرهم . وقالوا عن الفقه الاسلامي انه مستمد من القانون الروماني . والى جانب ذلك شنوا هجمات عنيفة على مصادر التراث الاسلامي فهونوا من شأن الحضارة الاسلامية وشوهوا تاريخ الاسلام وقالوا ان كل ما حققه المسلمون من مآثر حضارية انما كان تابعا من التراث اليونانى كما أن الفن المعمارى الرائع الذى برع فيه المسلمون كان مقتبسا من الفن البيزنطى . وأما عن التاريخ الاسلامي فالى جانب تشويههم لحقائق هذا التاريخ وتفسير أحداثه على هواهم فقد ركزوا على الجانب السياسى منه وأبرزوه في صورة سلسلة من النزاعات والمشاحنات والمؤامرات للوقيعة بالمخالفين وتحقيق المطامع الذاتية ، الى جانب انحرافات الحكام والأمراء ومن في حاشيتهم وترفهم وبذخهم ، وكان حديثهم يدور حول مايجرى داخل قصور الحكام فيما يتعلق بالحريم والجوارى والخمر والشعراء والأعطيات وصنوف الطرب واللهو وكأن هذا هو كل شيء في تاريخ الاسلام حتى في عصور انحطاط المسلمين . وأما اللغة العربية فقد شنوا عليها هجمات عنيفة فى ألفاظها وتراكيبها وأساليبها ودعوا الى نبذها وهجر حروفها بحجة

عدم قدرتها على مسايرة النهضة الحضارية الحديثة . وكانت غايتهم من ذلك قطع صلة الامة الاسلامية بدينها وتراثها الحضارى الضخم حين تقطع صلتهم باللغة العربية التي هى أداة العلم والفكر والثقافة بالنسبة للامة الاسلامية كما أنها احدى المقومات الاساسية لتكوين الشخصية الاسلامية بالنسبة للفرد والمجتمع .
والى جانب ذلك كله فقد وجه المستشرقون جهدا كبيرا للطعن في حقيقة الاسلام وتشويه صورته وتضييق دائرة عمله في نطاق محدود وانكار دعوة شموليته لجميع نشاط الانسان في الحياة وصلاحيته لكل زمان ومكان وملاءمته للحياة المتطورة وقالوا ان الاسلام ليس فيه شيء جديد فهو اما أن يكون تطويرا محرفا لليهودية والنصرانية وإما ان يكون مزيجا من الوثنية العربية وأديان فارس والهند أوهو مجموعة الافكار والاراء الهلينستية ، وأن الجانب الفقهى التطبيقى من الاسلام مقتبس من القانون الرومانى ، ونظامه السياسى مؤسس على النظريات السياسية الفارسية والرومانية . وقالوا ان الاسلام دعوة اخلاقية ظهرت للقضاء على بعض العادات والتقاليد الجاهلية المنتشرة في المجتمع العربى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم أو هو حركة اجتماعية كان هدفها تغيير بنية الحياة الاجتماعية القبلية واحلال اخرى أوسع منها محلها تقوم على أساس القومية العربية أو أنه ثورة ضد الطبقة الرأسمالية المتسلطة على رقاب الضعفاء والمساكين في المجتمع المكى أو هو في الجملة ظاهرة معينة قامت فى فترة زمنية محدودة لمعالجة أمور وقتية خاصة مثل أى دعوة أو حركة قامت قبلها أو بعدها لهدف اصلاح اخلاقي أو اجتماعي وهذه الحركات والدعوات تمثل في مجموعها جانبا من تاريخ البشرية القديم وصورة من صور الماضى العتيق فلا علاقة لها البتة بالواقع المعاصر . ثم ان المستشرقين انكروا شمولية الاسلام لجميع نشاط الانسان في الحياة وراحوا يبشرون بمفهوم جديد للدين الاسلامي واتخذوا لذلك دليلا من الواقع السيء الذى يعيشه المسلمون في انحاء العالم الاسلامي منذ عصور الانحطاط،وحصروا الاسلام في

نطاق ضيق محدود فقالوا أنه طقوس وشعائر تعبدية وروحية فلا علاقة لـه بالحياة العملية من شئون الحكم والسياسة وشئون الاجتماع والاقتصاد وما الى ذلك . وقالوا ان محمدا صلى الله عليه وسلم مؤسس دين (على المفهوم الضيق للدين طبعا) ولم يكن مؤسس دولة . وانما الفكرة القائلة بان الاسلام دين ودولة او نظام متكامل للحياة البشرية ، هذه الفكرة نبتت اثناء احتكاك المسلمين بالروم والفرس فترة الفتوحات الاسلامية منذ عهد الخلفاء الراشدين حين أعجب المسلمون بما كان لدى الروم والفرس من التنظيمات السياسية والادارية فاقتبسوه ليدخلوه في صميم عقيدتهم ودينهم حتى يضمنوا لأنفسهم السيطرة السياسية الى جانب السلطان الروحي، الى غير ذلك من الأقاويل . ويضاف الى كل ماتقدم جهود المستشرقين المتواصلة واهتماماتهم البالغة ببعث الحركات الضالة والطوائف المنحرفة ونشر افكارهم السخيفة لاحداث البلبلة الفكرية بين المسلمين ، فكان التركيز على فرق الباطنية من اسماعيلية وقرامطة وبابكية والعبيديين ، والزنج والدروز والمتصوفين على اختلاف فرقهم والبابية والبهائية والبيانية والقاديانية وما الى ذلك . وكذلك عمل المستشرقون وعلماء الآثار على بعث الحضارات القديمة البائدة واحياء معارفها ولغاتها والتنقيب عن آثارها . وقد قدموا في ذلك سلسلة من البحوث والدراسات المستفيضة في ماأسموه " التاريخ الحضاري أو القومي " للشعوب الاسلامية . وكان الغرض من ذلك اثارة النزعات الانفصالية والنعرات القومية بين الشعوب الاسلامية واضعاف رابطة العقيدة التي تجمع بينها او محوها وازالتها وقطع صلة هذه الشعوب بماضيها المجيد وتهيئة الاجواء واعداد النفوس للعودة الى الحياة الجاهلية من جديد والتمسك بحضاراتها ونبذ الاسلام وحضارته على اعتباره نشازا في الحلقات المتسلسلة المتحدة أو هو - على أحسن تقدير - عامل من بين عوامل أساسية عدة ومرحلة من المراحل المتعددة في تاريخ الشعوب الاسلامية . ومن أمثلة هذه الحضارات القديمة التي بذل المستشرقون وعلماء الآثار في سبيلها جهودا

كبيرة احياء الفرعونية في مصر والفينيقية والأشورية في العراق والشام والحميرية في اليمن والقومية الطورانية في تركيا ، واحياء أصول قبائل هوسا الستة في شمال نيجيريا وقومية "أودودوا" في بلاد يوربا في جنوب نيجيريا وغير ذلك في انحاء البلاد الاسلامية. يقول المستشرق الانجليزي هـ . ا . جب في صراحة كاملة . " وقد كان من أهم مظاهر فرنجة العالم الاسلامي /تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الان فمثل هذا الاهتمام موجود الآن في تركيا وفي مصر وفي اندونيسيا وفي العراق وفي فارس ، وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور العداء لاوروبا ولكن من الممكن ان يلعب في المستقبل دورا مهما في تقوية الوطنية الشعوبية وتدعيم مقوماتها" (١)

وهناك قضية اجتماعية خطيرة أثارها المبشرون والمستشرقون ضد الاسلام وهي " قضية تحرير المرأة " وقد قالوا ان الشريعة الاسلامية تحتقر المرأة لذاتها ولا تجعل لها قيمة معنوية معتبرة سوى كونها مجرد وسيلة للاستمتاع ، وقد أباحت بيعها وشراءها وسبيها والتسري بها فهي بذلك لا تعدو في نظرها مجرد متاع يملك صاحبه حرية التصرف فيه ! وقالوا انها أوجبت على المرأة أن تولد وتعيش ثم تموت وهي تتقلب في أحضان الجهل والتخلف لا قيمة لها في المجتمع ولا وزن لها في شئون الحياة وذلك بما فرضت عليها من الحجاب والقيود الثقيلة وكان الغرض من ذلك كله تحطيم بنية الحياة الاسرية الاسلامية بافساد المرأة ونشر الاباحية والانحلال الخلقي في المجتمع المسلم حتى تأتي الاجيال الاسلامية بعد ذلك على النمط الذي يريده هؤلاء ويسعون اليه حين تربى في بيئة اسرية فاسدة وفي مجتمع ضحل .

---

(١) د . محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ١/ ١٣٤ ، نقلا عن كتاب " الى اين يتجه الاسلام " (*Whither Islam?*) الذي اشرف على نشره المستشرق جب عام ١٩٣٢م ، ص ١٦٤ .

هذا وان ماقصدنا اليه من ايراد هذه النماذج من القضايا المتعددة التي يثيرها المستشرقون ضد الاسلام في ميدان الفكر والثقافة هو فقط لكي نعرف مدى مابذلته جنود الغزو الاوربي الصليبي من جهود ضخمة ومادبرته من كيد ومكر عريضين لتحطيم العقيدة الاسلامية ومحوها من الوجود . وليس هنا مجال الرد على شبهات المستشرقين وافتراءاتهم واكاذيبهم الملفقة ضد الاسلام فقد تولى هذه المهمة الجليلة نخبة من العلماء والكتاب والمفكرين والمؤرخين المسلمين فأبطلوا مزاعمهم ودحضوا حججهم الواهية وبينوا اغاليطهم وكشفوا عن سوء طويتهم وخبث نياتهم وروح الحقد والعداء المتأصلة في قلوبهم والتي يصدرون عنها فيما يكتبونه عن الاسلام في كتاباتهم وبحوثهم " العلمية " .

وحيث قد استعرضنا فيما سبق جهود المستعمرين والمبشرين والمستشرقين في مجال التربية والتعليم والفكر والثقافة فلا يفوتنا هنا أن نبين مايستخدمه هؤلاء الاعداء من وسائل متعددة في هذا المجال ، وكان الهدف من ورائها انشاء أجيال "جديدة" في المجتمع المسلم تجهل حقيقة الاسلام وصورته الناصعة وانما تعرف الصورة المشوهة المنفرة التي تقدم لها عن الاسلام عن طريق هذه الوسائل المتنوعة الى جانب مايقدم لها بعناية فائقة عن أوربا وحضارتها في صورة خلابة جذابة تشد نفوسها اليها شدا قويا على أنها هي المثل الاعلى في كل شيء وان لا حياة للامم المتخلفة ولا تقدم ولا رقي ولا ازدهار الا بترسم خطى أوربا والسير في ركابها والخنوع والتذلل لها من أجل الاخذ باسباب القوة والحركة والانطلاق .

فإلى جانب السياسات التعليمية ومناهج الدراسة التي تسير عليها المدارس الأجنبية على اختلاف أنواعها ومراحلها وغاياتها ، كانت تعمل وسائل الاعلام المتعددة من الصحافة والكتب الثقافية ودور السينما والاذاعة والتلفزيون . ففي مجال الفكر والثقافة كان المستعمرون واعوانهم يستخدمون من الصحافة والكتب الثقافية لتحقيق غاياتهم . وأما الصحافة فقد جعلت لمخاطبة المتعلمين

من الجماهير على اختلاف مستوياتهم العلمية وكان لها دور كبير جدا في افساد مجال الفكر والثقافة في المجتمعات الاسلامية وربط مستقبل الشعوب الاسلامية بالامم الاوربية وحضارتها . وذلك لان الصحافة منذ انشائها كانت تركز على الحديث عن أوربا وحضارتها ومدنيتها وتقدمها وثقافتها وفنها ، وكانت تعرض مشكلاتها الخاصة وقضاياها وأزماتها الداخلية وكأنها مشكلات وقضايا انسانية عامة لابد أن تحدث لكل الشعوب في تاريخها . وهكذا كانت الصحافة تمهد الارضية الفكرية حتى تتجه النفوس والعقول بكليتها الى أوربا على اعتبارها طريق المستقبل بالنسبة للشعوب المتخلفة التي كان لزاما عليها ان تتخذ وجهات النظر الغربية في كل شأن من شئونها وتأخذ الحلول التي تقدمها أوربا لتستطيع أن تتغلب على مشكلاتها وترفع من شأنها في مضمار الحضارة والمدنية الراقية . وأما الكتب الثقافية فكانت ميدان عمل المستشرقين فقد اتخذوها وسيلة لمخاطبة المثقفين لتشكيل افكارهم وافسادها حتى يصبحوا في النهاية يقولون بقول الغربيين ويذهبون مذهبهم في الدين والاخلاق ويسيرون سيرتهم في شئون الحياة كلها ويقودون شعوبهم وراءهم نحو الاتجاه الذي تريده جيوش الغزو الفكري الصليبي .

وأما السينما والاذاعة والتلفزيون فقد وضعت هي الاخرى لافساد المعتقدات والقيم والاخلاق والتقاليد في المجتمعات الاسلامية وكانت تعمل على نطاق اوسع وأرحب حيث تشمل دائرة نشاطها مختلف فئات المجتمع من المتعلمين والمثقفين والجهلة والعوام والكبار والصغار وفي المدن والأرياف.

وقد كان التركيز الكبير في الانتاجات السينمائية والبرامج الاذاعية والتلفزيونية على عوامل الافساد والتحلل الخلقي ومحاولة قتل القيم الروحية ومحو المقومات الدينية الاصيلة عن طريق نشر الافكار والنظريات اللادينية والاخلاقيات والتقاليد والعادات الغربية الى جانب الاعتماد على عوامل الاثارة من الصور العارية والاستعراض المثير والأغاني الخليعة والتمثيليات التافهة التي لا تحمل في طياتها قيمة فنية عالية ولا مبدأ اخلاقيا سليما وانما وضعت لمسخ العقول وتحويل المعتقدات

وافساد الاخلاق أو لصرف الناس عن الاتجاه الصحيح وشغلهم عن الأمور الجادة وملء أوقاتهم بتفاهات الأمور وسفاسفها التي لا تعود عليهم بأدنى فائدة .
وأما في مجال الفن فلم يكن رجال الاستعمار وأعوانهم ليوجهوا " المثقفين" المحليين في مجال الترجمة والتأليف الى نقل ماهو نافع وضروري من العلوم النظرية والعملية التي تفوقت فيها أوربا وازدهرت بها حضارتها لأنهم لا يريدون أن يهتدي المسلمون الى أسباب قوة أوربا حتى لا يأخذوا بها وينهضوا من تخلفهم العلمي وركودهم الفكري لينازعوا أوربا في مركز القيادة العالمية الذي صار اليها ، كما أن المثقفين أنفسهم في يقظتهم المنبهرة التي فقدوا فيها وعيهم وصوابهم لم يكونوا قادرين على تمييز الغث من الثمين وأخذ ماهو خير من معارف الغير وترك ماهو شر . وقد تلقوا التوجيهات من أسيادهم الذين لا يريدون لهم تقدما ولا رقيا فاندفعوا الى نقل الاخلاقيات والتقاليد والعادات الغربية التي تتنافى مع الاسلام في عقيدته وأخلاقه وتقاليده . وكانت العناية الكبيرة موجهة الى ترجمة القصص والروايات الغرامية والمسرحيات الخليعة التي تتحدث عن العلاقات بين الجنسين وتصور اللقاءات وتروي مايجري فيها من المغازلات والمناجيات في صورة مغرية مثيرة . وهكذا حتى جاء دور التأليف بعد أن مسخت العقول وشوهت الافهام والمدارك فساروا فيه سيرتهم في الترجمة حتى وصل بهم الامر في النهاية الى نقد الاخلاق والتقاليد الاصيلة واعتبار التمسك بها رجعية وتخلفا وجمودا ، ومن هذه الزاوية نفذوا الى النيل من الدين والطعن في تعاليمه على أنه هو العائق الذي يعوق نشاط الانسان وانطلاقه ويكبله بالأصفاد والقيود كما يقول الغربيون الذين حاولوا تفسير الاسلام بالمفهوم الغربي للدين في مثل قول كرومر : " أن الاسلام ناجح كعقيدة ودين ولكنه فاشل كنظام اجتماعي فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ولكنه مع ذلك أبدى لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع

الانساني .. (١) "

وقد صدقهم المثقفون المستغفلون فراحوا يبشرون بالمفهوم الغربي للدين ويطالبون بحصر الاسلام في نطاق ضيق محدود وتحطيم سلطانه الواسع لأنه في نظرهم عائق دون التقدم والرقي وهذا شبلى شميل يقول " والأمم تقوى بمقدار مايضعف الدين فهذه أوروبا لم تصبح قوية ومتمدنة فعلا الا عندما حطم الاصلاح والثورة الفرنسية سلطة الاكليروس على المجتمع وهذا يصح أيضا على المجتمعات الاسلامية . (٢)"

النقطة الرابعة : اصطناع العملاء من المسلمين وبخاصة من الزعماء المحليين والعلماء المستغفلين لاستغلال نفوذهم في توطيد دعائم الحكم الاستعمارى في البلاد، وتكوين النخبات الوطنية المثقفة ثقافة غربية لاستخدامها في ربط عجلة الشعوب المستعمرة بقاطرة الاستعمار.

ان من خطط الاستعمار تكوين قوى محلية تعمل على عينه وتصدر عن أوامره وتوجيهاته وارشاداته وقد بذل جهدا كبيرا في هذا السبيل حتى استطاع في نهاية الامر أن يكون مجموعة كبيرة من أبناء المسلمين الضعاف الايمان ،اتخذ من بينهم عملاء مأجورين ونفخ في أدمغة من سموا بالمثقفين روح الاتجاهات الفكرية المنحرفة ووجه بعضهم نحو تأليف احزاب سياسية ذات ميول وطنية ونزعات لادينية . وكانت هذه المجموعة مدفوعة بالاحساس بالنقص والضعف وشدة الانبهار والافتتان بما عند الغرب والشعور بالموالاة والتبعية والخضوع

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ١/ ٢٤٠

(٢) عن القومية العربية في ضوء الاسلام (رسالة ماجستير) اعداد صالح العبود ص ٨٣ - ٨٤ . (غير مطبوعة)

المذل لقوته . ولم تكن كل العناصر المحلية الخاضعة أو الموالية لقوى الاستعمار في أول الامر قد تلقت تعليما غربيا أو ثقافة أوربية حتى يمكن أن يقال أنها قد تأثرت بذلك في قبولها السير في ذيل قافلة الاستعمار ولكن كان من بين هذه العناصر حكام وزعماء كان لهم نفوذ عريض وسلطان واسع في البلاد قبل الاحتلال الأوربي وفي اثنائه وعز عليهم أن ينتزع هذا السلطان من أيديهم ، ولكنهم حين رأوا قوة الغرب وتفوقه السياسي والتنظيمي وعلموا الا قبل لهم بها ارتموا في أحضان المستعمرين وطأطأوا لهم الرؤس وآووا الى ركنهم الشديد ليمكنوا لهم في الارض حتى يستطيعوا أن يحققوا أطماعهم ويثبتوا وجودهم تحت ظلال قوة الاحتلال الاجنبي أو على الاقل ليبقوهم على عرش الملك معتمدين على قوتهم اعتماد المملوك الذي هو كل على مولاه . وهناك نماذج كثيرة من هؤلاء الحكام والزعماء في أنحاء العالم الاسلامي ابان الاحتلال الاوربي خضعوا خضوعا مذلا للموجة الاستعمارية الكاسرة . ولا شك أن ذلك كان نتيجة الصدمة العنيفة التي أصابت الامة الاسلامية حين دهمتها جيوش الاحتلال وحققت انتصارات كبيرة وظهر للامة الاسلامية ماكانت تعانيه من الضعف والتخلف والانهيار الى جانب قوة أوربا الرهيبة وتقدمها الحضاري . وقد اقتضت خطط الاستعمار أن يكون هؤلاء الحكام والزعماء مطايا ذلولة لتوطيد دعائم الحكم الاستعماري في البلاد الاسلامية واسنادا قوية يمدون المستعمرين في عملية الهدم والتقويض التي أزمعوها في شئون البلاد .

وبعد أن آتى التعليم الغربي ثماره في المجتمع المسلم وتوغلت الفلسفات والنظريات والافكار الغربية اللادينية لغزو النفوس ومسخ العقول قامت في المجتمع طبقة جديدة من المثقفين ثقافة أوربية الذين رباهم الاستعمار بعناية فائقة ليتأهلوا لاداء المهمة التي سيكلفون بها في سوق الشعوب المستعمرة وراء السادة المستعمرين . وقد اختار المستعمرون من صفوف هذه الطبقة أفرادا قلائل من الزعماء أقاموا حولهم هالات كاذبة وخلقوا لهم بطولات ضخمة وخصوا

د ورهم على صعيد العمل القومي والنضال الشعبي حتى خيل لشعوبهم - وهي مخدوعة بالجعجعة التي تسمع ولا يرى لها طحن - أنهم منقذوها مما كانت يجثم فوقها من الضعف والانهيار والدمار وأنهم بناة مجدها ونهضتها، فعلقت هذه الشعوب عليهم الآمال وأسلمت لهم قيادها . ولما تمكن هؤلاء من القبض على زمام الامر ساروا على الطريق الذى مهد له أسيادهم المستعمرون كل تمهيد وقادوا شعوبهم الى الذل والهوان والدمار . وقد حطموا المثل والقيم والتقاليد الاصيلة واستهانوا بالمعتقدات وأفسدوا الاخلاق وتبجح بعضهم بالكفر والالحاد ، وقد ذاقت الامة على أيديهم من الاذلال والاهانة مالم تذقه على أيدى الاعداء المستعمرين رغم مادبروا لها من كيد ومكر وخطط خبيثة .

ففي تركيا مثلا ظهرت مجموعة من المثقفين ثقافة غربية بعد فترة قصيرة من قيام العلاقات الوثيقة بين تركيا والمانيا خلال القرن التاسع عشر الميلادى ثم قامت في أوساط هؤلاء المثقفين اتجاهات فكرية منحرفة وتأسست جمعيات سرية عميلة مثل جمعية الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة . وكان الهدف من وراء محاولات الغرب في انشاء طبقة المثقفين واصطناع العملاء في تركيا هو حل" المسألة الشرقية " كما يقولون . وقد واتت الظروف المرتقبة عندما اندلعت نار الحرب العالمية الاولى الرهيبة واقتضت ظروف الحرب أن تنضم تركيا الى جانب المانيا لانها كانت على علاقة وثيقة معها منذ اوائل القرن التاسع عشر الميلادى . واقتضت ظروف الحرب ايضا ان تسعى جيوش الحلفاء الى كسب الدول العربية الى جانبها كما اقتضى الكيد الصليبي والصهيوني ان يصطنع في تركيا " بطلا عظيما" تثار حوله الامجاد والبطولات ويضخم دوره في النضال الشعبي ليستغل في تحقيق مآرب الصليبية والصهيونية فيما بعد ." ولما غزا اليونان آسيا الوسطى بعد الحرب العالمية الاولى هب مصطفى كمال يقحم نفسه في الجيوش التركية وفي يده مصحف وناشدهم بحماس دافق ، أيها الترك هل تعلمون ماهذا الكتاب الذى بيدى ؟ فيجيبونه انه المصحف الشريف : فيقول لهم انكم اذا لم تخرجوا

معى للحرب مع اليونان فلن يكون لهذا الكتاب بقاء في هذه الأرض ، وهكذا فان مصطفى كمال حرض المسلمين الاتراك على الجهاد ... فطردوا اليونان من أرضهم ... (١) " وقد أثار هذا الانتصار المعجب والكبرياء في نفس البطل فوقف في وجه جيوش الحلفاء الجرارة يتحداها ويهددها فتراجعت هذه الجيوش متظاهرة بالهزيمة امام قوته " التى تهد وعنيدة لا تقهر " ثم جنحت الحلفاء للسلم وفق خطة مرسومة فأحس البطل في نفسه العظمة والكبرياء ، وأشاد الناس بدوره في النضال والكفاح . ولكن ماذا حدث بعد انتصار البطل على اليونان وتراجع جيوش الحلفاء أمام قوته ؛ فقد عاد البطل بعد الحرب لينفذ اتفاقية " كيرزن " المبرمة بينه وبين جيوش الحلفاء القاضية بسحق الاسلام في تركيا سحقا لا هوادة فيه ، وقد أصبح يرى أن العداوات القاسية التى تتعرض لها تركيا من جانب الغرب كانت بسبب تخليها عن رسالتها القومية واحتمالها حمل غيرها تستميت في الدفاع عنه قرابة خمسة قرون متتالية ، وانها لن تكون في مأمن من هجوم الغرب وكيده وايذائه ولا تحقق لنفسها السيادة والتقدم والازدهار الا بقطع صلتها بماضيها الاسلامي وتمسكها بامجادها القومية الخاصة ، وهذا ماتضمنته اتفاقية " كيرزن " في شروطها الاربعة التى تنص على الغاء الخلافة في تركيا وقطع الصلة مع الاسلام ووقف نشاط العناصر الاسلامية الباقية فيها والعمل على اقامة دستور مدنى بحت في تركيا بدل الدستور العثمانى القائم على أساس " الاسلام " (٢) وهكذا ظهر البطل ودبر وخطط لفرض سيطرته على رقاب الناس حتى اذا بلغ أوج عظمته وكبريائه انقض بعنف وقسوة على الرمق الباقى في جسم الدولة العثمانية التى تسمى آنذاك " بالرجل المريض " فأجهز عليه ليقضى

---

(١) أبو الأعلى المودودى ، الاسلام اليوم ، ص ٤٧ - ٤٩ .

(٢) راجع نص اتفاقية " كيرزن " فى كتاب المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام للشيخ محمد محمود الصواف ص ١٧٤

عليه القضاء الاخير[١] . ولكن ماذا فعل البطل لتحطيم ماضي الاسلام المجيد في تركيا ؟ وكيف نفذ خطوات اتفاقية " كيرزن " الخطيرة ؟ لقد كان عازما على التحطيم الشامل والهدم الكامل لحاضر الاسلام ومستقبله في تركيا ، فبدأ بفصل تركيا عن ماضيها الاسلامي وكل مايرتبط بذلك أو يرمز اليه ، وقد سعى الى تحطيم الجهاز السياسي القائم والغاء الخلافة مظهر قوة المسلمين السياسية وخطط لجعل الدولة الدينية جمهورية لا دينية وتحويل الامبراطورية العثمانية العظيمة الى قطر صغير وقطع جميع الصلات مع بقية اجزاء الامبراطورية. وعلى الصعيد الداخلي ألغى وزارة الاوقاف والمحاكم الشرعية واحل القوانين المدنية المستمدة من الغرب محل الشريعة الاسلامية ، وحدد عدد المساجد ، وأقفل كثيرا منها وقد حول مسجد " ايا صوفيا " الى متحف ومسجد الفاتح الى مستودع ، وحرم الأذان باللغة العربية وألغى كتابة اللغة التركية بالاحرف العربية وكتب المصحف باللغة التركية وألغى الاعياد الاسلامية وجعل بدلها أعيادا قومية ، وحظر جميع الطرق الصوفية وأغلق زواياها ومنع أى نقد دينى لتدابير الحكومة وحدد عدد الواعظين وحصر مجال عملهم في نطاق ضيق ، والى جانب ذلك كله فرض المسخ الفكرى لتغيير عقلية الشعب التركي المسلم وتبديل تصوراته واخلاقه وتقاليده عن طريق اقتباس المذاهب والمناهج الغربية واقامة المدارس " المدنية " وارسال البعثات الى أوربا واستيراد العادات والتقاليد الغربية حتى فى اللباس وأسلوب الحياة العائلية . وقد ركز على افساد الحياة الاجتماعية وتحطيم مظاهر الحشمة والحياء والعفة والطهر التى امتازت بها الاسرة المسلمة فأكره المرأة المسلمة على الخروج على تعاليم الدين ونبذ التقاليد الاسلامية الرفيعة وتقليد المرأة الغربية في جاهليتها

---

(١) اقرأ كتاب " الرجل الصنم " لضابط تركى سابق ، ترجمة عبد الله عبد الرحمن .

وربى الناشئين على طرائق الحياة الغربية وأشربهم روحا غربية لا دينية ليقطع صلتهم بالاسلام من قريب أو بعيد (١). يقول الاستاذ أبو الاعلى المودودى عن معركة القبعة في تركيا " اننا لا نستطيع ان نتصوركم استخدم من الوسائل لجعل المسلمين غير مسلمين في تركيا وروسيا ... فقد اريقت في تركيا دماء الالاف من المسلمين لا ذنب لهم الا أنهم عارضوا استبدال القبعة بالطربوش كأن هذا الامر ايضا من الاصلاحات الجذرية التى ماكانت لتتم الا به ، ومن الطريف في الأمر أن قادة الاصلاح المزعومين لما لم يجدوا الكمية الوافرة من القبعات الاوربية استوردوا من أوربا اكواما من القبعات المعدة لاستيفاء حاجة الشعب التركى الى القبعات وكأن هذا الاصلاح من الاهمية بمكان في نظر القادة حتى لجأوا لتطبيقه الى وسائل الحديد والنار والى اعلان الحكم العرفى في البلاد (٢) ." ويعتبر مصطفى كمال أتاتورك "البطل التركى المغوار" أول نموذج صارخ للحكام المصطنعين المارقين في العالم الاسلامى فقد اتبع أسلوب حكم استبدادى ليس لادينيا فقط وانما كان مضادا للدين مناهضا له . يقول الامير شكيب ارسلان ." ان حكومة تركيا العلمانية الكمالية ليست حكومة لادينية من طراز فرنسا وانجلترا فحسب بل هى دولة مضادة للدين كالحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء ، اذ انه حتى الدول اللادينية في الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخل في حروف الاناجيل وزى رجال الدين وطقوسهم الخاصة وتلغ الكنائس . (٣) " ويقول الاستاذ أنور الجندى : " ثم جاء " مصطفى " كمال بعد الحرب العالمية الاولى وتمزق تركيا وسقوطها ليقيم الدولة التركية العلمانية التى ألغت الخلافة واللغة العربية والشريعة الاسلامية والاذان وأغلقت المساجد

---

(١) راجع "كارل بروكلمان - تاريخ الشعوب الاسلامية ترجمة منير البعلبكى وآخر، ص ٦٦٨ - ٦٦٩ . وكذلك " جان بول رو " الاسلام في الغرب ص١٨١ - ١٨٦ ترجمة نجده هاجر وزميله . واقرأ كذلك" الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية للندوى ص ٦١ ، ٥٥ - ٦٣ ومابعدها وكذلك د / محمد كمال الدسوقي الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص٤٢٨ - ٤٣٣

(٢) الاسلام اليوم ، ص ٥٦

(٣) حاضر العالم الاسلامي ، ٣ / ٣٣٦

وفي انقلاب مصطفى كمال أتاتورك وهو من اليهود الدونمة جرت المجازر للمسلمين وسلمت البلاد الاسلامية التى كانت تابعة للدولة العثمانية الى الاستعمار والصهيونية بعد أن سلم الاتحاديون طرابلس الغرب ، لقد خلع عبد الحميد مقدمة لالغاء الخلافة ، وكان الغاء الخلافة هو الذى فتح الباب واسعا خلال حكم الاتحاديين منذ (١٩٠٩-١٩١٦م) للسيطرة على فلسطين وتحقيق هدف اليهود باستيلاء المسيحية ممثلة في بريطانيا على القدس ١٩١٧م كمقدمة لاستيلاء اليهود عليها بعد خمسين عاما ١٩٦٧م وكان ذلك من أخطر أهداف اليهودية والمسيحية : تمزيق الدولة الاسلامية الكبرى وفصل العرب عن الترك وهدم الجامعة الاسلامية والغاء الخلافة (١) "

وقد جاء بعد اتاتورك حكام مارقون نسجوا على منواله تعاقبوا على مقاليد الحكم في تركيا ذاق الشعب التركى المسلم على ايديهم مالم يذقه على أيدى أعداء الاسلام الخارجيين، ولم يزل يذوق على ايديهم الويل والثبور حتى اليوم. وكذلك ظهرت في انحاء البلاد الاسلامية منذ خمسينيات هذا القرن الميلادى نماذج صارخة من الحكام المصطنعين المارقين في مختلف بلاد العالم الاسلامى وان كان كثير منهم لم يبلغ المدى الذى بلغه اتاتورك في الجرأة على سحق الدين وطمس تعاليمه واعلان الحرب الصريحة على الدين وأهله وفي السعى لتحطيم المبادئ والقيم والتقاليد الأصيلة بلا حياء ولا تورع .

وأما فى مصر فقد كان الاتجاه نحو الاصطباغ بالصبغة الاوربية منذ عهد محمد على باشا وفي عهد الخديو اسماعيل نتيجة إحساسهما بالنقص والضعف امام قوة اوربا الرهيبة وافتتانهما بحضارتها وعزمهما على الاصلاح الداخلى والاخذ بوسائل النهضة الحديثة عن طريق السير في ركاب الغرب والخنوع له. ويؤكد

---

(١) الاسلام والعالم المعاصر ص ٤٢٠ - ٤٢١

" ارنولد توينبى أن مصر كانت متفوقة على تركيا في هذا السبيل وقد قال : " ان عملية صبغ مصر بالصبغة الغربية التى بدأها المغامر الالبانى محمد على خلال الربع الثانى من القرن التاسع عشر . . كان اكثر شمولا من أية محاولة سعى اليها او انجزها السلاطين الاتراك في الحقبة نفسها . "(١)

وما ان جاء الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢م نتيجة سياسة الخديو اسماعيل الفاشلة والتى أسفرت عن خلعه وتولية الخديو توفيق بعده حتى بدأ الحكام المستعمرون بوضع مخططهم الخبيث البعيد المدى فوجدوا أسنادهم من نتاج مدارس التغريب التى أقيمت منذ عهد محمد على باشا من الزعماء والعلماء والمثقفين المستغربين بعضهم متأثرون ضيهرون بالحضارة الغربية وبعضهم عملاء مأجورون يعملون لصالح القوى الاجنبية . فهؤلاء هم الذين تطوعوا بخدمة رجال الاستعمار في تنفيذ مخططاتهم وهم الذين مهدوا الارضية الفكرية التى استند اليها الاتجاه اللادينى الذى كان المظهر العام للنشاط السياسى في مصر فيما بعد . فمنذ وقت مبكر من الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢م . رأينا أول حزب سياسى قام في مصر وهو الحزب الوطنى ينشر برنامجه الرسمى القائم على أساس القومية المصرية وحدها دون تفريق بين الاديان ، جاء فيه " الحزب الوطنى حزب سياسى لادينى ، فانه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب واغلبيته مسلمون لان تسعة اعشار المصريين من المسلمين وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث ارض مصر ويتكلم بلغتها ينضم اليه لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات ويعلم أن الجميع اخوان وان حقوقهم في السياسة والشرائع متساوية(٢) "

---

(١) مختصر دراسة للتاريخ ٣/١١٣ ترجمة فؤاد محمد شبل .
(٢) د . محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/١٣٦

وقد تحدثنا فيما سبق عن الدور البارز الذى لعبه الشيخ محمد عبده خلال الحكم البريطاني لمصر ومساندته وخدماته (١) " الجليلة " لكرومر وحكومته في مجلس شورى القوانين . ونريد ان نضيف هنا أن حركة الشيخ في محاولة اصلاح الازهر واصلاح التعليم بشكل عام بإدخال العلوم الحديثة في مناهجه، ونقد المحاكم الشرعية ونقد الحياة الاجتماعية والدعوة الى اصلاحها عن طريق اقتباس القوانين التشريعية الغربية والانظمة الاوربية وفي مساندة الحكومة الاستعمارية والدعوة لمسالمة الانجليز ومصالحتهم والتفاهم معهم، والدعوة الى التقريب بين الاديان وفتوى الشيخ حول اباحة الربا بطريق صناديق التوفير كل ذلك يمثل ركيزة من الركائز الاساسية التى استند اليها الاتجاه اللاديني في مصر وقاعدة انطلق منها فيما بعد دعاة التغريب (٢) الذين تعلقوا بأذيال الغرب حتى جاء منهم من دعا صراحة الى نبذ الاسلام وإقصائه عن توجيه الحياة العملية ولم يزل هؤلاء يكيدون للاسلام في كل ميدان وينقضون منه عروة بعد عروة حتى سلبوه هيمنته الكاملة على شئون الحياة الانسانية وحصروه في نطاق ضيق محدود لا يتعدى جانب الاحوال الشخصية. وفي السنوات الاخيرة نظمت حرب شعواء في بعض

---

(١) للوقوف على مدى تعاون الشيخ ومساندته لحكومة كرومر الاستعمارية وخدماته لها في " مجلس شورى القوانين " اقرأ تقرير المستشار القضائي الانجليزى عن سير المحاكم عام ١٩٠٥م ، وتقرير كرومر السنوى لحكومته في نفس السنة في كتاب الفكر الاسلامي دراسة وتقويم لغازى التوبة ، التقرير الاول في ص ٢٥ والثاني في ص ٣٠ .

(٢) راجع د. محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنيه فى الأدب المعاصر ١/ ٣٠٧ - ٣١٦

البلدان الاسلامية على هذه البقية الضئيلة التى بقيت في حياة المسلمين من آفاق الشريعة الاسلامية الواسعة فوضعت لها قوانين بدعوى الاصلاح وضمت الى اختصاصات المحاكم المدنية التي تحكم بغير ما أنزل الله . والذى يبدو لى من أمر الشيخ محمد عبده أنه لم يكن زعيما مصطنعا ولا عميلا لقوى الاستعمار ، فقد اثاره مايعانيه المسلمون من تخلف وتأخر وانهيار الى جانب تقدم الغرب وتفوقه في شتى مجالات الحياة فاندفع نحو الاصلاح متأثرا بما عند الغرب داعيا الى الاخذ بالطريقة التي رآها مناسبة لإصلاح حال المسلمين .

وقد" قصر الشيخ محمد عبده همه على استنهاض الهمم لاصلاح الازهر الشريف وادخال العلوم الحديثة فى مناهجه وتنظيمه تنظيما تربويا . يقول المغفور له الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق : تنتظم دعوة الشيخ الى الاصلاح الدينى امورا ثلاثة :

١ – تحرير الفكر من قيد التقليد حتى لا يخضع العقل لسلطان غير سلطان البرهان ولايتحكم فيه زعماء الدنيا ولازعماء الدين .

٢ – اعتبار الدين صديقا للعلم لاموضع لتصادمهما اذ لكل منهما وظيفة يؤديها وهما حاجتان من حاجات البشر لاتغنى احداهما عن الاخرى .

٣ – فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعه الاولى(١) "

ويقول الدكتور محمد البهى : " اراد الشيخ محمد عبده ان ييسر الطريق للعمل العقلى فى الاسلام ويضع نواة للمنهج العلمى لتربية الناشئة وتوجيهها .... وهكذا الشان فى كل ما سار فيه . كان يرمى الى توضيح مبداين اساسيين :

ا – مناولة التقليد ودفع الباحثين الى الاستقلال فى البحث والفهم ان استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ب – تاكيد حرية الفرد واختياره فى افعاله اذ ان ربط الانسان فى تصرفاته بغيره على الاطلاق لايتفق وتكريم الله للانسان كما ان الفرد الحر المختار هو اللبنة الايجابية فى بناء المجتمع الانسانى المنتج .(٢) "

---

(١) محمد حبيب احمد، نهضة الشعوب الاسلامية فى العصر الحديث ، ص ٧٥ –٧٦

(٢) الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ،جمع ومراجعة وتقديم محمد خلف الله ص ٩٥ – ٩٦

ولكن مدرسة الشيخ محمد عبده قد انقسمت الى قسمين ، قسم سار على منهجه وطريقته فى الاصلاح ، وكان من هذا الفريق السيد رشيد رضا والشيخ محمد مصطفى المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق وغيرهم .وقسم اخر انحرف عن منهجه وطريقته فانجرف مع تيار التغريب وكان من بين هذا الفريق دعاة مارقون وزعماء وطنيون كانوا جميعا اصابع مخططات القوى الاجنبية . ويمثل هذا الفريق فى اتجاهاته الفكرية المنحرفة حركة تحررية استقلالية نفخ الاستعمار فى كيرها واستغلها لتوطيد دعائم حكمه وتنفيذ مخططاته الخبيثة فى تحويل اتجاه التعليم وتوجيه شئون الحياة العملية نحو الاتجاه اللاديني فى نهاية الامر وتنحية الدين عن مجال النشاط القومى والاجتماعى بالكلية .

وهناك نماذج كثيرة من الزعماء والعلماء المفتونين بالحضارة الغربية وطرائق الحياة الاوربية خدموا مصالح الاستعمار في البلاد الاسلامية ودعموا الاتجاه اللاديني الذى كان يخطط ويسعى لتثبيت دعائمه في بلاد المسلمين ويوجه اليه اذنابه المثقفين في اتجاهاتهم الفكرية المنحرفة . وممن ظهر قبل محمد عبده شيخه جمال الدين الافغاني (١) ورفاعة الطهطاوى (٢) . وخير الدين التونسي (٣) وغيرهم .

---

(١) ولمعرفة شيء من اتجاهاته الفكرية والسياسية راجع كتاب الاتجاهات الفكرية عند العرب على الموافظة ص ١٠٢ ومابعدها .

(٢) اقرأ عن اتجاهاته الفكرية في مؤلفاته ومنها "المرشد الأمين" وتخليص الابريز في تلخيص باريز ، وكان شديد التأثر بالفكرة الوطنية ، وله كتاب عن تاريخ مصر قبل الفتح الاسلامي ، وله ايضا كتابات وقصائد امتلأت بمشاعر الافتخار بامجاد المصريين القدماء ، وكانت كتاباته خالية من النظرة الاسلامية بل وحتى النظرة العربية انظر الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ١ / ٧٨

(٣) اقرأ كتاب أقوم المسالك في معرفة احوال الممالك .

وأما الفريق الثاني من تلاميذ الشيخ محمد عبده وأتباعه وأنصاره فقد اتخذوا آراءه وافكاره قواعد اساسية لاتجاهاتهم الفكرية المنحرفة . وقد ظهر من بينهم جماعة بدأوا يشنون هجوما كاسحا على الاسلام في عقيدته وشريعته وتعاليمه وينظمون ضده حملات عنيفة للتشكيك في صلاحيته وملاءمته لمقتضيات الحياة المتطورة . وقد سددوا سهامهم على الاسلام وراشقوه من كل جانب . ففي الجانب الاقتصادى تولى الهجوم على الاسلام حفنى (١) ناصف وتبعه كثير من المثقفين المستغربين . وأما الجانب الاجتماعي وبخاصة جانب وضع المرأة في المجتمع وهو مايعبرون عنه بقضية " تحرير المرأة فقد تزعم الحركة الناهضة للدين في هذا الجانب قاسم أمين (٢) بعد رفاعة الطهطاوى . وقد ناصر قاسم امين وأيد اتجاهاته وافكاره كثير من الزعماء والكتاب والادباء والصحفيين أمثال سعد زغلول ومصطفى كامل (٣) وأحمد لطفى السيد وعلى شعراوى واسماعيل مظهر (٤) وطه حسين ولطفى السيد وغيرهم . وأما الجانب السياسى و القضائى فقد تصدى لابعاد الاسلام عن الهيمنة عليه مجموعة من الكتاب " المسلمين " من أمثال عبد المتعال الصعيدى الذى حاول هدم الحدود الاسلامية الثابتة في الكتاب والسنة (٥) وعبد الله النديم الذى سعى للتقريب بين الاسلام والاشتراكية (٦) ،

---

(١) اقرأ عن افكاره واتجاهاته في كتاب " حفنى ناصف " تأليف محمود غنيم

(٢) اقرأ مؤلفاته . ومنها تحرير المرأة " و " المرأة الجديدة " وغيرهما

(٣) اغلب كتاباته بل كلها كانت في حب الوطن والحث على الدفاع عنه وهى خالية تماما من النزعة الدينية " . (راجع في ذلك احمد أنس الحجاجى في كتابه روح وريحان من حياة داع وداعية ص ٥٢) واقرأ عن اتجاهاته في كتاب " مصطفى كامل حياته وكفاحه " لاحمد رشاد . وكذلك كتاب " مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية " لعبد الرحمن الرافعى بك

(٤) اقرأ كتابه " المرأة في عصر الديمقراطية "

(٥) انظر الشيخ محمد الغزالى " من هنا نعلم " ص ١٣

(٦) انظر على المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب ص ١٨١ - ١٨٢

وعلى عبد الرزاق صاحب كتاب "الاسلام وأصول الحكم" وطه حسين الذى ألف كتابـــا بعنوان " في الشعر الجاهلى " أثار فيه الشك حول تاريخ العرب قبل الاســـلام وتطرق شكه لحقائق وردت في القرآن حيث اعتبر صلة ابراهيم الخليل بالعرب وبناءه وابنه اسماعيل للكعبة أسطورة وليست حقيقة (١) كما حاول في كتابه " مستقبل الثقافة في مصر " أن يجيب على تساؤلات المصريين عن المستقبل بعد توقيع معاهـــدة ١٩٣٦م وأكد ضرورة ادخال تعديلات في مناهج التعليم ودور الجامعة المصريـــة وغيرهما . وقد دعا الى ضرورة تعلم اللغتين اللاتينية واليونانية باعتبارهمـــا أساسا للتعليم العالى " الصحيح "، وأن يسير المصريون سير الأوربيين وأن يسلكوا طريقهم ليكونوا لهم أندادا وشركاء في الحضارة " خيرها وشرها " وحاول أن يثبت أن مصر بعيدة عن العقلية الشرقية وانها لم تتأثر بالفرس أو الرومان أو العـــرب أو الاسلام وأن العقل المصرى عقل يتأثر بالبحر الابيض المتوسط ، ودعا الى تطوير اللغة العربية " ... لتصبح ملائمة لما ظفرنا به في التعليم المدنى " وأكـــد أن الازهر لا يستطيع القيام بهذه المهمة بل يجب أن تتولاها كلية الآداب التى يجـــب أن تعتنى كذلك بالدراسات الاسلامية على نحو علمي صحيح (٢) وقد دعا صراحـــة الى الارتماء في أحضـــان الغرب وتتبع سننه في شئون الحياة العملية وبخاصـــة في مجال الحكم والتشريع والادارة ، ومما قاله في هذا الصدد: " ... بـــل نحن قد خطونا أبعد جدا مما ذكرت فالتزمنا أمام اوربا ان نذهب مذهبهـــا في الحكم ونسير سيرتها في الادارة ونسلك طريقها في التشريع ، التزمنا هـــذا كله أمام أوروبا . وهل كان امضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة الغاء الامتيـــازات

---

(١) انظر د . محمد البهى ، الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٢٠٨ ومابعدها .

(٢) انظر الاستاذ سيد قطب ، نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر ص ٥٣ - ٦٨ وكذلك د . محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصـــر ٢ / ٢١٨ - ٢٣١ . ود . محمد البهى المرجع السابق ص ١٧٨ .

الا التزاما صريحا قاطعا امام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والادارة والتشريع ،فلو هممنا الآن ان نعود أدراجنا وان نحيى النظم العتيقة لما وجدنا الى ذلك سبيلا ، ولوجدنا أمامنا عقابا لا تجتاز ولا تذلل ، عقابا نقيمها نحن لاننا حراص على التقدم والرقي ،عقابا تقيمها أوروبا لأننا عاهدناها على أن نسايرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة " (١) ومن الكتاب النصارى لويس عوض وسلامة موسى الذى عبر في عدة مقالات عن كرهه للشرق وحبه لاوربا وتمنى ان تصبح كل ظواهر المجتمع المصري كأوربا وأن يقترب الشعب المصرى والحضارة المصرية من أوربا وهاجم الرابطة الشرقية والجامعة الاسلامية مفضلا عليهما الوطنية المصرية وداعيا الى الارتماء في أحضان الغرب والتعلق بحضارته المادية ، جاء في مقدمة كتابه " اليوم والغد " : " كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضي في الادب كما أزاوله ، فهى تتلخص في انه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوربا . فاني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها . هذا هو مذهبي الذى أعمل له طول حياتي سرا وجهرة فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب " (٢)

وقد وجد هذا الرجل في نفسه الجرأة لأن يكتب (الجامعة الدينية وقاحة) عنوانا لفقرة من فقرات خاتمة كتابه ، وقال تحت هذا العنوان :" اذا كانت الرابطة الشرقية سخافة لأنها تقوم على أصل كاذب فان الرابطة الدينية وقاحة . فاننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا (٣) ".

---

(١) د . محمد محمد حسين ،الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ٢٢٣ - ٢٢٤

(٢) نفس المصدر ٢/ ٢١٢ ومابعدها

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٢١٨

والى جانب ذلك كله قام حسين مؤنس بمحاولة هدم الماضي الاسلامي المجيد في مصر وابرازه في صورة مزرية حقيرة لا قيمة له ودعا الى قطع جميع الصلات مع الشرق ونبذ الاسلام والاتجاه نحو الوطنية و " الحضارة " الفرعونية (١) . وهكذا سار الامر مع المثقفين المستغربين حتى رأينا في الآونة الأخيرة رجلا يدعى الدكتور نديم البيطار يؤلف كتابا بعنوان " من النكسة الى الثورة " شن فيه حربا شعواء على الاسلام وسخر من الجهاد الاسلامي وجاهر بحركة الحادية كما رفض الحرب ضد اسرائيل ودعا الى محاربة بعض الدولة العربية والجزيرة العربية بالذات (٢) . وهؤلاء وكثيرون من أمثالهم في انحاء البلاد الاسلامية هم نتاج كيد قوى الاستعمار ومكرها في صراعها المرير مع العالم الاسلامي . وقد بذلت في سبيل تكوين هذه الطبقة كل ماوسعها من جهد ومكر وتخطيط حتى تم صبغها بالصبغة الاوربية ورضعت لبان الفلسفات والمناهج ، والافكار الغربية اللادينية وبلغ بها الانبهار بالغرب وحضارته مبلغا فوق المتصور واصيبت بالتبعية والاستعباد واشتدت فيها روح الاستعداد الذاتي لتقبل كل ماعند الامم الغربية من دون تمييز او تمحيص ولا وعي واختيار . وقد وصف كرومر هؤلاء المثقفين بأنهم عادوا من الغرب متشبعين بروحه ويتنفسون برئته ويفكرون بعقله ويرددون في بلدهم صدى أساتذتهم المستشرقين وينشرون افكارهم ونظرياتهم في ايمان عميق وحماسة زائدة (٣) . وهؤلاء هم الذين اسند اليهم تهيئة الارضية الفكرية لتسويغ المناهج الغربية والنظم اللادينية ونشرها في المجتمعات الاسلامية . وقد بذلوا جهودا مضنية لاعداد النفسية الاسلامية لتقبل هذه المناهج والنظم والافكار على أنها هي المقومات

---

(١) اقرأ كتابه " مصر ورسالتها "

(٢) عبد الله عبد الجبار ، الغزو الفكري في العالم العربي ،ص ٨٩

(٣) ابو الحسن الندوي ، الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ص١١٩

الأساسية للحياة المتطورة الراقية التي لا تناقش فيها وجهة نظر الدين اطلاقـــا لانها خارجة عن نطاق الدين (على المفهوم الغربي الضيق) أو أن هذه المناهج والنظم والافكار - في أحسن الاحوال - مستقاة من أصول اسلامية قد اخرجتها أوربا في أثواب جديدة وصاغتها في قوالب حديثة وفق مقتضيات الحياة المتطورة .

واذا كان من بين هذه الطبقة الجديدة التي صنعتها قوى الغرب الصليبية قلة قليلة كانت مفتونة ومنبهرة بتفوق الغرب وازدهار حضارته المادية فاندفعت بدوافع نفسية ذاتية تريد الاصلاح لإنقاذ الأمة الإسلامية ورفع شأنها، ولكن هذه الفئة قد اخطأت خطأ شنيعا حين ولت وجهها شطر الغرب اللاديني تريد أن تربط عجلة الامة الاسلامية بقاطرة الامم الغربية حتى تسير سيرتها وتتجه نحو اتجاهها وتقيم شئون حياتها على الاسس والقواعد التي قامت عليها الحياة الغربية .. أقول اذا كان من بين هذه الطبقة المستعبدة للغرب من يصدر في محاولاتهم الاصلاحية الخاطئة عن مثل هذه الدوافع النفسية القابلة للجدال والنقاش فقد كان معظمهم أناسا مغرضين صرحاء وعملاء مأجورين اتخذتهم قوى الغرب الصليبي اسنادا لتنفيذ مخططاتها ومعاول لهدم كيان الامة الاسلامية وتحطيم مقومات الحياة الاسلامية .

وقد قام على أثرهم متأثرا باتجاهاتهم الفكرية زعماء سياسيون وطنيون تزعموا حركات النضال الشعبي لمقاومة قوى الاحتلال وألفوا احزابا سياسية رفعوا فيها شعارات مناهضة للدين مثل شعار " الدين لله (1) والوطن للجميع " وشعار " مصر للمصريين (2) " وشعار " سياسة المنافع لا سياسة العواطف " (3) وغير ذلك وقد شن هؤلاء الزعماء على الاسلام حربا شعواء في كل ميدان وأقصوا الشريعة

---

(1) اقرأ كتاب " سعد زغلول " لمحمد ابراهيم الجزيري

(2) راجع كتاب " الغرب والشرق الاوسط " برنارد لويس ص ١٢٢ (وقد اطلق هذا الشعار الصحفي المسيحي " سليم نقاش " وعمه اليهودي " ابونداره " وطبقه القائد " المسلم " عرابي باشا !!

(3) اقرأ كتاب " أحمد لطفي السيد " لحسين فوزي النجار.

عن مجال الحكم والقضاء وشئون الحياة الاجتماعية ومنذ تلك الفترة أصبحت الأحزاب السياسية تسير في اتجاه لاديني وتتبنى أفكارامناهضة للدين والاخلاق وتتفق جميعها في عدم رفع شعار الاسلام او الدعوة الى تحكيم الشريعة أو ادخال عنصر الدين في مجال الحياة الاجتماعية بأى شكل . وهكذا أصبح المجتمع المصرى يموج بالنظريات والمناهج والنظم الغربية اللادينية في مجال الحكم والتشريع والاقتصاد والاجتماع وكلما أخفق منهج أو نظام أبدل به آخر من طينة غربية ومن أرومة الشجرة اللادينية ، وأما الاسلام ونظامه للحياة الإنسانية في شتى مجالاتها فقد أسدل عليه الستار وأقصى تماما ليس فقط عن الحياة العملية وإنما كذلك في الناحية التصورية .

وأما في بقية البلدان الإسلامية فقد اتبعت قوى الاستعمار الصليبية خطة مماثلة لانشاء طبقة محلية جديدة في المجتمعات الإسلامية عن طريق التربية والتعليم والتوجيه ونشر الافكار الغربية والنظريات والمناهج الأوربية اللادينية . وتتزعم هذه الطبقة مجموعة من هجناء الفكر والثقافة ممن تربوا على عين رسل الاستعمار وسمعهم،فوكل اليهم أسيادهم مهمة سوق شعوبهم وراء أوربا وحضارتها في ذل وهوان وعبودية. ففي كل بلد من البلدان الإسلامية تتألف هذه الطبقة من فئتين كانت الاولى متأثرة مفتونة بالحضارة الغربية قد اثارها ماتعانيه الامة الإسلامية من التخلف والضعف والانهيار الى الارتماء في أحضان الغرب وقبول السير في اتجاهه واقتفاء آثاره.وكانت الفئة الثانية قد اختيرت واصطنعت خصيصا لمهمة العمالة لصالح دوائر الاستعمار الغربي. وكان منها المثقفون المارقون والزعماء السياسيون والقادة الوطنيون والعلماء المستغفلون الذين ساندوا قوى الاستعمار وخدموا مصالحها ومكنوا لها في بلاد المسلمين بكل ما أوتوا من قوة وسلطان وجاه وعلم حتى انتشرت مناهج الغرب وافكاره ونظرياته اللادينية وطرائق الحياة الغربية في المجتمعات الإسلامية. وقد كان هؤلاء العملاء يتسترون وراء شعارات براقة ويدعون انهم إنما يريدون للأمة الإسلامية كل الخير ويسعون إلى إصلاح حالها

ورفع الاصر والقيود والاغلال التى عاقتها عن النهوض والانطلاق حتى تستطيع اللحاق بركب الحضارة والمدنية والتقدم . ولكن كل ذلك مجرد ادعاءات جوفاء لا قيمة لها في واقع الامر ، والحق أن هؤلاء كانوا اسنادا قوية لقوى الاستعمار وكانوا أصابع مخططاتها ومكايدها . وهم الذين حملوا مهمة خدمة مصالح الاستعمار في البلدان المستعمرة فحملوها على اكتافهم يبثون النظريات والافكار الغربية ويدعون الى طرائق الحياة الاوربية حتى استطاعوا - بدعم قوى الاستعمار وتأييدها - أن يحدثوا تحولا جذريا في شئون المجتمعات الاسلامية على النحو الذى تريده القوى الاجنبية وتبذل في سبيله كل ماوسعها من جهد ومكر وكيد وتخطيط وقد استطاع هؤلاء ان يجعلوا من المجتمعات الاسلامية صورا مطابقة أو مشابهة أو قريبة من صورة المجتمعات الاوربية في شئون الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع وفي مجال الاخلاق والتقاليد والعادات . وان مثل هذا النجاح الكبير الذى حققته أوربا وحضارتها في انحاء العالم الاسلامي على أيدى العناصر المحلية من الاذناب والعملاء لم يكن ليتم على هذا النحو لو اكتفت أوربا باستخدام العناصر الخارجية لتحقيق غاياتها ولم تسع لتكوين العناصر المحلية واصطناع العملاء ، فمهما اوتيت من قوة ومكر وتخطيط فسيظل الناس ينظرون اليها على أنها قوى أجنبية معادية ، من أجل هذا رأى رسل الاستعمار أهمية انشاء العناصر المحلية الخاضعة لنفوذ الغرب والموالية لقوى الاستعمار وأكدوا ضرورة الاعتماد عليها واستغلالها لتحقيق مصالح الغرب في البلدان المستعمرة . جاء في تقرير اللورد ميكالى وهو رئيس اللجنة التعليمية في الهند سنة ١٨٣٥م : " يجب أن ننشئ جماعة تكون ترجمانا بيننا وبين ملايين من رعيتنا وستكون هذه الجماعة هندية في اللون والدم انجليزية في الذوق والرأى واللغة والتفكير . . . (١) " وقال

---

(١) ابو الحسن الندوى ، التربية الاسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الاسلامية ص ٢٨ نقلا عن كتاب تاريخ التعليم ، لميجر باسو ص ٨٠

القس زويمر : " تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم لا ن الشجرة يجب ان يقطعها احد اعضائها [1] " ويقرر المستشرق " جب " في كتابه ' وجهة الاسلام " أن التجدد والتفرنج في الشرق انما هما خاضعان لمقياس نظام التعليم الغربي ومدى سيطرته وتغلغله في المجتمع الاسلامي الشرقي ، يقول : " والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب (أوالفرنجة) هو أن نتبين الى أى حد يجرى التعليم على الأسلوب الغربى وعلى المبادىء الغربية وعلى التفكير الغربى ، والأساس الاول في كل ذلك هو أن يجرى التعليم على الاسلوب الغربى وعلى المبادىء الغربية وعلى التفكير الغربى . هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره ،وقد رأينا المراحل التى مر بها طبع التعليم بالطابع الغربى في العالم الاسلامي ومدى تأثيرعلى تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين [2] " .

" ويلاحظ " جب " أن النشاط التعليمى والثقافى (عن طريق المدارس المصرية والصحافة) قد ترك في المسلمين - من غير وعى منهم - أثرا جعلهم يبدون في مظهرهم العام لادينيين الى حد بعيد ، ثم يعقب على ذلك بقوله " وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ماتركت محاولات الغرب لحمل العالم الاسلامى على حضارته من آثار [3] . ويتساءل " جب " الى أى مدى أصبح العالم الاسلامى غربيا ؟ ويجيب على ذلك ، مستعرضا نفوذ الثقافة الغربية في العالم الاسلامى بلدا بلدا فيقول " أن تركيا قد انقلبت الى بلد غربى كأعنف مايكون الانقلاب وأما في شبه الجزيرة العربية فان النفوذ الغربى لم يستطع أن يضع قدمه بعد ، وفي شمال افريقيا بدأت حركة التغريب وهى ماضية في طريقها وان كان أثرها أبرز فى تونس. أما فى مصر فهى تتطور في هدوء بعيد عن العنف ، ولكنها تتقدم تقدما واضحا

---

(١) الغارة على العالم الاسلامى ص ٨٠

(٢) عن الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر . محمد محمد حسين ٢ / ٢٠٧ - ٢٠٨

(٣) نفس المصدر ٢ / ٢٠٩

في هذا الطريق . أما العراق وسوريا فهى تتبع خطوات مصر ، بينما تتبع ايران خطوات تركيا ، وان كانت أكثر منها اعتدالا وتوسطا ، أما افغانستان فقد تراجعت في هذا السبيل بعد تجربة الملك أمان الله خان التى فقد فيها عرشه. ويمضى المؤلف على هذا النحو في تتبع ماأحدثت الحضارة الغربية من آثار بين المسلمين في روسيا السوفيتية وفي الهند وفي اندونيسيا وفي افريقيا،ويخلص من ذلك الى ان نجاح التطور يتوقف الى حد بعيد على القادة والزعماء في العالم الاسلامي وعلى الشباب منهم خاصة ثم يقول : ومن ثم نستطيع أن نقول - حسب سير الامور الآن - ان العالم الاسلامي سيصبح خلال فترة قصيرة لادينيا في كل مظاهر حياته مالم يطرأ على الامور عوامل ليست في الحسبان فتغير اتجاه التيار [1] ".

---

(١) عن الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر، د . محمد محمد حسين ، ٢١٠/٢



الباب الثالث

ردود الفعل للغزو الأجنبي
وظهور حركات البعث الإسلامي
لإصلاح حالة الانحطاط التي
تعاني منها الأمة الإسلامية .

الباب الثالث

- تمهيد :

ردود الفعل لمقاومة الغزو الأجنبي المتسلط

منذ القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي كانت الأمة الاسلامية تخوض غمار حرب ضارية تعتبر معركة مصير تفوق في حدتها وشراستها الحروب الصليبية الأولى لأن الاعداء المتربصين قد تصدوا للاسلام وناصبوا المسلمين العداء في جميع الجبهات ،وقد اتسعت ساحة المعركة فشملت كافة المجالات العسكرية والفكرية والسياسية والتشريعية والاجتماعية والاقتصادية وماإلى ذلك .

ان المجتمع الاسلامي منذ أكثر من قرنين من الزمن قد تعرض لأخطار جسام وتحديات شرسة مختلفة لو تعرض لمثلها مجتمع آخر من المجتمعات البشرية التي قامت على غير هدى الله ومنهجه لعفى أثره وانطوى ذكره ولم يبق له في واقع الحياة وجود .

حقا ان صدمة زحف الاستعمار الصليبي في الحروب الصليبية الحديثة لم تكن من قبيل صدمة الحروب الصليبية الأولى عند المسلمين ، ففي الحروب الأولى كان المسلمون - رغم ماكانوا يعانونه من الضعف والتخلف والانحطاط - على مستوى من الدين والأخلاق جعلهم يفوقون أعداءهم معنويا وماديا ، وقد كانوا ينظرون الى أنفسهم على انهم الاعلون وأن الصليبيين في حضيض الجهل والكفر فلذلك لم ير المسلمون في أحوال اعدائهم مايغبطونهم عليه ولم يروا انهم مفتقرون الى اقتباس شيء من طرائق حياتهم فهم يترفعون عن الحالة السيئة التي كان عليها الصليبيون ويحسبونها من التخلف والهمجية . وهكذا خرج المسلمون من الحروب الصليبية الأولى بقوة ايمانهم وتمسكهم بدينهم منتصرين على اعدائهم مالكين لبلادهم رادين للمغيرين عليها . وأما صدمة زحف الاستعمار الصليبي الحديث عند المسلمين

فلم تكن بالصدمة العابرة التي تمر في ساعتها ولا تترك بعدها عبرة للمعتبر ولا أثـــرا للمتأثر بل كانت صدمة عنيفة ماثلة أمام كل نظر ، صدمة ملحة في كل حين متجـــددة في كل جهة معاودة على نحو واحد في جميع الاقطار وعلى اختلاف التجارب والاحداث (١) . ولكن الهزائم المتعاقبة التي منيت بها الأمة الاسلامية فـــي الحروب الصليبية الحديثة قد أعقبتها ردود فعل متعددة في أرجاء العالم الاسلامي قبل أن ينقضي على زحف الاستعمار المدمر جيل واحد ، وفي ذلك دلالة واضحـــة على عمق الأثر الذى تركته ضربات الاستعمار في أرجاء العالم الاسلامي ، وأن الأمـــة الاسلامية لم تزل بنية حية - رغم ما أصابها من التدهور والانحطاط بسبب انحرافها عن جادة الاسلام - فقد تنبهت للخطر المحدق وأحست بنقصها في مقومـــات الحياة وعدد الكفاح . ولقد بقيت فيها بقية من الدين توحي اليها انها ليست ضائعة هالكة ، بقيت لها بقية من الايمان بدينها جعلتها تؤمن أن هناك خطـــأ ما كان سبب الضياع والانهيار وان ذلك حالة لا يمكن أن تدوم وانها قمينـــة أن تغير هذه الحالة لو بدأت بتغيير مافي نفسها واستقامت على الحق وأن اللـــه تعالى يريد منها هذا التغيير ويعينها عليه اذا رأى منها الاستعداد الحقيقـــي والعزم الصادق .

وقبل الزحف الاستعماري الاوربي الذى طالما كان يتربص بهذه الأمـــة الدوائر ويترقب فرصة الانقضاض على العالم الاسلامي للقضاء على سلطان الاسلام وتقويض صرحه العالي وكسر شوكته وتمزيق قوته شر ممزق كان العالم الاسلامي قـــد وصل الى حالة سيئة من الانحطاط والتدني والتدهور بسبب سلسلة الانحرافـــات التصورية والسلوكية التي يعاني منها المسلمون والتي بلغت مداها في أواخر العهـــد العثماني فاجتاحت العالم الاسلامي خلال هذه الفترة موجة عاتية من الجمود والركـود

---

(١) انظر "الاسلام في القرن العشرين حاضره ومستقبله" ، عباس محمود العقاد ، ص ١١٧ .

والضعف والتخلف والجهل شملت كافة مجالات الحياة الاسلامية فأثرت في مجـال العقيدة والتصورات ومجال العبادات والشعائر ومجال السلوك والاخلاق ومجـال تطبيق الشريعة ونظام الحكم ومجال العلوم النظرية والتطبيقية ومجال القوة الحربية على النحو الذى تقدم الحديث عنه مفصلا في الفصول السابقة .

ولكن الأمة الاسلامية قد احتملت هذه العوامل الداخلية الذاتية الـتـي تعرضت لها عبر قرون الانحطاط والضياع والانحراف واحتملت تلك الصدمـات العنيفة والهزات المدمرة التى أصابتها من الغزو الأجنبى المخطط والكيـد الصليبى المدبر دون أن تودى هذه العوامل الداخلية والخارجية بحياة هـذه الأمة وتسلمها للفناء والهلاك . ولئن كانت حال المجتمع الاسلامي فى القـرون الثلاثة الأخيرة تشبه حال الامبراطوريتين العظيمتين الرومانية والفارسية فى أواخـر حياتهما حيث كان مهددا من الخارج من القوى الصليبية الحاقدة في الوقـت الذى كان يعانى من الانهيار الداخلى والاضمحلال والذبول فقد خرج من محنتـه ونكبته منهكا راكدا ضعيفا هزيلا الا أن الله تعالى لم يرد زوال هذه الأمـة وفناءها ، وقد شاءت ارادته تعالى أن تصحو هذه الأمة من رقادها الطويـل وأن تعود اليها القوة والحيوية ، فهيأ لها الفرصة لقيام حركات البعث الاسلامـي التى تنير للأمة طريقها من جديد وتجدد لها أمر دينها ، وتقوم بالدعوة الى العودة الى الاسلام الصحيح في صفائه ونقائه وبساطته . وهذه الحركات الاسلاميـة التى قامت في أرجاء العالم الاسلامى منذ أواخر القرن الثانى عشر الهجرى حـتى القرن الرابع عشر (منتصف القرن الثامن عشر الميلادى حتى القرن العشريـن) ان هى الا محاولات جادة من رجال الفكر والدعوة والاصلاح لايقاظ الأمة مـن غفلتها واصلاح حالها المتردية ودعوتها الى استئناف الحياة السعيدة المبنيـة على أساس منهج الله القويم وهديه الرشيد لتعود الى المسلمين العزة والسيادة والريادة التى ضاعت من أيديهم عبر قرون الانحطاط والتخلف . ومنذ ان انطلقت من قلب الجزيرة العربية دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب تجاوبت أصداؤهـا

في أرجاء العالم الاسلامي فقامت حركات بعث ودعوات اصلاح متعددة في مختلف الأقطار الاسلامية خلال القرنين الأخيرين (١) جمعت قلوب المؤمنين على الدين الحنيف وطهرتها من البدع والخرافات وأدران الجهل والشرك ونفخت في المسلمين روح الجهاد في سبيل الذود عن حمى الدين وسد الثغرات وحماية الجبهات وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : " ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها ." (٢)

وأحب أن أقرر حقيقة في هذا الصدد وهي أن من الخطأ الفادح أن ينظر الناس الى آثار الانحراف المطرد والجهل المتفشي في المجتمعات الاسلامية والبدع والخرافات المنتشرة بين العامة وبعض الخاصة والى نجاح المكايد الصليبية في شتى المجالات وانتشار مذاهب الغرب وأفكاره اللادينية وطرائق الحياة الغربية المنحرفة في المجتمعات الاسلامية ... من الخطأ أن ينظر الناس الى ذلك كله فيحسبوا أن العلل والأدواء قد أعيت الاطباء وأن العدو قد استفحل خطره واستعصى على المقاومة والتغيير حيث ان حركات البعث الاسلامي لم تفلح في القضاء على الانحراف المطرد والجهل المتفشي وخطر العدو الخارجي المستشري في كيان الأمة وشره المستطير. كلا ان هذه الحركات قد عملت جاهدة لاسترداد قوة الأمة وعزتها وان لم تبلغ غايتها بعد فانها مصممة على بلوغها مهما يكلفها ذلك من جهود وتضحيات وقد استطاعت ان تحقق بعض أهدافها وأن تنجح في بعض الميادين حيث وقفت سريان الأدواء قليلا ومشت بالعليل خطوات في سبيل النقاهة كما تصدت لهجوم العدو وقاومت شروره وكشفت مافي مذاهبه وأفكاره ومناهجه من زيغ وضلال وكفر ولم يكن بامكانها في مثل هذه الظروف الحرجة أن تحقق اكثر من ذلك لتمتد الأدواء وتشعب آثارها وتفاقم

---

(١) راجع د . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، حركة التجديد الاسلامي في العالم العربي الحديث ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) أخرجه أبوداود في كتاب الملاحم ، باب ماذكر في قرن المائة ٤/ ١٠٩ عن أبي هريرة .

الأخطار وعظم كيد الاعداء وشدة وطأتهم وتنوع اساليب المكر والخداع التى يستخدمونها في سبيل الوقيعة بهذه الأمة وتقويض بنائها من أساسه وانهاء وجود الاسلام من الأرض(١).

ولقد تمثلت ردود الفعل لاصلاح حالة التدهور والانحطاط في المجتمع الاسلامى ومواجهة خطر الغزو الاجنبى في اتجاهات ثلاثة رئيسية سنتولى الحديث عنها في هذا الصدد بايجاز :

أولا : الاتجاه الذى اعتنق الفلسفة التى قامت عليها الحضارة الغربية ودعا الى الارتماء في احضان الغرب والأخذ بمناهج الحياة الأوربية فى كل مجالات الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وفي سياسة التعليم والثقافة والفن والتقاليد والعادات . وتمثل هذا الاتجاه الطبقة المثقفه ثقافة غربية والقادة السياسيون والزعماء الوطنيون وفريق من المفكرين والادباء وأهل الفن الذين تأثروا بتيارات الحضارة الغربية المادية التى غزت المجتمع الاسلامى ، وانساقوا وراءها ، وخضعوا للتوجيهات المغرضة الهدامة التى قام بها الحكم الأجنبى في ديار الاسلام من أجل الكيد للاسلام وتشويه حقيقته وتقويض سلطانه . وقد علمهم أساتذتهم المبشرون والمستشرقون وزعماء المستعمرين أن الدين الاسلامى هو الذى قضى على أهله بالتأخر والتخلف بسبب دعوة المسلمين الى الامتثال والخضوع لأوامره واجتناب نواهيه التى لم تعد مواكبة للمجتمعات الانسانية الراقية في عصرنا الحاضر فهو يصرفهم الى العبادة ويحملهم على الاتصاف بالقناعة والرضا بالمكتوب ويحذرهم من المغامرة ويقعد بهم عن الاخذ بوسائل التقدم التى أصبحت ضربة لازب في المجتمعات الحضارية اليوم. وقد تأثر هذا الاتجاه بهذه المزاعم الباطلة حتى رأى الا استقامة في الحياة العملية الا بأحد ثلاثة : بنبذ الدين الذى لم يعد صالحا في نظره لحكم الحياة العملية وتوجيهها والهيمنة عليها

---

(١) انظر كيف نفهم الاسلام ، محمد الغزالى ، ص ٦ - ٧ .

أو بفهم هذا الدين فهما آخر غير الفهم الذى عليه الأولون باعتبار الدين مسألـة شخصية بين الانسان وربه أو بالصدع بوجوب فصل الدين عن الدنيا وقطع علاقـة الدين بشئون الحياة العامة (١) . ومن هذا الفريق الميم شطر الغرب مـن انخلع من الماضى البعيد والقريب ومن الاسلام سواء في صورته الصافية الأصيلـة أو صورته المشوهة الهزيلة التى آل اليها في قرون الانحطاط . ومن هؤلاء أيضـا الساعون الى المزاوجة بين الاسلام والحضارة الاوربية المتفوقة . وقد تقدم حديـث مستفيض عن هذا الفريق الذى جرفته موجة التغريب وليس القصد من الحديـث عنه هنا سوى التسجيل لوجوده وكونه يمثل اتجاها معينا من الاتجاهات الـتى تمثلت فيها ردود الفعل لمقاومة الغزو الأجنبى "ورفع مستوى" الأمة "واصلاح" حالهـا وخاصة في الفترات الزمنية الممتدة بين قيام الحكم الاستعمارى وانتصاب أنظمـة الغرب ومناهج حياته في ديار الاسلام وبين فترة الانتفاضات والتحركات التحريريـة التى تحاول أن تعيد الى الامة عزتها وسيادتها . وقد نشأ هذا الفريق اثنـاء الاحتلال الغربي للبلدان الاسلامية وتوغل المدنيات الأوربية فيها ومحاولـة الغرب وسعيه الحثيث لتغيير شئون الحياة العملية في المجتمع الاسلامى . وقـد تم تكوين هذا الفريق بعناية فائقة وخطط مدروسة محكمة ثم فعلت فيه مؤثـرات الحضارة الغربية فعلها فأصبح ينظر الى هذه الحضارة المادية الجديـدة على أنها القوة والحيوية والحركة والانطلاق نحو التقدم والتطور والازدهـار ، في الوقت الذى بدا لديه ماتعانيه الحضارة الاسلامية من جمود وركود وضعف وتخلف وهكذا تولدت عنده عقدة الشعور بالنقص الذاتى وعقدة اليأس من استقامة القيـم الدينية لبناء حضارة انسانية راقية ، وبخاصة فقد رأى هذا الفريق ان المدرسـة الفكرية القائمة فى مختلف البلدان الاسلامية في قرون الانحطاط كانت عاجـزة عن مواجهة ظروف الحياة المستجدة وتوفير متطلبات احوالها المتطورة وذلـك

---

(١) انظر مواقف الاسلام ، محمد الحبيب ابن الخوجة ص ٩٤ - ٩٥

بالاضافة الى مايمثله العلماء والفقهاء ورجال الفكر المسلمون من الجمود والتزمت والتخلف واتخاذهم موقف الرفض والاستنكار تجاه تيار التقدم والتطور المادى .
وهكذا نرى أن الاحداث الفكرية والاجتماعية العامة التى كانت تجرى فى هذه الفترة على الصعيد الداخلى والخارجى هى التى مهدت الطريق لظهور هذا الفريق وبروز دوره في شئون المجتمع ولكنه يزداد يوما بعد يوم بُعْداً عن قيمه الروحية والأخلاقية الأصيلة ليسارع الخطى في الاتجاه الذى اختاره له سادته الغربيون في طريق المادية واللادينية .

ثانيا : الاتجاه الذى يدعو الى التمسك بالاسلام في صورته المشوهة الممسوخة التى امتزج فيها الاصيل بالدخيل والسليم بالعليل والخالص بالمشوب ،وأثرت فيها آفات الجمود والركود والانحراف عن حقيقة الاسلام ومفهومه الصحيح الشامل .
ويمثل هذا الاتجاه موقف الجمود والتحجر والانحطاط الفكرى والتخلف العلمى حيث يرفض كل ماوصل اليه الغرب في مجال التقدم المادى ويعتبره كفرا وضلالا بصرف النظر عما يحققه للبشرية من المنافع . ولو أنه اكتفى برفض المفاهيم الخاطئه والانحرافات الفكرية والخلقية التى صاحبت التقدم العلمى فى أوربا لما كان عليه لوم في ذلك فان هذه الانحرافات اللادينية كانت قمينة بالفعل أن يرفضها كل مسلم يؤمن بهذا الدين ، ولكن جمود أصحاب هذا الاتجاه جاء من حرصهم على صورة من الحياة لا تمثل حقيقة الاسلام من جهة ، ورفضهم للتقدم العلمى في ذاته من جهة أخرى ، فلا هم حققوا الصورة الاسلامية الحقيقية ولا هم أباحوا الاستفادة من ثمار التقدم العلمى . وهكذا اتخذ هذا الفريق موقف التزمت والجهل بأمور الحياة المادية والرفض والاستنكار لتيار التقدم والتحضر ،وتقاعس عن الأخذ بأساليب الحياة الحديثة ودراسة العلوم الطبيعية والتجريبية والاستفادة من انجازات العلم الحديث ،بل وصل به الجهل والانحراف الى اعتبار ذلك كله مخالفا لروح الاسلام متنافيا مع قيمه ومبادئه ، وقد انعزل هذا الفريق بعيدا عن التفاعل مع مجرى الحياة المتدفقة بالحيوية والحركة ولم يحاول التأثير فيه وذلك بسبب مانال

روحه الديني من شلل يمنعه من النهوض بعد الكبوة ومن الانطلاق بعد الجمود .
ولو بحثت عما باعد بين هذا الفريق وحقيقة الاسلام وصورته الناصعة ومفهومه الصحيح الشامل لم تجد شيئا سوى انه ورث صورة الاسلام المشوهة التي نسجتها آثار الجهل والجمود والانحراف منذ عصور الانحطاط وتمخضت عنها الاتجاهات الفكرية المنحرفة التي عكست احوال المجتمع الاسلامي في النواحي الثقافية والاجتماعية والسياسية . وهكذا نرى العلماء والفقهاء ، ورجال الفكر الذين يمثلون هذا الاتجاه وبخاصة في القرنين الأخيرين قد اخذوا هذه الصورة الهزيلة الموروثة وعكفوا عليها وألزموا أنفسهم عدم الخروج عن حدودها اذ انها - في نظرهم - هي الصورة الاصيلة للاسلام وماخرج عن اطارها لا يمت بصلة الى الدين الحق .

وقد كان هؤلاء من الجمود والتزمت بحيث لا ينفع معهم أى محاولة لردهم الى الحق وتغيير موقفهم المتصلب وتخليصهم مما رسخ في أذهانهم من مغالطات وما علق بتفكيرهم من أخطاء وسخافات .

ولقد كان لهذا الفريق وجود ثابت قبل الغزو الاجنبي وتوغل الحضارة الاوربية في المجتمع الاسلامي ولكن لم يبرز هذا الوجود في شكل موقف فكرى محدد يحاول ان يمكن لنفسه ويدافع عن وجوده ويصارع من أجل البقاء الا بعد ظهور مؤشرات الحضارة الغربية في شتى مجالات الحياة وظهور تيار للفكر الغربي يوجه هجومه العنيف الى الفكر "الاسلامي" الراكد الذى خلفته عصور الانحطاط كما ينقد مايمثله هذا الفكر الراكد الخافت من اتجاهات وافكار ونظم وتقاليد وأوضاع اجتماعية ومايستند اليه من قيم روحية واخلاقية . وهكذا انبرى أصحاب هذا الاتجاه الثاني من العلماء والفقهاء ليشكلوا موقفا فكريا معاكسا يرفض كل ماتوصل اليه الفكر الغربي من النهضة العلمية وقوة الابداع المادى ويستنكر ذلك كله على أساس انه مخالف للاسلام وقيمه وروحه . وقد تحدثت فيما سبق عن سلسلة الانحرافات التصورية والسلوكية التي تفشت في المجتمع الاسلامي منذ عصور الانحطاط ، ومن حمأة هذه

الانحرافات والافات استقى هذا الفريق أصول أفكاره واتجاهاته الخاطئة التى نسبها الى الاسلام .

ثالثا : الاتجاه الذى تمثل فى حركات البعث الاسلامى التى قامت في المجتمع الاسلامى لاصلاح حالته المتدهورة ورفع مستوى الامة ومواجهة الغزو الفكرى الأوربى . ولقد دعت هذه الحركات الاصلاحية المسلمين الى الرجوع الى حقيقة الاسلام ومفهومه الصحيح الشامل بمبادئه الاساسية وقيمه الاصيلة المستقاة من كتاب الله العزيز والسنة النبوية المطهرة . كما دعت أيضا الى اخذ التصور الاسلامى الصحيح عن الكون والحياة والتقدم في النواحى المادية من هذه الحياة من هذين المصدرين الأصيلين ، واختبار مواقف المسلمين الفكرية واتجاهاتهم المستحدثة وقياسها على هذين المصدرين وفهم السلف الصالح لما ورد فيهما من الأصول والقواعد الكلية .

وقد أوضح هذا الاتجاه ان الدين الاسلامى منهج الله المتكامل الشامل لشئون الحياة البشرية فهو يوجه الانسان الى العمل في الدنيا على اعتبارها طريق الآخرة ، ويحضه على طلب العلم والبحث عن كل مايعينه في اصلاح شئون حياته في جميع جوانبها كمايوجهه الى عمارة الأرض واستكناه الاسرار الطبيعية التى اودعها الله في هذا الكون الفسيح ، ويؤكد له أن اى نشاط يقوم به في الحياة يكون عبادة الله تعالى مادام يصدر فيه عن أمر الله ويلتزم فيه هدى الله وتوجيهه ويتوجه بعمله الى الله تعالى . وقد كشف هذا الاتجاه عن الصورة الاصيلة للاسلام مبينا مافى الاتجاهات الفكرية الشائعة بين المسلمين من زيغ وخطأ وانحراف وماترتب على هذه الافكار الخاطئة من آثار سيئة ظهرت في أحوال المجتمع الاسلامى ، فأصبح هذا المجتمع خامدا خافتا بعد حيوية واشراق ، مضطربا حائرا بعد أمن واستقرار ، ضعيفا متخلفا بعد قوة وتقدم وازدهار ، وفى سبيل الاصلاح والبناء دعا هذا الفريق الى العودة الى الاسلام فى مفهومه الصحيح وفهم أصوله ومبادئه وقيمه الروحية وأسسه الحضارية في آفاقها الواسعة ، والقيام بالعمل الجاد المثمر

لاسترجاع العزة والمجد للامة الاسلامية وتحقيق وسائل النهضة في المجتمع المسلم حتى يكون قادرا على مواكبة تيار التطور والتقدم ، والتفاعل معه ثم السير به نحو الاتجاه السليم الذى يحقق للبشرية الخير والسعادة ، ويجنبها المهالك والدمار ، ويضمن سير أمور الحياة في توازن وتناسب .

وسنعرض للحديث عن حركات البعث الاسلامي التى تمثل هذا الاتجاه الاخير فى ضوء ماتقدم في هذا البحث من دراسة عناصر القوة والرفعة وأسباب الضعف والهبوط في حياة الأمة الاسلامية وماتعرضت له خلال القرنين الاخيرين من الخطر الصليبى المدمر والكيد الصهيوني المخطط وقيام هذه الحركات لاصلاح حال هذه الامة ورد اعتبارها وبعثها من جديد لتتبوأ المكانة اللائقة بها في قيادة البشرية وريادتها .

وحركات البعث الاسلامى البارزة التى قامت خلال القرن الثالث عشر الهجرى هى دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب[1] فى نجد والحجاز ودعوة الامام محمد بن على السنوسى الكبير فى ليبيا وحركة الامام محمد احمد بن عبد الله المهدى فى السودان .
واما حركات البعث الاسلامى المعاصرة فأبرزها حركة الاخوان المسلمين بمصر وحركة الجماعة الاسلامية بباكستان والحركات الاسلامية الاخرى فى تركيا وايران واندونيسيا .

• •

---

(١) قامت دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب منذ النصف الاول من القرن الثاني عشر الهجرى .

الباب الثالث

الفصل الاول : حركات البعث الاسلامي في القرن الثالث الهجري

- المبحث الاول : دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب .
- المبحث الثاني : دعوة الامام محمد بن علي السنوسي الكبير .
- المبحث الثالث : حركة الامام محمد أحمد بن عبد الله المهدي

....

الفصل الاول : حركات البعث الاسلامي في القرن الثالث عشر الهجرى

المبحث الاول : دعوة الامام محمد بن عبد الوهـــاب

حين قامت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في النصف الأول من القـــرن الثاني عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) كان العالم الاسلامي يعاني اضمحلالا يشمل جميع نواحي الحياة الاسلامية . ولم يكن لدى القوى المحلية الموجهة مـــن الوعي الصحيح ماتستطيع به أن تقوم بتوجيه المجتمع المسلم نحو مثله العليا وحفـظ مقومات حياته واصلاح ماظهر فيه من أنواع الفساد ، فقد انهارت هذه القـــوى الموجهة ولم تملك ما تحافظ به على تماسك المجتمع غير التعلق بالتقاليد والعادات البالية والمعتقدات الباطلة وجمع قلوب الناس على البدع والخرافات فتعرضـت الأمة الاسلامية للانحراف العقيدى والشلل الفكرى والجمود العقلي والتخلف العلمي والثقافي ومايتبع ذلك من الاضمحلال السياسي والضعف العسكرى والفساد الاخلاقي والركود الاقتصادى .(١)

ولقد بلغت حال الأمة الاسلامية في هذه الفترة مبلغها من السوء والانهيار، واستحوذ على الدولة العثمانية - زعيمة العالم الاسلامي - الضعف والوهـــن والفتور وظلت ترتع في حمأة الجهل والجمود لا تقوى على اصلاح الفساد الداخلـي ومواجهة الاخطار الخارجية الماحقة . وعندما صدع الامام محمد بن عبد الوهـاب بدعوته الاصلاحية وأخذ يجمع الناس حوله ويدعوهم الى العودة الى دين اللـــه الخالص والتمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والتزام نهج السلـــف الصالح من هذه الأمة ، كانت الدولة العثمانية تستثار ضد هذه الحركة من قبـــل أعداء الدين من اليهود والنصارى وكذلك بعض خصوم الدعوة من الزعماء المحليين الذين أثاروا الدعايات الكاذبة والاشاعات الباطلة ضد هذه الحركة ، ومازالـــوا

---

(١) اقرأ كتاب حاضر العالم الاسلامي ، للكاتب الامريكي ستودارد ،لوثروب . ترجمة عجاج نويهض، تعليق الامير شكيب ارسلان الفصل الأول عن" اليقظة الاسلامية" في القرن الثامن عشر الميلادى (الثاني عشر الهجرى) ١/ ٢٥٩ - ٢٧٧ .

يستفزون الدولة العثمانية بأساليب المكر والخداع حتى أوغروا صدرها على دعـوة الامام محمد بن عبد الوهاب وبخاصة بعد تعضيد الأمير محمد بن سعود للدعـوة وتحولها الى حركة جهادية تدعمها قوة سياسية وعسكرية مكنتها من الامتـداد والتوسع وبسط النفوذ في أرجاء شبه الجزيرة العربية . فقد صورت هذه القـوة الاسلامية الفتية للباب العالى على أنها جماعة ضالة خارجة من الدين داعيـة الى بدعة منكرة وأنها حركة تحد سافر ضد سلطته السياسية ومكانته الروحيـة في العالم الاسلامي فكانت نتيجة ذلك أن أبدى الباب العالى سخطه واستيـاءه لهذه الحركة وعمل كل ماوسعه لتحطيم قوتها . ولكن الدولة العثمانية مالبثـت أن شعرت بما نادى به الامام محمد بن عبد الوهاب من حاجة المجتمع المسلـم الى الاصلاح والتعمير وواجب المسلمين في القيام بذلك ، غير أنها لم تحـس بضرورة هذا الأمر الا فى اواخر القرن الثاني عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) حين شددت عليها القوى الصليبية هجماتها الشرسة وألحقت بها هزائم متلاحقـة فظهر لها من أمرها مالم تكن تعلمه من قبل أو كانت غافلة عنه ، ولكن سلاطيـن آل عثمان قد أخطأوا في تشخيص الأمراض التى يعانى منها المجتمع المسلـم ومن ثم أخطأوا في تقدير الدواء الناجع ، فقد ظنوا أن أسباب ضعف هـذا المجتمع وتخلفه انما هى في مجال التنظيمات فاتجهوا الى الأخذ بأساليب العلـم التطبيقي الأوربى وطرائق التنظيم الغربى وبخاصة في المجال العسكرى والنشاط الاقتصادى والتنظيمات الادارية ، وقد اتسعت حركة الاصلاحات التنظيمية فـي الدولة العثمانية خلال القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) فشملـت مجالات الحياة المتعددة ومن بينها التنظيم الحربى والادارى ومجال التعليـم والثقافة . واذا كان صحيحا أن المجتمع المسلم في تلك الفترة كان بحاجـة ملحة الى الاصلاحات التنظيمية فقد كان قبل ذلك أحوج مايكون الى الاصلاحـات التصورية والعقيدية التى تبنى على أساسها شئون الحياة الانسانية كلها وهـذا مادعا اليه الامام محمد بن عبد الوهاب .

وتعتبر حركة الامام محمد بن عبد الوهاب أول حركة اصلاحية سلفية قامت في العالم الاسلامي خلال عصور الركود والانحطاط ، وهي حركة اصلاحية واجهت الاضمحلال الذاتي والفساد الداخلي الذي يعانيه المجتمع المسلم . ولم تكن رد فعل لخطر الغزو الاجنبي فقد نشأت في أبعد البلدان الاسلامية عن الاحتكاك بالغرب وعن المؤثرات الخارجية" كما أن الجزيرة العربية لم تكن في تلك الفترة معرضة للخطر الاوربي المباشر " ولكن حين اشتد ساعد هذه الحركة وصلب عودها ومكن لها في الأرض وقامت لها دولة بسطت سلطانها في أنحاء الجزيرة العربية أصبحت هذه الحركة مبعث الخوف والقلق في قلب أوربا الصليبية ، فلم تكن تنظر اليها باعتبارها حركة محلية تهدف الى اصلاح الاوضاع المتدهورة القائمة في العالم الاسلامي فحسب بل كانت فوق ذلك تنظر اليها على أنها حركة ثورية خطيرة كان من الممكن أن تجدد حيوية الاسلام وتبعث في المسلمين القوة والحركة والانطلاق ، وفي هذه الحالة لم تكن أوربا عدو الاسلام اللدود لتترك العالم الاسلامي لتتفاعل قواه الذاتية" وتتحرك الحيوية المكونة" فيه نحو البناء والتعمير ، فخططت لتحطيم هذه القوى وخنق هذه الحيوية لتتمكن من اخضاع الكتلة المسلمة للتيارات الفكرية اللادينية الكاسحة والمذاهب المادية الماحقة وسوق المسلمين وراءها بقوة السلاح وأساليب الكيد والمكر أذلاء صاغرين بعد تحطيم سلطانهم وتحويل مقومات حياتهم في حروب صليبية جديدة .

ولقد رأى الامام محمد بن عبد الوهاب أن سبب سوء حال المجتمع المسلم وانهيار قوته وتهدم اركان بنائه وماتلا ذلك من الهزائم والمصائب التي أصيب بها المسلمون هو بعدهم وانحرافهم عن حقيقة الدين الاسلامي وتشويههم لمفهومه الصحيح (١) . وقد ظهر ذلك للامام من خلال اتصالاته وتنقلاته الكثيرة في

---

(١) راجع أحمد أمين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، ص ٧ - ٢٢

مختلف البلدان الاسلامية حيث وقف على ماكان عليه معظم المسلمين من الانحراف العقيدى متمثلا في الاتجاهات العقدية المنحرفة التى تتجاذب أفكار الناس وتفرقهم شيعا واحزابا وتنشر بينهم انواع البدع والخرافات والشركيات والعادات الفاسدة(٢). وكذلك رأى الامام مايعانيه المجتمع المسلم من الجمود الفكرى والضعف العلمى ومانكب به المسلمون من جراء قفل باب الاجتهاد وانتهاج العلماء طريقة التقليد وما رافق ذلك من التعصبات المذهبية والانقسامات الطائفية ومعاداة أتباع المذاهب بعضهم بعضا،وكذلك ماكان من الاضمحلال السياسى والفوضى الاجتماعية بسبب ضعف الامامة الاسلامية القائمة وتفكك الوحدة السياسية للأمة الاسلامية واعتماد سلاطين آل عثمان وحكام الولايات وأمراء الاقاليم على العادات والتقاليد والأهواء في تصريف أمور المسلمين اكثر من اعتمادهم على أحكام الشريعة وتعاليم الدين الاسلامى وتوجيهاته . وقد أعلن الامام محمد بن عبد الوهاب أن المجتمع المسلم خليق أن يستعيد قوته وعزته بالعودة الى الدين في حقيقته وجوهره وفي شموله واتساع أسسه ومبادئه لجميع شئون الحياة الانسانية . كما فهمه السلف الصالح ، وبازالة ماعلق بهذا الدين عبر القرون من الانحرافات التى طمست معالمه المميزة وحولته الى ركام وأخلاط من العقائد الباطلة والعادات الفاسدة والبدع والخرافات المستحدثة ، وكذلك باصلاح الاحوال الفاسدة التى تخيم على المجتمع المسلم وأدت بالمسلمين الى فقدان عناصر قوتهم ومقومات حياتهم ومميزاتهم الحقيقية .

---

(١) انظر الشيخ أحمد بن حجر آل ابو طامى آل بن على ، في كتابه الشيخ محمد ابن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الاصلاحية"،ص ١٨ - ٢٠ ، فقد ذكر فيه أن في نجد كثيرا من القبور تنسب الى بعض الصحابة وبعض الاشجار والغيران كان الناس يؤمونها ويستغيثون بها لدفع كروبهم ويسألونها حاجاتهم ومنها كرقبر زيد بن الخطاب في الجبيلة وقبر ضرار بن الأزور في شعب غبيراء وفحل النخل في بلدة المفنوحة،والغار الذى في الدرعية وكذلك قبور الصحابة وأهل البيت وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحجاز.

وتتلخص دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب في الأمور الرئيسية التالية :-

أولا : بيان حقيقة توحيد الألوهية وخصائصها وصفاتها ، وحقوق الله تعالى على العبيد،وما ينبغي له من الاجلال والتعظيم والتنزيه . وقد دعا الامام الى تحقيق توحيد الله تعالى فى ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، وافراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة دون شريك وعبادته بما شرع. فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال . فعبادة الله هي طاعته بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه . وقد أنكر الامام ما تسرب الى أذهان المسلمين في مسائل العقيدة من التصورات الباطلة ومظاهرها فى شئون حياتهم العملية من الشركيات والبدع والخرافات كالاعتقادات الباطلة فى الأولياء (١) والصالحين الأحياء والاموات والمغالاة فى حقهم فى التعظيم والاجلال ودعائهم لقضاء الحاجات وتفريج الكربات،والبناء على قبورهم وكسوتها واسراجها والعبادة عندها والتمسح بها والطواف حولها وكذلك التوسل والاستغاثة والحلف والذبح والنذر لغير الله تعالى ، ولبس الحلقة والودعة والخيط لرفع البلاء أو دفعه واتخاذ الرقى والتمائم للوقاية والتبرك بالأشجار والاحجار والغيران . وكذلك انكر الامام الكهانة والعيافة والتطير والتنجيم وفنون السحر ، وبين أن هذه الأمور وأمثالها من مظاهر الانحراف في تصور حقيقة التوحيد وتحقيق مدلوله الواضح . والى جانب ذلك هاجم الامام الفلاسفة والفرق المنحرفة كالقدرية

---

(١) كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى يقر بكرامات الاولياء ويعترف لهم بالحق وأنهم على هدى من ربهم مهما ساروا على الطريقة الشرعية، ولكنه يؤكد تأكيدا جازما أنهم لا يستحقون من حق الله تعالى شيئا كأنواع العبادات لا في حال الحياة ولا بعد الممات. انظر رسالة الشيخ لأهل القصيم وكذلك رسالة ابنه الشيخ عبد الله بعد دخول الأمير سعود مكة المكرمة سنة ١٢١٨

النفاة والجبرية والمرجئة والشيعة ونحوها وكذلك أنكر طرائق الصوفية في اتجاهاتها العقيدية كعقيدة الجبر والاتحاد والحلول كما أبطل ادعاءات المتصوفة وتأويلاتهم وشطحاتهم. وحول التعريف بحقيقة ألوهية الله تعالى وتوضيح مدلولاتها وخصائصها بيّن الامام محمد بن عبد الوهاب أن من أخص خصائص الألوهية الحاكمية المطلقة، فالله تعالى وحده هو المشرع للعقائد والاحكام وهو الذى يحلل ويحرم فلا مصدر للتشريع الا الكتاب والسنة الصحيحة . فالواجب على المسلمين اقامة الدين واخلاصه لله تعالى وعبادة الله حق عبادته والتمسك بالكتاب والسنة وتطبيق تعاليم الدين ومبادئه وتوجيهاته وتحكيم شريعة الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ثانيا : الدعوة الى فتح باب الاجتهاد والرجوع في كل أمور المجتمع المسلم الى المصادر الاسلامية الأصيلة وهى الكتاب والسنة الصحيحة . وقد أوضح الامام محمد ابن عبد الوهاب أن كل مستوف لشروط الاجتهاد له الحق فى أن يجتهد حسب فهمه لنصوص الكتاب والسنة على نهج السلف الصالح ، وهو لا يرى ايجاب ما قاله المجتهد الا بدليل تقوم به الحجة من الكتاب والسنة ، وقد أنكر على العلماء التقيد بمذهب معين والتقليد الأعمى والتعصب الشديد لآراء الرجال وكذلك أنكر تقليد أحد غير الأئمة الأربعة لعدم ضبط المذاهب الأخرى وقلة العناية بتدوينها . وقد أوضح الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب هذه المسألة غاية الايضاح في رسالة كتبها عند دخول الأمير سعود مكة المكرمة سنة ١٢١٨هـ جاء فيها : "...وعرفناهم (أى أهل مكة) بأن صرح لهم الأمير حال اجتماعهم بأنا قابلون ما وضحوا برهانه من كتاب أو سنة أو أثر عن السلف الصالح . . . وعن الأئمة الأربعة المجتهدين ومن تلقى العلم عنهم الى آخر القرن الثالث . . . وعرفناهم أنا دائرون مع الحق أينما دار وتابعون للدليل الجلى الواضح ولا نبالى - حينئذ - بمخالفة ما سلف عليه من قبلنا". الى أن قال " ونحن أيضا فى الفروع على مذهب الامام أحمد بن حنبل ولا ننكر على من قلد الأئمة الأربعة دون غيرهم لعدم ضبط مذاهب الغير (كالرافضة والزيدية والامامية ونحوهم) . . . ولا نستحق مرتبة الاجتهاد ولا أحد منا يدعيه الا أنا - في بعض

المسائل - اذا صح لنا نص جلي من كتاب أو سنة غير منسوخ ولا مخصص ولا معارض بأقوى منه وقال به أحد الأئمة الأربعة أخذنا به وتركنا المذهب ... فاذا قوى الدليل أرشدناهم بالنص وان خالف المذهب وذلك يكون نادرا جدا . ولا مانع من الاجتهاد في بعض المسائل دون بعض ولا مناقضة لعدم دعوى الاجتهاد المطلق وقد سبق جمع من أئمة المذاهب الأربعة الى اختيارات لهم في بعض المسائل مخالفة للمذهب الملتزمين تقليد صاحبه (١).

وقد كان الامام محمد بن عبد الوهاب يرى أن قفل باب الاجتهاد مطلقا وركون العلماء الى التقليد والمغالاة الجافة والتعصب الشديد لأقوال المذاهب وعدم مواصلة البحث والدراسة واستنباط الأحكام، كل ذلك كان نكبة على المسلمين اذ أضاع شخصيتهم المتميزة وأضعف قدرتهم على الفهم والابداع العلمي والانتاج الفكري مما ظهرت آثاره في شتى مجالات الحياة الاسلامية حتى أصبحت الأمة الاسلامية ضعيفة متخلفة راكدة فانحط قدرها وضعف شأنها وأصيبت بالوهن والذلة بعد أن كانت قوية عزيزة ممكنة في الارض.

ثالثا : دعوة المسلمين الى توحيد الصفوف وجمع الكلمة لاقامة الامامة الراشدة التي تسير في جميع شئون المجتمع المسلم وفق منهج الله القويم للحياة الانسانية . وكان الامام محمد بن عبد الوهاب يعتقد أن حركته الاصلاحية لكي يكون لها القوة والفعالية والتأثير الكبير يجب أن تستند الى قوة سياسية تتمثل في أمير صالح قوي يقوم بمهام امامة المسلمين خير القيام في الدعوة الى الله والجهاد في سبيله والتمسك بكتاب الله العزيز وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واقامة شعائر الاسلام وتطبيق تعاليمه ومبادئه وتحكيم شريعة الله في المجتمع المسلم وان المسلمين جميعا مسئولون عن السعي في سبيل اقامة الامامة الصالحة لنصرة الدين

---

(١) راجع نص الرسالة بكاملها في كتاب " الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية " جمع وترتيب الشيخ سليمان بن سحمان والكتاب يشتمل على خمس رسائل لكبار علماء نجد .

وحمل لواء دعوة الحق واقامة شرع الله في الأرض ، ومتى ماوجد المسلمون مثل هذا الامام فان الواجب عليهم الانضواء تحت لوائه ومساندته بكل مايملكون من نفس ونفيس لكي تعود للامامة الاسلامية قوتها وفعاليتها وتتمكن من أداء مهمتها في اقامة الدين والتمكين له في الارض واعلاء كلمة الله فيها فالله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن . ومن توجيهات الامام محمد بن عبد الوهاب في وجوب الجهاد مع أئمة المسلمين برهم وفاجرهم ووجوب السمع والطاعة لهم في المعروف ماجاء في رسالته لأهل القصيم : " وأرى الجهاد ماضيا مع كل امام برا كان أو فاجرا ، والجهاد ماض منذ بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم الى أن يقاتل آخر هذه الامة الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل . وأرى وجوب السمع والطاعة لائمة المسلمين برهم وفاجرهم مالم يأمروا بمعصية الله . ومن ولى الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به أو غلبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت طاعته وحرم الخروج عليه .

أما منهج الامام محمد بن عبد الوهاب في حركته الاصلاحية فيتلخص في الدعوة الى الله بالارشاد والتوجيه والبيان والتعليم في أثناء اجتماعاته بالناس وتنقلاته الكثيرة في مختلف مدن وقرى الجزيرة العربية ، وكتابة الرسائل العلمية لتوضيح حقائق الاسلام والرد على الاسئلة والاستفسارات التي كانت ترده في مسائل العقيدة وغيرها ، والى جانب ذلك ركز الامام على تربية اتباعه تربية عملية على التزام حقيقة الاسلام وتطبيق مبادئه وتعاليمه وتوجيهاته حتى استطاع أن يكوّن منهم جماعة مؤمنة تنورت أذهانها وصفت قلوبها وصحت عقائدها . وقد أطلق الامام على أتباعه اسم الموحدين (١) ، وهؤلاء الاخوان الموحدون كانوا في طليعة

---

(١) ويطلق خصوم هذه الحركة عليها اسم " الوهابية " ليبرهنوا للناس أنها بدعة جديدة خارجة على مبادئ الاسلام منكرة للمذاهب ، لا تحب النبي والصالحين .. وذلك كله لتضليل الناس وتنفيرهم منها ، ثم جرى على استعمال هذا الاسم المستشرقون في كتاباتهم . وأما أعداء الدعوة من الترك وغيرهم فكانوا يغالون في ذلك ويطلقون على أتباعها اسم " الروافض والخوارج " انظر كتاب الدولة السعودية الأولى ، لعبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ص ٢٤ - ٢٥ وكذلك كتاب " الشيخ محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الاصلاحية " للشيخ أحمد بن حجر بن محمد آل أبو طامي ص(٥٠)

الذين استجابوا لدعوة الامام حين نادى بالجهاد في سبيل نصرة الدين والدعوة الى التمسك بالكتاب والسنة واقامة دين الله وشرعه والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر عقيدة التوحيد الخالصة وازالة البدع والخرافات والشركيات والعادات الفاسدة عندما قيض الله لحركته الأمير محمد بن سعود الذى آزره في نشاطه في نشر الدعوة وأمد حركته بالقوة السياسية والعسكرية . ولقد عمل خصوم دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب كل ماوسعهم من كيد ومكر لاستثارة القلوب وحشد القوى لمحاربة الدعوة بكل الوسائل والأساليب (١) ، ولجأوا الى قوة العناد والبغي والجور والاعتداء على صاحب الدعوة وأتباعه ، ونقض بعضهم العهد مرة تلو مرة ، ورصد الجميع العراقيل والعقبات في طريق الدعوة ولم يكن هناك من بد من اعلان الجهاد ضدهم لازالة العوائق والعقبات المرصودة في طريق الحركة حتى تصل دعوة الحق الى المسلمين لاعادتهم الى صراط الله المستقيم ودينه الخالص الذى لا تشوبه شوائب الشرك والبدع والخرافات والعادات الفاسدة . ولئن كان استناد الحركة الى هذه القوة السياسية وقيامها بالجهاد في سبيل الله لنشر دعوة الحق في الآفاق قد أتاح لها قوة التأثير وسرعة الامتداد والتوسع في داخل الجزيرة العربية فقد جعل أعداء الدين وخصوم الدعوة من الزعماء المحليين ذلك مرتكزهم الأساسي لشن الهجوم على الحركة وتشويه صورتها وكيل

---

(١) راجع رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى السويدى أحد علماء العراق ، ففيها ذكر الشيخ أن الرؤساء جعلوا قدحهم وعداوتهم فيما أمر به من التوحيد ونهى عنه من الشرك ولبسوا على العوام أن هذا خلاف ماعليه أكثر الناس ونسبوا الى الشيخ انواع المفتريات فكبرت الفتنة وأجلبوا على الشيخ وجماعته بخيل الشيطان ورجله ، وكان من مفترياتهم اشاعة البهتان أن الشيخ يكفر جميع الناس الا من اتبعه وانه يزعم أن انكحتهم غير صحيحة الى غير ذلك ، واقرأ كذلك كتاب " تاريخ نجد " لمحمود شكرى الألوسي للاطلاع على المناظرة التى جرت حول افتراءات الخصوم على دعوة الامام بين داود بن جرجيس البغدادى العراقي والشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن أحد علماء نجد ومؤلف كتاب " منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس . في " تاريخ نجد " ص ٤٩ – ٨٧ .

الاتهامات وتلفيق الاكاذيب لاستثارة الدولة العثمانية ضدها . ولقد أكد ادعاءات الاعداء والخصوم لدى الباب العالي في الاستانه وأثار المخاوف في قلبه ماحققته هذه الحركة من انتصارات عظيمة خلال فترة قصيرة من الزمن حيث انتشرت دعوتها في الافاق وامتدت قوتها السياسية في أرجاء الجزيرة العربية حتى شملت مكة المكرمة والمدينة المنورة ثم شرعت في توسيع رقعة دولتها الى خارج الجزيرة فوصل سلطانها فعلا الى عمان وبدأت ترسل جيوشها لفتح العراق وبعض المدن في أطراف الشام ، وعند ذلك أيقن الباب العالي بصدق مايروج ضد هذه الحركة فحشد القوى وعبأ الجيوش الجرارة (١) لاخماد هذه الحركة وتحطيم هذه القوة الاسلامية الفتية قبل أن تتجاوب أصداء دعوتها في أنحاء العالم الاسلامي ويستفحل خطرها .

ولكن الأسس الفكرية التي تستند اليها هذه الحركة وتعمل جاهدة لبثها في الآفاق كانت من الأصالة والعمق والقوة بحيث لم يكن بامكان القوى المادية أن تسحقها في ميدان الفكر والثقافة كما سحقت القوة السياسية التي كانت تدعمها في ميدان القتال . وهكذا أخذ الجانب الفكري من هذه الحركة يمتد الى أنحاء العالم الاسلامي (٢)

---

(١) لقد أصدرت الدولة العثمانية أمرها لواليها على مصر محمد على باشا بتجهيز الجيوش لمحاربة قوة الأمير سعود بن عبد العزيز بن محمد ، واستجاب الوالي للأمر فجهز جيشا عرمرما بقيادة ابنه (طوسون) ثم ابنه (ابراهيم) سنة ١٢٢٦هـ وقد انكسر الجيش المصري عدة مرات أمام قوة الأمير سعود الا انه استطاع أن ينتصر في نهاية الامر سنة ١٢٣٣هـ .
راجع كتاب " محمد بن عبد الوهاب " لأحمد عبد الغفور.

(٢) وقد انتشرت الدعوة الى عمان والعراق والشام والهند وجاوة ، وفي شمال افريقيا في ليبيا والجزائر والسودان ومصر وفي بلاد غرب افريقيا وكذلك في فارس وغيرها .

فتأثر رواد الحركات الاسلامية التي قامت في بعض الأقطار الاسلامية خلال القرنيـــن الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاد يـيـــــن) بما أمد تهم هذه الحركة الرائدة من اشعاع ايماني ومدد فكري ومنهج اصلاحي وروح جهادية جياشة دفعتهم الى الحركة والانطلاق في سبيل الاصلاح ،فجاءت حركاتهم الاصلاحية صدى لحركة الامام محمد بن عبد الوهاب وامتدادا طبيعيا لخط التجديد لحيوية الاسلام وقوته واصلاح حال المجتمع المسلم ، وهكذا كانت هذهالحركـــــــــة الشعلة الاولى لليقظة الاسلامية الحديثة في العالم الاسلامي كله .

.. ..

المبحث الثاني :

حركة الامام محمد بن علي السنوسي الكبـــــير (١)

لست بحاجة الى تكرار ماقلته سابقا في وصف حالة المجتمع المسلم فترة قيـــام حركة الامام محمد بن عبد الوهاب ، وسأنطلق من ذلك المنعطف التاريخي للأمـــة الاسلامية في عهود انحطاطها وتدنيها مكتفيا بالقول هنا بأن الحالة المتدهــورة التي كان يعيشها المسلمون منذ قرون طويلة قد أخذت تزداد سوءا على مــــــــر الزمن حتى بات مجتمعهم عند قيام حركة الامام محمد بن علي السنوسي يتقلـــــب

(١) من أصل جزائري ولد في بلدة مستغانم بالجزائر سنة ١٢٠٢هـ(١٧٨٧م) وهو من أسرة ذات شهرة ذائعة في مجال العلم والدعوة . كان محبـــا لتلقي العلم مولعا بالدراسة والاطلاع . وقد حفظ القرآن الكريم كامـــلا منذ صغره والتحق بأحد معاهد بلدة فازون ، ثم بعد ذلك رحل الــــى مدينة فاس بالمغرب وأقام بها سبع سنوات ، ودرس العلوم الاسلاميـــة في جامع القرويين ، وكان في نفس الوقت يتتلمذ في التصوف في زاويـــة "عين مهدي" على الشيخ احمد بن محمد التيجاني صاحب الطريقـــة التيجانية . وقد قام بزيارة بعض البلدان الاسلامية مثل مصر واليمن وبلاد الحجاز ، وكان يتنقل بين مختلف مدن ليبيا من برقة وطرابلس وبني غـــازي والكفرة وغيرها . وقد تردد على مكة عدة مرات والتقى خلالها بعلمائها ، ومكث في زيارته الأولى لها نحو ست سنوات وفي الثانية ثماني سنوات ولـــم يلبث طويلا في الثالثة . كانت للامام السنوسي جهود جبارة في سبيـــل الدعوة والاصلاح آتت ثمارها الطيبة في الساحل الشمالي من افريقيـــا وبخاصة في ليبيا والمغرب والسودان والمناطق الواقعة في جنوب الصحـــراء الكبرى . توفي رحمه الله تعالى عام ١٢٧٦هـ (١٨٥٩م)

راجع الطيب الأشهب ، في كتابه "السنوسي الكبيـــــر" ص ٧ ومابعدها .

في أدراج الهبوط والانحدار والضعف دينيا واخلاقيا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا ، فتفرقت الامة الاسلامية شيعاً وأحزابا وطوائف لا تجمعها كلمة ولا تضمها راية ، وطغت الانقسامات المذهبية والتعصبات الطائفية على روح الوحدة والترابط والأخوة وشغلت المشاحنات والخصومات والنزاعات تفكير المسلمين ونشاطهم وتصرفاتهم أكثر مما شغلهم السعي الجاد لخير الاسلام والامة الاسلامية وكان فهمهم للدين لا يعدو اعتباره دعوة الى التواكل والخمول والانزواء عن الحياة العملية وانه مجموعة من العادات والتقاليد والمعتقدات الباطلة أو أنه مذهب امام أو طريقة شيخ أوخرافة دجال أو منجم . وكان من نتائج ذلك أن ضعفت قوة المسلمين وانهار سلطانهم واصطلحت عليهم عوامل الضعف والوهن والفتور فغلبوا على أمرهم في كل مكان وتعرض العالم الاسلامي لهجوم أجنبي كاسح وأخذت المقاطعات والمدن تذهب من أيدى المسلمين الى يد عدوهم الذى تأججت نار الحقد الصليبي في قلبه فأقبل بخيله ورجله يريد الانقضاض على العالم الاسلامي في حروب صليبية مدمرة . وهكذا أحدق الخطر الصليبي الماكر بالعالم الأسلامي يسعى لسحقه وتحطيمه دون أن تملك الدولة العثمانية - زعيمة العالم الاسلامي - له دفاعا فقد تضعضعت قوتها وأصبحت عاجزة عن اصلاح الاضمحلال الداخلي وحماية الامة من الاعتداء الخارجي ، ثم ازداد ضعفها مع مرور الايام وأخذت تسرع الخطى نحو الأفول والزوال حتى خضدت شوكتها وحطم سلطانها فذهبت ريحها في نهاية الامر في أواسط القرن الرابع عشر الهجرى (أوائل القرن العشرين الميلادى) .

لقد تعرضت الجزائر لهجوم جيوش الاستعمار الفرنسي فسقطت تحت نير الاحتلال سنة ١٨٣٠م وبعد هذه الكارثة المفجعة خرج الامام محمد بن علي السنوسي من البلاد قاصدا مكة في زيارته الثانية لها عام ١٢٥٠هـ - ١٨٣٣م ومر في طريقه اليها ببعض الأقطار الاسلامية وتعرف على أحوال المسلمين فيها ، وقد آلمه كثيرا ما انطبع على المجتمع المسلم من الضعف والوهن والانحلال فمقد

العزم على الاصلاح ورسم الخطة لتنظيم حركة اصلاحية تعيد القوة الى المسلمين وتصلح مافسد من أحوال مجتمعهم وتمكنهم من الانتصار على اعدائهم . وفي أثناء عودة الامام السنوسي الكبير من رحلته الطويلة الى بلده بلغه أن الفرنسيين قد استولوا على جميع مقاطعات الجزائر واحكموا قبضتهم عليها بعد أن طوقوا جيوش المقاومة الشعبية التي كان يتزعمها السيد عبد القادر الجزائري وقتلوهم شرّقتلة في معارك بربرية دامية ، ولم يستطع الامام السنوسي الكبير دخول الجزائر فرجع الى طرابلس ومنها الى برقة ثم بني غازي .

لقد رأى الامام محمد بن علي السنوسي عند بدء حركته أن ينعزل في الصحراء ليتجنب بقدر الامكان الاصطدام بالسلطة العثمانية التي كانت بعد حركة الامام محمد بن عبد الوهاب تتحسس من الحركات وتوجس فزعا من الانتفاضات الشعبية لأن اصابع الحقد الصليبي والمكر الصهيوني وبعض مرضى القلوب من الزعماء المحليين كانوا يصورون لها الحركات الاصلاحية في صورة ثورات تمرد لشق عصا الطاعة ومحاولة الانفصال عن سلطان آل عثمان وذلك لتحريضها على خنقها وتحطيمها في مهدها حتى لا تتمكن من تحقيق أهدافها السامية في تجديد الحياة الاسلامية واحيائها . وكذلك رأى الامام السنوسي الكبير أن يتجنب مناطق نفوذ الدول الاستعمارية لكي يتمكن من تنفيذ خططه وبرامجه ومواصلة عملية الاعداد والتكوين في أجواء هادئة بعيدا عن مواقع قوة العدو وحتى لا يستثار للمقاومة والمواجهة في وقت مبكر قبل أن يستكمل أدوار خطته ويخرج جماعة مسلمة قوية مجاهدة تضطلع بأعباء العمل الاسلامي بايمان عميق وعزيمة صادقة وجهاد كبير . وهكذا نرى ان حركة الامام محمد بن علي السنوسي مع كونها حركة سلفية اصلاحية في حد ذاتها تدعو الى الرجوع الى الحياة الاسلامية الصحيحة فقد كانت الى جانب ذلك رد فعل غير مباشر ضد الخطر الاجنبي ،فالامام السنوسي كان يحس بخطر توغل الغزو الاجنبي وامتداد نفوذ الاستعمار الصليبي في أنحاء ديار المسلمين فاختار لمقامه صحراء برقة في أول الأمر ، ولما خاف من اغارة الايطاليين على جماعته أوغل بمركزه

في واحة جغبوب لكي يتمكن من الاعداد للاصلاح الداخلي وازالة عوامل الضعف والاضمحلال التي أدت الى ذهاب قوة المسلمين وسلطانهم وهزيمتهم النكراء أمام قوة أعدائهم .

وتتلخص مبادئ دعوة الامام محمد بن علي السنوسي في الأمور الآتية :-

أولاً :

دعوة المسلمين الى العودة الى الاسلام بمفهومه الصحيح الشامل المستمد من كتاب الله العزيز وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والسير في ذلك على نهج السلف الصالح من هذه الأمة حيث انه لن يصلح آخر الأمة الاسلامية الا بما صلح به أولها . ولم يكن الامام السنوسي يقتصر في دعوته هذه على جانب الشعائر التعبدية والتصوف والتطهر النفسي والاخلاقي أو الناحية الروحية والاخلاقية من الحياة بل دعا الى الاسلام باعتباره منهجا متكاملا لشئون الحياة الانسانية في جميع مجالاتها ، من أجل ذلك كان تأكيده على أهمية الجانب المادي الى جانب الناحية الروحية والاخلاقية من الحياة وتشجيعه أتباعه على العمل والكسب والانتاج وجعل الزوايا التي أقامها منابع للحياة الروحية والعلمية والسياسية والزراعية والتجارية والاصلاح الاجتماعي . (١) وبذلك نرى أن دعوة الامام محمد بن علي السنوسي الى العودة الى الاسلام في صورته الصحيحة لا تقتصر على جانب التطهر النفسي بالاذكار والعبادات الفردية وغيرها بل تشمل تطبيق تعاليم الاسلام وتوجيهاته في جميع جوانب الحياة الانسانية بمافيها الناحية الروحية والتعبدية والأخلاقية والسلوكية والمادية . وقد بنيت الحركة السنوسية على أسس العقيدة الاسلامية الخالصة ووعي التطبيق العملي الصحيح لهذه الأسس والقيم في

---

(١) انظر د . محمد البهي " الفكر الاسلامي في تطوره " ص ٥٦ ومابعدها

تنظيم شئون حياة الناس في الزوايا ، وكان الامام السنوسي يربي أتباعه على صفاء النفس والتطهر الأخلاقي والالتزام بتعاليم الاسلام وتوجيهاته الى جانب صقل عقولهم وتنمية مداركهم بعلوم القرآن الكريم والسنة الصحيحة ونشر الوعي الصحيح بينهم .

ثانيا : الدعوة الى التمسك بالعقيدة الاسلامية الصحيحة المستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واخلاص العبودية لله وحده لا شريك له واقامة الدين على حقيقته دون زيغ ولا انحراف ولا تطرف . وقد أنكر الامام السنوسي ماتفشى بين المسلمين من البدع والخرافات والعادات والتقاليد الجاهلية والمعتقدات الباطلة كالغلو في تقديس المشايخ الأحياء والاموات ورفعهم الى المنزلة التي لا يعلون اليها ، والبدع المنكرة التي يحدثها بعض الناس عند قبور الأولياء والصالحين وأضرحتهم من دعائهم لجلب النفع ودفع الضر ، والتبرك بالقبور والقباب والتمسح بها وما الى ذلك من الأمور البدعية التي يتشدق بها الجهال ويعتقدون أنها من جوهر الدين . وعلى الرغم من أن الامام السنوسي الكبير قد تأثر بالنزعة الصوفية بسبب الماعه بدراسة التصوف وتعرفه على بعض الطرق الصوفية كالقادرية والشاذلية وغيرهما وتتلمذه على الشيخ أحمد بن محمد التيجاني صاحب الطريقة التيجانية في زاوية " عين مهدى " أثناء اقامته بمدينة فاس ، وان اتجاهه الصوفي قد برز بجلاء في مؤلفاته (١) ، وفي منهج التربية النفسية والتطهر الوجداني والأخلاقي الذى سار عليه في تكوين اتباعه وفي أسلوب الزوايا المتبع في حركته فقد كان صوفيا معتدلا لم يشتط في صوفيته ، وكان ينتقد بشدة انحرافات المتصوفة واعتقاداتهم الباطلة وشطحاتهم كما كان ينكر حياة العزلة

---

(١) وبخاصة كتابه " السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين " وكذلك كتابه المسائل العشر" وهو المعروف بكتاب بغية المقاصد وخلاصة المراصد .

والخمول والاستجداء التى كانت طابع أغلب الطرق الصوفية المتطرفة . يقول الدكتور محمد البهى : " وفى كتاب " السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين " وهو على هامش كتاب " المسائل العشر " (وكلاهما للامام السنوسى) تحدث السنوسى عن الطرق الصوفية ووصف الطريقة المثلى التى رضى بها والتى عرفت بنسبتها اليه ، وهى طريقة تقوم على البساطة فى التعبير وقت العظة وتستند فى وصاياها الى آيات القرآن الكريم وتذكر العظة وتقرنها بالآية القرآنية ، وما فى العظة هو معنى الآية مبسطا . كما تقوم هذه الطريقة على دعوة التعاون والأخوة والتماسك والاجتماعات التى تهيئها الطرق الأخرى للذكر والدعاء توجهها " الطريقة " السنوسية فى عمل تعاونى كاطعام الفقراء واستقبال الوافدين واكرامهم وتوجيههم نحو المحبة والصفاء ،وقد أبعد السنوسى الكبير من طريقته التى اختارها الحديث عن كرامات الأولياء وخوارق العادات وميزات " المقدمين " والمريدين " واستعاض عن ذلك بالحديث عن " أحدية الله " ورعايته لخلقه ... كانت طريقته تدريبا عمليا لتصفية النفوس ومحبة بعضها لبعض طبقا لمنهج الاسلام القويم .. وميزة طريقته انها وجهت خصيصة الطرق الصوفية في الاجتماع الاسبوعى الى غاية عملية مثمرة لا شعوذة فيها ولا جدل والحديث فيها هو الحديث عن الله جل شأنه ومن كتابه ولا يذكر فيها انسان آخر من شيوخ الطريقة ومقدميها .. (١)"

ثالثا :

الدعوة الى فتح باب الاجتهاد وانكار التقيد بمذهب معين والركون الى التقليد والتعصب الأعمى للمذاهب الفقهية المختلفة ، وقد نعى على العلماء تقديمهم لآراء الائمة المجتهدين على دلالات الكتاب والسنة الصحيحة ودعاهم الى وجوب اتباع نصوص الكتاب والسنة وتقديم دلالاتها على أقوال المجتهدين

---

(١) كتاب الفكر الاسلامى فى تطوره ، ص ٩٤ - ٩٥ .

كما أنكر أيضا انحصار التقليد في المذاهب الاربعة دون غيرها . وقد كان الامام السنوسي مولعا بالدراسات الفقهية ولم يقر التجمد عند الحدود التي انتهت اليها المذاهب الفقهية القائمة وكان ينكر القول الشائع بأن الاجتهاد قد انقطع بالاجماع ،ويدعوالى مواصلة البحث والدراسة لاستنباط الاحكام للأمور المستجدة في حياة الناس من المصدرين الاصليين الكتاب والسنة الصحيحة على نهج السلف الصالح . وقد أوضح الامام السنوسي الفرق بين الاجتهاد والتقليد وبين أنواع الاجتهاد والمجتهدين ، وبسط شروط الاجتهاد ليبين للناس أن الاجتهاد ليس حجرا على المتقدمين فقط بل كل مستوف لشروط الاجتهاد في أي عصر له الحق في أن يجتهد في استنباط الاحكام من نصوص الكتاب والسنة الصحيحة حسب فهمه مادام يسير في ذلك على نهج السلف الصالح . (١)

رابعا :

دعوته الى الجهاد بأنواعه المتعددة من جهاد النفس بالتربية الروحية والمعنوية والالتزام بالاسلام عقيدة وعبادة وسلوكا ، ومجاهدة الاهواء والنزعات
وتعاليمه وروحه وجهاد العدو لنشرالاسلام
والتقاليد والعادات المتنافية مع مبادئ الاسلام/بين القبائل الوثنية والتصدى لعدوان قوى الاحتلال الصليبي التي نزلت بساحة الاسلام واعتدت على المسلمين وعرضتهم للذل والهوان واستولت على بلادهم . وكان الامام السنوسي يؤمن ايمانا راسخا بوجوب البدء بالاصلاح الروحي والتغيير الوجداني والاخلاقي قبل أي محاولة لاصلاح أحوال المسلمين السلوكية المتدهورة ، كما كان يرى وجوب اعداد العدة اللازمة معنويا وماديا قبل التصدى لمواجهة العدو وقتاله . وانطلاقا من هذا المبدأ سار الامام السنوسي في تنظيم حركته على منهج التربية العملية الشاملة لتكوين العناصر الصالحة التي تضطلع بمهام الدعوة الاسلامية وتتأهل

---

(١) انظر محمد فؤاد شكرى ، السنوسية دين ودولة ، ص ٣ ومابعدها .

لاداء الدور القيادى الذى أنيط بالمسلمين من أجل اسعاد البشرية ونشر الخير والفضيلة في العالم . وكان التركيز في عملية التربية على الناحية الروحية والفكرية ثم تتبعها الناحية الاخلاقية والسلوكية والاصلاح الاجتماعى ، وجانب التدريب البدنى والاعداد الحربى . وكان الامام السنوسى يهدف بهذه التربية العملية الشاملة الى تحقيق الأمور التالية :-

أولا : تكوين الفرد المسلم وتنشئته على تعاليم الاسلام ومبادئه وأخلاقياته ، وتخليصه من شوائب الشرك ورواسب الجاهلية من الاوضاع والعادات والتقاليد حتى يكون طاهر النفس نقي السريرة يعرف الله حق معرفته ويعبده حق عبادته ويستحضر عظمته وجلاله في كل حين ويتوجه اليه بكل نشاطه في الحياة ويصدر في أعماله وتصرفاته عن أمره ويعمل جهده ألا يحيد عن هديه وتوجيهاته قدر الاستطاعة ، ويستعلى بالايمان على كل أوضاع الارض لا يثنيه عن الحق شيء مهما لقي في سبيل الله من الأذى والشدائد والمحن والمكايد من جانب أعداء دينه .

ثانيا : اقامة نماذج من المجتمع المسلم يتكون أفراده من العناصر الصالحة التي اجتازت مرحلة التكوين الاولى ، وكل من عنده استعداد للانضمام الى هذه الجماعة المؤمنة ويلتزم بطريقها ويسير سيرها في الحياة . فالاصلاح الفردى ليس الا خطوة أولى يقصد من ورائها توفير النواة الصالحة واعداد اللبنات القوية لبناء المجتمع المسلم الذى يفهم أفراده الاسلام فهما صحيحا ويسيرون على هدى الله ومنهجه وشريعته في جميع شئون حياتهم ثم يضطلعون بعد ذلك بمهمة الاصلاح في أنحاء العالم الاسلامى لاعادة القوة والسلطان الى المسلمين .
وان الهدف من اقامة الزوايا هو لتكوين اجيال اسلامية صالحة يربى أفرادها تربية عملية على أصول الايمان وتعاليم الدين وأخلاقياته، واخراج جماعة مؤمنة قوية مترابطة متساندة متضامنة . وكان يتولى مهمة الاعداد والتكوين والتوجيه

في الزوايا الى جانب الامام السنوسي مجلس يسمى مجلس " الاخوان " .

ثالثا : العمل على اذكاء روح الجهاد وتنشيط الحماسة الدينية في نفوس أفراد هذا المجتمع المسلم الجديد لينطلقوا في موكب الجهاد المقدس لحماية بيضة الدين وصد العدوان والعمل على نشر دعوة الاسلام في الآفاق ، ورغم أن حركة الامام السنوسي لم تشتبك مع قوى الاحتلال في ميدان القتال كما فعلت حركة السيد عبد القادر الجزائري فقد وفرت العناصر والنماذج الصالحة من الدعاة والمجاهدين الذين ملئوا بالحماسة الدينية المتوهجة وشحنوا بروح الجهاد فكانوا الطليعة المؤمنة التي انطلقت في أنحاء الشمال الافريقي وفي مناطق جنوبي الصحراء الكبرى تدعو المسلمين الى العودة الى الدين الحق وتبعث في قلوبهم روح الجهاد وتضطلع بدور القيادة والتوجيه في أعمال المقاومة التي قامت لمواجهة قوى الاحتلال الصليبي ، وقد رأينا كيف تحولت الزوايا السنوسية الى مراكز عسكرية ينطلق منها الجنود المتطوعون لمقاومة حملات جيوش الاستعمار الايطالي في هجومها الكاسح لاحتلال ليبيا عام ١٩١١م .

وأما طريقة الامام السنوسي في تنفيذ برامجه الاصلاحية وخطته التربوية فقد اتبع أسلوب اقامة الزوايا ونشرها في أرجاء العالم الاسلامي . وأول زاوية أنشأها الامام السنوسي هي الزاوية البيضاء المقامة في وسط الجبل الأخضر ببرقة عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٣م فكانت أم الزوايا والمركز العام لدعوته ، ثم انتقل الامام السنوسي من برقة الى واحة الجغبوب لاهميتها الجغرافية وأسس بها زاوية مركزية كبيرة كانت الزاوية النموذجية في حركته من حيث اختيار موقعها وكثرة مؤسساتها والمشاركة العملية الممتازة من جانب الطلاب والاخوان في تنظيم شئون الزاوية . وقد استقر الامام السنوسي في هذه الزاوية ، وعكف فيها على الدعوة والتوجيه والتعليم وتأليف الكتب وتلقين أتباعه طريقته الصوفية لانعاش حياتهم الروحية ، وأنشأ بها مدرسة كبيرة تضم نحو ثلاثمائة طالب كما أقام فيها

مكتبة كبيرة (١) عامرة تحتوي على آلاف مؤلفة من المجلدات في علم الفقه والحديث والتفسير والتاريخ والأدب والفلك والفلسفة والتصوف . وكانت هذه المدرسة تخرج الدعاة المجاهدين الذين يجوبون الاقطار والمناطق للدعوة الى الله وتعليم المسلمين أمور دينهم . وبذلك أصبحت واحة الجغبوب أحد المراكز العلمية الكبرى في شمالي افريقيا . وقد بلغ عدد الزوايا التي أقامها الامام السنوسي في أنحاء مدن ليبيا احدى وعشرين زاوية كان أشهرها زاوية واحة الجغبوب والزاوية البيضاء ببرقة وزاوية الفقه في فزان وزاوية مزده في جنوب طرابلس وغيرها . ثم في عهد محمد المهدي بن السنوسي امتدت الزوايا السنوسية الى بعض الاقطار الاسلامية مثل الجزيرة العربية ومصر والسودان والصومال ومناطق جنوبي الصحراء الكبرى . والزاوية السنوسية مركز ديني وثقافي واجتماعي وسياسي واقتصادي وعسكري ، وهي عبارة عن أرض واسعة يقام في وسطها فناء كبير وتحاط بهذا الفناء مرافق كثيرة تتكون من سكن الشيخ ومسجد ومدرسة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم العلوم الاسلامية ، ومجلس للضيافة ومساكن الطلاب والاخوان واماكن لايواء المساكين اللاجئين الى الزواية ومحل لمعالجة المرضى ودور لتعليم الصناعة المهنية وغير ذلك من المؤسسات التي تيسر سبل العيش وتوفر وسائل الحياة الصالحة للطلاب والاخوان وأهالي المنطقة المجاورة للزاوية . وهذه المرافق وغيرها تقام بشكل دائرى حول الفناء . وأما الفناء فهو محط رحال القوافل ويكون فيه بئر للسقيا ومخزن للمتاع . ويلحق بالزاوية بعض الاراضي الصالحة للزراعة من حولها ويقوم الاخوان والطلاب بزراعتها ، وكان على كل فرد من أهالي المنطقة أن يساعد في العمل في حقول الزاوية يوما واحدا أو اكثر في مواسم الحرث والحصاد . ويشرف على شئون الزاوية " مقدم " هو شيخها والقيم عليها ويتولى رعاية أمور الطلاب والاخوان وشئون أهالي المنطقة ،

---

(١) وقد ضاعت هذه المكتبة بعد احتلال ايطاليا لواحة الجغبوب سنة ١٩٢٥م

ويكون له وكيل يتولى الاشراف على شئون الدخل والخرج وينظر في الشئون الاقتصادية من زراعة وتجارة وصناعة وغيرها . ولكل زاوية شيخ يؤم الناس في الصلاة ويقوم بتعليم الطلاب والاتباع العلوم الاسلامية وتدريبهم على الفروسية والرماية وغير ذلك من فنون القتال ، والى جانبه شيوخ آخرون يسمون " الاخوان" يتعاونون جميعا في الدعوة الى الله وارشاد الناس وتوجيههم الى طريق الحق وتربيتهم على تعاليم الاسلام وأخلاقياته . (١)

---

(١) انظر محمود الشنيطي ، قضية ليبيا ص ٣٦ ،ومابعدها . واقرأ كذلك كتاب" السنوسية دين ودولة للدكتور محمد فؤاد شكري .

المبحث الثالث :

حركة الامام محمد أحمد بن عبد الله المهدى (١)

ان حركة الامام محمد احمد بن عبد الله المهدى قد تبدو لأول وهلة حركة خارجة عن دائرة حركات البعث الاسلامى التى نهضت للتجديد والاصلاح والبناء على الأسس والمبادىء الاسلامية الاصيلة وبخاصة حين ينظر الى الأساس الذى استند اليه صاحب هذه الحركة في اثبات شرعية إمامته وقيادته للأمة الاسلامية اذ أن هذا الأساس لا يعدو مجرد دعوى ادعاها لا نزال نفسه منزلة لا يعلو اليها ولم ينزله الله فيها وقوام دعواه هذه أنه هو المهدى المنتظر

---

(١) ولد الامام محمد أحمد بن عبد الله سنة ١٨٤٥م ،ذكر الاستاذ الصادق المهدى في كتابه " يسألونك عن المهدية " ص ١٥٨ أن الامام المهدى" كان معروفا منذ صباه بالصدق والامانة والزهد والتقوى والورع ولم يختلف أحد من أقرانه ممن ناصره أو عاداه في وصفه بتلك الصفات " . وقد أبدى اهتماما كبيرا بتلقى العلوم الدينية ،فتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ثم رحل الى الخرطوم واستقر فيها فترة من الزمن تلقى خلالها على أيدى علمائها علم الفقه والحديث والتفسير والتصوف . ثم تعرف على الطريقة السمانية وأخذ اهتمامه بها يزداد يومابعد يوم حتى أصبح عضوا بارزافيها . ثم انحاز الى جزيرة أبا في النيل الازرق حيث عكف على العبادة والتدريس والدعوة . ثم انتقل من هذه الجزيرة الى كردفان التى اختارها مقر اقامته ومركز دعوته ، وفيها أعلن عن بدء دعوته وأخذ يجمع الناس حوله ، ولقد لقى التأييد والمؤازرة من قبيلة البقارة . ذكر الاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه " الاسلام في القرن العشرين " ص ١٥٩ " ان دعوته الاولى كانت باسم الامام الثانى عشر الذى يترقبه الشيعة الاماميون " . وفى سنة ١٨٨١م أعلن أنه المهدى المنتظر ، وقد أطلق على اتباعه اسم " الانصار "، ولكنهم كانوا يعرفون عند خصومهم باسم " الدراويش " توفى الامام المهدى عام ١٨٨٥م وتولى الامر بعده ساعده الايمن في حركته وجهاده عبد الله ابن محمد التعايشى .

الذى بشر الرسول صلى الله عليه وسلم بخروجه في آخر الزمان ، وأن امامته مدعومة بالبهام من العناية الالهية وأن على يديه خلاص الامة وتوحيدها بعد تفرق وتمزق ، ولكن حين تستقصى بواعث حركته وتستعرض مبادىء دعوته والاهداف التى سعى الى تحقيقها - على ما سنبينه فيما بعد - يتبين أن حركته امتداد لما سبقها من دعوات التجديد الاسلامى قامت على ركائز البناء والتعمير وسارت على خط الاصلاح والتقويم لانقاذ الامة الاسلامية مما تعانيه من أسباب الجهل والانحراف والضعف والانهيار بصرف النظر عن خطأ صاحب هذه الدعوة في الاستناد الى دعوى المهدية واتخاذ لقب المهدى المنتظر.

كانت بلاد السودان عند قيام حركة الامام محمد أحمد عبد الله تابعة لحكم مصر فى عهد أسرة محمد على باشا ، وكانت تعانى من الادارة المصرية ألوانا من الضغوط السياسية وفساد أسلوب الحكم والادارة والاستغلال والمظالم الاجتماعية وأما مصر نفسها فقد كانت منذ عهد محمد على باشا - رغم خضوعها اسميا لسلطان الدولة العثمانية - تعانى من التدخل الاجنبى الماكر فى شئونها الخاصة حتى جاء عهد الخديو توفيق بن اسماعيل فأصبحت مصر في قبضة بلاط أجنبى الانتماء والفكر والاتجاه ووقعت فريسة في أيدى القوى الصليبية الاستعمارية تتهاذ بها أطماع فرنسا ومكايد بريطانيا وكلتا الدولتين تريد فرض السيطرة ، وقد وقعت مصر في نهاية الامر تحت الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢م . وقد كانت كوارث مماثلة تحدث في أنحاء العالم الاسلامى حيث يتعرض المسلمون لهجوم كاسح من القوى الاستعمارية المعادية ، وفي هذه الفترة الحرجة كانت الدولة العثمانية قد تداعت أركانها وتصدع بنيانها والتفت منها الساق بالساق في معاناة آلام الاحتضار فتلاحقت الهجمات الشرسة على البلاد الاسلامية بين ضربات وهزائم واضطهادات واحتلال وتمزيق وتفريق حتى تمكنت منها قوى الاستعمار فازداد المسلمون ضعفا وهوانا وتمزقا ، وكاد القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) ينقضى كله والمسلمون على هذه الحالة مخذولون متخاذلون - ولم يسلم قطر من الأقطار

الاسلامية من آثار هذه الاوضاع السيئة المتفشية من الانحراف الديني والاضمحلال السياسي والفساد الأخلاقي والركود الاقتصادي والتخلف الاجتماعي والضعف الفكري والعقلي والعلمي والغزو الاجنبي المخطط ومحاولاته في فرض السيطرة واحداث تحول جذري في شئون البلاد (١) .

وفي وسط هذه الاوضاع المتعددة قامت حركة الامام المهدي في السودان تهدف أولا الى تخليص السودان من تسلط الحكم المصري الموالي لقوة الاستعمار البريطاني ثم تخليص مصر من كيد هذا الاستعمار الذي كان يحرض مصر على الانفصال عن سلطان الدولة العثمانية ويشجعها على الاستقلال بكل ماأوتي من كيد وحيلة حتى يتمكن من احكام قبضته عليها وخنقها بعد ذلك ، وكذلك تهدف هذه الحركة الى انقاذ العالم الاسلامي من سيطرة السلاطين العثمانيين ورفع المظالم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يمارسونها في رعاياهم المسلمين (٢) ، ثم ايجاد

---

(١) راجع عباس محمود العقاد ، الاسلام في القرن العشرين ، ص ١٦ - ١٧

(٢) ويشمل ذلك فرض الضرائب المثقلة على المسلمين وسوء الاساليب المتبعة في جمعها وتسلط الامراء والعمال على رقاب الرعايا ، وضعف الوازع الديني في نفوس السلاطين والأمراء ولم يكونوا يمثلون الاسلام تمثيلا حقيقيا كاملا في شئونهم الخاصة والعامة ولم يكونوا يطبقون شرع الله بل اتخذوا قوانين وضعية بدل الشريعة المنزلة واستباحوا حرمات الدولة الاسلامية للأجانب من اليهود والنصارى (اقرأ كتاب تاريخ السودان لنعيم شقير وكذلك كتاب الحركة الفكرية في المهدية للدكتور محمد ابراهيم ابو سليم) . قال الامام المهدي في منشور له بتاريخ ١٢٩٩هـ(١٨٨٢م) عن السلاطين العثمانيين : " ان هؤلاء الترك لما بسط الله عليهم النعم ومد لهم في العمر وطول العافية ظنوا أن الملك لهم والأمر بأيديهم وخالفوا أمر الله وأنبيائه ومن امرهم بالاقتداء بهم وحكموا بغير ما أنزل الله وغيروا شريعة سيدنا محمد وسبوا دين الله ووضعوا الجزية في رقابكم مع سائر المسلمين وكل ذلك لم يأمرهم به الله ولا رسوله ومع ذلك أمهلهم الله وبسط عليهم النعم فلم يتفكروا حتى خذلهم الله وسلبهم ثوب الملك والهيبة بتعديهم حدود الله " (من كتاب " يسألونك عن المهدية " للاستاذ الصادق المهدي ، ص ١٧٤) .

قيادة اسلامية قوية تبسط سلطانها على الرقعة الاسلامية الفسيحة وتوحد الأمة الاسلامية بعد تفرق وتمزق،وتحمل مسئولية احياء الدين وتجديده وتتصدى لهجوم العدو الماكر وصد عدوانه المخطط للسيطرة على العالم الاسلامي وتدمير قوة الاسلام وسلطان المسلمين . ويبدو أن انتشار فكرة قرب ظهور المهدى بين المسلمين خلال هذه الفترة العصيبة في المجتمع السوداني بوجه خاص وفي غيره من المجتمعات الاسلامية بوجه عام كان عائدا الى تفشي السخط والاستياء والضجر والسآمة من الأوضاع السيئة القائمة والنكسات المتعاقبة وبالتالى التطلع الملح للخلاص من سوء الحال وقيام وضع أفضل فيه سلامة الدين وقوته وعدالة الحكم ونفاذ شرع الله ورد الكرامة والعزة المسليبة الى المسلمين ، وذلك استنادا الى ماورد في تراث الاسلام من أدلة كثيرة صحيحة حول ظهور امام أو امير من المؤمنين يوحدهم بعد تفرق وتمزق ويمكن الله له في الارض لاحياء دينه وتحقيق العزة والسيادة للمسلمين .

وتتلخص دعوة الامام محمد احمد عبد الله في هذه المبادىء الاساسية الثلاثة الاتية :-

أولا : الدعوة الى العودة الى حقيقة الاسلام بمفهومه الصحيح الشامل وتطبيق مبادئه وتعاليمه وتوجيهاته في شئون الحياة البشرية كلها واقامة شرع الله في الأرض . وقد دعت هذه الحركة الى تصفية العقيدة الاسلامية مما علق بها من البدع والخرافات والمعتقدات الباطلة والعادات والتقاليد المخالفة لتعاليم الدين . وقد أنكر الامام المهدى ادعاء أحد الوساطة بين الخالق والمخلوق وكذلك اتخاذ الجهال بعض الأولياء وسطاء بينهم وبين ربهم،وأوضح أنه لا يستطيع أحد كائنا من كان أن يضمن السلامة والنجاة لغيره في دنياه وآخرته عن طريق الأحجبة المكتوبة والبركات المنسوبة أو غيرهما من الأمور التي يتشدق بها الجهال الأدعياء (١) ،

---

(١) راجع الاستاذ الصادق المهدى ، " يسألونك عن المهدية " ص ١٦٥ .

وكذلك منع الاستعاذة (١) والاستغاثة بغير الله تعالى وأبطل جميع أعمال السحر والشعوذة والرقى والتمائم والحلف بغير الله تعالى وما الى ذلك .

ثانيا : الدعوة الى احياء الاسلام ببعث الكتاب والسنة المهجورين وفتح باب الاجتهاد، والاستمداد من هذين المصدرين النقيين في استنباط الأحكام حسب فهم المجتهد للنصوص وماتقتضيه أوضاع الامة وظروفها وأحوالها المستجدة في الحياة من دون التزام أو تقيد بمذهب معين وذلك اتباعا لنهج السلف الصالح في استقاء الاحكام المواتمة لظروف عصرهم وأحوالهم الخاصة من نصوص الكتاب والسنة مباشرة . وقد حاول الامام المهدى التوفيق بين المذاهب الفقهية المختلفة وكان ينظر في أدلة الاحكام من نصوص الكتاب والسنة ويطبقها على أحوال الناس وظروفهم حسب فهمه مسترشدا بطريقة السلف في ذلك ، وهكذا جاءت الاحكام التطبيقية التي استنبطها الامام المهدى في فروع الدين غير مقلدة لمذهب معين من المذاهب المعروفة (٢) . وكذلك كان خليفته من بعده وقضاة محاكمه يسيرون على

---

(١) جاء في رسالة الامام المهدى الى أحد عماله بجزيرة أبا بتاريخ (١٣٠٠ هـ (١٨٨٤م) : " وأما ماذكرتم في الدعاء الذى يحمل الاستعاذة من السقم والعين ونحوه فهذا ليس من مذهبنا انما مذهبنا التوكل على الله حيث انه النافع والضار وناصية كل شيء بيده بل لا يخرج من قدرته فلته خاطر ولا لفتة ناظر ، فينبغي لمن كان تابعا لنا أن يسلك طريقنا ويتوكل على الله وحده ولا يتلفت الى غير لا وجود له بشيء " (من كتاب " يسألونك عن المهدية " للاستاذ الصادق المهدى ص ١٧٦ (- ١٧٢) .

(٢) ذكر الاستاذ الصادق المهدى أنه " يوجد الآن كتاب جامع للاحكام التي أجاز المهدى العمل بها ويتضح من دراستها انها لا تقلد مذهبا من المذاهب المعروفة بل تطابق بعض أحكام هذا المذهب أو ذاك حينا وتضع حكما مختلفا عنها أحيانا ، انها احكام اسلامية غير مقلدة لمذهب ما ، وان كانت في كثير من نصوصها أقرب الى مذهب الامام الشافعي من غيره" (من المصدر السابق ص ١٩٢) .

نهجه في استنباط الأحكام في فروع الدين فكانوا ينظرون في أدلة هذه الاحكام من الكتاب والسنة مستنيرين بما بينه الامام المهدى من تطبيقات لتلك الأدلة وأحكام مستنبطة في الظروف والأحوال المتعددة . والى جانب ذلك دعا الامام المهدى المسلمين الى نبذ الخلاف والتعصب المذهبي وبذل الوسع لمحو الآثار السيئة التي نجمت عن ذلك من اضعاف قوة الامة الاسلامية وتفريق صفوفها واذكاء روح العداء والمجافاة بين أتباع المذاهب بعضهم مع بعض .

ثالثا : الدعوة الى اعداد القوة وتنظيم حركة جهادية قوية لاعلاء كلمة الله واقامة دينه في الأرض والذود عن حمى الديار الاسلامية . وقد عنى الامام المهدى بتربية أتباعه تربية نفسية عالية وبعث فيهم روح الجهاد والتضحية بالنفس والمال في سبيل الله ثم كون منهم جيشا قويا وأعد العدة لمواجهة الاستعمار الانجليزى الذى أحاط بعنق مصر ، ووقعت معارك دامية بين جيشه والجنود المصرية المعززة بالقوات البريطانية وكان أعنف هذه المعارك الحملة الكبيرة المعروفة باسم " حملة هكس " وقد تم للامام المهدى النصر في جميع هذه المعارك رغم تفوق جيش عدوه على جيشه عددا وعدة وخبرة بفنون الحرب . واذا كان تتابع هزائم الحملات المصرية البريطانية امام جيش الامام المهدى قد ألجأ هذه الحملات الى التراجع عن مواصلة الهجوم والانسحاب من السودان فقد جاء ذلك وفق خطة مدبرة وسياسة مرسومة ريثما تستجمع القوى وتدرس الأوضاع من جميع جوانبها وتعد العدة الكاملة للحرب الفاصلة لاحتلال بلاد السودان واخضاعها لموجة الاستعمار الكاسرة المدمرة ، ولكن ذلك لم يتم الا بعد وفاة الامام المهدى .

وأما منهج الامام المهدى في دعوته فكان يتلخص في التنظيم الصوفي ونشر الدعوة بالوعظ والارشاد والتعليم وتربية الأتباع تربية روحية وعملية على أصول الاسلام ومبادئه واخلاقياته ، فكان يحثهم على الزهد في الدنيا وايثار الاخرة والتضحية والتفاني في سبيل الله والتحلي بالصدق والامانة والصبر والمثابرة على الحق وطاعة الله في المنشط والمكره والاخلاص في دين الله وما الى ذلك من

الصفات الحميدة التي تدل على عمق ايمان المؤمن ، وذلك الى جانب الاعداد العسكري والجهاد في سبيل الله لاعلاء كلمة الله ونشر دينه في الأرض .

وقد كان من أهم أهداف حركة الامام المهدى توحيد الشعوب الاسلامية تحت قيادة اسلامية واحدة واقامة دين الله وتطبيق شريعته في ربوع بلاد المسلمين وقد رأينا الامام المهدى بعد أن استتب له الأمر في السودان يوجه الدعوة لخديوى مصر ولأهلها ولاهالي مراكش وفاس ومالى كما خاطب محمد المهدى بن السنوسي في ليبيا وسلطان حياتو بن سعيد بن عثمان في سوكوتو ، وبعد وفاته جدد خليفته الدعوة للامام السنوسي ولأهل مصر والحجاز وقبائل نجد والسلطان عبد الحميد والملكة فكتوريا وملك الحبشة وسلطان وادى وسلطان سوكوتو والسلطان زابح . ولكن رغم ان هذه الحركة لم تتمكن من تحقيق جميع أهدافها وبلوغ غاياتها في رفع لواء الاسلام خفاقا في أنحاء العالم الاسلامى والتمكين لدين الله واقامة شرعه في الأرض وتوحيد المسلمين تحت قيادة اسلامية واحدة فقد استطاعت أن تخلص السودان من قبضة الحكام المارقين وأن ترد اطماع الانجليز عن البلاد فترة من الزمن لتقيم فيها دولة اسلامية تطبق شرع الله وتنشر العدل وتوجه جميع نواحي الحياة نحو الوجهة الاسلامية . ومن مآثر هذه الحركة من الناحية الاجتماعية أنها استطاعت أن تعيد توزيع الثروة بين الاغنياء والفقراء حيث وزعتها توزيعا عادلا من طريق التربية الايمانية والاقناع واثارة الاحاسيس والعواطف الانسانية من دون ماحاجة الى اللجوء الى استعمال السلطة وأسلوب الاكراه، وقد جاء عن الامام المهدى في هذا الصدد أنه قال : " وتعلمون من تذكير الله وتذكير رسوله صلى الله عليه وسلم أن من بدأ بنصيب الاخرة فأراد حرثها وصل اليه نصيبه من الدنيا وأدرك من الآخرة مايريد ، وحيث أن الامر كذلك وأنا أحب لكم مايدوم نفعه فمن كان له طين فليزرع منه ما استطاع زرعه وإذا عجز أو كان (فوق) ما احتاج اليه فلا يأخذ فيه دقندى (أجرة الأرض) لان المؤمنين كالجسد الواحد . ومايساوى به أخاه المؤمن يكون له في ميزانه دائما بدرجات عليا عند الله ، وليست المسابقة بين

المؤمنين الا فيما يبقى . وان كل مؤمن ملكه من الطين له ولكن من باب احـــراز نصيب الاخرة فمالا يحتاج اليه يعطيه لأخيه المؤمن المحتاج وماعجز عنه وأراد بــه الاخرة خير له من نفع دقندى (أجرة الارض) يغنى عن قريب ويتحسر عليه اذا لـم يصرفه لآخرته (١) . . " والى جانب ذلك كانت جهود هذه الحركة في القضـاء على الامراض الاجتماعية والمفاسد الخلقية المتفشية بين الناس من مظاهر الـترف والبذخ وشرب الخمر وتدخين التنباك والفساد الجنسى والعادات والتقاليد الجاهلية مثل النواح والاجتماع على الميت بعد تجهيزه ودفنه وجعل الصمغ في رؤوس النسـاء وما الى ذلك وقد كانت أحكام المهدى صارمة لتطهير المجتمع من هذه المفاســد الخلقية الماحقة .

ولكن القوى الصليبية المعادية لم تكن لترضى بالهزائم المتلاحقة التى منيـت بها أمام قوة الامام المهدى وبخاصة هزيمة الحملة التى قتل فيها القائد الانجليـزى الشهير " غوردن " كما أنها لم يكن ليرضيها أن ترى الدولة المهدية قائمة ممكنــة في الأرض متغلبة على أعاصير هجومها المدمر ، فقد نظمت حملات عنيفة ضد هـــذه الدولة الفتية بعد وفاة الامام المهدى اشتركت فيها الجنود المصرية الـــى جانب القوات الانجليزية بقيادة القائد الانجليزى " كتشنر " فاستطاعت أن تحتـل السودان بعد أن سحقت جيش خليفة المهدى وقتلتهم شرّقتلة ، ثم تمكنت بعد ذلـك من التوغل في أنحاء البلاد لاستكمال الأدوار الباقية من الحروب الصليبية الجديدة .

---

(١) من منشور للامام المهدى بتاريخ (١٣٠١هـ (١٨٨٤م) ، نقله الاستاذ الصادق المهدى في كتاب " يسألونك عن المهدية " ص ١٩٥ .

الفصل الثانى : حركات البعث الإسلامى المعاصرة

- تمهيد
- المبحث الأول : حركة الإخوان المسلمين بمصر .
- المبحث الثانى : حركة الجماعة الإسلامية بباكستان .
- المبحث الثالث : الحركات الإسلامية فى تركيا وايران واندونيسيا .

...

حركات البعث الإسلامي المعاصرة

تمهيد

منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجرى (أواخر القرن التاسع عشر الميلادى)
كان العالم الإسلامي يمر بمرحلة عصيبة في تاريخه الطويل ،حيث بدأت نتائج
الغزو الأجنبي ومؤثرات الحضارة الأوربية اللادينية تظهر في كيان الأمة
الإسلامية وتنخر في قواها ومقومات حياتها ، فحدثت في المجتمعات الإسلامية
مشكلات وقضايا وأزمات متعددة فككت عراها وشوهت معالمها وأضاعت ميزاتها
الأساسية وبدلت أحوالها وعكست اتجاهها . وفي وسط هذه الظروف الحرجة
التى اشتدت فيها عواصف هجوم الغرب الماكر نشأت حركات تمثل ردود فعل للأوضاع
الماحقة التى جثمت على صدر الأمة الإسلامية ، وتهدف هذه الحركات إلى إعادة
مجد هذه الأمة وعزتها وإنقاذها من السيطرة الأجنبية ومواجهة تحدياتها المتعددة
في جميع الأصعدة .

ولقد تبنت هذه الحركات اتجاهات متعددة في سبيل تحقيق أهدافها ،
ويمكن حصرهذه الاتجاهات في ثلاث نقاط :-

أولاها : حركات المواجهة السياسية والعسكرية للغزو الأجنبى

ثانيها : حركات المحافظة على التراث الإسلامى في وجه الغزو الفكرى والثقافى الأوربى .

ثالثها : حركات الإحياء الشامل لقوة الإسلام مع التركيز على التطبيق العملي لحقيقة الإسلام وإقامة حكم الله في الأرض .

وأما حركات المواجهة والمناهضة للغزو الأجنبى فقد ظهرت في أعمال
المقاومة الشعبية العسكرية التى نظمها القادة المناضلون المكافحون لتحرير
بلاد المسلمين وطرد جيوش العدو المتسلط كعبد القادر الجزائرى وعمر المختار
والحاج عمر بن سعيد تال في السنغال وغيرهم وكذلك حركات التحرير السياسية

المتمثلة في جهود عدد من الدعاة والمفكرين والكتاب والخطباء الذين نهجوا سبيل بعث الوعي الصحيح في الأمة الإسلامية وملأوا أرجاء العالم الإسلامي بخطبهم ومقالاتهم حماسا ونشاطا وكشفوا عن حقيقة العدو ومخططات هجومه الكاسح على الأمة من أمثال جمال الدين الأفغاني وسليمان الباروني ورشيد رضا وأبي الكلام آزاد وغيرهم . ولا يكاد بلد من البلدان الإسلامية يخلو من أمثال هؤلاء الدعاة والمناضلين الذين استثاروا روح الكفاح في أقوامهم ونادوا بهتاف المقاومة لوسائل العدوان وأساليب المكر التي يمارسها العدو في شتى المجالات أو الذين قادوا بالفعل جيوش المقاومة الشعبية في ساحة المعركة لانهاء التسلط الأجنبي وتخليص الأمة الإسلامية من قبضة الغزاة .

ثم جاء بعد هؤلاء دعاة القومية والوطنية فوجهوا أعمال المقاومة وحركات الكفاح وجهة غير إسلامية وساروا فيها وفق توجيهات رجال الاستعمار وإرشاداتهم ، وأسسوا الأحزاب السياسية وتبنوا أفكار الغرب ومناهجه في مختلف شئون الحياة وناضلوا لإنهاء الحكم الأجنبي حتى انسحبت قوى الاستعمار تاركة الميدان لأذنابها وربائبها ليكملوا الأدوار الباقية من خططها ويربطوا عجلة المجتمعات الإسلامية بقاطرة الغرب المادى اللاديني ويمكن القول بأن الكفاح الذى قام به دعاة القومية والوطنية في سبيل التحرير قد حقق لهم بعض أهدافهم ومطامعهم في معظم البلدان المستعمرة ، ولكن القدر الذى تحقق من هذه الأهداف والمطامع لا يعزى في حقيقة الأمر إلى هذا الكفاح - وإن كنا لا ننكر ماله من ضغط على وجود العدو ومصالحه - بقدر ما يعزى إلى تطاحن القوى الاستعمارية فيما بينها الأمر الذى وصل مرحلة خطيرة في الحربين العالميتين الأولى والثانية ، وذلك إلى جانب اطمئنان الدول الاستعمارية إلى بقاء سيطرتها على الشعوب المستعمرة حتى مع انسحاب قواتها من الميدان . ورغم تبجح الشعوب المستعمرة بتحقيق الاستقلال وفرحتها البلهاء باسترداد الحرية وطرد جيوش العدو فإن

الدول الغربية الاستعمارية لا تزال تهيمن على شئون هذه الشعوب . وإذا كانت هذه الهيمنة بالأمس عسكرية وسياسية عن طريق الغزو المسلح والاحتلال المباشر فقد صارت بعد الاستقلال هيمنة صناعية واقتصادية وسياسية عن طريق الغزو الفكرى والتحكم في مجرى السياسات الدولية فذلك أدهى وأمر . (١)

وأما حركات المحافظة فقد اتجهت نحو احياء التعليم الدينى ونشر التربية الإسلامية بين الأجيال الإسلامية الناشئة لمواجهة خطر التغريب والتبشير الذى أخذ يهدد الأجيال المسلمة،ومكافحة خطط الغرب ووسائله في ميدان التربية والتعليم والخدمات الاجتماعية . من أجل هذا عزم أصحاب هذا الاتجاه على إنشاء جمعيات تتولى مهمة إقامة المدارس والمعاهد الدينية لتكوين أجيال مسلمة مثقفة ثقافة دينية تحصنها من أدران مؤثرات الحضارة الغربية الغازية . ومن الشخصيات والجمعيات التى تولت هذه المهمة وأنشأت المدارس والمعاهد لأبناء المسلمين الشيخ محمد قاسم النانوشى الذى أنشأ مدرسة ديوبند في الهند سنة ١٢٨٣هـ (١٨٦٣م) والشيخ سعادات على الذى أنشأ مدرسة مظاهر العلوم في سهارنبور في نفس تلك السنة (٢) وكذلك أنشأ القائمون على شئون ندوة العلماء بالهند مدرسة دار العلوم في لكنهوء سنة ١٣١٦هـ (١٨٩٦م) . وجمعية الدعوة والإرشاد التى أنشأها السيد رشيد رضا ببيروت عام ١٣٣٢هـ (١٩١٢م) لمهمة الإشراف على المدرسة التى أقيمت باسمها لهدف الإصلاح عن طريق التربية والتعليم (٣) . والجمعية المحمدية وجمعية الإرشاد (٤) اللتان أنشئتا في اندونيسيا سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٢م) فقد أقامت الجمعيتان عددا كبيرا من

---

(١) راجع وحيد الدين خان ، المسلمون بين الماضى والحاضر والمستقبل ، ص ٤٦ - ٤٧ .
وكذلك محمد على الضناوى ، الطريق إلى حكم إسلامى ص ٢٠٠ - ٢٠١
(٢) راجع أبى الحسن الندوى ، رسالة الدعوة الإسلامية وتطورها في الهند ، ص ٢٨ - ٣٠ .
(٣) د . أحمد العدوى ، "رشيد رضا الإمام المجاهد" سلسلة أعلام العرب ، ص ٧٠ - ٨٠ .
(٤) أسس الجمعية المحمدية الحاج أحمد دحلان وأسس جمعية الإرشاد السوركتى الأنصارى وهو سودانى الأصل .

المدارس والمؤسسات الاجتماعية ، وكذلك جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت والجمعية الخيرية الإسلامية وإسعاف المحتاجين في طرابلس وجمعية التربية الإسلامية وأمثالها المتناثرة في أنحاء البلاد الإسلامية خلال هذه الفترة . ولكن معظم رواد هذا الاتجاه قد قصروا مهمتهم على إنشاء المعاهد وركزوا فيها على تدريس اللغة العربية والعلوم الدينية في صورتها الجافة التي لا روح فيها ولا حركة كما ورثوها من عصور الانحطاط ثم أهملوا الجوانب الأخرى المهمة من العلوم الطبيعية والتطبيقية . وقد أدى ذلك إلى فشل جهود هذا الفريق في تحقيق غاياته الأساسية لأن التعليم الديني المحدود الذي تولت مدارس هذا الفريق تدريسه في صورته المتخلفة الجامدة لم يستطع أن يحوز المكانة اللائقة به في شئون المجتمع وذلك بسبب عجزه عن مواكب التغيرات والتطورات العصرية المستجدة والهيمنة عليها وبالتالي لم يكن قادرا على صد تيار الغزو الفكري الأجنبي ومواجهة وسائل توغله المتعددة . وهكذا تقلص سلطان هذا التعليم المحدود تاركا المجال فسيحا أمام سيطرة الحضارة الأوربية وعلوم الغرب ومعارفه .

وأما حركات الإحياء الشامل لقوة الإسلام فقد رأت أن جميع المشكلات والأزمات التي تواجه المسلمين في العصر الحديث إنما هو بسبب عدم التطبيق العملي لحقيقة الإسلام وقيام الحكم الإسلامي في البلاد الإسلامية . ويقول أصحاب هذا الاتجاه إن المسلمين لو قدر لهم تطبيق حقيقة الإسلام بمفهومه الكامل الشامل الصحيح وتنظيم شئون مجتمعهم على أساس هدى الله ومنهجه لحلت جميع المشكلات والأزمات وحاز المسلمون المكانة اللائقة بهم في قيادة البشرية ونشر السعادة والفضيلة في الأرض كما تحقق ذلك لهم في ماضيهم المجيد . وهكذا ركزت هذه الحركات على طلب إقامة الحكم الإسلامي وتطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمعات المسلمة ، كما أبرزت ماتضمنته التعاليم الإسلامية من مفاهيم سياسية ونظم تشريعية وقواعد وأسس اجتماعية واقتصادية . فتقبلها كثيرون من المثقفين المسلمين الحائرين أمام النظريات والنظم والأفكار الغربية الوافدة . وهكذا

تجمع المتنورون الغيورون على إقامة هذا الدين في صعيد العمل الإسلامي ساعين للتطبيق الكامل للإسلام مركزين على ضرورة إحداث تحول جذري في مجال السياسة ونظام الحكم وفق منهج الله المنزل . ولكن سرعان ما اصطدمت هذه الحركات مع الحكومات المنحرفة والمارقة القائمة في البلدان الإسلامية والتي طالما استبدت بالسلطة وتحكمت في مصير الأمة ، فقد رصدت هذه السلطات جميع قواها لسحق هذه الحركات وإبعادها من حلبة الصراع السياسي المحتدم في البلاد . ولا تزال تتحسس من أخبارها لئلا تعود إلى الحياة والقوة من جديد ليشكل أخطر عقبة في وجهها .

وإن القصد من استعراض هذه الاتجاهات المتعددة التي تبنتها الحركات الإسلامية هو لمجرد تسجيل الجهود المبذولة في مواجهة خطر الغزو الأجنبي ، فإننا لا نولي اهتماما كبيرا لتلك الحركات التي اتخذت حلولا جزئية لا تتسم بالنظرة الشمولية في دراستها للأوضاع القائمة ومايحيط بالمجتمع المسلم من أخطار وأزمات في جميع الجوانب وبالتالي كانت جهودها في سبيل الإصلاح قاصرة عن بلوغ غايتها حيث لم تتعرف على منبع المشكلة ولم تستوعب صورها وأشكالها ولم تهتد إلى الحل الشامل المناسب وتقدير الدواء الناجع لدرء الأخطار وإصلاح حالة المجتمع المسلم المتدهورة .

وسنتناول دراسة حركات البعث الإسلامي المعاصرة التي اتسمت دعوتها بالنظرة الشمولية في العمل والتخطيط . وتتمثل هذه الحركات في حركة الإخوان المسلمين بمصر والجماعة الإسلامية في باكستان وحركة جماعة النور في تركيا وفدائيان إسلام في ايران وحزب "ماشومي" أو مجلس شورى المسلمين في اندونيسيا .

المبحث الاول :

حركة الإخوان المسلمين (١)

في أعقاب ثورة عام (١٩١٩م) ١٣٣٩هـ تضافرت عدة عوامل محلية وأخرى

---

(١) مؤسس هذه الحركة هو الإمام حسن البنا ، ولد في قرية المحمودية مديرية البحيرة بمصر سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٦م) وقد انحدر من أسرة مشهورة بالعلم والصلاح حيث كان أبوه عالما جليلا كرس حياته لإحياء العلوم الإسلامية والذود عن حمى الدين ، اشتغل بالفقة والتوحيد والحديث والنحو وألف كتبا عديدة منها بدائع المسند في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن ، والفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام احمد الشيباني وشرحه الذى أسماه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني وغير ذلك (راجع د . اسحاق الحسيني ، الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية ، ص ٥٣) نشأ الإمام حسن البنا وترعرع في أجواء هذا المعقل العلمي وفي أحضان هذه الأسرة المسلمة فربي تربية دينية خالصة ، وقد أحفظه أبوه القرآن كاملا قبل أن يلتحق بالتعليم الابتدائي ودربه على الدقة والمهارة والصبر والمثابرة من خلال تعليمه إياه صناعة الساعات التى كان يشتغل بها (راجع المصدر السابق ص ٥٣ - ٥٤) درس الإمام البنا في مدرسة الرشاد ولما تخرج منها - وهو لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره - كون هو وبعض زملائه جمعية لمنع المحرمات ، وكانت مهمتهم تقديم النصح للناس عن طريق المراسلة السرية باليد لإقناعهم بالإقلاع عما يتعاطونه من المحرمات (راجع مذكرات الدعوة والداعية ، للإمام حسن البنا ص ١٠ - ١٤) ولما بلغ الرابعة عشرة التحق بمدرسة المعلمين الأولية بدمنهور ولما تخرج منها واصل دراسته في دار العلوم حتى أتمها سنة ١٣٤٧هـ (١٩٢٧م) . كان الإمام البنا في فترة دراسته شغوفا ومحببا إلى حضور حلقات التعليم والذكر في المساجد ، وحدث في أثناء ذلك أن تعرف على الطريقة الحصافية الصوفية وكان يحضر جلساتها ، وقد تعرف من خلال هذه الجلسات على عدد من الشخصيات منهم صديقه أحمد السكرى الذى كان يرأس " الجمعية الحصافية الخيرية " ثم عين الإمام البنا لشغل منصب أمين عام الجمعية . ونلمس من الآثار الطيبة لعمل الإمام البنا مع هذه الجمعية وضع الدعوة للخير والقضاء على المفاسد ومقاومة الارساليات التبشيرية الانجيلية في مقدمة أهداف هذه الجمعية ومهامها .
(راجع مذكرات الدعوة والداعية للإمام البنا ص ١٦ - ٢٠) .
وقع اكبر حدث مؤلم بالأمة الإسلامية في أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجرى وكان سن الإمام البنا لا تتجاوز الثامنة عشرة ذلك هو سقوط الدولة العثمانية تحت وطأة الكيد الصليبي والصهيوني وإلغاء الامامة الإسلامية الكبرى التى كانت تمثلها هذه الدولة منذ مايقرب من خمسة =

خارجية لقيام حركة بعث إسلامي في المجتمع المصرى بوجه خاص وفي الأقطار الإسلامية الأخرى بوجه عام وبخاصة بعد إلغاء مصطفى أتاتورك الخلافة الإسلامية في تركيا عام ١٩٢٤م . ولم تكن هذه العوامل وليدة هذه الفترة المحدودة وإنما كانت جذورها ممتدة إلى فترة طويلة يمكن تحديدها بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادى ، وقد قاوم أصحاب الفكر الإسلامى التيارات الفكرية المعادية للإسلام والتي تتمثل في الفكرة القومية ومايدعي بحركة التجديد والإصلاح عندما بدأت هذه التيارات تأخذ شكلامؤثرا في المجتمع المصرى خلال هذه الفترة . ثم جاءت الظروف السياسية القاسية التي كانت سلطات الاحتلال تتحكم في مسارها منذ سنة ١٣٠٢هـ (١٨٨٢م) فظهرت هذه التيارات بصورة سافرة خطيرة وقامت على أساسها حركات متعددة تصدرت أعمال الكفاح والنضال الشعبي وخاصة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى . وقد أدت هذه العوامل إلى اضطراب حالة البلاد ومزيد من التدهور والتأخر والتخلف مماجعل بعض المفكرين المتنورين يحسون بالحاجة الملحة إلى ضرورة البحث عن أسلوب جديد لمواجهة قوى الاحتلال وصد أخطارها وإجلائها من البلاد والسعي للإصلاح الحقيقى لحالة البلاد ،وكان

= قرون متتالية وماتركه ذلك من فراغ كبير في حياة الأمة الإسلامية بفقدان قيادة إسلامية كبرى تجمع شمل المسلمين وتمثل وحدتهم إلى جانب ماآل إليه حال المسلمين في هذه الفترة الحالكة من الضعف والتخلف والوهن والفتور ، كل ذلك قد ترك في نفس الإمام البنا أثرا بالغا وأثار غيرته الإسلامية وكان الإمام البنا قوى الإيمان بقوة الإسلام وحيويته وصدق وعد الله للمؤمنين بالعلو والتمكين في الأرض إن هم حققوا إيمانهم بهذا الدين فلذلك عزم على العمل لعودة المسلمين إلى مصدر عزهم وكرامتهم في الحياة يقيمون دين الله ويطبقون شريعته ويجاهدون لإعلاء كلمة الله . وهكذا بدأ الإمام البنا حركته سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٨م) وأطلق على جماعته اسم الإخوان المسلمين وقد مرت الحركة بمراحل متعددة وبذلت في سبيل تحقيق أهدافها جهودا كبيرة ولكن القوى الأجنبية والمحلية المعادية قد أحست بالخطر كل الخطر في وجودها لعمق فكرتها وقوة نشاطها وامتدادها فدبرت لاغتيال الإمام البنا ثم وضعت العراقيل والعقبات في وجه حركته ولا تزال تكيد لها وتمكر بها وتدبر لها المؤامرة تلو المؤامرة لإيقاعها في المآزق والمخاطر حتى لا تنعم بوجود ثابت ولا تحظى بالقوة والتمكين والاستقرار في أى بلد من البلدان الإسلامية .

مما قوى عزم هؤلاء على الإقدام قوة إيمانهم بفكرتهم وقدرتها على تحقيق الإصلاح الحقيقي الذى ينشده شعبهم المسلم وبخاصة بعد أن برهنت الأيام على فشل الحركات التي تزعمت النضال الشعبي قرابة خمسين سنة كما برهنت أيضا على إفلاسها فكريا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

كانت الظروف السياسية الحرجة التي خلقتها سلطات الاحتلال بتسلطها وتحكمها في مصير الشعب المصرى قد دفعت بعض الزعماء والمثقفين إلى تأليف الأحزاب السياسية لمكافحة شر التدخل الأجنبي السافر في شئون البلاد والتدرج من المطالبة بالاشتراك في الحكم إلى طلب الاستقلال وتسليم العدو زمام حكم البلاد إلى أهلها . ولكن الأحزاب السياسية التي قامت منذ الأيام الأولى للاحتلال وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى وبعد ثورة سنة ١٩١٩م كحزب (١) الأمة والحزب الوطني الذى أنشئ عام ١٩٠٧م وتغير اسمه إلى حزب الأحرار الدستوريين منذ سنة ١٩٠٨م والحزب (٢) الجمهورى وحزب (٣) الوفد وحزب الاتحاد الذى أنشئ عام ١٩٢٥م وكان يجمع بين ولائه للقصر ولسلطات الاحتلال والحزب (٤) الاشتراكي .... هذه الأحزاب جميعا سواء منها ما نال

---

(١) ينتمي مؤسسو هذا الحزب إلى مدرسة الشيخ محمد عبده ، تلك المدرسة التي عادت تسلطات الاحتلال ونالت بذلك كل التشجيع والتأييد من جانبها . ويلاحظ أن أبناء هذه المدرسة كانوا في مقدمة الداعين إلى القومية المصرية المعارضين لفكرة الجامعة الإسلامية.

(٢) أنشئ هذا الحزب في أواخر عام ١٩٠٧ وكان يدعو إلى النظام الجمهورى بدل النظام الخديوى كما طرح بعض الأفكار الاشتراكية لمواجهة تسلط أصحاب الأعمال وإجحافهم بحقوق العمال .

(٣) أول الأحزاب التي أنشئت بعد الحرب العالمية الأولى ،أسسه أعضاء الوفد الذين مثلوا الشعب المصرى في مؤتمر الصلح للمطالبة بالاستقلال وكان على رأسهم سعد زغلول وكان أغلبهم ينتمون إلى حزب الامة .

(٣) أنشئ في أعقاب ثورة ١٩١٩م وكان من مؤسسيه شبلي شميل،ونقولا حداد وعصامن الذين طرحوا الأفكار الاشتراكية ودعوا إلى إقامة الحكم الجمهورى وهاجموا الدين الإسلامي وفكرة الجامعة الإسلامية هجوما عنيفا .

تأييد الجماهير ودعمهم أم نال تأييد السراى أو تشجيع سلطات الاحتلال ومساندتها لم تفلح في مساعيها لتحقيق الاستقلال الحقيقي للبلاد وإصلاح حالتها المتدهورة. ويرجع السبب فى ذلك إلى إفلاس النظريات والأفكار والنظم التى تبنتها هذه الأحزاب من القيم الأساسية التى تقوم عليها الحياة البشرية وخلو مناهج عملها من برامج إصلاحية حقيقية لما يعانيه المجتمع من مشكلات وأزمات بالإضافة إلى أن القائمين على أمر هذه الأحزاب كانوا يصدرون فى أعمالهم عن توجيهات قادة الاستعمار ومستشاريهم الذين لم يألوا جهدا فى تدبير المكايد لصرفهم عن المطالب الحقيقية وكانوا يمنونهم بالوعود الكاذبة فراح هؤلاء المستغفلون يشيدون البناء القومى على قواعد مهتزة غير ثابتة فكانت النتيجة أن المساعى المبذولة فى سبيل الكفاح طوال هذه الفترة كانت تذهب أدراج الرياح وتسفر عن مزيد من الفشل والإفلاس فى كل اتجاه . يقول الإمام حسن البنا : " إن نهضتنا لا تزال مبهمة لا وسائل لها ولا غايات ولا مناهج ولا برامج ، سل أى زعيم سياسى ، رئيس الوفد أو رئيس الأحرار أو رئيس حزب الشعب أو رئيس حزب الاتحاد عن المنهج الذى أعده للنهوض بالأمة والسير بها إلى نوال أغراضها ، لا شيء أبدا . كل ما فى الأمر تطاحن على الحكم وتهاتر بالألفاظ ودس وتقرب من العدو وانتظار لما يلقى إليهم من فضلات مائدته على حساب مصر وأهل مصر ".[1]

ومن الناحية الفكرية كانت الظروف السياسية القائمة فى ظل الحكم الاستعمارى قد أتاحت الفرصة أمام المثقفين ثقافة غربية لنقل عدوى التيارات الفكرية الغربية إلى المجتمعات الإسلامية . وفى الوقت الذى كشفت هذه الظروف عن ضعف علماء المسلمين وتخلفهم وركودهم بسبب موقفهم السلبى من مؤثرات الحضارة الغربية وحقائق العلوم التجريبية مما أدى إلى اهتزاز منزلتهم وانحطاط مكانتهم فى المجتمع ، فى هذا الوقت برزت مجموعة من المثقفين ثقافة غربية نادت بهتاف التجديد وتبنت تصورات وأفكارا ترتكز على أساس أن الأخذ من الحضارة الغربية هو المنهج الأمثل للوصول بالبلاد إلى الرقى والنجاح[2] ، فقد كان هؤلاء يؤمنون بقدرة هذه الحضارة على وضع مثل عصرية راقية تحل محل القيم والمثل الإسلامية التى لم تعد صالحة - فى زعمهم - لإقامة مجتمع متقدم راق . وهكذا دعا هؤلاء إلى إحلال فكرة القومية المصرية

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية ص ١٤٢ .

(٢) راجع محمد الغزالى ، فى موكب الدعوة ص ٦ - ٧ .

محل فكرة الجامعة الإسلامية (١) وضرورة فصل الدين عن الدولة وإقامة النظام الليبرالي الديمقراطي والحياة النيابية على النمط الأوربي وإحلال المحاكم المدنية محل المحاكم الشرعية وتعديل قوانين الأحوال الشخصية وضرورة تحرير المرأة من القيود " الدينية" والاجتماعية وتحقيق المساواة بينها وبين الرجل لإلحاقها بأختها الأوربية "المتقدمة (٢) .

وكان من بين هؤلاء المثقفين والكتاب الذين أسهموا في مد التيارات الفكرية المناهضة للفكر الإسلامي في المجتمع المصري منذ أعقاب ثورة عام (١٩١٩م) ١٣٣٩هـ علي عبد الرزاق صاحب كتاب الإسلام وأصول الحكم وطه حسين وسلامة موسى (٣) ومرقص سميكة وشبلي شميل ونقولا حداد وأميل زيدان ود /محمد حسين هيكل وغيرهم .
كما كانت هناك أيضا صحف ومجلات عديدة استخدمت في هذا السبيل منها صحيفتا المقطم والمقتطف ومجلة الهلال وجريدة السياسة وجريدة البلاغ وغيرها وأما الاتجاهات الفكرية الغربية التي دعا إليها هؤلاء فتتمثل في الاتجاه الليبرالي والاتجاه القومي والاتجاه الشيوعي ، وقد نشطت هذه الاتجاهات في أعقاب الحرب العالمية الأولى عندما تمكنت فئة من رجال السياسة المصريين من تولي زمام السلطة وبدأت محاولة تطبيق النظام الديمقراطي واطردت عملية استيراد النظم والنظريات والأفكار وأساليب الحياة الغربية . وعندما ألغيت الخلافة الإسلامية في تركيا على يد أتاتورك سنة ١٩٢٤م لقي التيار الليبرالي العلماني والتيار القومي رواجا كبيرا لدى بعض المثقفين والكتاب ورجال السياسة والحكم فبدأوا يعلنون عن أفكارهم وتصوراتهم الداعية إلى رفض تعاليم الدين وأوامره كسلطة لا تناقش ولا يعقب على حكمها ، وإلى قبول

---

(١) د /أحمد عبدالرحيم مصطفى ، تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة ص٤٧ -٤٩ .
(٢) نفس المرجع ص ٧٠
(٣) انظر د / محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢ / ٨١- ٩١ ، ٢١٢ - ٢٢١ .

سيادة العقل الإنسانى وقدرته على تقرير الأشياء وأن يكون هو وحده الفيصل فى الحكم على الأمور[١]. ثم جاء افتتاح الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥م ليفسح المجال أمام هؤلاء العلمانيين لتوطيد دعائم فكرهم فى المجتمع ونشر اتجاهاتهم بين الأجيال الناشئة لتسير على نهجهم فى فهم الدين وتصور علاقته بالحياة الإنسانية.[٢]

وأما الاتجاه القومى[٣] فكان يتمثل فيما سمى بالأفكار التقدمية التى نادى بها أصحابها لمواجهة فكرة الجامعة الإسلامية وتشمل هذه الأفكار فكرة القومية المصرية والفكرة الوطنية وفكرة القومية العربية وفكرة القومية الفرعونية . وقد واتت الظروف خلال هذه الفترة لسيادة الفكر القومى على مسرح الأعمال السياسية بمصر. وكان لسلطات الاحتلال دور خطير فى ذلك حيث كانت تشجع كل ما يبرز شخصية مصر القومية من وضع الكتب وإعداد البحوث فى التاريخ القومى لمصر واكتشاف الآثار القديمة.[٤]

وأما الاتجاة الاشتراكى فقد ظهر فى المسرح السياسى عندما قام (جوزيف روزنتال اليهودى الإيطالى الأصل) بتأسيس أول حزب اشتراكى فى مدينة الاسكندرية بعد ثورة سنة ١٩١٩م إلا أن القوى السياسية المحلية - ومن ورائها سلطات الاحتلال - قد تمكنت من القضاء على هذا الحزب بعد فترة يسيرة . ولم يظهر للحركة الاشتراكية وجود فى مصر بعد ذلك حتى فترة الحرب العالمية الثانية

---

(١) راجع د/زكريا سليمان بيومى - الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية .. ص١٤٧- ١٤٨ وللاطلاع على موقف الإخوان من التيار العلمانى راجع مجموعة رسائل الإمام الشهيد ص٢٦٦ - ٢٨٢ , ١١٠ - ١١٢.

(٢) المصدر السابق ص ١٤٨ . ١٤٩ .

(٣) وللاطلاع على موقف الإخوان من التيار القومى راجع مجموعة رسائل الإمام الشهيد ، فصل دعوتنا فى طور جديد "مكان القومية والعروبة والشرقية والعالمية من هذه الدعوة ص١١٢ - ١١٥ ، واقرأ كذلك فكرة القومية عند الإخوان للدكتور عاصم الدسوقى ص ١٥٤ وما بعدها.

(٤) د.زكريا سليمان بيومى ، الاخوان المسلمون والجماعات الاسلامية.. ، ص ١٥٧-١٥٨ .. وقد تم اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون سنة ١٩٢٢م وكان مما زاد فى تعلق بعض الاقباط بفكرة القومية الفرعونية .

حين أدت بعض الظروف (١) والأحداث إلى عودة نشاط هذا التيار مرة أخرى فتكونت منظمات يسارية سرية متعددة في كل من القاهرة والاسكندرية . (٢)

وأما الناحية الاجتماعية فقد كان للظروف السياسية القائمة في ظل الاستعمار وما تمخض عنها من انفساح المجال أمام المثقفين المتأثرين بالحضارة الغربيـــة لنقل النظريات والأفكار الأوربية إلى المجتمع المصرى آثارها السيئة على الحيـــاة الاجتماعية . ومع الممارسات السياسية المختلفة والتقلبات التي كانت تحدث فــي المسرح السياسي وسرعة انتشار الأفكار والنظريات الغربية بين طبقة المثقفين والزعماء السياسيين ازداد توغل العادات والتقاليد الأوربية وانتشارها بين مختلف طبقـات المجتمع . فقد شهدت البلاد انتشار حانات الخمر ودور الملاهي الليلية ودور البغاء ودور السينما والمسارح الليلية وانتشرت الصور العارية في المجلات تعـرض الأوضاع المثيرة المغرية باسم الفن ، ثم تجاوز هذا الداء المجلات إلى أشرطـــة الخيالة ثم اقتحم المعاهد الحكومية فدخل مدرسة الفنون الجميلة ولكنه لم يدخـل هذه المرة في شكل صورة او تمثال وإنما دخل جسما حيا فتاة في مقتبل الشباب - تقف عارية كما ولدتها أمها أمام شباب مراهق ، فكثر حديث الصحف والمجلات عن الفن والفنانين والممثلين والممثلات والمغنين والمغنيات والراقصين والراقصـات واحتلت أخبارهم وأخبارهن في أتفه ما يخطر على البال أبرز الأماكن في الصحـف والمجلات حتى كأن الله لم يخلق في الناس أشرف ولا أحق بالرعاية والتقدير مـن هؤلاء ، وانصبت اهتمامات الأدباء على ترجمة القصص والروايات الأجنبية الخليعـة وبرزت الاتجاهات الأدبية الهدامة المعادية للدين وكثرت حفلات الطرب والغناء

---

(١) راجع د . رفعت السعيد - تاريخ المنظمات اليسارية المصرية ، ص٨٦ - ٩١
وكذلك عاصم الدسوقي ، " مصر في الحرب العالمية الثانية " ص٣٢٢ - ٣٢٤

(٢) طارق البشرى ، الحركة السياسية في مصر ص ٨٢ .

والرقص في المدن وخاصة في بيوت الأثرياء المترفين[1] . ولم تقتصر مظاهر الانحلال والبذخ والفساد على طبقة الاغنياء بل تخطتها الى صفوف العمال والحرفيين وغيرهم في المدن وكان ذلك مما أضعف قوة القيم الدينية والتقاليد الأصيلة في نفوسهم وان لم يستطيع نزعها منها كلية[2] .

وأما في الناحية الاقتصادية فقد تعرضت مصر لازمة اقتصادية منذ ماقبل الاحتلال البريطاني سنة ١٣٠٢هـ (١٨٨٢م) فقد كانت الازمة الاقتصادية القائمة وقتئذ تعتبر عاملا أساسيا من العوامل التى ارتكز عليها بريطانيا في احتلالها لمصر. ولكن هذه الأزمة لم تنحل بهذا الاحتلال والسيطرة السياسية والاقتصادية التى فرضتها قوى الاستعمار بل أخذت تزداد مع الايام حتى تفاقم خطرها خلال الحرب العالمية الاولى ، وعند ذلك رأى السياسيون والاقتصاديون المصريون - وهم مدفوعون الى ذلك غير مختارين في أغلب الاحيان - ألا سبيل الى الاصلاح غير استيراد النظريات والنظم الاقتصادية الغربية ومحاولة تطبيقها لينجلي سحاب الازمة عن سماء البلاد . وهكذا تأسست البنوك والشركات المساهمة على النمط الأوربى . ولكن الطين ازداد بلة حيث زادت حدة التوتر القائم وظهرت مشكلات أخرى جديدة . وشهدت الحياة الاقتصادية مظاهر سيئة من الفوارق الطبقية والاجحاف بالحقوق وكثرة المظالم وبروز فئة الرأسماليين . وتحكمها في مسار النشاط الاقتصادى فنتج عن ذلك ظهور الخطر الاشتراكى يهدد باقتحام الدار على أهلها لطرد عملاء الغرب الرأسماليين الذين افقروا البلاد لحسابهم الخاص واقامة النظام الاشتراكى في البلاد كحل ناجع للازمة القائمة .

---

(١) انظر د. محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ، جـ ٢ ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

(٢) راجع طارق البشرى ، الحركة السياسية في مصر ، ص ٦٩ - ٧٠

وأما من الناحية الدينية فقد كان الغاء تركيا للخلافة الاسلامية وماتركه ذلك من فراغ كبير في الحياة الاسلامية من الناحية الدينية والسياسية أكبر حدث وقع بالامة الاسلامية قبل قيام حركة الاخوان المسلمين بسنوات قليلة . وكذلك ماتبع ذلك من صراع فكرى حاد بين المتأثرين بالفكر الغربي العلماني والمحافظين على الفكر الاسلامي الاصيل حول هذه القضية الخطيرة كمناقشة شرعية الخلافة وفرضيتها وأهمية وجودها وصلاحيتها لكل العصور ، وهل يجب ان تستمر بشكل آخر ؟ وهل يجوز الاستغناء عنها بتنظيمات سياسية أخرى ؟ وهل يمكن نقلها الى مصر أو أى بلد اسلامى آخر بعد أن نبذتها تركيا وراء ظهرها وولت وجهها شطر الغرب .

وكانت المعركة التي دارت حول هذه القضية قد بدأت بعد صدور كتاب علي عبد الرزاق بعنوان " الاسلام وأصول الحكم " واستمرت فترة من الزمن مع تتابع صدور الكتب والبحوث والمقالات من المثقفين المتأثرين بالفكر العلماني من تلاميذ الشيخ محمد عبده والذين تأثروا بهم واعتبروا قول الشيخ " لعن الله ساس ويسوس ومشتقاتها " قولا مأثورا " (١) ولكن رغم وجود رد فعل لافكار هؤلاء المثقفين العلمانيين من جانب رجال الفكر الاسلامي المتمثلين في علماء الازهر ودعاة الفكرة الاسلامية من أمثال رشيد رضا والشيخ مصطفى صبرى والشيخ محمد الخضر حسين وغيرهم فقد كان دورهم في مواجهة هذا الخطر ضئيلا جدا (٢). وقد اقتصر عملهم على الجانب النظرى من هذه القضية ولم يشغلوا أنفسهم بدراسة الناحية العملية والتخطيط لاخراج نظرياتهم وتصوراتهم الى حيز الوجود وبخاصة في الحقل السياسى والاجتماعي والاقتصادى ولم يكن ذلك فقط هو كل مافي الأمر بل كان الى جانب ذلك ايضا الموقف السلبي الذى اتخذه رجال الفكر الاسلامى

---

(١) راجع د . احمد عبد الرحيم مصطفى ، تطور الفكر السياسى في مصر الحديثة . ص ٩ . وكذلك احمد بهاء الدين " ايام لها تاريخ ص ٢٢٨ .

(٢) في اعقاب الغاء تركيا للخلافة الاسلامية اصدر رشيد رضا كتابا بعنوان "الخلافة او الامامة العظمي نشره في مستحلقات في مجلة المنار ، وكذلك الف مصطفى صبرى كتابا بعنوان النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والامة كما ألف الشيخ محمد الخضر حسين كتابا بعنوان " القيم " لبيان فرضية الخلافة . راجع د . محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ٢ / ٥١ - ٦٣ ، ٦٩ - ٨٠ .

من التيارات الفكرية الغربية التى أخذت تجتاح القيم والمثل الاسلامية ووصلت موجتها مرحلة خطيرة في أعقاب الحرب العالمية الاولى . ولم يكن لعلماء الأزهر دور فعال في صد خطر هذه التيارات أو عرقلة توغلها وانتشارها ، فلم يتقدموا بفكر واضح متكامل لنظام الحكم في الاسلام ولا بنظرية اقتصادية اسلامية مفصلة تتفق مع تطور الحياة وتحل الازمات التى تواجهها البلاد .

ولكن هذا الموقف السلبى من جانب العلماء والمشايخ تجاه التيارات الفكرية الغربية المعادية للاسلام وخطرها المستشرى في كيان الأمة وضعفهم واستكانتهم عن المواجهة (١) العملية كان له بالغ الأثر في نفوس الغيورين على هذا الدين من الشباب المسلم الذين آلمتهم حالة المجتمع المسلم المتدهورة امام كيد قوى الصليبية الغازية . فتوقدت في نفوسهم المشاعر الدينية ودفعتهم عن ايمان وقوة وعزم الى المبادرة بالقيام بعمل اسلامي لاعادة عزة الاسلام والمسلمين باقامة الدين وتطبيق تعاليمه في جميع مجالات الحياة (٢) .

كانت دعوة الاخوان المسلمين امتدادا فكريا لدعوات بعث اسلامي سابقة (٣) . فقد استقت أصول افكارها من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والدعوة السنوسية كما تأثرت بمدرسة المنار الفكرية بحكم معاصرة الامام حسن البنا للسيد رشيد رضا موسس هذه المدرسة . كانت نقطة الالتقاء بين دعوة الاخوان ودعوة الامام محمد بن عبد الوهاب والدعوة السنوسية من حيث أصل الفكرة وشمولها وبخاصة في الدعوة الى التطبيق العملى لحقيقة الاسلام وضرورة اقامة دولة اسلامية تحكم بالشريعة الاسلامية . وقد أفادت دعوة الاخوان من السنوسية خاصة

---

(١) راجع الامام حسن البنا ، مذكرات الدعوة والداعية ص ٥٥ - ٥٨ للاطلاع على نموذج من ضعف العلماء واستكانتهم في هذه الفترة وذلك في حوار الامام البنا مع الشيخ يوسف الدجوى احد علماء الازهر حول هذا الموضوع .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٥٤-٥٥ .

(٣) د . اسحاق الحسيني ، الاخوان المسلمون كبرى الحركات الاسلامية ، ص ٦ - ٧

ناحية التنظيم والتخطيط ومنهج التربية الروحية والعملية في تنشئة الاتبـاع وان كان نصيب حركة الاخوان في ذلك كله أعمق وأدق وأشمل ؛ وأما تأثـر الامام البنا بمدرسة المنار فهو في جانب غيرة السيد رشيد رضا الشديدة علـى الاسلام وحماسته واهتمامه بفكرة الجامعة الاسلامية وانشغال ذهنه بها ليل نهـار وجهوده (١) الكبيرة في الدعوة اليها في خطبه ومقالاته وكتبه - وان لم يعمل لاخراج فكرته في مظهر تنظيم عملي وحركي هادف كما فعل الامام حسن البنا- وكذلـك جهوده في التصدى للتيارات الفكرية الغربية الغازية ومحاربته لها وفي عرض الافكار الاسلامية الناصعة ودعوة المسلمين الى التمسك بها ونبذ كل مايخالفها أويناهضها من النظريات والافكار . وقد أثنى عليه الامام البنا في هذا المجال قائلا :

" وكانت للسيد رشيد رحمه الله جولات قوية موفقة في رد هذا الكيد عن الاسلام (٢) "

فبما أن قيام دعوة الاخوان كان في أحلك الظروف وأشدها قسوة واكثرها التـواء واضطرابا فقد كان من الطبيعي أن تتخذ هذه الدعوة صورة حركية متميزة ومظهـرا تنظيميا خاصا يختلف عن مظاهر وصور الدعوات السابقة وان لم تخرج دعوة الاخـوان في اطارها العام عن الأصول والمبادىء التى تبنتها تلك الدعوات . كـان المجتمع المصرى حين نبتت هذه الدعوة يشهد التسلط الأجنبى السافر على جميـع شئون البلاد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا دون أن يملك الشعب من أمـر نفسه قليلا أوكثيرا . وكانت تدوى في أرجاء البلاد هتافات التجديد " والتطويـر " باقتفاء أثر الغرب وتتبع سننه وطريقته في الحياة ، وقامت بالفعل دعوات وحركـات متعددة الاتجاه تعمل جاهدة لاحداث تغيير جذرى في مجال التشريعات والنظـم

---

(١) راجع كلام شيخ الجامع الازهر الاستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي فـي تصديره للعدد الخاص من السنة الخامسة والثلاثين من مجلة المنـار بمناسبة عودة المجلة للظهور بعد توقفها عن الصدور بوفاة السيد رشيـد رضا . وقد سعى الامام البنا الى بعث هذه المجلة بالتعاون مع ورثة السيد رشيد ، وصدر هذا العدد الخاص سنة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م وتلاه خمسـة اعداد أخرى تمت بها السنة الخامسة والثلاثون من المجلة ثم صدر أمـر الحاكم العسكرى بالغاء ترخيص المجلة . (من مذكرات الدعوة والداعيـة للامام حسن البنا ص ٢٥٤ - ٢٥٥) .

(٢) الامام حسن البنا ، مذكرات الدعوة والداعية ص ٥٥ .

والتقاليد والعادات . وكان أصحاب هذه الحركات المتشبعون بأفكار الغرب ونظرياته لا يرون القوة والعزة الا فيما أتى من الغرب وكانوا يعتزون ويتبجحون بانتمائهم لمعسكر الغرب وحضارته ويتنكرون لدينهم وحضارتهم وتقاليدهم. وقد ملأوا أرجاء البلاد بضجات النظريات والافكار الغربية والمنازعات الحزبية الحادة والهزازات السياسية التى لا طائل تحتها وليس لها دعوة في مجال الاصلاح والتعمير ونهضة الأمة (١) . وفي وسط هذه الظروف القاسية التي يفور فيها المجتمع المسلم بحركات الالحاد والتحلل والاباحية والاتجاهات اللادينية صدع الامام حسن البنا بدعوة المسلمين الى العودة الى حقيقة الاسلام ومصدر قوتهم وعزتهم وسيادتهم فأعلن عن حركة اصلاحية تطبيقية شاملة ذات مبادئ ومناهج ووسائل ومراحل وأهداف وبقي طول حياته يدعو المسلمين الى المنهج الاسلامى الشامل الذى شرح الله صدره له كما كان يبذل كل مافي وسعه من جهد لحملهم على تطبيق هذا المنهج تطبيقا عمليا كاملا .

وتتلخص مبادئ دعوة الاخوان المسلمين في ثلاث نقاط رئيسية تالية :

أولا : الدعوة الى العودة الى حقيقة الاسلام وجوهره الصافي وتطبيقه بمفهومه الصحيح الشامل الواسع كما فهمه السلف الصالح من هذه الأمة ، وازالة كل ماعلق بهذا الدين عبر القرون من تصورات باطلة ومفاهيم فاسدة وانحرافات سلوكية خاطئة طمست معالم الدين الاساسية وشوهت صورته الناصعة .

ثانيا : الدعوة الى العودة الى التمسك بالكتاب والسنة باعتبارهما المصدرين الاساسيين لتعاليم الاسلام ، واستقاء النظم والاحكام من معينهما الصافي .

---

(١) راجع الامام حسن البنا ، مجموعة رسائل الامام الشهيد ، ص ٩٧ - ٩٨ ، ٢٢٠ - ٢٢١ . وكذلك مذكرات الدعوة والداعية للامام البنا ص ١٤٥ .

ثالثا : الدعوة الى الجهاد في سبيل الله لتمكين دين الله واقامة شرعـــه ومنهجه في الأرض . وأما الدعوة الى حقيقة الاسلام بمفهومه الصحيح الشامل وازالة ماتسرب اليه من الانحرافات التصورية والسلوكية فقد ركزت دعوة الاخوان في مجـــال العقيدة على التعريف بحقيقة توحيد الالوهية وتوضيح مفهومه الصحيح الكامل وبينت أنه أسمى عقائد الاسلام بل هو الركيزة الاساسية التي يقوم عليها بناء الاســـلام وهو أداة التوجيه الكبرى الى الجوانب الاخرى المنبثقة من الاسلام من عبادة وشريعة ونظام وأخلاق كما أوضحت خصائص هذه العقيدة وصفاتها من ربوبية وقوامة وحاكمية مطلقة ونحوها ثم دعت الى تحقيق هذه العقيدة بمدلولها الصحيح الواســـع الذى يشمل معرفة الله تعالى باسمائه وصفاته وآياته في خلقه وفي الكـــون الفسيح ، وتوحيد الله تعالى وتنزيهه عما لا يليق بجلاله وعظمته،وافراده بأنـــواع العبادة واخلاص الوجه والعمل له وعبادته بما شرع ، فالاعتقاد الصحيح في اللـــه هوأساس العمل في الاسلام وهو أهم من عمل الجارحة بل عليه مدار صحة العمـــل وقبوله . والى جانب ذلك أنكرت دعوة الاخوان ماتسرب الى صفاء العقيـــدة الاسلامية من الاعتقادات الباطلة ومظاهرها من بدع وخرافات وتقاليد وعادات بالية ، فكل بدعة استحدثت في دين الله - سواء بالزيادة فيه أو النقص منه أو بتحريـــف المعنى وتشويه المفهوم - ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها مثل التمائـــم والرقى والودع والرمل والعرافة والكهانة وادعاء معرفة الغيب وكل ماكان من هـــذا الباب ، وكذلك الاستعاذة بالموتى والاستغاثة بهم وطلب قضاء الحاجـــات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها واضاءتها والتمسح بهـــا والحلف بغير الله تعالى ومايلحق بذلك من المبتدعات المستحدثه في ديـــن الله .

وفي مجال توضيح حقيقة الاسلام ومفهومه الصحيح أعلنت دعوة الاخـــوان أن الاسلام معنى كلى شامل يحتوى على مبادئ وتعاليم وأحكام تنتظم شئون الناس

في الدنيا وفي الآخرة ، فهو لا يقتصر على الناحية الروحية أو التعبدية دون غيرها من نواحي الحياة العملية بل يظل جميع مجالات الحياة الانسانية تحت ظل شرعه العادل ومنهجه القويم ، وهو دين الله الى الناس جميعا في كل زمان ومكان وهو لذلك يقرر الاصول العامة والقواعد الكلية في كل شأن من شئون الحياة ويرشد الناس ويوجههم الى الطرق العملية للتطبيق عليها والسير في حدودها .
يقول الامام حسن البنا : " الاسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء وهو مادة وثروة أو كسب وغنى وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء (١)" . ويقول : " ونحن نفهم الاسلام على غير الوجه " الخاطئ القاصر الذى عليه الناس" فهما فسيحا واسعا ينتظم شئون الدنيا والاخرة ، ولسنا ندعى هذا ادعاء او نتوسع فيه من أنفسنا وانما دو مافهمناه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسيرةالمسلمين الأولين" (٢)

ثم الى جانب ذلك أوضحت دعوة الاخوان التصورالاسلامى الصحيح للكون والانسان والحياة وبينت أن هذا التصور يحدد للانسان غاية وجوده في هذه الحياة ويرسم امامه منهاجه الذى أراده له ربه ويوجهه الى الحياة الرفيعة التى تتفق مع الكرامة التى كتبها الله للانسان . وبعد ذلك كان التركيز الكبير على جانب التطبيق العملى للاسلام بهذا المفهوم الشامل في واقع الحياة وفي مجال العقيدة والتصور وفي مجال العبادات والشعائر والاخلاق وفي مجال الشريعة والنظام . يجب أن تبعث المعرفة على العمل والحركة وأن تستحيل قوة واقعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع ، يجب على البشرية ان ترجع الى ربها والى منهجه

---

(١) مجموعة رسائل الامام الشهيد ، ص ٢٦٨ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ١٦ (بتصرف يسير)

المرسوم لها لتحقيق الحياة الصالحة الكريمة التي تحققت للمسلمين الاوائل في فترات التاريخ الاسلامي حين طبقوا الاسلام تطبيقا عمليا ونفذوا أوامره وتعاليمه حتى أصبحوا مثلا عملية وصورة ماثلة للاسلام فنالوا السعادة والعزة والسيادة والتمكين في الأرض .

وأما النقطة الثانية من مبادىء دعوة الاخوان المسلمين وهي الدعوة الى التمسك بالكتاب والسنة المصدرين الأساسيين لتعاليم الاسلام ـ لاستقاء الاحكام والنظم منهما فيعتقد الاخوان أن من أعظم ما مني به المسلمون في عصور الانحطاط والتدني الجمود العلمي والركود الثقافي وقصر النظر والتقليد والتحجر والانقسامات الطائفية والتعصبات المذهبية والمجافاة والمعاداة بين أصحاب المذاهب المختلفة بينما كان من اسباب نجاح المسلمين وانتصارهم في عصور ازدهار الحضارة الاسلامية قوة العلم والثقافة وتفتح الذهن والجد والنشاط في البحث والدراسة وقوة الاخوة والوحدة والتعاون على الخير والقصد الوصول الى الحق وتحقيق الخير والمنفعة للناس ولن يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها . وعلى هذا كان منهج دعوة الاخوان في الاجتهاد واستنباط الاحكام قائما على اساس استمداد فهم الاسلام واستنباط النظم والاحكام من الكتاب والسنة كما كان يفعل السلف الصالح ، وعدم الانتساب الى طائفة خاصة أو التقيد بمذهب معين . ويعتقدون أن أساس التعاليم الاسلامية ومعينها هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن كثيرا من الآراء والاحكام المقررة في المسائل الفرعية في العصور السابقة كانت مبنية على مقتضيات ظروف الحياة القائمة في تلك العصور واحوال شعوبها ، ويرون من الواجب في هذا العصر استقاء النظم والاحكام الاسلامية التي تحمل عليها الأمة من هذا المعين الصافي وفي حدود التعاليم الربانية والنبوية ، ولا ينبغي للمسلمين ان يقيدوا أنفسهم بغير ما يقيدهم الله أو يلزموا عصرهم صورة خاصة محددة لمعالجة الامور المتغيرة في الحياة قد لا تتفق مع احوالهم واوضاعهم المستجدة وظروف الحياة المتطورة والاسلام دين البشرية جميعا وهو صالح لكل زمان ومكان وهو يسر وسهولة ولين ومرونة . وعلى هذا تقرر دعوة الاخوان ان من استوفى شروط الاجتهاد له أن ينظر في الأدلة

من الكتاب والسنة لاستنباط الاحكام في فروع الدين حسب فهمه متبعا في ذلك نهج السلف الصالح . وأما من لم يبلغ درجة النظر في ادلة المسائل الفرعية فله أن يتبع اماما من أئمة الدين ، ويحسن به مع ذلك أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته وأن يتقبل كل ارشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفاءته ، ولا ينبغي لمن أوتي شيئا من العلم وكان أهلا للتلقي والاستزادة أن يستكين الى نقصه العلمي والثقافي ويجلس مكتوف اليدين متربعا على بساط التقليد دون أن يسعى لرفع مستواه بالاستزادة في العلم والتمرن على البحث والدراسة بجد ونشاط ومثابرة ، فعلى قدر جهد أهل العزم يؤتون العزائم .

ثم ان دعوة الاخوان لا تنتسب الى طائفة خاصة ولا تتقيد بمذهب معين ولا تنظر الى الاشخاص وآرائهم الا بمنظار المصدرين الاساسيين، ومطلبها الاسمى هو الحق المعزز بالدليل تأخذ به حيثما وجدته . وقد نعت هذه الدعوة على المسلمين الانقسام والتفرق والجفاء والمعاداة التي نجمت عن الخلاف في فروع الدين والتقليد المقيت والتعصب الاعمى للاشخاص والاراء . فان اختلاف الاراء ووجهات النظر في المسائل الفرعية امر لا بد منه لان أحكام هذه المسائل تستقى من اصول الدين العامة وقواعده الكلية التي تحتاج الى تحديد وشرح وتفصيل، والعقول والافهام تختلف بطبيعة البشر قوة وضعفا في التفهم والادراك والاستنتاج وفي سعة العلم وضيقه ، والبيئات والظروف تختلف من مكان لآخر ، والادلة كذلك ليست في درجة واحدة من القوة والصحة مما قد يظهر لبعض الناس دون الآخرين الى غير ذلك من الاسباب التي يتعذر معها الاجماع على امر واحد في فروع الدين فضلا عن كون هذا الاجماع يتنافى مع طبيعة هذا الدين الذي اراد الله له البقاء والخلود يساير العصور ويماشي الازمان ويواكب تغيرات الحياة . ويتضح من هذا المنهج ان الخلاف في المسائل الفرعية ليس عيبا في حد ذاته لأنه خلاف في سبيل محاولة التعرف على الحقيقة لتيسير الامر على الناس، ولكن العيب كل العيب بل المصيبة في الركون الى التقليد والتعصب للرأي والحجر على عقول الناس وتعطيل وظيفتها في اعتبار الامور لاستخراج العبر والفوائد، وأكبر من ذلك فتنته"

للامة ان يصبح هذا الخلاف سببا للتنازع والتفرق فى الدين وان يؤدى الى التباغض والخصام والمعاداة بين المسلمين . وقد حذرنا الله تعالى من ذلك غاية التحذير " وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .. الآية"[1] فالأليق بالمسلمين اعتبارا بما جر اليه الخلاف والتعصب من المأساة فى العصور الماضية ان يسعوا جادين فى التقريب بين الاراء عن طريق تحقيق علمى نزيه فى ظل الحب فى الله ووحدة الغاية وقصد الوصول الى الحقيقة من غير أن يجر ذلك الى المراء المذموم والتعصب .

وأما النقطة الثالثة من مبادىء دعوة الاخوان وهى الدعوة الى الجهاد فى سبيل الله لتمكين دين الله واقامة منهجه فى الارض فقد اعلنوا ان مهمة المسلمين في الحياة هى عبادة الله تعالى والجهاد فى سبيل التمكين لدين الله واقامة شرعه ومنهجه فى الارض ، فعدتهم لتحقيق منهاجهم ونشر فكرتهم هى الايمان العميق والجهاد والتضحية والبذل وتقديم النفس والمال في سبيل نصرة الحق . وكذلك يعتقدون ان الجهاد فريضة اسلامية ماضية الى يوم القيامة وانه على مراتب ودرجات فأول مراتبه انكار القلب واعلاها القتال في سبيل الله وبين ذلك انواع متعددة منها بذل المال وتجهيز الغازى فى سبيل الله وجهاد اليد واللسان والقلم وكلمة الحق عند السلطان الجائر وما الى ذلك . وان جهاد النفس له أهميته ومكانته فى الاسلام فهو تربية نفسية عظيمة تقوم على اساس معرفة الانسان بالعقيدة التى يؤمن بها معرفة حقيقية وايمانه العميق بها وقوة ارادته لتطبيقها واخلاصه ووفائه وتضحيته وتفانيه فى سبيل نشرها ، غير ان هذه الامور كلها من خصوص النفس وحدها فلابد من استحالتها قوة واقعة تحقق مدلولها فى عالم الواقع وذلك فى بقية مراتب الجهاد العملى المتعددة وعلى رأسها الجهاد القتالى . ويتضح من هذا أن جهاد النفس مرحلة أولية تمهيدية لتكوين الفرد المسلم وتربيته وشحنه بقوة روحية

---

(١) سورة الانفال آية ٤٦ .

ماثلة تجعله صالحا لحمل المسئولية قادرا على العمل من أجل تحقيق غايته في الحياة ومناصرة المقيدة التي يؤمن بها . ولكن جهاد النفس لا يغني بحال عن مراتب الجهاد الاخرى ولا يرقى الى مرتبة الجهاد القتالي لنشر دين الحق ودفع عادية اهل الكفر والطغيان .

والاسلام قد اوصى باعداد القوة واكد ذلك تأكيدا جازما ولكنه لم يسوص باستخدام هذه القوة في كل الظروف والاحوال وانما حدد لذلك حدودا واشترط له شروطا ، وليس استخدام القوة هو اول علاج او وسيلة في الدعوة الاسلامية ولكن عندما لا تجدى وسائل اخرى غيره فان اخر الدواء الكي . فالقوة على ثلاث درجات اولها قوة العقيدة والايمان وثانيها قوة الوحدة والارتباط وثالثها قوة الساعد والسلاح . فالجماعة أو الامة لا توصف بالقوة حتى تتوفر لها هذه الأمور الثلاثة جميعا . وأى جماعة أو أمة لجأت الى استخدام القوة قبل استكمال عدتها اللازمة ستجر على نفسها وبال التدمير والافناء ، فالواجب أولا هو اعداد القوة اللازمة كاملا ثم اتخاذ الوسائل المقررة في الاسلام لمجاهدة الاوضاع المخالفة لمنهج الله في الحياة سواء مع الدولة " الاسلامية " المنحرفة أو المارقة أو مع الدول الكافرة في خارج العالم الاسلامي ، وحيث لا تجدى هذه الوسائل جميعا ويأبى المخالفون الخضوع لامر الله ويقابلون دعوة الحق بالعناد والتعنت لم يبق الا اعلان الجهاد ضدهم لنصرة دين الله واقامة منهجه وشرعه في الارض . وفي هذا الصدد تؤكد دعوة الاخوان ان ما منى به المسلمون من الذل والهوان وتسلط أعدائهم عليهم وذهاب قوتهم وسلطانهم كان بسبب وهن النفوس وضعف القلوب وخلوها من الاخلاق الفاضلة وصفات الرجولة الصحيحة ومرض الترف وفتنة اعراض المادة وزهرة الحياة الدنيا والنكوص والتقاعس عن احتمال الشدائد ومقارعة الخطوب والمجاهدة في سبيل الحق وغير ذلك من الامور التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم اجمالا بقوله : " يوشك الامم ان تداعى عليكم كما تداعى الأكلة الى قصعتها فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال بل انتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل

ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن فقال قائل يا رسول وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت[1] . " ولن تستعيد الأمة قوتها وعزتها وسيادتها الا بالايمان العميق بالله والتمسك بتعاليم الدين والجهاد في سبيل الله حق الجهاد لاقامة دين الله وشرعه في ارض الله وبين عباده .

وأما خطة الاخوان في العمل الاسلامي فهي قائمة على خطوات مرسومة تسير فيها الدعوة على اسلوب التدرج والاعتماد على التربية والاعداد وتعميق الفكرة في القلوب، فأى دعوة أو فكرة لا بد لها حتى تستقر وتنتشر وتحقق أهدافها من مراحل ثلاث :-

١- مرحلة التعريف والدعاية والتبشير بالفكرة وتوضيح حقيقتها وبيان اهدافها وبذل الوسع لايصالها الى مختلف طبقات المجتمع، فالدعوة في هذه المرحلة دعوة عامة تبذل للناس جميعا .

٢- مرحلة التكوين العملي المنظم باستخلاص العناصر الصالحة واعدادها روحيا وعمليا لتكون في مستوى المسئوليات التي تنتظرها . والدعوة في هذه المرحلة خاصة ينصب الاهتمام والتركيز فيها على من لوحظ فيه الاستعداد التام لحمل اعباء المسئولية في نشر العقيدة التي يؤمن بها والجهاد في سبيل الله .

٣- مرحلة التنفيذ والعمل والتحرك لتغيير الواقع السيء القائم وتحقيق الواقع الافضل المنشود وفق خطة مرسومة " والجهاد في هذه المرحلة جهاد لا هوادة معه وعمل متواصل في سبيل الوصول الى الغاية وامتحان وابتلاء لا يصبر عليهما الا الصادقون المخلصون ." وكثيرا ما تسير هذه المراحل الثلاثة جنبا الى جنب نظرالوحدة الدعوة والغاية وقوة الارتباط بين هذه المراحل جميعا . ولكن الاخوان يؤمنون أن الغاية التي يسعون اليها

---

(١) رواه ابو داود في كتاب الملاحم ،باب تداعى الامم على الاسلام ٤ / ١١١ عن ثوبان .

لا تتحقق كاملة الا بعد عموم الدعاية وانتشار الفكرة وكثرة الانصار ومتانة تكوينهم وعمق ايمانهم بالفكرة وقوة تمثيلهم لها .[1]

وأما منهاج العمل الذى اعتمدت عليه حركة الاخوان فى نشر فكرتها بين مختلف طبقات المجتمع فيشمل وسائل عامة للتعريف بحقيقة الاسلام وتوضيح فكرة الجماعة وبيان وجهتها واهدافها ومبادئها ، ووسائل اخرى خاصة لتربية الاتباع تربية عملية حتى يتشربوا فكرة الجماعة ويصبحوا مثلا عملية وصورا ماثلة لتعاليم الاسلام ومبادئه . وأما الوسائل العامة فتشمل الوعظ والارشاد بالخطب والدروس والمحاضرات والندوات وتعليم القرآن تلاوة وحفظا والسنة النبوية حفظا ودراسة، وتدريب الاخوان على الوعظ والارشاد علميا وعمليا ، وكذلك اصدار الرسائل[2] والمجلات[3] وتأسيس فرق الرحلات[4] للتجوال فى انحاء المدن والقرى البعيدة والقريبة وانشاء العديد من الشعب فى انحاء البلاد لتوسيع دائرة عمل الجماعة ، وعقد المؤتمرات لدراسة الاوضاع وسير العمل واختبار الخطط والوسائل المستخدمة فى الدعوة واتخاذ الخطوات اللازمة حيال ذلك حسبما تمليه النظرة المستقبلية لعمل الحركة . ومن هذه الوسائل العامة ايضا توجيه الرسائل والمذكرات الرسمية الى الملوك وكبار المسئوولين فى الدولة لتقديم النصح والتوجيه لهم فى الشئون التى تخص الأمة المسلمة وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر كلما اقتضى الامر ذلك ، وكذلك النشاط

---

(١) راجع الامام حسن البنا ، مجموعة رسائل الامام الشهيد ،فصل رسالة المؤتمر الخامس ص ١٥٩ - ١٦٠ وكذلك فصل رسالة التعليم " الطاعة " ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٢) بدأ صدور هذه الرسائل برسالة المرشد العام التى صدر العدد الأول منها عام ١٣٥٠ هـ (١٩٣١م) .

(٣) أول هذه المجلات مجلة الاخوان المسلمين الاسبوعية التى بدأت تصدر سنة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣م) ومنها مجلة النذير بدأت عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) والشعاع والمنار والتعارف والنضال ـ ومجلة الشهاب الشهرية بدأت عام ١٣٦٦ هـ - (١٩٤٧م) وجريدة الاخوان المسلمين اليومية ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) .

(٤) كانت فرق الرحلات أو (الجوالة) النواة الاولى لفكرة الكتائب والجهاز الخاص فيما بعد .

التعليمى عن طريق فتح العديد من المدارس(1) للبنين والبنات والكبار من العمال والفلاحين . وهذه الوسائل العامة التى اتخذها الاخوان لنشر فكرتهم لم تقتصر على الوعظ والارشاد والتعليم وانما تشمل ناحية الخدمات الاجتماعية كافتتاح المستوصفات والناحية والاقتصادية حيث الحق بدورالجماعة فيما بعد بعض المؤسسات الاقتصادية من المصانع والشركات ولم يكن ذلك لكى تنفق الجماعة من عائدات هذه المؤسسات على سير الدعوة فحسب ولكن لكى تقدم من خلال ذلك النموذج التطبيقى للاسلام فى مفهومه الشامل . وأما الوسائل الخاصة فقوامها اختصاص النفس الانسانية بأهمية كبيرة لانها مركز الثقل في الحياة البشرية وبصلاحها يصلح الناس والمجتمع وبفسادها يفسدون جميعا ، والعناية باعداد الفرد المسلم وتربيته تربية عملية شاملة عن طريق معالجة كل ما يتصل بوجود الانسان من جسمه وعقله وروحه وحياته المادية والمعنوية وكل نشاطه على الارض فى توازن واعتدال . فالحركة تتعهد الاتباع بعنايتها لتكوينهم واعدادهم روحيا وعمليا وحملهم على تمثيل الفكرة التى يؤمنون بها حتى يكونوا عناصر صالحة وقدوة حسنة لغيرهم يمتثلون أوامر الله ويجتنبون نواهيه سواء منها ما اتفق مع عرف مجتمعهم او خالفه وناقضه ، ولكى تتحقق اليقظة الاسلامية الشاملة التى تنشدها الحركة كانت العناية منصبة على اصلاح الأفراد والاسر لتقوية الايمان فى نفوسهم وتكوينهم عملياعلى تعاليم الاسلام ومبادئه ليكونوا نواة صالحة ولبنات قوية لبناء المجتمع المسلم الصالح ، فما الأفراد والأسر إلا خلايا

---

(1) كان منها رياض الاطفال ومكاتب تحفيظ القرآن ومعاهد لتعليم البنين ومدارس أمهات المؤمنين لتعليم البنات ومدارس لمحو الامية وتنمية الثقافة الدينية ومدارس ليلية لتعليم العمال والفلاحين ودور الصناعات الملحقة بالمعاهد وشعب لتعليم الغلمان الذين حرموا التعليم لاشتغالهم بالصناعات واقسام خاصة للراسبين في الامتحانات العامة (راجع محمد شوقى زكى - الاخوان المسلمون والمجتمع المصرى ص ١٧٧ وما بعدها .)

تتكون منها الجماعة والأمة . ويعتبر من الوسائل الخاصة أيضا النظام الخاص الذى أنشأته جماعة الاخوان المسلمين وكانت له صفة شبه عسكرية استنادا الى الايمان بمبدأ الجهاد في سبيل الله ووجوب الاستعداد له بالتدريب والتسلح وبيع النفس لله تعالى حتى يكون الاستشهاد في سبيل الله تعالى أسمى أمانيها ، وقد جاء في الحديث الشريف ،" من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق " (١) وقد بدأ هذا التنظيم في صورة نشاط رياضي كشفي حيث أنشأت الجماعة فرقة الرحلات في كل شعبها ثم تطورت هذه الفرق فيما بعد وتعددت أغراضها وكان منها الرياضة البدنية والتدريب العسكرى والتعارف ونشر الدعوة في أنحاء المدن والقرى وكذلك الرياضة الروحية ، ثم أنشىء نظام الكتائب وبعده نظام الجهاز الخاص . وبعد اكتمال نظام الجهاز الخاص تغير نظام الكتائب الى نظام الاسر التعاونى وهو أدق تنظيما من نظام الكتائب .

وأما أهداف جماعة الاخوان المسلمين فتتلخص في النقاط التالية :ـ

أولا : انقاذ الامة الاسلامية وتحرير بلاد المسلمين من الاحتلال الاجنبي الاوربى وسيطرة حضارة الغرب ومدنيته المادية اللادينية .

ثانيا : تكوين جيل جديد من المؤمنين يفهم الاسلام فهما صحيحا ويمثل تعاليمه وأخلاقياته ثم يعمل على صبغ الأمة بالصبغة الاسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها (٢)

---

(١) رواه مسلم في كتاب الامارة ، باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ٥٦/١٣ عن أبى هريرة .

(٢) لمعرفة طريقة الجماعة في تكوين الجيل المسلم و بناء المجتمع المسلم ،راجع مجموعة رسائل الامام الشهيد حسن البنا فصل رسالة المؤتمر الخامس ص ١٦٨ ومابعدها ، وكذلك ص ٣٠٩ - ٣١١ .

ثالثا : اقامة دولة اسلامية تنفذ شرع الله في المجتمع وتطبق تعاليم الاسلام وتصدر عن توجيهاته في كل شأن من شئون الحياة وتقود الانسانية الى الخير والفضيلة . ويعتقد الاخوان ان المسلمين جميعا مسئولون امام الله تعالى ان لم يسعوا لاقامة هذه الدولة ، لان ذلك تقصير منهم وضعف واستكانة .

رابعا : اصلاح مايعانيه المجتمع المسلم من الانحراف والضعف والتخلف والفساد في نواحي الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية على ضوء تعاليم الاسلام وقيمه ومبادئه . ومحاربة الافكار والمفاهيم الباطلة التي اكتسحت ميادين الحياة العملية في المجتمعات الاسلامية واحلال الافكار والمفاهيم المستمدة من الكتاب والسنة محلها ." ذلك بأن الله هو الحق وأن ماتدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير (١)"

خامسا : توحيد الشعوب الاسلامية جميعا تحت قيادة اسلامية موحدة عن طريق اعادة الخلافة الاسلامية المفقودة وتحقيق الوحدة المنشودة للامة دينيا وسياسيا واقتصاديا وعسكريا وفي ظل هذه الوحدة يستطيع كل شعب أن يعمل لبلاده ولكياناته الخاصة في اطار من التعاون العملي التام فيما يتعلق بمصلحة الامة حتى تكون هذه الامة قوية متماسكة البنيان محترمة الكيان مرهوبة الجانب ذات سلطان وسيادة في الارض ويعود اليها دورها القيادي والريادي الذي فقدته منذ قرون لتقود البشرية مرة أخرى نحو الخير والفضيلة .

---

(١) سورة الحج : آية (٦٢) .

المبحث الثاني :

الجماعة الاسلامية بباكستـــــان

كانت بلاد الهند - مثلها مثل اى بلد من البلدان الاسلامية - قـــد تعرضت لاحتلال أجنبي أوربي خلال القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشـــر الميلادى) حيث استولت عليها قوى الاحتلال البريطاني واحكمت قبضتها علـــى السلطة الفعلية في البلاد وتسلطت على شئون الحياة العملية فكان بأيديهـــا سلطة التشريع والحكم والقضاء ووسائل الرزق والكسب والانتاج ومصادر الثـــروة والتنمية ومناهج التعليم والتوجيه ووسائل النشر والدعاية والاعلام وما الى ذلـــك وقد كان من نتائج هذا الغـــزو الاجنبي المدمر والتسلط العدائي المخطط وقوع تغيرات جذرية هائلة في شتى مجالات الحياة بين مختلف طوائف هذه البـــلاد وعلى الاخص بين الجماعات المسلمة التى عانت من عداوة الغزاة وحقدهم مالـــم تعان من عشر معاشره المجموعات والطوائف الاخرى . وقد شملت هذه التغيـــرات زعزعة العقائد وتشويه الافكار والتصورات وتبديل الأسس التشريعية والنظـــم السياسية والاقتصادية والقيم الاخلاقية وطغت على شئون البلاد التصورات والأفكـــار والنظم الغربية اللادينية .

ولما اضطرت قوى الاحتلال الى الانسحاب من الميدان عزّ عليها أن تضيـــع درة تاجها من أيديها بعد كل ما استنفدت فى سبيل الحفاظ عليها من المكايـــد والحيل ، ولما لم يجد شيء فى هذا السبيل غير الانسحاب ومغادرة البلاد لجـــأت الى آخر كيد فى جعبتها لاذكاء نار العداوة والتباغض والتطاحن بين مختلـــف الطوائف فى البلاد فقررت فى أواخر أيام حكمها فى البلاد اقامة النظام الديموقراطى اللاديني الذى يجعل قوة التشريع والحكم والغلبة للأغلبية ويفسح المجال واسعـــا أمام الاغلبية والأقلية لتتخذ كل الوسائل الممكنة لتهيئة الرأى العام لصالحها وكـــان رجال الاستعمار يعلمون يقينا أن التقسيم القائم بين شعوب هذه البلاد الى أغلبيـــة

أو أقلية كان على اساس قوميات مستندة الى عقائد وأديان ولم يكن لمجرد اعتبارات سياسية جديدة أوجدتها قوى الاستعمار ووضعت لها المناهج وخطط العمل ووجهت اليها شعوب المستعمرات .

وهكذا رأينا كيف مهدت قوى الاستعمار الطريق أمام القومية الهندية التي تمثل الأغلبية في هذه البلاد فسعت بقوة وعنف للقضاء على اديان سائر الطوائف — وتحطيم ثقافاتهم ومقومات حياتهم الاجتماعية ، وقد شهدت البلاد خلال سنين طويلة سلسلة من العداءات والصراعات والنزاعات ومظاهر التباغض والتطاحن والاضطهادات وأعمال التعسف والاجحاف التي تنزلها الأمة الغالبة على من سواها . فقد كانت السلطات المحلية[1] التي مكن لها الاستعمار في البلاد في أواخر أيام حكمه تواصل السير على الخطط التي اتبعتها قوى الاستعمار في الكيد للاسلام والمسلمين ومحاولة القضاء على القيم الاسلامية وافساد عقائد المسلمين واخلاقهم وتدمير ما تبقى فيهم من التقاليد الاصيلة والمقومات الاساسية للحياة وحرمان المسلمين من أدنى الحقوق الاجتماعية الطبيعية التي لا يمكن أن يحرم منها الانسان في المجتمع بأي حال من الاحوال فقد ضاقت على المسلمين أرض البلاد بما رحبت واصبحوا غرباء فيها لا وزن لهم ولا قيمة ولا تحترم لهم حقوق ولا تراعى لهم مصالح ، وظل الوضع هكذا حتى تفاقم الامر واستفحل الخطر وبات من المحقق الا حل للأزمة الطائفية غير تقسيم البلاد . وعند بلوغ الخطر منتهاه لم يجد المستعمرون بدا من تقسيم البلاد ثم انسحبوا على الفور بعد أن خططوا للمذابح التي سالت فيها الدماء انهارا و تراكمت جثث القتلى ترسم التخوم الفاصلة بين الهند وباكستان .

وفي وسط هذه الظروف القاسية التي كان يعيشها المسلمون وهم ما بين الجامدين على الصورة المشوهة للاسلام المتمسكين بتقاليد عصور الانحطاط وبين المتأثرين بالافكار والنظريات والمناهج الغربية اللادينية ..في وسط هذه الظروف

---

(١) وكان يمثلها حزب المؤتمر الوطني الهندي الذي يتصدر حركة القومية الهندية .

صدع العلامة المجاهد أبو الاعلى المودودى بدعوته الى احياء حقيقة الدين ودعوة المسلمين الى تطبيق تعاليمه ومبادئه وتأليف قلوب الشباب على هذا الدين وتربيتهم وتعليمهم حتى تتشرب نفوسهم العقيدة الاسلامية الشاملة ويدركوا غاية وجودهم فى هذه الحياة.وتتلخص مبادىء دعوة الجماعة الاسلامية فى النقاط الرئيسية التالية :-

أولا : الدعوة الى تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى بمعرفة عقيدة الربوبية والالوهية وتطبيق مدلولها الواسع الشامل وافراد الله تعالى بأنواع العبادة دون سواه .

ثانيا : الدعوة الى اقامة الدين واخلاصه لله تعالى وتطبيق تعاليمه ومبادئه وقيمه فى جميع نواحى الحياة الانسانية حتى لاتخرج شعبة ولا ينفذ مجال من شعب الحياة ومجالاتها عن توجيه الدين وسلطانه وهيمنته .

ثالثا : الدعوة الى اقامة نظام الحياة على اسس الشريعة الاسلامية وضعه الله للحياة الانسانية وانتزاع القيادة الفكرية والعملية من ايدى الطواغيت الذين نصبوا أنفسهم آلهة من دون الله حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله واليوم الاخر ويبتغون وجه الله ومرضاته ولا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا .(1)

وأما النقطة الأولى من هذه المبادىء فتعتقد الجماعة أن العبودية لا تتحقق الا باقرار العبد واعتقاده بربوبية الله تعالى وألوهيته ووحدانيته وحاكميته المطلقة وجميع أسمائه وصفاته ، وادراك العبد الكامل لمفهوم هذه العقيدة وعمله بمقتضاه بالتسليم لله والخضوع لأمره واخلاص الدين له والاذعان التام لعبوديته فى كل شأن من شئون الحياة الانسانية. وتؤكد الجماعة وجوب دخول المسلم فى دين الله كاملا بمجموع حياته بحيث لايشذ عن سلطان الدين وهيمنته شىء ولا يخرج عن دائرة نفوذه جزء من أجزائها ، وانه ليس من الاسلام فى شىء أن يقر العبد بربوبية الله تعالى وألوهيته ومعبوديته له

---

(1) راجع تذكرة دعاة الاسلام للعلامة المودودى فصل هذه هى دعوتنا ص ٩ - ١٠ .

ثم يبقى بعد ذلك يعيش حرا طليقا فى شئون حياته العملية كما يعيش الناس فى الحياة الجاهلية وكذلك يتنافى مع العبودية الحقة التفريق بين شئون الحياة بجعل بعضها فى صميم الدين كالعبادات والمسائل المتعلقة بالحياة الفردية والاحوال الشخصية والبعض الآخر خارجا عن دائرته وهو شئون الحياة العملية المتعددة من السياسة والاقتصاد والاجتماع والعمران والاخلاق وغير ذلك من الامور التى يعتقد بعض الناس الا سلطان للدين فيها ولا نفوذ لأحكامه فى دائرتها وأن الانسان حر فى أمور دنياه يفعل فيها ما يشاء ويضع لنفسه ما يراه من النظم والقيم او يختار ما يشاء من النظم الوضعية. وهذه المعانى والتصورات الخاطئة التى تسربت الى المجتمعات الاسلامية مع الغزو الأجنبى الصليبى هى التى شوهت حقيقة الدين ومسخت مفهومه فى الاذهان حتى تقلص سلطانه فى مجرى الحياة العملية .

وأما النقطة الثانية فتعتقد الجماعة ان ايمان الانسان بالعقيدة الاسلامية يقتضى تسليم امره لله واخلاص وجهه له حنيفا مسلما يعمل بجميع تعاليم الدين ويدخل بمجموع حياته فى كنف الدين الحق مصطبغا بصبغة الله كاملا باذلا وسعه لاظهار هذا الدين والتمكين له فى الارض معرضا ونائيا بجانبه عن كل ما يناقض ايمانه ويتنافى مع العبودية الحقة لله والاتباع الكامل لدينه وشريعته وليس من الاسلام فى شئ أن يتبع الانسان أوامر الله ويتمسك بتعاليم الشريعة فى ناحية معينة محدودة من نواحى الحياة ثم يعرض عن امر الله ويتعدى حدوده فى شعبها الأخرى المتعددة ، فلا معنى لما نراه من المسلمين اليوم من عدم التطبيق العملى الشامل لتعاليم الاسلام فى كل شأن من شئون حياتهم ، فحين يدخلون فى معترك الحياة العملية فى مجالاتها المتعددة لانجد عليهم مسحة من تعاليم الاسلام ولا أثرا من آثار اتباعهم للدين الحق مع أنهم يقرون صباح مساء بأنهم لا يعبدون الا الله ولا يستعينون الا اياه. ولكنهم لا يتحرجون ولا يشعرون بأى غضاضة ومنقصة فى اتباع كل ناعق والجرى وراء كل داع الى نظرية أو فكرة مناقضة لدينهم وتعاليمه والخضوع

لكل جبار عنيد متسلط على رقاب الناس يسلمون له قيادهم ويذعنون لجبروته ويعيشون راضين مطمئنين في كنف ما يفرضه من النظم والمناهج المناقضة لمنهج الله ودينه وشريعته . من أجل هذا كانت دعوة الجماعة الى اقامة الدين لله وتطبيقه بمفهومه الواسع الشامل وتزكية النفوس من شوائب الشرك وتبرئة الاعمال من مظاهر التناقض فالايمان الحق هو ما وقر في القلب وصدقه العمل ولا ينبغي أن يكون العمل مناقضا لما يعتقده المرء كما لا ينبغي أيضا أن تختلف أعماله في شئون حياته بحيث يناقض بعضها بعضا بل الواجب ان يتبنى المرء فكرة موحدة شاملة تقوم على اساس الايمان بالله واليوم الآخر يسير في حدود مفهومها وتوجيهاتها في جميع شئون حياته في اعتدال واتزان . ولا يخفى موقف علماء المسلمين ومشايخهم من هذه المسألة منذ عصور الانحطاط حيث كانوا يبشرون الناس ويمنونهم بأنه يكفيهم من امور دينهم أن يشهدوا شهادة الحق ويصلوا ويصوموا ويؤدوا المناسك والشعائر المعينة المحدودة وانه لا يضرهم بعد ذلك شيء ولا يمنعهم من سبيل النجاة ودخول الجنة مانع وما يكون من أمرهم من اقتراف بعض المنكرات واتباع ما شاءت لهم أهواؤهم من الأفكار والنظريات فكان من نتائج ذلك ان رأينا بعض المسلمين يدينون بالشيوعية والنازية والديموقراطية وغيرها من النظريات والافكار والنظم والمناهج المادية اللادينية ويحسبون أنهم مازالوا في دائرة الاسلام .

وأما النقطة الثالثة فتعتقد الجماعة أن السبب الحقيقي لكل مافي الأرض اليوم من قلق واضطراب وفساد وفوضى انما هو انحراف المسلمين عن دين الله وغفلتهم عن مسؤوليتهم في الآخرة واعراضهم عن طاعة الله واتباع هدى دينه وطريقته المثلى في تنظيم شئون الحياة . ولا سبيل لتثبيت دعائم الدين ونشر تعاليمه ومبادئه في الارض وحمل الناس على تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى وتمثيل تعاليمه في واقع الحياة الا باحداث انقلاب عام في نظام الحياة الحاضر الذى يدور قطبه حول رحى الكفر والالحاد والاباحية والتفسخ . ولو ظلت أزمة امور المجتمع بايدى هؤلاء الذين انحرفوا عن منهج الله واستنكفوا عن عبادته واستكبروا في الأرض بغير

الحق وظلت شئون الحياة العامة من التشريع والتنفيذ وامور الاقتصاد والاجتماع والعلوم والاداب ووسائل النشر والتوجيه كل ذلك بأيديهم يديرونها كيف شاءوا ويتصرفون فيها حسب أهوائهم فلا يمكن للمسلم في مثل تلك الهيئة أن يعيش في هذه الدنيا مستظلا بظلال دين الله الكامل المحيط بجميع نواحي الحياة وشعبها ، وان رغب في أن يتمسك بتعاليم الدين ومبادئه ويتبع شريعة الله ويسير على هديه في حياته ، فمادامت بلاده التي يعيش فيها تدين بنظام للحياة مخالف لتعاليم دينه مناقض لمنهجه جملة وتفصيلا فلن ينال المسلم بغيته السامية في اخلاص دينه لله واقامته كاملا غير منقوص . يقول العلامة المجاهد أبو الاعلى المودودى « ان الجماعة الاسلامية واضعة نصب عينيها غاية عالمية حيوية مستقلة هي أن تستأصل شأفة كل نظام للحياة أسس بنيانه ووضعت قواعده على الانسلاخ من العبودية لله وعدم المبالاة بالمسؤولية الاخروية والاستغناء عن تعاليم الانبياء وارشاداتهم ، فانه مبيد للانسانية مقوض لدعائمها ، وأن تقيم مكانه نظاما للحياة مبناه على طاعة الله عز وجل والايمان بالاخرة واتباع الرسل والانبياء ، فانه لا سعادة للانسانية ولا فلاح الا فيه . فاحداث الانقلاب في الحياة الاجتماعية على هذا الوجه هو الغاية التي تدور حولها مساعي الجماعة ومجهوداتها كلها (١) » . وبناء على اعتقاد الجماعة أن أصل جميع المشكلات ومنبع المفاسد التي يعانيها المجتمع المسلم هو نظام الحياة الحاضر الذى يجرى تصريف أمور الناس طبق أصوله وقواعده وقيمه، ترى الجماعة أن أى اصلاح جزئي لهذه المشكلات والمفاسد ـ دون اجتثاث النظام الذى تتولد منه من أساسه ـ لا يكاد يجدى شيئا في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الامة الاسلامية . وان انشاء المدارس الدينية وتلقين الناس مسائل الدين من عقائد وعبادات ونحوها والقاء الوعظ والارشاد والمحاضرات في معالجة

---

(١) كتاب موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ، من القسم الثانى الخاص بواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم تعريب محمد عاصم الحداد ص ١٢٥ - ١٢٦ .

أنواع المفاسد الاجتماعية والخلقية المتفشية في المجتمع ومحاربة الفرق الضالة وتصوراتها الفاسدة كل ذلك قد يكون له بعض الاثر في اعادة الحياة الى بعض الشرايين والعروق الميتة في جسم المريض حتى ينسأ في عمره قليلا ، ولكن مهما بلغت المجهودات المبذولة في الاصلاح الجزئي مع بقاء نظام الحياة الحاضر على أسسه وقواعده بكل ماله من قوة وسلطة وهيمنة على شئون الحياة فلن تتحقق الغاية المنشودة من التغيير الجذرى الشامل . فليس هناك من سبيل لازالة فساد متأصل شامل للحياة كلها الا وضع برنامج عمل شامل للاصلاح والبناء يجتث الفساد من جذوره ويسد منافذ الشر وينشر الخير والفضيلة ويقيم الحق والعدل في الأرض ، ولا يكفي أبدا لتجديد الدين في زمن من الازمان احياء العلوم الدينية ودعوة الناس الى اتباع الشريعة بالوعظ والارشاد فحسب بل يلزم لذلك انشاء حركة شاملة جامعة تشمل بتأثيرها جميع العلوم والفنون والافكار في نواحي الحياة الانسانية جميعا وتستخدم ما أمكن من الوسائل والاساليب لانفاذ أمر الله واقامة دينه وتحقيق العبودية الحقة لله تعالى في كل شئون الحياة .

هذا ويتلخص برنامج الجماعة لتحقيق هذه الغاية في أربع نقاط تالية :-

أولا : تصحيح الافكار والمفاهيم وتعهدها بالغرس والتنمية .

ثانيا : استخلاص الأفراد الصالحين وجمعهم في نظام واحد وتربيتهم تربية اسلامية خالصة .

ثالثا : السعي في الاصلاح الاجتماعي الشامل لكل طبقات المجتمع وفئاته .

رابعا : اصلاح نظام الحكم والادارة.[1]

وحول النقطة الاولى وجهت الجماعة جهودها للتعريف بحقيقة الاسلام وتوضيح مبادئه وقيمه ومفاهيمه الصحيحة وبيان كيفية التطبيق العملي لهذه المبادئ والقيم على شئون حياة الناس [2] ، وازالة كل ما داخل جوهر هذا الدين من تشويهات

---

(١) انظر المودودى ، موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ، من القسم الثانى الذى قام بتعريبه محمد عاصم الحداد ص ١٨٢ ، فصل برامجنا .

(٢) راجع ماقاله العلامة المودودى في هذا الصدد في المرجع السابق ، ص ١٢٢

وانحرافات وبدع وخرافات حتى يتميز الخبيث من الطيب وتبين حقائق الدين الناصعة من ركام الاخلاط والاباطيل التي مزجت معها ويظهر جوهر الدين الخالص الذى يثبت خلوصه ونقاوءه وأصالته في ميزان الكتاب والسنة المطهرة . والى جانب ذلك كان انتقاد الجماعة على علوم الغرب وافكاره ونظمه ونظرياته في الاخلاق والاجتماع وفلسفته للحياة لبيان ماينطوى عليه ذلك كله من مفاسد وظلالات يجب ألا يدنس المسلمون شئون حياتهم بادرانها وكذلك مافي علومه ومعارفه من المنافع التي ليس الواجب على المسلمين هو الاستفادة بها فحسب بل عليهم كذلك بذل الوسع لاستيعاب هذه العلوم والمعارف وتطويرها واخضاعها للقيم الاساسية الصالحة التي تحقق النفع للبشر وتبعد عنهم الشر . وفي ذلك كله تزويد العقول بالغذاء الفكرى السليم وبعث روح العمل والحركة في النفوس وحث الناس على السعي من أجل تغيير مجرى الحياة واصلاح اوضاعها لتحقيق النهضة الشاملة في المجتمع .

وأما النقطة الثانية فقد كانت الجماعة تنشر دعوتها بين المسلمين في المدن والقرى وبين مختلف طبقات المجتمع لتجمع الأفراد الذين أبدوا استعدادهم التام لقبول السير في الاتجاه الذى تسير فيه الجماعة ويرغبون في دعم حركة الاصلاح بكل مايتطلبه الامر من الجهود والتضحية بالأموال والاوقات والمصالح وتكون منهم جماعةموحدة منظمة وتخرجهم من حياة الدعة والعافية التي لا يكادون يقومون فيها بشيء نافع في خدمة الاسلام الى ميادين العمل والسعي والحركة ليحملوا مسئولية الاصلاح والبناء وفق برنامج الجماعة المخطط . وينقسم المستجيبون لدعوة الجماعة الى مجموعتين كبيرتين حسب استعدادهم لحمل أعباء العمل والكفاح . فالذين آمنوا بعقيدة الجماعة وقبلوا دعوتها ونظامها وغايتها ومنهاجها للعمل ثم التزموا بالقيام بجهدهم في نصرة الدعوة يشكلون مجموعة الاعضاء العاملين في الجماعة.وأما الذين اكتفوا بتأييدهم للجماعة وموافقتهم اياها على منهاجها وغايتها دون الالتزام بتحمل أعباء العضوية وتحقيق شروطها فهم يشكلون مجموعة الانصار

والمؤيدين للجماعة . وهؤلاء الذين تنظمهم الجماعة بهذا الطريق - وبخاصة الاعضاء العاملون - تركز عنايتها واهتمامها على تربيتهم الفكرية والخلقية واعدادهم عمليا على تمثيل العقيدة التى يؤمنون بها في واقع حياتهم حتى يصبحوا عناصر صالحة بعقيدتهم الصافية وفكرهم السليم وفهمهم الصحيح للاسلام وتمسكهم بالاخلاق الفاضلة وتحليهم بالصفات والسجايا السامية التى تجعلهم جديرين بالثقة والاعتماد عليهم في مراحل العمل القادمة . يقول العلامة المجاهد أبو الاعلى المودودى : " ومقصودنا من كل ذلك أن نستخلص من أمتنا ونجمع على رصيف واحد كل من نجد فيها من الافراد الصالحين الذين لايكادون يقومون الآن بشيء نافع في خدمة الاسلام اما لتفرقهم وانتشارهم أو لبذلهم جهودهم في الاصلاح الجزئي ، فنريد أن نجمعهم جميعا ثم نشغلهم بسعى منظم للاصلاح والبناء طبقا لبرنامج حكيم موضوع لهذا الغرض[1] . " ويقول في موضع آخر " لانريد أن نحشر الغوغاء ونجعل منهم كتلة صناعية كمايفعل المشعوذون السياسيون بل أن نستخلص من جسد الامة جوهره ونلتقط اجزاءه الخالصة فنجعل من هذا وذاك جماعة متراصة تستعد لمحاربة الجامدين/ والجاحدين معا في سبيل اعلاء كلمة الاسلام الحقيقى الذى جاء به الكتاب والسنة لنجعل منه النظام الغالب للحياة في هذه البلاد . . " (٢)

وأما الاطلاح الاجتماعي فقد كانت خطة الجماعة فيه تتناول كل طبقة من طبقات المجتمع حسب أحوالها وأوضاعها ، وكانت تنشىء العديد من الشعب والدوائر للعمل في أنحاء المدن والقرى ، توزع فيها أعضاءها الدعاة المخلصين والعاملين معها من الأنصار والمؤيدين حسب كفاءاتهم ومواهبهم ليقوموا بما يوكل اليهم من

---

(١) كتاب موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ، من القسم الثاني تعريب محمد عاصم الحداد ص ١٨٣ .

(٢) نفس المصدر ، فصل " ماذا نريد " ص ١٨٠

أعمال في مجال الدعوة والاصلاح . وهؤلاء جميعا وان كان كل واحد منهم يقوم بعمله في شعبته الخاصة وبين طبقة أو فئة معينة الا أنهم جميعا واضعون نصب أعينهم غاية سامية محددة يسعون بعزم وجد ونشاط لتحقيقها في جميع أفراد المجتمع هي نشر العقيدة الاسلامية الصحيحة والدعوة الى اقامة المنهج الاسلامي القويم للحياة الانسانية في جميع شعبها ،والقضاء على الفوضى الفكرية والعملية والخلقية المتفشية بين طبقات المجتمع نتيجة جمود بعض الناس على التقاليد والافكار البالية وتأثر الآخرين بالاتجاهات الفكرية الغربية اللادينية . وحيثما ينجح هؤلاء الدعاة العاملون في دعوتهم ويجدون عددا ممن يستجيبون لندائهم يكونون منهم شعبة يسمونها شعبة الانصار والمؤيدين ثم يرسمون خطط العمل لتحقيق برامج اصلاحية عملية منظمة منها " إصلاح حال المساجد وتعريف عامة الاهالي بتعاليم الاسلام الأساسية والاهتمام بتعليم الأميين وانشاء دار للمطالعة في الحي على الاقل والسعي الاجتماعي لانقاذ الناس من الظلم والعدوان وبذل العناية بالنظافة وتهيئة الاسباب لحفظ الصحة بمساعدة عامة الأهالي وترتيب الفهارس لأسماء اليتامى والايامى والعجزة والطلبة الفقراء والسعي لاعانتهم بطرق ممكنة واقامة مدرسة ابتدائية أو ثانوية أو مدرسة للتعليم الديني تعنى مع تعليم الطلاب بتربيتهم الخلقية على حسب ماتسمح به الظروف وتتسع له الوسائل ." (١) ومن المبادئ الاساسية التي يعتمد عليها منهاج الجماعة في الاصلاح الاجتماعي أن أي عضو داع أو عامل وكل اليه عمل في شعبة من الشعب أو بين طبقة من طبقات المجتمع عليه أن يستشعر عظم المسئولية ويحرص على أداء واجبه واتقان عمله والسهر على أداء مهمته على أكمل وجه لا يضعف عزمه ولا تفتر قوته عن العمل والسعي مهما بلغ مايلاقيه في سبيل ذلك من متاعب وعقبات حتى ينتهي باذن الله تعالى الى نتائج مرضية معلومة . ان مهمة العاملين في هذا السبيل شاقة والظروف التي

---

(١) العلامة المودودي ، موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ، من القسم الثاني تعريب محمد عاصم الحداد ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

سيواجهونها في مراحل هذا العمل قاسية ولكن عليهم أن يعدوا العدة الكاملة لمواجهة كل ذلك بالعزم القوى والعمل المخطط والجهد الدائب المتواصل والحركة القوية المتدفقة ويعملوا كما يعمل الفلاح في رقعة معينة محدودة من الأرض يغرس فيها البذور ثم لا يستريح عن العمل والسعي وتعهد الارض والزروع بالاصلاح من فترة الغرس الى وقت الحصاد حتى تنتهي جهوده الى نتيجة معلومة .

وأما حول اصلاح نظام الحكم والادارة فتعتقد الجماعة أن أى محاولة لاصلاح مفاسد الحياة الحاضرة بدون اعطاء الاولوية والاهتمام الاكبر لاصلاح نظام الحكم والادارة لا يمكن ان تأتي بنجاح كبير حسبما دلت عليه التجارب في عصرنا الحاضر ، وذلك لان المفاسد التي تبث في الناس عن طريق مايوضع من التشريعات والنظم والقوانين في مختلف شئون الحياة وعن طريق التعليم والتوجيه والتربية ووسائل الاعلام المختلفة لا يمكن ان تجدى كثيرا في درء اخطارها جهود الاصلاح بطريق الوعظ والدعوة والارشاد فحسب . ولكن لو أن دعاة الحق استطاعوا ازاحة نظام الحكم الفاسد الذى وضعه الطواغيت عن مركز القيادة والنفوذ والسلطة الفعلية واحلال نظام الحكم الاسلامي محله فسيكون بالامكان احداث تغييرات مهمة واصلاحات أساسية في شئون الحياة العامة خلال أعوام قلائل مالا يمكن تحقيقه على مدى قرن كامل بجهود أخرى غير سياسية . وتعتقد الجماعة ألا سبيل لاحداث مثل هذا التغيير في نظام الحكم والادارة في بلد يدين بنظام ديموقراطي غربي كباكستان الا الخوض في معارك الانتخابات ولكنها ترى أن ذلك لا يكون حتى تسبقه جهود مكثفة لتمهيد الارضية الفكرية الشاملة وتربية الرأى العام وتوجيهه نحو الوجهة السليمة وتعريف الناس بالاصول والمبادئ العامة التي يتبعونها في تحديد الغاية من عملية الانتخاب وفي تعيين الممثلين وانتخابهم ، واصلاح طرق الانتخاب وتطهيرها من أعمال الغش والتزوير والمفاسد الخلقية حتى تجرى العملية في غاية من النزاهة وفق الخطط والقواعد الاصلاحية الموضوعة لتقويم أمور المجتمع واصلاحها .

وأما منهاج الجماعة في تربية الافراد الذين يقبلون دعوتها ويظهرون استعدادهم لحمل أعبائها وتبليغ رسالتها في المجتمع فقد كان منهاجا عمليا تربويا يتلخص في مطالبة أعضائها بالتمثيل الحقيقي للاسلام والتطبيق العملي الشامل لتعاليمه ثم القيام بواجب الدعوة الى الحق لاعلاء كلمة الله وانهاء الواقع المخالف لمنهج الله في الأرض .

ففي المرحلة الاولى من مراحل هذا المنهاج التربوى كانت الجماعة تطالب اعضاءها أول مايدخلون في دعوتها بتمثيل العقيدة التي يؤمنون بها تمثيلا حقيقيا شاملا وتطبيق تعاليم الدين تطبيقا عمليا في جميع شئون حياتهم حتى يصطبغوا بصبغة الله كاملا ويتزودوا بكل مايحتاج اليه سلوك طريق الحق من الصلاح والتقوى والاخلاص والاخلاق القويمة ، فيبدأ كل فرد منهم بالعناية الفائقة بالتربية النفسية والخلقية الدقيقة يبذل كل وسعه لمجاهدة نفسه ومقاومتها واصلاحها وتهذيبها حتى تستسلم لامر الله وتتجرد لدينه وتطيع الله ورسوله في المكره والمنشط وتمتثل أوامر الله وتجتنب نواهيه وتهجر المعاصي والذنوب وتفر منها الى طاعة الله وطلب مرضاته حتى يستقيم سلوكه ويصبح كالفرس المربوط بالحبل الى وتد مثبت في الأرض فهو مهما جال يرجع الى ذلك الوتد الذى شد اليه زمامه .

وحول منهاج الجماعة في هذه المرحلة يقول العلامة المودودى : " الحقيقة أن منهاجنا هذا - كدعوتنا - انما هو مأخوذ من القرآن الكريم وسيرة الانبياء عليهم السلام ، فالذين يقبلون دعوتنا ويظهرون استعدادهم لحمل أعبائها وتبليغ رسالتها معنا فان أول مانطالبهم به أن يدخلوا في دين الله كافة ويصطبغوا بصبغته بجملة شئون حياتهم من فكرية وعملية ويجعلوا سلوكهم العام في الحياة هو الدليل على اخلاصهم وتجردهم ويبذلوا سعيهم لتزكية حياتهم وتطهيرها من كل شيء يخالف ايمانهم . ومن هنا تأخذ أرواحهم تقوى ونفوسهم تصقل وأخلاقهم تتهذب وسيرتهم تتزكى ويدخلون مرحلة الابتلاء والامتحان . (١)"

---

(١) تذكرة دعاة الاسلام ،تعريب الاستاذ خليل احمد الحامدى ،ص٢٢ - ٢٣

وهذه المرحلة التي يمر بها أعضاء الجماعة مرحلة شاقة قاسية لما يحيط بكل فرد منهم من الاوضاع المخالفة للطريق الذى اختاروا السير عليه في حياتهم ، فما أن يضع الفرد منهم قدمه على هذا الطريق ويخط عليه خطوات أولية حتى يجد المشكلات والعقبات تعترض طريقه لتمنعه من السير في اتجاه الحق الذى اختاره لنفسه ، وتتمثل هذه المشكلات والعقبات في أوضاع بيئته وأعراف الناس وتقاليدهم وعاداتهم مما يستند اليه كل من لا يرضى باتجاهه من الناس في معارضتهم لطريقة حياته ، وقد يلجأون الى التضييق عليه ومناصبته العداء وابتلائه وفتنته عن دينه بكل مايملكون من وسائل . ولكن هذا الفرد المؤمن القوى الذى احتضن في حضن هذه الجماعة وربى تربية نفسية وخلقية قويمة حتى أصبح عنصرا صالحا ونموذجا حيا مجسدا للعقيدة التي يؤمن بها سيجتاز هذه المرحلة العصيبة بنجاح بفضل اخلاصه لدينه وتجرده له وقوة عزيمته على لزوم طريق الحق وايثاره على الباطل وصبره على احتمال الاذى في سبيل نصرة دين الحق والدعوة اليه ، وبذلك يكون قد انتصر على القوى العاتية التي رصدت امامه تلك المحن والعقبات المرهقة القاصمة وارتقى الى مستوى المسئولية وأصبح جديرا بالثقة والاعتماد عليه في مراحل العمل المقبلة .

وأما الذين يفشلون في ارتياد هذا الطريق والاستقامة عليه وفي مواجهة المحن والشدائد واجتياز العقبات لضعف عزيمتهم وارادتهم ونقص ايمانهم وتربيتهم فسينسحبون من الجماعة من تلقاء أنفسهم حين يشعرون بهزيمتهم النفسية وضعفهم في مواجهة الوضع القائم والتغلب عليه وقصورهم عن بلوغ مستوى هذه الدعوة والتزام طريقها في واقع حياتهم . ولكن الجماعة لا تزال تبذل لهم الدعوة وتسعى لارجاعهم الى طريق الحق بكل ماتملك من وسائل الاقناع لعل الله أن يهديهم الى سواء الصراط.

وأما المرحلة الثانية فهي الزام الجماعة أعضاءها بالقيام بواجب الدعوة

الى العقيدة الصحيحة التى شرح الله لها صدورهم ووفقوا فى التربية عليها والاصطباغ بصبغتها . وقد أصبح لزاما عليهم بعد هداية الله لهم وتوفيقه أن يبذلوا وسعهم فى دعوة الناس الى الله ويعملوا بجد ونشاط وجهد متواصل لتعريفهم بدين الحق ومنهج الله القويم للحياة الانسانية يبدأون بأسرتهم وأقاربهم ثم جيرانهم ومعارفهم ومن يرتبطون بهم بعلاقة العمل أو التجارة أو نحو ذلك ثم يبذلونها للناس جميعا حتى يفيئوا الى ظل الاسلام الوارف. وهذه المرحلة التى يحمل فيها الاعضاء أعباء الدعوة الثقلية ويحتملون مشاق العمل المجهد هى فى الحقيقة مرحلة قاسية مليئة بأنواع المحن والمشكلات والعقبات التى لا يصبر عليها ولا يثبت فى مواجهتها الا المؤمنون المخلصون الراسخون فى العلم والايمان الذين لا تنال مثل هذه الظروف القاسية من عزيمتهم شيئا ولا توهن من قوة ارادتهم ولا تنحرف بهم عن طريق الحق أو ترغمهم على الاستسلام للواقع السيء ومجاراته أو الانجراف مع سيوله العاتية الكاسحة (1)، ومن خلال قيامهم بأداء واجبهم فى سبيل الدعوة الى الله واصلاح الواقع المرفوض بكل أوضاعه وملابساته يتدربون على كثير من الخصال والصفات التى لا يكون نجاح العمل الاسلامى الا بالتزود بها من قوة الايمان والاخلاص والبصيرة النافذة والحكمة والصبر على الاذى والثبات على الحق وسمو الاخلاق وكريم الصفات وروح الجدية والنشاط والاحساس بما على الفرد المسلم من واجبات وعظم مسئوليته عن تقصيره وضعفه فى أدائها . وبعد ذلك كله تؤكد الجماعة أن منهاج عملها فى الدعوة والتربية والاعداد قد يسير عليه الداعى فترة طويلة من الزمن ويتراءى له أنه لا يحقق من النتائج الكبيرة مثلما قد يتوقع تحقيقه بوسائل واساليب أخرى سطحية غير مركزة ، ولكنه سيرى مع الايام أن من يروم الاصلاح والتعمير أحوج ما يكون الى منهاج عمل دقيق هادف يسير فيه على خطوات راسخة مستحكمة

---

(1) راجع العلامة المودودى تذكرة دعاة الاسلام ، تعريب الاستاذ / خليل أحمد الحامدى ص ٢٥ - ٢٧ .

ليتمكن من استخراج العناصر الطيبة الصالحة من المعادن الانسانية المختلفة واعداد هذه العناصر حتى يصبح الواحد منهم أرجح فى كفة الميزان من الآلاف المؤلفة من اخلاط الناس وأراذلهم وسفهائهم . ولا يكون ذلك الا بمنهاج عمل دقيق هادف يسير عليه القائمون بهذا الامر بالحكمة والحسنى متزودين بصبر لا يعرف اليأس وثبات لا يعرف الميل والانحراف وجهد جهيد متواصل لايعرف الملل والضعف والوهن .

وأما وسائل الجماعة لتحقيق غاياتها في سبيل الاصلاح والبناء فتشمل الدعوة بالوعظ والارشاد والتوجيه وتنظيم اللقاءات الاسبوعية والشهرية والسنوية لالقاء الدروس والمحاضرات واقامة الندوات العلمية والثقافية واصدار الكتب والبحوث ونشرها بلغات كثيرة محلية ودولية واصدار الصحف والمجلات[1] وانشاء الفروع والشعب والدوائر فى مختلف المدن والقرى لتنظيم شئون الدعوة وتوسيع دائرة العمل وانشاء العديد من دور المطالعة[2] تحتوى على مجموعة كبيرة من الكتب الإسلامية القيمة والرسائل والبحوث المفيدة فى الثقافة الاسلامية وكذلك اقامة المعاهد الدينية[3] العالية لتعليم العلوم الاسلامية من التفسير والحديث وعلومه والفقه والتاريخ الاسلامى

---

(١) ومن الجرائد اليومية جريدة تسنيم وجريدة كوهستان وجريدة آسيا الاسبوعية وغيرها ومن المجلات مجلة ترجمان القرآن التى أنشأها العلامة المودودى عام ١٣٥٥هـ(١٩٣٦م) قبل قيام الجماعة الاسلامية وظلت هذه المجلة تصدر حتى سنة ١٣٨٣هـ(١٩٦٣م) حين صادرتها الحكومة وألغت ترخيصها ، ومنها ايضا مجلة بتول التى يصدرها قسم النساء فى الجماعة ، ومجلة النور للاطفال ومجلة الحسنات المختصة بشئون الطلبة والطالبات ومجلة Criterion التى تصدر باللغة الانجليزية وغيرذلك من الجرائد والمجلات (من منشور اعدته دارالعروبة للدعوة الاسلامية بلاهور ، بعنوان " الجماعة الاسلامية فى سطور " ص ٩ - ١٠ .

(٢) يبلغ عددها فى أنحاء البلاد خمسمائة وستا وثلاثين دارا ، انظر المصدر السابق ص١٣

(٣) كان للجماعة نحو ثلاثين معهدا دينيا عاليا كلها أهلية ، وتخرج هذه المعاهد عددا كبيرا من الدعاة والمثقفين الاسلاميين الذين يتولون مهام التدريس وامامة المساجد وشئون الفتوى وما الى ذلك .

وعلوم الصرف والنحو والادب العربي، كما أنشأت الجماعة عددا من المعاهد لتحفيظ القرآن الكريم للاطفال والصبيان[١] ، وأقامت المدارس العصرية على اختلاف مراحلها الابتدائية والثانوية والعالية. والى جانب ذلك تقوم الجماعة بخدمات اجتماعية منها انشاء العديد من المستشفيات والمستوصفات[٢] في بعض المدن والقرى وتقديم اعانات مالية وعينية للفقراء والمساكين والعجزة والارامل والأيتام والطلبة الفقراء كما تقوم بأعمال الاغاثة والانقاذ عند النوازل كالفيضانات والزلازل والحرائق وما الى ذلك .

---

(١) تشمل مناهج التعليم في هذه المدارس العلوم " العصرية " والثقافة الاسلامية بالاضافة الى العناية الفائقة بالتربية الخلقية - وكان على رأس الكليات التي أنشأتها الجماعة كلية الشاه ولي الله الدهلوي في مدينة منصورة بمديرية حيدر آباد بالسند . وقد سيطرت الحكومة الباكستانية منذ سنوات على مدارس الجماعة عن طريق برنامج تأميم التعليم . (انظر " الجماعة الاسلامية في سطور " اعداد دار العروبة للدعوة الاسلامية بلاهور ص ١١-١٢

(٢) يبلغ عدد هذه المستشفيات والمستوصفات أربعة وخمسين مستشفى ومستوصفا في انحاء البلاد .

المبحث الثالث: الحركات الاسلامية في تركيا وايران واندونيسيا

هناك حركات اسلامية أخرى متعددة قامت في مختلف البلدان الاسلامية خلال القرن الرابع عشر الهجري (هذا القرن الميلادي) كانت أقل شأنا من حركة الاخوان المسلمين والجماعة الاسلامية من حيث قوة الحركة والنشاط ودقة التخطيط والتنظيم وعمق الاثر ومدى اتساعه ، وأحب أن أعطي فكرة عامة عن نشاط بعض هذه الحركات تسجيلا لجهودها في سبيل اصلاح حال الامة الاسلامية وردها الى مصدرعزتها ومجدها وانقاذها من الاخطار المحدقة بها خلال القرنين الأخيرين والتي زادتها ضعفا الى ضعفها وتخلفا الى تخلفها حتى أصبحت في موءخرة قافلة الحياة تسير الى حيثما يوجهها المتسلطون على زمام أمر هذه القافلة وهي فاقدة القوة مسلوبة الارادة والاختيار. ومن هذه الحركات حركة جماعة النور في تركيا وجماعة فدائيان اسلام في ايران وحزب " ماشومي " في اندونيسيا .

وأما جماعة النور في تركيا[1] فقد بدأت حركتها خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر الهجري (أوائل هذا القرن الميلادي) . وكانت تركيا منذ القرن

---

(١) موءسس هذه الحركة هو العالم الكردي سعيد النورسي الملقب ببديع الزمان بدأ دعوته الاصلاحية في اوائل هذا القرن الميلادي ، وقد دخل معترك الحياة السياسية صغيرا وهو لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره. وفي سنة ١٣٢٨ (١٩٠٨م) حين ظهرت حقيقة محمد رشاد وجمعية الاتحاد والترقي وظهر انتماوءها الى الماسونية بادر الشيخ سعيد النورسي الى انشاء جمعية اسلامية باسم " الاتحاد المحمدي" فانضم اليه عدد كبير من الشبان المسلمين . وقد تصدى في هذه الفترة للرد على دعاة الماسونية والقومية من الكتاب والمثقفين المستغربين فأثار ذلك مخاوفهم وسعوا لتدبير الكيد للشيخ سعيد النورسي فقبض عليه مع آخرين في حادثة ٣١ آذار عام ١٩٠٩م التي قتل فيها خمسة عشر مسلما وقد حكم على الشيخ سعيد نفسه ولكن أخلي سبيله تحت ضغط الجماهير المسلمة ، ثم بعد ذلك نفي الى مدينة تلبيس فترة من الزمن . ولما عاد من منفاه بدأ تنظيم حركته من جديد .

وعندما ظهرت ثورة أتاتورك عام ١٣٤٠هـ (١٩٢٠م) عين الشيخ سعيد النورسي عضوا في المجلس الملي الكبير الاول الذي اسسه أتاتورك . ثم بدأ صراع حاد بين الشيخ بديع الزمان وأتاتورك عندما اتضح انه من المعارضين

الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) تعيش في حالة سيئة حيث تشهد تدخلا أجنبيا سافرا فى شئونها وقيام حركات " تجديد " لادينية قوية فى صفوف المثقفين ثقافة أوربية من المدنيين والعسكريين تدعو الى السير فى اتجاه الغرب واتباع طريقته في الحياة وقد بلغ هذا الامرمنتهى الخطورة فى اعقاب الحرب العالمية الاولى حين قامت ثورة مصطفى كمال أتاتورك العاتية المدمرة للقضاء على الاسلام وحضارته وتحطيم قوته وسلطانه واصبحت تركيا بل العالم الاسلامى كله بحاجة ماسة (١) الى قيام حركة بعث اسلامى لانقاذ الامة من المآزق والمهالك والنكبات التى نزلت بساحة الاسلام فى هذه الظروف العصيبة من تاريخ هذه الامة .

= للانقلاب فزج به في السجن . وكان مما أثار حفيظة اتاتورك عليه خطابه المطول الذى بعث به الى المجلس النيابى الذى كان يرأسه اتاتورك وضمنه نصائح مثيرة فى عشر فقرات بدأ كل فقرة بهذا العنوان " اعلموا ايها المبعثون أنكم مبعثون ليوم عظيم " وقد كان لهذه النصائح اثر كبير فى نفوس اكثر اعضاء المجلس، وأما أتاتورك فقد اشمأز منها قلبه وأخذته العزة والكبر بالاثم والخطيئة فجمع كيده ورصد كل قواه لتضييق الخناق على الشيخ سعيد النورسى والمكر به ولم يزل ينال من أذى أتاتورك وكيده واضطهاده حتى ضاقت عليه أرض البلاد بما رحبت فاعتزل الحياة السياسية وعكف على كتابة الرسائل لنشر التوعية الاسلامية بين اتباعه وتوضيح حقائق الاسلام وافكاره الصحيحة فى مواجهة الاتجاهات اللادينية التى تسعى ثورة أتاتورك جاهدة لنشرها فى المجتمع. وقد لقيت هذه الرسائل - وهى تسمى رسائل النور - قبولا واستجابة كبيرة فى صفوف الشبان وكانت تتناقل بينهم فى غاية من السرية ، وبعد مضى فترة من الزمن انتشرت فى انحاء البلاد واكتسحت الجامعات والمعاهد (انظر مجلة المسلمين السنة الثالثة - العدد الثانى ص٩٦ - ٩٧) وعندما نما خبر رسائل النور الى اسماع رجال الثورة عام ١٣٥٥ هـ (١٩٣٥ م) اتهموا الشيخ سعيد النورسى بتأليف جمعية سرية مناوئة للحكومة وانه أساء الى مقام أتاتورك بتعيير شخصيته بوصف الدجال فقدم للمحاكمة للمرة الثالثة ولكن الله نجاه من كيدهم (راجع الشيخ عبد الله الخالدى ، " حياة بديع الزمان سعيد النورسى ص ٣٦ وما بعدها) ورغم كل هذه المضايقات والاضطهادات فقد ظل لحركة النور وجود ثابت في المجتمع التركي حتي انه حينما توفى الشيخ سعيد النورسى عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م) كان اتباعه قد قويت شوكتهم وكثر عددهم حتى كادت كفتهم ترجح على كفة الكماليين فى حلبة الصراع السياسى المحتدم فى البلاد غير ان قوى الاستعمار من اميركا وغيرها حين ادركت خطورة الوضع خططت لقلب الاوضاع لصالح حزب الشعب الجمهورى وهو حزب اتاتورك - فعاد الكماليون الى الحكم مرة أخرى (راجع المصدر السابق ص ٦ - ٧) .

(١) راجع مجلة المسلمين ، السنة الثالثة العدد الثانى ص ٩٥ - ٩٦ (القاهرة) رئيس تحريرها الاستاذ / سعيد رمضان .

وقد قامت في تركيا حركات دينية متعددة لمواجهة ثورة اتاتورك العنيفة كان في طليعتها حركة الطائفة النقشبندية التي نظم رجالها سلسلة من الحركات الجهادية ضد هذه الثورة كان أهمها تلك الانتفاضة الشعبية الكبيرة التي أعلنت عن رفضها لهذه الثورة في المنطقة الجنوبية الشرقية سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٥م) وكذلك الانتفاضة الثانية في " مينميمين " سنة ١٣٥٠هـ(١٩٣٠م) والى جانب ذلك كانت جهود الطائفة التيجانية وحركة جماعة النور. ولقد لقيت هذه الحركات الشيء الكثير من عناد أتاتورك وعنفه وتنكيله واضطهاده ولكن رغم ذلك ظل للحركة الاسلامية وجود ثابت في المجتمع التركي وبخاصة بعد وفاة اتاتورك. وكانت حركة جماعة النور أقوى هذه الحركات وأنشطها وأدقها تنظيما وأعظمها أثرا وقد أخذت في النمو والانتشار رغم كل المقاومات والمضايقات حتى بلغ عدد أعضائها مايقرب من مليون عضو وكان لها في الاونة الاخيرة عدد من الصحف والمجلات التي تنشر دعوتها وتدعم نشاطها .

ويغلب على جماعة النور الجانب الصوفي حيث تأثرت بالطريقة النقشبندية الا أنها كانت مع ذلك على تفهم صحيح لحقيقة الاسلام وادراك تام لمنهجه المتكامل الذى يشمل جميع مجالات الحياة البشرية،كما كانت على المام كبير بالاوضاع المحيطة بالمسلمين ومامنوا به من النكبات بسبب انحرافهم عن حقيقة الدين ومفهومه الصحيح الشامل . ولم يؤد الجانب التصوفي الروحي الذى أولاه رجال الجماعة اهتمامهم الكبير الى الانعزال عن الحياة العملية وترك الدنيا وشئونها على أساس النظرة الخاطئة التي تعتبر الدنيا كلها جيفة وطلابها كلاب وأن طلاب الاخرة هم الذين تسمو بهم نفوسهم عن طلب الدنيا والاشتغال بأمورها . فقد كان أتباع جماعة النور يقومون بالعمل والحركة في شتى مجالات الحياة وقد دخلوا غمار العمل السياسي في محاولة التأثير في مجرى الحياة العملية وتحقيق غايتهم في هذا السبيل . وكانوا لايرون استعمال قوة السلاح لتنفيذ برامجهم الاصلاحية في المجتمع وانما يفضلون أن يسير العمل بالوسائل السلمية لنشر الدعوة والتربية العملية حتى يعم الوعي الاسلامي الصحيح أفراد

المجتمع وتكسب الحركة الى صفها مجموعة كبيرة من الأنصار المؤمنين الواعين الذين يحملون مهمة نشر عقيدتها وتبليغ رسالتها والتمكين لها في الأرض وتحقيق أهدافها . وتشمل دعوة جماعة النور تفهيم المسلمين حقيقة الاسلام ودعوتهم الى تطبيق تعاليمه وأفكاره والتمسك بقيمه ومبادئه الأساسية التي تنتظم شئون الحياة كلها واقامة شرع الله في الأرض والسعي الجاد لتوحيد صفوف المسلمين في وحدة اسلامية متراصة قوية . وقد أوضح الشيخ سعيد النورسي هذه المبادئ والاهداف في كتبه الكثيرة التي منها "دليل الشباب" "وعصا موسى" وغيرهما (١).

وأما حركة فدائيان اسلام في ايران فقد قام بتأسيسها السيد نواب صفوى (٢) . وكانت مبادئ حركته تشمل الدعوة الى حقيقة الدين والتمسك بتعاليمه

---

(١) راجع مجلة المسلمين ، السنة الثالثة ، العدد الثاني ، ص ٩٦

(٢) كان السيد نواب صفوى شابا قوى الايمان متوقد الحماسة لا يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره حين بدأ حركته الاصلاحية . وقد تلقى العلوم الاسلامية في مدينة النجف بالعراق . ولما عاد الى بلاده استثاره ماوصلت اليه حال المسلمين من الضعف والذلة والهوان بعد سقوط البلاد تحت وطأة الاحتلال الاجنبي حيث أصبح المسلمون هدفا لغزو العدو العقائدى والفكرى والثقافي واستغلاله السياسي والاقتصادى وظهرت آثار ذلك كله في شئون حياة المسلمين بشكل واضح مخيف لم يسبق له مثيل في سابق عهودهم مع اى عدو من اعدائهم الالداء . وقد سلك السيد نواب صفوى سبيل الجهاد لتحقيق أهدافه الاصلاحية وقاتل جيوش الاحتلال في مواقع كثيرة كما تصدى للنظام القائم في ايران الذى رفض السير على هدى الاسلام واقامة شرعه في الأرض . وقد قتل السيد نواب صفوى عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦) مع نفر من أتباعه وهم يقاومون جيوش الاحتلال البريطاني بعد نقض اتفاقات تأميم مصافى "عبادان" . وكان السيد نواب صفوى لا يعترف لقوة الاحتلال البريطاني بأى حق في المساومة أو ابرام اتفاق مع الشعب الايرانى على شبر من أرض البلاد أو شيء من مصادر ثروته بل فوق ذلك كان يرفض رفضا باتا وجود هذه القوة في أرض البلاد .

ونبذ الخلافات

ومبادئه ودعوة المسلمين الى الاعتصام بحبل الله المتين/والانقسام الى شيعة وسنيين ليكونوا جبهة موحدة قوية والجهاد في سبيل الله لتحرير الوطن الاسلامي الكبير من أيدى قوى الاستعمار الصليبية وانقاذ الأمة الاسلامية من أخطار احتلالها الغاشم ومكايد الصهيونية العالمية ، ثم السعى لتوحيد العالم الاسلامى في وحدة سياسية قوية متعاونة ومتساندة تربط بين شعوبها رابطة العقيدة والأخوة في الدين وتجمعها كلمة الحق في ظل شرع الله ومنهجه . وقد أوضحت الجماعة أن الاسلام لا يعارض انتماء الانسان الى قومه ووطنه ولكنه يشن حربا شعواء لا هوادة فيها على الوطنية والقومية الحمقاء التى تتخذ رابطة أساسية للتجمع والتفرق ويصدر عنها الناس في علاقاتهم وتصرفاتهم بعضهم مع بعض (١) .

وتؤمن هذه الجماعة بوجوب الاعداد القتالي وتنظيم حركة جهادية لتحقيق غايتها في تطهير أرض الاسلام من أيدى الاعداء المستعمرين الصليبيين واليهود ، ونزع زمام امر البلاد من أيدى العملاء المحليين الخونة" ربائب الاستعمار والصهيونية" واصلاح الاوضاع الفاسدة في المجتمع . وهكذا نرى أن السيد نواب صفوى الى جانب استيائه الشديد من قوى الاحتلال الاجنبي كان شديد المعارضة للنظام القائم في ايران لرفضه السير على هدى الاسلام وتحكيم شريعته واقامة شئون الحياة على أسسه ومبادئه وتوجيهاته . وكان السيد نواب صفوى يريد الاصلاح الشامل ، ولما تبين له ألا سبيل الى ذلك الا بالجهاد عقد العزم على تنظيم حركته الجهادية وأخذ يبعث في المسلمين روح الشجاعة والاقدام ويستحثهم على التضحية والتفاني في سبيل الذود عن الدين وتغيير الواقع السيء بطرد جيوش الاحتلال ونزع السلطة الفعلية من أيدى العملاء المارقين ليتسلمها المؤمنون الصادقون الذين يقيمون دين الله وينفذون شرعه ولا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا .

---

(١) راجع مجلة المسلمين ، المجلد الخامس ، ص ٧٤ - ٧٧ .

وقد اشترك رجال حركة فدائيان اسلام في معارك التحرير من النفوذ البريطاني وبرز دورهم في أعمال المقاومة ضد جيوش الاحتلال البريطاني وبخاصة عند تأميم مصافي " عبادان " وعندما نقضت بريطانيا اتفاقات هذا التأميم وأخضعت الكتلة الشعبية لقبول الامر الواقع بقوة السلاح وزجت بقادة حركات المقاومة في السجون والمعتقلات أكد رجال فدائيان اسلام رفضهم لمبدأ المساومة والمصالحة مع جيوش الاحتلال واعلنوا الجهاد ضدها وقاتلوا ببسالة حتى قتل السيد نواب صفوى وبعض أنصاره . وقد كان السيد نواب صفوى يقول دائما : " أننا متأكدون من أننا سنقتل ان لم يكن اليوم فغدا ولكن دماءنا وتضحياتنا سوف تحيي الاسلام وتحفزه الى النهوض ، ان الاسلام بحاجة الى هذه الدماء اليوم ولن ينهض بدونها أبدا [1] .

وقد أشيع عن حركة فدائيان اسلام انها حركة ارهابية [2] متطرفة تتعطش الى اشعال نار الفتنة والفوضى وأعمال التخريب واراقة الدماء ، وذلك بسبب اعلانها الجهاد ضد جيوش الاحتلال والعملاء المارقين الذين أقاموا نظام الحياة على أسس غير اسلامية ورفضوا اقامة منهج الله في الأرض . وان من شأن الاعداء والعملاء دائما أن ينسبوا حركات الاصلاح الاسلامي الى العنف والارهاب والتخريب ويكيلوا لها الاتهامات جزافا لتنفير الناس منها أولا ثم ليتخذوا ذلك مبررا لتدبير الكيد للقضاء عليها . ان اعلان الجهاد ضد قوى الاحتلال لانهاء سيطرتها على البلاد وانقاذ الامة من ويلاتها وتنظيم حركة اصلاحية جهادية لتغيير الواقع السيء في المجتمع المسلم وتحطيم قوة الطواغيت الذين قبضوا على زمام الأمر فيه لاقامة الواقع الصالح المنشود . كل ذلك هو مابعث المخاوف في قلوب الاعداء والعملاء فلجأوا الى قوة العناد والكيد والمقاومة شأنهم مع كل حركة هادفة ودعوة صالحة تقوم لاصلاح امر المسلمين وبناء مجتمعهم على الحق والخير واعادة مجد الاسلام وعزته ليكون قوة مهيمنة على شئون الحياة البشرية كلها .

---

(١) من مجلة المسلمين المجلد الخامس ، ص ٨٦ .
(٢) راجع ماقاله " برنارد لويس في كتابه الغرب والشرق الأوسط ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

وأما عن الحركة الاسلامية في اندونيسيا فقد قامت جمعيات وأحزاب اسلامية متعددة منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجرى (اوائل هذا القرن الميلادى) وكان رجال هذه الجمعيات والاحزاب هم الذين قادوا حركات المقاومة ضد جيوش الاحتلال الهولندى حتى تم تحرير البلاد من أيدى هؤلاء الاعداء المحتلين (١) .

وكانت أول جمعية اسلامية شقت الطريق للعمل الاسلامي في هذه البلاد هي شركة اسلام التى أسسها الاستاذ عمر سعيد شكروا مينوتو سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٠م) فهى تعتبر الحركة الرائدة في مجال الاطلاح في هذه المنطقة . ثم قامت بعدها جمعيات أخرى متعددة منها الجمعية المحمدية وجمعية الارشاد سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٢م) وجمعية وحدة العلماء سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣٠م) والحزب الاسلامي الاندونيسى سنة ١٣٥٥هـ (١٩٣٥م) وحزب التنوير الاسلامى وجمعية الشبان المسلمين سنة ١٣٥٦هـ (١٩٣٦م) وغير ذلك من الجمعيات والاحزاب . وقد ظلت هذه الجمعيات تعمل متفرقة لفترة طويلة من الزمن ثم بدا لمؤسسيها والقائمين على شئون العمل الاسلامي ضرورة توحيد الصفوف وجمع الكلمة وتنسيق العمل فعقدوا عدة مؤتمرات اسلامية عامة لدراسة قضايا المسلمين وخطط العمل لمواجهة المشكلات التى يعانى منها المجتمع . وبذلك بدأت حركة التقارب والتعاون والتنسيق بين هذه الجمعيات ، وكانت الخطوة الاولى قيام شبه اتحاد بين حزب التنوير الاسلامي والحزب الاسلامي الاندونيسى باسم المجلس الاسلامي الأعلى . ثم تلتها خطوة أخرى باتفاق جميع الجمعيات والاحزاب على تكوين اتحاد أوثق وأقوى وأشمل باسم مجلس الشورى الاسلامي ثم جاء بعد ذلك المؤتمر الاكبر الذى عقد بعد استقلال اندونيسيا في عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٩م) واشترك فيه جميع

---

(١) انظر مقدمة كتاب" اختاروا احدى السبيلين الدين أو اللادينية للاستاذ محمد ناصر ص ٧ - ٨ ، ١١ ترجمة زين العابدين الركابى (وجاء في ص ٧٧ من الكتاب أن الشعب الاندونيسى قد رزح تحت وطأة الاستعمار الهولندى لاكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن) .

الاحزاب والجمعيات فاعتمد قرارهذا الاتحاد لجمع العمل الاسلامي في حركة موحدة يمثلها حزب واحد باسم حزب " ماشومى " أى مجلس الشورى الاسلامى . ولكن هذا الاتحاد الكبير لم يدم طويلا فقد انشقت منه بعد فترة قصيرة جمعية نهضة العلماء وشركة اسلام وجمعية التربية الاسلامية لتوءلف فيما بينها حزبا واحدا باسم " Muslim League " أى رابطة المسلمين (١) وهكذا أصبحت في اندونيسيا جبهتان اسلاميتان كبيرتان الاولى حزب " ماشومى " ورئيسها الاستاذ محمد ناصر رئيس وزراء اندونيسيا الأسبق والجبهة الثانية رابطة المسلمين ورئيسها الاستاذ دملان (٢) .

وقد اوضح الاستاذ محمد ناصر مبادىء دعوة حزب " ماشومى " وأهدافه يقول : " الاسلام عقيدة ، انه عقيدة يعيش فى رحابها السواد الاعظم من أبناء الشعب الاندونيسي والاسلام عقيدة شاملة وليس بالمفهوم الضيق الذى يفهمه الغرب من كلمة " Religion " اى الدين " الذى لا وظيفة له سوى تنظيم العلاقات بين الانسان وربه ، فالاسلام يشمل عنصرين عنصر العلاقة بين الانسان وربه وعنصر العلاقة بين الانسان وبنى نوعه وبالتالى عنصر العبادات وعنصر المعاملات . وهذا العنصر الأخير أى عنصر المعاملات يشمل حياة الفرد والأسرة والدولة . (٣) وقد أكدت دعوة حزب ماشومى " أن الدين يشمل جميع نواحي الحياة فهو يوجه حياة الانسان بمختلف نواحيها الفكرية والعاطفية والعملية وغيرها . وان الاسلام قد وضع الاسس الرئيسية والقواعد الأساسية لتنظيم شئون الحياة الدنيوية .

وهذه الأسس والقواعد تتفق مع نوازع الانسان الفطرية وهي صالحة لكل زمان ومكان ، ثم الى جانب ذلك فتح الاسلام مجالا للانسان لاستخدام عقله واجتهاده في تنظيم الامور في كل نواحي الحياة وفقا لتقدم العقل البشرى ومطالب الزمان

---

(١) غير أن الخلاف بين هذه الرابطة وحزب " ماشومى " خلاف فى طريقة العمل فقط فليس هناك أي خلاف بينهما في المبادىء والاهداف .
(٢) راجع مجلة المسلمين ، المجلد السادس ، ص ٣٣٦ ومابعدها عام ١٩٥٨م .
(٣) كتاب اختاروا احدى السبيلين الدين أو اللادينية ص ٦٨ .

والمكان (١) . ويقول في بيان حقيقة الدين انه " عقيدة ونظام للحياة يشتمل على عدة عوامل منها الايمان بالله كمصدر للحكم وقيم الحياة ، الايمان بالوحي المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ، الايمان بوجود صلة العبودية بين العبد وربه الايمان بوجود حياة اخرى بعد الممات ، الايمان بأن العبادات هي وسيلة للتقرب الى الله ، الايمان بالله كمصدر للقيم العليا ، الايمان برضى الله كهدف أسمى في هذه الحياة .. ان ثمة عوامل اخرى يمكن ذكرها غير أن هذه العوامل كافية لتصوير حقيقة الدين وللوقوف على ماله من ميزة عن غيره من النظم اللادينية . (٢)"
وقد أكد الاستاذ محمد ناصر مرارا وتكرارا أن دعوة حزب " ماشومي " تهدف الى بناء دولة اسلامية في اندونيسيا تقيم فيها دين الله وتحكم شريعته وتقيم نظام الحياة كلها على أسسه ومبادئه وتوجيهاته . (٣) .

ولقد لقيت الحركة الاسلامية مايفوق الوصف من عناد حكومة الرئيس سوكارنو وعنتها واضطهادها وأعمال القمع والذبح والابادة ، وقد احتدم الصراع بينها وبين حزب " ماشومي " حين اختارت طريق اللادينية فازدادت فجوة الخلاف عمقا واتساعا وازداد النزاع حدة وتفاقما ، وقامت حكومة سوكارنو بحل حزب ماشومي " سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) ثم حلت البرلمان الذي يضم عددا كبيرا من ممثلي حزب " ماشومي " وعينت أعضاء آخرين ممن ترضى عنهم ومعظمهم من اليساريين الشيوعيين الذين يباركون اتجاهها ويعدون لهافي الأرض . ولقد كانت ضربة حكومة سوكارنو لهذا الحزب قاسية مدمرة وتكاد تأتي الحركة الاسلامية من أساسها في هذه المنطقة حيث ان سلسلة العقبات والعوائق المرصودة في طريق الحركة الاسلامية بعد حل حزب " ماشومي " قد أدت الى فراغ كبير في ميدان العمل الاسلامي

---

(١) انظر الاستاذ محمد ناصر ،اختاروا احدى السبيلين الدين أو اللادينية ، ص ٥٥ ، ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) نفس المصدر ص ٥٣، - ٥٤ .
(٣) انظر المصدر نفسه ص ٢٥ .

خلال هذه الفترة ، وقد أوصدت الابواب باحكام لمنع عودة الحركة الى نشاطها وقوتها وفعاليتها فخلت الاجواء لثورة سوكارنو وأخذت ترمي بشررها في كل مكان وتسلطت على زمام الحكم في البلاد عصبة من المنحرفين الماركسيين وأخذت الحركة الشيوعية في النمو والانتشار حتى اصبح الحزب الشيوعي الاندونيسي اكبر حزب شيوعي في العالم بعد الحزب السوفيتي حيث يقدر عدد اعضائه بثلاثة ملايين عضو[1]. ولما جاءت سنة ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م) شهدت البلاد تحركا نسبيا في صفوف العاملين الغيورين على الاسلام وان كان هذا التحرك مثقلا ومخنوقا بأنواع الضغوط والمضايقات التي تمارسها السلطة القائمة ، فقد عقد هؤلاء العاملون الاسلاميون مؤتمرا اسلاميا في مدينة سربانا وتقرر فيه انشاء مؤسسة للدعوة الاسلامية ـ على غرار المؤسسات الثقافية ـ لا تتدخل في شئون السياسة اطلاقا وتحظى باعتراف الحكومة رغم شيوعتها والحادها ، وتكون مهمتها نشر التوعية الاسلامية باصدار الكتب والرسائل لتعريف المسلمين بحقائق الاسلام ومبادئه وأفكاره وكشف مفاسد المذاهب والنظم الغربية الوافدة وأخطارها ودحض مزاعمها وتحذير الناس من خرافات المبشرين وأباطيلهم وصد هجومهم وابطال مكايدهم الى جانب العمل على بعث روح الاخوة في نفوس المسلمين ودعوتهم الى وجوب العمل لجمع الكلمة وتوحيد الصفوف ونبذ كل أسباب الخلاف والشقاق بينهم .

جاء في الخطاب الذى ألقاه الاستاذ حسين الحبشي في مكة المكرمة بالنيابة عن مؤسسة الدعوة الاسلامية باندونيسيا في ١٩٦٧/٧/٣م " هكذا اخترنا لها " اى مؤسسة " الاسم الذى بها عند الحكومة ثم ركزنا جهودنا على طبع رسائل ندحض بها مزاعم الاشتراكيين وندحض فيها خرافات الاناجيل[2] " .

---

(١) انظر مقدمة كتاب " اختاروا احدى السبيلين الدين أو اللادينية للاستاذ محمد ناصر ص ١١ .

(٢) محمد على الضناوى ، الطريق الى حكم اسلامي ، ص ٢٤٧

وهكذا اصبحت الحركة الاسلامية فى اندونيسيا مؤسسة ثقافية بعد أن كانت حركة جهادية شاملة .

وبعد أن أطيح بسوكارنو تنفس العاملون فى حقل العمل الاسلامى الصعداء واصبح بامكان الجمعيات والاحزاب الاسلامية أن تتحرك وتسعى لجمع شمل المسلمين وتوحيد صفوفهم ، ولكن العوائق والعقبات التى رصدها سوكارنو فى وجه الحركة الاسلامية لا تزال تعمل عملها وان خفت وطأتها عما كان عليه الأمر فى عهده ولكننا نلاحظ رغم ذلك أن الحركة لا تحظى بحرية كاملة فى ممارسة نشاطها والقيام بواجبها فى مجال الدعوة والاصلاح والبناء على أكمل وجه .

من خلال ما تقدم فى الفصول السابقة علمنا أن هناك جهودا كبيرة تبذل منذ قرنين من الزمن لمكافحة الدين الاسلامى وما يشتمل عليه من خصائص الشمول والواقعية والهيمنة على شئون الحياة كلها وذلك لحصر هذا الدين فى دائرة الاعتقاد الوجدانى والشعائر التعبدية ومنعه من الهيمنة الكاملة على الحياة البشرية وعزله عن جميع مجالات الحياة الواقعية وجعله مجرد طريق الى الآخرة لا شأن له بتنظيم شئون الحياة العملية البتة ، كما تبذل الى جانب ذلك جهود مماثلة لمحو هذا الدين من الوجود وتنحيته حتى عن مجال العقيدة لاحلال نظريات وتصورات وضعية أخرى مكان الدين تنبثق منها مفاهيم وأنظمة ومناهج وأوضاع تملا الفراغ الذى ينشئه اخلاء الحياة البشرية من حقائق الدين ومبادئه وأفكاره وتعاليمه ، فالاعداء اليهود والصليبيون والاستعماريون قد جندوا قواهم كلها وأجمعوا كيدهم ومكرهم لمكافحة هذا الدين وطمس معالمه وتحطيم قوته بوسائل شتى تشمل استعمال قوة السلاح واستعمار الشعوب الاسلامية واحتلال بلدانها وفرض السيطرة السياسية والاقتصادية ، ووسائل الكيد والمكر والغزو الفكرى المخطط لنشر الافكار والنظريات والمناهج الغربية المادية اللادينية فى المجتمعات الاسلامية وتنظيم حملات التشويه والتضليل والتمويهات والاكاذيب وكذلك الضربات الوحشية القاسية التى تكال لطلائع

البعث الاسلامى فى كل بلد من البلدان الاسلامية . ولقد أفلحت هذه الجهود الضخمة التى كانت تبذلها قوى الاستعمار الصليبى والصهيونية العالمية وحققت انتصارات ملحوظة فى أنحاء المجتمعات الاسلامية - وبخاصة منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجرى (أواخر القرن التاسع عشر الميلادى) فانتشرت الاتجاهات والافكار والنظريات والمناهج الغربية وقامت فى انحاء العالم الاسلامى دول وحكومات " علمانية " تترسم خطى الغرب وتسير فى اتجاهاته وتتبنى فلسفته للحياة وتقيم بنيانها على اسس حضارته المادية اللادينية ، وقد أبعد الدين الاسلامى عن الهيمنة على شئون الحياة البشرية من الناحيتين التصورية والواقعية ونحيت الشريعة الاسلامية عن مجال الحكم والتشريع وحصرت فى مجال ضيق محدود لا يتجاوز الاحوال الشخصية واستوردت النظم والقوانين الغربية لبقية مجالات الحياة الفسيحة كما وضعت الى جانب ذلك قوانين أخرى محلية حسبما تمليه الاهواء والمطامع والمصالح الذاتية . ولكن رغم ذلك كله فان هذا الدين أضخم حقيقة وأصلب عودا وأعمق جذورا من ان تفلح فى القضاء عليه هذه الجهود والمحاولات الضخمة والحملات العدائية المنيفة ولا تلك الضربات الوحشية القاسية التى توجه لطلائع البعث الاسلامى فى كل مكان . فقد صمد الاسلام خلال تاريخه الطويل لما هو أعنف وأقسى من هذه الحملات والضربات حين كافح هجمات التتار الشرسة وحملات الصليبيين المنيفة ، وقد حقق المسلمون انتصارات عظيمة حفظ الله بها هذا الدين من مكر العدو الجبار كما حفظ بها الجماعات المسلمة التى جاهدت فى سبيل الدفاع عن هذا الدين وحماية الاوطان الاسلامية من عبث العابثين وحقد الحاقدين . ورغم كل ما نراه من حولنا اليوم من ضخامة الاسس التى تقوم عليها الحضارة الغربية المادية وقوة صراع الغرب وعدائه للاسلام ووسائل كيده المنتشرة هنا وهناك وقسوة الضربات - التى يكيلها للامة الاسلامية لمنع عودة الاسلام مرة اخرى الى مركز القوة والقيادة فى العالم فلا يخالجنا ادنى الشك ان الاسلام سيخرج من هذا الصراع العنيف المدمر بإذن الله منتصرا لما فيه من عناصر القوة الذاتية وبقوة صمود اهله للحملات والضربات

وجهادهم فى الله حق الجهاد .

لقد رأينا من خلال العرض السابق فى هذا الباب تلك الجهود الضخمة التى بذلتها حركات البعث الاسلامى على مدى قرنين من الزمن في سبيل الاصلاح والبناء والذود عن حياض الدين ودرء الاخطار المحدقة بالامة الاسلامية واصلاح حالها عقديا وفكريا وسلوكيا واخلاقيا واعادة بناء المجتمع على الاسس القويمة الصالحة. وقد تعرضت الحركات بسبب دعوتها الاصلاحية هذه لضربات وحشية قاسية من قوى الاستعمار الصليبي والصهيونية العالمية والسلطات المحلية المتأثرة باتجاهات الغرب وطرائقه والعميلة لقوى الاستعمار الغربي . وليس غريبا أبدا أن تتصدى القوى الصليبية والصهيونية لهذه الحركات وتخطط للقضاء عليها وتحطيم قوتها بكل ما تملك من وسائل الكيد والمكر فهى عدو قديم لدود للاسلام حاقد على المسلمين لا تلتقى على شيء الا على معاداة الاسلام والكيد له والفزع من ظهور قوته وقيام حركة بعث اصلاحى فى المسلمين . " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . . (١) الآية " يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . (٢) "....ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا....الآية" (٣)

ولكن الغريب حقا أن الحركات الاسلامية قد نالت من عناد أبناء المسلمين عملاء الاستعمار وربائب اليهود ومن عنتهم واضطهادهم ما لم تنله على أيدى الاعداء الصليبيين واليهود أنفسهم فقد رصد هؤلاء العملاء فى طريق هذه الحركات كل العوائق والعقبات ولجأوا الى قوة البطش وأعمال التعذيب والتنكيل للقضاء على هذه الحركات وتحطيم قوتها وتصفية ساحة النضال الشعبى من العناصر الاسلامية الصالحة والنشاط الحركى الاسلامى ، كما رأينا ذلك فى المساعى المنيفة وأعمال الافساد والتخريب التى قام بها مصطفى كمال أتاتورك وأتباعه للقضاء على الاسلام وحضارته فى تركيا وتحطيم حركة جماعة النور. وكذلك المحاولات الضخمة التى بذلتها

---

(١) سورة البقرة آية (١٢٠)
(٢) سورة التوبه آيه (٣٢)
(٣) سورة البقرة آية (٢١٧)

السلطات المحلية الموالية للاستعمار الصليبي لضرب الحركات الاسلامية ضربة قاسية عنيفة في كل من مصر وباكستان واندونيسيا وايران وسوريا والعراق والاردن وغينيا وغيرها من البلدان الاسلامية. (١) وهذا كله من جانب ومن جانب آخر فان الحركات الاسلامية بجهودها الكبيرة وبرامجها وخططها ووسائلها المتعددة قد استطاعت أن تحقق بعض أهدافها في سبيل الاصلاح والبناء ولكنها لم تتمكن بعد من تحقيق غايتها المنشودة من اقامة المجتمع المسلم على الاسس الاسلامية القويمة وبناء الدولة الاسلامية التي تقيم دين الله في الارض وتحكم شريعته وتطبق تعاليم الدين وتسير على هديه وتوجيهاته وتوحد صفوف المسلمين وتجمع كلمتهم ليصبحوا أمة واحدة مترابطة متضامنة متعاونة قوية مرهوبة الجانب. وليس السبب الرئيسي في عدم التمكن من تحقيق هذه الغاية هو وجود خلل أو نقائص في الاسس التي تبنتها هذه الحركات ولا خططها ووسائلها في سير العمل لأن ما يحدث في البناء من خلل بسبب ما قد يكون في الخطط المرسومة من نقائص وأخطاء يمكن التغلب عليه بعون الله وتوفيقه في مستقبل الايام عن طريق المعرفة والخبرة والتجارب. ولكن السبب الحقيقي الذي حال دون تحقيق هذه الغاية هو العوائق والعقبات المرصودة في طريق هذه الحركات وقوة البطش واعمال القمع والابادة الى جانب ما نشاهده في انحاء المجتمعات الاسلامية وفي شتى مجالات الحياة من عمق آثار الاحتلال الاجنبي وانتشار مذاهب الغرب وافكاره وطرائقه ووسائل غزوه الفكري الذي مسخ العقول والافهام وشوه المبادئ والقيم الاصيلة وزعزع العقيدة الدينية في النفوس وأحل محلها قيما ومبادئ وافكارا أخرى مادية لادينية اكتسحت مجالات الحياة كلها واخترقت جميع الحواجز والسدود ووقرت في نفوس الطبقة

---

(١) وذلك في عهد الرئيس احمد سيكتوري زعيم الحزب الاشتراكي الذي سام علماء المسلمين سوء العذاب وعرضهم لأقسى أنواع الاضطهاد والتنكيل ـ وقد أعدم أحد عشر عالما في ثمانينيات القرن الرابع عشر الهجري (ستينيات هذا القرن الميلادي).

المثقفةثقافة أوربية التى اعتنقت مذاهب الغرب وفلسفاته للحياة وقبلت السير فــى اتجاهاته وكانت تسعى بجد ونشاط بالغين لجعل المجتمعات الاسلامية صـــورة مطابقة للمجتمعات الاوربية أو قريبة منها فى ترسم خطى الغرب واقتفاء اثره وتتبـع سننه حذو القذة بالقذة فى الفكر والاخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد والعادات والتقاليـد .

وأريد هنا أن اجمل بعض القواعد الاساسية المهمة فى ميدان العمل الاسلامى وتنظيم شئون الدعوة والتخطيط لسير العمل ، وقد أخذ بهذه القواعد بعـــض الحركات التى عرضنا لها في هذا الباب بينما قصر البعض الآخر منها فى بعـــض هذه القواعد حيث لم يعطه ما يستحقه من العناية والاهتمام . ويأتى التركيز علـــى هذه القواعد هنا لأهميتها الكبيرة فى الظروف الحرجة التى تعيشها الأمـــة الاسلامية وطبيعة الصراع العنيف الذى تواجهه الامة من المعسكرات المعادية ومن أجل مجابهة وسائل هذا الصراع وأساليبه المتعددة . وهذه القواعد هى كالآتى :

أولا : وجوب الأخذ بفكرة الشمولية فى الحركة الاصلاحية بحيث تشمل جميـــع مجالات الحياة ولا تقصر الاهتمام على جانب معين محدود دون بقيـــة الجوانب .

ثانيا : وجوب اتباع الطريقة المثلى لمعرفة الحق بالرجوع الى المصدرين الأساسيين الكتاب والسنة والبعد عن الخلاف والتعصب الشديد للآراء والاتجاهات والتطرف الشديد والمغالاة الجافة والمعاداة بسبب الاختلاف فى الامور الفرعيــة .

ثالثا : بذل الجهود لنشر الوعى الاسلامى وبعث اليقظة الشاملة فى الأمـــة الاسلامية عن طريق الحركة الهادفة والتربية العملية المركزة واعـــداد العدة الكاملة لحمل اعباء العمل الاسلامى فى شتى مجالات الحيـــاة والتخطيط الدقيق لتجنيب الحركة ضربات الاعداء وبخاصة فى مرحلـــة تكوين الحركة واعداد العناصر ونشر الدعـــوة .

رابعا : وجوب اتخاذ موقف واضح تجاه الحضارة الغربية يبنى على اساس العلم والدراسة والبحث واتخاذ الوسائل الايجابية الواقعية لتنظيم حركة قوية لانعاش الحضارة الاسلامية ورفع مستواها الى المكانة اللائقة بها بين حضارات الامم .

خامسا : التصدى للنظريات والافكار والمذاهب والنظم الغربية لكشف عيوبها ومفاسدها وأخطارها واتخاذ اساليب ايجابية واقعية لمكافحتها بوضع مناهج عملية وبرامج تطبيقية لحقائق الاسلام وافكاره ونظمه في كافة مجالات الحياة .

وأما النقطة الاولى فمادام الاسلام منهجا متكاملا لكافة شئون الحياة البشرية من العقائد والعبادات والمعاملات فان الواجب على الحركة الاسلامية الاصلاحية تنظيم عملها ونشاطها بحيث يشمل كافة مجالات الحياة كمجال العقيدة والفكر ومجال العبادة والشعائر ومجال الحكم والتشريع ومجال الاقتصاد ومجال الاخلاق والاجتماع ومجال العلم والثقافة ومجال الحضارة والصناعة وفنون الحرب . ولقد كان المفكرون المتنورون يأخذون على بعض الدعاة المصلحين وبعض الحركات الاصلاحية قصر الاهتمام على جانب معين محدود دون بقية الجوانب المهمة بحيث يأتي نشاطهم جزئيا وناقصا . فان هؤلاء المصلحين مهما بذلوا من جهود في سبيل هذا الاصلاح الجزئي أو حققوا في هذا المجال المحدود من نجاح فسيظل عملهم قاصرا ناقصا إذ لم يتناول جميع جوانب الحياة التى يشملها الاسلام بمبادئه وتعاليمه وتوجيهاته ، وسيحدث هناك فراغ كبير في المجالات التى لايتناولها برنامج هذا الاصلاح الجزئي يضطر الناس لسده الى اللجوء الى الانظمة غير الاسلامية وبذلك لايكون للاسلام الهيمنة الكاملة على كافة شئون حياتهم . ومن أمثال هذا الاصلاح الجزئي الناقص قصر الاهتمام على مجال "التعليم الدينى" والثقافة الدينية " مع اهمال جوانب العلوم العقلية والتطبيقية ، ومن ذلك ايضا قصر العناية على الجانب التربوى الروحى مع اهمال جانب الاعداد المادى

وكذلك ماظهر في الآونة الاخيرة من حصر النشاط الاسلامي كله في مجال السياسة بفتح جبهات سياسية على غرار الاحزاب الدستورية في النظام الديموقراطي الغربي واعتبار طريقة الانتخابات وكسب اصوات الناخبين المسلمين أنجع وسيلة لتحقيق الغاية المنشودة من اقامة حكومة اسلامية واصلاح عام شامل في نظام الحياة في المجتمع المسلم . غير ان المنهج الاصلاحي الرباني يقرر أن تغيير الواقع السيىء في أمة لا يكون حتى يمهد له الأرضية الفكرية الواسعة لإحداث التغيير الوجداني النفساني الذي يرتكز عليه التغيير السلوكي الواقعي . " ... ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم .. (1) الآية وعلى هذا فمادام بنيان الفكر في العصر الحديث قائما على أسس علمانية "لادينية" فلا يمكن اقامة نظام الحياة الاسلامي في المجتمع الذي تسوده النظريات والافكار والنظم الغربية اللادينية الا بعد تحطيم أسس هذا الفكر المادي اللاديني أولا وارساء دعائم الفكر الاسلامي في هذا المجتمع ثم اتخاذ الاساليب والوسائل الايجابية التي يقررها الاسلام لبناء المجتمع واقامة الدولة الاسلامية ، لا أن تحاول الحركة تحقيق ذلك عن طريق اتخاذ الوسائل والاساليب التي وضعها نظام آخر من الانظمة غير الاسلامية فقد دلت التجارب أن ذلك لا يجدي نفعا ولا يحقق الهدف . وقد يقال بأن الحزب " الاسلامي " سيعمل على تطهير ميدان العمل السياسي من الصراعات والتنافسات الحادة وتطهير طريقة الانتخابات من أعمال الغش والخداع والتزوير وشراء الضمائر والاصوات وترويج الاكاذيب والادعاءات المريضة ، ولكن اذا كان باستطاعته الابتعاد عن هذه الامور كلها والتزام الطرق السليمة الصالحة فهل في مقدوره الزام الاحزاب الاخرى المنافسة باتباع طريقته أو أن هذه الاحزاب ستنتفع كثيرا من تخلي الحزب " الاسلامي " عن استخدام هذه الوسائل التي اصبحت الركائز الاساسية التي تعتمد عليها الاحزاب لتحقيق الفوز في الدول الديموقراطية

وأما حول النقطة الثانية فيجب على الحركة الاسلامية أن تبني مبادئها

---

(1) سورة الرعد : آية (11) .

وأسسها على ضوء تعاليم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن تتبع الطريقة المثلى لمعرفة الحق بالرجوع الى هذين المصدرين الأساسيين ورد كل ما تختلف فيه مأى جماعة من الجماعات الاسلامية اليهما . ويجب سلوك الطريقة السليمة الهادفة في البحث والدراسة والنقاش بغرض الوصول الى الحق الذى يسنده الدليل من كتاب أو سنة من دون اللجوء الى التأويلات البعيدة وتحميل النصوص مالا تحتمل ومحاولة اخضاعها للاتجاهات الخاصة ، كمايجب أيضا البعد عن اثارة الخلاف واللجوء الى التطرف الشديد والمغالاة الجافة والتعصب الشديد للاراء والاتجاهات. وكذلك يجب التركيز في الدعوة على أصول الدين لأنها الاركان الاساسية والدعائم الثابتة التي يقوم عليها بناء الاسلام ولكن يجب استقاء علوم العقائد نقية صافية من نصوص الكتاب والسنة لا من سفسطات أهل الكلام وجدالاتهم الفلسفية العقيمة . وأما فروع الدين فالاوفق للحركة ان تحاول جهدها في التقريب بين وجهات النظر والتوفيق بين الاراء والسعي الجاد لانهاء الخلاف ومحو آثاره من التنازع والجافاة والمعاداة حتى تجمع كلمة الامة وتوحيد صفوفها . ويجب التأكيد هنا على حقيقة مهمة هي انه فضلا عن كون الاسلام يدعو الى الاتحاد والترابط والتعاون بين المسلمين ويحرم عليهم التنازع والتفرق والاختلاف فان طبيعة الصراع المحتدم في العصر الحديث بين الامة الاسلامية والكتلة الغربية والشرقية المعادية تقضي بضرورة التنسيق بين الجماعات الاسلامية ونبذ الخلافات الجانبية التي شغلت الامة عن قضاياها المهمة وتوحيد الصفوف وجمع الكلمة وحشد الجهود والتضامن والترابط والتعاون لمجابهة الاخطار الجسام التي تهدد الأمة بالتدمير والافناء .

وأما عن النقطة الثالثة فيجب على الحركة الاسلامية أن تقوم بجهود جبارة لنشر الوعي الاسلامي وبعث اليقظة الشاملة في الامة الاسلامية عن طريق الحركة الهادفة والتربية العملية الدقيقة على حقيقة الاسلام ومفهومه الصحيح الذى غاب عن وعي اكثر المسلمين ثم الى جانب ذلك يجب أن تلقى الحركة بجدا ونشاطا

لاعداد العدة الكاملة لحمل أعباء الدعوة ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار طبيعة الصراع وقوته واشكاله وأساليبه حتى يكون الاعداد بمايكافيء ذلك كله ويتناسب معه . من أجل ذلك يجب أن تولي اهتماما كبيرا لمجال العلم وبخاصة التجريبي والتطبيقي للتطوير والتصنيع والاختراع حتى تجمع بين القوة المعنوية والمادية . ويجب على الحركة أن تتخذ خططا دقيقة وتدابير مناسبة لتجنيب الجماعة اخطار الاعداء وضرباتهم وبخاصة في مرحلة التكوين والتشكيل ، ولا ينبغي التسرع الى الصدام بالقوى المعادية سواء في داخل المجتمع المسلم أو في خارجه قبل استكمال عناصر القوة المعنوية والمادية ويجب أن يتجنب التهور والانفعالات والتعجل العشوائي، فان الدعوة على مراتب ودرجات ، والتخطيط الدقيق في الدعوة والجهاد المستمر بشتى أنواعه ومراتبه وتنظيم العمل على المدى البعيد أنفع بكثير من الاعمال المرتجلة والانفعالات الخارجة عن نطاق الدراسة الدقيقة للاوضاع واختيار الخطوات المناسبة للعمل . ولا ينبغي أن يتوقع المصلحون حدوث التغيير الكلي في المجتمع بين عشية وضحاها فان سنة الله في الحياة البشرية تأبي ذلك ، من أجل هذا يجب أن يوضع في الحسبان أنه مادام الفساد لا يحدث في المجتمع دفعة واحدة فكذلك عملية الاصلاح لا يمكن أن تتم في لحظات يسيرة . ونحن نعلم أن المجتمع المسلم اليوم يعاني مشكلات عويصة متعددة ولو أرادت جماعة حل هذه المشكلات واصلاح حال هذا المجتمع اصلاحا جذريا شاملا في حدود فترة قصيرة من الزمن وبأعمال ارتجالية لا تخضع للتخطيط الدقيق الشامل على المدى البعيد لما وجدت الى ذلك سبيلا لأن الامر يتطلب جهودا ضخمة منظمة ووقتا طويلا وكفاءة عالية في العاملين وتربية عملية مركزة طويلة المدى لتكوين العناصر الصالحة قد يستغرق ذلك عمر جيل كامل أو جيلين .

وأما النقطة الرابعة فهي وجوب اتخاذ الحركة الاسلامية موقفا واضحا

تجاه الحضارة الغربية يبنى على أساس العلم والدراسة والبحث لتفهم أسس هذه الحضارة والتعرف على أسرارها وماينبثق منها من قيم ونظم وأفكار ، والوقوف على منافعها ومفاسدها ، وتمييز الغث من السمين ،وأخذ النافع الطيب وترك الضار النكد . ولكن لا ينبغي للحركة ان تقف عند حد الاستيعاب والانتفاع بمنجزات الحضارة الغربية بل عليها ان تأخذ بأسباب العلم المختلفة وبخاصة العلوم العقلية والتطبيقية وأن تسعى جاهدة لتنظيم حركة قوية لتأسيس النهضة الاسلامية على مقومات الحياة الاسلامية وانعاش الحضارة الاسلامية في كل اتجاه وتنميتها وتطويرها بمايتلاءم مع روح العصر وطبيعة الحياة . ولا ينبغي للحركة الاصلاحية الواعية أن تقف حيال طبيعة الحياة وسننها راكدة متجمدة دون تفاعل وحركة وانطلاق والى جانب ذلك يجب الحذر من الانسياق مع تيارات الحياة المادية بدون وعي وهدى ورشاد . ان اتخاذ مثل هذا الموقف الواضح تجاه الحضارة الغربية لهو من الاهمية بمكان وبخاصة ونحن نعلم أننا نعيش اليوم في عصر " العلم " و " التكنولوجيا " الذى زها بالانجازات المادية الهائلة التى تبهر العقول وتحير الافهام وتزعزع القيم والأسس الثابتة .

وأما النقطة الخامسة فهى وجوب تصدى الحركة الاصلاحية للمذاهب والافكار والنظريات والنظم الغربية الوافدة ، ولا يكفي في هذا الجانب مجرد شن حرب شعواء على هذه المذاهب والنظريات بإقامة الحجة على بطلانها وفسادها وكشف عيوبها وأخطارها والتحذير من مغبة اعتناقها وقبول السير فى اتجاهاتها بل يجب الى جانب ذلك كله اتخاذ أساليب ايجابية واقعية لاستجلاء حقائق الاسلام وتوضيح أفكاره ومبادئه ووضع منهج علمى وبرنامج تطبيقى لهذه المبادئ والافكار والنظم في شتى مجالات الحياة البشرية ، يتناول هذا المنهج استجلاء وتوضيح نظام الحكم الاسلامي شكله وخصائصه ومقوماته والنظام الاجتماعى أسسه ومقوماته والنظام الاقتصادى فلسفته وتشكيلاته وسياساته والنظام الدولى فى علاقات الدول

وارتباطاتها بعضها مع بعض والنظام الاخلاقي مصدره وأسسه والسلطة التي يستمد منها . ويجب أن يعطى كل جانب من هذه الجوانب عناية كبيرة من البحث التفصيلي والدراسة الدقيقة المستفيضة وأن يعرض بطريقة منظمة وبأسلوب سهل ميسر يلائم روح العصر وطبيعة الحياة حتى تكون مبادىء الاسلام وافكاره واضحة دون لبس أو غموض ويكون الناس على بصيرة من أمرهم . وبهذا العمل الجاد المثمر تستطيع الحركة ان تجابه أخطار مذاهب الغرب ونظرياته التي اكتسحت جميع مجالات الحياة في المجتمعات الاسلامية . ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار في دراسة كل جانب من جوانب الحياة أن الدين الاسلامي منهج متكامل شامل لجميع نواحي الحياة البشرية ، فهو يحتوى على المقومات الاساسية التي تنظم جوانب الحياة كلها وتتناول جميع اوجه نشاط البشر في كل جانب من هذه الجوانب وهذه المقومات جميعها في ترابط وتوافق وتداخل بحيث لا يمكن فصل بعضها عن بعض ولا اخراج جانب من الحياة في اطار مستقل عن بقية الجوانب .

• • • • • •



الباب الرابع

طريق الخلاص مما تعانيه الأمة الإسلامية ووسائل الإصلاح في سبيل إستئناف حياة إسلامية صحيحة.

الباب الرابع :-

الفصل الأول :

حاجة المسلمين اليوم الى الاسلام فى صورته التطبيقية السليمة .

ان الامة الاسلامية خلال القرنين الاخيرين تعيش واقعا سيئا مترديا تواجه فيه موجة عاتية من الغزو الأجنبي اللاديني ، وهى أعنف موجة عدائية خارجية واجهتها هذه الامة فى تاريخها الطويل فقد اكتسحت بلاد المسلمين من أقصاها إلى أقصاها وبزت جميع الموجات المماثلة فى عنفها وقوتها وفى شمولها وتأثيرها على حياة المسلمين كما فاقت جميع الصدمات والهزات التى زلزلت كيان هذه الامة . فقد دهمت هذه الموجة العنيفة الأقطار الاسلامية كلها ونزل خطرها بساحة المسلمين ولم يخل قطر ولا بلد ولا دار فى بلاد المسلمين من آثار غزو أوربا المخطط للاسلام والمسلمين .. الغزو العسكرى والسياسى والفكرى والثقافى والاقتصادى والاجتماعى ولكن الغريب من طبيعة هذا الغزو الأجنبى المدمر أن الجانب المادى البراق من حضارة الغزاة قد بهر عقول معظم المسلمين وهزم أرواحهم وأفقدهم وعيهم ورشدهم ولم يتنبه منهم لما فى هذا الغزو من أخطار ماحقة إلا عدد قليل ولم ينهض لصد هذا العدوان ويجند القوى والطاقات والمواهب لدرء أخطار هذا الغزو ومحو آثاره السيئة إلا قلة قليلة من المسلمين . واذا كان قد حدثت من قبل فى المجتمع المسلم موجة الالحاد والزندقة بتأثير الفلسفة اليونانية كما ظهرت ايضا موجة العقائد الباطلة فقد تصدى لها علماء المسلمين المجاهدون وقاوموها بسعة علمهم ورجاحة عقولهم وفهمهم الصحيح للاسلام ووعيهم السليم لما يجرى فى مجتمعهم وجهادهم فى سبيل الذود عن حمى الدين حتى خرج الاسلام من هذه المحنة منتصرا محتفظا بأصالته وقوته وحيويته لم يفقد شيئا من قيمه ومبادئه وأخلاقياته وظل المجتمع المسلم كذلك محتفظا بمقومات الحياة الاسلامية الاساسية دون أن تؤثر فيه موجة الالحاد والزندقة والعقائد الباطلة أو تطغى على مجرى الحياة فيه كما حدث فى هذا العصر الأخير

مع موجة " الحضارة " الغربية المادية اللادينية" .

لقد كانت الفلسفات والنظريات التي غزت بها اوربا العالم الاسلامي قائمة على انكار الله تعالى وانكار قوته المصرفة لهذا العالم والتي أخرجت العالم من العدم الى الوجود ، وعلى انكار الدين وأسسه وقيمه وانكار عالم الغيب والوحي والنبوات وانكار الشرائع السماوية وانكار القيم الروحية والاخلاقية ، ومن هذه الفلسفات والنظريات ما يبحث في علم الحياة والنشوء والارتقاء ومنها ما يبحث في علم النفس ومنها ما يبحث في الاقتصاد والسياسة ولكنها جميعها على اختلاف أسمائها ومباحثها وقواعدها وأهدافها تلتقي على النظرة المادية المحضة الى الانسان والكون والحياة والتحليل المادي الصرف لمظاهر الكون والحياة وحوادثهما وأفعال الانسان وتصرفاته في هذه الحياة(١).

ان هذا الغزو الاجنبي اللاديني كان موجها لتحطيم أعز ما يملكه الاسلام من عقيدة وشريعة وقيم خلقية رفيعة ثابتة" وكان يستهدف الاجيال الاسلامية الناشئة أعز أبناء الاسلام وأقوى جنوده . فيا ترى هل يبقى للامة الاسلامية وجودها الحقيقي وشخصيتها المتميزة وقوتها الفاعلة وسيادتها الحضارية بعد ضياع الدين وضياع أبناء الاسلام وسقوطهم صرعى تحت رحمة الغزاة الماكرين الحاقدين ؟ من أجل هذا تداعت الامم الاوربية على الامة الاسلامية منذ قرنين من الزمن تغزوها في عقر دارها غزوا فكريا مخططا تغتصب فيه عقول شباب المسلمين وتعمل كل ما في وسعها لزعزعة عقيدتهم وفتنتهم عن دينهم ونزع ثقتهم بالقيم الدينية والحقائق الايمانية والغيبية ، كما تغرس في عقولهم بذور الكفر والالحاد وتعمق في نفوسهم الايمان بفلسفاتها ونظرياتها المادية اللادينية في السياسة والاقتصاد والاجتماع وتصوراتها المادية عن الانسان والكون والحياة . وقد استطاعت على مدى هذا الزمن الطويل أن تكون من أبناء المسلمين طبقة كاملة متميزة ربتها على هذه الفلسفات والنظريات

---

(١) راجع كتاب " الى الاسلام من جديد " للعلامة ابي الحسن علي الحسني الندوي ص ١٧٤ فصل " ردة ولا ابا بكر لها " .

وأشربتها روحها المادية ومسخت عقولها وخلقتها خلقا آخر حتى أصبحت خاضعة لسلطان الحضارة الغربية المادية وتياراتها اللادينية الجارفة خضوع الغربيين أنفسهم لسلطان هذه الحضارة أو أشد منه . وقد تقدم في الفصول السابقة حديث مستفيض عن هذه الطبقة المستغربة لا أحتاج معه هنا الى مزيد ايضاح أو بيان ، وسأكتفي هنا بالقول بأن هذه الطبقة قد اعتنقت الفلسفات والنظريات الغربية وقبلت النظم وطرائق الحياة الغربية ودانت بالعقلية الاوربية وأصبحت تنظر اليها نظرة تقديس واجلال بالغين وتفتخر بالانتساب اليها وتحتقر كل مايعارضها من الأديان والنظم والعقليات ، وكانت تستميت في سبيل نشرها والدعوة اليها وتوجيه حياة الشعوب الاسلامية نحو وجهتها المادية اللادينية وربط هذه الشعوب بتاريخ الامم الغربية وحضارتها وقطع الصلة بين المسلمين وتاريخهم وحضارتهم . وقد أصيبت هذه الطبقة بالهزيمة الروحية والعقلية والفكرية أمام الحضارة الغربية فافتتنت بها وانبهرت بها انبهارا كبيرا فقدت معه وعيها ورشدها ، وتكاد تكون هذه الطبقة على صورة واحدة في انحاء بلاد المسلمين . وكان من أبرز سماتها دعوى التطور والتقدم والحرية والتحضر والبراءة من الاديان والعقائد والقيم والتعاليم الدينية وكأن هذه الطبقة قد جاءها من عند الغرب " دين " فيه هدى ونور لم يأت بمثله أحد من قبل،وكأن عقيدة الاسلام وشريعته منقوضة بما جاء به الغرب من الفلسفات والنظم،وهكذا أصبح الغرب المثل الاعلى لهذه الطبقة وقدوتها في كل شيء حتى انها لتتلقى منه القول الفصل في تحديد مفهوم الدين وتحديد دائرة عمله .

ولقد أصبحت المجتمعات الاسلامية في هذا العصر الاخير تموج بالفلسفات والمذاهب والنظم الغربية وانتشر فيها الكفر والالحاد واطرد طغيان المادة على النفوس وأصبحت تؤثر على كل مبدأ ديني وعقيدة دينية،واخلد الناس الى الأرض وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة واتبعوا خطوات الشيطان وخضعوا لسلطان الأهواء فانحطت قيمة الحياة وأصبحت تنحدر الى الهاوية يوما بعد يوم فعاني الناس شقوة

وأى شقوة فعمت البلاد والعباد أدران الجهل والظلم والفساد المريض .

ان مشكلة الامة الاسلامية اليوم ليست مشكلة انحطاط في الاخلاق وليست ضعفا في بعض الشعائر ولا انحرافا في السلوك ولا تقليداً للاجانب وتأثرا بطرائق حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم وان كانت هذه مسائل تستحق من الدعاة المصلحين عناية كبيرة وجهادا مستمرا في سبيل الاصلاح والتقويم ولكن المشكلة اعظم من ذلك وأضخم انها مسألة كفر وايمان انها مسألة بقاء الامة على الاسلام أو عودها مرة أخرى الى الجاهلية وخلعها لهذا الدين ونقضها لعراه ، هذه هي طبيعة الصراع القائم بين فلسفات الغرب ونظرياته ونظمه وبين الاسلام وعقيدته وشريعته ونظامه ، وهذا هو الوضع الذى تعيشه الامة الاسلامية في أنحاء البلدان الاسلامية في العصر الحديث وعلى مدى مايقرب من قرن من الزمن .

لقد أصبحت المجتمعات الاسلامية تسير على الخط المعاكس للدين حيث فقد الاسلام هيمنته الكاملة على شئون حياة المسلمين ولم يعد يطبق تطبيقا حقيقيا كاملا باعتباره عقيدة وعبادة وشريعة ونظاما وخلقا وسلوكا . وتضم هذه المجتمعات ناسا يسمون أنفسهم مسلمين ولا يمثلون الاسلام تمثيلا حقيقيا كاملا ولا يحققون العبودية الكاملة لله وحده ، فانهم وان لم يعتقدوا صراحة بألوهية احد غير الله تعالى فقد صرفوا بعض خصائص ألوهية الله لغيره تعالى وأصبحوا يدينون بحاكمية البشر ويتلقون منها نظام الحياة والشرائع والقيم والموازين والعادات والتقاليد وكل مقومات الحياة تقريبا . وإنا نجد اليوم بعض هذه المجتمعات يعلن صراحة عن علمانيته وعدم علاقته بالدين أصلا وبعضها يعلن عن احترامه للدين ولكن على أساس اعتباره مجرد شعار تقليدى للدولة من دون أن يكون له سلطان وهيمنة على شئون الحياة العملية ، بينما نجد البعض الآخر من هذه المجتمعات ينكر الغيبية وكل مايتعلق بها ويزعم أنه يقيم نظام حياته على " العلمية " اعتقادا منه أن العلمية تناقض الغيبية ، كما أن كثيرا من هذه المجتمعات يجعل الحاكمية الفعلية

للبشر يشرعون مايشاءون ويحلون ويحرمون من عند أنفسهم ويضعون القيم والموازين والنظم والقوانين . وهكذا تقوم الحياة العملية في هذه المجتمعات على ركيزة العبودية للبشر والتلقى من حاكمية البشر في نظام هذه الحياة ،وهكذا عطلت شريعة الله ومنهجه للحياة ورفضت القيم التى جعلها الله ثابتة في حياة البشر. ونحن نرى في هذه المجتمعات أن الناس وان لم يمنعوا من أداء الشعائر التعبدية كالصلاة والزكاة والصيام والحج فقد حرمت عليهم المطالبة باقامة منهج الله وتحكيم شريعته في شئون الحياة . ويتجلى من ذلك كله مدى انكار هذه المجتمعات وتعطيلها لحاكمية الله المطلقة في الارض وهي أخص خصائص ألوهيته تعالى . كما يتبين مدى رفضها لاقامة دين الله على حقيقة وتحقيق العبودية الكامله لله وحده دون سواه .(١)

ان المجتمع المسلم في خلال القرنين الاخيرين كان يعيش واقعا سيئا متردیا بلغ من الانحدار والهبوط مبلغا لم تبلغه حاله قط حتى في عهود انحطاطه وتدنيه السابقة . ففي هذا الواقع السيء الذى تعيشه الامة الاسلامية في هذه المرحلة العصيبة من تاريخها غابت حقيقة الاسلام وخفي جوهره الاصيل وضاع مفهومه الصحيح الشامل في تصور المسلمين وفي واقع حياتهم . وقد امحت معالم الدين الحقيقية واستحالت حقيقة الدين صورة مزرية مهلهلة ضعيفة وأصبحت الحياة الدينية والاجتماعية خاوية من عناصر القوة الحقيقية ، فاقدة لاسس بنائها ومقوماتها الأساسية ، فقد أقيم بناء الحياة الدينية على دعائم الانحرافات والتشويهات والبدع والخرافات والمعتقدات الباطلة التى أصبحت تعتبر حقيقة الدين وجوهره في نظر عامة المسلمين وخاصتهم ، وأقيم بناء الحياة الاجتماعية على دعائم الفلسفات والنظريات الغربية اللادينية واستوردت النظم والقوانين الغربية وطرائق الحياة الاوربية ووجهت حياة الامة الاسلامية نحو الوجهة الغربية المادية اللادينية في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والثقافة والتعليم والفن وفي العادات والتقاليد ، ولولا ان الاسلام دين منزل من عند الله العلى القدير ورسالة خاتمة الى البشرية قاطبة وقد تكفل الله

---

(١) راجع الاستاذ سيد قطب ، معالم في الطريق ص١٢٤ - ١٢٦ ، فصل " لا اله الا الله منهج حياة " وكذلك ص ١٤١ - ١٤٢ فصل " الاسلام هو الحضارة .

بحفظه ورعايته لاصبح هذا الدين أثرا بعد عين بسبب ماأصابه من جهل أبنائه ونظرهم السقيم وفهمهم الخاطئ وضعف ايمانهم بعقيدته ونبذهم لقيمه ومبادئه ونظمه وأخلاقياته وانهزامهم روحيا وعقليا وفكريا أمام كيد أعدائهم .

ان هذا الواقع السيء وهذا الوضع المتردي (المزري) الذي يعيشه المسلمون اليوم في انحاء مجتمعاتهم يقرر لنا حقيقة كبرى هي أن دين الله الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس قائما على حقيقته في هذه المجتمعات وأن السواد الأعظم من المنتسبين الى هذا الدين ليسوا على فهم صحيح لحقيقة هذا الدين كما فهمها المسلمون الاوائل الهداة المهديون بناة الحضارة وروادها وسادة الأمم والشعوب . ان الاسلام القائم والمطبق اليوم في هذه المجتمعات هو صورة مشوهة مخلوطة من عناصر غريبة لايمت معظمها الى الدين الحق بأدنى صلة أو هو صورة جزئية ضئيلة تحوى ركاما من المظاهر الخاوية من الروح أو هو مفهوم ضيق محدود قاصر لا يمثل في حقيقة الامر الا جانبا ضئيلا من المعنى الكلي الشامل والمفهوم الواسع الكامل للاسلام الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم . ان اكبر تغيير وقع في حياة الامة الاسلامية هو أن حقيقة الاسلام وجوهره الأصيل قد تحول الى صورة مزرية هزيلة ، وعلى مر الايام وكر السنين استولت هذه الصورة على الحياة الاسلامية من الناحيتين التصورية والسلوكية . ومامن شك أن الصورة مهما كان ظاهرها مقدسا ومهما كان فيها قدر من الحق فانها لا تمثل الحقيقة الخالصة ولا تؤدي دورها ولا يكون لها أبدا ما للحقيقة من القوة والسلطان والتأثير . فقد رأينا ان الصورة المزرية التي استحال اليها الاسلام في قلوب المسلمين وفي واقع حياتهم قد فقدت قدرتها وسلطانها في البناء والتعمير والاصلاح ، ولم يكن في مقدورها اصلاح عادات المسلمين وتقاليدهم المنحرفة والتغلب على اهوائهم ومطامعهم الجامحة وقهر شهوات نفوسهم الخسيسة وتقويم سلوكهم وتهذيب اخلاقهم وهدايتهم الى الطريق الأقوم وتثبيتهم على جادة الحق المبين .

ان سر شقاء المسلمين اليوم وأصل مصائبهم وموضع الضعف في حياتهم هو أنهم قد اضاعوا حقيقة" الاسلام واستبدلوا بها صورة جوفاء خاوية ، ان حقيقة الاسلام لم تتغلغل في احشائهم ولم تتسرب في عروقهم وشرايينهم ، ان كلمات الاسلام التي كانت ذات سلطان عجيب وتأثير عميق وقوة دافعة جياشة في قلوب المسلمين الاوائل والتي لا يكاد احدهم يسمعها حتى يعلن عن اذعانه وخضوعه لكل ماتتضمنه من معان ومالها من مقتضيات وماتتطلبه من التزامات وتكاليف فيهون على نفسه ترك المألوف من العادات والتقاليد وكبح جماح الشهوات والمطامع وقهر الهوى واحتمال المكاره وتجرع المرائر وبذل النفس والمال في سبيل الله .. هذه الكلمات التي كان لها مثل هذا التأثير العميق في الأولين قد فقدت اليوم سلطانها على قلوب المسلمين وتأثيرها في واقع حياتهم رغم أن هذه الكلمات هي هي لم تتبدل ولم تتغير وأن النفس البشرية أيضا هي هي لم تتغير ولم تتحول . وعلينا أن نتساءل عن سبب تأثير هذه الكلمات في الأولين وعدم تأثيرها في الآخرين . أفليس المسلمون اليوم يؤمنون بالله وبرسوله واليوم الاخر والكتاب المنزل على رسول الله كما يؤمن الاولون ؟ أليسوا يصلون ويصومون ، ويؤتون الزكاة ويحجون البيت الحرام ويتلون القرآن آناء الليل واطراف النهار ويردد أحدهم كلمة الشهادة عدة مرات في كل يوم الى غير ذلك من أمور الدين ؟ واذا كان الامر كذلك فأين ثمرات الايمان ونتائج العبادات وأين ماوعد الله المؤمنين من الحياة الطيبة السعيدة والاستخلاف في الأرض والتمكين لهم ولدينهم فيها والنصر المبين على الاعداء ماتحقق للمسلمين الأولين ؟ ان السبب الوحيد لهذا الاختلاف الكبير بين الاولين والآخرين وهذا التفاوت الكبير في نصيب الفريقين من وعد الله المبذول لعباده هو أن الاولين كانوا على حقيقة الاسلام ، كانوا مؤمنين حقيقيين جادين في اسلامهم صادقين مع الله تعالى صادقين مع أنفسهم ، يقولون ويعملون ويسمعون ويطيعون يتلقون الاوامر وينفذونها من فورهم ،وقد كانت كلمات الاسلام تقرع آذانهم بنبراتها فتغوص معانيها في أعماق قلوبهم وتستقر وتحدث فيها قوة دافعة تبعثهم على الاتيان

بجلائل الاعمال ومكارم الصفات. وأما المسلمون اليوم فقد أضاعوا حقيقة هذا الدين .. انهم يتلفظون بكلمات الاسلام والايمان ولكنهم لا يفهمون حقيقتها ولا يدركون مفهوماتها الصحيحة ولا يستوعبون معانيها الواسعة ولا يمثلون حقيقتها ولا يلتزمون بمقتضياتها فلذلك نراهم تتعارض أفعالهم مع أقوالهم ويتناقض واقع حياتهم مع مايدعون من الاسلام والايمان (١) ويكفي دليلا على ذلك ان الاسلام الذى اتخذه الاولون منهجا كاملا لشئون حياتهم الخاصة والعامة وبنوا مجتمعهم على أسسه ودعائمه واصطبغت به حياة أفراد هذا المجتمع عقيدة وعبادة وشريعة ونظام حياة .. هذا الاسلام قد أصبح لا يشغل في حياة المسلمين اليوم الا حيزا ضيقا محدودا لا يتجاوز - في أحسن صورة - الشعائر التعبدية وجانب الأحوال الشخصية من الحياة الاجتماعية . هكذا أصبح الاسلام عند المسلمين في هذه الايام الاخيرة ، ضاع جوهره وتقلص سلطانه وقل تأثيره . وهكذا أصبح المسلمون يعيشون في متاهات الجهل والانحراف ويرتعون في أجواء الظلمات التى جاء الاسلام ليخرجهم منها الى النور ، ولكنهم قد ذاقوا وبال أمرهم حيث ضاعت شخصيتهم المتميزة وتبدلت احوالهم سوءا وتعاسة وتهدمت معالم كينونتهم الحضارية واصبحوا في ذيل قافلة الحياة يعيشون حياة بائسة شقية وتراكمت عليهم المشكلات والأزمات ولحقتهم الهزائم والنكبات المتعاقبة وزلزلتهم الصدمات والهزات المتكررة وعم الفساد والظلم اجواء مجتمعاتهم واصطلحت عليهم عوامل الضعف والوهن والذل والهوان وسلط الله عليهم عدوا من أنفسهم فأصبح بعضهم يضرب رقاب بعض ويتسلط بعضهم على رقاب الاخرين ويستذلهم وقد أصبح بأسهم بينهم شديدا وقلوبهم شتى فانحط شأنهم وضعفت قوتهم وهبطوا الى مصاف الذين يحرصون على حياة أى حياة ويأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا فانتزعت مهابتهم من قلوب أعدائهم فتداعوا عليهم من كل أفق وتجاسروا عليهم يسومونهم أشد العذاب ويجوسون خلال ديارهم يقتلونهم ويستعبدونهم ويفتنونهم عن دينهم وعقيدتهم .

ولا شك أن هذا الوضع السيء الهابط الذى آل اليه حال المسلمين ليس

---

(١) اقرأ فصل " بين الصورة والحقيقة " من كتاب " الى الاسلام من جديد " للعلامة ابى الحسن على الحسني الندوى ص ٧٧ - ٩١

هو اللائق بهم ، فليس نصيبهم من الحياة هو الشقاء والتعاسة والذل والهوان ، وليس مكانهم في ركب الحياة هو المؤخرة . ولا ينبغي أن يكون ذلك أبدا ، ولم يحدث ذلك للمسلمين في عهودهم الذهبية حين اقاموا دين الله وطبقوا تعاليمه ومبادئه وقيمه وشريعته تطبيقا عمليا صحيحاً في واقع حياتهم وحققوا العبودية الكاملة لله تعالى وحده . . ان الذى حدث للمسلمين الاوائل حين مثلوا حقيقة الاسلام تمثيلا عمليا كاملا هو أن الله تعالى مكن لهم ولدينهم في الأرض فاستطاعوا ان يحققوا رسالة الاسلام داخل مجتمعهم وأن يقيموا فيه العدالة ويرفعوا فيه لواء الحق بين عباد الله وينشروا في ربوع بلادهم الخير والفضيلة ومكارم الاخلاق ثم اصبحوا بعد ذلك قادة الامم والشعوب نحو الخير والصلاح والفضيلة ورواد الحضارة الانسانية الخيرة . ولكن اذا كان هذا هو شأن المسلمين في ماضيهم المجيد وهذا هو وضعهم الامثل في هذه الحياة فكيف تحول هذا الشأن العظيم وانقلب هذا الوضع الامثل سوءا وتعاسة ؟ كيف انحدر المسلمون من القمة الى الدرك الاسفل من الهاوية ؟ لماذا فشل المسلمون اليوم في تحقيق رسالة الاسلام في ذوات انفسهم وفي داخل مجتمعاتهم فضلا عن فشلهم في تحقيقها خارج مجتمعاتهم وعلى مستوى البشرية جمعاء ؟ لماذا لم يتحقق فيهم وعد الله المبذول لعباده المؤمنين بالاستخلاف والتمكين في الأرض والنصر المبين على أعداء دينهم ؟ هذه التساؤلات هي ماحاولت الاجابة عليها في كل ما تقدم من الحديث عن الواقع السيء الذى يعيشه المسلمون اليوم . فاذا اتضحت لنا الاسباب التي أدت الى قيام هذا الواقع فاننا سندرك مدى حاجة المسلمين اليوم الى حقيقة الاسلام ومفهومه الصحيح الشامل وصورته التطبيقية السليمة . ان المسلمين بحاجة الى الاسلام الذى كان عليه المسلمون الاوائل لكي يستطيعوا ان يقوموا بالخلافة عن الله في الأرض على وجهها الصحيح وذلك بتحقيق العبودية الكاملة لله وحده واقامة منهج الله وتحكيم شريعته في شئون حياتهم كلها وتطبيق القيم والتعاليم والتوجيهات الاخلاقية التي قررها الاسلام وكذلك بالتعرف على النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون لاستخدامها في ترقية الحياة وتفجير

ينابيع الأرزاق والأقوات واستخراج خامات الارض وتصنيعها ، ولابد من الانتفاع في هذا السبيل بالخبرات الفنية التى اكتسبها الانسان عبر تاريخه الطويل والانطلاق في ذلك نحو الابداع والابتكار والتطوير لخير البشرية ومصالحها .

ان طريق الخلاص مما يعانيه المسلمون اليوم من المشكلات والأزمات ومن الواقع السيىء المتردى الذى يعيشونه هو العود الى الاسلام في جوهره وحقيقته وفي صورته التطبيقية السليمة . فليس هنالك من مخرج غير هذا السبيل ولا عاصم للمسلمين من الاخطار الجسام المحدقة بهم الا الفرار الى الله تعالى والاعتصام بحبله المتين واقامة دينه ومنهجه القويم . ان العوامل الداخلية والخارجية التى نخرت في كيان الامة الاسلامية وأدت الى ضعف قوتها وذهاب عزها وزوال سلطانها وانتقال مركز قيادة البشرية منها الى غيرها . هذه العوامل لن تنقشع سحابتها عن سماء المسلمين ولن تزول آثارها وأضرارها في حياتهم حتى يرجعوا الى دينهم الذى بعدوا عنه وانحرفوا عن جادته وأضاعوا معالمه الاساسية .

ان من أوجب الواجبات اليوم في مجال العمل الاسلامى تفهيم المسلمين حقيقة الاسلام ودعوتهم الى تحقيق العبودية الكاملة لله وحده وتطبيق تعاليم الدين ومبادئه وأخلاقياته تطبيقا عمليا كاملا . ان العقيدة الاسلامية الكبرى التى يتمثل فيها الاسلام ويقوم عليها وتعتبر الدعامة الاولى والركيزة الاساسية لبناء المجتمع المسلم والقاعدة التى يقوم عليها منهج الحياة الاسلامية وهى عقيدة " لا اله الا الله محمد رسول الله "...هذه العقيدة لم تعد مفهومة على حقيقتها عند معظم المسلمين وبالتالى لم تعد مطبقة تطبيقا صحيحا كاملا في المجتمعات الاسلامية.ان المفهوم الصحيح الشامل لعقيدة الالوهية والوحدانية هو افراد الله تعالى بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية .. افراده تعالى بذلك كله اعتقادا في القلب وعبادة في الشعائر وشريعة في واقع الحياة .. هذه هى الصورة المتكاملة التى تعطى اقرار الانسان بهذه العقيدة وجودا عمليا حقيقيا ويقوم عليه اعتبار هذا الانسان مسلما

أو غير مسلم ، ومعنى ذلك في لغة الحقيقة والواقع ان هذه العقيدة تنشئ منهجا كاملا للحياة الانسانية،وأن المعتنقين لهذه العقيدة يجب أن تعود حياتهم في جملتها وتفصيلها الى الله تعالى، يجب أن يصدروا في كل شأن من شئون هذه الحياة عن أمر الله ويسيروا وفق ارادته ويتبعوا هديه ومنهجه . وأن المصدر الذى يعرفون منه هذا المنهج الربانى ويتلقون منه كيفية العبودية الحقة لله تعالى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المكلف من عند الله تعالى بتبليغهم ذلك . وهذا يوضح لنا المدلول العملي الصحيح لشهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " ودين الاسلام مبني على اصلين ،على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيء وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وهذان هما حقيقة قولنا " اشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله " فالاله هو الذى تألهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيما وخوفا ورجاء واجلالا واكراما والله عز وجل له حق لا يشاركه فيه غيره فلا يعبد الا الله ولا يدعى الا الله ولا يخاف الا الله ولا يطاع الا الله [1] وأما الشهادة أن محمدا رسول الله فهي تتضمن تصديقه في كلما اخبر وطاعته في كل ما أمر . ومنذ اللحظة الاولى من اسلام المسلم وقبوله هذه العقيدة يكون قد دخل في عهد جديد منفصل ومستقل عما كان عليه قبل ذلك ،ويتبرأ من كل صور حياته الجاهلية القديمة ومن ملابسات هذه الحياة والتزاماتها وروابطها وعلاقاتها وقياداتها وبذلك تتبدل ركائز حياته ومقوماتها وتتغير أنماطها وينتقل الى عالم جديد تتغير فيه حياته تغيرا كليا شاملا يعتزل فيها الانسان كل اوضاع الحياة الجاهلية وقيمها وتقاليدها ليتخذ لنفسه اوضاعا أخرى وقيما وتقاليد خيرا مما كان عليه بما لا يقاس وأرفع منه بما لا يطاول في ظل منهج الله الذى يبلغ به المسلم المستوى الكريم اللائق بحياة الانسان . ولا بد أن يتحقق ذلك في الافراد الداخلين في الاسلام من اللحظة الأولى من اعتناقهم

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ،ص ١٦٢ .

لعقيدة الاسلام ولا بد أن يبقوا كذلك طول حياتهم فان اعتبارهم مسلمين لا يكون الا بذلك. وكذلك الحال في الجماعات فان وجود المجتمع المسلم لا يتحقق في واقع الامر الا بتحقق هذا الامر فلا تثبت صفة الاسلام للمجتمع بمجرد اعتناق أفراده عقيدة الاسلام في قلوبهم مهما بلغ عددهم من الكثرة ما لم يتمثلوا الاسلام واقعا عمليا ويحققوا العبودية الكاملة لله وحده ويتبعوا منهج الله في صورته المتكاملة في شئون حياتهم كلها. وان ما بعد هذه العقيدة الاسلامية الكبرى من أركان الايمان وقواعد الاسلام ومبادئه وقيمه وتعاليمه انما هو من مقتضيات هذه العقيدة، فالايمان باليوم الآخر والكتب والرسل والملائكة والقدر خيره وشره وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج ثم المعاملات والتشريعات والتوجيهات الاخلاقية كل ذلك انما يقوم على قاعدة العبودية الحقة لله وحده كما أن المصدر الوحيد لتلقي هذه العقيدة وجميع مقتضياتها التي تمثل في مجموعها المنهج الرباني للحياة الانسانية .. هذا المصدر الوحيد هو رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاء به من عند الله تعالى من الحق المبين في كتاب الله العزيز والسنة المطهرة. فلابد اذن من تحقق هذه العقيدة وجميع مقتضياتها تحققا عمليا في كل فرد حتى يكون مسلما صحيحا وعضوا صالحا في المجتمع المسلم الذي يتأسس بنيانه على هذه العقيدة ويقوم منهج الحياة فيه جملة وتفصيلا على ركيزة العبودية لله وحده فلا ينفع الناس الاقرار بهذه العقيدة الا بتمثيل حقيقتها ومقتضياتها تمثيلا واقعيا.(1) " والتوحيد هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وبغيره لا يكون المسلم مسلما، وهو حد الاسلام وأصل الدين، والباقي من الدين فروع له مبنية عليه مشروطة به وهو الاسلام العام الذي جاءت به جميع الرسل" ... ولا يقبل ركن من اركان الحد بغير الركن الآخر فلا يقبل تصديق بغير التزام ولا التزام بغير تصديق فلا بد من استيفاء الحد كله لاستحقاق الاسم والصفة، وتخلف ركن من أركان الأصل

---

(1) راجع الاستاذ سيد قطب - معالم في الطريق - ص٦٤ - ٦٨ فصل نشأة المجتمع المسلم وخصائصه" وكذلك ص ١١٣ - ١١٤ فصل" لا اله الا الله منهج حياة"

يتخلف به الاصل ، والدين يتخلف بتخلف الأصل .[1] " ثم ان الاسلام ليس هو المعرفة فقط ولا المعرفة والاقرار فقط بل المعرفة والاقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهرا وباطنا.[2] "

وهذا البيان المجمل يوضح لنا مسائل اساسية في حقيقة هذا الدين ، فهو يوضح لنا أن هذا الدين استسلام مطلق لألوهية الله تعالى واذعان كامل وخضوع تام لأمره وقضائه . وأن الناس لا يكونون مسلمين بمجرد القول باللسان ولا بالتمني والتحلي ولا بالانتساب العام الى الاسلام ولا بالايمان ببعض الكتاب والكفر ببعض وانما يكونون مسلمين حقيقة بالاستسلام لله تعالى وحده وعبادته وحده وطاعته وحده وتمثيل هذا الدين عقيدة وشريعة وعبادة والدخول فيه كافة واتباع هديه ومنهجه ، كما أن المجتمع لا يكون اسلاميا الا بإقامة بنيانه على دعائم العبودية الحقة لله تعالى وحده في الاعتقاد والتصور وفي العبادات والشعائر وفي النظام والشرائع ثم بقيام هذا المجتمع فعلا بتنظيم شئون الحياة كلها على اساس هذه العبودية الخالصة لله وحده ووفق هديه ومنهجه . يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " الاسلام يتضمن الاستسلام لله وحده فمن استسلم له ولغيره كان مشركا ومن لم يستسلم له كان مستكبرا عن عبادته والمشرك والمستكبر عن عبادته كافر ، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده فهذا دين الاسلام الذي لا يقبل الله غيره ...[3] " فلا بد في الاسلام من التصديق بألوهية الله تعالى والاقرار بها والالتزام بمقتضياتها ولا بد من قبول شرع الله تعالى ورفض ما سواه ، وعبادة الله وحده ونفي العبادة عن غيره .

ان المسلمين اليوم بحاجة ماسة الى فهم عميق واسع لحقيقة الاسلام لكي يقيموا هذا الدين كما أراده الله تعالى ، انهم بحاجة الى جهد كبير لكي يرتفعوا الى مستوى

---

(١) الشيخ عبدالمجيد الشاذلي ، حد الاسلام وحقيقة الايمان ، ١٠٥ - ١٠٦
(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٧
(٣) من الرسالة التدمرية ، ص ٦٠

هذا الدين . فيجب عليهم أن يكونوا على استعداد حقيقي للارتفاع الى مستـــوى
هذا الدين في حقيقة ايمانهم بالله وفي حقيقة معرفتهم به لانهم لن يؤمنوا باللـــه
حق الايمان حتى يعرفوه حق المعرفة ، ويجب كذلك أن يرتفعوا الى مستوى هـــذا
الدين في عبادتهم لانهم لن يعرفوا الله حق المعرفة حتى يعبدوه حق عبادته .

الفصل الثاني : وسائل الاصلاح في سبيل استئناف حياة اسلامية صحيحة .

أولا : في مجال الدعوة

ثانيا : في مجال الفكر والثقافة والتعليم

ثالثا: في مجال الاعلام

رابعا : في مجال التربية العملية المركزة .

الفصل الثاني :-

وسائل الاصلاح في سبيل استئناف حياة اسلامية صحيحة

قررت في الفصل السابق أن الامة الاسلامية أحوج ما تكون في هذا العصر الى العودة الى حقيقة الاسلام وصورته التطبيقية السليمة اذا ارادت التخلص من كل ما تعانيه من الازمات العويصة والمشكلات القاصمة التي ظلت تتردى في حمأتها وتتمرغ في وحلها منذ قرون طويلة ،وقد بلغ الامر في ذلك منتهاه في هذا العصر حيث أصيب المسلمون بمصيبة عظيمة فادحة بزت جميع سابقاتها في تدمير قوتهم وتحطيم مقومات حياتهم وتحويل وجهتهم في الحياة الى الناحية المادية اللادينية .

ولسنا بحاجة هنا الى تكرار القول بأن المجتمع الاسلامي المعاصر قد بعد كثيرا عن حقيقة الاسلام وانحرف انحرافا كبيرا عن جادة هذا الدين وخطه المستقيم فقد قصصنا أخبار هذا المجتمع فيما سبق من الحديث وبينا أسباب انحرافه وعوامل ضعفه وتخلفه ومظاهر انحطاطه وتدنيه وأسباب انهيار بنائه وذبول حضارته . وقد رأينا كيف أصبح هذا المجتمع لا يحمل من سمات هذا الدين الاساسية المميزة ما يجعله جديرا بالاتصاف به في حقيقة الامر . ولسنا بحاجة كذلك الى تأكيد ما قلناه سابقا من أن المجتمع الاسلامي المعاصر قد صار الى الضعف والهوان والانحطاط والتخلف في كافة مجالات الحياة بسبب انحرافه عن حقيقة الاسلام وبعده عن مفهومه الصحيح الشامل ، وليس استمساكه بهذا الدين وتعاليمه وقيمه هو الذي أورثه سوء الحال والبؤس والتعاسة ، فحاشا أن يكون الاسلام هو الذي جنى عليه ذلك كله فهو لم يكن قط مبعث الضعف والهبوط وانما هو منبع القوة وأداة الصعود والرفعة والانطلاق . ان التهم الباطلة التي يلقيها الأعداء على هذا الدين لا يستندون فيها الى دليل غير الواقع السيء الذي كان يعيشه المسلمون في انحاء مجتمعاتهم وبخاصة منذ القرنين الأخيرين . وقد تلقف هذه التهم بعض ابناء المسلمين المستغفلين

المنهزمين روحيا وعقليا واصبحوا يرمون الاسلام بها ويزعمون أنه منبع الضعف وأصل الشقاء والبلاء الذى تعانيه اليوم الشعوب الاسلامية فى أنحاء العالم الاسلامى، ويدعونها الى قطع صلتها بهذا الدين وحضارته والارتماء فى أحضان أوربا واقتفاء أثرها والسير فى اتجاهها لتحقيق التقدم والازدهار. لا نريد أن نرد هنا على دعوى هؤلاء المفتونين بالحضارة الغربية، ولكننا نتساءل هل واقع هذه الشعوب بعد تلك الفترة الطويلة التى ارتمت فيها فى أحضان الغرب وأخضعت له رقابها وولت وجهها شطره . . . هل واقع هذه الشعوب يصدق دعواهم هذه أو يكذبها ؟ .

وبعد ذلك كله نريد أن نورد بعض التساؤلات ونحن فى نهاية هذا البحث الذى يواجه واقع الامة الاسلامية فى العصر الحديث ويعرض اسباب ضعف هذه الأمة وتخلفها وعوامل هبوطها وانهيارها ويبحث لها طريق الخلاص والنجاة ويتلمس لها أسباب القوة والصعود والرفعة... نريد أن نتساءل هل بامكان المسلمين اليوم العود الى حقيقة الاسلام واستئناف حياة اسلامية صحيحة تقوم على ركيزة العبودية الحقة لله تعالى فى العقيدة والشعائر والشريعة ومنهج الحياة حتى يطابقوا بين واقعهم العملى في الحياة وبين ما يدعونه من الاسلام والايمان ؟ وهل يكفى - فى تعليق الامل على امكان ذلك - الاعتماد على ما فى الاسلام نفسه من عناصر القوة الذاتية، وأن المسلمين الأوائل استطاعوا أن يقيموا مجتمعا اسلاميا قويا فى عهدهم الزاهرة ؟ وقد علمنا ما وقع بعد ذلك فى حياة المسلمين من انحرافات كثيرة أضاعت معالم الدين الاساسية وشوهت صورته الناصعة حتى بعدت الشقة بين المسلمين وحقيقة الاسلام وجوهره . وعلمنا كذلك ما وقع فى طبيعة الحياة الانسانية ومجالاتها المختلفة فى العصر الاخير من تغيرات وتطورات متعددة مما ينبغى أن نحسب له حسابه . ثم ما هو طريق المسلمين الى اصلاح ما فسد من حالهم وتقويم ما اصيبوا به من الاعوجاج والانحراف؟ وما هى وسائل هذا الاصلاح والتقويم؟ وأخيرا ما مدى قوة الأمل فى النجاح اذا عقد المسلمون العزم على العودة الصحيحة الى التمسك بالاسلام

وتطبيق تعاليمه تطبيقا عمليا في واقع حياتهم وأخذوا بالأسباب الإيجابية التي يتطلبها الأمر ؟ هذه التساؤلات التي أوردناها ستفيدنا كثيرا في دراستنا لوسائل إصلاح المجتمع المسلم وكيفية عودة المسلمين إلى تطبيق الإسلام في واقع حياتهم . وعلى الرغم مما أحسه في قرارة نفسي من إيمان عميق ويقين ثابت بإمكان عودة المسلمين إلى حقيقة هذا الدين واستئناف الحياة الإسلامية الصحيحة المتكاملة في هذا العصر وبصلاحية الإسلام للحياة البشرية في كل زمان ومكان .. رغم ذلك لا أريد أن أحصر نفسي في دائرة الرغبة والتفاؤل أو استرسل مع التخيلات المجردة فأقرر أن هذا الأمر سهل وميسور ولكنني أريد أن أنطلق من منطلق منطقي يستند إلى أسس عملية واقعية ويقدر العوائق والعقبات الجسام التي تعترض طريق المسلمين الى تحقيق هذا الأمر والمشكلات التي تعوق سير قافلتهم إذا بدأت في الانطلاق نحو غايتها المنشودة ، ويقدر كذلك الجهود والأعمال العظيمة التي يجب أن يقوم بها المسلمون ، والتبعات الضخمة التي سيتحملونها في سبيل بلوغ المكانة اللائقة بهم في هذه الحياة . ونحن نعلم أن مجرد بعث الصيحات والصرخات في الأجواء لا يغني غناء ولا يحقق من الهدف شيئا إن لم نقدر كل العوائق والعقبات التي تحول دون بلوغ الغاية ،ولم ننبه الى الأعمال والتبعات التي يتطلبها الأمر ، ونوضح الوسائل الإيجابية الكفيلة بإعادة الأمور إلى مجاريها الطبيعية بإذن الله تعالى .

ولقد ظهرت بوادر الوعي الإسلامي الصحيح تحاول بجد وقوة وعزم إعادة تنظيم شئون الحياة في المجتمع المسلم على دعائم الاسلام ومبادئه وقيمه وتعاليمه ، وإقامة نهضة إسلامية اصيلة قوية على نحو ماعرضنا للحديث عنه سابقا في باب "حركات البعث الإسلامي في العصر الحديث" ولكننا رأينا أن جهود الإصلاح والتقويم كانت دائما تنوء بعبئين ثقيلين وترتطم بعقبتين ضخمتين . وهذان العبئان هما عبء عصور الانحطاط والتدهور وماخلفته من آثار سيئة تتمثل في فشو الجهل وانتشار روح الجمود والركود والضعف والتخلف ، وعبء عهد الاستعمار وطبيعة

العداء المتأصل في قلوب الغربيين ، وآثار غزوهم المخطط المدمر ووسائل كيدهم ومكرهم بالمسلمين ، وأبعاد التغييرات الجذرية التي أحدثوها في حياة المسلمين في شتى مجالاتها حتى لقد أصبح المسلمون ثقتهم في انفسهم وفي منابع قوتهم ومجدهم وسلطانهم وأصبح من العسير على كثير منهم في الوقت الحاضر التخلص من سلطان الحضارة الغربية وسيطرة المفاهيم الاوربية على عقولهم وآثار ذلك كله في واقع حياتهم .

ان بعد الشقة بين المسلمين وحقيقة الاسلام ومفهومه الصحيح الشامل وخروجهم بعيدا عن خط هذا الدين المستقيم فترة طويلة من الزمن يجعل عودتهم اليوم الى الحياة الاسلامية الصحيحة المتكاملة امرا محفوفا بأنواع الصعوبات، لان شئون حياتهم في كافة مجالاتها ، والدعائم التي يقوم عليها مجتمعهم ، واتجاهات المسلمين النفسية والعقلية والفكرية ومظاهر سلوكهم العملي في الحياة... كل ذلك يقوم على ركائز معينة ويتجه نحو اتجاه خاص لا يمت بصلة الى الاسلام وقيمه ومبادئه . وان تغيير هذه الركائز واصلاح هذه الوجهة يحتاج الى عناية كبيرة وجهد ضخم على المدى الطويل وكلما امتد بنا الزمن دون أن نبدأ بعملية الاصلاح والتقويم ازدادت خطورة الوضع واشتدت صعوبة الاصلاح واحتاج الامر الى جهود اضخم وزمن أطول قبل تحقيق الغاية المنشودة .

هذا كله من جهة ومن جهة أخرى فان الامة الإسلامية تعيش اليوم في عالم سيطرت عليه الحضارة الغربية بعقليتها المادية وروحها اللادينية التي تتنافى تماما مع عقلية الاسلام وروحه . وان العالم الغربي الذى غزا المسلمين بهذه الحضارة واصابهم بلوثاتها عدو لدود لهم ولدينهم وقد حاز التفوق عليهم في الناحية المادية من الحياة واستطاع ان يفرض سيطرته الكاملة على العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، وهذا يشكل أكبر عقبة في طريق المسلمين الى استئناف الحياة الاسلامية الحقيقية . فهو وان لم يفلح في صدهم تماما عن هذا

الطريق فلا يزال يعمل لتعميق الهوة الفاصلة بينهم وبين تحقيق غايتهم واعاقة سيرهم الى النهضة الحقيقية التي يعتبرها خطرا كبيرا على وجوده ومركزه ومصالحه في الحياة . ولايخفى أن هذا سيجعل خطواتنا ومحاولاتنا لتحقيق غايتنا بطيئة ، كما يجعل المراحل التى تمر بها طويلة متعددة والتبعات التى نتحملها في سبيل ذلك ضخمة جدا .

ولا يفهم من تقديرنا هذا للعقبات الجسام التى تواجه المسلمين في سبيل عودتهم الى حقيقة الاسلام وصورته التطبيقية الصحيحة ، والتبعات الضخمة والجهود المضاعفة التى يتطلبها الامر من جانبهم أن عودتهم الى الحياة الاسلامية الصحيحة في هذا العصر مستحيلة وممتنعة ، فان كل ماأردنا أن نؤكده هنا هو أن هذا الامر صعب وعسير وان الطريق الى تحقيقه مملوء بعقبات تزيد وضع المسلمين تعقيدا وسوءا وتعوق سيرهم في سبيل الاصلاح وتثبط بعضهم عن النهوض بعملية الاصلاح وتبعث فيهم اليأس من نجاح المحاولة فيستسلمون للامر الواقع .. نريد أن نؤكد كذلك أن المسلمين لكي يقاوموا هذه العوامل المثبطة ويزيلوا هذه العقبات من طريقهم يحتاجون الى بذل جهود ضخمة وأعمال عظيمة وكفاح مرير وجهاد كبير . انهم يحتاجون قبل كل شيء الى ايمان عميق بدينهم ، وفهم صحيح واسع له ، واستعداد تام لاقامته على حقيقته في واقع حياتهم والارتفاع الى مستواه الرفيع . ويحتاجون الى يقين ثابت بأن العودة الى الاسلام هي الطريق الوحيد للخلاص من كل مايعانونه اليوم في مجتمعاتهم من الاوضاع السيئة والمشكلات المتعددة وماتعانيه البشرية كذلك من الشقاوة والتعاسة والازمات المتراكمة بعضها فوق بعض ، وبأن الضرورة القصوى تقضي في هذا العصر الى وجوب نهوض المسلمين بتنظيم عمل جاد مخطط في سبيل الاصلاح والتقويم لاقامة بناء مجتمعهم على قواعد الاسلام وتعاليمه ، وتنظيم شئون حياتهم وفق منهج الله وهديه وشريعته . انهم يحتاجون الى روح جهادية عالية تستعلي فوق أوضاع الارض وملابسات الحياة وترتفع الى آفاق عالية من الايمان واليقين تجعلهم يتحملون

المشقات والصعاب ، ويستسيغون المرائر ، ويقتحمون العقبات المرصودة في طريقهم ، ويقفون حياتهم ومالهم ومصالحهم ومواهبهم كلها في سبيل اعلاء الحق الذى هم عليه ونشره بين الأنام . ان من شأن هذا الايمان العميق بالله تعالى وهذا الفهم الصحيح لدين الله ولغاية وجود الانسان في هذه الحياة ، وهذا اليقين الثابت بوعد الله تعالى لعباده المؤمنين بالتمكين لهم ولدينهم في الأرض .. ان من شأن ذلك كله أن يبعث في المسلمين قوة دافعة تهون في نفوسهم شدة العقبات التي يقتحمونها وضخامة الجهود والتبعات التي يتحملونها في هذا السبيل ، لأنهم يدركون أن مايطلبه الاسلام اليهم في هذا السبيل مهما بلغت تكلفته فهو لا يساوى شيئا بالقياس الى الخير العميق والفضل العظيم الذى يسوقه اليهم والجزاء العظيم الذى ينالونه عند الله تعالى .

وبهذا البيان الموجز ندرك طبيعة الاصلاح الذى نحن بحاجة الى القيام به كما ندرك عظم التكاليف التي سنتحملها في سبيل هذا الاصلاح . فليس الاصلاح الذى ننشده هو مجرد ترقيع الواقع السيىء الذى يعيشه المسلمون اليوم في انحاء مجتمعاتهم باصلاح نواح محدودة منه وترك نواح أخرى دون اصلاح أو بحصر الجهود كلها في اصلاح الامور الثانوية وترك عوامل الهدم والتقويض لتتوغل في بلاد المسلمين ، وتنتشر وتنخر في كيانهم ، وتهدم مابقى فيهم من الدين والاخلاق . ولكن الاصلاح الذى نريده هو اصلاح كلى شامل يبنى على قواعد ثابتة وتتخذ له الوسائل الايجابية التي تمكن المسلمين من اعادة الاسلام الى قوته وهيمنته على جميع شئون حياتهم وانشاء واقع جديد متكامل في العالم الاسلامى يقوم على أسس الاسلام وقيمه وتعاليمه ، وتكون وجهة الحياة فيه اسلامية في صميمها ومقوماتها ومميزاتها ومظاهرها .

وعلى ضوء هذا البيان الموجز الذى قدمناه بين يدى هذا الفصل وبناء على ماسبق من دراستنا لواقع المسلمين في العصر الحديث وأسباب انحرافهم

عن حقيقة الاسلام وعوامل ضعفهم وتخلفهم نرى وجوب اتخاذ الوسائل الآتيـــــة لاصلاح أوضاع المجتمع الاسلامي المعاصر .

أولا : البدء باصلاح الانحراف العقيدى والتصورى وذلك بالتعريف بحقائـــق الاسلام وقيمه واستجلاء تصوراته ومفاهيمه الصحيحة ورسم صورة واضحـــة مفصلة لمبادئ الاسلام وقيمه وتعاليمه ، الى جانب كشف العقائد الفاسدة والتصورات الباطلة وبيان عيوبها ونقائصها وأخطارها .

ثانيا : اصلاح نظام التعليم ومناهجه ووجهته وأهدافه واصلاح أسس الثقافـــة واساليب التفكير .

ثالثا : تقويم وسائل الاعلام المختلفة وبنائها على قواعد الاسلام واصلاح وجهتها وأهدافها .

رابعا : تنظيم برامج تربوية مركزة لاخراج جيل جديد يمثل حقيقة الاسلام فـــي عقيدته وشعائره وشريعته ومنهجه للحياة وذلك بالدعوة الهادفة ونشـــر الوعي الصحيح والتربية العملية على الأصول الاسلامية الصحيحة لاعادة تكوين الفرد المسلم و تكوين الاسرة المسلمة ثم بناء المجتمع المسلم على أسس الاسلام وقيمـــه وتعاليمه .

أولا : <u>تعريف المسلمين بحقائق الاسلام وقيمه ومفهوماته الصحيحة :</u>

النقطة الاولى من هذه الوسائل الاصلاحية هي تعريف المسلمين بحقائـــق الاسلام وقيمه ومبادئه وتوضيح معانيها الصحيحة ومفهوماتها الشاملة لهم . وقـــد رأينا ماوقع فيه المسلمون في القرون الاخيرة من انحرافات متعددة في ناحية التصـــور العقيدى وفي ناحية السلوك العملي في واقع الحياة وذلك بسبب جهلهم وسوء فهمهم لحقيقة دينهم وآفاق شريعة الله ومنهجه للحياة ، وتأثرهم بفلسفات الأمم غيـــر الاسلامية ونظرياتها وأفكارها على نحو ماعرضناه في فصول سابقة من هذا البحث . ولكي نصلح هذه الانحرافات التصورية والسلوكية اصلاحا جذريا شاملا يجب البدء بناحية التصور العقيدى لبيان الاصول العامة والقواعد الكلية وتوضيح الحقائق والقيم

والمبادىء والتعاليم وشرح معانيها الصحيحة ومفهوماتها الواسعة الشاملة .
وتتضح لنا أهمية البدء باصلاح الناحية التصورية اذا علمنا أن التصور العقيدي هو المرتكز الاساسي الذي يقوم عليه سلوك الانسان في الحياة ، فما أعمال الانسان وتصرفاته في الحياة الا مظاهر تعكس صورة اعتقاده وتصوره للكون والحياة والانسان صحة وفسادا . من أجل هذا كان اهتمام الاسلام بتعميق التصور العقيدي السليم ومايتبثق عنه من قيم انسانية أصيلة في قلوب الناس وجعل ذلك هو الأساس القوي الذي تبني عليه أمور الانسان ، والميزان القويم الذي توزن به أعماله وتصرفاته كلها في الحياة العملية . وان السبيل الامثل لاعادة المسلمين الى حقيقة دينهم هو أن نقدم لهم الاسلام في صورته الحقيقية الخالصة ونبين لهم حقائقه ومبادئه وقيمه بمعانيها الصحيحة ومدلولاتها الشاملة لكي يعرفوا حقيقة هذا الدين ويمثلوه تمثيلا حقيقيا ويطبقوه تطبيقا عمليا صحيحا في واقع حياتهم.

ان هناك مبادىء وقيما اسلامية كثيرة يجب أن ندعو المسلمين اليوم الى تفهم حقائقها ومعانيها الصحيحة كما أرادها الله تعالى وكما بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهمها منه المسلمون الاوائل وطبقوها في حياتهم .. يجب أن نبين للمسلمين اليوم حقيقة الدين ومفهومه الصحيح الشامل وأنه منهج الله المتكامل الشامل للحياة البشرية في جميع مجالاتها ، وهو الاصل الذي يجب أن ترجع اليه هذه الحياة جملة وتفصيلا ، وهو اصلاح شامل وتغيير جذري لمقومات هذه الحياة وقواعدها وأساليبها وأعمال الانسان وتصرفاته . وأن الدين هو كل ماشرعه الله تعالى لتنظيم الحياة البشرية وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد وانواع الشعائر التعبدية وأصول الحكم وأصول الاخلاق والسلوك وأصول المعرفة . والدين بهذا المفهوم الواسع ينبغي أن يكون خالصا لله تعالى " الا لله الدين الخالص " (١) يستوى

---

(١) سورة الزمر : الآية (٣) .

في ذلك أصول الاعتقاد والشعائر التعبدية والشرائع والقيم والمناهج التى تحكم حياة البشر .

ويجب كذلك أن نبين لهؤلاء المسلمين المفهوم الصحيح لعقيدة الوهية الله تعالى ووحدانيته والايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ونشرح لهم مقتضيات هذه العقيدة ومستلزماتها من أركان الايمان وقواعد الاسلام والتشريعات والمعاملات والتوجيهات الاخلاقية .. يجب أن نوضح لهم معنى كل ركن من أركان الاسلام وكل قاعدة من قواعده وكل مبدأ من مبادئه التشريعية والاخلاقية ، ونشرح لهم مفهومه الصحيح وآفاقه الواسعة ومقتضياته الشاملة وارتباطه ببقية الاركان والقواعد والمبادىء والتعاليم . وان العقيدة الاسلامية تمثل منهجا كاملا للحياة فهى تنشىء للمسلمين تصورا خاصا لحقيقة الالوهية وحقيقة الكون وحقيقة الحياة وحقيقة الانسان وتحدد لهم منهجا ذاتيا مستقلا ينبثق عن هذا التصور ويقوم على أساسه لتنظيم شئون الحياة البشرية .

ويجب كذلك أن نبين للمسلمين حقيقة العبودية لله تعالى وحده وأنها غاية وجود الانسان في الحياة ، وأن صورة العبودية الصحيحة لله تعالى تتمثل في التلقى عن الله وحده العقائد والشعائر والشرائع والقوانين والتحرر الكامل من العبودية للبشر في أي صورة من الصور . وأن صورة عبودية البشر للبشر تتمثل في تشريع بعض الناس للناس مالم يأذن به الله وتلقى الناس ما شرعه بعضهم من النظم والشرائع والقوانين والقيم والموازين والعادات والتقاليد ورفضهم شريعة الله ومنهجه للحياة . وانه لا يتم التحرر الكامل من العبودية للبشر الا عندما تكون الحاكمية العليا في المجتمع لله وحده بتطبيق شريعته واقامة منهجه للحياة .

واذا اتضحت في اذهان المسلمين هذه الحقائق الاسلامية الكبرى وغيرها من المبادىء والقيم الاساسية فانهم سيدركون ان الاسلام له تصوره الكامل المستقل للوجود والحياة وله منهجه الذاتى المستقل للحياة كلها ونظامه الكامل

الذى يقوم على أساس هذا التصور لتنظيم شئون هذه الحياة ، وبهذا الادراك الواعي والفهم الصحيح يتبين لهم أن انتقالهم من أي وضع من الاوضاع البشرية الى هذا الدين ليس مجرد احداث تغييرات طفيفة في جزئيات امور الحياة من ناحية التصور ومن ناحية السلوك ولكنه نقلة بعيدة واسعة من كل التصورات والمذاهب السائدة والنظم والاوضاع والقوانين القائمة في الارض الى منهج الله وحكمه وشريعته، كما يتبين لهم أيضا ان هذا الدين لا يستقيم ابدا مع أى لون من الوان الجاهلية ولا مع أى شكل من اشكالها لا بالاصطلاح مع تصوراتها وأوضاعها ولا بانصاف الحلول معها ، فلا يمكن ان يخلط الاسلام بغيره ولا ينبغي أن يتلون المسلم بكل لون وأن يقيم حياته على دعائم ومقومات بعضها من الاسلام وبعضها الآخر من التصورات والنظم والاوضاع غير الاسلامية لأن الهوة السحيقة القائمة بين الاسلام والجاهلية في شتى صورها واشكالها لا يمكن ان يعقد فوقها جسر للالتقاء والاندماج والتزاوج ولكن فقط لينتقل عليه أهل هذه الجاهلية الى الاسلام .

وفي سبيل تعريف الناس بحقائق الاسلام ومبادئه وقيمه وتعاليمه يجب أن نرسم لهم صورة واضحة مفصلة تجسد هذه المبادئ والقيم والتعاليم وتبين لهم منهج الاسلام في التصور العقيدى وفي نظام الحكم وفي نظام المال وفي النظام الاجتماعي والاخلاقي حتى يكون المسلمون على بصيرة من أمرهم ويعلموا أن ما يقدمه الاسلام لهم من تصور لحقائق الحياة البشرية ومنهج لتنظيم شئونها هو الاقوم والامثل الذى يحقق لهم الخير والسعادة والامن والاستقرار بمالا ترقى اليه التجارب البشرية في قليل أو كثير . والى جانب ذلك يجب أن نكشف العقائد الباطلة ونبين التصورات والقيم الفاسدة والمفاهيم الخاطئة التى تسود المجتمعات البشرية اليوم .. يجب أن نبين للناس عيوبها ومفاسدها وضلالها وأخطارها ، وسبيلنا لمواجهة هذه العقائد والفلسفات والتصورات والمذاهب ومقاومة آثارها السيئة في حياة الناس هو أن نتخذ لها الوسائل الايجابية والاساليب العملية السليمة بتوضيح حقائق الاسلام وتصوراته ومفاهيمه الصحيحة ودعوة الناس الى التمسك

بها واقامة شئون حياتهم كلها وفق هدى الله ومنهجه وشريعته ، وكذلك يكشف الفلسفات والنظريات والمفاهيم الباطلة وتحذير الناس من مفاسدها وضلالهما ، ويجب أن نسلك في دعوتنا هذه سبيل الحكمة التي أمر الله بها والبصيرة التي دعا اليها " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة "(١) "قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني "(٢) فليس المقصود هو اثارة اصحاب هذه العقائد والنظريات الفاسدة بقدر ما نهدف الى تعليمهم الدين الحق ودعوتهم الى منهج الله القويم الذي فيه الخير والصلاح والسعادة للبشرية .

ويجب أن نبادر الى القول هنا أن طرق التعريف بحقائق الاسلام وقيمه وتعاليمه لا تنحصر في الوعظ والارشاد والقاء الخطب والمحاضرات الدينية كما يتبادر الى اذهان الناس اليوم ولكنها تشمل في حقيقة الامر مجالات كثيرة منها مجال الدعوة الهادفة ونشر الوعي الصحيح ومجال الفكر والثقافة ومجال التربية والتعليم ومجال الاعلام والنشر على ما سنبينه فيما بعد ان شاء الله تعالى .

ثانيا : مجال الفكر والثقافة والتعليم .

وأما عن الوسيلة الثانية وهي اصلاح اسس الثقافة وأساليب التفكير ونظم التعليم ومناهجه ووجهته وأهدافه فنحب أن نقدم تمهيدا موجزا نبين فيه ما تعانيه الأمة الاسلامية من المشكلات في مجال الفكر والثقافة والتعليم ثم بعد ذلك نشرح خطوات الاصلاح في سبيل استئناف حياة اسلامية صحيحة .

كان للمسلمين تاريخ مجيد حافل في مجال الفكر والثقافة والتعليم خلال عصور ازدهار الحضارة الاسلامية ،وقد شملت دراساتهم العلمية ميدان العلوم الشرعية

---

(١) سورة النحل آية (١٢٥)
(٢) سورة يوسف آية (١٠٨)

وعيد ان العلوم النظرية والعقلية ، الفلسفة وعلوم الرياضيات والعلوم الطبيعية وغيرها .
ورغم أن الحركة العلمية التى ظهرت فى العهد العباسى الاول كانت متأثرة بالفلسفة اليونانية وغيرها ، وغير مؤسسة على الفكر الاسلامى الخالص والروح الاسلامى الصحيح ورغم ما فيها من مواضع الضعف من الناحية الدينية والعلمية فقد سادت العالم بأسره بقوتها ونشاطها واضمحلت أمامها النظم العلمية القديمة ، واستطاع المسلمون أن يحققوا الزعامة العلمية والريادة الفكرية فى العالم فترة طويلة من الزمن . ثم جاءت بعد ذلك عصور الانحطاط فتعرض المسلمون لجملة من عوامل الضعف والوهن من تخلف علمى وجمود فكرى وركود ثقافى وغير ذلك . وقد ظهرت أمارات هذا الضعف على الأمة الاسلامية بشكل واضح خلال العهد التركى ، وبلغ الامر منتهى الخطورة خلال عهد الاستعمار الاوربي للبلاد الاسلامية فى القرنين الأخيرين .

وفى الوقت الذى اصبح فيه المسلمون يرتعون فى حمأة التخلف العلمى والجمود الفكرى وظهر عدم قدرتهم على الاحتفاظ بمكانتهم فى القيادة العلمية والريادة الفكرية . . . فى هذا الوقت نشطت أوربا من عقال الجهل وفكت من أيديها وأرجلها أغلال التخلف والجمود ، فتوافد الطلاب الاوربيون على معاقل العلم فى البلاد الاسلامية ، فى الاندلس وصقلية والشام وبلاد شمال افريقيا ينهلون منها العلوم والمعارف ، ثم سار الغربيون قدما فى سبيل اصلاح النظم العلمية السائدة وتطويرها باختباراتهم العملية التجريبية ونقدهم العلمى ، حتى استطاعوا أن يضعوا منها جا علميا جديدا فى مجال البحث والدراسة والاكتشاف والاختراع والصناعة . ولكن النهضة العلمية الاوربية كانت قائمة على اساس النظرة المادية البحتة للحياة والروح الالحادية اللادينية . وقد عملت اوربا كل ما فى وسعها لاخضاع شعوب العالم لقبول السير على خط منهاجها العلمى والفكرى وأسسها الثقافية . وعلى طول عهد استعمار أوربا للبلدان الاسلامية فرضت القوى الاستعمارية سيطرتها الفكرية والثقافية على الشعوب الاسلامية فخضعت هذه الشعوب لمناهج الغزاة وطرائقهم ونظمهم تحت

وطأة السيطرة العسكرية والسياسية ثم حدثت بعد ذلك شدة الانبهار بالجانب المادى من الحضارة الغربية فشهد العالم الاسلامي موجة عاتية من التأثر بما عند الغرب وتقليده فى كل شىء وقبول اسلوب تفكيره ونظامه التعليمى وأسسه الثقافية . وهكذا أصبحت الأمة الاسلامية عالة على الغرب متطفلة على مائدته فى مجال الفكر والثقافة والتعليم وكانت تأخذ كل ما جاءها من الغرب فى هذا المجال حتى فى اللغة العربية وآدابها وعلومها وفى علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه وفى التاريخ الاسلامى وما الى ذلك ،وقد أصبح المستشرقون هم المرشدين الموجهين في البحث والتحقيق والدراسة والتأليف وهم المنتهى والمرجع والحجة فى النظريات العلمية والحقائق التاريخية وحتى فى الاحكام والافكار الاسلامية ، وقد اتخذهم الناس أسوة يقتدون بهم فى النقض والابرام فى هذه المجالات. وهكذا تغلغلت أفكارهم ودعاياتهم فى الأوساط العلمية الحديثة فى العالم الاسلامى ، واصبح لهم فى كل قطر من الأقطار الاسلامية تلاميذ وأنصار يدعون الى حصر مفهوم الدين فى نطاق ضيق محدود ، واعتباره قضية شخصية لا علاقة له بالمجتمع، وانه عقيدة وعبادة لا شأن له بالسياسة والحكم، وأن الحضارة الغربية هى أرقى ما وصل اليه العقل البشرى وانه لا منزلة فوقها ، ويدعون الى تطبيق هذه الحضارة برمتها وعلى علاتها فى بلاد المسلمين ، ويعتبرون الثقافة الغربية هى الوسيلة الوحيدة لتقدم الشعوب الاسلامية ونهضتها وازدهار مرافق الحياة فى بلادها .

من خلال هذا التمهيد الموجز يتبين لنا أن الأمة الاسلامية تعانى من مشكلتين عويصتين فى مجال الفكر والثقافة والتعليم هما مشكلة التخلف العلمى والجمود الفكرى والركود الثقافى التى تعرضت لها منذ عصور الانحطاط، ومشكلة سيطرة الحضارة الغربية وسيادة نظم الغرب وأساليبه وطرائقه فى مجال الفكر والثقافة والتعليم فى جميع انحاء البلدان الاسلامية. ان هاتين المشكلتين تعتبران عقبتين كبيرتين فى سبيلنا الى استئناف حياة اسلامية صحيحة، فكما أننا لا نستطيع أن نقيم نهضة اسلامية اصيلة بما نعانيه من ضعف علمى وتخلف فكرى وثقافى فكذلك لايتسنى لنا أبدا

أن نقيم هذه النهضة بطرق التفكير الغربي ومناهج التعليم الغربي والثقافة الغربية التي هي في صميمها معادية للعقيدة الاسلامية . ان ما يجب علينا أن نحسب حسابه ونحن نعمل لاقامة حياة اسلامية سليمة هو أنه لا ينبغي أن نحاول اقامة بناء هذه الحياة على أساس التفكير الراكد والثقافة المتخلفة التي ظلت الأمة الاسلامية تتمرغ في وحلها منذ عصور الانحطاط، وكذلك لا ينبغي أن نحاول تجديد الحياة الاسلامية باستعارة طرق الغرب في التفكير ومناهجه ونظمه في التعليم وأساليبه في الحياة والسلوك ،فان أي محاولة من هذا القبيل ستبوء بالفشل الذريع وينتهي بنا الامر الى هدم الحياة التي نسعى لاحيائها واقامتها لأننا قد عدلنا منذ الخطوة الأولى عن الطريق الصحيح الموصل الى تحقيق هذه الحياة. ومن هنا يتوارد علينا سوءال مهم جدا وهو ما قدمنا له بهذا التمهيد الموجز حتى تأتي اجابتنا عليه واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض وهذا السوءال هو . . ما هي الخطوات التي يجب اتباعها لاصلاح نظام التعليم وأسلوب التفكير وأسس الثقافة وازالة العقبات التي تعترض طريق الأمة الاسلامية في هذا المجال لاستئناف حياة اسلامية صحيحة ؟. اذا اردنا أن نكوّن العقيدة الاسلامية الصحيحة في نفوس الافراد والجماعات في سبيل اقامة حياة اسلامية صحيحة فلا بد لنا أولا من العمل لازالة الضعف العلمي والجمود الفكري والتخلف الثقافي الذي يعانيه المسلمون في مجال العلوم الشرعية ومجال العلوم العقلية والنظرية ، ووضع تنظيم علمي جديد يقوم على حقيقة الاسلام وروحه وأسسه العلمية والفكرية والثقافية الصحيحة ويهدف الى تحقيق رسالته وغاياته السامية. ولا بد ثانيا من مواجهة نظم الغرب وطرائقه ومناهجه في مجال الفكر والثقافة والتعليم بنقد أسس هذه النظم والطرائق وكشف عيوبها ومفاسدها واخطارها ، والسعي الحثيث للتحرر منها .

وأما بالنسبة لمواجهة الحضارة الغربية بنقد أسسها وقيمها وما يتبع ذلك من نظم وطرائق ومناهج ، والسعي للتخلص من سيطرة الغرب في مجال الفكر والثقافة

والتعليم فيجب أن تعلم الأمة الاسلامية يقيناً أنها لن تستطيع أن تثبت وجودها الحقيقي وتحقق لنفسها خصائصها المتميزة ما دامت ترزح تحت سيطرة الغرب الفكرية والثقافية والعلمية وتخضع لمناهجه ونظمه وطرائقه وتقبل السير في ركابه مختارة راضية . واذا ما أرادت أن تحقق وجودها الحقيقي المتميز وتستأنف حياتها المتميزة الخصائص والمعالم والمقومات فلابد لها من السعي الجاد لانهاء سيطرة الغرب ومقاومة خضوع المسلمين لحضارته وفك اغلال العبودية والتبعية من أيديهم .

وعلى خط المواجهة للحضارة الغربية يجب أن يتصدى علماء المسلمين ومفكروهم لهذه الحضارة بنقد أسسها وقيمها وكشف أسس الثقافة الغربية وطرق تفكير الغرب ونظمه ومناهجه التعليمية وبيان وجوه الفساد والانحراف في افكاره وتصوراته ونظرياته واتجاهاته وأخلاقه وعاداته وتقاليده . وان هذا الأمر ليس بالهين السهل الميسور، انه لمهمة كبيرة صعبة وعبء ثقيل يحتاج المسلمون لحمله الى مقدرة كبيرة واستعداد كامل وعزيمة صادقة . . انهم يحتاجون قبل كل شيء الى التبحر في العلوم الاسلامية والتعمق فيها والتشبع بروح الاسلام والايمان القوي الراسخ بأصول هذا الدين وقيمه وتعاليمه والفهم الصحيح الواسع لهذه الاصول والقيم والتعاليم ، ويحتاجون بعد ذلك الى الاحاطة بالحضارة الغربية ومعرفة أسسها وقيمها واستيعاب علوم الغرب ومناهجه ونظمه وبلوغ مستوى التحقيق والنقد والتصحيح والتقويم في ذلك ،ثم أنهم يحتاجون الى تنظيم حركة علمية قوية واسعة للتدوين والتأليف وتأسيس العلوم بشتى أنواعها على قواعد الاسلام وهديه وروحه . وان معاقل العلم والثقافة في العالم الاسلامي أولى من جامعات اوربا بأن تكون المراكز الرئيسية للثقافة الاسلامية والعلوم الدينية وعلوم اللغة العربية وآدابها والعلوم الانسانية بشتى فروعها ، وليس أدل على سقوط الهمة والرضا بالدون من أن يتنازل المسلمون للأوربيين عن زعامتهم العلمية وريادتهم الفكرية والثقافية في تلك المجالات .

وأما عن وجوب السعي للتخلص من أسس ثقافة الغرب وطرق تفكيره ونظمه

ومناهجه التعليمية فيجب أن نبين هنا أن اسلوب التفكير الاسلامي الذي يجعل القيم الروحية والاخلاقية أعلى المقومات والقواعد التي تقوم عليها الحياة ويجعل الغايات الخلقية من الأعمال فوق المصالح المادية . . ان اسلوب هذا التفكير يختلف كل الاختلاف من أسلوب التفكير الغربي الذي يقيم بناء الحياة على اساس النظرة المادية البحتة ويجعل المنافع المادية هي الغاية العليا للأعمال ، فلايمكن أن يلتقي هذان الاسلوبان على صعيد فكري واحد بأي حال من الاحوال وذلك لما بينهما من تقابل وتعارض وتناقض . ولكن لاينبغي أن يفهم من دعوتنا للتحرر من الحضارة الغربية والتخلص من ثقافة الغرب ونظمه وطرائقه ومناهجه أننا ندعو الى العزلة الفكرية والثقافية والعلمية والانزواء عن ركب البشرية ، فليس هذا هو ما نهدف اليه ، وان النهضة الحضارية التي اقامتها اوربا هي في حقيقة الأمر تراث انساني اشتركت فيه أمم العالم جميعا وللأمة الاسلامية فيه نصيب أصيل وافر . ولكن حينما نريد أن نؤسس العقيدة الاسلامية الصحيحة في نفوس الافراد والجماعات في سبيل استئناف حياة اسلامية سليمة في مثل هذا العصر الذي يعيش فيه المسلمون أسوأ حالة مرت بهم في تاريخهم الطويل ، وقد ظهر في هذا العصر طغيان الحضارة الغربية وخطورتها على الكيان الانساني بسبب قيامها على اساس النظرة المادية البحتة للحياة والروح الالحادية اللادينية واهدارها للقيم الانسانية الأصيلة ، كما ظهر ايضا فشل هذه الحضارة في تحقيق الخير والأمن والاستقرار للبشرية ، وما قادت البشرية اليه من قلق دائم وخصام مستمر وصراع عنيف وانحدار الى حضيض الحيوانية رغم كل ما حققته من الانجازات المادية الهائلة . .. حينما نريد تأسيس العقيدة الصحيحة وقد ظهرت لنا هذه المساوىء والمفاسد التي تكتنف الحضارة الغربية أفلا يجب علينا أن نأخذ الحذر والاحتراس من مؤثرات هذه الحضارة ؟

وبعد ذلك كله ، نريد أن نبين رأينا حول طريقة التحرر من سيطرة الحضارة الغربية ، نريد أن نشرح سبيل المسلمين للتخلص من الثقافة الغربية ونظم التعليم

الأوربى ومناهجه .

اذا عزم المسلمون على استئناف حياة اسلامية صحيحة وبناء مجتمع اسلامى قويم وتكوين العقيدة الاسلامية الخالصة فى نفوس الافراد والجماعات فان من أوجب الواجبات عليهم أن يتخذوا موقفا حاسما من الحضارة الغربية ، يجب عليهم أن يفرقوا بين ما يصح أن يأخذوه وما لا ينبغى أن يأخذوه مما عند الغربيين ، يجب أن يكونوا فى غاية الحذر والاحتراس فى الاقتباس والاستيراد طول فترة التكوين وذلك لضمان الحماية اللازمة للعقيدة التى نريد أن نكونها فى نفوس الناس حتى لا تختلط عندهم ولا تمتزج بمؤثرات المذاهب العقائدية الأخرى لأن هؤلاء الذين نريد اعادة تكوينهم على أسس الاسلام وقيمه وتعاليمه قد رضعوا وتغذوا من الغرب ولا يزالون يعيشون على فتات مائدته فى مجال الفكر والثقافة والتعليم ، من أجل هذا يجب تمييز الخبيث من الطيب والتفريق بين الصالح النافع والفاسد الضار مما يأتينا من الغرب . وهناك كثير من العلوم يجب أن يكون المسلمون فى غاية الحذر والاحتراس من اقتباسها من الغرب ، ومن ذلك الفلسفة والأدب والتاريخ والتشريع والعلوم الانسانية بشتى انواعها وكذلك طرق التربية ونظم التعليم ومناهجه .

وأما عن الفلسفة فمعلوم أن فكرة الاسلام الكلية عن الكون والحياة والانسان تختلف جملة وتفصيلا عن طبيعة الافكار الكلية الاخرى فى المذاهب الفلسفية الغربية قديما وحديثا . وعلى هذا يجب أن نبدأ مع طلابنا فى مراحل التعليم الثانوى والجامعى باعطائهم فلسفة الاسلام الصحيحة (1) التى تكون فى نفوسهم وأفكارهم أسسا وطيدة لروح الاسلام الصحيح وفكرته الواضحة الشاملة عن الكون والحياة والانسان والخير والشر والعمل والجزاء وما الى ذلك من المباحث الأساسية فى العقيدة الاسلامية .

---

(1) وهى غير ما يسمى خطأ الفلسفة الاسلامية والتى تدرس فى كليات اصول الدين فى معظم جامعات العالم الاسلامى ، وهى لا تمثل حقيقة العقيدة الاسلامية الصحيحة بل هى انعكاسات الفلسفة الاغريقية على الفكر الاسلامى .

وأما الفلسفة الغربية فلا يصح أن نستوردها وما يتبعها من مبادئ الأخلاق وطرق التربية ونظم التعليم على علاتها ، ولاينبغي أن ندرسها لطلابنا في القسم الثانوي اطلاقا . وأما في المرحلة الجامعية فيكفي أن ندرسها لطلاب قسم الفلسفة في السنتين الأخيرتين وأما بالنسبة لطلاب الاقسام الأخرى فيكفي اعطاؤهم فكرة عامة عن الفلسفة الغربية في السنة الأخيرة من دراستهم الجامعية . وعلى أي حال يجب أن نضمن الى حد كبير الا تؤثر هذه الفلسفة في شعور الطلاب ووجدانهم،يجب ألا ندرسها لهم الا مع الموازنة والمقارنة بينها وبين فلسفة الاسلام الصحيحة وبعد أن نعدهم اعدادا فكريا وعقليا صحيحا يعطيهم القدرة على الجدل والمناقشة وتصحيح الأفكار الفاسدة وتقويم النظريات الخاطئة التي لا توافق أسس التفكير الاسلامي الأصيل . ولا ينبغي أبدا أن نبدأ مع طلابنا بتدريس الفلسفة الغربية لهم قبل أن يتشبعوا بالفكرة الاسلامية الكلية عن الكون والحياة والانسان ، ولا يصح أن ندرس لهم هذه الفلسفة خالصة من دون الموازنة والمقارنة والنقد على طريقة التفكير الاسلامي القويم فان شأن الفلسفة خطير جدا في بناء الحياة وتشكيل سلوك الناس وتوجيههم وجهة معينة في هذه الحياة .

وأما في مجال الأدب للدارسين المتخصصين في هذا النوع من الثقافة فيجب أن نكون في غاية الحذر والاحتراس والوعي السليم في انتقاء واختيار ما نقدمه للناشئين المسلمين من الآداب الغربية ،وذلك لأن الأدب يعتبر من أقوى المؤثرات في تكوين فكرة وجدانية عن الحياة لدى الافراد وفي طبع نفوسهم بطابع خاص وفي توجيه أفكارهم وجهة معينة في الحياة ، فهو يستقي من أصول الديانة ويتأثر أيما تأثر بالفلسفة التي تحكم حياة أي أمة من الأمم . من أجل هذا يجب أن ننتقي من الأدب الغربي ما لا يفسد فطرة الناشئين السليمة ولا يؤذي وجدانهم ولا يلوث صفاء قلوبهم ولا يضعف طاقاتهم الشعورية والتفكيرية ولا يفسدها . ويجب الحذر كل الحذر حتى من الأدب الغربي الذي ينظر الى الحياة نظرة روحية ويعترف بالقيم المعنوية

للحياة ، فهو وان يبد متفقا في روحه واتجاهه مع التفكير الاسلامي في صورته العامة فلاينبغي أن يؤخذ هكذا حتى يعرض على أسس الاسلام وقيمه وروحه ، وذلك لان الديانة النصرانية التي استقى منها هذا النوع من الأدب الغربي قد داخلها كثير من الانحرافات والتشويهات والتحريفات فهي تزخر بمجموعة كبيرة من الاعتقادات الباطلة والمفاهيم الخاطئة والقيم الاخلاقية المنحرفة .

وأما في مادة التاريخ ، فان التاريخ المكتوب بأقلام الغربيين - سواء منه التاريخ الاسلامي أو التاريخ العالمي - لابد أن يتأثر بالفلسفة الغربية المادية والروح اللالحادية اللادينية ، وحتى لو سلمنا جدلا أنه متأثر بالنظرة العقلية فانه سيغفل تماما القوى الروحية ويتنكر للقيم الانسانية الخلقية في تفسير الوقائع وتتبع سير الأحداث . . ومما لا شك فيه أن النظرة المادية البحتة والنظرة العقلية المجردة في تفسير وقائع الحياة كلتاهما ستؤدى حتما الى تكوين فكرة خاطئة منحرفة عن الحياة لاتستند الى القيم المعنوية ولا تعترف بالاهداف الخلقية البتة . وبالاضافة الى ذلك فان المؤرخين الأوربيين يجعلون تاريخ أوربا هو محور التاريخ العالمي ، وذلك مما يرفع من شأن أوربا الصليبية ويخفض من شأن العالم الاسلامي ويرسخ في أذهان الناشئين أن أوربا هي محرك خط الزمن وهي الآخذة بزمام البشرية ، وأن العالم الاسلامي لايشغل في ركب الحياة الا المؤخرة . وان دراسة الناشئين المسلمين لتاريخ - عالمي أو اسلامي - تلك روحه وطريقته في تفسير الوقائع والأحداث ستكون لها آثار سيئة جدا في نفوس هؤلاء الناشئين ،ومن شأن ذلك أن يشكل عقبة كأداء في سبيلنا لتكوين فكرة الاسلام الكلية عن الحياة والانسان في قلوب الناشئين وكذلك في تقوية شعورهم الديني واعتزازهم بالاسلام وتمسكهم به أمام موجة الحضارة الغربية العاتية . وعلى هذا لاينبغي أن نعرض على الطلاب التاريخ المكتوب بأقلام الغربيين والمفسر بطريقة التفكير الغربية الا في مرحلة التخصص حيث يدرسونه لنقده وبيان عيوبه لاللتأثر به بعد أن يكونوا قد تلقوا التاريخ الاسلامي والعالمي المفسرين من وجهة

النظر الاسلامية والمكتوبين بأقلام المؤرخين المسلمين الذين لم يتأثروا بأسلوب التفكير الغربي .

وأما في مجال دراسة التشريع والنظم فلا يصح أن ندرس التشريع الغربي للناشئين في المرحلتين الثانوية والجامعية ، وكذلك لا يصح ايضا أن ندرس لهم ماكتبه الغربيون عن التشريع الاسلامي لما علمنا أنهم يصدرون في ذلك عن روح صليبية متعصبة . وان الواجب علينا ان ندرس لهم التشريع الاسلامي دراسة كاملة مفصلة مستقلة ولا ندرس الى جانبه طول فترة الدراسة الثانوية والعالية أى تشريع آخر ،ويجب أن تكون دراستهم فيه من الكتب التى وضعها العلماء المسلمون . وأما في مرحلة التخصص فلا بأس أن يعطى الطلاب فكرة كاملة عن التشريع الغربي وغيره من تشريعات الامم الاخرى وتعريفهم بوجهة نظر الغربيين في الشريعة الاسلامية مع النقد والتصحيح والتقويم .

وبقي بعد هذا أن نقول بأنه يجوز لنا أن ننتفع بثمرات الجهود الانسانية في مجال التنظيمات والوسائل القانونية اذا كانتلا تخالف أصول الاسلام ولا تصطدم مع فكرته الكلية عن الحياة والانسان وكانت تحقق مصلحة حقيقية للمجتمع المسلم وتدفع عنه المفاسد ، ويمكن أن تدخل في اطار مايقره الاسلام من المبادىء والقيم والوسائل كطريق القياس والاجتهاد والمصالح المرسلة ومبدأجلب المنفعة ودرء المفسدة وغير ذلك .

وأما العلوم البحتة ونتائجها التطبيقية في الحياة العملية ، وان بدت منفصلة عن طريقة التفكير الغربية فانها في حقيقة الامر قائمة على أساس الفلسفة الغربية المادية التى لا تقيم أى وزن للنظرة الروحية للاشياء . وان هذه العلوم التى يطلق عليها اسم " العلوم البحتة" عبارة عن حقائق ونظريات وفروض لا تتأثر بهذه الفلسفة المادية فحسب ، بل هى الاخرى تؤثر أيضا في هذه الفلسفة بشكل واضح ملموس ، وبالتالى فان النتائج التطبيقية لهذه العلوم بطبيعة الحال

سيكون لها التأثير البالغ في واقع الحياة المادية وفي وسائل المعيشة وفي العلاقات الاجتماعية في المجتمع . وان هذه العلوم التى تصف مظاهر الكون وخصائصه وتكتشف نواميسه وتنظر الى ذلك كله نظرة مادية بحته ترسخ في الأذهان سلطان "العلم" والمادة وترفض أن يكون لله تعالى سلطان على هذا الكون أو تبعد ذلك وتتجاهله . واذا أردنا أن ننتفع بالعلوم الغربية البحتة في جزئيات الحياة فلابد من تصحيح الفلسفة المادية الالحادية التى تأثرت بها حتى لا تؤدى الى تكوين فكرة خاطئة عن الكون والحياة والانسان تخالف فكرة الاسلام الكلية . ويجب أن نؤسس هذه العلوم على قواعد اسلامية صحيحة تربط مظاهر الكون وخصائصه ونواميسه جميعها بمبدع هذا الكون وخالق السموات والارض . واذا استطعنا أن نتخذ مثل هذا الموقف الواعي السليم من كل ما يأتينا من الغرب من العلوم بشتى أنواعها ، نأخذ الطيب النافع وندع الخبيث الضار فاننا نتحاشى الى حد كبير التأثرات الكلية بالمواد العلمية الغربية . ونبعد آثارها السيئة التى تعتبر عقبة كبيرة في سبيلنا لتكوين العقيدة الاسلامية الصحيحة في نفوس الافراد والجماعات واستئناف الحياة الاسلامية السليمة .

وأما عن النقطة الثانية وهى وجوب السعى وبذل الجهد لازالة الضعف العلمي والجمود الفكرى والتخلف الثقافى الذى يعانيه المسلمون في مجال العلوم الشرعية ومجال العلوم العقلية والنظرية ، ووضع تنظيم علمى جديد يقوم على حقيقة الاسلام وروحه وأسسه العلمية والفكرية والثقافية الصحيحة ويهدف الى تحقيق رسالة الاسلام وغاياته السامية ، فيجب علينا أن نبادر الى اصلاح نواحى الضعف والتخلف في مواد الدراسات الاسلامية لكى تعود للدين قوته وسلطانه وهيمنته على شئون الحياة كلها كما كان في العهود الاسلامية الزاهرة وكما يجب أن يكون دائما مصدر النهضة والنور المبين الذى يضىء الطريق أمام المسلمين لبناء المجد والعز وتحقيق الحياة السعيدة الرفيعة .

وفي سبيل اصلاح مواد الدراسات الاسلامية يجب أن نسعى لاعادة الجانب الروحي لهذه الدراسات ، ونتناول بالبحث الدقيق العميق جميع العلوم الاسلامية من العقيدة والتفسير ودراسة الحديث والفقه والتاريخ . يجب أن نقوم أولا بصياغة العقائد والمبادىء الاسلامية صياغة قوية مركزة تتناسب في طريقتها وأسلوبها مع روح العصر ، وأن نستجلي فكرة الاسلام الكلية عن الكون والحياة والانسان في صورة واضحة كاملة مع الموازنة بينها وبين المذاهب الفلسفية الاخرى . ويجب أن نعمل لوضع فلسفة الاسلام الصحيحة بدل مايسمى الآن خطأ الفلسفة الاسلامية وهي في حقيقتها انعكاسات الفلسفة الاغريقية على الفكر الاسلامي، ويجب أن نبين للناس ان هذه الفلسفة بعيدة الصلة بحقيقة العقيدة الاسلامية الصافية . وكذلك يجب أن نقوم بدراسات حديثة للقرآن الكريم والسنة النبوية نبرز فيها قواعد الدين الكلية وأصوله العامة ومايحتويه من القيم والمعاني الانسانية والأسس الاخلاقية وأصول العبادات واصول الحكم والتشريع ومالى ذلك ؛ نعرض ذلك كله بأسلوب سهل واضح ونشرحه شرحا وافيا ، ولانقتصر على دراسة جانب قواعد اللغة وعلوم البلاغة ودراسة جانب علوم القرآن واختلاف الفقهاء في الأحكام الفرعية . وأما في مجال الفقه الاسلامي والاجتهاد وقد كان لدينا تراث واسع خلفه لنا السابقون الاولون من الصحابة والائمة المجتهدون في هذا المجال ، فان الواجب علينا أن نسير على ضوء ذلك بعزم قويم وجد ونشاط لايجاد حلول مناسبة للامور المستجدة في هذا العصر على ضوء مصادر التشريع الاسلامي الاساسية وابراز نظام الاسلام في كل شأن من شئون الحياة ، واخراج ذلك بأسلوب حديث يتناسب مع روح العصر الذى نعيش فيه . ومن المجالات المهمة التي يجب أن نبرز فيها نظام الاسلام بصورة تفصيلية متكاملة ونوضح فيها بعض المسائل التي تحتاج الى الشرح والتفصيل مجال دراسة العقيدة وبيان فكرة الاسلام الكلية عن الحياة والانسان ومجال النظام الاجتماعي والاخلاقي والنظام الاقتصادى ونظام الحكم والسياسة والنظام الجنائي والنظام الادارى وما الى ذلك

من الانظمة التى تنبثق عن العقيدة الاسلامية والتى تتناثر في ثنايا الكتب الكثيرة ويلقى المتخصص في أى واحد منها - فضلا عن الدارس العادى - عناء ومشقة في الاحاطة بمباحثه جميعها من مظانها . فان هذه الانظمة في تناثرها وتبعثرها في أمهات الكتب تجعل من الصعب تكوين فكرة متكاملة عن أى موضوع من موضوعاتها ومباحثها الرئيسية .

ولا ينبغى أبدا أن تسير الحياة البشرية نحو التطور والنمو ويبقى الاسلام بعيدا عما يجرى في هذه الحياة لاسلطان له على شئونها المستجدة ولا هيمنة ولكن العلماء حين كفوا عن الاجتهاد لاستنباط احكام مستمدة من الشريعة تغطى الجوانب المتطورة من الحياة جعلوا هذا الدين يبدو قاصرا عن حل المشكلات التى تشغل الناس في حياتهم ومتعارضا مع متطلبات الحياة وحاجات الناس . فمن الواجب على الحكومات الاسلامية أن تكون كل منها هيئة من العلماء لتتولى مهمة البحث والدراسة والفتيا والاجتهاد في الأمور المستجدة في هذا العصر .

وكذلك يجب أن نعيد كتابة التاريخ الاسلامي والتاريخ العالمى العام . وأما التاريخ العالمى فيجب أن نضعه من وجهة النظر الاسلامية في تفسير الحوادث والوقائع ، ونعرض فيه لتاريخ أوربا ونحدد موضعها الحقيقى في خط سير التاريخ ونبين عصورها المظلمة ونذكر كذلك عهود ازدهار نهضتها الحضارية المادية ونبين أسس هذه النهضة ومصادرها وحقيقتها وغاياتها ومافيها من عوامل الانحراف . وأما التاريخ الاسلامى فيجب ان نبرز دور الاسلام والعالم الاسلامى في خط التاريخ العالمى العام . يجب أن نتتبع سير تاريخ الاسلام والأمة الاسلامية ونعرض الوقائع والحوادث من وجهة النظر الاسلامية نبرز النقط اللامعة والجوانب المشرقة من هذا التاريخ ونذكر ايضا النقط السوداء وجوانب الضعف وعوامل الذبول وتقلص سلطان المسلمين مع بيان الاسباب التى ادت الى ذلك كله . ويجب أن نؤكد هنا ضرورة تغيير برامج دراسة مادة التاريخ في مدارسنا فالواجب أن نبدأ اولا بأن ندرس لابنائنا التاريخ الاسلامي المكتوب بأقلام المؤرخين

المسلمين والمفسر وفق وجهة النظر الاسلامية حتى اذا امتلاءت نفوسهم بتاريخ دينهم وأمتهم وبلادهم قدمنا لهم تاريخ العالم العام المكتوب أيضا بأقلام المسلمين .

ولا يخفى أن هذا العمل الاصلاحي في مجال الدراسات الاسلامية سيتطلب منا جهدا كبيرا . ولكن يجب أن نبدأ فيه بكل قوة وعزيمة وايمان ، ونسير فيه بجد ونشاط واعتزاز ، حتى نبلغ الغاية المنشودة باذن الله تعالى . ولقد بدأت في الاونة الاخيرة طلائع الباحثين المجاهدين تعمل لتحقيق هذه الغاية في مختلف ميادين العلوم الاسلامية . ان ما نريد أن نذكر به هنا هو أن هذه الطليعة يجب عليها أن تستمر في جهودها وأن تواصل سيرها في سبيل الاصلاح ولكن الذى يجب ايضا ان تأخذه بعين الاعتبار في هذا الصدد هو وجوب التخلص تماما من بقايا عصور الانحطاط والركود فلا تتسرب أفكارها وتصوراتها الى عملها وكذلك وجوب السعي الجاد للتخلص من رواسب الافكار والنظريات والمفاهيم الغربية التى غزت عقول معظم المثقفين في هذا العصر والتحرر من التبعية للغرب والخضوع المذل لسيطرة حضارته المادية . ويجب ان تحذر من الخلط والمزج والتلبيس حتى لا تقدم لنا فكرة غربية في أصلها وروحها واتجاهها على أنها اسلامية خالصة .
وان من واجب الحكومات الاسلامية ان تدعم نشاط هذه الطليعة وتنسق بين جهودها وتحشد في هذا السبيل جميع العقول المنيرة المفكرة وتشد من أزرها ماديا وأدبيا حتى تصل الى الغاية المنشودة وتحقق الخير والصلاح للأمة .

والى جانب ذلك كله يجب على الامة الاسلامية أن تبذل أقصى مافي وسعها من جهد لازالة ما ألم بها في خلال القرون الاخيرة من الضعف والتخلف في مجال العلوم النظرية والعقلية والعلوم التجريبية والتطبيقية،وماتبع ذلك من فقدان القدرة على الاستكشاف والاختراع والتصنيع. وان سبيلها الى ذلك هو أن تأخذ في دراسة هذه العلوم وأن توليها العناية الكبيرة والاهتمام البالغ لتتمكن من تحقيق التقدم الصناعي وازدهار الحياة الاقتصادية وتحقيق القوة الحربية لحفظ كيانها

ودفع غوائل الاعداء عن بلادها وللذود عن حياض الدين واعلاء كلمته ونشر دعوته ورسالته في العالمين . وبما أن الامم الغربية قد تقدمت على الامة الاسلامية في مجال العلوم النظرية والعقلية والتطبيقية فلابد لهذه الامة من أن تأخذ هذه العلوم من الغرب رضيت بذلك أم كرهت ، ولكن يجب أن تسعى بجد لاصلاح الأسس التي أقام عليها الغرب هذه العلوم والوجهة التي يتجه بها في الحياة ، والغايات التي يهدف الى تحقيقها من ورائها ، وعلى الامة ايضا أن تعمل لتأسيس هذه العلوم على هدى الاسلام وروحه وأسسه الاخلاقية وقيمه الانسانية الرفيعة التي تحقق الخير والصلاح للبشرية ، وأن تقوم بتنظيم حركة علمية قوية لبناء نهضة حضارية اسلامية خيرة تقوم على أساس العبودية الحقة لله تعالى وعلى هدى الدين وأسسه القويمة .

ولسنا بحاجة الى التأكيد بأن الامة الاسلامية لا ينقصها شيء من وسائل التقدم المادى في مجال الصناعة والاقتصاد والقوة الحربية ، فهي أولا تملك العقيدة الصحيحة التي هي الاساس المتين الذى تبنى عليه شئون حياتها كلها . والتي هي الموجهة لها نحو الخير والصلاح ، والضابطة لها من الانحراف عن جادة الطريق والصراط السوى . وهي ثانيا تملك الشيء الكثير من الامكانات المادية الاساسية والمواد الاولية اللازمة لكثير من الصناعات ، ولديها وفرة من العقول النيرة المفكرة ومجموعة هائلة من الأيدى العاملة ، ولم يبق لها الا العزم الصادق والاستعداد الحقيقي للنهوض من وهدة الضعف والتخلف والسعي الحثيث لتحقيق التقدم والازدهار وبذل أقصى الجهد في هذا السبيل حتى تتمكن من الاستغناء عن الغرب في كل مرفق من مرافق الحياة وتستطيع ان تستخرج كنوز ارضها وثرواتها لتنتفع بها وتصنع حاجاتها الأساسية وتعمل بجد ونشاط لتحقيق الاكتفاء الذاتي في مجالات الحياة المهمة وبخاصة في مجال الاقتصاد والقوة الحربية وفي تنظيم شئون البلاد الخاصة وادارة شئون حكوماتها حتى لا تضطر الى اللجوء الى راية من رايات الغرب أو الانضمام الى معسكر من معسكراته . واذا كان صحيحا

أن الامة الاسلامية قد ضعفت وتخلفت في مجال العلوم النظرية والعقلية وفي مجـــال الصناعة والاقتصاد والقوة الحربية ، وأن الامم الاوربية قد فاقتها في هذا المضمار بماحققته من انجازات مادية هائلة برهنت على تقدمها وتطورها في عالم الحضـــارة والمدنية المادية الراقية ، حتى ليصح القول بأن المسافة بيننا وبين هذه الأمـــم في هذا المجال مسافة قرون وعهود ، وأن لحاق الامة الاسلامية بركب هذه الامم السائر بقوة ونشاط وانطلاق يتطلب جهدا كبيرا ووقتا طويلا .. اذا كان كل ذلـــك صحيحا فلا يصح أبدا ماتسلط على عقلية معظم المثقفين المسلمين في العهــــــد الأخير من تفكير ساذج ونظر سطحي قاصر لا ينظر الى الامة الاسلامية الا من خلال القوة المادية ولا يزنها الا بميزان ماتملك من الامكانات والوسائل المادية ويغفـــــل تماما عن عوامل القوة الحقيقية .

ان قوة الامة الاسلامية الحقيقية تتمثل في دينها الذى هو حاجـــــة البشرية كلها في كل زمان ومكان وفي دعوة هذا الدين ورسالته لانقاذ البشرية مـــن كل ماتعانيه من الجهل والظلم والجور والفوضى ، وفي قيمه ومبادئه الانسانيـــــة الرفيعة التى تخلق في النفوس حب الخير وأداء الامانة والاخلاص والصدق فـــي القول والعمل والشعور بالمسئولية والقيام بأدائها على اكمل وجه واقامة الحق والعدل بين الناس ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية واستحضار عظمته وجلاله ورجـــاء رحمته وابتغاء مرضاته والاشفاق من شدة عذابه وأليم عقابه ،الى غير ذلك مـــن الصفات العالية التى حرمتها الامم الاوربية التى تتزعم ركب البشرية رغم كل ماوصلت اليه من الاسباب المادية التى تخدم البشرية وتحقق لها مصالحها المادية في الحيـــاة ؛ وقد كان بامكان الحضارة الغربية ان تحقق للبشرية نوعا من الامن والاستقرار والسعادة لولا خواؤها من القوى الروحية واهدارها للقيم الخلقية واتجاه الغرب نفسه الـــى تقويض بنيان الحضارة التى تعب كثيرا في اقامة صرحها ، واتجاهه الى عمـــــل كل مايدمر البشرية مع أنها هى التى يمكن أن تنتفع بثمار جهوده ونتائج أعمالـــه . وبهذا يتضح لنا أن حاجة اوربا الى اقتباس عوامل القوة الروحيـــة منا لهى أشـــد

وأعظم من حاجتنا نحن الى الاقتباس من العلوم والوسائل المادية التى تقدمت فيها علينا .

وأما عن مناهج التعليم ونظمه وطرائقه واهدافه السائدة اليوم في المجتمعات الاسلامية فانها بحاجة شديدة الى تغيير جذرى واصلاح شامل . واذا كانت مناهج التعليم ونظمه وأهدافه يجب أن تستوحى من عقيدة الامة وتبنى على أسس دينها وروحه وتوجه وجهته في الحياة ويراعى فيها رسالة الامة وأهدافها فان المتأمل في المناهج والنظم التعليمية المتبعة اليوم في مدارس البلاد الاسلامية وبخاصة المدارس العامة أو " العصرية " لا يجد فيها معالم الاسلام بارزة ولا يجد رسالة هذا الدين واهدافه مرعية وذلك لان هذه المناهج والنظم غير مؤسسة على أصول الاسلام وقواعده ولا مصطبغة بصبغته . ولقد وضعت هذه المناهج والنظم منذ عهد الاستعمار الغربى للبلاد الاسلامية وسعى المستعمرين لاحكام قبضتهم على نواصى الامة الاسلامية وفرض سيطرتهم الفكرية والثقافية والتعليمية عليها ثم غلبت مناهجهم ونظمهم وطرائقهم وانتشرت في انحاء المجتمعات الاسلامية كما أرادوا وخططوا للامر منذ ذلك العهد البعيد . ومن أجل هذا نرى أن المناهج والنظم المتبعة في مدارسنا هى في صميمها غربية ، وان لم نلمس فيها روحا صليبية حاقدة ولم نجد فيها منأواة صريحة للاسلام فان أقل ماننتقد عليها هو أنها مؤسسة على قواعد فلسفة الغرب للحياة والتى تنافي فكرة الاسلام الكلية وانها توجه الدارسين نحو الوجهة الغربية في الحياة وذلك بالاضافة الى انها في المواد العلمية البحتة كالفيزياء والكيمياء وعلوم الاحياء وغيرها لا تقدم للدارسين الا القشور التى لا تغنى من الحقائق العلمية شيئا .

وأما وسائل التربية المتبعة في مدارسنا فهى عقيمة سقيمة وغير قادرة على اعداد الطلاب اعدادا قويا صالحا ، ولا تخلق فيهم القوة الروحية الدافعة لعمل الخير والصلاح ولا تنمى لديهم الثقة بانفسهم في الدراسة والبحث ولا تبعث فيهم روح

الاقدام والجدية في العمل ، وانا نجد معظم الطلاب يستثقلون الدرس ويسأمون من المطالعة ويكرهون الدراسة والبحث لانهم في دراستهم الثانوية والجامعية لم يدربوا على مواجهة المشكلات العلمية وبذل الجهد لايجاد الحلول الصحيحة لها . وإن المقدرة العلمية التى يحصل عليها الطلاب حتى في المرحلة الجامعية لا تزال ضعيفة قاصرة ، كما أن مستوى تفكيرهم لا يبلغ من القوة والنضج بحيث يستطيعون أن ينفذوا الى حقائق العلوم ويتعرفوا على أسرارها لانهم حائمون حول هوامش العلم دون أن يخوضوا في أعماقه ويشتغلون بالقشور دون اللباب .

ثم ان أهداف نظام التعليم السائد في انحاء المجتمعات الاسلامية تتسم بطابع المصلحة المادية وتعتبر التعليم وسيلة من وسائل العيش وذلك لان مواد هذا التعليم وبرامجه خالية من العقيدة الصحيحة التى تملأ القلب وتسيطر على دوافع النفس ونزعاتها ، وتبعث في النفوس المعانى الانسانية الرفيعة وتحفزها على السعى لتحقيق أهداف الامة ورسالتها وتجعل الغايات الخلقية فوق المنافع المادية ، ومصلحة الامة فوق مصلحة الفرد الذاتية ولا تنظر الى رغبات الانسان الذاتية ومصالحه المادية على أنها هى غايته العليا في الحياة . من أجل هذا رأينا نظام التعليم السائد في البلاد الاسلامية قد أخفق اخفاقا كبيرا ليس فقط في تخريج علماء مخترعين مبتكرين في مجال العلوم النظرية والعقلية والتطبيقية بل فوق ذلك اخفق في تزويد المجتمعات الاسلامية بأبناء بررة أوفياء يكونون عناصر قوية صالحة يفهمون دينهم فهما صحيحا ، ويؤمنون بعقيدتهم ايمانا قويا ، ويثبتون على الحق الذى معهم عن ايمان واعتزاز ، ويحملون رسالة هذا الدين على عواتقهم يعيشون في سبيلها ويجاهدون في سبيل تحقيقها ونشرها في أنحاء العالم .

وبعد ذلك كله نلاحظ طريقة الازدواجية التى يسير عليها نظام التربية والتعليم فى أنحاء المجتمعات الاسلامية . ولقد انقسمت مواد التعليم الى قسمين رئيسيين هما علوم دينية وعلوم " عصرية " وأصبح لكل قسم منهما مدارس وأقسام خاصة .

فالمدارس الدينية وأقسام الدراسات الاسلامية تدرس لطلابها العلـــوم الشرعية في جميع مراحلها التعليمية ولا تدرس لهم شيئا من العلوم " العصرية " لأنها في نظرها لا تفيدهم شيئا بل هي تفسد عقولهم وتزعزع عقيدتهم . والـــى جانب ذلك نرى هذه المدارس والاقسام متأخرة قليلا او كثيرا عن المدارس العامـة وأقسام العلوم " العصرية " فلا يزال بعضها حتى الآن يصر على المحافظة علـــى المظاهر القديمة واتباع الاساليب القديمة الجافة في التعليم ورفض الأخـــذ بالوسائل التعليمية الحديثة ومظاهر المدنية الحاضرة .

وأما المدارس العامة أو " العصرية " سواء في المرحلة الابتدائيـــة أو الاعدادية أو الثانوية فهي تخصص وقتا ضئيلا لدرس الدين وتجعل بقية الوقت للعلوم العصرية اللادينية .واما في مرحلة التعليم العالي في أقسامها المختلفة كالطب والاقتصاد والاجتماع والاحياء وما الى ذلك فلا يدرس الدين فيها اطلاقا .وهكذا نرى طـــلاب هذه المدارس لا يعرفون عن الدين وعلومه الا مقدارا ضئيلا جدا لا يغني غنـــاء حقيقيا بل قد رأينا في بعض البلدان الاسلامية مثل نيجيريا وأوغندا والسنغـــال واندونيسيا وغيرها أن معظم طلاب المدارس العصرية لا يعرفون شيئا عن دينهـــم بتاتا ، فهم لا يحسنون قراءة أقصر سورة من القرآن ولا يحسنون أداء الصلـــوات ولا يعرفون عن تاريخ دينهم وأمتهم الا ماتلقوه من اساتذتهم المبشرين والمستشرقيـن وماقرأوه في كتبهم وبحوثهم ورسائلهم .

ومن النتائج السيئة التي أدت اليها طريقة الازدواجية في التعليـــم انقسام المتعلمين والمثقفين الى فئتين كبيرتين كل فئة تحمل فكرة عن الحيـــاة تخالف الفكرة التي تحملها الفئة الاخرى وأصبح بطبيعة الحال لكل فئة وجهة هـــي موليتها ، وتنفر احداها من الأخرى وتحمل لها أشد انواع العداء ، فهما فـــي خصام دائم وصراع مستمر ، ومن الصعب عليهما أن تلتقيا في صعيد فكري واحـــد او تشتركا في اقامة مشروع علمي واحد من دون أن ينتهي الامر الى خصام وتباعـد وتراشق .

ولا شك أن هذا الوضع المزرى الذى نتج عن ازدواجية التعليم مشكلة عويصة تنذر الامة الاسلامية بأخطار جسام،تخلق في صفوفها الفرقة والتباعد والتنافر والضعف وتقف في وجه كل مايبذل من المساعى لتحقيق وحدة الامة وتماسك أفرادها كما تمثل أيضا عقبة كبيرة في سبيلنا لاستئناف حياة أسلامية صحيحة واقامة مجتمع اسلامي قويم .

واقتراحنا المتواضع في هذا الصدد هو أن الامة الاسلامية لكى تصلح كل مايكتنف مناهج التعليم ونظامه وطرائقه وأهدافه من عيوب ونقائص وانحرافات فلابد أن تنهض بقوة وعزيمة صادقة وتسعى بجد ونشاط لتأسيس هذه المناهج والنظم والوسائل على أسس الاسلام وقواعده وتعاليمه . ويستحسن أن توضع لهذا العمل خطة دقيقة تبدأ بالتقريب والتنسيق بين مختلف المناهج والبرامج وتنتهى في آخر الأمر الى توحيدها . ويجب أن نسعى لجعل الدراسة في المدارس الدينية والمدارس " العصرية " موحدة من المرحلة الابتدائية الى المرحلة الثانوية يأخذ الطلاب فيها بنصيب واف من الدراسات الاسلامية والعربية التى تعرفهم بحقيقة دينهم وقيمه وتعاليمه وتبصرهم بروح هذا الدين ورسالته وأهدافه وتعرفهم بتاريخ أمتهم المجيد وحضارتهم الراقية ، ويأخذون الى جانب ذلك بنصيب من دراسة العلوم البشرية التى تعرفهم بماوصل اليه العقل البشرى من حقائق علمية ونظريات وأفكار . ولكن كما قلنا سابقا لا ينبغى لنا أن نعرض هذه العلوم لطلابنا الا بعد أن نؤسسها تأسيسا اسلاميا ونوجهها الوجهة الاسلامية . وعلى سبيل المثال فان بامكاننا ان نستثير الوجدان الدينى والدوافع الروحية والخلقية في نفوس الطلاب من خلال تدريس العلوم البحتة" لهم حين نربط مظاهر هذا الكون وخصائصها بالله تعالى الذى أعطى كل شيء خلقه والذى له مقاليد السموات والأرض" عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض"(١) وعنده

"(١) سورة سبأ : آية (٣) .

مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم مافي البر والبحر وماتسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين [1] .

وأما في مرحلة التخصص فيتفرغ طالب الدراسات الاسلامية لها وحدها ويكرس لها جهده ويعب منها وينهل ويصرف في دراستها والتبحر في علومها كل وقته حتى يبلغ اقصى مايقدر له بلوغه من المرتبة العلمية العالية ، وكذلك الحال بالنسبة لطلاب الدراسات " العصرية " ولكن لا ينبغي أن يقطعوا صلتهم بعلوم الدين بالكلية لمافي ذلك من الضرر البالغ والخطر الجسيم على حياتهم ، ويستحسن في هذه المرحلة أن تقدم لهم دراسة في الثقافة الاسلامية تعرفهم بالمفاهيم الاسلامية الاساسية وتبصرهم بالقضايا المهمة التي عالجها الاسلام في شتى مجالات الحياة الانسانية وبخاصة في مجال الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك حتى لا يخر هؤلاء الطلاب صرعى وسط تيارات المذاهب والاتجاهات المنحرفة التي تغزو عقول المثقفين المسلمين في هذا العصر وتتجاذبهم يمنة ويسرة لينضموا الى أحد المعسكرات الغربية أو الشرقية وينضووا تحت راية من راياتها . ويجب أن يوضع منهج الدراسة بحيث يعطى الطلاب فكرة عامة شاملة عن المفاهيم والقضايا الاسلامية المهمة من دون أن يلجأ فيها الى التوسع والاستيعاب والتفصيلات الدقيقة ماهو شأن الطلاب المتخصصين في الدراسات الاسلامية ، ويكفى مع طلاب العلوم " العصرية " عرض الحقائق والمفاهيم والقضايا الاسلامية الرئيسية وتوضيحها لهم بايجاز حتى لا نشغلهم عن دراستهم الاساسية .

يقول الشيخ أبو الحسن الندوى : " لابد من ايجاد نظام للتربية والتعليم يقوم على تطبيق بين العقيدة والثقافة وبين قوة العاطفة واشراق الروح والتهاب جذوة الايمان وبين العلم الواسع والفكر النير ومعرفة أحدث ماوصلت اليه الأجيال

---

(١) سورة الانعام : آية (٥٩) .

البشرية من تجربة واكتشاف .

ولابد من بدء عملية تطوير المناهج " لهذا الغرض" وسبك منهج تعليمي جديد ، يتغلغل في أحشائه الايمان بالله ويسيطر على جميع فروعه وجزئياته في الاوساط العلمية في " العالم الاسلامي " .

انه مشروع ضخم يتطلب ثورة في التفكير ومغامرة في المساعي والجهود و مثابرة تنهك القوى وتستنفد المجهود ، ولكنه عمل تجديدى من أعمال الاصلاح والتربية واكبر خدمة للاسلام والمسلمين في هذا العصر." (١)

ثالثا : وسائل الاعلام :

وأما عن وسائل الاعلام المختلفة فقد ظهر جليا في هذا العصر أهميتها الكبيرة من حيث التأثير في قلوب الناس وتغيير معتقداتهم وأفكارهم واتجاهاتهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم . وقد رأينا كيف كانت وسائل الاعلام المختلفة من أمضى الاسلحة التى استخدمها المستعمرون والمبشرون والمستشرقون في حملاتهم الضارية على الاسلام وكيدهم ومكرهم بالامة الاسلامية خلال القرنين الاخيرين ، ولا تزال دوائر الاعلام الغربية تعتبر محاربة الاسلام والكيد لأهله جزءا أساسيا من اهدافها المتعددة التى تنفق في سبيل تحقيقها أموالا طائلة سواء في داخل البلدان الاوربية أم في المجتمعات الاسلامية . ان الغرب الصليبى لا يزال يسخر كل ماوصل اليه عقله في مجال الاعلام والنشر من وسائل وامكانات لغزو العالم الاسلامي فكريا وثقافيا واحداث تغييرات جذرية في شئون حياة المسلمين . وان منتجات أوربا الاعلامية من كتب وصحف ومجلات وافلام سينمائية وبرامج اذاعية وتلفزيونية ونشرات وقصص وروايات واغان لتغزو المجتمعات الاسلامية وتتوغل في أسواقها وبيوتها ومدنها وقراها وتنتشر في دوائرها ومدارسها وجامعاتها وتغزو عقول الطلاب والمثقفين وعامة الناس على السواء وتنشر بينهم روح الكفر والالحاد

(١) نحو التربية الاسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الاسلامية ، ص ٤١ (بتصرف بسيط)

والمعتقدات الباطلة والمفاهيم الخاطئة والمفاسد الخلقية وتبعث في الناشئين التخنث وتضعف فيهم روح الرجولة والمجالدة وتستثير فيهم اللذة والشهوات وتقودهم الى حياة العربدة والمجون والخلاعة والفسق والفجور ، وتصيب النساء في انوثتهن وامومتهن بماتدعوهن اليه من التبرج والسفور والاختلاط وابراز الزينة ومفاتن الجسد ومزاحمة الرجال في كل شيء والمطالبة بحقوق زائدة وما الى ذلك .

والى جانب ذلك كله كانت دوائر الاعلام المحلية في البلدان الاسلامية قد أسست على قواعد الاعلام الغربي فاتخذته قدوتها في كل شيء واخذت تقتفي آثاره وتترسم خطاه وتسير في اتجاهه وتستورد من الغرب الوسائل والبرامج وتعمل لتحقيق أهداف لادينية ولا اخلاقية كماهو شأن الاعلام الغربي ، فقد أصبحت تنشر الافكار والمذاهب والاتجاهات الغربية المنحرفة التي تتعارض مع هدى الاسلام وقيمه وتعاليمه في مجال السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع وفي مجال الاخلاق والعادات والتقاليد . ونظرة فاحصة الى ماتنتجه وسائل الاعلام المحلية ترينا المدى البعيد الذى بلغته في التأثر بدوائر الاعلام الغربية وقبولها السير في اتجاهها . ولو استعرضنا ما تنشره الكتب الادبية والثقافية والصحف والمجلات من قصص وروايات وقضايا وأفكار ومفاهيم وماتنتجه دور السينما والمسرحيات وماتبثه محطات الاذاعة وأجهزة التلفزيون من برامج ،، لو استعرضنا ذلك كله لعلمنا أن دوائر الاعلام في البلدان الاسلامية تسير على الخط المعاكس للدين وقيمه وتعاليمه وأنها تمثل معاول الهدم والتقويض للبقية الباقية من الدين في حياة المسلمين وذلك لانها تسعى جاهدة لتوجيه المسلمين نحو وجهة في الحياة لا تمت الى الوجهة الاسلامية الصحيحة بصلة ، ويتضح ذلك فيما تنشر بينهم من المذاهب والافكار والاتجاهات المنحرفة من علمانية لادينية وقومية ووطنية وشعوبية وحزبية وديمقراطية غربية واشتراكية، وماتدعو اليه من حصر الدين في دائرة الشعائر التعبدية وحصر الشريعة في دائرة الاحوال الشخصية وابعاد الدين عن الهيمنة على جميع شئون الحياة العملية وبخاصة في مجال السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع

وماتدعو اليه لافساد المرأة فيما يسمى قضية " تحرير " المرأة وتحقيق المساواة بينها وبين الرجل ، وكذلك دعوتها لاحياء الحضارات القديمة ونشرها لانواع الفساد والفواحش ، ويضاف الى ذلك كله ماتنقله الى المجتمعات الاسلامية من طرائق الحياة الغربية والعادات والتقاليد الاوربية المنافية لهدى الاسلام واخلاقياته وماتعرضه ايضا من القضايا التى تحدث في الدول الاوربية بسبب ظروفها وملابسات حياتها الخاصة ، وقد كانت دوائر الاعلام المحلية تعرض هذه القضايا وكأنها قضايا انسانية لابد أن تحدث لكل أمة من أمم الارض ثم تعرض الى جانبها الحلول الغربية ، وكان الهدف من وراء ذلك هو توجيه القلوب الى التعلق بأوربا وحضارتها واعتبارها محرك خط التاريخ وأن مايحدث لها لابد أن يحدث لكل أمة وأن حلولها التى اهتدت اليها هي الحلول الناجحة التى يجب على الأمم الاخرى أن تأخذ بها اذا ماحدثت في مجتمعاتها قضايا مماثلة .

ونريد هنا أن نورد سؤالا مهما سبق لنا أن اوردناه مثله في معرض حديثنا عن اصلاح مجال الفكر والثقافة والتعليم ، وهذا السؤال هنا هو : كيف يتسنى لنا استئناف حياة اسلامية سليمة واقامة مجتمع اسلامي قويم والعالم الاسلامي - كما رأينا - معرض منذ عهد بعيد لغزو الغرب الفكري والثقافي المخطط الذى يتوغل فيه انتاج الاعلام الغربي في أنحاء المجتمعات الاسلامية،وتغزو المسلمين في عقر دارهم كتب الغرب ومجلاته وصحفه وافلامه السينمائية وبرامجه الاذاعية التى تنشر الافكار والمفاهيم والنظريات والعادات والتقاليد المتعارضة مع دعوة الاسلام ورسالته وأهدافه ، ووسائل الاعلام المحلية هي الاخرى قائمة على الأسس الغربية سائرة في اتجاه الغرب اللاديني واللا أخلاقي وتسعى - من حيث تدرى ومن حيث لاتدرى - لتحقيق الغايات التى يعمل لها الاعلام الغربي من زعزعة عقيدة المسلمين واضعاف قوة تمسكهم بالدين وتوجيههم نحو وجهة أخرى غير اسلامية والهائهم بصنوف اللعب واللهو والامور التافهة التى لا تعود عليهم بمنفعة حقيقية ؟ كيف نتمكن من اقامة حياة اسلامية صحيحة في مثل هذه الظروف المتردية التى تدوى

فيها أصداء دعوة الباطل ، وتصم آذان الناس عن سماع دعوة الحق بكل ماتملك من خطط ووسائل وامكانات ؟ فهل يمكن للانسان ان يقيم صرح بنائه في مهب الرياح العاصفة المدمرة ؟ وعلى ضوء ماتقدم نقول بأن الامة الاسلامية اذا أرادت أن تقيم بناء الاسلام الصحيح في مجتمعاتها فلابد لها من السعي الجاد لتأسيس الاعلام والنشر على قواعد الاسلام وتعاليمه وهديه لكي تتمكن من تحقيق رسالة الاسلام واهدافه الروحية والخلقية ومافيه الخير والصلاح والمنفعة للناس ، ولابد من صد المؤثرات الخارجية التي تفسد وسائل الاعلام المحلية وسد جميع المنافذ التي تتسلل منها المفاسد والانحرافات الى الاعلام المحلي ، وعلى هذا يجب الحذر كل الحذر من استيراد برامج الغرب الاعلامية لأنها في أسسها واتجاهاتها وغاياتها تتعارض مع العقيدة الاسلامية ومايدعو اليه الاسلام من قيم ومبادئ وتعاليم واخلاقيات رفيعة . ويجب أن تستخدم وسائل الاعلام المختلفة للدعوة الى الحق والخير والفضيلة ومافيه صلاح المجتمع ومنفعة العباد ، ولتحذير الناس من الشر ومنعهم من الانكباب على صنوف اللهو وحياة المجون التي تشغل الانسان وتلهيه بسفاسف الامور وتوافهها عن جادة الحق وعظائم الأعمال . واذا استطعنا أن نؤسس وسائل الاعلام على قواعد الاسلام وهديه وتوجيهاته الخلقية السامية وأن نوجهها الوجهة الاسلامية الصحيحة فسيكون ذلك عونا كبيرا لنا لاصلاح شئون حياة هذه الامة وتحقيق رسالة الاسلام وأهدافه من خلال ماننمقه في نفوس الناس من العقيدة الاسلامية الخالصة وماننشر بينهم من الافكار والمفاهيم الاسلامية الصحيحة والقيم والمبادئ الانسانية الرفيعة والاخلاق الفاضلة والصفات الحميدة من طاعة أوامر الله واتباع هديه ومنهجه واجتناب نواهيه وحب الخير والدعوة اليه والاستقامة على جادة الحق .

ويجب هنا أن نوضح حقيقة طالما أساء الناس فهمها ليس فقط في مجال الاعلام ولكن في مجالات الحياة المتعددة كمجال التربية والتعليم ومجال الفكر والثقافة وما الى ذلك وهذه الحقيقة هي أننا حينما ندعو الى اصلاح هذه المجالات

ونؤكد وجوب تأسيسها على قواعد الاسلام وهديه وروحه يتبادر الى الاذهان الناس أن هذه المجالات ستتحول الى دروس ومواعظ ومحاضرات وخطب دينية بحتة ، ولكن الامر ليس كذلك أبدا فان تأسيس وسائل الاعلام على قواعد الاسلام وجعلها تنطلق من منطلق اسلامي وتسير وفق هديه وروحه وتتجه وجهته في مناهجها وبرامجها وأهدافها لا يعني أن يصبح كل شيء مواعظ ودروسا وخطبا ومحاضرات دينية بحتة ولكن ذلك يعني أن تبنى هذه الوسائل على قواعد الدين وتوجه مناهجها وبرامجها وأهدافها وجهة صحيحة وتستخدم لنشر دعوة الحق والخير والفضيلة ولمنع الشر والفساد والرذائل حتى تكون هذه الوسائل عوامل التقويم والاصلاح والبناء لا معاول الهدم والتقويض .

ولو سألنا سائل عن كيفية تأسيس وسائل الاعلام المختلفة على قواعد الاسلام وتوجيهها الوجهة الاسلامية من دون أن يكون كل شيء مواعظ وخطبا دينية بحتة ، نقول له بايجاز بأن وسائل الاعلام المختلفة من كتب ومجلات وصحف واذاعة وتلفزيون وسينما ومسرحيات تقدم للناس الافكار والقيم والمفاهيم والنظريات والعادات والتقاليد وتوجههم وجهة معينة في الحياة من خلال ماتنشره من مقالات وقصص وروايات وتمثيليات وبرامج متنوعة ،فاذا أردنا أن نؤسس هذه الوسائل على قواعد الاسلام ونوجهها الوجهة الاسلامية فان مانقدمه للناس من أفكار وقيم ومفاهيم وتوجيهات خلقية وعادات وتقاليد يجب أن نبنيه على أساس العقيدة الاسلامية الخالصة ونعرضه من وجهة نظر الاسلام ونشرحه على ضوء هديه وروحه وتعاليمه . ولمزيد الايضاح والبيان نقول بأن الكتب الادبية والثقافية والمجلات والصحف تبحث في موضوعات وقضايا متنوعة في التصور والفكر والسياسة والحكم والتشريع والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والتقاليد والعادات فإذا أردنا أن نجعل هذا الجانب من الاعلام ينطلق من منطلق إسلامي فيجب علينا أن نتناول الموضوعات والقضايا التي نبحث فيها من وجهة نظر الاسلام ونبنيها على أسسه ونشرحها

وفق هديه وتعاليمه مع مراعاة الالتزام بأسلوب العرض الموضوعي النزيه وكذلك الاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرحيات فانها هي الاخرى تبث من خلال برامجها وأحاديثها وتمثيلياتها أفكارا ونظريات وقيما ومفاهيم معينة وتنشر في الناس اتجاهات سياسية وفكرية واجتماعية وخلقية خاصة وتسعى لاحياء تقاليد وعادات معينة .
وان سبيلنا لاصلاح هذه الوسائل هو بناؤها على الأسس الاسلامية وعرض الموضوعات والقضايا المتعددة التي تتناولها في برامجها وأحاديثها وتمثيلياتها عرضا موضوعيا من وجهة نظر الاسلام ووفق هديه وتعاليمه وتوجيهاته،واستخدامها لنشر دعوة الاسلام وتحقيق رسالته وأهدافه . وحتى برامج الترفيه والتسلية التي تقدمها الاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرحيات والتي تعرض فيها التقاليد والعادات القديمة في صورة مزرية منفرة في سبيل محاولة القضاء عليها وتوجيه انظار الناس الى تقاليد وعادات أخرى هي في صميمها غربية أو متأثرة بوجهة نظر الغرب في الحياة فان بامكاننا أن نوجه هذه البرامج وجهة اسلامية وأن نعرض التقاليد والعادات التي تتناولها من خلال وجهة نظر الاسلام . وحيث ان تلك التقاليد والعادات التي يصمونها بالبلى والقدم هي في أصلها تقاليد اسلامية مزجت معها خرافات وبدع وانحرافات جاهلية أخرجتها في معظم الأحوال عن دائرة الاسلام وهديه وروحه،فسبيلنا لاصلاحها وتقويمها هو أن نفصل بين ماهو اسلامي أصيل وماهو دخيل عليه وأن نبين وجوه الانحرافات والتشويهات ونستخلص التقاليد الاسلامية الاصيلة من ركام الاخلاط والاكوام ونسعى لنشرها من خلال وسائل الاعلام المختلفة بأسلوب عرض مؤثر جذاب .

ثم أن وكالات الانباء الغربية اذا كانت تجمع ماتنشره في اذاعاتها ومجلاتها وصحفها من أخبار واحداث وتصوغه وتشرحه من وجهة نظرها الخاصة وحسبما تقتضيه مصالحها المختلفة وتتحقق به مطامعها التي تتصارع من أجلها،فان منهج وكالة الانباء الاسلامية وطريقتها في ذلك بطبيعة الحال ستختلف تماما عن مناهج تلك الوكالات وطرائقها لان الامة الاسلامية تدين بفكرة كلية عن الحياة تختلف كل

الاختلاف عن فكرة الغرب عن الحياة فهي لا تقيم علاقاتها مع الامم الاخرى على أساس المصالح والمنافع المادية ولا تدخل في صراع وخصام معها من أجل عرض هذه الحياة وانما تعمل وتجاهد من أجل نشر القيم والمبادئ والمثل الانسانية الرفيعة وتسمى لتحقيق غايات روحية وخلقية سامية .

وبقي أن نؤكد هنا انه لكي نبعد وسائل الاعلام من أن تكون دروسا ومواعظ وخطبا دينية بحتة يجب أن نلتزم بأسلوب العرض الموضوعي عند تقديم البرامج والاحاديث والمقالات التى نعرض فيها الافكار والقيم والمفاهيم وفي معالجة الموضوعات والقضايا التى تطرح للبحث والمناقشة وفي برامج الترفيه والتسلية التى تعرض للتقاليد والعادات وفي عرض النشرات الاخبارية وفي تعليقاتنا على الاحداث اليومية الجارية وليس من الضروري أن نصرح باسم الاسلام في شئ من ذلك الا اذا اقتضت ضرورة الكلام ، ولا نحتاج أن نقيم الادلة الشرعية على كل مانعرضه من أفكار ومفاهيم وتوجيهات الا في البرامج المخصصة للدروس والمواعظ الدينية ، ويكفينا في بقية البرامج أن نوجه وسائل الاعلام وجهة اسلامية ونعرض الموضوعات والقضايا التى نقدمها فيها من وجهة نظر الاسلام وعلى ضوء هديه وتعاليمه ، ولا يضيرنا ان لم نصرح في ذلك بالاسلام مادمنا قد خصصنا جانبا من البرامج للدروس والمواعظ الدينية البحتة التى نقرر فيها علوم الدين ونشرح فيها حقائقه وقيمه ومبادئه ونبين فيها تعاليمه واحكامه وتوجيهاته كما نقدم فيها ايضا مايتعلق بدراسة قواعد اللغة العربية وعلومها .

<u>رابعا :</u> تربية جيل جديد على حقيقة الاسلام عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة .

وأما النقطة الرابعة من وسائل الاصلاح فهي تنظيم برامج تربوية عملية مركزة لإخراج جيل جديد يمثل حقيقة الاسلام في عقيدته وشعائره وشريعته ومنهجه للحياة وقد علمنا من خلال فصول هذا البحث أن المسلم في القرنين الاخيرين قد انحرف

عن جادة الاسلام ويبعد عن خطه المستقيم بعدا شاسعا حتى اصبح في كثير من الاحوال لا يحمل من الاسلام الا بعض مظاهره وأصبح يأتي بأعمال كثيرة مخالفة لتعاليم الدين وتوجيهاته ويخضع لتقاليد وعادات لا يعرف مصدرها ولكنه يتبعها على أنها من الاسلام وهي ليست من الاسلام في شيء ، كما أن المجتمع المسلم قد أصبح تنخر في كيانه رذائل متعددة ترتبط عند كثير من الناس بالاسلام الذى يدعي المسلمون الانتساب اليه حتى اذا ذكر الاسلام عندهم تمثل أمامهم الجهل والضعف والفقر والجوع والكسل والخمول والتقاعس عن العمل والانزواء عن الحياة وتفشي المظالم السياسية والامراض الاجتماعية واهمال نظافة الجسم والاكل واللباس والمسكن وما الى ذلك . واذا اتضح لنا هذا علمنا مدى حاجة العالم الاسلامي اليوم الى ظهور جماعة مسلمة تفهم الاسلام فهما صحيحا شاملا وتؤمن به ايمانا قويا عميقا وتكون على استعداد حقيقي لاقامة هذا الدين على حقيقته وتمثيله في صورته التطبيقية الصحيحة في واقع الحياة حتى يكون أفراد هذه الجماعة في سرهم وعلانيتهم نماذج عملية وأمثلة طيبة رائعة وقدوة صالحة يدعون الى هذا الدين قولا وعملا ويربون الناس على عقيدته وقيمه وتعاليمه واخلاقياته ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويبذلون أقصى جهدهم في سبيل هداية الناس الى الخير واقامة الحق والعدل بينهم ويجاهدون في سبيل الله حق جهاده لاعلاء كلمته وتمكين دينه في الارض يتجردون لهذا العمل ويقفون حياتهم ومالهم ومواهبهم ومصالحهم وراحتهم وكل مايملكونه في سبيل انجاحه ويعملون لنصرة الحق الذى يؤمنون به بقوة وعزيمة وصدق واخلاص واعتزاز لايرجون بذلك الا وجه الله تعالى ورضوانه ولا يسعون الا لاقامة دين الله وتنفيذ ارادته في الارض وتسيير دفة الحياة وفق منهج الله الذى يحقق للبشرية كل الخير والفضيلة والسعادة في شتى مجالات الحياة .

ان حاجة العالم الاسلامي ماسة جدا لقيام مثل هذه الجماعة المسلمة في أى بلد من البلاد الاسلامية لكي يرى الناس صورة واقعية للحياة الاسلامية التي

تتجسد فيها حقيقة الاسلام في صورتها الصحيحة المستقلة ويتجلى فيها منهج الاسلام ونظامه للحياة ومدنيته واجتماعه كما تظهر فيها ايضا نتائج دعوته وتعاليمه وتوجيهاته ، تلك الحياة التي يتكتل الاعداء للحيلولة دون قيامها مجسدة لحقيقة الاسلام واقعا عمليا مشهودا على وجه الأرض .

واذا كان صحيحا ان المسلمين قد بعدوا عن حقيقة الاسلام بعدا كبيرا وانحرفوا عن جادة هذا الدين انحرافا شديدا فان ذلك لا يعني ان ليس هناك أمل في عودتهم الي حقيقة هذا الدين مرة أخرى . ولقد رأينا في خلال التاريخ الاسلامي الطويل أن حقيقة الاسلام لم تزل تطفو كلما رسبت وتظهر كلما اختفت في حياة المسلمين، وكلما ظهرت حقيقة الاسلام في جماعة من المسلمين في أي مكان من الرقعة الاسلامية الفسيحة وفي أي عصر من العصور وهبت على قلوب أفرادها نفحات عطرة من الايمان والتقوى والصلاح وتشربت نفوسهم روح هذا الدين كادت الامور أن تعود الى ماكانت عليه في القرون الاسلامية الزاهرة . واذا قدر للمسلمين أن يتنبهوا من سباتهم العميق الذي طال عليهم أمده واشتدت عليهم وطأته وأن يراجعوا أنفسهم ويحاسبوها محاسبة دقيقة في دعوى الاسلام والايمان والتقوى ثم يوفقوا الى اقامة حقيقة الدين وتمثيل صورته الناصعة واقعا عمليا في حياتهم فانهم سيتحولون باذن الله تعالى الى قوة عظيمة تستطيع أن تذلل كل عقبة في وجهها وتهزم كل قوة تواجهها أو تصمد لها على الأقل ، وتأتي بأعمال عظيمة مشرفة وتضرب للناس أمثلة رائعة من قوة الايمان والتقوى والصلاح وروح الجهاد تجدد في أذهان الناس ذكريات القرون الاسلامية المفضلة وتجسد لهم صورة واقعية للحياة الاسلامية الرفيعة .

وليس العالم الانساني بأقل افتقارا من العالم الاسلامي لمثل هذه الجماعة المسلمة التي تحمل على أكتافها مهمة الهداية والدعوة الى الخير و نشر الحق والفضيلة والقيم الانسانية الاصيلة لاخراج الناس من الظلمات الى النور ومن العبودية

للبشر الى العبودية الحقة لله وحده ومن جور الاديان والمذاهب والمناهج البشرية الوضعية الى عدل الاسلام ومنهجه وشريعته ومن ضيق الحياة الدنيا الى آفاقها الانسانية الرحبة ومن الحياة الشقية البائسة المنحلة في ظل الوثنية والجاهلية الى الحياة الطيبة السعيدة في ظل هدى الله ومنهجه القويم. واذا نشأت في هذا العصر جماعة مؤمنة اتخذت لنفسها هذه الصفات والخصائص وتربت عليها حتى صلب عودها وقويت شوكتها كان الناس على موعد مع قوة اسلامية عظيمة تستطيع باذن الله أن تؤدي دورها الطليعي في سبيل تحقيق رسالة الاسلام وأهدافه في داخل المجتمع المسلم لخدمة المسلمين وفي خارج هذا المجتمع ايضا لخدمة البشرية جمعاء.

والسؤال الذي يتوارد علينا هنا هو كيف نستطيع أن ننشئ اليوم مثل هذه الجماعة المسلمة؟ وعليه نقول بأننا اذا أردنا أن ننشئ جماعة مسلمة تعيش الاسلام بكل وجودها وتمنحه كل وجودها فلابد من اعادة تكوين افراد المسلمين وتنشئتهم على حقيقة الاسلام وتربيتهم على مبادئ الدين وقيمه وتعاليمه وتوجيهاته الأخلاقية، ولا بد أن ننقي من نفوسهم ونزيل من كيانهم ركام العقائد الباطلة والخرافات والبدع والانحرافات السلوكية التي يتمسكون بها على انها جوهر الدين، ولا بد أن نبصرهم بدعوة الاسلام ورسالته وأهدافه وأن نربيهم على تطبيق تعاليم الدين والالتزام بأوامره ونسير معهم خطوات في هذا السبيل منذ نعومة أظفارهم وفي جميع مراحل حياتهم وبكل الوسائل الايجابية المتاحة للدعوة والتربية والاصلاح والتقويم . وقد يكون من السهل الميسور أن ندعو المسلمين الى العودة للدين الصحيح والتمسك بالكتاب والسنة ونرسم لهم صورة واضحة من مبادئ الاسلام وتعاليمه وأخلاقياته ولكن الأمر يختلف تماما عندما نريد تشكيل سلوكهم وفق منهج هذا الدين وتربيتهم عمليا على الاصول والتعاليم والاخلاقيات الاسلامية. ان التربية العملية طريقة اصلاحية طويلة شاقة تتطلب وقتا طويلا وجهدا كبيرا ولكنها هي الطريق الصحيح الذي يؤتي ثمارا يانعة ويحقق نتائج طيبة. انها عمل كبير يحتاج الى دعاة مربين مصلحين عمرت قلوبهم بالايمان والتقوى وفاضت نفوسهم عزيمة وصدقا واخلاصا وتجردا للعمل

في سبيل نشر دعوة الحق وحبا ورحمة بالمسلمين وحرصا على الاخذ بأيديهم الى طريق الهدى والرشاد . ولا شك أن مهمة هؤلاء الدعاة المصلحين كبيرة وشاقة تحتاج منهم الى قوة ايمان وتقوى وحكمة وصدق وصبر والى وضع خطط عمل دقيقة واتخاذ وسائل ايجابية وبذل أقصى مافي الوسع في سبيل نصرة الدين فمثلهم كمثل من يريد أن يخرج خيوطا فاسدة بالية من نسيج قديم فقد جماله ورونقه ويستبدل بها خيوطا أخرى جديدة صالحة ولا يخفى مايتطلبه ذلك من جهد جهيد ووقت طويل وعناية فائقة وصبر لا يعرف اليأس والسآمة .

ان مهمة اعداد الناشئة الاسلامية اعدادا صالحا واخراج الطليعة المؤمنة التى تتولى قيادة الامة الاسلامية وتقيم دعائم المجتمع المسلم على منهج الله وهديه وتربى الأجيال الاسلامية القادمة تربية عملية صحيحة لهي من أوجب الواجبات التى ينبغى أن يوجه الدعاة المصلحون عنايتهم الكبيرة اليها . ان الخطة التي اعتمدها الرسول صلى الله عليه وسلم في تكوين الطليعة المؤمنة الاولى في غاية الدقة والاحكام ، فقد عنيت الدعوة الاسلامية في عهدها الاول باعداد الجماعة المسلمة اعدادا نفسيا وفكريا ومعنويا واخلاقيا وسلوكيا لبلوغ مستوى المسئولية والقدرة على أداء رسالة الاسلام وتحقيق أهدافه في المجتمع ، وقد رأينا أن مرحلة الاعداد والتكوين قد استنفدت من حياة النبوة مالم يستنفده عمل آخر ثم رأينا أيضا ماأسفرت عنه الجهود التى بذلت في هذه المرحلة من حصيلة مباركة امدت الدعوة الاسلامية على المدى الطويل من الزمن بافذاذ الرجال الذين انشأهم الاسلام بمفهومه الصحيح وصاغتهم العقيدة الاسلامية الخالصة ونسجت جوانب شخصيتهم المتميزة مبادئ الاسلام وقيمه واخلاقياته . فماقامت للاسلام قائمة في عهده الأول ولا خطت دعوته خطوات متدفقة الى الامام ولا بلغ سلطان المسلمين وملكهم مشارق الأرض ومغاربها الا بتوفيق الله ثم بجهود طليعة الاسلام الاولى التى أعدها الرسول صلى الله عليه وسلم اعدادا قويا صالحا .

وبعد هذا نريد أن نبين بايجاز منهج التربية العملية التى أوليناها

هذا الاهتمام الكبير واعتبرناها أنجح الطرق الايجابية في الاصلاح والتقويم والبناء ، وأكدنا وجوب اتخاذها من قبل الدعاة المصلحين وسيلة لتكوين الفرد المسلم وتكوين الاسرة المسلمة ثم اقامة بناء المجتمع المسلم من العناصر الصالحة التي يوفقون الى استخلاصها من الجماهير الغافلة الشاردة .

وبما أن الفرد هو اللبنة الاولى في بناء المجتمع فان الدعوة الاسلامية تولى عناية كبيرة بتربية الفرد المسلم نفسيا وفكريا وعقليا وخلقيا وجسميا حتى يكون مستقيما في سلوكه واخلاقه ويعرف الخير من الشر ويلتزم طريق الحق ويبتعد عن الرذائل ومفاسد الاخلاق ويكون جديرا بوصف الانسانية وعنصرا قويا صالحا في بناء الاسرة المسلمة وانشاء المجتمع المسلم .

وليس سبيل التربية العملية محصورا في مجال الدعوة بالقاء الدروس والمواعظ والخطب لتعريف الناس بحقائق الاسلام وقيمه وتفهيمهم تعاليمه وتوجيهاته ولكنه الى جانب ذلك يشمل نهوض الدعاة المصلحين بمهمة جمع أفراد المسلمين حول الدين الحق وحشدهم في جماعة مسلمة موحدة وخلق نوع من الصلة الوثيقة بأفراد هذه الجماعة ، وجمع قلوبهم جميعا حول مركز قيادتهم يتلقون عنه التوجيهات والارشادات ويراجعونه في كل مايعرض لهم من امور حياتهم ، وان مهمة هذه القيادة هي أن تقدم الدعوة والنصيحة والارشاد لافراد الجماعة المسلمة وتتعهدهم بالتعليم والتربية عن طريق القدوة الحسنة ، والمعايشة والمصاحبة والممارسة العملية لتوجيهات الاسلام وأخلاقياته .

وان التركيز في الدعوة الاسلامية على التربية العملية للافراد والجماعات هو من أجل توفير العناصر الصالحة لاقامة مجتمع اسلامي قويم ، لأن هذا المجتمع لا ينشأ حتى نستطيع أن ننشيء جماعة من الناس تقر بالعبودية الحقة لله وحده اعتقادا وتصورا وعبادة وشريعة ونظاما وترفض الخضوع لعبودية غير الله تعالى في أية صورة من صورها فلا تعتقد في ألوهية احد غير الله تعالى ولا تتوجه بالشعائر

التعبدية لغير الله تعالى ولا تتلقى الشرائع والنظم من أحد غير الله تعالى ، ثم تأخذ هذه الجماعة فعلا في تنظيم شئون حياتها كلها على أساس هذه العبودية الخالصة لله تعالى وحده ووفق هديه ومنهجه . فالواجب على الدعاة المربين أن يعملوا بجد ونشاط وتخطيط دقيق لتعميق العقيدة الاسلامية الخالصة في الافراد والجماعات وتربيتهم عمليا على تعاليم الاسلام وأخلاقياته حتى تنبعث حوافز الحياة الاسلامية في نفوسهم وعليهم أيضا أن يسعوا لاقامة واقع اسلامي ملموس حتى تلتقى الحوافز والرغبات ببيئة تكفلها الشريعة الاسلامية وتقوم على منهج الله وهديه ، لان الحياةالاسلامية تقوم على أساسين قويمين هما العقيدة والشريعة . ثم ان اعتماد التشريع الاسلامي على أساس العقيدة الخالصة في الله لمما يبعث في النفس الثقة بصلاحيته وقدرته على تحقيق الحياة السعيدة للبشرية بمالا يقاس عليه غيره ويجعله أدعى للاتباع والطاعة عند الافراد الذين زكت نفوسهم بالايمان والعبادة والاخلاق واتسعت مدارك فهمهم لحقيقة الكون والحياة والانسان وأصبحوا يحسون بعظم ماعليهم من المسئولية في أداء واجباتهم أمام ربهم الذى يحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة .

ثم ان الجماعة المسلمة لا تنشأ ولا يتقرر لها وجودها المستقل المتميز في واقع الامر الا اذا بلغت درجة من قوة الاعتقاد والتصور وقوة الخلق والبناء النفسي في الافراد وقوة الترابط والتنظيم والبناء الجماعي تقيم بها كيانها المستقل وشخصيتها المتميزة وتواجه بها أوضاع المجتمع الجاهلي ونظمه وضغوطه لتتغلب عليها أوتصمد لها على الأقل .

ويبقى بعد هذا كله أن نقول بأن العبء الكبير في مهمة اصلاح المجتمع المسلم مايعانيه اليوم من مشكلات يقع على عاتق الدولة الاسلامية ان وجدت ، لأنها هي التي تستطيع أن تقوم بأمر الدعوة وتجند الدعاة المربين والمصلحين لهذا العمل وتوفر لهم الامكانات الادبية والمادية وتتيح لهم فرص العمل والانطلاق لتلافي

متناسقة في سبيل الاصلاح جهود الافراد والجماعات مع القوة التنفيذية التي تملكها الدولة الحاكمة .

ويتجلى دور الدولة المسلمة في النهوض بأعباء العمل الاسلامي في داخل المجتمع المسلم وفي خارجه على السواء .

فان كل مابيناه في هذا الفصل حول وسائل الاصلاح والتقويم لماتعانيه الامة الاسلامية من مشكلات متعددة في مجال الفكر والثقافة ومجال التربية والتعليم ومجال الإعلام والنشر وماقدمناه من اقتراحات لإصلاح هذه المجالات في سبيل استئناف حياة اسلامية سليمة واقامة مجتمع مسلم قويم لا يستطيع أن يقوم بما يتطلبه غير القيام إلا الدولة المسلمة . فمن ذا الذي يملك القدرة على النهوض باصلاح هذه المجالات وتقويم الأوضاع الفاسدة فيها غير الدولة الحاكمة ، من ذا الذي يستطيع أن يقوم بأعباء الدعوة الإسلامية ويجند لها الطاقات ويوفر لها الامكانات ويفسح لها مجال الانطلاق والانتشار في المجتمع ويزيل عن طريقها العوائق والعقبات... من ذا الذي يستطيع ذلك كله غير من أعطى الملك والسلطان ؟ ومن غير الدولة الحاكمة يملك أن يضع للمجتمع الاسس والقواعد لاصلاح مجال الفكر والثقافة ويضع سياسات التعليم ومناهجه وطرائقه وفق هدى الاسلام ومنهجه ، ويؤسس وسائل الاعلام المختلفة على قواعد الاسلام وتعاليمه ويوجهها الوجهة الاسلامية ، ويحمي هذه المجالات من ان تتسرب اليها مؤثرات الحضارة الغربية المادية اللادينية أو تحتويها احتواء كليا ،ويبعد هاجميعا من أن تكون وسائل لافساد عقيدة المسلمين واخلاقهم ونشر الاتجاهات المخالفة للدين وقيمه وتوجيهاته بينهم ؟ ومن غير الدولة الحاكمة يستطيع أن يطهر ساحة المجتمع من صنوف الرذائل والمنكرات والملهيات والمهيجات التي تشد نفوس الناس الى الانحراف وسلوك مسالك الضياع والهلاك ؟ لا أحد غير الدولة الحاكمة يستطيع أن ينظم شئون حياة المسلمين سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفق هدى الاسلام وتعاليمه وتوجيهاته بحيث تظهر

للناس كمال النظام الاسلامي وعدله وفضله، وتنحل مشكلات عديدة فشلت التجارب الغربية في ايجاد الحلول المناسبة لها في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك .

من خلال هذه الامثلة القليلة تتضح لنا مسئولية الدولة ودورها الفعال في سبيل الاصلاح والتقويم والبناء . ولكن ينبغي أن نؤكد ان الدولة اذا لم تقم بأمر الدعوة الاسلامية واصلاح الاوضاع الفاسدة والسعي لاعادة الامة الى حقيقة الاسلام ومفهومه الصحيح الشامل واقامة واقع عملي يمثل الاسلام في عقيدته وعبادته وشريعته فلابد من ظهور جماعة مؤمنة مجاهدة تضطلع بأعباء العمل الاسلامي في هذا السبيل ، لابد أن تنهض هذه الجماعة للامر حسب استطاعتها وتبذل في

هذا السبيل قصارى جهدها وتسلك الى تحقيق غايتها طريق الهدى والرشاد

والحكمة والدعوة الهادفة والتخطيط الدقيق على المدى الطويل ، من دون تعجل ولا تهور ولا طفرة وبلا تكاسل ولا تقاعس عن العمل وايثار العافية على الجهاد وحب الدنيا وكراهية الموت في سبيل الله . ولا شك أن طريقهم محفوف بالاخطار والمشقات والشدائد حيث أن الاعداء - سواء في داخل المجتمع المسلم أو في خارجه - لا يتركونهم يسيرون في الطريق الذى اختاروه لانفسهم فسيلقون منهم المواجهة والمقاومة والايذاء والتعذيب مهما حاولوا تجنب شرهم وكيدهم . وهذه سنة الله في تاريخ الدعوة الاسلامية منذ نوح عليه الصلاة والسلام الى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي سنته تعالى في الدعاة المصلحين في كل زمان ومكان ، ولكن العاقبة للمتقين ولعباد الله الصالحين الذين آمنوا بالله حق الايمان وعبدوه حق العبادة ووقفوا حياتهم في سبيل هداية الناس الى دين الله الحق وعبادته وحده لا شريك له ، وتخليصهم من العبودية لغيره تعالى في شتى صورها وأشكالها انهم الهداة المهتدون وهم جند الله في الارض ، وقد وعدهم الله الأجر الجزيل في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فيقول تعالى : " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا . (١) الآية .

وأما في الآخرة فهم الشهداء والصديقون والصالحون فيقول الله تعالى : " ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ." (٢)

ثم ان على الدعاة أن يقوموا بواجبهم بايمان راسخ وعزيمة صادقة وأن يعملوا بجد ونشاط لايصال دعوة الحق الى كل الناس وأن يستخدموا كل ما أمكنهم من الوسائل الايجابية الحكيمة لتحقيق غايتهم وأهدافهم ، وليس عليهم بعد هذا أن يحققوا الغاية المنشودة أو لا يحققوها ولا عليهم أن يفصل الله بهم أو يفصل بدينهم وباعدائهم مايشاء . يقول الاستاذ الشهيد سيد قطب" .. ان عليهم (يعني المؤمنين المجاهدين) أن يؤدوا واجبهم ثم يذهبوا ، وواجبهم أن يختاروا الله وأن يؤثروا العقيدة على الحياة وأن يستعلوا بالايمان على الفتنة" وأن يصدقوا الله في العمل والنية ثم يفصل الله بهم وباعدائهم كما يفصل بدعوته ودينه مايشاء ،وينتهى بهم الى نهاية من تلك النهايات التى عرفها تاريخ الايمان أو الى غيرها مايعلمه هو ويراه . انهم اجراء عند الله اينما وحيثما وكيفما ارادهم أن يعملوا عملوا ،وقبضوا الاجر المعلوم ، وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة الى اى مصير فذلك شأن صاحب الامر لا شأن الأجير." (٣)

---

(١) سورة النور آية (٥٥) .
(٢) سورة التوبة آية (١١١) .
(٣) كتاب معالم في الطريق ص ٢٤٢

ونعود في نهاية هذا الحديث لنقول بأنه لو قدر للمسلمين أن تلتقى جهود الدول الاسلامية مع مساعي الهيئات والجماعات المسلمة وأفراد الدعاة العاملين في سبيل الاصلاح والبناء ، اصلاح نواحي الانحراف والضعف في حياة المسلمين وبناء حياة اسلامية صحيحة في المجتمعات الاسلامية تقوم على دعائم العقيدة والشريعة الاسلامية ، واستخدمت في سبيل ذلك الوسائل الايجابية التي عرضنا لها في هذا الفصل لتحققت في أسرع وقت دعوة الاسلام وقامت في عالم الواقع الحياة الاسلامية الصحيحة التي طالما تكتل اعداء الاسلام للحيلولة دون قيامها وتجسدها في صورة واقعية مشهودة .

ولكن اذا لم تقم الدول بما عليها في هذا السبيل ، فان الجماعة المسلمة بايمانها الراسخ وعزيمتها الصادقة وجهودها المتواصلة وتخطيطها الدقيق وجهادها الكبير وتضحياتها النادرة واعدادها العدة اللازمة لها ماديا ومعنويا ستبلغ غايتها المنشودة بعد مضي فترة من الزمن قد تطول أو تقصر حسبما يريده الله ويشاؤه ، " والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون (١) . " " يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون . " (٢)

وحين تتحقق للجماعة المسلمة غايتها السامية في الحياة فان آثار دعوة الاسلام الطيبة في اقامة الحق والعدل ونشر الخير والفضيلة في شتى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لن تقتصر على المجتمعات الاسلامية

---

(١) سورة يوسف : آية (٢١)
(٢) سورة المائدة آيات (٥٤ - ٥٦)

بل ستشمل المجتمعات البشرية لتحقق فيها الامن والاستقرار والسلام العالمي .

ان الحضارة الغربية المادية اللادينية التي قادت العالم بأسره الى حربين عالميتين كبيرتين في خلال ربع قرن من الزمن وظهرت على أثرهما الكتلتان الغربية والشرقية المتنافستان المتصارعتان على المصالح والمطامع ، وظهرت بشكل واضح وخطير الاتجاهات والمذاهب والنظريات والنظم المختلفة التي تصادم الفطرة السليمة وتتعارض مع الاصول الثابتة في حياة الانسان ، ودلت التجارب وبرهنت الايام على سخافتها وفشلها في تحقيق السعادة والأمن والاستقرار للبشرية رغم كل ماوصلت اليه هذه الحضارة من تقدم وازدهار في وسائل الحياة المادية وأساليب المعيشة .. ان هذه الحضارة المادية اللادينية قد زادت مشكلات البشرية وأزماتها تعقيدا وتفاقما وخلقت مشكلات وأزمات أخرى عويصة ، وأصبحت البشرية تعاني من صنوف المحن والويلات والقلاقل والاضطرابات والصراعات والمظالم الاجتماعية والفوضى والمفاسد الخلقية في كل مكان على وجه الأرض ، ووصل طغيان المادية منتهاه في حياة الأفراد والجماعات وساد العبث والفساد السلوك والروابط . وصارت حياة الناس في المجتمعات الاوربية أشبه ماتكون بحياة الغابة حيث لا ضوابط ولا قيم خلقية عليا يصدر عنها الناس في تعاملهم بعضهم مع بعض ، وأصبحوا يعيشون وسط ظلمات حالكة لا يدرون طريقهم الى الخروج منها ، وقد بدأوا منذ فترة يحسون بماهم فيه ، وبدأت الصيحات والصرخات تتعالى في مجتمعاتهم تنذر بسوء مصير البشرية وانحدارها الى الهاوية ، ولكنهم لم يهتدوا بعد الى طريق الخلاص ، ولعلهم عرفوه ولكنهم يجحدونه كبرا وحسدا من عند أنفسهم . وهذا أحد كبار اساتذة الاسلاميات في امريكا Charles L.Gedder يقول في كلمته التي ألقاها في ١٢ مايو عام ١٩٦٦م في كراتشي : " ان الاسلام يملك جميع الخصائص التي يستطيع أن ينشر السلام والانسجام في العالم ، ان الغرب يؤمل من المسلمين الذين يحملون الدين الذي أنزله الله وكان لهم ماض مجيد مشرق ان يقدموا مبادىء الحياة وفلسفتها الى الغرب وبذلك يستطيعون

أن يحملوا راية السلام التى عينت لهم في عالم الغد ." (١)

ان العالم الانساني الهابط المنهار الذى سيطر عليه التفكير الأوربي القائم على أساس النظرة المادية البحتة" الى الحياة ونبذ القيم الروحية والمبادىء الاخلاقية والمعاني الانسانية ، وأصبح الناس فيه يعانون من خواء الروح ، واصبح تصورهم وفهمهم لحقيقة الحياة وقيمتها وحقيقة الانسان ودوره في الحياة في هبوط وانحدار واضطراب وصارت المادة عندهم هي العنصر الأساسي الحاسم في تقدير القيم للافراد والجماعات والامم،وأصبحت غاية الحياة ومهمة الانسان فيها هى القوت واللذة والمتاع واختراع الآلات واتخاذ المصانع وتوفير المنتوجات المادية ... ان هذا العالم الهابط البائس أحوج مايكون اليوم لان يقدم له المسلمون عقيدتهم وشريعتهم ومنهجهم للحياة لتخليص البشرية من كل ماتعانيه من مشكلات ومعضلات في شتى مجالات الحياة ، فالمسلمون يملكون دينا هو الأقوم منهجا والاعدل شريعة وحكما والامثل طريقة يهدى الى الحق والخير والفضيلة ويرفع قيمة الحياة الى المستوى اللائق بكرامة الانسان وانسانيته ، انهم يملكون عن الحياة فكرة كلية شاملة هى أقوم وأرقى من كل فكرة تملكها الامم الاوربية،ويملكون نظاما صالحا عادلا يحقق السعادة والامن والاستقرار لبنى الانسان . ولكن المسلمين لن يقدموا عقيدتهم للبشرية فكرة نظرية وانما يقدمونها بتطبيقها في حياتهم حتى يراها العالم حقيقة واقعية قائمة على وجه الأرض . وحين يستقر أمر المسلمين أنفسهم على منهج الله وتتجسد في حياتهم مبادىء الاسلام وتعاليمه واخلاقيات ويقوم مجتمعهم على دعائم العبودية الخالصة لله تعالى في العقيدة والتصور والشعائر التعبدية والشريعة والنظم والقوانين ويصطبغ سلوك الافراد والجماعات في الحياة بصبغة الاسلام وتبدأ تظهر آثار دعوة الاسلام في جميع شئون الحياة في مجتمعهم ، حينئذ ينبثق لهم لسان صدق مبين يدعو الأمم الاخرى الى اعتناق عقيدتهم واتباع منهجهم في الحياة،ويحمل اليها رسالة الاسلام،

---

(١) عن كتاب التربية الاسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الاسلامية للشيخ أبي الحسن الندوى ،ص ٤٠

ويجب أن يعلم المسلمون أنهم في اليوم الذى يستطيعون ان يقيموا هذا الدين على حقيقته خالصا لله تعالى ويرتفعون الى مستواه الرفيع في واقع حياتهم ويمثلونه حق تمثيل ، سيصبحون قوة عظيمة تحسب لها أمم الأرض ألف حساب ويملكون ان يتقدموا بدعوة الاسلام ويحملوا رسالته الى البشرية . ومالا شك فيه أن الامم الاوربية لا يمنعها من قبول الاسلام واعتناق عقيدته الا روح العداء والحقد والكبر والغرور المتأصلة في أعماق قلوب الغربيين ، ولكنها اليوم بالاضافة الى ذلك محجوبة عن رؤية حقيقة الاسلام مصدودة عن قبول هذا الدين منفرة من اعتناق عقيدته بماتراه من واقع المسلمين المتدهور وحالتهم السيئة المنحطة .

ومهما نجح المسلمون في ابراز جوهر الاسلام في صورة قوية ناصعة جذابة أمام الامم الغربية فان الواقع السيء المزرى الذى يعيشونه في أنحاء المجتمعات الاسلامية يعمل عمله في تنفير الأوربيين من قبول دعوة الاسلام ، لأن حالهم يشبه حال انسان قام يتحدث عن كنوزه وأمواله الوفيرة وقصوره الشاهقة وعيشته الرغيدة ولكن حين نظر اليه الناس رأوا فيه مظاهر البوس والفقر والجوع وهو يمد يد المسألة الى الناس الغادين والرائحين ، أفلا يكون في حاله هذه ماينافض دعواه ويجلب عليه المسبة والسخرية .

ان وضع دعوة الاسلام اليوم يشبه وضعها في أول عهدها في الموقف الحرج الذى كان يعيشه الناس عند ظهور هذه الدعوة بكل ملابسات هذا الموقف وسماته ومظاهره واوضاعه في الحياة الجاهلية . وليست الأوضاع القائمة اليوم في الحياة البشرية في ظل الحضارة الغربية المادية اللادينية بأقل سوءا من الاوضاع التي كانت قائمة في الحياة الجاهلية عند قيام دعوة الاسلام في عهدها الاول . ولقد استدار الزمان اليوم كهيئته يوم ذاك وأصبحت المجتمعات البشرية تعيش في جاهلية جهلاء وعادت البشرية الى الوثنية والكفر والالحاد مرة أخرى . وعاد الاسلام غريبا كما بدأ حتى بين أهله وفي المجتمعات التي تحمل اسمه - وقامت حاجة البشرية الى ظهور دعوة هذا الدين مرة أخرى لاخراج الناس من الظلمات

الى النور وهدايتهم الى الصراط المستقيم. ويجب على المسلمين أن يعلمـــوا
أنهم اليوم على مفترق الطرق فاما ان يظلوا في انحرافهم عن جادة الحق وبعدهم
عن حقيقة الدين ونبذهم لهدى الله ومنهجه للحياة وراء ظهورهم ويواصلوا سيرهم
في ذيل احدى القافلتين الغربية والشرقية ويتجهوا وجهتها في الحياة ويخلدوا
الى الأرض ويتنكروا للقيم والمثل العليا ويتكالبوا على عرض الحياة وينكبوا على
شهواتها وملذاتها ومطامعها ويتنافسوا على أعراض الدنيا التافهة وحطامها الفاني
فيلهيهم ذلك عن ذكر الله تعالى وعن مهام الأمور وعظائمها كما حدث لمن كان
قبلهم ، فتقودهم القافلتان الغربية والشرقية الى الهاوية التي هي مصيرهما
المحتوم فيبقى العالم جاثما في الوهدة التي أصبح يتردى فيها منذ قرنين من الزمن
واما أن يرجعوا الى حقيقة الاسلام يطبقونها في حياتهم الروحية والفكرية والسياسية
والاقتصادية والاجتماعية ويقيمون على أسس عقيدته الخالصة نهضة بناءة قوية في
العالم الاسلامي فيحققوا دعوة الاسلام واهدافه في ذوات انفسهم وفي داخل
مجتمعاتهم وينعموا بالحياة الطيبة السعيدة ثم ينهضوا لاخذ العدة اللازمة ماديا
ومعنويا لاداء مهمتهم الانسانية في خدمة البشرية وينطلقوا لنشر دعوة الاسلام في
الآفاق ، يجاهدون في سبيل ذلك بأموالهم وانفسهم، ويضحون بكل مايحرص عليه
الناس من الشهوات والمصالح والامال حتى تتخلص البشرية من أوضار الجاهلية
وينهض العالم من عثاره وترفع عن الناس الاصار والأغلال التي كانت عليهم وتزول
الفتنة والظلم والجور ويكون الدين كله لله ويرفل الناس في ثوب الامن والاستقرار
والسلام . وكما كانت دعوة الاسلام قوية في العهود الاسلامية الزاهرة فهي اليوم
وغدا قوية لان عناصر القوة الحقيقية كامنة في طبيعة هذا الدين ذاته . ولكن
المسلمين لن يستطيعوا اليوم أن يثبتوا كيانهم المستقل وشخصيتهم المتميزة ويعيدوا
مكانتهم اللائقة بهم في العالم ويحققوا الانتصار والسيادة على الامم الا بالايمان
العميق بهذا الدين والتمسك بتعاليمه واقامة شئون الحياة على دعائم عقيدته
وشريعته والجهاد في سبيل الله لاعلاء كلمة الله وتمكين دينه في الارض والقيام

بعمل مخطط وكفاح مرير وجهاد كبير لتحقيق رسالة الاسلام في العالم وانقاذ البشرية من الانهيار والانحلال والدمار .

وحين يتم للمسلمين العود الصحيح الى حقيقة الاسلام يقيمونها في واقع حياتهم ، فان ذلك سيمنحهم القدرة على بناء مجتمعهم على دعائم الحق والعدل في شئون الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها ويوفر لهم وسائل راحة النفس والامن والاستقرار في داخل المجتمع ويضمن اتجاه الحياة فيه نحو الوجهة الصحيحة التي تحقق الخير وتنشر الفضيلة بين الناس ، وليس ذلك فقط بل سيمنح العالم ايضا الامن السلام ويدرء عن البشرية اخطار الحضارة الغربية المادية اللادينية ولوثاتها وينقذها من الساعة الرهيبة التي تنتظرها ويجنبها الكارثة التي تهددها اليوم بالدمار والهلاك في حرب عالمية ثالثة .

فالامة الاسلامية منذ أن برزت للوجود تحمل للعالم وللبشرية رسالة سامية تهدى الى الحق والعدل والخير والفضيلة ، وقد أنيطت بهذه الامة مهمة قيادة البشرية وريادتها ومراقبة سيرها في الحياة وهدايتها الى مافيه الخير والصلاح فهي مكلفة بذلك من قبل الله تعالى ومسئولة عنه امامه تعالى . " وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . . (١)" " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . . " (٢)

فعليها ان تعود الى حمل مسئوليتها كما حملتها مرة من قبل ، فيتحقق الخير لها وللبشرية كافة ، وتكون هذه الامة قد حققت وجودها وأدت رسالتها ، وفازت بالفلاح المرجو لها في دنياها وآخرتها .

---

(١) سورة البقرة : آية (١٤٣)
(٢) سورة آل عمران : آية (١١٠)

الخاتمـــة

عرضنا في ثنايا هذا البحث لبيان عناصر تكوين الجيل الاول من المسلمين وتوضيح أسس بناء المجتمع الاسلامي الأول المثالي واستعراض نماذج عملية ممتـــازة من الحياة الاسلامية الصحيحة التي عاشها المؤمنون الاوائل في عهد الاســـــلام الزاهر ثم تتبعنا بعد ذلك سير حياة الامة الاسلامية عبر عهودها المختلفة وبينا ماوقع فيها من انحرافات متعددة من الناحيتين التصورية والسلوكية ، وقد أوضحنـــــا أن ذلك الانحراف بدأ صغيرا وفي حيز ضيق من حياة الامة ثم أخذ في التســـرب والتوسع والتعدد والانتشار على مر الأجيال والعصور حتى جاءت القرون الاخـيرة التي فقدت فيها هذه الامة مقومات حياتها الاساسية وضاعت شخصيتها المتميـــزة وضعفت قوتها وسلطانها وآل امرها الى اضمحلال ذاتي وذل وهوان وضعـــف وتخلف على نحو ماتقدم شرحه وتفصيله . ثم بعد ذلك أكدنا الحاجة الى العـودة الى الاسلام في صورته التطبيقية السليمة كما بينا طريق الخلاص وسبيل الاصـــلاح لاقامة حياة اسلامية صحيحة وبناء مجتمع اسلامي قويم . ولكننا نريد أن نوضـــح حقيقة مهمة في هذا الصدد هي أن ماشرحناه في خط الانحراف على طول تاريـخ هذه الأمة بعد فترة الخلافة الراشدة وبخاصة في القرون الثلاثة الأخيرة ليـــس دليلا على فشل النظام الاسلامي أو صعوبة تطبيقه في واقع الحياة أو استحالـــة بقاء المجتمع المسلم على قوته ورفعته فترة طويلة من الزمن ، لان كل ماحدث فـــي حياة هذه الامة في عصور انحطاطها وتدنيها ان هو الا أعراض تنتاب أي جماعـــة وأدواء ومشكلات يجب أن توضع في الحسبان وتتخذ الضمانات اللازمة لمنع حدوثهـا وسد منافذها كما يجب أن تتخذ الحلول المناسبة في حالة وقوعها لمعالجتهـــا والقضاء عليها واجتثاث جذورها من المجتمع ، وذلك لماعرف أن الشر دائمـــا يتعقب الخير أينما كان وأن رياح الاهواء والشهوات والاطماع كثيرا ماتهـــب لتعصف بالمثل والمبادئ والقيم الاصيلة وتمحو آثارها الطيبة في كل جيـــل

وقبيل . فان قيام المجتمع المسلم الأول على الأسس والقيم الاسلامية ونجاحه في اقامة منهج الحياة الاسلامية الصحيحة في واقع الحياة حقيقة واقعة لا يملك أحد انكارها ، وقد استطاع الجيل الاول من المسلمين أن يقيم في خلال فترة قصيرة من الزمن صورة صحيحة للحياة الاسلامية لاتزال مثلا اعلى للاجيال الاسلامية من بعده لتحاول الارتقاء الى المستوى الرفيع الذى بلغه في التطبيق العملى للاسلام عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة . وهذه الفترة على قصرها تدل دلالة واضحة على تجربة عملية كاملة اقيمت في واقع الحياة لاقامة هذا الدين وتطبيق قيمه وتعاليمه وتوجيهاته في الأرض ، كما تدل على ذلك ايضا بعض الفترات المتقطعة في تاريخ هذه الامة بلغت فيها جماعات من المسلمين أو افرادهم مستوى رفيعا في هذا المجال وان كان دون الذروة العالية التى ارتقى اليها الجيل الأول .

ونخلص من ذلك كله لنقول :

أولا : ان العناصر والمقومات التى أخرجت الجيل الاول المتفرد في تكوينه الفكرى والاخلاقى وسلوكه العملى في الحياة وأخرجت من الأجيال الاسلامية التى جاءت بعده في العصور الاسلامية الزاهرة أفرادا وجماعات كانوا نماذج ممتازة وأمثلة رائعة في التقوى والصلاح والاستقامة ، هذه العناصر والمقومات ليست خاصة بهؤلاء المؤمنين الأولين وانما هى عناصر دائمة باقية في كل جيل وقبيل وفي كل مكان وزمان ، فكما وجدت في العهد الأول من دعوة الاسلام بكل قوتها وحيويتها وفعاليتها فهي توجد اليوم وغدا بنفس القوة والحيوية والفعالية ، وذلك لأن من خصوصية رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أنها رسالة خاتمة باقية الى يوم القيامة اذ لانبى بعده ، وان طبيعة خاتمية رسالته صلى الله عليه وسلم تحتم بقاء هذه العناصر محفوظة مصانة بكامل قوتها وحيويتها وفعاليتها ، كما يدل على ذلك اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم بأن هذه الامة بسبيل بعث يتجدد على مر الأجيال والعصور لاصلاح دينها وحفظ كيانها وعزتها ورفع شأنها في العالمين . يقول عليه الصلاة والسلام : " ان الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من

يجدد لها دينها (١) " ولا يتحقق هذا التجديد والاصلاح الا حين تكون عناصر التكوين وعوامل القوة للأمة الاسلامية دائمة باقية ،فالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة موجودان بين ظهرانينا باقيان الى يوم القيامة ، قد تكفل الله تعالى بحفظهما بصورة قاطعة ظاهرة قال الله تعالى :" انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (٢) " لقد بقى القرآن الكريم محفوظا كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم بحرفه ولفته لم تنله يد التغيير والتبديل والتحريف على مر العصور والاجيال وكذلك السنة المطهرة فهى الاخرى قد حفظت بارادة الله ومشيئته وهى بين أيدينا محفوظة مدونة محققة ومشروحة مبينة . وأما القدوة العملية الحسنة المتمثلة في شخصية الرسول الفذة وأثرها البالغ في تنشئة الجيل الأول ، فهى أيضا باقية بصورة واضحة متمثلة في ملامح شخصيته عليه الصلاة والسلام الموضحة في سيرته العطرة . ولئن كان وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بشخصه الكريم لم يتحقق الا للجيل الاول الذى رباه على عينه والذى أخذ القدوة العملية منه صلى الله عليه وسلم مباشرة فان سيرته العطرة قد حفظت غضة طرية بكل تفصيلاتها الدقيقة كما لم تحفظ سيرة رسول ولا نبى من قبل . فحين نقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بتمعن وتعمق وتفكر وتدبر نكون وكأننا نعيش معه لحظات حياته الطاهرة وفي ذلك تتحقق الاسوة الحسنة لمن يريد . لقد حفظ الله تعالى السيرة النبوية في صورتها التفصيلية الشاملة لحياته صلى الله عليه وسلم لتبقى ملامح شخصيته الفذة محفوظة باقية ولتكون للمسلمين النموذج الكامل الدائم الذى يكون لهم فيه الأسوة الحسنة .

ثانيا : ان الاسس الركيزة التى بنى عليها المجتمع المسلم الأول هى القيم والمبادىء والمفاهيم الاسلامية الاصيلة التى وضعها الاسلام لبناء المجتمع الصالح.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الملاحم ، باب ماذكر في قرن المائة ٤ / ١٠٩ عن ابى هريرة رضى الله عنه .

(٢) سورة الحجر : آية (٩)

وهذه القيم والمبادئ والمفاهيم عامة وشاملة وهي دائمة وباقية ، وهي معروضة مبذولة لكل من قبل دعوة الاسلام واعتنق عقيدته ودخل في زمرة المسلمين الى ان يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . وميزة الجيل الأول أن أفراده كانوا على ايمان عميق بالله تعالى وعلى ادراك تام وفهم صحيح لحقيقة الاسلام عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة كما كانوا على معرفة تامة بالتبعات الضخمة التي يلقيها على عواتقهم ايمانهم بهذا الدين ، وكان من حصيلة هذا الايمان العميق وهذا الفهم الصحيح وهذه المعرفة الحقة ماكان منهم من الاستعداد الحقيقي لاقامة هذا الدين والجدية الفائقة في تطبيق قيمه وتعاليمه وتوجيهاته تطبيقا عمليا صحيحا في جميع شئون حياتهم، لقد عاشوا هذه القيم والمبادئ والمفاهيم الاسلامية بالفعل وترجموها الى واقع عملي مشهود في حياتهم وحققوا في ذوات أنفسهم صورا عالية خالدة في الايمان والتقوى والصلاح والتطهر الخلقي واقاموا دعائم الحق والعدل في الأرض ونشروا الخير والفضيلة بين عباد الله حتى أصبحوا قمما سامقة في تمثيل هذا الدين وفي تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى واستحقوا بفضل الله وتوفيقه لهم أن يكونوا أئمة الهدى والرشاد وقادة الأمم وسادة العالم والقوة العليا التي تهيمن على البشرية وتقودها في ظل هدى الله ونوره ومنهجه الى الصراط السوي . ومن خلال ما أوضحناه من السمات الأساسية البارزة لواقع حياة المجتمع المسلم الأول وما بلغه المؤمنون الاوائل من الذروة العالية في اقامة هذا الدين وتطبيق تعاليمه وقيمه واقامة دعائم الحق والعدل في الأرض علمنا أن عافية هذه الأمة قد جعلت في أولها ، كما علمنا من خلال تتبعنا لسير حياة هذه الامة عبر عهودها المختلفة أن آخر هذه الأمة قد اصابه شر عظيم بما وقع في حياة المسلمين من انحرافات متعددة منذ العهد الأموي حتى جاءت القرون الثلاثة الاخيرة التي بعدت فيها الشقة بين المسلمين وحقيقة الدين ومفهومه الصحيح الشامل . وقد كانت نتائج ذلك سيئة للغاية وعواقبه وخيمة وبخاصة في خلال القرنين الاخيرين حيث فقدت الأمة الاسلامية مقومات

حياتها الأساسية وضاعت شخصيتها المتميزة وضعفت قوتها وسلطانها وفقدت عزتها ومكانتها وآل أمرها الى ضعف وذل وهوان وتخلف ، وأصبح المسلمون رغم كثرتهم العددية الهائلة غثاء كغثاء السيل لا وزن لهم ولا قيمة في ميزان القوى العالميــة ، وقد انفلت زمام القيادة البشرية من أيديهم وتحول الى يد الغرب الذى يقــود العالم اليوم بحضارته المادية اللادينية الى الهلاك والدمار .

وعلى ضوء ماسبق ولكى نعطى صورة عامة شاملة للمجتمع المسلم الصحيــح ونستجلى السمات الأساسية للحياة الاسلامية الصحيحة فسجل هذه النقاط التالية :

أولا : ان المحور الأساسى الذى يجب أن تدور عليه حياة الفرد النفسيــة والخلقية والاجتماعية وحياة المجتمع في مختلف شئونها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والحضارية هو العقيدة الصحيحة في الله تعالى واتباع هدى دينــه وتعاليمه وتوجيهاته وبذلك تكون حياة الفرد وحياة المجتمع اسلامية صحيحة .

ثانيا : ان صفة الاسلام لا تتحقق في الفرد ولا فى الجماعة ولا للمجتمع بمجــرد التحلى والتمنى والانتساب العام لهذا الدين ، ولكنها تتحقق في المجتمــع باقامة بنائه على أسس عقيدة الاسلام وقيمه وتعاليمه وتوجيهاته كما تتحقق في الفــرد والجماعة باقامة شئون حياتها كلها على هدى دين الله وشريعته ومنهجه .

ثالثا : لا يكتفى الاسلام من الفرد بعقيدة تستقر في الوجدان فحسب ولا بفكــرة يمتلىء بها ذهنه دون أن يكون لها رصيد من الواقع ، ولا بشعيرة تعبدية يؤديهــا وهى خاوية من الروح عديمة الأثر في واقع حياته ، بل يطالبه الاسلام - حـــتى يكون مسلما صحيحا - باعتناق عقيدة خالصة تقر فى قلبه ويصدقها عمله في واقــع الحياة تحقيقا لعبوديته لله وخضوعه لامره ، كما يطالبه أيضا باتجاه شامل فــي الحياة يوجه جميع شئونه فيها الى الله طاعة لامره تعالى وابتغاء لمرضاته .

رابعا : لا يكتفى الاسلام ايضا من الجماعة بمجرد كون أفرادها يعتنقون العقيــدة الاسلامية ويؤدون الشعائر التعبدية حتى يكون سلطان الاسلام هو المهيمــن

على شئون مجتمعهم وشريعة الله هي المطبقة في جميع شئون حياتهم .

خامسا : لا يكون المجتمع مجتمعا اسلاميا صحيحا حتى يقيم بناءه على ركائز الايمان بالله تعالى والخضوع لارادته وتنفيذ امره ، ويسير في شئون الحياة كلها على هدى تعاليم دين الله ومنهجه القويم للحياة الانسانية ، ويقيم الحق والعدل بين الناس ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويسعى بجد ونشاط لتحقيق الخير والصلاح ونشر الفضيلة بين عباد الله . حتى تقوم في هذا المجتمع حياة انسانية عادلة متوازنة تتجلى فيها خصائص الفطرة الانسانية السليمة ويتسق نمط هذه الحياة وطريقتها مع موقع الانسان من الكون ومهمته ودوره في الحياة بحيث تتحقق فيها العبودية الخالصة لله تعالى وحده لا شريك له .

سادسا : ان المجتمع المسلم لا يلتزم بالقيم والمبادىء الاسلامية الاصيلة في توجيه حياته كلها الى الله وتسيير دفتها على هدى دينه وشريعته ليصلح شئونه ويقوم اوضاعه الاجتماعية الفاسدة في داخل حدود بلاده فحسب بل يجب عليه أن يستجيب لنداء الواجب الانساني الملقى على عاتقه تجاه المجتمعات البشرية التي يشقى فيها الناس بجهل وظلم وضلال ، ويعيشون فيها في فساد وفوضى وهلاك ، ليدعوهم الى الله ويرشدهم الى الخير والصلاح ، لاقرار الأمن والسلام في الأرض ورفع الاصر عن المستضعفين ، وفك الاغلال عن المستعبدين ، وانقاذهم من العبودية للبشر وازالة التقاليد والعادات والانظمة الظالمة التي يفرضها الطغاة على رقاب الناس ، والقضاء على الاوهام والخرافات والاساطير التي تسيطر على نفوس الناس ثم توجيههم بعد ذلك الى عبادة الله تعالى رب العالمين

سابعا : يجب على المسلمين اليوم ان يراجعوا انفسهم ويراجعوا دينهم ليعرفوا مدى صدقهم في دعواهم الاسلام ، وهل هم مسلمون صادقون مع الله ومع انفسهم ام هم ادعياء محسوبون على الاسلام ؟ يجب عليهم ان يتفهموا المقومات الاساسية للحياة الاسلامية الصحيحة التي أقامتها الامة الاسلامية في واقع الارض فترة قوتها وعزتها ونهضتها الحقيقية ، وأن يتبينوا خط الانحراف في تاريخ حياة

هذه الأمة ليقفوا على أسبابه ومظاهره وآثاره البالغة التى ادت الى انهيار قوة هذه الامة وزوال سلطانها وذبول حضارتها . وليعلموا يقينا أن طريقهم للخلاص مما يعانونه وسبيلهم لإصلاح حالهم المتدهور انما هو العودة إلى دين الله وشريعته ومنهجه ، فلن يستطيعوا أن يحققوا وجودهم الذاتى وشخصيتهم المتميزة ويعيدوا مجدهم وعزتهم ودورهم القيادى بين البشرية الا بالعودة الى هذا الدين يطبقون قيمه وتعاليمه وتوجيهاته في شئون حياتهم كلها ويقيمون بناء مجتمعهم على اسس عقيدته وشريعته ومنهجه القويم للحياة البشرية . " يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير" . (١)

ألم يأن للمسلمين أن يدعوا التوانى والتكاسل والاخلاد إلى الراحة والمتاع وايثار الحياة الدنيا على الاخرة والانكباب على حطامها وزخارفها واتباع الاهواء والشهوات وإلهاء أنفسهم بالامال المريضة والتمنى على الله الأمانى المعسولة . ألم يأن لهم أن ينهضوا بعزيمة صادقة واستعداد حقيقى لتحقيق هذا الدين في ذوات أنفسهم والارتقاء إلى مستواه الرفيع في واقع حياتهم واقامته على حقيقته في مجتمعهم . ولعلهم ان يتنبهوا من رقدتهم التى طال عليهم امدها ، ويصحوا الى ماهم فيه من ضعف وهوان وتعاسة ، ولعلهم ان يرجعوا الى أنفسهم ناصحين أو محاسبين ثم يفيئوا إلى الله تعالى وإلى دينه ، فلا نجاة لهم إلا بالفرار إلى الله والاعتصام به واتباع ماأنزل الله من الهدى والنور . " يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات

---

(١) سورة الحج : آيتا (٧٧ - ٧٨)

الشيطان انه لكم عدو مبين فان زللتم من بعد ماجاءتكم البينات فاعلموا ان الله عزيز حكيم " (١) " يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم" . (٢) "ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون (٣)

والله الهادي والموفق الى صراطه المستقيم .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) سورة البقرة آيتا (٢٠٨ - ٢٠٩)
(٢) سورة آل عمران آيات (١٠٢ - ١٠٥)
(٣) سورة الحديد آية (١٦)

المـراجـع

(رتبت هذه المصادر حسب الترتيب الابجادي لاسماء الكتب التي وردت في ذيل صفحات هذا البحث مع عدم اعتبار الملحقات مثل (ال، ابن، ابو...) ولم نذكر في هذه القائمة المراجع الاخرى التي اسهمت بطريق غير مباشر.)

١- الاتجاهات الفكرية عند العرب ، علي المحافظة ، بيروت ط ٣ سنة ١٩٧٥م .

٢- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، د /محمد محمد حسين القاهرة ط٢ سنة ١٩٧٢م

٣- أحمد لطفي السيد ، حسين فوزي النجار في سلسلة اعلام العرب ، القاهرة

٤- احياء علوم الدين ، أبو حامد محمد الغزالي ، القاهرة ، مؤسسة الحلبي سنة ١٣٨٧هـ

٥- أخبار مكه وما جاء فيها من الآثار ، الأزرقي ، تعليق رشدي صالح ، مكه المكرمة ، المطبعة الماجدية .

٦- اختاروا احدى السبيلين . . . ، الاستاذ محمد ناصر ، تو زين العابدين الركابي ، ط ٢ سنة ١٣٩٧هـ ، جدة

٧- الاخوان المسلمون كبرى الحركات الاسلامية ، د /اسحاق موسى الحسيني بيروت ط٣ سنة ١٩٥٥م .

٨- الاخوان المسلمون والجماعات الاسلامية . . ، د /زكريا سليمان بيومي ، القاهرة ، مكتبة وهبة .

٩- الاخوان المسلمون والمجتمع المصري ، محمد شوقي زكي القاهرة سنة ١٩٥٤م .

١٠- أسباب سعادة المسلمين وشقائهم ، محمد زكريا الكاند هلوي ، ت سعيد الأعظمي الندوي ، القاهرة ط ٣ سنة ١٣٩٨هـ .

١١- أسد الغابة . . . ، ابن الاثير ، تحقيق محمد عاشورومحمد ابراهيم البنا ، القاهرة ، دار الشعب .

١٢- الاسلام انطلاق لا جمود ، مصطفى صادق الرافعي ، بيروت سنة ١٩٥٩م .

١٣- الاسلام الصحيح ، السعيد بن محمد الشريف الزواوي ، القاهرة مطبعة المنار.

١٤- الاسلام ظهوره وانتشاره ، حامد عبد القادر ، القاهرة ط ٣ دار نهضة مصر .

١٥- الاسلام على مفترق الطرق ، محمد اسد ، ت . د /عمر فروخ بيروت ط ٢ دار العلم للملايين .

١٦- الاسلام فى حل مشكلات المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، د /محمد البهى ، القاهرة ط ٢ سنة ١٣٩٨هـ .

١٧- الاسلام فى الغرب، جان بولبوت - ترجمة ماجر وزميله،القاهرة ١٩٦٠م .

١٨- الاسلام فى القرن العشرين . . . ، عباس محمود العقاد بيروت ط ٢ ١٩٦٩م .

١٩- الاسلام قوة الغد العالمية ، باول شمتز، ت د /محمد الشامة ، القاهرة ط ٢ مكتبة وهبة ١٩٧٤م.

٢٠- الاسلام المفترى عليه . . . ، الشيخ محمد الغزالى ، القاهرة ط ٦ .

٢١- الاسلام وبناء المجتمع، أحمد العسال ، الكويت ط ٢ دار القلم ١٣٩٧هـ .

٢٢- الاسلام والجاهلية ، ابو الأعلى المودودى ، بيروت ، دار الفكر الحديث .

٢٣- الاسلام والحضارة العربية ، محمد كرد على ، القاهرة ط ٣ سنة ١٩٦٨م .

٢٤- الاسلام والطاقات المعطلة ، الشيخ محمد الغزالى ، القاهرة ط ٢ دار الكتب الحديثة .

٢٥- الاسلام والعالم المعاصر انور الجندى ، بيروت دار الكتاب اللبنانى سنة ١٣٩٣هـ

٢٦- الاسلام والقوى المضادة ، د /نجيب الكيلانى بيروت مؤسسة الرسالة ١٤٠٠هـ .

٢٧- الاسلام اليوم ، أبو الاعلى المودودى الكويت ط ٢ دار القلم ١٣٩٧هـ .

٢٨- الاصابة فى تمييز الصحابة ، الحافظ ابن الحجر العسقلانى بيروت، دار احياء التراث الاسلامى .

٢٩- الأصنام ، هشام بن الكلبى ، القاهرة .

٣٠ الأغانى ، أبو الفرج الأصفهانى ، بيروت دار الثقافة ط ٣

٣١- الى الاسلام من جديد ، أبو الحسن على الحسنى الندوى دمشق ط ٤ سنة ١٣٩٩هـ

٣٢- أم القرى ، عبد الرحمن الكواكبى ، حلب ، المطبعة العصرية ١٣٩٨هـ .

٣٣- أيام لها تاريخ ، أحمد بهاء الدين ، القاهرة سنة ١٩٥٤م .

٣٤- ايـــن محاضن الجيل المسلم ، يوسف العظم ، جدة ط ٥ الدار السعودية .

٣٥- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير بيروت ط ٢ ١٩٧٧م .

٣٦- التاج في أخلاق الملوك ، الجاحظ ، تحقيق أحمد زكي ، القاهرة المطبعة الاميرية .

٣٧- تاريخ الأمم والملوك الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة دار المعارف .

٣٨- تاريخ التشريع الاسلامي الشيخ محمد الخضري ، القاهرة ط ٦

٣٩- تاريخ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، القاهرة، عيسى البابي الحلبي ١٣٩١هـ .

٤٠- تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي، بيروت .

٤١- تاريخ الدولة العلية العثمانية ، محمد فريد، بيروت، دار الجيل ١٣٩٧هـ .

٤٢- تاريخ الشعوب الاسلامية ، كارل بروكلمان ، ت منير البعلبكي ونبيه فارس، بيروت ط ٧ سنة ١٩٧٧م .

٤٣- تاريخ نجد ، محمود شكري الألوسي . تحقيق محمد بهجة ، بغداد سنة ١٣٤٣هـ .

٤٤- التبشير والاستعمار في نيجيريا (رسالة ماجستير غير مطبوعة) خضر مصطفى النيجيري كلية الشريعة ، جامعة أم القرى ١٣٩٩هـ .

٤٥- التبيان في اقسام القرآن ، ابن القيم الجوزي ، مكه المكرمة ، المطبعة الميرية سنة ١٣٢١هـ .

٤٦- التخطيط للدعوة الاسلامية ، د /علي محمد جريشة ، جدة ، دار الاصفهاني سنة ١٤٠١هـ .

٤٧- تذكرة دعاة الاسلام ، أبو الاعلى المودودي . ت. خليل أحمد الحامدي ، بيروت مؤسسة الرسالة ١٣٨٥هـ .

٤٨- التربية الاسلامية الحرة . . . ، أبو الحسن الندوي بيروت ط ٢ مؤسسة الرسالة سنة ١٣٩٧هـ .

٤٩- تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة ، د /أحمد عبد الرحيم مصطفى القاهرة ١٩٧٣م

٥٠- تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، القاهرة ، عيسى البابي الحلبي .

٥١- الثقافة الإسلامية ، (مذكرة المستوى الرابع) قسم الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى ١٣٩٦هـ .

٥٢- جامع البيان (تفسير الطبري) ابن جرير الطبري ،مصر ، عيسى البابي الحلبي ١٣٨٨هـ .

٥٣- الجامع الصحيح (سنن الترمذي) الترمذي ، تحقيق أحمد محمود شاكر ،مصر ط٢ ١٣٩٨هـ .

٥٤- جاهلية القرن العشرين ، محمد قطب دار الشروق ١٣٩٥هـ .

٥٥- جذور البلاء ، عبد الله التل ، بيروت دار الإرشاد ١٣٩٠هـ .

٥٦- الجماعة الإسلامية في سطور ، اعداد دار العروبة للدعوة الإسلامية لاهور .

٥٧- جمهرة رسائل العرب ،أحمد زكي صفوت ، القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٦هـ

٥٨- الجهاد في الإسلام مراتبه ومطالبه ، لأحمد محمد جمال ، جدة ١٤٠١هـ .

٥٩- الجهاد في سبيل الله ،أبو الأعلى المودودي بيروت ط ٧ مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ .

٦٠- حاضر العالم الإسلامي ، لوثروب ستودارد ، ترجمة عجاج نويهض ، تعليق الأمير شكيب أرسلان بيروت ط ٤ سنة ١٩٧٤م .

٦١- حد الإسلام وحقيقة الايمان ، الشيخ عبد المجيد الشاذلي ، مكة المكرمة - مطابع الصفا .

٦٢- حركة التجديد الإسلامي . . . ، د /أحمد عبد الرحيم مصطفى ، القاهرة سنة ١٩٧١م .

٦٣- الحركة السياسية في مصر . . . ، طارق البشري القاهرة سنة ١٩٧٢م .

٦٤- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري . . . ، آدم متز ، ت . محمد عبد الهادي أبو ريده القاهرة ط ٤ .

٦٥- حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ت عادل زعيتر ، القاهرة ، عيسى البابي الحلبي ١٩٦٩م .

٦٦- حكم الاسلام فيمن زعم أن القرآن متناقض ... ، الشيخ عبد العزيز بن باز ، المدينة المنورة ، مطابع الجامعة الاسلامية .

٦٧- حياة بديع الزمان سعيد النورسي ، الشيخ عبد الله الخالدي ، القاهرة .

٦٨- خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ، سيد قطب ، دار الشروق ط ٤ ١٩٧٨م .

٦٩- دراسات في حضارة الاسلام ، هاملتون جب ، ت د /احسان عباس ود /محمد يوسف نجم ود / محمود زايد ، بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٤م .

٧٠- دعوة الاخوان المسلمين ، سيد قطب ، الاسكندرية دار القادسية .

٧١- الدعوة الى الاسلام ، سيرتوماس. و. أرنولد ، تد /حسن ابراهيم حسن ود /عبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي ، القاهرة ط ٣ سنة ١٩٧٠م .

٧٢- الدعوة والدعاة واسباب التخلف ... ، على سرور الزنكلوني ، القاهرة سنة ١٣٨٧هـ

٧٣- الدولة السعودية الأولى ، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ط ٢ .

٧٤- الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، د /محمد كمال الدسوقي ، القاهرة دار الثقافة ١٩٧٦م .

٧٥- الرد الشافي على مفتريات القذافي ، رابطة العالم الاسلامي ، جدة مطابع الروضة ١٤٠٠هـ .

٧٦- الرسالة التدمرية .... ، شيخ الاسلام ابن تيمية ، القاهرة .

٧٧- رشيد رضا الامام المجاهد ، د /ابراهيم احمد العدوي سلسلة اعلام العرب (٣٣)، القاهرة .

٧٨- روح الاسلام ، محمد عطية الابراشي ، القاهرة ط ٢ دار احياء الكتب العربية .

٧٩- زعماء الاصلاح ... ، أحمد أمين ، القاهرة ، ط ٤ دار الشباب .

٨٠- سبيل الدعوة الاسلامية ، د /محمد أمين المصري ، الكويت دار الارقم ١٤٠٠هـ .

٨١- سر انحلال الامة العربية ووهن المسلمين ، محمد سعيد العرفي ، دمشق ، م بن زيدون .

٨٢- سعد زغلول ، محمد ابراهيم الجزيرى ، مصر .

٨٣- سعد زغلول يفاوض الاستعمار ، طارق البشرى ، القاهرة ١٩٧٧م .

٨٤- سنن ابى داود ، تعليق محمد محى الدين عبد الحميد ، بيروت ط ١ دار الفكر

٨٥- سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، احياء التراث العربى ط ١ سنة ١٣٩٥هـ .

٨٦- سنن النسائى ، بيروت ، دار الفكر ط ١ ١٣٤٨هـ .

٨٧- السنوسية دين ودولة ، محمد فؤاد شكرى ، القاهرة .

٨٨- السنوسى الكبير ، الطيب الأشهب ، القاهرة .

٨٩- سيرة ابن هشام (سيرة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) ابن هشام ١٩٥٩م .

٩٠- شرح العقيدة الطحاوية ، العلامة على بن على بن ابى العز الحنفى ، بيروت ط٤ المكتب الاسلامى .

٩١- " الشيخ محمد بن عبد الوهاب ... " ، الشيخ أحمد بن حجر آل ابو طامى ، مكة المكرمة ، مطبعة الحكومة

٩٢- صحيح الامام البخارى ، الامام محمد بن اسماعيل البخارى ، تركيا ، المكتب الاسلامى .

٩٣- صحيح الامام مسلم بشرح النووى ، القاهرة ، المطبعة المصرية .

٩٤- الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، أبو الحسن الندوى ، القاهرة .

٩٥- الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، بيروت دار صادر ١٣٧٧هـ .

٩٦- الطريق الى حكم اسلامى ، محمد على الضناوى ، طرابلس ١٣٩٠هـ .

٩٧- ظهور الاسلام وسيادة مبادئه ، عبد الحميد بخيت ، القاهرة ط ٢ دار المعارف ١٩٦٧م .

٩٨- العالم الاسلامى .... ، عمر رضا كحالة ، دمشق ، المكتبة الهاشمية ١٣٧٧هـ .

٩٩- العبودية ، شيخ الاسلام ابن تيمية تحقيق عبد الرحمن البانى بيروت ط ٥ المكتب الاسلامى ١٣٩٩هـ .

١٠٠- العدالة الاجتماعية فى الاسلام ، سيد قطب بيروت دار الشروق ط ٦ سنة ١٩٧٩م .
١٠١- عصر المأمون ، أحمد فريد رفاعى ، القاهرة دار الكتب المصرية ١٣٤٦هـ .
١٠٢- العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، القاهرة .
١٠٣- العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها . . . ، سفر عبد الرحمن الحوالى ، مكة المكرمة ط ١ دار مكة للطباعة .
١٠٤- عناصر القوة فى الاسلام ، السيد سابق ، بيروت ط ٢ دار الكتاب العربى ١٩٧٣م
١٠٥- العواصم من القواصم . . . ، القاضى ابو بكر بن العربى ، تعليق محب الدين الخطيب ، ط ٣ القاهرة ، مكتبة السلفية .
١٠٦- الغارة على العالم الاسلامى ، ا.ل شاتليه ، لخصها وترجمها محب الدين الخطيب ومساعد اليافى ط ٢ جدة ١٩٨٧م .
١٠٧- الغرب والشرق الاوسط ، برنارد لويس . ت . نبيل صبحى ، بيروت ١٩٦٥م .
١٠٨- الغزو الفكرى ، محمد جلال كشك ط ٤ القاهرة ١٩٧٥م .
١٠٩- الغزو الفكرى فى العالم العربى ، عبد الله عبد الجبار جدة ، ط ٣ مطابع الروضة
١١٠- الغزو الفكرى واثره فى المجتمع الاسلامى المعاصر ، د /على عبد الحليم محمود ، الكويت ١٣٩٩هـ .
١١١- الغزو الفكرى والتيارات المعادية للاسلام ، د /عبد الحميد متولى ، الاسكندرية ، ١٩٧٧م .
١١٢- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، مراجعة وتصحيح وتعليق الشيخ عبد العزيز بن باز المدينة المنورة ، المكتبة السلفية ط ٥ سنة ١٣٩١هـ .
١١٣- فتوح البلدان ، احمد بن يحى البلاذرى ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، القاهرة ١٣٥٠هـ .
١١٤- فجر الاسلام ، احمد أمين ، بيروت ط ١٠ دار الكتاب العربى سنة ١٩٦٩ م .
١١٥- الفخرى . . . ، ابن طباطبا (محمد بن على) بيروت ، دار صادر ١٣٨٦هـ .

١١٦- الفرق بين الفرق ، عبد القاهر البغدادى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة .

١١٧- الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، د / محمد البهى ، القاهرة ط ٨ نشر مكتبة وهبة .

١١٨- الفكر الاسلامى دراسة وتقويم ، غازى التوبة ، بيروت ١٩٧٧م .

١١٩- الفكر الاسلامى في تطوره ، د / محمد البهى ، بيروت ، دار الفكر ١٩٧١م

١٢٠- الفوائد ، ابن قيم الجوزية ، مكة المكرمة ،مكتبة النهضة العلمية .

١٢١- فى موكب الدعوة ، الشيخ محمد الغزالى ، القاهرة ط ٤ ، دار الكتب الحديثة ١٩٦٥م .

١٢٢- قادة الغرب يقولون دمروا الاسلام ... ، جلال العالم بيروت ط ٢

١٢٣- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ،شيخ الاسلام ابن تيمية ، القاهرة

١٢٤- قذائف الحق ، الشيخ محمد الغزالى ، بيروت ط ٣ سنة ١٩٧٧م

١٢٥- القرآن والمجتمع ،د / محمد البهى ، القاهرة ،مكتبة وهبة ١٣٩٦هـ

١٢٦- قضية ليبيا ، محمود الشنيطى ، القاهرة

١٢٧- القومية العربية في ضوء الاسلام (رسالة ماجستير غير مطبوعة) صالح العبود ، كلية الشريعة ، جامعة أم القرى ، ١٣٩٨هـ .

١٢٨- الكامل في التاريخ ،ابن الاثير ، بيروت ط ٢ دار الكتاب العربى ١٣٨٧هـ

١٢٩- الكتاب المصنف في الأحاديث والاثار ، الحافظ ابو بكر بن ابى شيبة ، الهند ،الدار السلفية ١٤٠٣هـ .

١٣٠- كشف الخفاء ، اسماعيل بن محمد العجلونى ، تعليق احمد القلاش ، بيروت مؤسسة الرسالة ط ٣ سنة ١٤٠٣هـ .

١٣١- كيف نفهم الاسلام ، الشيخ محمد الغزالى ،القاهرة ، دار الكتب الحديثة .

١٣٢- لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ،الامير شكيب ارسلان ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ١٩٦٦م .

١٣٣- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوى ،القاهرة، ط ١١ ،دار الانصار .

١٣٤- مبادئ الاسلام ، ابو الاعلى المودودى ، ت . محمد عاصم الحداد ، بيروت ، موسسة الرسالة ١٤٠٠هـ .

١٣٥- المجتمع الاسلامى ،د / محمد أمين المصرى ، ط ١ الكويت دار الأرقم

١٣٦- المجتمع الاسلامى أسس تكوينه ... ، د / احمد شلبى ط ٢ ، القاهرة مكتبة النهضة المصرية .

١٣٧- المجتمع الاسلامي أهدافه ... ، د / مصطفى عبد الواحد ، بيروت ، ط ٢ دار الجيل ١٣٩٤هـ

١٣٨- المجتمع الاسلامى في ظل العدالة ، صلاح الدين المنجد بيروت ،دار الكتاب الجديد ١٩٦٩م .

١٣٩- المجتمع الاسلامى المعاصر ، محمد المبارك ، بيروت ط ١ دار الفكر ١٣٩٢هـ

١٤٠- مجمع الزوائد ، الحافظ نور الدين الهيثمى ، بيروت ،ط ٣ ، دار الكتاب العربى ١٤٠٢هـ .

١٤١- مجموعة رسائل الامام الشهيد ، حسن البنا ، بيروت ،دار القلم ١٩٦٥م

١٤٢- مجموع فتاوى ، شيخ الاسلام ابن تيمية ، ط ١ مطابع الرياض .

١٤٣- محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ، الشيخ محمد الخضرى ، القاهرة ، ط ٦ ، المكتبة التجارية ، ١٣٧٠هـ .

١٤٤- كتاب محمد بن عبد الوهاب " لأحمد عبد الغفور ، جدة .

١٤٥- مختصر دراسة للتاريخ ، ارنولد توينبى ،ت. فوءاد محمد شبل ، القاهرة ، ١٩٦١م .

١٤٦- المخططات الاستعمارية ... ، محمد محمود الصواف ، القاهرة ، ط ٣ سنة ١٣٩٩هـ .

١٤٧- مدارج السالكين .. ،ابن قيم الجوزية ،تحقيق محمد حامد فقى ، القاهرة ، ط ٤ ، سنة ١٣٧٥هـ .

١٤٨- مذكرات الدعوة والداعية ،حسن البنا ، القاهرة ، دار الشهاب ١٩٦٦م

١٤٩- مروج الذهب... ، المسعودي تحقيق محب الدين عبد الحميد ، القاهرة

١٥٠- المستدرك ،الحاكم النيسابوري - بيروت ،دار الكتاب العربي .

١٥١- مستقبل الاسلام ، د / محمد البهي ، القاهرة ، مكتبة وهبة ١٣٩٩هـ

١٥٢- المستقبل لهذا الدين ، سيد قطب ، الكويت .

١٥٣- المسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وحيد الدين خان ، ت/ ظفر الاسلام خان ، القاهرة ط ١ ،مطابع المختار الاسلامي

١٥٤- مسند الامام أحمد ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ط ٢ سنة ١٣٩٨هـ

١٥٥- مشكلات المجتمعات الاسلامية المعاصرة ،د / محمد البهي ، القاهرة مكتبة وهبة ١٣٩٩هـ .

١٥٦- مصر في الحرب العالمية الثانية ، د / عاصم الدسوقي ، القاهرة ١٩٧٦م

١٥٧- مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، عبد الرحمن الرافعي بك القاهرة

١٥٨- معالم في الطريق ،سيد قطب ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٦٤م .

١٥٩- معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، القاهرة ، مطبعة السعادة .

١٦٠- معركة المصحف ... ، الشيخ محمد الغزالي ،القاهرة ، ط ١ ، دار الكتب الحديثة ١٩٦٤م .

١٦١- مفاهيم اسلامية ... ، ابو الاعلى المودودي - ت خليل احمد الحامدي ، دار العروبة للدعوة الاسلامية لاهور -

١٦٢- المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ،د / جواد علي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٠م .

١٦٣- مقالات الاسلاميين ، أبو الحسن الاشعري تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية .

١٦٤- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ،أحمد ابراهيم الشريف ،القاهرة ط ٢ ،سنة ١٩٦٥م .

١٦٥- منهاج السنة النبوية ... ، شيخ الاسلام ابن تيمية ، بيروت

١٦٦- من هنا نعلم ، الشيخ محمد الغزالى ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ط ٦

١٦٧- مواقف الاسلام ، محمد الحبيب ابن الخوجة تونس ١٩٧٩م .

١٦٨- موسوعة التاريخ الاسلامى ... ، د / احمد شلبى ، القاهرة ط ٨ مكتبة النهضة المصرية .

١٦٩- موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه وواقع المسلمين ... ، ابو الاعلى المودودى ت ـ محمد كاظم سباق ومحمد عاصم الحداد ، ط ٣ ، بيروت ، ١٣٨٦هـ .

١٧٠- نابليون بونابرت في مصر ، احمد حافظ عوض ، القاهرة ، مطبعة مصر ١٩٣٥م .

١٧١- نابليون المسلم ، احمد جل الوحيد ، ط ١ بيروت

١٧٢- نظام الاسلام (العقيدة والعبادة) الشيخ محمد المبارك ، بيروت ، دار الشروق ١٣٩٧هـ .

١٧٣- نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر سيد قطب ، دار السعودية ١٣٨٩هـ

١٧٤- هذا ديننا ، الشيخ محمد الغزالى ، القاهرة ط ٣ دار الكتب الحديثة ١٣٦٥هـ .

١٧٥- هل نحن مسلمون ؟ الشيخ محمد قطب ، بيروت دار الشروق ط ٤

١٧٦- وسائل مقاومة الغزو الفكرى في العالم الاسلامي ، د / حسان محمد حسان ، جدة دار الاصفهانى ١٤٠٠هـ .

١٧٧- يسألونك عن المهدية ، الصادق المهدى ، القاهرة ط ٢ مطابع الاهرام التجارية ١٩٧٥م .

١٧٨- اليقظة الاسلامية في مواجهة الاستعمار ، أنور الجندى ، القاهرة ، دار الاعتصام ١٣٩٨هـ .

١٧٩- يوم الاسلام ، احمد امين ، القاهرة مواسسة الخانجى ، ١٩٥٨م